د. ليلى عنان

الحملة الفرنسية

تنوير أم تزوير؟

حلمي التوني 85

هذا الكتاب

يجدر بالقارئ العربي ، بعد مرور مائتي عام على الحملة الفرنسية ، أن يعرف ما قيل عنها عند أهلها ؛ وكيف تحولت إلى أسطورة وجدت ، من خلال أقلام المبهورين بها من الأدباء والمؤرخين ، مناخا نشأت فيه وترعرعت ، نظرا لأن بونابرت قد خلق من نفسه أسطورة ، بحيث أصبح كل ما يمسه ، أو يحكى عنه ، أسطوريا ؛ خاصة أنه جاء من ثورة كان عصرها عصر الأساطير.

هذا ما نراه تفصيليا في الجزء الذي بين أيدينا من هذه الدراسة «الحملة الفرنسية : تنوير أم تزوير ؟» والذي نعرف فيه مغزى الحملة ، كما كتبها المؤرخون حتى يومنا .

ومن ناحية أخرى ، فإن الدراسة قد تتبعت - في الجزء الثاني الذي سيصدر قريبا بإذن الله - الخيوط التي تؤدي إلى حقيقة تلك الحملة ، من أفواه شهود العيان ومؤرخيها الموضوعيين النزهاء ؛ تلك الحقيقة التي أغفلها المبهورون بالإمبراطور نابليون وأسطورته .

ويفضح الجزءان كلاهما زيف الأسطورة التي نسجت خيوطها لتصنع ما سمي تنويراً فرنسيا لمصر .

ولم تلجأ الدارسة في بحثها إلى مراجع عربية إلا فيما ندر؛ فقد كان الأهم معرفة الحقيقة التي يؤيدها التاريخ بأقلام الفرنسيين أنفسهم ، ومن خلال كتب لم يتعرف عليها القارئ العربي من قبل ، خاصة أن بعض الفرنسيين قد عملوا على طمس تلك الكتب لما تحوي من حقائق .

وبالرغم من أن المؤرخين الجدد ، قاموا بتحطيم كل الأصنام السابقة لتاريخ فرنسا، وأهمها ، أسطورة ثورة ١٧٨٩ ، وأسطورة الامبراطورنابليون ، فإنهم أصروا على أن الحملة على مصر، هي من أكثر صفحات تاريخ فرنسا مجدا. وبالتالي، فقد أصبحت الحملة على مصر، هي آخر أساطير التاريخ الفرنسي .

وترجو هذه الدراسة أن تكون قد وفقت في دحض آخر الأساطير مستندة إلى أقوال شهود عيان للحملة نفسها .

د. ليلى عنان

الحملة الفرنسية

تنوير أم تزوير؟



حلمى التونى



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة
عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٧ – ذو القعدة – مارس ١٩٩٨ No. 567-MA-1998

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير
عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

٥٠ قرش

١٥٠٠ فلس– السعودية ١٥ ريالا –
– سلطنة عمان ١,٥ ريال

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

الحملة الفرنسية
تنوير أم تزوير ؟

بقلم

أ.د. ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية

جامعة القاهرة



دار الهلال

«اذهب إلى فرعون إنه طغى. قال رب اشرح لى صدرى. ويسر لى أمرى. واحلل عقدة من لسانى. يفقهوا قولى»

صدق الله العظيم

سورة طه (آية ٢٤-٢٨)

أهدى مجهودى هذا إلى أجدادى الفلاحين :

« .. وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا، كانت شجاعتهم وتفانيهم يحلان محل الأسلحة التى افتقروا إليها.. »

«ڤيڤان دينون»

سبق للباحثة نشر : الحملة الفرنسية ، بين الأسطورة والحقيقة

دار الهلال ، ١٩٩٢

الغلاف للفنان

حلمى التونى

المقدمة

يعجب القارىء الموضوعى لتاريخ نابليون بونابرت ، للمكانة التى تبوأتها حملته على مصر فى سرد أحداث حياته الحافلة ، فالمؤرخ الفرنسى يتحدث عنها، وكأنها جسم غريب ، لا علاقة لها بما سبقها أو ما لحقها من أحداث ، وكأن لم يكن لها أثر على سياسات نابليون ، وتجاربه اللاحقة ، والعجيب فى ذلك أنها كانت ، وهذا أضعف الإيمان، السبب الرئيسى فى تكوين التحالف الأوربى الثانى ضد جمهورية فرنسا ، الذى بدأ سلسلة التحالفات الحربية ضد نابليون ؛ التحالفات التى لم تنته إلا بسقوط دولة نابليون سنة ١٨١٥ ، أى بعد الحملة بنحو خمسة عشر عاما. وعلى الرغم من اعتراف الجميع - وهو ما لا يمكن إنكاره - بأن الحملة قد فشلت فشلا عسكريا ذريعا بل فشلت أيضا فى كل أهدافها المعلنة ، فإن أحدا لم يذكر أنها كانت ، من ثم ، أولى هزائم «بونابرت القائد الذى لا يهزم» ولا يكون هذا التجاهل منطقيا إلا إذا اعتبرنا - مثلهم - الحملة جسما غريبا ، هامشيا، لا علاقة لها بباقى حروب فرنسا فى ذلك العصر ، وهو أمر جد عجيب .

من هنا، كانت ضرورة معرفة مبرراتهم - إن هم فطنوا إلى هذه الضرورة - لمثل هذا الموقف الغريب من حدث ، تؤكد أهميته غزارة ما كتب عنه بعد ذلك .

★★★

وانطلاقا مما سبق ستحاول هذه الدارسة استقراء أهم سمات تطور ما كتب عن هذه الحملة، التى عرفت في حياة نابليون - بعد ذلك - كصفحة رائعة ، تغنى بها الشعراء والفنانون .

والملاحظ أن هذا التمجيد كان يقوم ، دائما على ما يعد مسلمات لا تحتاج إلى إثبات ، كأن يقال - افتراء - إن تاريخ مصر المعاصر بدأ بدخول الجيش الفرنسى إلى الإسكندرية ، وإن المصريين انبهروا ببونابرت وجنده والحضارة التى أهدوها إليهم ، وإن الشعب المصرى مازال يتغنى بفضائلهم حتى يومنا هذا ، لأن الجنود الفرنسيين علموهم الحرية وأسس الديمقراطية ومبادئ ثورة ١٧٨٩ المجيدة ، وإن محمد على ، إن فعل شيئا ، فإنما فعله لأنه كان تلميذا لبونابرت ، وهو الذى حقق كل المشروعات التى كان بونابرت قد وضع أسسها فى السنة التى قضاها في مصر؛ فما الحملة الفرنسية إذن إلا السبب الوحيد للانطلاقة الحضارية لمصر فى القرن التاسع عشر .. الخ الخ الخ .

ولن تستطيع هذه الدراسة - بالطبع - تقديم كل ما قيل فى هذا الصدد ، خاصة أن ذلك ليس هدفها الأساسى فهدفها محاولة التعرف

على أسباب نشأة هذه الأفكار وكيفية تطورها حتى أصبحت من المسلمات التي لا تناقش !! فالدراسات التاريخية الحديثة قد دحضت الكثير مما كان المؤرخون يرددونه من قبل : لقد أصبح من المعترف به الآن مثلا، أن الحملة لم يكن لها ذلك التأثير الذى كانوا يتحدثون عنه ، ولهذا التغير الكامل في النظرة إلى الحملة ، سبب بعينه .

★★★

علينا ، حتى نفهم ما حدث بالنسبة لتأريخ فرنسا فى العصر الحديث ، وانقلابه على ما كان يقال فى الماضى أن نرجع إلى الوراء ، أن نرجع إلى عام ١٨٧٠ .

ففى ذلك العام ، حاصر الجيش البروسى عاصمة فرنسا ؛ وكانت الهزيمة النكراء ، وسقوط الامبراطور «نابليون الثالث» أكثر مما يحتمله الشعب الباريسى، فكانت «ثورة الكوميونة» سنة ١٨٧١ بعد ثورات ١٧٨٩ و١٨٣٠ و ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، وبعد هذه الأحداث العنيفة – من هزيمة نكراء إلى ثورة دموية بشعة – جاءت «الجمهورية الثالثة» لتحاول معالجة ما أصاب الشعب الفرنسى من صدمات وأهوال .

بقيت هذه «الجمهورية الثالثة» ومبادؤها ، إلى بدايات الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٠ ، وأراد المولى عز وجل أن يكون هذان التاريخان – ١٨٧٠ و ١٩٤٠ – من أخطر السهام التى أصابت الشخصية الفرنسية

فى مقتل ، ولهما - بالنسبة لنا - أهمية قصوى ، إذا ما أردنا استقراء التأريخ الفرنسى فى العصر الحديث ، وانقلابه على كل ما كان يقال سابقا .

فمن الآثار العديدة لهزيمة ١٨٧٠ ، ما قررته وزارة التعليم بعد ذلك فى الثمانينات من مناهج دراسية تستقطب الميول الثورية لدى التلميذ الفرنسى لتصنع منه جندى المستقبل ، الذى سيحارب لمجد فرنسا خارج حدودها ، فيأمن المواطن من شر عنفه الذى دائما ما يهيج الثورات .

ومنذ ذاك الحين فصاعدا يجب على المواطن الفرنسى أن يكون «حامل لواء الحضارة فى العالم» ليبتعد عن رغبة قتل أخيه فى ثورة جديدة، لذا قررت «الجمهورية الثالثة» - علاوة على أسباب أخرى - التوسع فى المستعمرات حتى ينسى الشعب الفرنسى هزيمته. فأرسلت الجيوش إلى آسيا وافريقيا والشرق الأوسط ، حتى أصبحت فرنسا الامبراطورية الاستعمارية الثانية فى العالم ، بعد الامبراطورية البريطانية .

لم يتغير منهج التدريس فى فرنسا لعقود عديدة ، نشأت خلالها أجيال من الأطفال الفرنسيين ، الذين يعرفون التاريخ المجيد لبلدهم ويعبدون رموز الماضى المنتصرين، حتى يستعدوا لحمل البندقية ، وحمل

«عبء الرجل الأبيض» ، وعبء المواطن الفرنسى بالذات تلك الأعباء التى حملهم الله إياها لتنوير الشعوب المتخلفة الجاهلة فى العالم ، وذلك كما قررت «الجمهورية الثالثة» ، لأن «فرنسا رمز الحضارة» . وقد أصبح هذا المبدأ واجبا لا يستطيع أن يرفض أداءه المواطن الفرنسي، فواجب فرنسا الأول هو أن تحمل لواء «الحضارة» إلى العالم كله .

ثم جاءت سنة ١٩٤٠ ، وفرّ الجيش الفرنسى أمام جحافل هتلر الغازية ، فكان لزاما عليه - بعد هزيمة ألمانيا على يد الحلفاء سنة ١٩٤٥ - أن يمحو هذه الوصمة عن جبينه : فعندما بدأت المستعمرات تثور لتحصل على استقلالها ، حاربتها فرنسا حتى لا تفقد ما بقى لها من مجد استعمارى استيطانى سابق ولكنها خسرت ، أيضا ، هذه المعارك ، وخسرت مستعمراتها التى استقلت عنها .

شب الجيل الجديد من الفرنسيين الذين أصبحوا لا يرون شيئا من المجد الذى تتحدث عنه كتب التاريخ، ووصل إلى سن النضج ، فبدأ فى مراجعة ما يقال له ويعتبر من المسلمات، جيل يحطم الأساطير بعد كُشف زيفها ، وقد تواكب هذا مع ما سمى «بانهيار الايديولوچيات» والشيوعية الماركسية - اللينينية منها بالذات - والمعروف أن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت من أهم معاقل اليسار فى فرنسا ..

هكذا وبعد الحرب العالمية الثانية ، وفى عصرنا الحالى ، نجد نوعين من المؤرخين : الجيل الذى عاش الحرب العالمية الثانية وتعلم فى ظل مبادئ «الجمهورية الثالثة» وأساطيرها المبهرة وتغنى فى طفولته وفى مدرسته بكل أمجاد الماضى ، كما نجد الجيل الجديد ، الذى ولد بعد الحرب وعاصر أحداث تقلص الهيمنة الفرنسية ، فبدأ يمحص وينقب ويؤرخ بنظرة جديدة ، غابت عنها غشايات الأساطير الكاذبة :

إنه ما سمى بجيل «المؤرخين الجدد»

★★★

ومن الأساطير التى حطمها هذا الجيل، أسطورة الحملة ، ونتائجها؛ ولسنا هنا بصدد تعريف القارئ بها ، خاصة أن الكتب موجودة ، يقرؤها من يريد زيادة معرفته بالقضية ، وإن تعرضنا لها عند الضرورة بإيجاز .

ولكننا سنعرض ، فى بضعة أسطر ، ما كان يدرس للتلاميذ المصريين فى المدارس الفرنسية * حتى يعرفوا – منذ نعومة أظفارهم – كل ما تدين به مصر لفرنسا ، وكل ما أنعمت به فرنسا على مصر ، خاصة أن الحملة صورت على أنها بعثة علمية ثقافية ، وليست حملة عسكرية استعمارية ، فالجند والمصريون عاشوا فى وئام تام أثناء وجودهم فى مصر ، وئام لا تشوبه ثورة أو عنف دموى (١) .

★★★

* انظر الملحق «١» فى الجزء الثانى من الكتاب .

ونظرا لأن صاحبة هذه الدراسة كانت طوال حياتها تلميذة المدارس الفرنسية وأساتذتها، منذ نعومة أظفارها حتى حصولها على الدكتوراه؛ ونظرا لأنها قرأت الكثير مما لم يقنعها ، وبلبل فكرها بين ما تقرؤه فى الكتب الفرنسية ، وما تسمعه من آثار تركتها الحملة فى ذاكرة الشعب المصرى ، فقد قررت أن تقطع الشك باليقين ، وتستجلى الأمر بطريقة علمية ، وبالمنهج نفسه الذى تعلمته من أساتذتها الفرنسيين: فقد علموها ضرورة الأمانة العلمية ، وعدم الجهر إلا بما تراه حقا ، بعد التمحيص والتحليل والاستنباط ، ولذا كان عليها أن تدلى بانطباعاتها وما توصلت إليه من نتائج ، مستندة فى عرضها إلى مراجع موثقة لا شك فيها ، وبما أنها قررت أن تدرس ما قيل عن الحملة ، ولأنها تعرف أن الأساطير عادة ما تبنى بعيدا عن الأحداث ، ولاحتياج معين للشعب الذى يطلقها فى ظروف بعينها ، فقد رجعت إلى ما كان يقال عن الحملة حتى أثناء قيامها ، أى على لسان معاصريها وشهودها العيان ، أو بأقلامهم .

وهذه الدراسة لا تدعى الموضوعية المطلقة ، لأن الدارسة نفسها لا تعترف أساسا بالموضوعية العلمية فى الدراسات الإنسانية والتأريخى منها بالذات (وهو ما سنرجع إليه فى حينه) فهى لم تجد هذه «الموضوعية العلمية» يوما فى قراءاتها الغربية المتعددة ، إلا فيما ندر.

وعلى الرغم من ذلك فإن الدارسة حاولت جاهدة ألا تطغى مشاعرها - كابنة فلاح مصرى - على ما تقرؤه وتحلله ، وكان الأمر بالطبع صعبا، ولكن «العرض العلمى» كان دائما يؤازرها فى تلك الحالات ، لأنه - فى المقام الأول - سبب تحليلها لما تقدمه .

لا ننسى أن الهدف من هذه الدراسة كان ، منذ البداية ، معرفة الحقيقة ، ولو على مستوى الباحثة نفسها ولشخصها المتواضع .

ونظرا لأن المديح المستمر كان صفة كل الكتابات التى تناولت الحملة، فقد يظهر للقارئ أن عدم وجود هذا المديح هنا تحيز وطنى من قبل الدراسة والحقيقة أن الباحثة كتبت ، بأمانة ، ما قابلته ورأته جديرا بالنشر وسط مواطنيها من مصريين وعرب . إنها لم تخف شيئا فى محاولة للتأثير على القارئ ، ولكنها كشفت فقط ما كان مستورا عنه ، فى كتابات كان هدفها غير علمى ، بغية فرض رؤية بذاتها . ولا ننسى أن الدارسة - تلميذة المدارس الفرنسية - بدأت هى نفسها مشوارها وهى مؤمنة بما تعلمته فى المدرسة ، أى أن التنوير كان هدف الحملة ونتيجتها المؤكدة .

ثم كان التساؤل المؤرق ..

السؤال هو هل صحيح ما يقوله الفرنسيون من أن تلك الحملة الاستعمارية حولت مصر من حال إلى حال ؛ وأن مشروعها كان

حضاريا ، ساهمت فيه القوات التي آمنت بمبادىء ١٧٨٩ ، خاصة مبدأ الحرية ، فكان مشروعها وكأنه هبة للشعب المصرى ؟ هل حقا فتحت الحملة لمصر أبواب الحضارة والعلم والتحديث ، فى عصر لم يكن لها فيه مخرج آخر غير هذه الأبواب ؟ درس فهمه محمد على فأنشأ دولة مصر الحديثة .. ولكن ألا يقال أيضا إن ما فعله محمد على لم يكن إلا تطبيقا لنظريات بونابرت أستاذه ؟ بمعنى أنه لولا الحملة الفرنسية ما دخلت مصر القرن التاسع عشر والعصرالحديث ، ولولاها ، لاختلف تاريخ مصر كلية . من هنا ، انطلقت الباحثة وسط سيل من المطبوعات المتخصصة وغير المتخصصة .



ولنعرض الآن على القارىء بعض ما استخدم فى هذه الدراسة من وسائل البحث ، لتعريف القارىء على ما توصلت إليه من نتائج . إن الطريق الذى سلكته الباحثة ، فرأته يتحول فجأة إلى سلاح يفرض عليها نتائجه الموضوعية : هو اللجوء إلى المراجع الفرنسية فقط – أى أن الرؤية المعروضة ، تعرض من داخل الثقافة الفرنسية نفسها ، أى رؤية أصحاب الحملة أنفسهم . إنها سلاح رادع ، فمن يستطيع أن يرفض رؤيتهم ، أو يشكك فيها ، وأولهم الباحثة نفسها ؟ وعلى مر الصفحات ، اكتشفت الباحثة أن هذا المنهج يضع تحت قلمها سلاحا

قويا، يشق طريقا جديدا يهدى إلى نتائج يصعب النيل من موضوعيتها، بغض النظر عن الاعتقادات التى سبق أن آمنت بها هذه الدارسة ، إن الكُتَّاب الذين تقرأ لهم ، هم أنفسهم خالقو الأسطورة أو المدافعون عنها، كيف يكون إذن الرد عليهم بالنفى أو التشكيك فيما قالوا ؟



ولكن هناك مشكلة الجبرتى الذى يجب أن يرجع إليه كل دارس للحملة ، وبالرغم من أننا لن نعرض له إلا للضرورة القصوى ، لأن دراسة الجبرتى ، بما فيها استعمال الفرنسيين له تحتاج إلى مجلد مستقل ، لا علاقة له بهدف الدراسة التى بين أيدينا . ومع ذلك ، فلا مناص من شرح الموقف ، حتى تتضح ، للقارئ ، الخلفية التى بنى عليها المؤرخون الفرنسيون فهمهم ، أو عدم فهمهم ، له . فهم أولا لم يقرأوا حولياته بالكامل ، وهى تناهز ألفى صفحة . فإذا قرأنا الجزء الخاص بالحملة – وهو مكون من ثلاثمائة وخمسين صفحة فقط ، خارج السياق العام لباقى تاريخ مصر فى هذه الحقبة من الزمن – تغير المعنى كلية ، وسهل على القارئ سلخ بعض الجمل ، وبالتالى ، تحوير معناها، ثم يتناسى الجميع ، مما كتب ، أجزاء فى غاية الأهمية ، تضفي على ما قاله عن الحملة ضوءا لمن يحبذها ومن يريد تمجيدها .. ومن هنا كان التدليس التام .

عندما يتحدث الجبرتى مثلا، فى بداية الجزء الأول من كتابه عن مراجعه ، وما ضاع منها ، يقول : «ذهبت بقايا البقايا فى الفتن والحروب ، وأخذ الفرنسيس ما وجدوه إلى بلادهم ..» . وبهذه السرقة، تاهت كل آثار الثقافة المصرية المعاصرة ، وضاعت فى طى النسيان ، وانقطع حبل التوارث الثرى ، وكان ذلك من أسوأ النتائج السلبية للحملة ومما يحسب عليها ، ولم يذكره أحد . ولا نذكر ، أيضا ، أن أحدا علق على ما كتبه الجبرتى – فى نهاية سرده لأحداث الحملة – عما تركه الفرنسيون من خراب ، سواء فى القاهرة أو الاسكندرية ، من أجل تأمين حياتهم وبناء الطوابى لجندهم . فالجبرتى يصف قائلا : « .. وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها ، فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم ، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبى، فهدموا تلك الأخطاط والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت ، المربعة الأركان الشبيهة بالأهرام ، والمنارة العظيمة ذات الهلالين . واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوسى إلى باب الحديد حتى بقى بعد ذلك كله خرابا متصلا واحدا (..) ونبشوا ما

بها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها فى خارج ... » . وهلم جرا لخمس صفحات كاملة (٢) .

لم نقابل مؤرخا واحدا تحدث عن هذا * بينما سنقابل الرحالة الفرنسيين الذين لا يتحدثون إلا عن الآثار الرائعة للحضارة الفرنسية على ضفاف النيل ، على الرغم من أنهم لم يذكروا أبدا ماهية هذه الآثار.

ثم تكون المشكلة الكبرى مع الجبرتى نفسه ، وهى سلاح ذو حدين ، لأنه - لأمانته كمؤرخ - لم يرو إلا ما كان متأكدا منه ، أو واثقا كل الثقة بمصدره ، ومن ثم يظن القارئ أن الثورات والمقاومة الشعبية ، لم تحدث إلا فى القاهرة والإسكندرية ، وهما اللتان لم يتحدث الجبرتى إلا عنهما ، ولا نعرف منه إلا النزر اليسير عما حدث فى الأقاليم والوجه القبلى ، كأن مصر كلها لم تكن فى واقع الأمر إلا «مصر المحروسة» وهى التى يهتم بها الشيخ عبدالرحمن الجبرتى فى المقام الأول .

ثم تكون النقطة التى كلفت المصريين الكثير ، وهى سوء فهم المؤرخين الفرنسيين له ، أولا بسبب قراءتهم المبتورة للجبرتى ، كما

---

* انظر الملحق «١» فى الجزء الثانى من الكتاب .

سبق وأشرنا، ثانيا أن الجبرتى – مثله فى ذلك مثل غالبية المؤرخين – كان ذاتيا فى كتابته : جاءت نظرته الطبقية لتؤثر بشدة على أحكامه التى قد توصف أحيانا بأنها غير وطنية ، فتحولت عند قرائه ، إلى «رؤية المصريين كلهم» . فما من مصدر آخر عرفنا من خلاله رأى المصريين آنذاك . فمن يعرف ، أو قرأ كتاب نيقولا ترك مثلا ؟ ولا ننسى أن الفرنسيين ، علاوة على كل ذلك ، لا يقرأون العربية ، ومن ثم لم يعرفوا الجبرتى إلا من خلال ترجمته ؛ والترجمة المعروفة ، مع الأسف غير أمينة ، بل عنصرية وغاية فى السوء من حيث نية المترجم فى التشوية المستمر والمقصود ، لتحسين صورة الفرنسيين من جهة ، والاستخفاف ، بل حتى الاستهزاء ممن كانوا يسمون «بالمسلمين» ، (وهم العثمانيون والمصريون) من جهة أخرى [٣] .

نرى إذن أن الرجوع إلى الجبرتى لن يفيدنا فى الواقع ، إلا إذا قمنا بدراسة خاصة به ، لابد من دراسة تأثيره على المؤرخين الفرنسيين، أو بالأصح استعمالهم له لتبرير وجهة نظر ، غالبا ما تكون مغلوطة ، وغير موضوعية ، وتبحث دائما عن خدمة الأسطورة بدلا من التمحيص عن الحقيقة التاريخية من ورائها .

★★★

رأت الدارسة إذن أن تترك كل هذه المشاكل جانبا لتتفرغ لنقطة واحدة ، وهى دراسة أسطورة الحملة على مصر عند الفرنسيين

أنفسهم : نشأتها ، تطورها ، وما يمكن أن يفسر انتشار تلك الأسطورة بينهم .

ولذا كان على الدارسة التى ستبحث من خلال الكتب الفرنسية لمعرفة ما دار حول الحملة أثناء قيامها وبعدها ، والتى لن تلجأ – بطبيعة الحال – إلى الكتب العربية إلا للضرورة القصوى ؛ كان عليها أن تختار ، لأن الموضوع يتطلب معرفة تفاصيل كم هائل من الكتب ، من المستحيل نقلها دون نزعة غرور من جانب الدارس ، غرور لن يسبب إلا الملل للقارىء ، دون فائدة حقيقية تعود عليه ، فالكلام يتكرر لأن المنطلق واحد . وبدا الاختيار سهلا لأن معظم من تحدث عن الحملة من المشاهير الذين يسهل الحصول على نصوصهم ، فالحجج هنا كلها موثقة ، فى كتب يسهل الحصول عليها فى مصر ، إن استحال أمر احضارها من فرنسا . ولن يشار إلى حادثة ، أو يعبر عن رأى ، إلا ومرجعه مشار إليه، حتى إن كان الرأى رأى الباحثة ، فهى ، إن وجدت رأيا لباحث فرنسى يشبه رأيها اختارت أن تعبر عنه بلسان الباحث الفرنسى ، وأشارت إلى المرجع الذى وجدته فيه ، ليطمئن قلب القارئ المتشكك فى موضوعية هذا الرأى . وهكذا لن تدافع الدارسة عن نتائج بحثها إلا بقول واحد :

« وشهد شاهد من أهلها » .

مدخل

دراستنا هذه ليست تأريخا للحملة الفرنسية ، ومن يبغى معرفة أحداث الحملة بكل تفاصيلها ، فليرجع إلى الدراسة الشاملة للأستاذ الفرنسى « هنرى لورانس » عن الحملة والتى ترجمت أخيرا إلى العربية (١) . ويبدو أن الناشر الفرنسى وجد أن وجود كلمات مثل «بونابرت والإسلام (و ..) صدام الحضارات » على غلاف الكتاب سيزيد الرغبة فى شرائه ، فوجدنا قطعا من الورق المستطيل تحمل هذه الكلمات، وقد التفت حول الغلاف الأصلى ، وهى ورقة مستقلة عنه ، وفى الحقيقة أن المؤلف يستعرض ، فيما يستعرض ، موقف بونابرت من الإسلام ، ولكننا لا نرى داعيا لإضافة هذا العنوان لنص لا يهتم اهتماما خاصا بهذا الموضوع بالذات لدرجة لفت نظر القارىء إليه ؛ ولا داعى أيضا لكلمة «صدام الحضارات» لأن القارئ المحبط لن يقابل فى هذا التأريخ الشامل إلا صدام جيوش وصدام الثوار بالجيش المحتل ، مثل هذا العنوان يجعل القارئ ينتظر ما قد يسفر عنه لقاء هذه الحضارات التي ينوه عنها العنوان ولا يجده بتاتا . فالكتاب على أية حال أحدث ، وأشمل ما ظهر في دور النشر الغربية ، فما ظهر من بعده

– على الأقل حتى كتابة هذه السطور – لا يروى ظمأ الباحث عن معرفة كل ظروف الحملة، كما يسردها هنرى لورانس فى كتابه الجامع . وهنرى لورانس هو الوحيد، بين المؤرخين الغربيين ، الذى اعترف بالدور المصرى والذى استطاع أن ينقل مشاعر المصريين إلى قرائه الفرنسيين ، وقد يكون سبب ذلك أنه يتحدث العربية بطلاقة ، ويقرؤها بسهولة ، بجانب أمانته العلمية ، فهو الوحيد ، مثلا ، الذى فهم حقيقة ما سمى بـ «انبهار الجبرتى بالعدالة الفرنسية» ، أثناء محاكمة سليمان الحلبى . كانت جملة مديح من مؤرخنا الشيخ العلامة ، تستعمل فى كل مناسبة ، لإثبات عدالة الفرنسيين وحسن إدارتهم لشئون مصر ، حتى أن الجبرتى نفسه – أى كل المصريين – انبهر بهم . والذى يقرأ حوليات الجبرتى كلها – وهذا ما فعله «هنرى لورانس» – يفهم أن الأمر يختلف كلية . فلنقرأ معا ما قاله لورانس فى هذا الصدد : « والحال أن الجبرتى وهو يحرر النسخة الأخيرة من حولياته فى عصر فتن وأعمال تدمير ، سوف يعلن الجانب النموذجى للإجراءات التى اتبعها الفرنسيون : إن هؤلاء الناس الذين لا يسترشدون إلا بالعقل ، قد سلكوا مسلكا أكثر لياقة وأكثر عدالة من مسلك المسلمين المزعومين الذين يخربون مصر . وخلافا لبعض التعليقات ، فإن ذلك لا يعنى

تأكيدا لتفوق العقل على الوحى الإسلامى ، بل هو مجرد إدانة أدبية لأولئك الذين يحكمون مصر فى وقت التحرير النهائى للحوليات » .

لقد فهم لورانس أن كلام الجبرتى لم يكن رأيا عفويا ، وإنما كان تقريعا لمعاصريه المغترين ، وتأنيبا لاذعا لتصرفاتهم ، كان هذا هو رأى الباحثة المصرية نفسه عند قراءتها للنص الكامل لحوليات الجبرتى .

وننتهز هذه الفرصة لنحيى المجهود الرائع الذى بذله هنرى لورانس، فى الرسالة التى حصل بها مؤرخنا على درجة الدكتوراه ، ونحيى كتابه الذى يكاد يشمل كل ما قيل من قريب أو بعيد عن الحملة ، حتى ما قاله فرويد العالم النفسانى الشهير فى تحليله لشخصية بونابرت . نحييه وإن كان لم يقنعنا فى كثير من نتائج دراسته . ولا تتعارض دراستنا – بطبيعة الحال – مع دراسته ، نظرا لكوننا ندرس الأسطورة ولا نتعرض للتأريخ ، وإن كانت دراسته قد أمدتنا بكثير من المعلومات الجديدة علينا .

فالهدف من الدراسة التى بين أيدينا هو محاولة التوصل إلى حقيقة الأسطورة التى جعلت من الحملة الاستعمارية ، حملة «فريدة فى نوعها» لأنها كانت – كما يقال – سبب وصول نور التحضر إلى المصريين، بعد أن كانوا يرزحون تحت وطأة ظلمات الجهل ، والتى جعلتها تصبح ، عند الكثيرين ، هى الباب الأول فى تاريخ مصر الحديث : فمصر كانت قبلها

لا تعرف معنى الحرية أو الديمقراطية أو العلم الحديث ، بل لم يكن لها حتى وجود يذكر (!!) .

وملخص ما يقال ببساطة شديدة إنه لولا الحملة ، لما كانت مصر ؛ بالمعنى الذى يقال عن اكتشاف كولومبس لأمريكا ، فإذا قيل « الحملة على مصر » ، كان الرد : « من هنا تبدأ مصر » .

وفى التاريخ الفرنسى ما يبرر ، أو بالأصح ، ما يشرح مثل هذه المقولة وغيرها . ولزاما علينا أن نعرف لم ، وكيف أطلقت مثل هذه الشعارات المبهمة ، حتى أصبحت من الحقائق الثابتة لديهم ؟ ، وهل تبرر الأحداث التاريخية مثل هذا التقرير القاطع فى حكمه على مصر فى ذلك العصر ؟ أم أن أحداثا تخص فرنسا ذاتها ، وسياستها الداخلية ، هى التى أوجدت ضرورة خلق أسطورة بونابرت فى مصر ؟ .

★★★

وحتى تتضح الصورة للقارئ العربى الذى عادة ما يجهل تفاصيل التاريخ الفرنسى ، علينا ، بادىء ذى بدء ، أن نتعرف على المناخ الذى انبعثت منه فكرة الاستيلاء على مصر ، بعد أن هجمت حكومات الثورة منذ عام ١٧٩٢ ، على جيرانها من الدول المجاورة بحجة نشر مبادئ ثورتها العظيمة . ونتعرف بعد ذلك على ما قاله الشهود العيان للحملة ، قبل أن يتحول كل ما يمس نابليون بونابرت إلى أسطورة مشرقة .

الجــزء الأول

عصر الأساطير

«لـم يكونـوا رجـالا ، بل آلهـة ..»

٣٠ يوليو ١٧٨٩

الفصل الأول

الحملة في تاريخ الثورة

« ما من أحد يحب المبشرين المسلحين »

روبسبير

التسلسل الزمنى لبعض الأحداث التى سنتعرض لها:

- ١٧٦٣ : فقدت فرنسا معظم مستعمراتها فى الهند وأمريكا .

- ١٧٧٤ : « إعلان حقوق المواطن » للثوار الامريكان .

- ٤ يوليو ١٧٧٦ : إعلان انفصال ثلاث عشرة مستعمرة بريطانية بأمريكا الشمالية مكونة ما يعرف باسم الولايات المتحدة الأمريكية.

- ١٧٨٣ : معاهدة «فرساى» بفرنسا : انتصار ثوار أمريكا الشمالية على انجلترا بمساعدة فرنسا .

- ١٧٨٣ : إلغاء آخر قوانين تعذيب المساجين فى فرنسا .

- ١٧٨٨ : احتفال انجلترا بمئوية ثورتها على الملكية ، وترسيخ نظام الملكية الدستورية .

- ٥ مايو ١٧٨٩ : أول اجتماع « لمجلس طبقات الأمة » الذى سيتحول بشكل سريع إلى « جمعية وطنية » ثم إلى « مجلس تشريعى » .

- ١٤ يوليو ١٧٨٩ : الاستيلاء المسلح الدموى على سجن الباستيل .

– ٤ أغسطس ١٧٨٩ . النبلاء يبادرون بالتنازل عن امتيازاتهم طوعا.

– ٢٦ أغسطس ١٧٨٩ : « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » .

– نوفمبر ١٧٨٩ . الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة – القساوسة يصبحون موظفين لدى الدولة .

– ٢٢ مارس ١٧٩٠ : « إعلان سلام إلى العالم » ، وحق الشعوب فى تحديد مصيرها .

– يوليو ١٧٩٠ : التنظيم المدنى للكنيسة .

– ٢١ يونيو ١٧٩١ : محاولة هروب الملك الفاشلة .

– ١٢ سبتمبر ١٧٩١ : الاستيلاء على أراضى بابا روما فى جنوب فرنسا .

– ٢٠ ابريل ١٧٩٢ : فرنسا تعلن الحرب على النمسا ، فتدخل الدويلات الالمانية الحليفة للنمسا الحرب بجانبها ، وهى متاخمة للحدود الفرنسية ثم الاستيلاء على بليچيكا .

– ١١ يوليو ١٧٩٢ : إعلان «الوطن فى خطر» .

– من ٢ إلى ٥ سبتمبر ١٧٩٢ : مذبحة المساجين المسماة «بمجازر سبتمبر» .

- ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ : أول انتصار لفرنسا فى «فالمى» .
- ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ : إعلان «السنة الأولى للجمهورية الفرنسية بعد إعلان إلغاء الملكية» .
- ١ يناير ١٧٩٣ : إعلان الحرب على إنجلترا وهولندا .
- ٢١ يناير ١٧٩٣ : إعدام الملك «لويس السادس عشر» .
- ١١ مارس ١٧٩٣ : بداية الحرب الأهلية فى «الڤانديه» .
-١ أغسطس ١٧٩٣ : الحكومة تصدر قرار إبادة «الڤانديه» .
- ٥ سبتمبر ١٧٩٣ : الحكومة تقرر «الإرهاب» كسياسة للدولة .
- ٩ أكتوبر ١٧٩٣ : الجمهوريون يستردون مدينة «ليون» .
- ١٩ ديسمبر ١٧٩٣: الجمهوريون يستردون ميناء «تولون» بمساعدة مدفعية بونابرت .
- ٤ فبراير ١٧٩٤ : إلغاء الرق فى المستعمرات .
- ١ أكتوبر ١٧٩٤ : ضم بلچيكا إلى الأراضى الفرنسية .
- ١٧٩٤ : نهاية «الإرهاب الأحمر» وبداية «الإرهاب الأبيض» .
- أكتوبر ١٧٩٥ : إنشاء «المعهد القومى» . كذلك يعرف اسم بونابرت لأول مرة جماهيريا .
- مارس ١٧٩٦ : «الجنرال بونابرت» قائد عام لجيش إيطاليا .

- ١٧٩٦ : فشل إنزال قوات فرنسية في ايرلندا لمساعدة الثوار ضد انجلترا .

- ١٧ أكتوبر ١٧٩٧ : معاهدة صلح مع النمسا التى هزمها بونابرت .

- ١٧٩٨ : جيوش فرنسا تدخل سويسرا وروما لتحريرها . وبداية الثورات ضد المستعمر الفرنسى .

- ١٧٩٨ : تكليف بونابرت بغزو انجلترا بعد فشل المحاولات السابقة .

- ١٧٩٨ : طرح فكرة غزو مصر كبديل لغزو إنجلترا .

- ١٩ مايو ١٧٩٨ : بونابرت يبحر إلى مصر على رأس جيش الشرق .

- ١٧٩٩ : تحالف تركيا وانجلترا ومملكة نابولى ضد فرنسا بسبب غزو مصر .

- ٩ أكتوبر ١٧٩٩ : عودة بونابرت إلى فرنسا .

- ١٠ نوفمبر ١٧٩٩ : انقلاب «١٨ برومير» : «القنصل الأول بونابرت» يستولى على كل السلطات .

- ١٥ ديسمبر ١٧٩٩ : «الثورة انتهت» .



الجنرال بونابرت القائد العام لجيش الشرق

الحقيقة الكاملة كالنسيج المزخرف تتفاعل فيه الخيوط فى اتجاهات متوازية ومتقاطعة ، وتمتزج فيه الألوان الصارخ منها والباهت ، وقد يكون صاحب الفضل الحقيقى فى تحديد خصوصية النسيج وتناسقه خيطا نحيلا غير ملحوظ ، أو لونا باهتا قليل الاستعمال .

ولا يلم بكل التفاصيل إلا صانع النسيج ، كما لا يلم بالحقيقة الكاملة إلا الله سبحانه وتعالى . فكثيرا ما نرى باحثا يتتبع خيطا فى قضية ما ظنا منـــه أنه العنصر الرئيسى ، ثم يأتى باحـــث آخر تتضح له رؤية عناصر أخرى ، فتتغير الصورة . ومن تضارب الآراء قد تظهر بعض الخطوط الأساسية ، إلى أن يأتى باحث جديد باكتشاف آخر . ولذا ، لن تكون دراســتنا هذه إلا دراسة جزئية ، مثلها فى ذلك مثل كل الدراســـات ، والإنسانية منها بالذات ، أيا كان هدف الباحث أو مجهوده .



والحملة - كأى حدث ، سواء كان تاريخيا أو غير تاريخى - تتشعب أسبابها ، وتعود جذورها إلى ماض سحيق ؛ فالبعض يراها آخر الحروب الصليبية ، ويرى البعض الآخر أنها أول موجة من موجات الغزو الاستعمارى الأوربى الكاسح فى القرن التاسع عشر . لكن بعض المؤرخين يتعاملون معها على أنها حدث ثانوى ، يمرون عليه مروز الكرام

وهم يسردون تاريخ فرنسا ؛ والبعض الآخر يتعامل معها منفصلة عما سبقها أو لحقها من أحداث ، فيقتلها بحثا بصفتها الذاتية ، وكأنها ثمرة أتت من فراغ ، دون شجرة تحملها ، اللهم إلا علاقتها بقائدها الشهير ، نابليون بونابرت ، الذى أصبح إمبراطورا غيّر ، بعد ذلك ، مجرى الأحداث فى أوربا كلها .

أما الآن ، فنحن بصدد محاولة دراسة الشجرة التى أنبتت هذه الثمرة . فما الحملة ، فى حقيقة الأمر ، وببساطة شديدة ، إلا حدث من أحداث الثورة الفرنسية نفسها ، قبل أن تكون إحدى غزوات بونابرت ، وهذا ما يتناساه دارسو هذه المرحلة من تاريخ فرنسا . وعلينا أن نوضح حقيقة علاقة الحملة بالثورة ، لأن معرفتنا بالثورة ورجالاتها ، ستفسر لنا الكثير من أفعال الفرنسيين على أرض مصر ، وما قيل عن الحملة بعد ذلك . لأن الثورة قامت فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، واستمر حكمها إلى أن استولى الجنرال بونابرت على السلطة إثر عودته من مصر ؛ فما الحملة واقعيا إلا جزء من تاريخ السياسة الخارجية للثورة نفسها : إنها لا تنتمى إلى قائدها الجنرال بونابرت وحده ، فهو لم يرأسها إلا بتفويض من حكومة «الإدارة» آخر حكومات الثورة بفرنسا .

★★★

القرن الثامن عشر : عصر التنوير والثورة

الحديث المتداول عن الثورة يضعها ، بصفة عامة ، فى اطار بذاته ؛ فتجد تاريخ القرن الثامن عشر مبتورا ، يقف عند ١٧٨٩ وكأن هذه السنة نهاية قرن ، وليست نهاية حكم . ثم يبدأ الحديث عن الثورة ، التى تنتهى بالفعل مع تولى بونابرت زمام الحكم المطلق عام ١٨٠٠ ، أى عند النهاية الحقيقية للقرن الثامن عشر . وقد يكون للمؤرخين الذين يسلخون الثورة هكذا من القرن الثامن عشر مبررات وجيهة ، نرى بجانبها مبررات أخرى ترفض هذه القطيعة بين القرن ونهايته ؛ وكل المبررات لها ما يؤازرها ؛ فالحقيقة أغنى من أن تنحصر فى اتجاه واحد ، والنظرة الأحادية عادة ما تفقر الموضوع وتضعفه حتى إن أوضحته .

نقول هذا لأننا بصدد التعرف على رجالات الثورة ومنهم أعضاء حكومة «الإدارة» نفسها بالطبع . وأول ما يبدو لنا بديهيا ، أن كل هؤلاء الرجال ، نظرا لأعمارهم ، إنما كانوا ينتمون - ثقافة وفكرا - إلى القرن الثامن عشر . فهم أبناء ذلك القرن قبل أن يكونوا رجالات ثورة قامت وهم رجال ناضجون . كان بونابرت ، مثلا ، من أصغر الجنرالات سنا ، وأصغر بكثير من كل أعضاء الحكومة المخضرمين ، وكان عدد كبير من الضباط ، الذين أصبحوا تحت إمرته ، أكبر منه سنا ، وعلى رأسهم «كليبر» والنبيل «مينو» العجوز نسبيا . وعلى الرغم من ذلك ،

فإنه كان رجلا ناضجا بمعايير السن فى ذلك الزمن ، فقد كان ضابطا فى العشرين من عمره عندما قامت الثورة . ومن المعروف أن الكثير من أعضاء الحكومة ورجالات الثورة مارس الحياة العامة فى عهد الملكية ، قبل أن ينقلب عليها ، ويتحول إلى جمهورى متطرف بعد ذلك . كانوا إذن ، ونقولها مرة ثانية ، مثلهم مثل هذا الجيل كله من شباب وشيوخ ، أبناء القرن الثامن عشر وتعاليمه . وشرحنا الجزئى لثقافتهم ، قد ينير لنا الطريق ، ويشرح لنا الكثير من أفعالهم ، خاصة إن كانوا جندا أو علماء ؛ فهم بلا ريب ، واقعون ، كلهم ، تحت تأثير تعاليم القرن الثامن عشر وقيمه ، أو تلاميذ لأساتذة القرن الثامن عشر ، الذى عرف باسم عصر التنوير .



نظرة سريعة إلى هذا القرن وتعاليمه ، لابد أن تكون نظرة جزئية ، إذ إن فرنسا فى هذا القرن كانت أثرى البلاد الأوربية - بلا نزاع - من حيث الفكر والإبداع ، وإن كانت قد فقدت الكثير من هيبتها عسكريا حتى أن الإنجليز قد استولوا على معظم مستعمراتها فى العالم ، ولكنها أصبحت بلد التنوير الذى أخرج ، فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، «فولتير» و «مونتسكيو» ، اللذين عرفا بإعجابهما الشديد بالديمقراطية الانجليزية ، واللذين حاربا من أجل حرية الكلمة . وفى

النصف الثانى من القرن نفسه ، جاء «روسو» و «ديدروه» اللذان نادا بضرورة الوصول إلى نوع من العدالة الاجتماعية التى كان المجتمع الأوربى - والفرنسى منه بالذات - يتجاهلها بل ويحاربها . وكان العمل الرائد الذى أفنى «ديدروه» حياته فى سبيل إتمامه : هو الموسوعة العملاقة التى نشرت الكثير من الأفكار التنويرية ، فاشتهرت فرنسا بإرساءها . ولن نفتح هنا باب الجدل لمعرفة أصل هذه الأفكار ، إذ بدأت هذه الموسوعة نفسها كترجمة لموسوعة إنجليزية معروفة ، ولكن اللغة الفرنسية كانت آنذاك لغة المثقفين فى أوربا كلها ، بما فيها روسيا القيصرية ، وكان ما سمى «بفلاسفة التنوير» على مستوى فنى عال ، وقد حباهم الله قدرة فائقة على التعبير الشيق الجميل ، فجمعت لهم هذه الموهبة جمهورا واسعا من القراء فى كل بلدان الغرب آنذاك ؛ لذا ، كانوا أحسن ممثلين لهذا «التنوير» الذى عرفته من جهة أخرى ، كل بلدان أوربا فى ذلك القرن ، إذا كان سمة العصر .

ولو أننا لخصنا أهم مبادىء هذا الفكر ، أو بالأصح ، إذا بحثنا فيه عما يهمنا ، بالشكل الذى يفسر لنا سلوك الفرنسيين فى مصر بعد ذلك ، رأينا أولا كلمة «تنوير» نفسها ، والتنوير هنا يحارب ظلمات الجهل والتعصب الأعمى ، وكان «الفلاسفة» - كما كان مفكرو هذا التيار يسمون أنفسهم - يرون فى الكنيسة وقساوستها أسوأ ، داع

لهذه « الظلمات » ومبشر بها . وبما أن كل الأديان تقوم أساسا على الإيمان بالغيب ، كان اعتقادهم الراسخ أن كل رجل دين ما هو إلا منافق يتجر بما يدعيه من علم بهذا الغيب ، ليسيطر على العقول الجاهلة ، ويحولها إلى أداة متعصبة متطرفة ، يسخرها لمصالحه الذاتية ، أو لمصالح كنيسته . ولذا ، اعتبر الفلاسفة كل من آمن بغير ما توصل إليه العقل الإنسانى من علم ، لا يعترف إلا بما هو مادى ملموس ، متعصبا وفريسة لظلمات الجهل . من هنا كان إيمانهم بضرورة تنوير الجميع ، والارتقاء بالبحث العلمى فى كل الميادين والاهتمام بالتعليم وتشجيع التطلع إلى مزيد من المعرفة .

وتم إيجاد مفاهيم جديدة لم تكن موجودة من قبل . من ذلك مثلا أن ظهرت فى مفردات اللغة الفرنسية كلمات جديدة منها كلمة « حضارة » .

ولكن هذا الوجه من العملة ، كان له وجه آخر ، ففى الوقت الذى كان هذا الفكر يدعو للتسامح ، تمثلت إحدى نتائجه السلبية فى أنه أدى إلى ظهور لون جديد للصلف الغربى . فبعد أن كان الدين ، أى المذهب الكاثوليكى للمسيحية ، يرى حتى عهد قريب منهم ، أن من حقه بل من واجبه ، قتل الآخرين وحرقهم ، مثلما كان يفعل مع البروتستانت واليهود والمسلمين : أصبح العقل وتمجيده سبب زهو الشخصية الفرنسية

الجديدة ، وسبب ازدرائها لكل من يختلف فى الرأى معها . فكان الفلاسفة يتهمون أعداءهم بالتسلط والتطرف ، ثم يحاربونهم بكل الأسلحة المتاحة ، وهم ينشدون روح السماحة وحرية الرأى .

ومثل كل الفلسفات الجديدة والآراء المستحدثة لم تنتشر هذه الأفكار بين صفوة المثقفين – وكانت نسبة كبيرة منهم من النبلاء – إلا بعد مرور عدة عقود ، عندما قارب القرن الثامن عشر على نهايته .

ولكن الأمر كان يختلف بالنسبة للتعليم . فالكل – ونؤكد هنا على كلمة الكل – كان يشترك فى ثقافة كلاسيكية واحدة ، لم تتغير كثيرا منذ قرون ، إذ كان التعليم فى هذا الزمن حكرا على الكنيسة الكاثوليكية المعروف عنها محافظتها على التراث والتقاليد . وكانت دراسة أدبيات العصر الكلاسيكى – أدبيات روما واليونان القديمة (الإغريق) – هى أهم المواد بجانب تعاليم الدين المسيحى الكاثوليكى . فكان التلاميذ يدرسون اللغتين الإغريقية واللاتينية ، والتاريخ القديم كما كتبه المؤرخون القدامى . وكان أغلب هذا التاريخ يتغنى بأمجاد روما الخالدة : روما ، حاكمة العالم بأسره ، ومدرسة الحضارة وصاحبة الفضل فى إرساء كل القوانين العادلة أثناء عصرها الذهبى الأسطورى ، ويترنم بقصص البطولة والتضحية فى سبيل الفضيلة والوطن . وكادت البلاغة –

الخطابية منها بالذات – تكون أهم الدروس . وكان يتحتم على التلاميذ مضاهاة النماذج اللاتينية الشهيرة فى هذا المجال .

كانت نتيجة انتشار هذه الثقافة بين تلاميذ قساوسة المدارس ، عدم قدرة الفنانين على التخلص من سيطرة النموذج الكلاسيكى القديم بقوانينه الصارمة وقدسيته المهيبة على إبداعهم . كان الشعراء وكتاب القصص والمسرحيات ، ومؤلفو الأوبرات غالبا ما يلجأون إلى تقليد الفن الإغريقى ، سواء فى الشكل أو المضمون . وكثيرا ما نقابل أسماء شخصيات إغريقية أو لاتينية فى النتاج الفنى لذلك القرن . كما كان الفنانون التشكيليون يصورون الشخصيات المشهورة لذلك التاريخ القديم وأهم قصصه ، مثلما كانوا يرسمون فى الوقت ذاته صورا للسيد المسيح ولأهم أحداث الكتاب المقدس وأشهرها ، أو يصنعون له وللسيدة مريم العذراء تماثيل ؛ بينما كان الملك يشخص وكأنه من أباطرة الرومان، والأميرات كأنهن آلهة الإغريق .

وهكذا كان المثقفون يتمتعون بازدواجية رفضهم للكنيسة وتعاليمها الدينية من جهة ، وينهلون من نبع الدراسة الكلاسيكية الوثنية التى توفرها لهم هذه الكنيسة نفسها فى مدارسها من جهة أخرى .

كان هذا بالطبع ما توفر للميسورين من أبناء النبلاء ، والطبقة الصغيرة للبرجوازية الصاعدة ، وهم الذين سيتحدثون أثناء الثورة باسم الشعب كله .

أما الشعب الفقير نفسه ، ويمثل الأغلبية الساحقة من السكان ، فكان أميا ؛ وإن تلقى تعليما ، فهو لا يتلقى إلا الدروس الدينية ؛ وتتكون ثقافته كلها مما ورثه عن آبائه من أساطير وخزعبلات ؛ حتى قال «فردريك» الثانى صديق «ڤولتير» وملك بروسيا ، فى سنة ١٧٧٦، إن فرنسا ، « على الرغم من كل الفلاسفة التى تفخر بهم ، سواء كان ذلك بالحق أو بالباطل ، فشعبها لا يزال من أكثر شعوب أوربا إيمانا بالتطير والخزعبلات وأقلها تقدما » (١) .

ولم تختلف الحال بالنسبة لأغلبية الشعب الفرنسى حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أى بعد حوالى القرن من هذا الوصف الواقعى القاسى . وكان الشعب عادة ما يرث - من بين ما يرث من آبائه وما يتعلمه من دينه - ارتباطه بشخص الملك الذى يحكم بسلطة مطلقة بتفويض من الله ، وهو الذى يحمى الفقراء من بطش النبلاء الاقطاعيين . كانت نسبة هؤلاء القوم فى ذلك العصر أكثر بكثير مما توحى به أدبيات الثورة ، وأسطورتها من بعدها . وتجاهل هذه الحقيقة كان سببا فى كثير من المشاكل التى كانت أهمها وأعنفها آنذاك الثورة المضادة التى تحولت إلى حرب أهلية بلا هوادة ، وكان من نتائجها على المدى الطويل، أن انشطر الشعب الفرنسى إلى شطرين ، لم يلتئم شملهما إلا بنهاية الحرب العالمية الثانية فى القرن العشرين !

المناخ الثورى

نستشف من هذه الثقافة العامة التى يشترك فيها كل متعلمى البلد ومثقفيه ، ما ستكون عليه حال رجال ١٧٨٩ الذين اجتمعوا كممثلين لكل طبقات الشعب ، لإنقاذ الدولة من أزمتها المالية الطاحنة . ولكن اجتماعهم تحول بسرعة فائقة إلى ثورة عظيمة غيرت وجه فرنسا ، وكان لها أكبر تأثير على جيرانها . فما سمات هذه الثورة ، التى امتدت أطماعها حتى أرض مصر ؟ إن تاريخ فرنسا زاخر بالثورات ، وكان آخرها - فيما قبل ثورة ١٧٨٩ - ثورتين فى القرن السابع عشر ، حاولتا تقليد ثورة «كروميول» فى انجلترا ولكنهما باءتا بالفشل ، وفى القرن التاسع عشر ، قامت أربع ثورات أخرى ، قبل أن ينتصر حزب الجمهورية على اليمين بمختلف اتجاهاته ، فكانت «الجمهورية الثالثة» التى استمر حكمها إلى بداية الحرب العالمية الثانية . وعلى الرغم من كل هذه الانتفاضات التى وصلت فى كل مرة إلى تغيير نظام الحكم ، فالإشارة ، بالفرنسية إلى «الثورة» تعنى «الثورة الكبرى» ، أى ثورة ١٧٨٩ ، وهذا ، فى ذاته ، خير دليل على تحولها إلى أسطورة ، يدافع عنها المعجبون بتحيز وتطرف لا يضاهيه إلا تحيز وتطرف أعدائهم . ومر قرنان من الزمن على أحداثها ، وانتصرت أخيرا فكرة الجمهورية على المستوى الشعبى ، وأصبح اليمين الفرنسى ، مثله مثل اليسار ، لا

يرى بدا من قيام جمهورية تنادى بمبادىء «الثورة الكبرى» فى خطوطها الإنسانية العريضة . وظهر الكثير من الدراسات بمناسبة الاحتفال الكبير بمرور مائتى عام على أحداثها ، وكانت بأقلام جيل «المؤرخين الجدد» الذين أخذوا يعيدون النظر فى كل تاريخهم ، وفى أساطيره بالذات . ومنهم نتعرف على بعض الحقائق التى أغفلتها ذاكرة التاريخ الرسمى في فرنسا من أجل تمجيد ما يعدونه بداية العصر الحديث لهم، بل بداية تكوين الشخصية الفرنسية المعاصرة . وعلينا قبل كل شىء أن نتعرف على هؤلاء الرجال الذين أطاحوا فىَ مجالسهم الصاخبة عام ، ١٧٨٩ ، بحكم دام حوالى الألف عام ، بل أطاحوا أيضا برأس الملك الذى كان يعتبر مقدسا ، بعد أن عرفنا أهم ما يميز ثقافتهم وتعليمهم .
فما السمات الرئيسية لتلك المجالس المتتالية التى حولت فرنسا إلى جمهورية - سميت «بالجمهورية الأولى» ؟ كيف أصبحوا عندما عملت الأيام على صهر ما تعلموه فى مدارسهم ، بعد أن انتقلت فلسفة التنوير ومسلمات القرن الثامن عشر من عالم الكتب والفكر إلى الواقع والسياسة . فالبلد يغلى لتضارب الآمال والأحلام والمصالح ، والشارع الباريسى يفرض حكمه بالذبح والإرهاب ، واجتماعات المجالس التشريعية تقع تحت كل هذه الضغوط . كيف أصبحوا فى هذا الجو من التوتر الانفعالى المتشنج ؟ .

***

أول ما نلاحظه دور الخطابة في هذه الاجتماعات - وما العجب في هذا وكلهم تلاميذ الخطيب الروماني الشهير «شيشرون» - حيث الجمل الرنانة ، والمواقف المسرحية البطولية - مثل مواقف «ميرابو» و «دانتون» وآخرين أقل شهرة - وروح التنافس في إظهار بذل الذات والتضحية ، التي بلغت ذروتها في «ليلة ٤ أغسطس» (١٧٨٩) الشهيرة ، حيث تنازل النبلاء بالإجماع عن كل إمتيازاتهم التي ورثوها عن أجدادهم منذ قرون ، ثم الإحساس بأن أوربا ، بل العالم كله «ينظر إليهم» ، ويعجب لما يقومون به من بطولة فريدة لم تر مثلها البشرية ، ويقينهم أنهم يصنعون أعظم بل أهم حدث في تاريخ الإنسانية ، حدث لم يسبقه ولن يلحقه مثيل . كان هذا الشعور يتبادله أعضاء الجمعيات المتلاحقة وتؤكده الصحافة (٢) التي كانت تنقل للجمهور العريض أحداث ما يدور في قاعات الاجتماعات : فالاجتماعات كانت علنية ، والصحافة تكتب لتقرأ بصوت عال وكأنها خطب .

وكثيرا ما كانت الصحف تبني المبالغات الكاذبة على إشاعات يتعطش الجمهور إلى تصديقها . وكان الجميع يعيش حلم تحقيق حياة أفضل وأنبل وأكثر فضيلة ، بل كانوا واثقين أنهم يفعلون هذا ليهدونه إلى البشرية كلها ، وكأنهم يلعبون درو سيدنا عيسى عليه السلام «في الدين المسيحي» ، حيث نراه يقدم نفسه قربانا لخلاص الانسانية (٣).

وكانت الثقة كاملة في أن شعوب العالم تنتظر من فرنسا أن تهديها بعد ذلك خبرتها وحكمتها وريادتها لإسعادها ، بعد أن قاست هذه الشعوب الأمرين ، ولقرون عديدة ، على أيدى الطغاة .

رأينا أن نقدم هنا أفضل مثل يلخص هذا الاعتقاد العام ، وهو رواية كتبت في ذلك الزمن ، عنوانها «كراوون» والمضطهدون الثلاثة ، وهم الموسكوفى والفارسى والإفريقى الذين يلجأون إلى فرنسا بعد صعاب كبيرة فأعداؤهم يسيطرون على الحكم بالإرهاب ويتوسلون كل على حدة إلى الفرنسيين أن يهبوا لنجدة مواطنيهم ويمنحوهم «قوانينهم وحكمتهم» (هكذا) . ويعد كل منهم فرنسا باحتكار التجارة مع بلده كمكافأة على هذه النجدة ، ونرى ، في هذه الأثناء ، الفرنسيين يستعدون «لتخليص هذه الشعوب البعيدة ، وليحطموا أغلالهم التعسفية [٤] » إنها أكثر من قصة : إنها برنامج سياسى مثالى ونفعى ، في الوقت ذاته ، يترجم أحلام ١٧٩١ ، التى ستتحقق بعد ذلك.

ونلاحظ بالطبع أن الأسماء لاتينية أو على الأقل ، لا علاقة لها بالعصر نفسه ، والقصة قريبة جدا من قصص الفضيلة والحكمة التى دأبت التربية الكلاسيكية على تلقينها لتلاميذ ذلك العصر ، غير أن الحكيم هنا ليس كاهنا فرعونيا ، أو الها إغريقيا ، وإنما الشعب الفرنسى نفسه .

وفى الجمعيات التشريعية توالت الكلمات التاريخية ، فى نظرهم ، لعمالقة ذوى عبقريات فذة ، ومواقف بطولية لمعارك أسطورية ، وكأن الأمر كله (كما نراه نحن ، وعلى عكس ما كانوا يعتقدون ويعتقد المفتونون بهم) مسرحية هدفها تحديد مصير الإنسانية وتحسينها ، على أيدى آلهة تمثل أمام جمهور من شعوب العالم ، جمهور ينتظر لاهثا أن يحرر على أيدى الثوار الفرنسيين . إن هؤلاء الثوار لا يتحدثون إلا ليسجل التاريخ كلامهم ، فهم لا يفعلون إلا ما يصلح مستقبل العالم، ولا يموتون إلا فداء لأفكار ستحول الأرض إلى جنة يسعد فيها الفقير قبل الغنى ، والضعيف قبل القوى .

ويبدو لنا أن ثورة الفرنسيين على نظام حكم دام ألف عام ، وتحطيمهم إياه ، ومعاملة الملك على أنه بشر عادى وليس ظل الله على الأرض ، بل والإحساس بأنه رهينة جمعهم . لعب هذا الواقع الجديد عليهم – والله أعلم – دور عقدة «أديب» فى النظرية الفرويدية . إذ كان «قتل الأب» هو الوصول إلى سن النضج والحكمة والحرية الذاتية . وبما أن الملك لم يكن يلعب وحده دور الأب بالنسبة لشعبه المثقف ولكن كان المثل الأعلى ، وهو روما ، يسيطر أيضا عليهم من خلال ثقافتهم المنغلقة على سيرتها ، وبما أن تاريخ روما كان المثل الأبدى الذى لا يضاهى ، فقد شعروا أنهم أصبحوا الآن هم أنفسهم البلد الذى حكم العالم كله

لعدة قرون [٥].ومثل الشاب الذى يقتل خوف أبيه فى داخله ، ويشعر أنه حل محله فى الحياة ، نرى جيل الثورة يتكلم ويكتب - ثم نراه يحارب - بصفته القدوة ، مثلما أصبحت روما القدوة منذ نشأتها حتى يومهم هذا. شعروا أن ما وصلوا إليه من حكمة يؤهلهم لتعليم البشرية كلها المبادىء التى يحاربون من أجلها ، من أجل حياة أفضل لهم . فكانت الصرخة الشهيرة : «الحرية والمساواة والإخاء أو الموت» . وقد وصل إحساسهم بذاتهم إلى حد نكران الجميل ، وإغفال ما كانوا يدينون به للثورات السابقة ، ثورتى ١٦٤٢ و ١٦٨٨ فى انجلترا ، والثورة الأمريكية التى اشترك فيها العديد من النبلاء الفرنسيين ، وتعلموا منها الكثير ، كانوا يتكلمون ويكتبون ويرددون مبادىء جديدة عليهم هم ، وكأنهم أول من نادى بها، والواقع يقول إن الانسانية عرفت هذه المبادىء من خلال أديان وفلسفات قد تكون بعيدة عنهم ، مثل الدين الاسـلامى أو قريبة منهم مثل أفكار الإنجليزى «لوك» (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، التى شملت كل ما قيل عن الديمقراطية ، والنظام السياسى فى عصرهم . لقد استفاد ، من كتابات «لوك» ، فلاسفة التنوير ومفكرو الثورة الامريكية ، قبل أن تعود هذه الأفكار إلى فرنسا . ولكنهم كانوا يتكلمون وكأن فرنسا - منذ جمهورية روما الفاضلة المثالية - هى الوحيدة صاحبة الفضل على العالم ، مثل روما التى شكلت أوربا لقرون حتى العصر الحديث .

والغريب أن هذا الشعور العام ، الشعور بأنهم يقومون بعمل فريد ، عالمي الصدى ، لخير الإنسانية جمعاء ، صاحبهم منذ بداية الثورة ، في أول أشهرها في سنة ١٧٨٩ ، وهكذا أفرزت الثورة بنفسها ، ومنذ اليوم الأول ، أسطورتها (٦) التي عاشت بعد ذلك حتى مر قرنان من الزمن عليها ، دون أن يستطيع أعداؤها من الفرنسيين أنفسهم أن ينالوا منها .

ولكن اليمين واليسار ، اللذين أفرزتهما أيضا تلك الثورة نفسها، التأم شملهما بمرور قرنين من الزمن ، وظهرت أخيرا الدراسات الموضوعية للجيل الجديد من المؤرخين ، كان أغلبهم وأشهرهم من الشيوعين السابقين (مثل المؤرخ الكبير «فرانسوا فوريه») (٧) . مر هؤلاء «المؤرخون الجدد» بالمدرسة الماركسية اللينينية ، في بداية حياتهم، وكانت الدولة البلشفية قد استمدت شرعيتها التاريخية كامتداد للثورة الفرنسية ، فكانت صدمتهم كبيرة عندما انتقلوا من التمجيد المطلق لها ، حسب تراثهم اليساري ، إلى الدراسة الموضوعية ، بعيداً عن انتمائهم الحزبي السابق . وهكذا قرأنا بأقلامهم ما لم نكن نتخيل قراءته منذ بضع سنوات : رأينا مؤرخين فرنسيين يعترفون بصدق ودقة وموضوعية الدراسات الأنجلو - ساكسونية السابقة ، ويعترفون بحقائق كان الكلام عنها قبل ذلك يعتبر كفرا وزندقة.

لم تعد الكتابات عن «الثورة الكبرى» تصنف باليسار المادح أو اليمين المهاجم ! وتكشفت للجمهور الفرنسي حقائق مذهلة عن جمهوريتهم الأولى ، بعد أن انتصرت أخيرا ، وأصبح الجميع فى فرنسا يؤمن الآن بقدسية المبدأ الجمهورى .

★★★

نظرة سريعة إلى أهم أحداث ذلك الزمن العاصف ، الذى دام عشر سنوات ، ستحدد لنا «موقع الحملة على مصر» على خريطة الثورة ، وستشرح الأبعاد الحقيقية لاتخاذ قرار شنها دون إعلان حرب على تركيا ، باعتبارها الدولة المالكة للأراضى المصرية آنذاك .

فى شهر مايو من سنة ١٧٨٩ ، عقد نواب وممثلو «طبقات الشعب» الثلاث (النبلاء والقساوسة والعامة) اجتماعا سرعان ما انفجر محدثا ثورة عنيفة متلاحقة الأحداث ، حتى أصبح على من يريد فهم ما حدث بالضبط وكيفية حدوثه بهذه الصورة العنيفة بالذات ، عليه أن يدرس كل يوم من أيام هذا العام على حدة . كان كل يوم يزيد من سرعة العجلة التى تلقى بفرنسا وبشعبها إلى مصير غريب لم يتوقعه أى من هؤلاء النواب ، الذين اجتمعوا فى بادىء الأمر ، وبأمر الملك نفسه ، وكلهم حب وتقدير لمليكهم المفدى ، ثم حكموا عليه، بعد ذلك بالإعدام فى غضون ثلاث سنوات لا أكثر !

فقد كان أول اجتماع لممثلى الطبقات الثلاث يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩ ، وتوالت المصادمات متلاحقة، فكانت سببا فى خلق المناخ الذى جعل الشعب الباريسى يستولى بالسلاح على سجن «الباستيل» فى الرابع عشر من شهر يوليو من السنة نفسها ، بعد قتل مديره ونقيب التجار . لقد بدأت إذن إسالة الدماء عفويا بعد شهرين فقط من اجتماع سرعان ما أصبح «المجلس التشريعى» .

ولكن الريف بدأ ثورته المضادة ، وانتشرت الاغتيالات فى كل مكان .

وفى الرابع من أغسطس ، تنازل النبلاء عن امتيازاتهم ، وفى السادس والعشرين من الشهر نفسه ، كان « إعلان حقوق الإنسان والمواطن » .

فى هذه السنة ، الحافلة بالأيام التاريخية – وهى السنة الأولى بعد اندلاع ما سمى بـ «الثورة الكبرى» – استولى المجلس باسم الشعب على ممتلكات الكنيسة فى شهر نوفمبر . وبعدها بثلاثة أشهر، – فى فبراير من العام التالى ١٧٩٠ – ألغى نظام الأديرة ، وحرمت حياة الرهبنة على الكاثوليك ، كما رفض بعد ذلك بشهرين اعتبار الدين الكاثوليكى – وهو دين الغالبية العظمى للشعب الفرنسى المؤمن – دين الدولة . وفى يوليو تقرر «التنظيم المدنى» الجديد للكنيسة ، إذ أصبح

القسيس يقبض فيه راتبه من الدولة ، وكأنه موظف بها . تغير جذرى تلاه فى نوفمبر قانون يحتم على القسيس حلف اليمين للدستور ، فبادر بابا روما بإصدار قرار برفض هذا التشريع : ومن ثم أصبح هناك قساوسة تابعين للكنيسة يعدون خارجين على قانون الدولة ، وقساوسة قبلوا وظيفتهم المدنية الجديدة ، فعدهم المؤمنون خارجين على الدين ، وهكذا كان أول تطبيق عملى لإعلان حق الإنسان فى اعتناق أى فكر يريد ، تكفير للغالبية العظمى من الفرنسيين ، المؤمنين بكاثوليكية روما العتيدة ؛ جاء ذلك بعد أشهر قليلة من إعلان ضرورة حرية الفكر : هكذا بدأت ازدواجية المبادىء من خلال تطبيقها .

وتوالت القرارات والأحداث ، إلى أن حاول الملك وعائلته الفرار إلى خارج فرنسا ، فكانت سنة ١٧٩١ نقطة تحول فى علاقة الشعب بالحكم الشرعى . إذ لم يعد الشعب يثق بمليكه ، الذى كان محبوبا من قبل . ولم ينصرم العام ، حتى كانت فرنسا قد ضمت إلى أراضيها مدينة «أڤينيون » ومقاطعة «كونتا ڤينيسان » ، وكانتا من ممتلكات البابا فى جنوب فرنسا ، مما تسبب فى ثورة ومذابح فيهما . واستمرت الاغتيالات فى الأقاليم ، بل وفى باريس، بينما أعلنت «الجمعية التشريعية» الجديدة الحرب على النمسا فى أبريل من سنة ١٧٩٢ ؛ كما أعلنت الحرب على القساوسة الرافضين حلف اليمين للدستور وعدتهم «مشبوهين»، وكانت

هذه الصفة هى الاسم الجديد الذى سيطارد بعد ذلك كل من يعد لسبب ما عدوا للثورة - وما أكثر الأسباب الواهية . وكان القرار الخطير فى يوليو ، وهو اعتبار «الوطن فى خطر» ، تلاه فى سبتمبر إعلان «الإرهاب» كسياسة للدولة ، ثم إيقاف سلطات الملك ، وسجنه مع عائلته ومحاكمته فى ديسمبر بعد إعلان الجمهورية .

★★★

بدأت الحرب ضد النمسا بهزائم منكرة للجيش الوطنى ، وكان أغلب ضباطه قد فروا خارج البلاد مثل باقى النبلاء . وكان قرار التخلص من أعداء الداخل أول نتيجة للهزيمة ، فهجم الغوغاء على السجون ، وذبحوا السجناء ، وكان أغلبهم «مشبوهين» من نبلاء وقساوسة ، وأبرياء ، لم تتم محاكمتهم .

ثم دارت دفة الحرب ، وبدأت الانتصارات العسكرية ، واستولت الجيوش الفرنسية على كثير من المقاطعات المتاخمة للحدود ، كما استولت على بلچيكا . وأعلنت «الجمهورية» فى سبتمبر من عام ١٧٩٢ ، ثم كانت محاكمة الملك بتهمة الخيانة العظمى والحكم عليه بالإعدام وتنفيذه فى بداية ١٧٩٣ . واتسع نطاق الحرب ، إذ شملت إلى جانب أعداء فرنسا من حلفاء النمسا ، كلا من انجلترا وهولندا ثم أسبانيا . وأمرت الجمعية الحاكمة آنذاك تجنيد ثلاثمائة ألف فرنسى من الأقاليم،

وأمرت بإنشاء محكمة جنائية ثورية لمحاكمة الخونة والمشبوهين . وفى الوقت نفسه بدأ التمرد فى مقاطعة «ڤانديه» فى غرب فرنسا ، بعد أن جرت فيها اغتيالات ومذابح عديدة ، بسبب رفض أهلها الكاثوليك قرار التجنيد ؛ وهم بذلك يضربون أكبر مثل على ما يعرف بـ «اليمين» فى فرنسا ، وهم الرافضون لفكرة الجمهورية بصورة مطلقة .

وفى العام نفسه - ١٧٩٣ ، وهو ما يعرف بـ «عام الثورة الحمراء» - مُنيتْ الجيوش الفرنسية بالهزائم فى الخارج ، بينما كان الصراع على السلطة فى باريس على أشده ، فقد قويت شوكة الثوار الباريسيين ، وأصبحوا يهددون أعضاء الجمعية المنتخبين أنفسهم ويتهجمون عليهم حتى فى قاعتهم ، ليفرضوا عليهم إرادة الشارع الباريسى . فانشق أعضاء المجلس نفسه إلى تيارات متناحرة ، خاصة أن الأقاليم وممثليها كانوا يرفضون سيطرة باريس وسكانها على نواب مقاطعات فرنسا الأخرى . واندلعت الحرب - بمعنى الكلمة - فى مقاطعة «ڤانديه» وما حولها فى غرب فرنسا ، ضد جند الحكومة الجمهوريين الملحدين ؛ وتوالت فى الوقت نفسه هزائم الجيش على الحدود ، فتقرر إعلان «الإرهاب» كسياسية للدولة لإنقاذ الموقف . وإنقاذ الثورة . فقد كانت البلد تعانى أيضا من اضطرابات دموية فى الأقاليم ، حتى قيل مثلا إن

الجيش الجمهورى «استرد» مدينة «ليون » وهى من أكبر المدن الفرنسية؛ وكأن الأعداء الغرباء هم الذين كانوا يسيطرون عليها . ناهيك عن دخول الانجليز إلى «تولون» فى جنوب فرنسا ، بعد أن فتحها أهلها للعدو .

وفى ظل هذه الظـروف المأساوية قررت الجمعية أن تظل «الحكومة ثورية» إلى أن يتحقق السلام . وفى هذه الأثناء ، انقلب أعضاء الجمعية على أنفسهم فأصبحوا يتبادلون الاتهامات فيما بينهم إلى حد الاتهام بالخيانة ، فكان الحكم بالإعدام على كل التيارات المختلفة بالتوالى . واستمر الوضع حتى نهاية سيطرة «روبسبيير» على الحكم، وديكتاتورية «لجنة الإنقـاذ العـام» ، ولم يتـبق فى الساحة غير المنتفعين بالثورة ، بعد أن قضى على «روبسبيير» وأصدقائه من «اليعاقبة» .

وبسقوط هؤلاء اليساريين المتطرفين فى يوليو ١٧٩٤ ، وبانتهاء «الإرهاب» كسياسة للدولة ، بدأت صفحة جديدة فى قصة الثورة : أعيد تنظيم الأمور ، فكانت على شكل ردة يمينية ، لم تكن - بأية حال - أقل دموية مما سبقها من «الإرهاب الأحمر» ، إلا أنها سميت «بالإرهاب الأبيض» ، لون الملكية والنبلاء والكاثوليك بطبيعة الحال . وانتشرت الفوضى فى مقاطعات الشرق والجنوب ، ولكن حرب «الڤانديه» فى

الغرب انتهت أخيرا ، بعد إبرام معاهدة للصلح مع ما تبقى هناك من ثائرين على النظام الجمهورى . وفى هذه الحقبة تمت محاكمة الذين تسببوا فى إعدام آلاف السجناء ، أثناء «الإرهاب الأحمر» ، بصورة عشوائية وبطريقة وحشية مثلما فعل «كارييه» ، مندوب الحكومة ، فى مدينة « نانت» فقد كان لكثرة عدد المحكوم عليهم،(وغالبا ما كان ذلك يتم دون محاكمة) ، يضعهم فى قوارب يغرقها وسط النهر العريض . واستمرت الاغتيالات مع الأحكام بالإعدام فى باريس .

وفى الخارج ، اعترفت المملكة البروسية بالجمهورية الفرنسية ، بينما ضمت الحكومة الفرنسية بلجيكا إلى أراضيها . وعرف لأول مرة ضابط يدعى «بونابرت» ، ساعد فى أكتوبر ١٧٩٥ ، على سحق محاولة للملكيين المتظاهرين للسيطرة على الحكم ؛ ثم جاءت الحكومة الجديدة ، حكومة «الإدارة» ، إلى السلطة .

وفى العام التالى ١٧٩٦ ، عين الجنرال بونابرت قائدا لجيش الحملة على إيطاليا ، ولم يكن أهم جيش ولا أخطر موقع ، بينما عين الجنرال «مورو» الشهير على رأس الجيش الذى يحارب على الحدود الشرقية لفرنسا . واستمرت المعارك مع العدو الخارجى ، بينما توالت ، فى الداخل ، مؤامرات الملكيين تارة ، ومؤامرات متطرفى يسار ذلك العصر

تارة أخرى . وفى كل مرة تحبط حكومة «الإدارة» المؤامرة . وهزمت فرنسا على حدودها الشرقية ، بينما انتصر بونابرت فى ايطاليا . ويفشل الجنرال «هوش» فى حملته لمساعدة أيرلندا ضد انجلترا . وكان «هوش» هذا أكثر جنرالات الثورة الشبان صيتا وشعبية وقد وافته المنية بعد ذلك بسنة واحدة ، بينما كان بونابرت ينهى الحرب مع النمسا، منتصرا ، فى إيطاليا ، ليصبح البطل القومى الأوحد : لقد حقق السلام، وهزم العدو بشكل لم يكن متوقعا ؛ إذ كانت أخطر المعارك شأنا فى وسط أوربا ، على حدود فرنسا ، فاستطاع أن يهزم النمسا باحتلال مستعمراتها ، فسلمت . وانتصرت فرنسا ، وبدأت المفاوضات بفضله . وفى أول عام ١٧٩٨ ، دخلت الجيوش الفرنسية سويسرا ، ثم روما ..

كلف بونابرت بطل الحرب والسلام ، بغزو انجلترا بعد ذلك ، ولكنه أدرك استحالة تحقيق هذا الهدف ، فطرحت فكرة غزو مصر لضرب المصالح البريطانية . وبتوكيل من حكومة «الإدارة» بدأ بونابرت يستعد لشن حملة على مصر فى شهر مايو من العام نفسه . ولكن الحرب اشتعلت فى إيطاليا مرة أخرى بسبب احتلال روما ؛ وفى الوقت نفسه قام تحالف بين تركيا وروسيا وانجلترا ومملكة نابولى ضد الجمهورية الفرنسية .. لاحتلالها مصر .

واستمرت المعارك عند نهر «الراين» ، على الحدود الشرقية مرة أخرى ، وأعلنت فرنسا الحرب على النمسا مرة أخرى . وتتلاحق الهزائم ، سواء فى إيطاليا أو على الحدود الشرقية لفرنسا؛ ويقال إن بونابرت ترك جيشه سجينا مهددا فى مصر عند سماع هذه الأنباء ، فأبحر من الاسكندرية متجها إلى فرنسا فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٧٩٩ ، ولكن يشاء الله أن تنقلب الموازين وترجح كفة فرنسا فى الحرب أثناء رحلة العودة وتحرز الجيوش الفرنسية انتصارات متلاحقة ، وتنجح فى صد الغزاة المنتصرين ، ويصل بونابرت بعد زوال الخطر .

نزل بونابرت على أرض فرنسا فى التاسع من أكتوبر ١٧٩٩ ، وبعد شهر واحد بالضبط ، أى فى التاسع من نوفمبر ، قاد الانقلاب العسكرى الذى وضعه بالقوة على رأس الدولة .

تاريخ فرنسا بعد ذلك هو تاريخ الجنرال بونابرت الذى أصبح «القنصل الأول» في الحكومة الجديدة . وانتهت حكومات الثورة ، حتى أن نابليون - الذى توج نفسه إمبراطورا بعد ذلك - قد ادعى أنه الثورة فى ثوبها الجديد .

★★★

عرضنا بإيجاز شديد وبنظرة خاطفة ، ما رأيناه أهم الأحداث التى غيرت - فى عشر سنوات - خريطة فرنسا ، على المستوى الجغرافى

والمستوى الإنسانى . وإن كان القارىء عادة ما يلهث وراء هذه الأحداث المهمة المتلاحقة ، فما بال أهل البلد الذين عاصروا تلك هذه الأحداث ، وعاشوا مع المحاكمات والاغتيالات وأحكام الاعدام العديدة يوما بعد يوم . ولم يكن طبعا هذا هو الوجه الوحيد لحكومات الثورة . فالحق أن الثورة حاولت الكثير إذ كان رجالاتها ، كما سبق أن ذكرنا ، من رواد فكر التنوير . فكان الاهتمام بالعلم والفن والتعليم، كما كانت محاربة الكنيسة والنبلاء . وقد نجحت بعض مشروعاتهم التى تنعم بها فرنسا حتى يومنا هذا ؛ ولكن حقيقة الأمر أن فكرها ومبادئها لم يتبلورا عمليا وايجابيا فلم يأتيا بثمار أكيدة ، اللهم إلا انتصار التيار الجمهورى على أحزاب اليمين المختلفة ، أيام «الجمهورية الثالثة» فى ثمانينات القرن التاسع عشر .

لم تنجح الثورة فى فرنسا نفسها ولم تضع أسسا راسخة ، إلا بعد مرور قرن من الزمان وكان ، هو أيضا ، قرنا حافلا بالثورات ، وبمحاربة أفكارها . و «الجمهورية الثالثة» هى التى أعادت لفرنسا «مبادىء ٨٩» كما يسمونها ، هذه المبادىء التى كانت كفيلة بإسعاد البشر ، فذهب ضحية محاولة تطبيقها فى بادىء الأمر ، آلاف من الفرنسيين ، بل آلاف من الأوربيين .. والمصريين . ونحن – فى هذه الدراسة – لا نهتم بإنجازات الثورة نفسها، فهى خارج نطاق اهتمامنا

المباشر . وقد نذكر فيما بعد بعضا منها لضرورة شرح محاولات الفرنسيين المماثلة فى مصر .

★★★

الثورة والحرب فى الداخل

العنف الدموى كان أهم سمات تلك السنوات العشر ، التى حفلت بالأمانى والاحباطات ؛ وتلك حقيقة تبرز من خلال سرد الأحداث فى تسلسلها التاريخى باقتضاب وتجرد .

وهذا العنف الدموى اتسمت به كل الممارسات ، خاصة فى الداخل، وذلك منذ الأشهر الأولى لأول اجتماع لممثلى «طبقات الشعب» الفرنسى تحت رعاية الملك المحبوب . فقد قدر عدد الضحايا - الذين أعدم الكثير منهم دون محاكمة - بأربعين ألفا ، وقد راح ضحية الذبح فى السجون المكتظة «بالمشبوهين» آلاف الأبرياء . ناهيك عن معاملة المتمردين على دكتاتورية باريس فى الأقاليم . فعندما ثارت مدنية «ليون» على باريس وقرارات مجلسها فى مايو من عام ١٧٩٣ ، تم حصارها وكأنها مدينة فى بلد عدو يشن حربا نظامية ضد فرنسا . وبعد استسلام سكانها ، تقرر هدمها ، وصدرت من المحكمة العسكرية أحكام بالاعدام على ألفى سجين دون الاستماع إلى أقوالهم أو استجوابهم . ونظرا لضيق الوقت، فقد تم اطلاق الرصاص عليهم فى الخلاء ، «بالجملة» . هكذا مات ألفان

من الفرنسيين الرافضين للثورة . ومثل هذه المجــازر لم تذكر فى التاريخ الرسمى للثورة ، الذى كان يدعم ، بكل الوسائل ، فكرة ما يسمى «الوحدة الوطنية المقدسة» . لقد أنكروا ، بل حتى لم يذكروا أن شعب فرنسا كله ، وبكل فئاته – باستثناء النبلاء والقساوسة بالطبع – كان رافضا لحكومات الجمعيات المتتالية فى باريس . إلى أن جاءت الموضوعية المستحدثة «للمؤرخين الجدد» وأزيح النقاب عن صورة مخالفة تماما لما أرسته «أسطورة الثورة» فى أذهان الفرنسيين.

ولكن «حرب ڤانديه» وهــى أكثر الأمثلة مأســاوية لمعــاملة الثورة لمن كان يرفض حكمها ، كانت أكبر من أن تخــفى ، ولذا بقيت فى ذاكرة الفرنسيين حتى الآن . وكان الشــعار بحــق : «الحرية والمساواة والإخاء أو الموت» ، وقد بدا وكأن الموت هنا ليس فقط للشهيد الذى يحارب من أجل باقى الأهداف ، بل هـو مصير كل من يعترض على هـذا القـول .

ولذا رأينا أن نعرض «حرب ڤانديه» كمثل مجسد لما لحق بمن رفض أن يستـجيب لهـذا النـداء ، حتى وإن كان فرنسيا . والأمر يهمنا فى المقــام الأول ، لأن كل من «كليبر» و«مينو» ، اللذين سيحكمان مصر فيما بعد ، كانا من بين ضباط الجيش الذى اشـترك فيما سمى «بإعـادة السـلام إلى ڤانديه» ، أى إخماد الفتن فيها .

★★★

في شهر مارس من سنة ١٩٩٣ - أي بعد مرور مائتي سنة على الأحداث التي سنشير إليها - شيد نصب تذكاري في قرية «لوك سوربولوني» بمقاطعة «ڤانديه» ، يخلد ذكرى خمسمائة وأربع وستين ضحية ، من بينهم مائة وسبعة أطفال [٨] ، تم قتلهم وهم عزل ، على أيدي الجنود «الزرق» ، وهم جند جيش الحكومة المركزية آنذاك . كانت المقاطعة قد عرفت بتشددها الديني ورفضها لتأميم ممتلكات الكنيسة ، وتحويل القساوسة إلى موظفين في الدولة الملحدة . وقد ذكرنا أن الغالبية العظمى من قساوسة تلك المناطق في غرب فرنسا ، كانوا من المنشقين الذين رفضوا حلف اليمين للدستور . كانت الشائعات تتهمهم مثلا في مقاطعة «بريتانيا» بالتحريض على قتل من آمن بالثورة ، فمن حارب الثورة شهيد له الجنة؛ وشائعات أخرى تتهمهم بتحريض المؤمنين على عدم دفع الضرائب ورفض الخدمة العسكرية ، بل حتى الابتعاد والهروب بعيدا عن الجمهوريين ، ورفض التعامل معهم .

وعندما قررت الحكومة تجنيد الشباب لسد حاجة الجيش في حربه ضد أوربا في مارس ١٧٩٢ ، رفض المؤمنون في هذه المقاطعات ، وأهمها مقاطعة «ڤانديه» ، التجنيد . فالمطلوب منهم الموت في سبيل آراء وأفكار لا يمكن أن يوافقوا عليها . فكانت الاغتيالات وكان

العصيان الذى سرعان ما أصبح مسلحاً . ثم تحول الأمر إلى حرب أهلية بمعنى الكلمة . واقترف الجانبان فظائع تقشعر لها أبدان من يقرأ تفاصيلها .

وكان البرجوازيون ، من عامة أهل المدن المثقفين ، جمهوريين ، ملحدين من أنصار فلسفة التنوير ، بينما يتصف أهل الريف بتمسكهم بدينهم ونبلائهم . ولا ننسى أن الملك قد أصبح قديسا شهيدا بعد أن نفذ فيه حكم الإعدام على أيدى حكومة ملحدة ، لم ير فيها فلاحو هذه المناطق إلا كفارا وخونة . وساءت الحال ، فقرر الوزير «كارنو» أن الحل الوحيد لإنهاء الأزمة يكمن فى إبادة المنطقة بأكملها. وصوت المجلس الحاكم لهذا القرار الذى كانت نتيجته قتل حوالى مائة وخمسين ألفا من السكان ، ناهيك عن تدمير ما كان موجودا ، حتى انتهت المنطقة اقتصاديا لعقود عديدة . وكان الجنرال «هوش» هو المنتصر فى تلك الحرب ، التى لا تزال تثير الجدل الساخن حتى الآن . فالبعض يصر على اعتبار ما حدث فيها «حرب إبادة» ، لأن عدد الضحايا يصل إلى ستمائة ألف شهيد ؛ بينما لا يرى فيها البعض الآخر إلا صورة مكبرة لما كان يحدث فى الوقت نفسه فى باريس ، اثناء تطبيق سياسة «الارهاب» ، وأن عدد الضحايا لم يتجاوز المائتى ألف

وعلى أية حال ، فقد تعامل جند الجنرال «هوش» مع السكان وكأنهم «قوة عظمى تحتل مستعمرة» ، كما يقول المؤرخ «سوليه » [٩] . وهذا ما يؤكـده بالفعل تقرير مسئول الدولة الذى قال «الغابات ستقطع، وملاجىء المجرمين ستحطم ، والزراعات ستقلع (..) والبهائم ستصـادر. أما النسـاء والأطفـال والشيـوخ ، فسيرحلون إلى الداخل» [١٠] . وكان «كليبر» من كبار الضباط المسئولين فى تلك الحرب، وشارك فى الانتصار الدموى الكئيب . وعلى الرغم من هزيمة جيش المتمردين فإن السلام لم يستتب ، فكانت بعثة «الطوابير (العسكرية) الجهنمية» الشهيرة ، التى أتت على الأخضر واليابس . ولو أننا بحثنا عن اسـم معاصر لها ، لقلنا «فرق الموت» ، غير أنها قائمة بأمر الحكومة . وكانت صرخة الانتصار التى أطلقها الجنرال «وسترمان» فى ديسمبر من عام ١٧٩٣ : «لم يعد هناك ما يسمى «ڤانديه» ، لقد ماتت تحت سيفنا الحر ، بنسائها وأطفالها . لقد دفناها فى مستنقعات وغابات منطقة سافنيه . لا يوجد سجين واحد يثقل ضميرى . لقد دمرت كل شىء » [١١] . هكذا كان يتعامل «السيف الحر» مع أبناء جلدته ، باسم الحرية ، إذا ما اختلفوا معه فى الرأى . وهكذا كانت الدولة التى قامت لتحرر الإنسانية وتسعدها . بينما كان «كاربيه» يغرق ثلاثة آلاف من أهل مدينة «نانت» ، نظرا لضيق الوقت الذى لا يسمح بالإعدام الفردى لكثرة عدد السجناء . لم تر الحكومة

حلا لمشاكلها الداخلية إذن إلا ما سمى بسياسة « الأرض المحروقة » (١٢) التى تفنى الحياة نفسها بعد إبادة البشر .

★★★

حرب « ڤانديه » حالة خاصة طبعا ، ولها ظروفها التى قد - ونقول قد - تشرح العنف الذى عوملت به . وهذه الإبادة - بالقطع - أكثر الصفحات سوادا فى تاريخ الثورة . ولكن ، يبقى عام ١٧٩٣ بما سفك فيه من دماء على باقى أرض فرنسا ، رمزا لعنف جعل الكثيرين لا يرون فى الثورة إلا وجه « حكومة الإرهاب » الدموى ، وضحاياها الذين وصل عددهم فى باريس وحدها إلى أربعين ألفا ، منهم ثلاثة وعشرون ألفا أعدموا دون محاكمة (١٣) . ولا ننسى أن سكان فرنسا فى ذلك العصر لم يكونوا قد تجاوزوا الخمسة ملايين.

فإذا رجعنا إلى مبادىء الثورة ، «وحقوق الانسان والمواطن» ، هالنا التناقض الصارخ بين المبدأ وتطبيقه . ولكنه الواقع التاريخى ، والنذير لما يمكن أن يحدث للشعب المصرى المستعمر .

الثورة والحرب فى الخارج :

هذا الواقع التاريخى يفرض علينا رؤية خط أساسى آخر ، نراه واضحا فى سردنا السريع للأحداث ، ألا وهو الحروب التى لم تنقطع منذ إعلان أولاها فى أبريل من سنة ١٧٩٢ . وقد قيل مرارا فى الأسطورة الرسمية للثورة ، إن الممالك والإمبراطوريات خافت على

شعوبها من المثل الرائع الذى يضربه شعب فرنسا باعتناقه مبادىء الثورة ! والمعروف أن الثورة قامت لصالح الجماهير وضد الطغاة المتوجين ؛ ولذا ، أغار طغاة أوربا على الجمهورية الوليدة لقتلها فى المهد قبل أن تنتشر عدوى أفكارها المسمومة ، فتتزعزع العروش وينتهى عهد الملكية والحكم المطلق فى العالم . وكان يقال أيضا إن جنود فرنسا الجمهورية ، هم جنود أول جيش وطنى يدافع عن مبادئه - وأين جيش «كرومويل» في انجلترا القرن السابع عشر ؟! - وأول جيش يحارب فى سبيل تحرير الشعوب الأخرى . فكان انتشار أفكار الثورة والديمقراطية حيث ذهب الجند الفرنسيون ، فألقوا ببذرة الحرية، بل استشهدوا فى سبيل انتصارها وهم ينشدون «المارسييز» ، فداء تحرير الإنسان .

قد يكون أفضل تعبير لما حدث «للمؤرخين الجدد» من صدمة عند إعادة قراءة تاريخ بلدهم ، ما قاله أحدهم : «لقد استشطت غضبا يوم اكتشفت حقيقة نشيد المارسييز الذائع الصيت ، الذى حرمنى تعليمى من رؤيتها . إنه يقول بالحرف الواحد : «أتسمعون فى حملاتنا ، زئير هؤلاء الجند المفترسين * ! لقد اكتشفت أننا فى عام ١٧٩٢ ، كنا نحن المعتدين . نحن الذين أعلنا الحرب على أوربا . إن الكذب الوطنى لا قيمة له عندى» (١٤) .

* أنظر الملحق فى الجزء الثاني من الكتاب .

نعم . لم تفرض أوربا الحرب على فرنسا التى كانت تقوم بثورة لا يمكن اعتبار أفكارها جديدة فى ذلك العصر . وقد سبق أن قلنا إن مثقفى أوربا كلهم كانوا فى غالبيتهم العظمى ، من أتباع فلسفة التنوير، وكان لابد لهم أن يصلوا إلى نتائج الثوار الفرنسيين نفسها على المستوى السياسى ، وكان الاتجاه «اليسارى» له أنصار فى كل البلاد .

وكانت انجلترا قد احتفلت فى سنة ١٧٨٨- أى قبل عام واحد من قيام الثورة الفرنسية- بمرور مائة عام على ثورتها الثانية، ثورة ١٦٨٨، التى أرست، مع نظريات المفكر الإنجليزى المعاصر لها، «لوك» كل ما وصل إليه الغرب من تأكيد للفكر الديمقراطى وتقنينه، وكانت هناك أيضا الثورة الأمريكية من أجل التحرر والحرية، لقد كان لها أكبر صدى فى العالم القديم، وفى فرنسا بالذات، إذ اشترك الكثير من النبلاء فى الحرب ضد انجلترا، بجانب الأمريكيين الثائرين على ملكهم الإنجليزى، كان أشهرهم الضابط الفرنسى «لافاييت» الذى حارب مع «چورچ واشنطن» . لقد لعب «لافاييت» بعد ذلك دورا مرموقا أثناء الثورة، وهو الذى اقترح، مثلا، «إعلانا أوربيا لحقوق الإنسان والمواطن» ، على غرار «إعلان الحقوق» الأمريكى . وكان «توماس چفرسون» (الذى صاغ الإعلان الأمريكى سنة ١٧٧٦) سفيرا لبلاده فى باريس فى ذلك الوقت ، فساعد على صياغة النسخة الفرنسية التى أعلنت فى أغسطس من عام ١٧٨٩ .

والحق ، أن مثقفى أوربا ، وألمانيا بالذات ، هللوا فرحا لقيام الثورة فى فرنسا ، ولم تكن الأحزاب الثورية قليلة فى البلاد الأخرى ، كما سنرى فيما بعد . وزادت الفرحة عندما أصدرت الثورة ، فى الثانى والعشرين من مارس ١٧٩٠ ، «إعلان سلام إلى العالم» ، أكدت فيه حق الشعوب فى تقرير مصيرها .. ولكنها أعلنت الحرب عليهم بعد ذلك بسنتين دون سبب واضح يبرر العدوان . ثم كانت «مذابح سبتمبر» فى السجون للأبرياء والمشبوهين ، تلتها محاكمة الملك وإعدامه وبطش «حكم الإرهاب» : أحبط كل هذا حماس المؤيدين ، وتحولت نظرتهم من إعجاب وانبهار إلى نقد وسخط . وزاد «الطين بلة» أن الجند الفرنسيين شوهدوا على حقيقتهم فى البلاد التى «حرروها» . والسؤال هنا ، طبعا ، ما الضرورة الفعلية وراء «تحرير» البلاد بالسلاح فى ذلك الوقت الحرج من الثورة المشتعلة تحديدا ؟

★★★

تؤكد الدراسات الحديثة أن «الثورة هى الحرب» فكيف حدث ذلك؟. يبدو ، أن الجميع كان يريد الحرب ... اللهم إلا «روبسبيير» المعروف بأنه «سفاح الثورة» !

كانت الملكة «مارى - أنطوانيت» وحزبها فى البلاط الملكى وخارجه ، مثلا ، تأمل فى قيام حرب تنتهى بهزيمة حربية لفرنسا ، تخلصها من

أصحاب الآراء السياسية الجديدة ، فتعود الأمور إلى سابق عهدها ، وكانت على اتصال بكثير من النواب الذين كانوا يخطبون ود البلاط سرا ، ناهيك أيضا عن الضباط ، لأنهم كانوا ، كلهم ، من النبلاء . لكن إمبراطور النمسا المسيطر على كثير من بلدان أوربا ، كان مشغولا مع حلفائه بما هو أخطر عليهم بكثير مما يحدث في باريس ، وهو صراعهم مع الدولة العثمانية . لذا ، لم يستجب الإمبراطورالنمساوى لنـدا أخته ملكة فرنسا ، واكتفى بالإنذارات الشفوية .

وقد قامت الثورة سنة ١٧٨٩ ، ومرت ثلاث سنوات عاصفة ، دون إعلان حرب من أى بلد أوربى أو حتى تشكيل تحالف ضد فرنسا ، إلى أن أخذت فرنسا بنفسها المبادرة .

كان الثوار أنفسهم يحلمون بالحرب ، ولا ننسى ما سبق أن ذكرناه عن سيطرة فكرة روما وعظمتها ، ومحاولة تقمص دورها . ولا ننسى أن نوعا من جنون العظمة كان يحتم عليهم «تحرير الشعوب» ، وكان لـ «روبسبيير» قول مأثور أمام هذه الأفكار ، إذ قال بالحرف إن الحرب لا يمكن أن تنتهى إلا بإفراز دكتاتورية عسكرية ، وإن الملك - أى عدو الشعب - هو الذى يريد الحرب . أما أن تنشر الثورة أفكارها ومبادئها بهذه الصورة ، فهذا كلام لا يعقل لأن «ما من أحد يحب المبشرين المسلحين» (١٥) .

ولكن ، إذا ما انتقلنا من عالم الشعارات المثالية المضللة ، وبحثنا فى الواقع الحقيقى ، الذى عادة ما يكون مريرا ، وجدنا أن المرأى الغالب بين مجلس النواب كان يرى أن سياسة خارجية عدوانية ستساعد على حل الكثير من المشاكل التى يعانى منها البلد ، وقد قيل صراحة فى إحدى الجرائد : «لن نستطيع تحسين اقتصاد فرنسا ، ولن نستطيع شد أزر الثورة ، مادام هناك تهديد خارجى ، كما أشارت الملكة إلى احتمال حدوث غزو أجنبى» [١٦] : كان حزب «الچيروندان» هو المسيطر فى ذلك الزمن ، وقد قال أشهر نوابه آنذاك ، إن الحرب «ضرورة من أجل اقتصادنا ومن أجل الهدوء الداخلى» [١٧] . وكان الرأى العام كله متعطشا إلى سفك دماء الأعداء ، كما نرى ذلك جليا فى نجاح نشيد نواب «مرسيليا» الحربى العدوانى ، الذى عرف باسم «المارسييز» : إنه ينادى «بيوم المجد» ، والمقصود به المجد الحربى طبعا ، و«بارتواء الحقول بدماء الأعداء» .

أعلنت فرنسا الحرب على النمسا فى العشرين من أبريل ١٧٩٢ ، فاشتعلت النيران فى أوربا كلها ، ولم تنطفئ إلا فى عام ١٨١٥ .

كانت معركة «ڤالمى» فى شهر سبتمبر أول انتصار للفرنسيين ، وكانت بمثابة أسطورة ، تغنت بها ، بعد ذلك ، أجيال من تلاميذ المدارس ، على أنها فتح للشعوب وانتصار للحرية [١٨] . أما حقيقة

الأمر ، فإن أول ما أنتجته تلك الحرب ، كان «عصر الإرهاب» ، تلك الحرب التى كان مقررا لها أن تقوم تحريرا للبلاد الأوربية قبل باقى بلاد العالم ، فكانت المحاكم الثورية والقبض على «المشبوهين» ، ودكتاتورية كل من «روبسبيير» وحزب «اليعاقبة» . هذا على مستوى فرنسا . ولكن كيف كانت حال الشعوب التى «حررتها» جيوش الثورة ، وجعلت منها ما يسمى بـ «الجمهوريات الأخوات» ؟ .

تحرير شعوب أوربا

لكل بلد تراثه السياسى ، تفرضه عليه ظروف عدة ، أهمها دون أدنى شك ، موقعه الجغرافى ، وكان من ثوابت سياسة فرنسا خطان أساسيان هما اللذان يهمنا أمرهما : أولهما صداقة قديمة تربطها بالعثمانيين ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر ، حتى تهدد بهم أعداءها فى النمسا ، وثانيهما هدف أزلى ، يرجع إلى ألف عام ، وهو السيطرة على كل الأراضى التى تحدها المياه والجبال ، خاصة جبال «الألب» ونهر «الراين» شرقا ، وذلك لأن فرنسا لم تكن - على مر القرون - إلا دويلة صغيرة محدودة المساحة ، فأخذت تزحف وتمتد رويدا رويدا لتصل بأراضيها إلى ما سمى «بحدودها الطبيعية» كان هذا الهدف سببا فى سلسلة طويلة من الزيجات الملكية السياسية (١٩) ، والحروب الطاحنة ، استطاعت فرنسا خلالها أن

تضم بعض المقاطعات التى كانت مستقلة ، أو تابعة لبلدان أخرى . وكما كانت تلك هى السياسة الملكية قبل أن ينتهى عهدها ، أصبح ذلك أيضا هو هدف فرنسا الجمهورية ، عندما تخلصت من الملك فبينما هجم جيش الثوار على الحدود الشرقية ، كان السبب المعلن هو إبعاد خطر الاحتلال الأجنبى ، وصد هجوم الأعداء الحاقدين ، واستحالة عودة الحكم الملكى ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فقد كان تحرير الشعوب المجاورة على الحدود الشرقية - التى تحكمها إمبراطورية النمسا وحلفاؤها - فرضا على الثورة ، باعتبار ما قطعته على نفسها من عهود لهم . وكانت كل أناشيد هذا العصر تؤكد على هذا المعنى ، وتقول صراحة إنها تقتل الطغاه ليسعد البشر ، وقد يكون أقوى تعبير عن هذا الاتجاه ، ما كتبه العالم والمفكر الكبير «كوندرسيه» قائلا :«.... أمم تئن تحت وطأة حكم طغاة مقدسين أو غزاه أغبياء ، وتنادى ، منذ قرون ، على من يحررها» . (٢٠) وباقى كتابات «كوندرسيه» تفلسف هذا الدور لثوار فرنسا وتقننه، بينما يسانده الرأى العام ، وحتى الفنانون ، وقد سبق أن رأينا الفكرة نفسها معروضة فى سياق قصصى خيالى ، يؤكد دور فرنسا المنتظر فى تحرير الشعوب . فكان لزاما على حكومة

«الإدارة» ، بعد ذلك ، شرح الهجوم على مصر بحجة تخليصها من طغيان المماليك .

ولكن هـذا الواجب الكريم نحو البشرية ، كان يتناقض جذريا مع نداء آخر ، هو «مجد الأمة العظمى» وهى فرنسا الثورة : هذا صرح به «كامبون» أحد الحكام - على استحياء ، بينما أفصح عنه «كارنو» بعد ذلك بصورة فظة ، مؤكدا أن الدولة الفرنسية ستغنم كثيرا من الحرب ، فهذه الحرب يجب أن « تدر أرباحا » كثيرة تنقذ البلد من الإفلاس الذى يهددها فى ذلك الحين (٢١) ، ومن هنا ، كان أهم أسباب إعلان الحرب.

وبينما الاضطرابات الدموية والاغتيالات العشوائية والأحكام العفوية ترهب داخل فرنسا ، والحرب الأهلية تمزق الجمهورية الوليدة ، كانت الحرب مع أعداء الخارج ، أفضل حجة للحكومة المركزية تبرر بها عنفها بشكل منطقى : فالأعداء على الأبواب والوطن فى خطر . وقد شحذ هذا الاحساس الدائم بخطر الغزو الأجنبى ، مشاعر الكثير من الفرنسيين ، خاصة عندما توالت الهزائم ، فقد رأوا أن من واجب فرنسا إعلان الحرب على النمسا وحلفائها من ملوك وأمراء ألمانيا ، ثم على هولندا وانجلترا وأسبانيا أيضا بعد ذلك . وكان الفرنسيون سعداء بحجة تحرير شعوب البلاد التى انتصروا فيها ، وسعداء كذلك بضم

مناطق أخرى ، مثل أراضى البابا فى جنوب فرنسا ، وبلچيكا ، وغيرها من الأراضى ، وذلك على الرغم من أن غالبية سكان هذه المناطق يرفضون هذا الضم القهرى ، ويكرهون تحويلهم إلى فرنسيين بقوة السلاح .

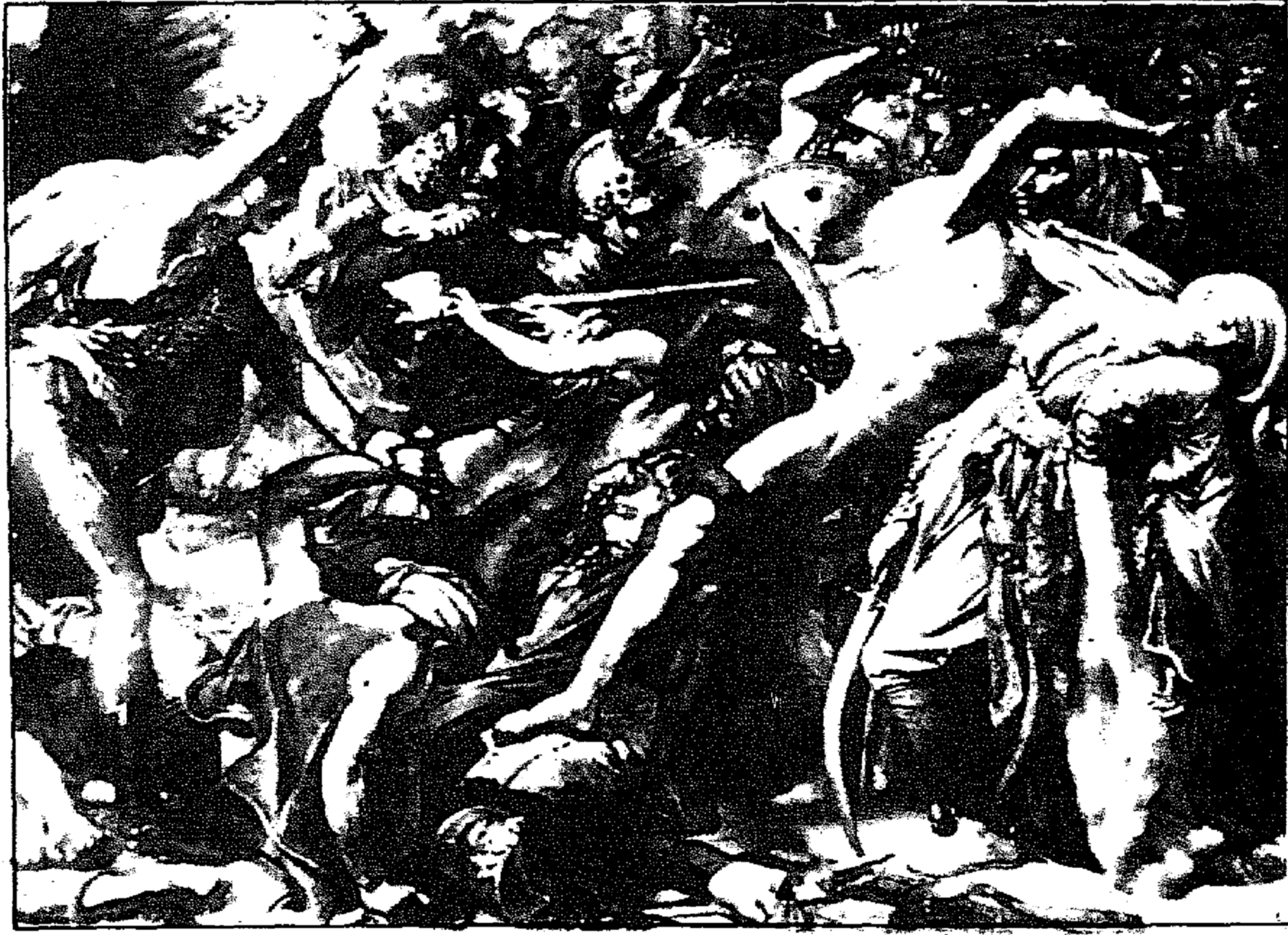
وعلى الرغم من أن الحرب بدأت بالفعل كعودة إلى سياسة فرنسا الأزلية ، فإنها تحولت سريعا إلى الرغبة فى التوسع ، وأصبحت تلك الرغبة هى الهدف الحقيقى لهذه الحروب . لقد سبق أن وأشرنا إلى جنون العظمة الذى انتاب خلفاء روما ، حتى أن الزى الرسمى لحكام البلد كان - لفترة من الزمن - على هيئة الزى الرومانى ، كما رسمه لهم الفنان «داڤيد» ، صاحب اللوحات الكلاسيكية الشهيرة عن تاريخ روما ! وكانت هذه الرغبة فى التوسع أحد مظاهر هذا الجنون وهذا التقمص للشخصية الرومانية الفذة . لذا نرى أحد الحكام يقول مؤكدا : «ستصل الثورة بحدودنا إلى نهر الراين ، وبعد ذلك ، سنفرض قانوننا على كل أوربا» (٢٢) . ألم يكن العالم المعروف أيام روما تابعا كله للقانون الرومانى ؟!

وقد لجأت الثورة إلى اتخاذ ستار مثالى رائع لفتوحاتها تلك ، إذ حولت الأراضى «المحررة» إلى جمهوريات ، سميت «الجمهوريات الأخوات» ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ، جمهوريات

سويسرا وهولندا ونابولى وميلانو وروما ... إلخ . وكان المفروض أن تتحول هذه الجمهوريات إلى دول مستقلة ، مادام الجند الفرنسيون قد حرروها . ولكن ذلك لم يحدث ، وتحولت هذه الجمهوريات إلى بلاد تابعة لفرنسا . فكيف حدث ذلك ؟

نجد الإجابة على هذا السؤال ، عندما نرى الحقيقة وراء الشعارات ، وكيف كانت تعامل هذه الدول «المحررة» من قبل «الجمهورية الأخت» ، جمهورية فرنسا ، صاحبة الفضل فى تحريرها . بل نبدأ بأراضى فرنسا نفسها ، وهى الأولى بتطبيق مبدأ حرية الإنسان .

كانت جزر الهند الغربية الفرنسية ، وأهمها «تاهيتى» ، تعامل على أنها جزء من فرنسا ، وعلى الرغم من إعلان حقوق الإنسان ، فإن أول بنوده ، وهو مبدأ الحرية ، لم يطبق على عبيد مزارع القصب هناك ، فكانت النتيجة أن الزنوج قاموا بثورة عارمة ومذابح لا حصر لها للبيض الفرنسيين أصحاب هذه المزارع ، وعندما استطاع «بريسو» أحد النواب «الجيرانديين» أن ينتزع من المجلس الحاكم حرية هؤلاء العبيد ، كان هذا سببا من أسباب اتهامه بالخيانة ، والحكم عليه وعلى أصدقائه بالإعدام (٢٣) . وبعد ذلك ببضع سنوات ، أعاد نابليون الرق هناك مرة أخرى .



ثورة القاهرة فى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨ .

أما بالنسبة للشعوب الأوربية ، فقد دهش أحد النواب الثوار من الطريقة التي تعامل بها الشعوب المحررة ، فقال : «إننا ننعم على الجمهوريات الجديدة بلقب عاطفي هو أخت أو ابنة ، ثم نتصرف معها وكأننا قوم نتميز عليها بالحرية ، فيحق لنا فرض الخراج والاستفادة منها بالامتيازات العشوائية المكلفة» (٢٤) . إن هذا النائب المؤمن حقا بمبادئ ثورته ، يشكو إذن من عدم وجود «أخوّة» في المعاملة ، وبالفعل، كان هذا هو الواقع الجديد في الثورة ، إذ أصبح شعارها بعد ١٧٩٤ «الحرية والمساواة» فقط ، بعد اسقاط كلمة «الإخاء» ، كما نرى ذلك واضحا جليا على أوراقها الرسمية ! ولكن حكام الثورة كان لهم في هذا الشأن منطق قوى لا يجادل : أيصح أن تحرر فرنسا هذه الشعوب على نفقتها الخاصة ؟!

وبدأت مأساة الثوار الوطنيين الذين فرحوا بدخول الجيوش الفرنسية بلادهم ، لينتهى عهد الاستبداد وسيطرة الطغاة ، فكانت الضرائب واستنزاف الثروات حتى خراب البلاد ، بل ومحاربة الثوار الوطنيين أنفسهم بعد أن خاب ظنهم في الجيش المنقذ . ويكتب المؤرخ «سوليه» قائلا إن الكارثة لحقت بثوار بلچيكا ، كما لحقت بيعاقبة ألمانيا (٢٥) . وكان مستوى المعيشة في هذه البلاد أعلى بكثير من مستوى نظرائهم من الفلاحين في فرنسا . وعندما

«حررت» فرنسا بلادهـم ، أجـبر حـتى فقـراء البلـد على دفـع تكاليف الحرب الباهظة وإعاشة الجند الفرنسـيين ، مما تسـبب في انهيار اقتصاد هذه المناطق . ناهـيك عن أن هـذه البـلاد كانت تتمـتع بشـعور ديني قـوى ، اسـتفزه ما يقـوم به الفرنسـيون الملحـدون مـن تحـطيم لكل مظهر إيماني .

ونجد في كتاب آخر وصفا لما حدث لهولندا ، «الجمهورية الأخت» ، فقد دخلتها الجيوش الفرنسية ومعها رتل من الثوار الهولنديين الذين سبق أن نفتهم حكومتهم الرجعية من قبل . فرح هؤلاء العائدون ، بتحويل بلدهم إلى «جمـهورية أخـت» صـديقة لجمـهورية فرنسا ، ولكن معاهدة الصلح التي أبرمتـها فرنسا مع القـوة الرجعية المهزومة في مايو عام ١٧٩٥ ، حولت هولندا «المحررة» إلى «محمية حقيقية» ، كما يقول النص الذي نقرؤه . واستولت الثورة على أراض «ضمتها» إلى فرنسا ، ثم أمرت هولندا بتحمل تكاليف معيشة خمسة وعشرين ألف جندي فرنسي وطالبت بتعويض قدره مائة مليون «فلورين» (العملة الهولندية) ، واستولت على معظم الروائع الفـنية التي أرسلت فيما بعد إلى باريس . ثم جاء بعد ذلك الاستيلاء على بلجيكا وضمها إلى فرنسا، دون استشارة سكانها . ثم حدث لسويسرا ما سبق أن حدث لهولندا . وقد يكون أحسن دليل على عنف تطبيق هذه السياسة ، ما حدث في إيطاليا ، عندما غزاها بونابرت ، بأمر من حكومة «الإدارة»

فكانت النتيجة صورة أخرى لما سبق أن حدث فى «الجمهوريات الأخوات» من كراهية وردود أفعال غاضبة .

والمعروف أن «حملة إيطاليا» صفحة من أمجد صفحات تاريخ فرنسا الحربى ، حيث تجلت فيها عبقرية الجنرال بونابرت العسكرية . لقد حول ، بانتصاراته الباهرة ، دفة الحرب لصالحه ، بينما كانت هزائم الجيوش الرئيسية فى شرق فرنسا وتقهقرها يهددان أمن فرنسا نفسها . فهزم «بونابرت» النمسا فى إيطاليا وعقد معها معاهدة للصلح أملاها هو عليها بوصفه الجنرال المنتصر على أعداء فرنسا دون استشارة الحكومة في باريس ، وحسب رؤيته هو . وكانت فى إيطاليا ، أو بالأصح ، فى دويلاتها ، حركة ثورية فرحت هى الأخرى بوصول الفرنسيين الذين سيعضدون بلا ريب ، مطالبهم الديمقراطية، ويحولون بلادهم إلي جمهوريات ديمقراطية . ولكن بونابرت كان نسخة مطابقة للثورة في سياستها ، كان لابد له أن يجعل البلاد «المحررة» تدفع ثمن تحريرها بنفسها . فقد قالها صراحة لجنده عندما تحركوا متجهين صوب الجنوب : «أيها الجند ، أنتم عرايا (...) سأقودكم إلى أغنى الحقول فى العالم . المقاطعات الثرية والمدن الكبيرة ستكون فى قبضتكم، وستجدون فيها الشرف ، والمجد والثراء ...» ، وقد كان....

عمل الجيش بالوصية ، ضباطا وجنودا : كانوا بلا أحذية وبلا ملابس ، أو رواتب ، لا يكاد يصلهم طعامهم إلا بشق الأنفس ، وكانوا ، على شجاعتهم فى المعارك ، شرسين فى نهبهم وسلبهم . وقيل إن قائدهم «ماسينا» هو «المثل الأعلى (لجنده) ، فى السلب والفجر» . وكذلك «برتييه»،وكلاهما من الشخصيات الأسطورية فى تاريخ فرنسا الحربى . أما عن بونابرت ، فكان القائد فى كل شئ .. واستطاع الضباط إرسال المال والتحف الفنية لذويهم لأول مرة فى تاريخ حروب الثورة : هذا فى حد ذاته ، يشرح الكثير من تقاليد هذا الجيش ، وهذه الحروب . وعلى أية حال ، فقد كانت أوامر حكومة «الإدارة» صريحة : لا يكفى أن يعيش الجيش على حساب السكان . ولكن ، لابد أيضا من النهب والسلب وبطريقة منظمة ومستمرة ، كما حدث فى بلچيكا قبل ذلك بعامين . و«كارنو» ، صاحب هذه السياسة ، كان يأمر ، بصراحة وباللفظ ، «بعصر الليمونة» (٢٦) ، ونقرأ الوصف الذى يؤكد «أن ما من بلد استنزف مثلما استنزفت إيطاليا» ، بعد تدمير حرياتها الصناعية والتجارية . وقد سلبت منها فرنسا ستة وأربعين مليون فرنك فضة واثنى عشر مليونا عينيا ، كما قررت حكومة «الإدارة»، فى أمر مكتوب لبونابرت ، «تحرير» الأعمال الفنية حتى تتمتع «بالحرية فى باريس» . فتم شحن كل التحف وكل الروائع –

وما أجملها وما أكثرها فى إيطاليا - إلى المتحف فى باريس . وفى باريس ، استقبلتها لجنة جرد من الحكومة .

أما عن الثوار الإيطاليين ، الذين فرحوا بوصول الجيش الفرنسى لإرساء الحريات فى جمهوريات معترف بها ، فما كان شأنهم ؟ كان لبونابرت اليد الطولى فى بلد اكتسحه ، فى حين أن الدولة لم تكن تنتظر منه أكثر من حركة إلهاء تخفف الضغط على الجبهة الشرقية . ولما نجح فى مهمته ، بل وفاق كل توقع ، بدأ يتصرف حسب الظروف وملابسات الزمان والمكان وكانت الأولوية للمعارك عنده بالطبع . ولكن ، ومع كل الكلام المعسول الذى يقال عن التخلص من الطغاة ، وإرساء مبادئ الثورة التحريرية ، كانت ثمة سياسة لا يحيد عنها . كان الهدف الأول هو «استعمال الثوار وليس خدمتهم» ، وهذا لا يعنى بالطبع عدم خدمتهم إذا ما اقتضى الأمر ، مثلما حدث فى «ميلانو» ، ولكنه كان قد «ضحى بجمهوريى ألبا» لأنه كان فى حاجة إلى عدوهم ملك سردينيا ، وحدث الشئ نفسه ، فى «تورينو» حيث كانت الظروف نفسها ، فالأوامر - والمصالح - كانت صريحة : لابد من كبح جماح أى حركة ثورية فى إيطاليا . «فاليعاقبة» الايطاليون ورقة يلعب بها وليست هدفا فى ذاتها ، خاصة أنهم كانوا يحلمون بجمهورية إيطالية موحدة ، وينتظرون العون الفرنسى لتحقيق هذا الحلم . ولكن

الجمهورية الفرنسية كانت ترى فى هذا المشروع تهديدا لسيطرتها . وبالتالى ، تخلت عنهم ، بل باعتهم لعدوهم .

ثم كانت معاهدة السلام مع النمسا ، وكأنها القشة التى قصمت ظهر البعير ، إذ أعطى بونابرت الجنرال الجمهورى ، «فينيسيا» ، الجمهورية ، إلى إمبراطورية النمسا ، مما أثار مشاعر الوطنيين الإيطاليين . وتحول المثقفون الذين أشادوا بالفرنسيين من قبل ، إلى المهاجمة الصريحة ، ثم إلى معارضة سياسية منظمة ، عندما ضمت فرنسا أيضا جزءا من شمال إيطاليا إلى أراضيها .

وفى تلك الأثناء ، كان الاستنزاف على أشده فى سويسرا ، حيث قررت حكومة «الإدارة» استخراج ثلاثين مليونا من ميزانية المقاطعات .

وكانت قد بدأت سلسلة من الثورات فى سويسرا ضد المحتل الأجنبى ، الذى جاء ليحررهم من «بغى الطغاة» ، تلتها ثورات فى هولندا وفى إيطاليا . ويقول المؤرخ «سوليه» : «نزل الخراب بهولندا وبلجيكا ومقاطعة الراين ، وتحولت إيطاليا إلى سوق محمية (من أجل مصالح فرنسا) . وأشعل هذا النهب غير الأخوى ، الثورات ضد فرنسا لأن حكومة «الإدارة» لم تستطع أن تسيطر على جشع موظفيها» (٢٧). ولكن، ألم تكن تلك سياسة حكومة «الإدارة» نفسها ، وسياسة الثورة ، منذ أول إعلان للحرب ، والتى كان ينفذها هؤلاء الموظفون بأمانة ، حتى

إن كان ذلك النهب لحسابهم الخاص ؟ ثم ألم تقم الحرب أساسا لأسباب مادية ؟

كان من أسباب الثورة على فرنسا ، السبب نفسه الذى حول قضية «ڤانديه» إلى حرب أهلية ضارية ، بسبب رفض الحاكم الجديد الملحد ، الاعتراف بالشعائر الدينية لشعوب كانت تريد الحرية السياسية ولا تريد التخلى عن معتقداتها ، خاصة أن من كان يطلب هذا التخلى هو الجيش المحرر - أو بالأصح المستعمر - الذى كان يطلب كل شئ ، حتى التخلى عن الدين ، وهو الأجنبى الغازى .

وفى غضون سنة ١٧٩٨ ، كانت كل «المستعمرات» - وهو الوصف الحقيقى لتلك البلاد «المحررة» - قد تحولت إلى ساحة حرب ثورية ضد الجيوش الفرنسية المحتلة . وزادت حدتها فى عام ١٧٩٩ ، بعد أن استولت فرنسا على روما واستباحتها ، ثم خرجت منها مهزومة فى إيطاليا ، وحرب العصابات تطارد جنودها فى كل مكان . ويسخر المؤرخان الفرنسيان اللذان أمدانا بهذه المعلومات عن الفرنسيين فى ذلك العصر، إذ يقولان: « وبسذاجة الضمير المستريح ، كان الفرنسيون يعزون هذا الشغب إلى غوغاء رافضة لقيمة الحرية ، غوغاء يلهبها تعصب وتطرف قساوسة مثل الذين لعبوا دورا فى ڤانديه . وقد شارك

بعض المؤرخين فى تصديق هذه الأوهام ، واعتبروا هذه الثورات ثورات مضادة ، بينما هى فى الواقع دفاع بدائى لشعب يحمى نفسه من قطاع طرق أجانب استباحوا البلد» [٢٨] . كلام يذكرنا بما يمكن أن يقال عن هذا الجيش نفسه عندما نزل على مصر .

يلاحظ كاتبا هذا التعليق اللاذع ، أن هذه السياسة العمياء هى التى ستصل بنابليون إلى النتيجة نفسها .. والهزيمة نفسها فى «المأساة الأسبانية سنة ١٨٠٨ والمأساة الألمانية سنة ١٨١١» . هذه الكلمات تختم جزءا من الكتاب ، كان عنوانه «ثورات ضد الفرنسيين (...) نتائج فتح لم يلطفه الإخاء الثورى » وهو عنوان يلخص أحسن تلخيص ما يسرد علينا من سوء معاملة للدول المحررة ، و«الجمهوريات الأخوات» .

أما المؤرخ «سوليه» ، فهو يعلق على هذه الأحداث غير المتوقعة من فتح ، كان المرتقب منه أنه ينشد المحبة والتحرير ، قائلا إن فرنسا أصبحت ، بعد عشر سنوات من الثورة ، عامل القلق السياسى فى أوربا ، وسبب عدم استقرارها ، وإن ثقة الثوار العمياء فى تفوق مبادئهم ، جعلتهم يعتقدون أنهم لا يهزمون أبدا فبدأوا يحلمون

بالوصول إلى الهند وإلى روسيا . ويذكر «سوليه» كلمة لأحد حكام حكومة «الإدارة» ، يفخر فيها بأنه على رأس «أمة حربية ، مجالها الحروب» (٢٩) .

★★★

استمرت الحروب مع إنجلترا بلا هوادة ، فهى التى أذلتهم فى الماضى القريب ، فانتقم منها الحكم الملكى بإرسال مساعدات للثوار الأمريكيين ضدها ثم حاولت الجمهورية غزوها بعد ذلك ففشلت ، بل وفشلت أيضا فى محاولتها مساعدة ثوار ايرلندا . وبعد حملته الباهرة على إيطاليا ، كلف الجنرال العبقرى المنتصر بونابرت بغزو إنجلترا مرة أخرى ، وعند اقتناعه بعدم جدوى المحاولة ، كلف بحملة على مصر . وبينما كانت الثورات ضد المحتل الفرنسى تشتعل فى أوربا ، ذهب بونابرت إلى مصر ومعه الجيش الذى حارب به فى إيطاليا ، حيث غنم انتصارات مادية وعسكرية ، حولته هو وقائده إلى أسطورة حية .

حملة مصر إذن حملة أخرى فى سلسلة الحملات والحروب التى بدأتها الثورة سنة ١٧٩٢ . والقارئ الموضوعى ينتظر من المؤرخ الأمين أن يصف أيضا ما وقع من أحداث فى مصر ، وما تم فيها على أيدى جند ، عرفنا ما فعلوا فى البلدان الأخرى . وجند الحملة

على مصر كانوا عائدين من إيطاليا منتصرين بعد أن استباحوها وهيجوا فيها الثورات ضدهم . والمتوقع أن نقرأ تفاصيل الحملة على مصر لأن المؤرخين يتحدثون هنا عن الثورة وكل حروبها ، فى الداخل والخارج .

ولكن القارئ المتعطش لمزيد من المعلومات ، يعجب لأن الجملة أهملت بصورة لافتة للنظر ، على الرغم من أنها تعتبر جزءا من ملحمة «جيش إيطاليا» الجمهورى المجيد .



لقد قرأنا معا كتابين تم اختيارهما من بين عشرات الكتب التى نشرت أخيرا عن تاريخ الثورة ، بمناسبة مرور مائتى سنة عليها . وقد وقع عليهما الاختيار دون غيرهما لأسباب موضوعية ، أهمها عدم إغراقهما فى تفاصيل قد تضلل القارئ غير المتخصص ، فقد كان فى تعبيريهما إيجاز لا نجده في الكتب الأخرى . علاوة على أن أحدهما – كتاب «سوليه» – يهتم بصفة خاصة برؤية المؤرخ اليمينية ، التى تنحاز للقضية الدينية ، وما تسببته من مشاكل للجمهورية ، بينما رسالة الكتاب الآخر ، تختلف اختلافا كليا ، وإن كان كلاهما وصل إلى النتيجة نفسها .

و «لسوليه» هدف علمى محترم ، فإذا كانت الجمهورية قد شنت حربا شعواء ضد الكنيسة - وفى الواقع أنها كانت أعنف بكثير من حربها ضد أى عدو آخر - فإن «سوليه» كان يهدف إلى إقناع القارئ أن الكاثوليكية كانت ، فى حقيقة الأمر ، أكثر انتشارا - آنذاك - بين عامة الشعب ، مما كان يعتقد ، وأكثر بكثير مما يقال عادة عن تلك الحقبة من التاريخ الأوربى ، والفرنسى منه بالذات . ونظرته صائبة وتستحق التقدير ، لأن الأحداث أثبتت بعد ذلك صحة هذا التحليل . إذ لم تستتب الأمور بين الشعب والحكومة فعلا إلا عندما عقد «القنصل الأول بونابرت» معاهدة صلح (كونكوردا) مع البابا سنة ١٨٠١ . لقد أعاد للكنيسة هيبتها وللكاثوليكية شرعيتها وإن كانت ، مثل كل شئون الدولة ، تحت سيطرته. ولذا فقد يبدو منطقيا ألا يذكر «سوليه» كلمة مصر فى كتابه إلا مرتين، مرة عندما غادر بونابرت فرنسا متجها صوبها ، وأخرى عندما عاد منها . وإذا كان «سوليه» قد تعمد فضح المعاملة التعسفية التى كانت سُنَّة الجند الجمهورين فى البلاد المستعمرة فقد كان من واجبه العلمى أن يدرس أيضا تصرفهم أثناء آخر حملة شنت باسم الجمهورية ، أى الحملة على مصر . إلا أننا قد نجد فى تجاهله لها ، ومعاملتها على أنها رحلة

خارجية لا ذكر لها فى الفتوحات الجمهورية ، عذرا مقبولا لعدم وجود مشكلة كاثوليكية فى مصر ، مما قد يبرئه من تهمة تجاهل صفحة أخرى من صفحات حروب الثورة ضد الدين المسيحى ورجاله .

أما كتاب « فرنسوا فوريه » و « دينى ريشيه » عن « الثورة الفرنسية»، فهذا التأريخ لم يقع فى خطأ إغفال الحملة على مصر ، وهو الخطأ الذى نجده بصورة مستمرة فى كل الكتب التى عالجت حروب الثورة ، وكانت دائما مثلها فى ذلك مثل كتاب «سوليه» ، تعتبر أن الحملة قضية قائمة بذاتها ولا علاقة مباشرة لها بالثورة وحروبها الأخرى . لكن هذين المؤرخين يعترفان بها كجزء من حروب الثورة ، ولذا ، تحدثا عنها فى كتابهما عن «الثورة الفرنسية» بينما لانجد لها ، عادة ، ذكر مطول ووافٍ إلا فى السير العديدة التى كتبت عن قائدها الجنرال بونابرت . ومع أن تدارك هذا الخطأ ، الذى كان عرفا بين مؤرخى الثورة ، يعتبر خطوة جديدة وجريئة ، إلا أن القارىء العربى يعجب أيضا من الطريقة التى عالجا بها الحملة على مصر ، وسنتعرض لها بإذن الله فى أدبيات العصر الحديث إزاء هذه الحملة .

صفحة الثورة لم تطو بعد على مستوى الأحداث ، حتى وإن كانت الحملة على مصر هى آخر غزواتها : سافر بونابرت ، والثورات مشتعلة فى البلاد التى «حررتها» فرنسا ، والحال فى داخل البلد ليست على

مايرام ؛ فالأمور قد وصلت – بعد مرور تسع سنوات من اندلاع الثورة– الى حالة من الفوضى الشاملة . فاليمين الملكى و«اليعاقبة» (أى اليسار المتطرف) يحاولون بشتى الطرق الوصول الى الحكم ، والانقلابات والمحاكمات والاعدامات تتوالى ، والهزائم العسكرية على الحدود الشرقية لاتنقطع ، فالبلد إذن يهدده خطر الغزو الأجنبى مرة أخرى . وكانت حكومة «الادارة» عاجزة عن التغلب على كل هذه الصعاب ، لأسباب عدة ، منها الأزمة المالية الطاحنة التى كانت السبب الأول فى قيام الثورة نفسها عام ١٧٨٩ ، وكان الفرنسيون يعانون من الإحباط الذى وصل بهم الى حد اللامبالاة ، بعد أن أنهكتهم كُل الصدمات العنيفة التى مروا بها ، ناهيك عن عصر «الإرهاب الأبيض» في الأقاليم، ذلك الإرهاب الذى تلا «الإرهاب» الرسمى للدولة ، وكانت الاغتيالات لاتزال مستمرة لضعف الحكومة المركزية وفسادها ، وحتى عندما بدأ الخطر الاجنبى ينزوى بعد الانتصارات الجديدة لجيوش الشرق ، كان الشعب لايزال يحلم «بمنقذ» فرد يصلح الأحوال . وكان الجنرال بونابرت ، على بعده من الساحة الفرنسية ، يمثل هذا الأمل . فقد سبق له أن أنقذ البلاد مرة من الخطر النمساوى ، وأنهى الحرب بمعاهدة صلح هو الذى أملاها ، فكان «بطل الحرب والسلام» ،

كان من أهم أسباب شعبية بونابرت الأسطورية ، أنه «القائد الذى لم يهزم أبدا» وعندما عاد فجأة من مصر وبصورة غير متوقعة ، استقبله الناس على طول الطريق ، من الجنوب حيث رسى ، وحتى بيته فى باريس ، هاتفين له بصفته المنقذ المنتظر ، المنتصر حتى فى مصر . ولم يجرؤ أحد على الافصاح علنا بحقيقة أن الحملة قد فشلت فشلا مزريا ، ولكن أعداء هذا النجم الساطع ، وبالأصح الحاقدين ، كما قيل كانوا يؤكدون انه هرول ، هاربا يائسا من مصر بعد فشله فى مهمته ، تاركا جيشه البائس لمصير مجهول لايعلم نهاية عذابه إلا الله ، ولم يذكر هزائم جيشه خاصة فشله أمام عكا إلا من أراد أن يحط من قدر هذا الرجل الأسطورة ، الذى عاد وكأنه المنتصر ، والبلد مستعد لأن يلقى بنفسه فى أحضانه ، وكانت آخر أخباره أنه هزم الاتراك فى معركة أبو قير الثانية ، كانت هى وحدها آخر مايقال عن هذا القائد الذى هزم أيضا المماليك أمام الأهرامات .. وما الأهرامات إلا أسطورة أخرى !

لقد ذهب الى بلد الأساطير ، حيث قصص ألف ليلة وليلة ، وكأنه سافر الى كوكب آخر ، وبالطبع لم يهزم يوما لأنه لا يهزم أبدا فكانت رحلته الى مصر نصرا جديدا أضيف الى أمجاده السابقة فزادت شعبيته وسط الجماهير المتعطشة لأسطورة حية تؤمن بها ، تحقق لها

معجزة تخرجها من مأزقها المأساوى . وتسلم الجنرال بونابرت زمام الحكم إبان انقلابه سنة ١٧٩٩ ، ليصبح « القنصل الأول » ، وتبدأ صفحة جديدة فى تاريخ فرنسا ، صفحة « نابليون وحده ».لكن ، لماذا « القنصل»؟

سبق أن تحدثنا عن استحواذ فكرة روما وسيطرة نمط التاريخ الرومانى على كل من شارك فى الثورة من المثقفين الذين كانوا هم أصحاب الصوت العالى . وكان لزاما على كل سياسى أن يذكر أن فرنسا هى روما الجديدة . فعندما تقدم الوزير «تاليران» مثلا بمشروع غزو مصر لحكومة «الادارة» ، قال :

«كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية» (٣٠) .

وفى سالف الزمان ، عندما تخلصت روما من ملوكها الطغاة ، وتحولت الى الجمهورية المثالية التى حكمت العالم بقوانينها العادلة ورجالاتها النزهاء الوطنيين ، أصبحت كلمة «قنصل» لقبا للحاكمين اللذين يتقاسمان السلطة العليا فيها. وبما أن الثورة وصلت - كما توهم مشرعوها - الى ذروة المجد والفضيلة ، وحلت محل روما وتقمصت دورها (٣١)،فقد أنشئت حكومة جديدة بعد الانقلاب بها ثلاثة قناصل ، وكان بونابرت «القنصل الأول» فيهم.وكان الاختيار فى

محله، فهو التجسيد الحديث للقائد الرومانى المنتصر النزيه الوطني الفاضل . كان يلقب «بالجنرال الجمهورى» بالمعنى الرومانى للكلمة ، وبكل ماتوصي به الكلمة من فضائل ، تستمد أهميتها من «جمهورية» على غرار جمهورية روما ، المثل الأوحد ، فقد أصبحت فرنسا فى نظر نفسها ، الوريثة الشرعية لمجد روما وفضائلها الأسطورية ، وأطاح بونابرت – بعد ذلك – بحكم الجمهورية ، وأعلن فرنسا إمبراطورية بقرار صريح مثلما حدث فى تاريخ روما ، التى انتقلت من الحكم الجمهورى الى الحكم الإمبراطورى لـ «أكتافيوس» أغسطس وعائلته .

تحقق إذن ماتنبأ به «روبسبيير» من أن سياسة الثورة لن تقود الا الى سيطرة قيصر جديد يمارس – بصفته الجندى المنتصر – دكتاتورية فردية لايحد سلطاتها قانون ، أو ديمقراطية .

الثـورة كانت الحرب ، الحرب في الداخل والخارج . ولكن كانت لها أيضا محـاولات عديدة فى كثير من الميادين ، اسفر بعضها عن مشـروعات مجهضة أو مـؤقتة ، وبقى بعضها مزدهرا على مر السنين. ولسنـا بصـدد دراسـة الثـورة فـى ذاتها ، فـلا يهمنا منها إلا مـايمكن أن يشـرح لنا ماحدث فى مصر على أيدى ممثليها ، المجندين منهم والعلماء .

وقد سبق أن لفت نظرنا الجو العام المحيط بالثورة ، ذلك الجو الذى حوله الى اسطورة تؤله كل ما يتصل بها ، وذلك منذ يومها الأول . والمجلد الضخم المسمى بـ «أسطورة الثورة» الذى استعنا به لوصف مناخها يقدم العديد من الدراسات التى تؤكد كلها احساس الشعب آنذاك بأنه يعيش مرحلة أسطورية وأن زعماءهم «آلهة» . والدراس لمفردات اللغة فى ذلك العصر يعجب لتفخيم الألفاظ ، فى وصف كل حدث وكل رجل ، حتى وإن تحول هذا البطل - الذى كانوا يهتفون باسمه حتى الثمالة - بعد ذلك الى خائن يصرخ الناس فى وجهه بالكراهية وهو منساق الى المقصلة .

ولم تكن جمهورية روما الفاضلة ، صاحبة القوانين العادلة ، أو الحرب التوسعية التى تتبعنا خطاها ، ووصلت بفرنسا الى شواطىء إفريقيا ، هما وحدهما ، الركيزتين الأساسيتين لسياسة الثورة وفكرها . فقد كانت هناك أيضا فلسفة التنوير ومبادئها ، كما أسلفنا ، ونذكر أن أول مبدأ كان رفض الدين ومحاربته ، لأنه أهم أسباب جهل البشرية وبؤسها . ومحاربتها للدين كانت تحتم عليها تعليم الشعب . لذا كانت هناك محاولات عدة للثورة فى ميدان التعليم العام للجميع مثلما كان لها اجتهادات في ميادين العلم والاكتشاف ، فكانت ، قضية التعليم من أولويات المجالس المتتالية ليتخلص العامة من تعاليم الدين ، عندما

تستنير عقولهم ؛ فأنشئت المدارس العليا التى استمرت فى منهجها حتى يومنا هذا كما اهتمت الثورة أيضا بالعلم والاكتشافات .

وكان اكتشاف العالم الخارجى ، ومعرفة الحضارات الأخرى من أهم انجازات القرن الثامن عشر ، ووريث عهد النهضة المتعطش لمعرفة كل جديد ولذا اشتهر المكتشف «بوجانفيل» ، الذى أبحر فى جزر المحيط الهادى المجهولة من ذى قبل . ومن هنا جاء الاهتمام بالسفر الى بلد مثل مصر ، وكان بلدا مجهولا لم يره إلا قليل من المسافرين . فالسفر فى حد ذاته كان يعتبر هدفا علميا ، يدخل فى نطاق الاهتمامات المباشرة بالحضارات الأخرى .

ومن المشروعات الناجحة لحكومة «المؤتمر» الذى اقترن اسمها بسياسة «الارهاب» انشاء «المعهد القومى» فى اكتوبر من عام ١٧٩٥ . وكان انشاء هذا المعهد ، لأهميته العلمية ، مذكورا فى الدستور نفسه ، حتى أصبح بمثابة «سلطة روحانية» كما يصفه المؤلفان السابق ذكرهما. حتى أن الجنرال بونابرت المتعطش لكل علم سلطة لم يهدأ له بال حتى انتخبه الأعضاء عضـوا ، يحضـر اجتماعـاتهم العلمية . «من هنا ، جاءت ضرورة انشاء فرع له فى مصر عندما جاءها بعض علماء هذا المعهد حتى لاتنقطع أبحـاثهـم التـى بـدأوهـا فى باريس.لقد طبقـوا فـى مصر سيـاسـة استقبـال الـزائرين ، كما كان يسمح به

فى المتاحف المتخصصة التى أنشئت آنذاك فى فرنسا ؛ ناهيك عن الاستعمال السياسى لتلك الزيارات وهو ماتمثل فى محاولة إبهار شعب جاهل ، وتمثيل دور العلماء الخارقين فى إمكاناتهم أمام المشايخ .

بقى لنا أن نتعرف على المفهوم الجديد الذى صاغه أحد مفكرى القرن الثامن عشر وأصبح من أهم مبادىء الثورة ، وهو مفهوم « الحضارة » ويهمنا هذا المفهوم بالذات ، لأن الحملة كان من أهدافها إرساء «الحضارة» . فى مصر ، كما أرادت الثورة للعالم كله ، بدءا بأوربا .

كان «كوندرسيه» المفكر ووزير التعليم ، قد ألّف ، قبل انتحاره سنة ١٧٩٤ ، كتابا يعتبر من أهم ماكتب فى أدبيات فلسفة التنوير (٣٢) ، خاصة أنه جاء فى نهاية عصرها ، وقبل أن يأفل نجمها مؤقتا مع اجتياح الفكر الرومانتيكى المسيحى القومى بعد ذلك . وقد درس الاستاذ السويسرى «جان ستاروبنسكى» مفهوم الحضارة فى عصر التنوير ، وسنرجع إليه ، حسب منهجنا ، فيما قاله عن رأى «كوندرسيه» كما أفصح عنه فى كتاباته .

لن نعجب أن وجدنا عند مفكرنا فيلسوف التنوير هذا التناقض نفسه الذى لمسناه من قبل فى سياسة الثورة ، وقد كان من أكثر

رجالاتها تأثيرا خاصة فى مجال التعليم . «فكوندرسيه» يرفض الاستعمار ، ويبدو هذا موقفا منطقيا من رجل اشترك فى ثورة تنادى أولا وقبل كل شىء بحرية الانسان ، أو فلنقل على الأقل إنه أضعف الايمان . ولكننا نجده لايهاجم إلا المبشرين المسيحيين الذين ينشرون دينهم ، وهم حسب قوله «دمويون - طغاة - أغبياء» إنهم لايزالون يؤمنون بخزعبلات الماضى .

فكوندرسيه يرفض الاستعمار الدينى لأنه يرى أن من واجب «المتحضر» - والشعب المتحضر الأمثل هو الشعب الفرنسى الذى وصل الى أقصى درجات «الحضارة» بثورته الحديثة الرائعة بالطبع - أن يبيد كل من يرفض تعاليم المتحضرين له أو يرفض الانقياد للتعليم . فالمتوحشون ، بمعنى الشعوب البدائية لابد أن ينتهوا ، جسديا أو ثقافيا، حتى لا يبقى الا التنوير .. أى الحضارة .

ويعلق «ستاروبنسكى» على هذا الكلام قائلا : «قدسية الحضارة حلت محل قدسية الدين (...) وقد حل مشروع التبشير لفلسفة التنوير محل مشروع المبشرين المسيحيين الذين حاولوا جمع البشرية كلها تحت لواء المسيح» . ثم يلاحظ المعلق نفسه الذى يؤكد على تناقض فكر «كوندرسيه» الرافض لمبدأ الاستعمار الدينى فقط ، أن بونابرت يقول لجنده ، وهو متجه الى مصر : «أيها الجند ، أنتم فى طريقكم الى فتح

سيكون له أعظم النتائج على الحضارة ، وعلى تجارة العالم» . ويتوقف الدارس السويسرى عند كلمة «حضارة» ، ونلاحظ نحن وجود كلمة «تجارة» فى هذا السياق !

وسواء كان بونابرت قد قرأ «كوندرسيه» وتأثر به أم لا ، فالواقع أن «كوندرسيه» لم يكن إلا معبرا عن أفكار جيل فرح بإنجازاته الى حد الصلف ، ألّه نفسه قبل أن يؤله بونابرت . وما بونابرت إلا رجل من هذا الجيل نفسه . وأيّا كان تأثير تيارات الفكر عليه أو عدمه ، فقد كان هو نفسه جزءا لايتجزأ من العالم الذى أنتج هذا الفكر ، وسواء آمن به أم لم يؤمن ، فقد كان عليه أن يتحدث بلغته ويستعمل منطقه . فجاءت كلمة «حضارة» على الورق الذى يرسم سياسة الحملة المستقبلية على مصر ، وصدقها من أراد ألا يرى غيرها .

★★★

ولكن الثورة فشلت فى إرساء دعائم حكم مستمر حتى أجبر المؤمنون بها على القيام بثورة سنة ١٨٣٠ ، ثم ثانية سنة ١٨٤٨ ، تلتها ثورة سنة ١٨٥١ ، قبل أن تصل الثورة الى ذورتها سنة ١٨٧١ ..

وتنجح أخيرا الجمهورية الثالثة فى توطيد أقدامها ، على الرغم من قوة أحزاب اليمين فى نهاية القرن التاسع عشر ومع وصول الجمهورية الى الحكم أخيرا ، كانت مرة أخرى ، وإلى يومنا هذا ، أسطورة الثورة

التى تلخصها هذه الكلمات في قاموس «لاروس» الشهير ... الثورة ، أمنا وأم الجنس البشرى أجمع ..

★★★

أين الحملة على مصر من هذا كله ؟ أو بالأصح ، كيف كانت وكيف طبقت فيها كل هذه المبادىء ، بعد أن عرضنا نبذة عن العالم الذى جاء منه الجيش برجاله ، جندا وعلماء ؟ ولكن ألا ينبغى أن نتعرف أولا على رؤية جيل الثورة لمصر ، البلد الذى تقرر غزوه بعد فشل غزو انجلترا ؟

صورة مصر والمسلمين فى القرن الثامن عشر

فى عام ١٧٢٠ ، ارسل السلطان العثمانى سفيرا إلى فرنسا لأمر يتعلق بترميم كنيسة فى القدس ، ويكتب السفير فى تقريره ، وصفا مفصلا لزيارته الرسمية وما رآه ، وكأنه الطهطاوى فى باريس ، مع الفارق ، لأن السفير كان فى ضيافة ملك فرنسا . ومن هنا ، كان الاعجاب الشديد بكل مارآه لأنه لم يؤخذ ، طبعا ، إلا الى ما كان يمكن أن يبهره . ويظهر هذا جليا ، عندما نقرأ وصف جريدة فرنسية لزى الملك الصغير عند مقابلته للسفير التركى ، اذ كان لباسه يتحلى بماس يقدر ثمنه بخمسة وعشرين مليونا من عملة العصر الذهبية ؟

كما كان يضع على كتفه ماسة شهيرة عرفت باسم «الوصى» (٣٣) وهى ماسة وزنها مائة وسبعة وثلاثون قيراطا ، كان الوصى على العرش قد اشتراها من الحكومة الانجليزية ليضمها الى مجوهرات التاج. وعند قراءة تعليقات الصحف على تلك الزيارة ، ووصفهم للبعثة الدبلوماسية، نرى الاستعمال المتكرر لكلمة «المسلمين» بدلا من كلمة «الاتراك» التى قلما تستعمل في زيارة أخرى لسفير تركى آخر سنة ١٧٣٢ ، نجد فى تقريره اهتمامه الخاص بالنواحى الحربية على خلاف سلفه الذى اهتم بالفنون وانبهر بالحدائق ويلقى هذا السفير الدروس على حكومته ، للاستفادة من العلوم الحربية ، بسبب تأخر بلاده فى هذا الميدان . وعلى الرغم من ذلك الجهل العثمانى بحقيقة الحضارة الحربية فى فرنسا ، كان الطريق مفتوحا بين البلدين ؛ تقول «جانين أوبوايى»: «إن الطريق الى الشرق كان محفوفا بالتجار ، والمبشرين والمرتزقة ، منذ بداية القرن السابع عشر ، لأن الملوك الشرقيين كانوا يطلبون طوبجية وأطباء أوربيين» (٣٤) . وعندما جاء السلطان سليم الثالث الى الحكم فى عام ١٧٨٩ ، وبدأ «النظام الجديد» لتحديث جيشه وجد كثير من النبلاء الهاربين من الثورة مورد رزق مقبول كضباط فى البلاط العثمانى . وعندما كان بونابرت مغضوبا عليه ، فى سنة ١٧٩٥ ، فكر جديا فى السفر الى اسطنبول ليعمل فى الجيش التركى ، بصفته ضابطا فى

المدفعية ، وكانت حكومة «الادارة» تلبى آنذاك طلبات السلطان فى ارسال مدربين لجيشه . فالعلاقات مع فرنسا كانت ودية للغاية ، كعادة الحكومات الفرنسية دائما مع اسطنبول ، فكانت فرنسا تساعد على تدريب جيش السلطان ، حتى قال المؤرخ الامريكى«كريستوفر هرولد» : «إن الذى انقذ عكا من السقوط تحت وطأة حصار بونابرت لها ، كان وصول مئات من طوبجية اسطنبول، المدربين تدريبا عسكريا أوربيا» . (٣٥) والنظرة الفرنسية الى الاسلام ، الذى تمثله الامبراطورية التركية ، لم تكن تخلو من الاهتمام ، حتى وإن كان يشوبها نوع من الاحتقار .

كان الاسلام موضوع دراسة مكثفة أثناء القرن الثامن عشر لأسباب كثيرة ، أولها اهتمام فلاسفة التنوير باكتشاف الحضارات الأخرى ، ثم كان إعجاب رجل مثل «فولتير» بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم والحضارة التى أنشأها ؛ علاوة على ما وجده فى الاسلام من سماحة - وهى من أهم قيم التنوير - لم ير لها مثيلا فى تاريخ المسيحية ، كما كان «فولتير» - (مثل فلسفة التنوير - يكره رجال الدين، والاسلام لايعترف برجل دين مثلما يوجد فى الكاثوليكية ، حيث يتكلم القسيس باسم الله .

كذلك كان اعجاب «فولتير» بدين كان الاحسان فيه ، كما يقول ، أحد أركانه الخمسة وهو يقصد بهذا طبعا فرض الزكاة . فكانت المقارنة بين الاسلام والمسيحية تساعد فلاسفة التنوير على مهاجمة

المسيحية ، التى لاتعطى للعقل المكانة التى يتمتع بها فى الدين الاسلامى .

وفى الجانب الادبى ، جاءت ترجمات «ألف ليلة وليلة» لتبهر القراء بخيالها الخصب ، ومعانيها السامية وجوها الغريب الجديد مما ساعد على خلق فن جديد سمى «بالشرقيات» . وظهرت ترجمة جديدة للقرآن فى عام ١٧٨٣ ، للرحالة العالم سافارى الذى نشر بعد ذلك انطباعاته عن رحلته الى مصر . ولكن عندما سافر «فولنيه» هو أيضا ، ونشر «رحلة إلى مصر وسوريا» سنة ١٧٨٨، كان ناقما على الاسلام مثلما كان ناقما على المسيحية وكذلك على كل الأديان ، لأنه من رجال التنوير، الذين يرون فى الايمان عائقا لتقدم الحضارة . كذلك رأى «كوندرسيه» أن الاسلام أبسط الديانات فى معتقداته ، أقلها سخفا فى طقوسه ، أكثرها سماحة فى تعاليمه (إلا أنه) يبدو وكأنه يحكم على هذه البقعة الشاسعة التى اعتنقته دينا بعبودية أزلية ، وغباء لا علاج له . وبالتالى فتلك البلاد الشرقية ستفرض على أوربا المتحضرة فى المستقبل ، واجب تحرير الشرق من مضطهديه : «وسيجدون آنذاك فى الأوربيين ، إخوة ، يصبحون أصدقاءهم ومريديهم (٣٦) ..... ولم لايكتفون بالصداقة والأخوة ؟!

★★★

وإن كانت مصر المسلمة جزءا من الامبراطورية العثمانية ، إلا أنها كانت ذات مكانة خاصة بسبب تراث الثقافة الكلاسيكية الذى يمجد علمها وحكمة كهنتها . فقد لعبت مصر الفرعونية دورا رائدا فى تكوين فلاسفة اليونان فى بادىء تاريخ أثينا . وتحول هذا الدور الى سلسلة من الأساطير عن حكماء مصر - وهم الكهنة الغامضون - وتعاليمهم الباطنية السرية . ولاتخلو قصة من القصص الفلسفية فى القرن الثامن عشر من أحد هؤلاء الكهنة الذى نراه يقضى مائة عام أو أكثر داخل الهرم الأكبر ليخرج منه عالما بأسرار الدنيا وحكمة الكون . ومابقى من هذا التيار الخيالى على مر السنين قصة «الناى السحرى» - الأوبرا الشهيرة للموسيقار النمساوى «موتسارت» - التى كتبت فى نهاية القرن الثامن عشر. ولأن مصر هى «أم الحكمة الفلسفية» ومهد الحضارة الانسانية ، فأحداث القصة تدور فيها ، حيث يبغى البطل الوصول الى الكمال وكانت قصة هذه الأوبرا الخيالية ، تفضح بعض أسرار الماسونية المزدهرة فى ذلك العصر . وكانت الماسونية تؤكد هى أيضا أن مصر عرفت أسرار الكون أيام الفراعنة ، لأنها منبع المعرفة كلها . ولذا فمعظم رموز الماسونية مستوحاة - وحتى يومنا هذا - من خطوط الآثار الفرعونية ونقوشها . وتبقى فكرة حكمة مصر وعلم كهنتها سائدة فى كثير من الأوساط الثقافية المهتمة بالعلوم الروحانية والباطنية ،

مما يزيد من غموض سيرتها ، وتؤكد هذه الأوساط ، وحتى القرن التاسع عشر ، مثلما نجد في القصص الخيالية ، أن الأهرامات كانت المدارس الخفية لتعليم غيبيات تساعد الكهنة على التوصل الى أسرار الطبيعة وما وراءها . ومما لاشك فيه أن تلك الرؤية شجعت على اتخاذ قرار غزو مصر ، أو هكذا يقال.، اذ كانت الرغبة جامحة ، بين مثقفى حكومة «الادارة» الى اكتشاف هذا البلد الغامض المجهول ،.مع ضرب المصالح الانجليزية ، وتكوين مستعمرات جديدة . وكانت فكرة العودة الى أرض العلوم والفنون مستحبة ، وكأن فرنسا ، بعلمها الجديد وحكمتها العالمية ، تغلق هكذا طوق دائرة المعارف بالرجوع الى المنبع ، فيحدث الالتحام الذى يضم تاريخ العلوم فتسيطر هى عليه.

ويقول «هنرى لورانس» فى دارسته عن الحملة إن بونابرت ترك مصر عائدا الى فرنسا سرا لأنه لم يحقق فيها «حلمه الشرقى . فمصر الحقيقية ليست هى التى حلم بها هذا الفاتح ».

وهذه طبعا نتيجة طبيعية لما كانت عليه مصر آنذاك وهى أبعد ما تكون عما كان يتخيله الغرب ، وما وصلت اليه أوهامهم عنها فقد كانت بالنسبة لهم وكأنها بلد يسبح فى الفضاء ، وكأنه فى كوكب آخر لاعلاقة له بالواقع . ويدلل على ذلك قصة حدثت للجنرال «دورك» الذى كان عائدا لتوه من مصر مع قائده بونابرت . فعندما ارسل فى مهمة

دبلوماسية الى بلاط برلين ، احتفى به الملك وأقام له مأدبة دعى اليها كبار الضباط والوزراء وكان أهم ما سئل عنه رحلته الى مصر ، وسألته الملكة إن كان قد رأى فيها الكثير من التماسيح،فعجب للسؤال لأنه لم ير واحدا منها فى رحلته البعيدة الى بلاد العجائب وكسب «دورك» احترام الجميع ، (هكذا يقول الراوى) [٣٧] ،لأنه لم يحك إلا الواقع وكان فى استطاعته أن يقص العجائب الخيالية والبطولات النادرة عما حدث فى «ذلك البلد البعيد» . والقصة على بساطتها ، تشرح أن مثقفى أوربا لم يكونوا مهتمين بما حدث للحملة فى مصر بقدر انبهارهم بفكرة زيارة بلاد نائية لايعرف عنها شىء تقريبا . فكتب الرحالة لم يقرأها الجميع ثم إن ما يقع فى هذه الكتب من اختلاف الرؤى يسمح بتخيل أى شىء . واذا كان هذا هو رأى المثقفين حتى فى بلاط ملك بروسيا فما بالك بالعامة ، والمجندين من فلاحى فرنسا خاصة الأميين ؟

ويحكى «بلزاك» (١٧٩٩ - ١٨٥٠) ، الكاتب الواقعى الكبير ، فى روايته «طبيب الارياف» [٣٨] كيف يقص أحد جند نابليون على اخوانه من الفلاحين ، حروبه مع الامبراطور ، والحملة على مصر . يبدأ حديثه لجمهوره المنبهر ، مؤكدا أن نابليون فى شبابه وقع عقدا مع شيطان حتى لايصيبه أى أذى فى المعارك ، ثم كيف ذهب الى مصر، حيث

احبته زوجة مارد جبار غيور للغاية ، فأعلن الحرب على القائد الفرنسى الذى استولى على الملكة الفاتنة ومجوهراتها الأسطورية ، وكيف تغلب عليه نابليون مثلما كان يتغلب دائما على كل أعدائه * . وهذه الخزعبلات تفضح بكل وضوح الواقع ، وهو عقلية مجند من الريف الفرنسى فى ذلك العصر ، أى عقلية الجيش نفسه ؛ هذه العقلية الجاهلة لجند الحملة الذين لم يختلفوا فى تهويماتهم عن أى أمى لاينجذب إلا للعجيب من القصص الخارقة . إن مصر التى يتحدث عنها ذلك الجندى الفلاح هى مصر «ألف ليلة وليلة» كما يراها العامة .. والمثقفون.

وحتى بعد مرور خمسين عاما على الحملة ، ذهب الشاعر القصاص المثقف «نرفال» الى مصر يبحث فيها عن «بلد ايزيس وألف ليلة وليلة» وهناك . يقابل ضابطا ألمانيا يقص عليه كيف خرجت الانسانية حقيقة من داخل الهرم الأكبر ، حيث فشل موسى عليه السلام فى امتحان الكهنة.فكان هروبه من مصر (٣٩) .فمصر إذن بلد الاساطير والخيال وعلى صعيد آخر يكتب «جان تولار» الذى تخصص فى دراسة نابليون وحياته الحافلة ، قائلا إن الفرنسيين كانوا يجهلون حقيقة أمر مصر فى ذلك العصر ، فصدقوا التقرير الذى ارسله القنصل «ماجالون» الى باريس ، والذى يؤكد فيه ضعف المماليك ويصف فيه مصر على أنها بلد

---

* انظر ملحق ١٧ من الجزء الثانى من الكتاب.

يحتضر وصورها على أنها مفتوحة سهلة الغزو . ويعلق «تولار» قائلا إن هذا الكلام يتنافى مع ماتظهره دراسة «اندريه ريمون» عن قاهرة القرن الثامن عشر (٤٠) .ولكن ، كان هناك سحر «منطقة غامضة» كانت حديث المجتمع بسبب رواج كتاب «فولنيه» عن «الآثار..»ولذا فـ «تولار» يعزو عودة بونابرت من مصر على انه منتصر ، على الرغم من هزيمته فيها الى هيبة انتصارات بعيدة زاد من ترويج أخبارها دعاية أنصاره» (٤١) فكان البعد وحده كاف ليسبب التشويق والتفخيم ، وخلق أسطورة الحملة . ويحق لنا ان نتساءل الآن عن واقع الأمر ، وراء كل هذه التهويمات التى تنم عن جهل بالبلد ، وعدم تقييم صحيح لواقع يختلف عن الواقع الأوربى اختلافا جذريا ، فيبدو بصورة لا تسمح للعقل الأوربى استيعابها لأنها لاتدخل فى تركيباته الذهنية ، وتصطدم بمسلمات وهمية يرجع أصلها الى قرون من عدم المعرفة الحقيقية أو الفهم الناضج.

★★★

اذا حاولنا ، قبل دراسة واقع الأمر ، جمع أهم الخيوط التى نسجت قرار شن الحملة على مصر ، بل وتحكمت فى تصرفات رجالها وهم جيل الثورة الكبرى فى فرنسا ، ولو اننا وصفنا الحملة - بشكل موضوعى - فى اطارها الحقيقى ، بصفتها حملة من حملات الثورة

الخارجية واحدى حروبها التحريرية فى الظاهر ، الاستعمارية فى حقيقة أمرها ، كما حدث فى أوربا نفسها ، ولو أننا استخلصنا من دراستنا السابقة على اقتضابها ، أهم العناصر التي لا يمكن اغفالها إن اردنا لها نظرة واقعية .

لو أننا استطعنا هذا كله ، لوجدنا ان بالحملة عناصر شتى ، أهمها بالطبع ميراث فلسفة التنوير . فحب المعرفة يمتزج فى هذه الرؤية التى تخص فلاسفة التنوير ، بصلف «المتحضر» الذى يرى نفسه على قمة الانسانية ، فيرى أن من حقه ، بل ومن واجبه ، إذن ، السيطرة على البشرية كلها حيث لم تصل مثله الى هذه الدرجة من النضج والحكمة كما كانوا يقولون . وجاءت تجربة الثورة لتجعل معاصريها يظنون أن فى استطاعتهم فرض قوانينهم على الجميع ، على غرار مافعلته روما فى قديم الزمان . وجاءت – نتيجة هذا التقمص المسيطر على أذهانهم– المغالاة فى التعبير والتعظيم المفرط الذى جعلهم يرون رجالاتهم على أنهم «آلهة» ، فتبرر كل أفعالهم وإن كانت خاطئة .

وتسبب ذلك فى ازدواجية غريبة ، جعلت المقارنة بين الهدف المعلن وتحقيقه الواقعى ، مفارقة عجيبة ، قد يكون أحسن مثال عليها «إعلان حقوق الانسان» وحرمان هذا الانسان فى العام نفسه من حرية اختيار عقيدته ، أو تحرير جمهوريات مثل هولندا ، وسويسرا حتى تصبح

«جمهوريات أخوات» ثم تطبق بعد ذلك سياسة «عصر الليمونة» فى تلك «الأخوات» الجديدات ، أو ابادة فرنسيىّ مقاطعات الغرب فى فرنسا باسم الحرية .

وعلينا عندما نبدأ قراءاتنا فى الحملة على مصر ، أن نتذكر هذه العناصر التى اتسمت بها حُروب الثورة فى أوربا ، وعلينا ، بالتالى ، أن نضع الحملة على مصر فى سياقها التاريخى الحقيقى ، أى وسط باقى حروب الثورة فهى جزء من حربها مع انجلترا ، بل وعلينا أن نضعها ايضا وسط حروب نابليون نفسه الذى أصبح فيما بعد الإمبراطور ، والذى تبدأ أمجاده بغزو مصر كما سنرى .

★★★

قامت الحملة إذن على مصر ، هذا البلد البعيد الغامض ، ونحن فى عصر الأساطير والأبطال واللحظات التاريخية التى ينتظر العالم ، لاهثا ، أن يرى تطورها ، عصر الشعوب التى لا تعرف الحرية إلا على أيدى الفرنسيين .. فكيف لا يكون قائدها ، الجنرال الجمهورى الذى لم يعرف الهزيمة ، اسطورة حية فى عصره ، ومعبودا للجماهير .

ونظرا لأن اسطورة الحملة جزء من أسطورة بونابرت ، ولأنها دائما تنسب اليه ، فقد حان الوقت لأن نتعرف عليه أولا قبل أن نتعرف على الحملة نفسها ، وهى التى سميت باسمه ولم تستمد شهرتها الا بسبب قيادته لها .



نابليون بونابرت
الجنرال والإمبراطور

« خلق الرب بونابرت ، ثم استراح »

من خطبه فى استقبال
«القنصل الأول»

التسلسل الزمنى للأحداث التى سنتعرض لها فى تاريخ نابليون بونابرت ومابعد حكمه :

– ١٥ اغسطس ١٧٦٩ : ميلاد نابليون بونابرت بجزيرة كورسيكا

– ١٧٨٤ : التخرج فى الكلية الحربية الملكية .

– ١٧٩٣ : مدفعيته تسترد «تولون» ثم تنقذ الحكم من انقلاب يمينى.

– ١٧٩٥ : يفكر فى السفر إلى اسطنبول كخبير حربى .

– ١٧٩٦ ـ ١٧٩٧ : الحملة على ايطاليا بقيادته وانتصاره على النمسا .

– ١٧٩٨ : يرفض إنزال القوات الفرنسية على شواطىء انجلترا ، ويقدم ، مع وزير العلاقات الخارجية مشروع غزو مصر كبديل .

– ١٩ مايو ١٧٩٨ : يبحر إلى مصر .

– ١٧٩٨ ـ ١٧٩٩ : انظر أحداث الحملة.

– ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ : يترك مصر خلسة .

– ٩ أكتوبر ١٧٩٩ : يصل الى فرنسا.

– ٩ نوفمبر ١٧٩٩ : يستولى على الحكم ، بعد انقلاب يسانده الجيش ، ويصبح القنصل الأول بونابرت .

الاستفاء على الدستور الجديد.

- يناير ۱۸۰۰ : قانون تحديد عدد الجرائد وفرض رقابة صارمة على ماتبقى .

- ٧ فبراير ۱۸۰۰ : حل السلطات الجماعية والانتخابية والحكم المحلى .

- ٢٤ ديسمبر ۱۸۰۰ : محاولة اغتياله .

الانتصار فى معركة «مارنجو» .

- ١٥ يوليو ١٨٠١ : الصلح مع بابا روما وعودة الكاثوليكية الى فرنسا .

- ١٧ مايو ١٨٠٢ : إعادة الرق الى المستعمرات .

- نوفمبر ١٨٠٢ : الحملة الفاشلة على جزيرة «سان - دومنج» .

- ١٨٠٣ : إعادة تنظيم «المعهد الفرنسى» وإلغاء قسمى العلوم الإنسانية والسياسية .

- ١٨٠٣ : بعثة «علمية» أخرى إلى مصر .

- مارس ١٨٠٤ : اختطاف «دوق دانجيان» وإعدامه .

- مايو ١٨٠٤ : تتويج بونابرت امبراطورا على الفرنسيين ، أصبح «نابليون الأول» .

- ١٨٠٥ : تتويجه ملكا على إيطاليا .

- ٢ ديسمبر ١٨٠٥ : انتصاره فى «أسترليتز» .

– ٤أبريل ١٨٠٦ : نشـــر كتاب تعليم الديانة الكاثوليكية الامبراطورية .

بداية تتويج أفراد العائلة ملوكا على البلاد المحتلة .

– ٢ مايو ١٩٠٨ : الثورة فى مدريـد على الوجود العسكرى الفرنسى .

– ٤ ديسمبر ١٨٠٨ : نابليون يفتح مدريد مجددا . بداية الحروب القومية فى أوربا .

– ٥ فبراير ١٨١٠ : تشكيل «الادارة العامة للطباعة والمكتبة» .

– ٢ أبريل ١٨١٠ : زواج نابليون من ابنة إمبراطور النمسا .

– ٣ أغسطس ١٨١٠ : لايسمح إلا بجريدة واحدة فى كل مقاطعة.

– ٢٠ مارس ١٨١١ : ميلاد ابنة «ملك روما»

الدولة تستولى على ما تبقى من جرائد .

– ١٧ سبتمبر ١٨١١ : الدولة تستولى على كل الجرائد .

– أكتوبر ١٨١١ : أربع جرائد فقط مسموح لها بالنشر .

– ١٤ سبتمبر ١٨١١ : نابليون يدخل موسكو .

– ١٨ أكتوبر ١٨١٢ : ينسحب من موسكو .

– ٢١ يونيو ١٨١٣ : الجلاء عن أسبانيا بعد انتصار الإنجليز على الجيش الفرنسى هناك .

– ٣٠ ـ ٣١ مارس ١٨١٤ : دخول القوات المتحالفة ضد فرنسا الى باريس .

«البوربون» يعودون الى عرشهم الملكى .

– ٤ مايو ١٨١٤ : نابليون يقـاد الى منفاه بجزيرة «إلبا» جنوب فرنسا .

– مارس ١٨١٥ : يعود بعد هروبه الى فرنسا ، لحكم جديد يستمر مائة يوم .

– ١٨ يونيو ١٨١٥: هزيمة «واترلو» وعودة «البوربون» للمرة الثانية.

– ١٦ أكتوبر ١٨١٥: المنفى فى جزيرة «سانت ـ هيلانة» الانجليزية.

– ٥ مايو ١٨٢١ : وفاة نابليون فى منفاه .

– ١٨٣٠ : الثورة على الملكية باسم الحرية وباسم نابليون.

– ١٨٤٠ : الملك «لوى ـ فيليب» يأمر بإعادة رفات نابليون ودفنه بباريس .

– ١٨٤٨ : الثورة على الملكية ، ثم إعلان «الجمهورية الثانية» .

انتخاب «لوى ـ نابليون بونابرت» ابن أخى نابليون رئيسا للجمهورية.

– ٢ ديسمبر ١٨٥٢ : تنصيب رئيس الجمهورية إمبراطورا على فرنسا باسم «نابليون الثالث» بعد انقلاب يتسبب فى ثورة محدودة.

- ١٨٧٠ : انتصار «بروسيا» على فرنسا واحتلالها ، سقوط الإمبراطورية.

- ١٨٧١ : ثورة «الكوميونه» .

الملكيون يكسبون الانتخابات .

- ١٨٨٠ : فرنسا تصبح « الجمهورية الثالثة » وتستمر حتى عام ١٩٤٠.

يصعب الحديث عن الجنرال بونابرت باقتضاب ، لأنه لم يمر مرور الكرام ، مثله في ذلك مثل منافسيه من جنرالات الثورة الآخرين فالجنرال «هوش» أو الجنرال «مورو» كان لهما الشعبية نفسها بل ربما شعبية أكبر في فترة ما . كانت حكومة « الادارة » مثلا تعد « مورو » ليكون الحاكم العسكري الذي تريده تحت امرتها ، مثلما كان يحدث في روما ، نظرا لشعبيته . ولكن أعضاء الحكومة فضلوا عليه بونابرت في آخر لحظة ، فكان الانقلاب الذي دبروه معه . ولكن بونابرت حول هذا الانقلاب الى تسليم كامل للسلطة المطلقة ، واستحوذ عليها دونهم بعد ذلك .

فالجنرال بونابرت أصبح فور عودته من مصر، الحاكم المطلق للبلد بلقب «القنصل الأول» ولم يختلف الأمر عندما توج إمبراطورا ولعب بعروش أوربا وشعوبها ، حتى هزيمته الأخيرة في «واترلو» سنة ١٨١٥ . كان تاريخه عاصفة من الحروب والانتصارات والهزائم ، حددت مصير أوربا لعقود ، حتى بعد سقوطه . وامتزج التاريخ بأسطورة القائد الخارق الذي اتخذ الاسكندر الأكبر مثلا يحتذى به . ولايمكن فصل تاريخه عن الاسطورة التي بدأت في شبابه - عندما كان كل شيء في فرنسا اسطوريا - واستمرت طيلة حياته، وانتشرت وترعرعت بعد هزيمته ثم وفاته .

انتشرت اسطورة نابليون بعد وفاته لدرجة أن الملك «لوى ـ فيليب» ، على عدائه للحزب البونابرتى ، اضطر لخطب ود شعبه ، بإعادة رفات الإمبراطور من جزيرة «سانت ـ هيلانة» فى عام ١٨٤٠ حيث تم دفنه فى مقبرة خاصة فى باريس (٤٢) وسط احتفالات مهيبة، تؤكد أهمية ذكرى نابليون المهزوم ، المخلوع، المنفى ، وقوة تأثير اسمه حتى بعد وفاته بعشرين عاما . وحتى الآن يصعب الحديث موضوعيا عنه ، دون أن يهب فرنسى ليدافع عنه ، على الرغم من الدراسات الحديثة التى أعادت تقييم حكمه ، وكشف الآثار السلبية لشخصيته الطاغية، بعد قرنين من التغنى بإنجازاته، وبشخصيته الفذة .

والمجلدات التى تحوى عناوين الكتب التى نشرت عنه كافية لأن تحبط عزيمة ، أى دراس يريد أن يعرف «كل ماقيل» عنه . فهو ، لدوره السياسى وشخصيته الطاغية ، يثير اهتمام الجميع ، حتى فى الصين ومنذ عام ١٨٣٧ ، ويستعمل اسمه مرجعا له إيحاءاته التى تختلف من بلد إلى آخر ، ومن مرحلة تاريخية الى أخرى والى الآن . وتفاوت الرؤى يجعل التمييز بين أعدائه و المبهورين به مهمة سهلة ، للحماس الذى غالبا مايطغى على مشاعر المؤرخين ، فنادرا مانقابل ، من كانت نظرته مجردة، ولا نقول حتى علمية، فنابليون من الشخصيات التى كانت ، ولاتزال تثير الجدل العنيف . ولكن ، بعد أن مر قرنان من الزمن على

تاريخه بدأ الحديث ، وباستحياء شديد ، يأخذ صبغة موضوعية تحاول تقييم أفعاله ، وتحليل شخصيته وهى شخصية غير عادية بكل المعايير.

وسنحاول عند الضرورة ، أن نذكر من هذه الحياة الحافلة بالأحداث مايمكن أن يساعدنا على فهم ماحدث فى مصر وماقيل عنها . وقد أصبحت الحملة أسطورة ، لأنها جزء من أسطورة أخرى، هى أسطورة نابليون . ومن الصعب الحديث عنه ، خاصة للجمهور غير الدارس لتفاصيل تاريخ فرنسا، دون الرجوع أولا الى الأسطورة ، «أسطورة المنقذ» كما يسمى «جان تولار» كتابه الشامل عن «نابليون» .

★★★

بونابرت «الجنرال الجمهورى»

عندما قامت الثورة سنة ١٧٨٩ ، بدأ النبلاء فى الهجرة ، ولم يكن يحق لأحد من غير طبقة النبلاء أن يكون ضابطا . لم يتبق فى الجيش إذن إلا قليل من الضباط ، فما كان من الحكومة الا اختيار أنبه الجند ، وتحويلهم الى ضباط سرعان ما وصل الكثير منهم الى رتبة «جنرال» وذلك لملء الفراغ الذى تعانى منه القيادة العسكرية . وكان هؤلاء الضباط الشبان من المجندين فى الجيش الجمهورى ، ومن المتطوعين فيه وكانوا ينحدرون أساسا من عائلات متواضعة الحال : كان الجنرال «هوش» ، مثلا أكثرهم شعبية فقد كبر فى الاسطبلات الملكية ، قبل أن يكون جنديا فى الحرس الملكى . وبعد الثورة ، أصبح ضابطا ثم جنرالا،

كان له الفضل في هزيمة «متمردي» الفانديه قبل أن ينتصر على العدو النمساوي على الحدود الشرقية لفرنسا . وكان نفوذه كبيرا وشعبيته أكبر ولولا وفاته عام ١٧٩٧ ما كان لبونابرت هذا الشأن . كذلك لم يكن الجنرال «مورو» من النبلاء ، ولكنه كان ابن محام من الأقاليم ، تطوع في جيش الثورة، وأصبح جنرالا . وأثارت انتصاراته على العدو غيرة بونابرت ، لأنه كان المنافس الوحيد لطموحه السياسي ، فأصبحا ألد عدوين. أما «كليبر» فكان أبوه من عمال البناء ، وأصبح أيضا جنرالا اشترك في حرب الإبادة «بفانديه» وسنقابله فيما بعد، عند الحديث عن الحملة، للمسئولية الجسيمة التي وقعت على عاتقه في مصر.

وإن كان الكثير من جنرالات الثورة من أصل متواضع ، إلا أن بعضهم كان من النبلاء الذين بقوا في فرنسا بل واعتنقوا مذاهب الثورة، ولعبوا فيها دورا مرموقا ، وكان من بينهم مثلا وأكثرهم شهرة ابن عم الملك نفسه وكانت هذه حال كل من الجنرالين «ديسي» و«مينو» اللذين سنقابلهما أيضا في مصر .

وكذلك كان بونابرت نفسه ، وهو من عائلة كورسيكية من صغار النبلاء، مما أتاح له فرصة الالتحاق بالكلية الحربية الملكية، حيث تخرج منها ضابطا في المدفعية ، سنة ١٧٨٤ أي قبل اندلاع الثورة بسنوات خمس . وقد ولد عام ١٧٦٩ أي أنه كان في العشرين من عمره عندما أصبح ضابطا عاملا في الجيش الملكي ، وحين قامت الثورة .

كانت أولى بشائر عبقريته العسكرية ، عندما أرسل لمساعدة حصار مدينة «تولون» الثائرة على الحكومة المركزية، فى سنة ١٧٩٣ . وكان استعماله الدقيق لمواقع مدفعيته يشى بعبقرية أتاحت لجيش الحكومة الانتصار على أعدائها ، فلفت أنظار الحكام وعرف اسمه منذ ذلك الحين. كان اسمه مرتبطا بتيار «اليعاقبة» فقبض عليه ثم أفرج عنه، عندما سقط «روبسبيير» وأصدقاؤه . وبعد فترة وجيزة، رضى عنه الحكم الجديد ، فشارك فى صد مظاهرة يمينية لقلب نظام الحكم ، وهكذا ، أحبطت مدافعه ، بموقعها الخطير فى قلب باريس ، محاولة جادة لعودة الملكيين الى السلطة عام ١٧٩٥ . وكانت الساحة كما سبق أن أشرنا مليئة بالجنرالات الشبان المنتصرين الموهوبين الشعبيين الذين شاركوا أيضا فى انقاذ الجمهورية، سواء فى داخل فرنسا أو خارجها . ووقع الاختيار على بونابرت لقيادة الحملة على ايطاليا : كانت حملة بلا أهمية هدفها الوحيد مساعدة «جيش الشرق» ، وهو الجيش المهم، على صد هجوم الأعداء الذى يهدد الوطن نفسه. ولم يكن «جيش ايطاليا» أكثر من جيش احتياطى لإلهاء العدو، وتشتيت قواته .

من هنا ، بدأت بالفعل اسطورة الجنرال الجمهورى الإنسانى النابغة، الذى لايهزم لأنه ينقض كالصقر على أعدائه فتقابله الشعوب المحررة بالتهليل والهتاف . وأصبح «جسر أركول» ، عام ١٧٩٦ ، مثلا ،

الرمز الذى يمثل بطولته ، اذ ألقى بنفسه ممسكا بالعلم ، على هذا الجسر الذى يفصل جيشه عن عدو يمطرهم بالقذائف الفتاكة، فما كان من جنده إلا أن خجلوا من جبنهم ، وهبوا لإنقاذ قائدهم .. وكان النصر.. والأسطورة .. والرسم الذى يؤكد حقيقة تلك اللحظة التاريخية. انتصر وتصرف وكأنه صاحب الأمر والنهى ، ووقع معاهدة صلح مع النمسا المهزومة ، وحدد بنودها دون الرجوع إلى رؤسائه فى باريس ، فأصبح بطل الحرب والسلام، والمفاوض النابه، الذى أنهى الحرب التى بدأت عام ١٧٩٢ .

ثم كانت الحملة على مصر ، بعد أن أدرك استحالة غزو انجلترا . ذهب الى مصر ، هذا البلد البعيد الغامض ، حيث انتصر على أشجع فرسان العالم ، وهم المماليك ، وأهلك آلاف الجند العثمانيين ، وجعل كل المصريين يحلفون باسمه، ويهتفون للجمهورية الفرنسية بسببه . ولكن، كان عليه أن يعود إلى فرنسا لينقذها من حالة الفوضى التى أتت على الأخضر واليابس . ثم كان ، فى البداية ، حكم بونابرت القنصل ، إلى أن أصبح الإمبراطوار نابليون سنة ١٨٠٤ .

وكانت اسطورة «الجنرال الجمهورى» قوية لدرجة أن تتويجه خيب آمال الكثيرين، فقد كان لقب «بونابرت» فى نظرهم، أكبر وأعظم بكثير من لقب «الإمبراطور» .

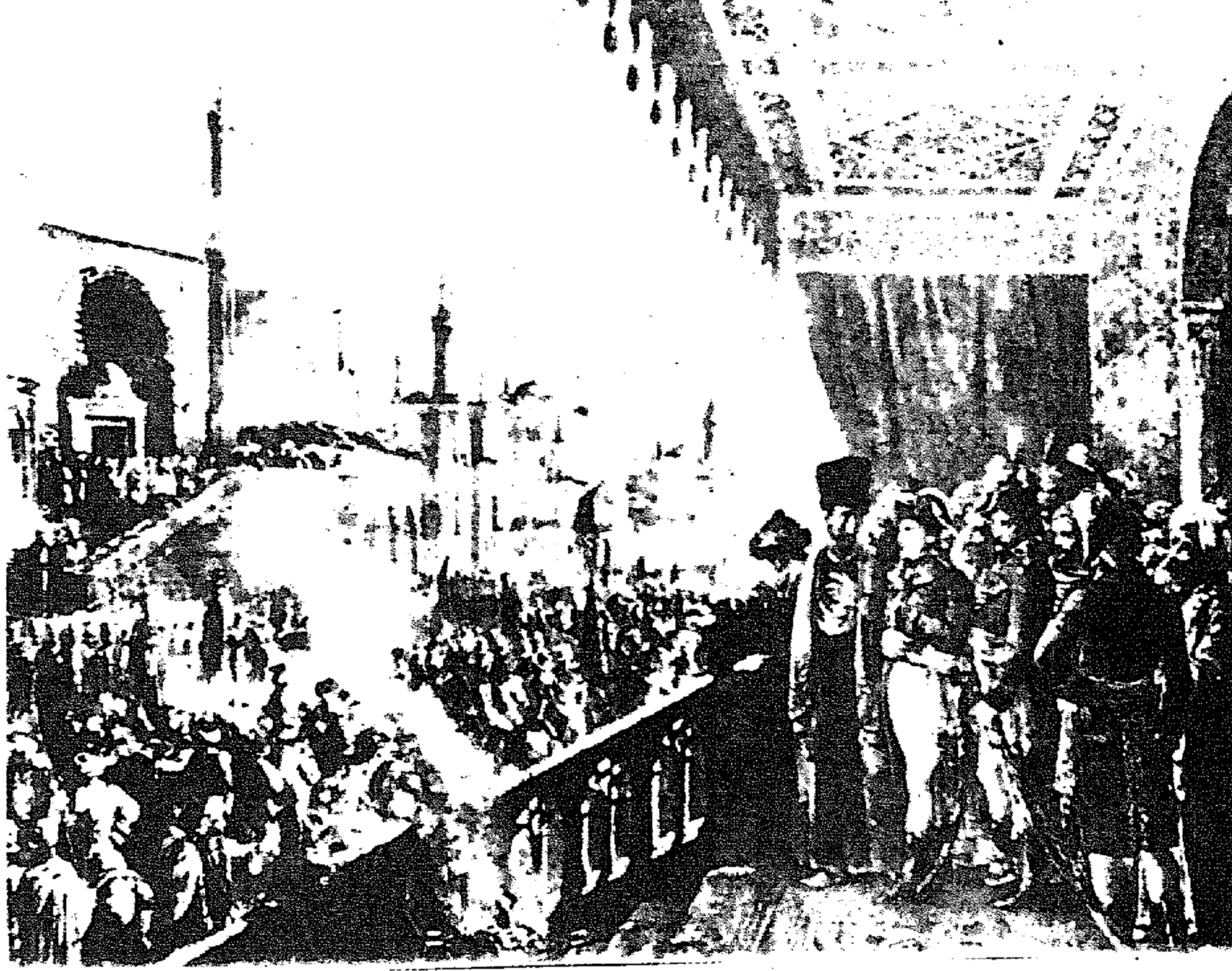
ونظرا لأن هذه الأسطورة احتوت جزءا من تاريخ مصر ، وبعد أن تعرفنا على الجانب المضيء من سيرة القائد، علينا أن نكتشف الجانب الآخر ، خاصة أنه الجانب الذى كان سببا فى خلق الأسطورة وانتشارها .



بونابرت والعبقرية الإعلامية

فى يوليو من عام ١٧٩٣ نشر كتيب سياسى عنوانه « عشاء بوكير » (٤٣) لضابط شاب اسمه نابليون بونابرت . يؤكد هذا الكتيب أولا ، دفاع المؤلف عن مبادىء «اليعاقبة» ، وبالتالى انتماؤه اليهم ، وثانيا مهارته الفائقة فى استعمال الدعاية المؤثرة على جمهور القراء ، ونبوغه فى هذا الميدان . وقد صادف هذا الكتيب نجاحا كبيرا لتفوقه الملحوظ على ما كان يكتبه عادة باقى مشجعى حزب اليسار المتطرف آنذاك. لفت هذا العمل السياسى نظر أولى الأمر، فكان سبب احتضانهم لمؤلفه، وترشيحه بعد ذلك قائدا لمدفعية جيش ايطاليا .

عرف الجنرال بونابرت بصفته صنيعة «اليعاقبة» ولكن سقوطهم تسبب فى إقصائه عن الخدمة، حتى أنه ، فى عام ١٧٩٥ ، قدم، يائسا ، طلبا لإرساله الى تركيا ، مع بعثة الخبراء التى كان «سليم الثالث» يستعين بها لتطوير جيشه .



بونابرت أثناء الاحتفال بالمولد النبوى

ثم دارت دفة الأحداث كما سبق أن أشرنا ، وعين بونابرت قائدا عاما لجيش ايطاليا . ويؤكد «جان تولار» أشهرْ متخصص معاصر لتاريخ نابليون ، أن «الأسطورة النابليونية» لم تبدأ فى «سانت هيلانة» ولكنها بدأت فى سهول ايطاليا (٤٤) . ويشرح «تولار» كيف أن «بونابرت هو أول قائد فهم، بعد يوليوس قيصر ، أهمية الدعاية . فهم أنه لايكفى للقائد أن ينتصر ، ولكن عليه أيضا أن يضيف إلى انتصاراته هالة أسطورية» . ولاعجب، فنابليون نفسه قال هذا الكلام عندما كان يتحدث الى «لاس كاس» فى منفاه «سانت هيلانة» .

وفى كتاب آخر عن تاريخ الثورة وحروبها نقرأ كيف أن الدعاية البونابرتية «زيفت وبسرعة فائقة الواقع الحقيقى للحملة على ايطاليا وقد حولت هذه الحملة الصعبة الى مسيرة منتصرة وحولت مجرد محارب ذكى الى بطل تتوجه الآلهة» . .

كانت أولى وسائل بونابرت الإعلانية هى هذه الخطابات التى كان يرسلها الى أولى الأمر ، والبيانات التى كان يصدرها عن معاركه المنتصرة دائما . وكان نشر مراسلات ياوره الخاص أخيرا ، أحسن دليل على استراتيجية دعائية يقوم الأصدقاء فى باريس بتنفيذها، بتضخيم الانتصارات وكتمان الهزائم .

وكان بونابرت حاذقا فى اقتحام كل الميادين التى تعلى من شأن اسمه ، فكان أول مافعله مثلا لكسب ود جنوده وإعلاء روحهم القتالية ،

هو اصدار بيان يسمح لهم بالنهب والسلب ، قائلا : «أيها الجند أنتم عرايا .. سأقودكم الى أكثر السهول خصوبة فى العالم، والمقاطعات الغنية والمدن الكبرى ، ستكون تحت سيطرتكم وستجدون فيها الشرف والمجد والثراء» . ثم اتخذ بعد ذلك قرارا خطيرا، لم تكن الجيوش الأخرى فى الجمهورية تعرفه، وهو صرف نصف راتب الجند نقدا، مما جعل منه القائد الأمثل الذى يحلم كل مجند فى الجيوش الأخرى بخدمته.

وعلى الرغم من أن تولار « لايقلل من شأن انتصارات بونابرت» ، على حد قوله ، إلا أنه يعجب للطريقة التى قدمت بها الى جمهور معاصريه . وأحسن مثل يضربه هو معركة جسر «آركول» الاسطورية ؛ لقد مر الجيش أولا بالعديد من الصعوبات وتكبد الفشل تلو الفشل ، لأن الجند الفرنسيين كانوا أقل عددا بكثير من أعدائهم النمساويين ؛ وعلى الرغم من ذلك ، كان بونابرت ومساعده يرسلان التقارير عن الانتصارات المتلاحقة.وجاءت أخيرا معركة آركول « ولم يكن هذا الانتصار الصعب حاسما» (٤٥) ولكنه تحول إلى قصة اسطورية ، يرسم لها الفنان المعروف «هوراس فرنيه» لوحة وزعت منها نسخ لا حصر لها .. وهكذا دخلت هذه المعركة التاريخ من أوسع أبوابه . لقد فقد بونابرت فى هذه المعركة القاسية سبعة آلاف من جنده ، ومع ذلك، نراه لا يبلغ الا عن فقد ألف فقط !

كذلك ماحدث لمعركة اسطورية أخرى ، وهى معركة «لودى» فقد صدر أمر من أحد أتباعه بطبع رسم لبونابرت وهو يندفع أمام جنوده، رافعا علم فرنسا ، ونفذ الأمر على الفور فى مدينة «جنوا» ، وأرسل العديد من نسخ هذا الرسم الى فرنسا ، وبونابرت وأعوانه الآخرون يرسلون فى الوقت ذاته تقارير تؤكد أن معركة «لودى» كانت انتصارا حاسما. وفى الواقع كان الأمر غير ذلك لأن المعركة لم تحقق هدفها الأصلى ، وهو إبادة جيش الأعداء ، فالذى حدث بالفعل هو أن الجيش المهزوم انسحب بنظام تام ، وعاد بعد ذلك الى هجومه الشرس . أما الاسطورة الثالثة المعروفة باسم معركة «كاستيجليون» فقد أبلغ عنها بونابرت قائلا: «إن الجيش النمساوى اختفى وكأنه حلم» ، وأكد مساعده ذلك بتقرير قال فيه : «لقد تمكنا من كل ايطاليا» ، وكان كل ذلك مغايرا تمامـــا للحقيقة .

كان هذا على مستوى الأخبار التى كانت ترسل الى الحكام ، والتى عرفها الجمهور أيضا بطريقة مبتكرة ، حولت القائد وحملاته الى اسطورة تغنى بها التاريخ الفرنسى حتى الأمس القريب . فعلى صعيد آخر استولى بونابرت أو بالأصح نهب بونابرت من الايطاليين خمسين مليونا (ولاننسى أن العملة فى ذلك العصر كانت ذهبا) ولم يرسل منها الى فرنسا إلا عشرة ملايين فقط ، أرسلتها الحكومة فورا الى الجيوش

الأخرى على الحدود الشرقية لفرنسا . وبالفعل كان بونابرت نفسه فى أشد الحاجة الى الملايين الأربعين الباقية : كان بونابرت قد حول القصر الذى نزل فيه الى بلاط يكاد يكون ملكيا وجمع حوله من الفنانين والشعراء أكثر مما كان هناك من السفراء والضباط . وأهم من ذلك ، خلق اسطورته الذاتية وسط مواطنيه فى فرنسا ، وفى الجيش الفرنسى كله .

فقد أنشأ على حسابه الخاص - إن صح القول - جريدة «رسائل جيش ايطاليا أو الوطنى الفرنسى فى ميلانو» كان نجاحها سببا فى انشاء صحيفة أخرى هى «فرنسا كما يراها جيش ايطاليا» كان المفروض أن الصحيفة الأولى ، التى توزع دون مقابل على جنده، تنبئهم بأخبار فرنسا ، ولكن «الهدف كان فى الأساس - كما يكتب تولار - توجيههم سياسيا حسب رغبة بونابرت» . أما الصحيفة الثانية ، فكانت تتغنى بحياة التقشف التى كان يعيشها القائد الجمهورى المثالى ، هذا نصف الإله الذى يعيش كأبطال الرومان الوطنيين الزاهدين، إلا فى خدمة وطنهم .

وبينما كان بونابرت المنتصر فعلا يرسل الى باريس المرايات التى استولى عليها والكنوز الفنية التى جرد منها كل مدن ايطاليا وقصورها، كان الجمهور يقرأ أيضا عن سلوكه الفذ المثالى ، علاوة على أنه مثلا

«يطير كالبرق ويضرب كالصاعقة فهو فى كل مكان ويرى كل شىء» . ويعتقد «تولار» أن هذه الجريدة أيضا كانت توزع مجانا على الجمهور ، فالمال كان وفيرا بين يدى بونابرت .

ولا ننسى أننا لانزال فى تلك المرحلة من تاريخ فرنسا ، حيث كان الجميع يشعر أن كل مايحدث أسطورة ، ناهيك عن مفردات التفخيم التى اكتسحت اللغة الفرنسية ، منذ قيام الثورة . وأمام كل هذه المعجزات التى تبتدعها تقارير بونابرت وصحفه - ومن كان يدرى أنه الموجه لكل مايكتب بها ؟ - انتشرت الرسومات الشعبية والأغانى والقصائد التى تمجد البطل الشاب الجديد ، بعد أن هوت كل الرموز لآلهة الثورة مثل « ميرابو » و « دانتون » و « روبسبيير » وآخرين عديدين أقل شهرة . كان يبدو كأن الشعب الفرنسى .. متعطش لمثل هذه الصورة المثالية الخيالية ، مستعد لتصديق أية معجزة ، فكتبت مثلا مسرحية عنوانها «جسر لودى» التى كانت تمثل وسط هتافات الحاضرين، كما حول الناس اسم الشارع الذى يقطن به بونابرت الى «شارع النصر» .

هكذا بدأت وترسخت اسطورة نابليون منذ أولى حملاته خاصة أنه بانتصاراته تلك أنهى أخيرا حربا كانت قد اندلعت مع قيام الثورة كما سبق أن أسلفنا ، فأصبح بطل الحرب والسلم . وسرعان ما ظهرت

صحيفة أخرى فى سنة ١٧٩٧ - أى قبل الحملة على مصر بسنة واحدة - كان اسمها «جريدة بونابرت والرجال النزهاء» (٤٦) - ولا أظن أن هذا العنوان فى ذاته يحتاج الى أى شرح أو تعليق ، خاصة أن فساد رجال الحكم فى ذلك الزمن ، كان من المسلمات التى لايشك فيها أحد ، فأصبح النزيه الوحيد وسط هذا الفساد العام ، هو الجنرال بونابرت .

★★★

هذا هو الجنرال الذى سيذهب الى مصر والذى لم يختلف كثيرا عن باقى جنرالات عصره، من حيث معاملته للشعوب التى غزاها ، أو نهبه للثروات التى توصل اليها ، ولكن النبت ينذر من الآن بما سيكون عليه الفرع ، فما من أحد من زملاء بونابرت كان يعرف كيف يستفيد من أخطاء أعدائه ، أوامكانات ضباطه مثله . كما كان لبونابرت وحده حزب فى باريس ، بل فى فرنسا كلها ينسق معه خطة بارعة لتنمية ونشر شعبية واسعة ، بل ويعرف كيف يلعب على كل ما كان يتمناه الفرنسيون فى ذلك العصر . إن الذاتية المطلقة والنرجسية الفجة التى تصل الى حد تأليه «الجنرال الجمهورى الشاب» ترسمان خيوط شخصية ستتغير مع الأيام بطبيعة الحال ، مثلما يتغير أى كائن حى ، ولكننا لن نراه فى يوم ما يحدو عن صفات الشخصية العبقرية الفذة فى فن الحرب، بل وفى فن اقناع الآخرين بهذه العبقرية وإن كان على

الآخرين أن يدفعوا ثمن غرورها وتعطشها للسلطة المطلقة . فما كان من بونابرت المنتصر فى ايطاليا الا فرض شروط السلام على امبراطورية النمسا المهزومة ، دون الرجوع الى رؤسائه المدنيين فى باريس . ولذا أذعن هؤلاء المدنيون لرغبته بعد ذلك ، وأرسلوه الى بلد بعيد ، الى مصر، حتى يتقوا شر طموحه الطاغى ، وعبقريته الفذة ، وشعبيته الواسعة ، الخطرة على سلطتهم فى البلاد، وعلى النظام النيابى كله .

إنه ـ بالفعل ـ «الجنرال الجمهورى» ليس بالمعنى الرومانى كما كان يتخيل المعجبون به ، ولكن بالمعنى المعاصر لجمهورية ، كانت أول من طبق ازادواجية الكلمة والفعل ، فجاءت عبقرية بونابرت لتصل بهذه الصفة إلى أمجاد لم يكن أحد ليحلم بها من قبل .

هذا هو القائد الذى تولى أمور الحملة على مصر، وكان هذا سلوكه. إن اسطورة هذا «الجنرال الجمهورى» العبقرى الفاضل، الذى سيذهب الى بلد بعيد وغامض ، هذه الأسطورة ما كانت لتسمح ، منطقيا، لبريقها، أن يطمسه أى فشل أو خطيئة ؛ وزاد من قوة الأسطورة أن بونابرت استمر فى انتهاج السياسة نفسها التى اتبعها فى ايطاليا ، فنجحت الاسطورة المصرية كما سبق أن نجحت الأسطورة الايطالية.

★★★

لن نعجب بعد ذلك إن وجدنا اسمى «ايطاليا ومصر» يزينان دائما الاسطورة البونابرتية ، حتى إن كان المؤرخ يعرف حقيقة الأمر . فكل من كتابى «نابليون» و«الثورة الفرنسية» يختتم سرده عن النشاط الإعلامى لبونابرت أثناء الحملة الايطالية وبعدها، بربطها بالحملة على مصر ، والسبب ليس فقط لأن «جيش ايطاليا» بجنده هو الذى أصبح وحده «جيش الحملة على مصر» حتى أن بونابرت ترك فى جزيرة مالطة كل من لم يشترك معه فى حملة إيطاليا من الجند الفرنسيين، ولكن السبب: «أن بونابرت استطاع بعبقريته الاعلامية، وتأثيره على الخيال الشعبى، أن يحول الحملة على إيطاليا الى إلياذة حقيقية (كما يقول «تولار») ، وكذلك كانت الحال مع الحملة على مصر، فعلى الرغم من فشلها النهائى ، إلا أنها أخذت ، بفضل مؤرخيه ، مظهر الملحمة الشرقية التى تجعل من قائدها نظيرا للاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر» ، وأيضا، « لأن مصر ـ هذا المنفى ـ ساهم فى بناء أسطورة بونابرت بالقدر الذى ساهمت به انتصارات إيطاليا » (٤٧) . فأصبح بونابرت بعدهما «جندى ايطاليا ومصر»، حتى أن الأمير المطالب بعرش فرنسا – عندما تولى بونابرت السلطة الكاملة بعد عودته من مصر ـ تخيل أن فى إمكانه استمالة ذلك القائد الشاب ، ليعيده الى عرش أجداده ، لذا كتب اليه قائلا:

«... أنت يابطل» «كاستيجليون» و «أركول» ، وياغازى إيطاليا ومصر، فى إمكانك أن تكون منقذ فرنسا..» (٤٨) .. وكان الجميع يظن هذا، حتى وان لم يكن بالصورة التى تخيلها الأمير «البوربوني» المنفى، أو أصدقاء بونابرت السابقون من «اليعاقبة».

بونابرت والحرية

المنقذ.. كان الشعب كله فى انتظار المنقذ: لقد انهزمت كل الجيوش على الحدود الشرقية لفرنسا، وذلك فى ستة أسابيع فقط، حتى بدأ أعضاء حكومة «الإدارة» - الذين سعدوا بالحملة على مصر ليتخلصوا من طموح بونابرت وشعبيته - يفكرون جديا فى استدعاء «القائد الوحيد الذى لم يهزم يوما»، ومع أن «فشل الحملة على مصر كان معروفا، إلا أن الدعاية، خاصة حملة الجرائد، كانت قد فرضت مرة أخرى على الجمهور صورة البطل نفسها التى سبق أن نشرتها أثناء الحملة على إيطاليا ، (٤٩) ، وكان خبر الانتصار الباهر، كما كانت توصف به معركة أبو قير الثانية، قد وصل سريعا فمحا تأثير خبر فشل حصار عكا، وما صاحبه من فظائع . وبعد إعلان خبر انتصار أبو قير المجيد بأيام ثلاثة، وصل بونابرت بنفسه الى فرنسا، قبل أن يصل استدعاء الحكومة له.. وكانت دفة الحرب قد دارت، وانتهى الخطر المحدق على الحدود الشرقية، ولكن بونابرت كان بطل انتصارات

إيطاليا، ومعركة الأهرامات الاسطورية، العائد من ذلك «البلد الغامض» المسمى «مصر». ونسي الشعب «جيش الشرق» الذى تركه بونابرت لمصيره المحتوم فى مأزق قاتل، و« كأن رمال مصر قد ابتلعت التجاوزات التى عانت منها السلطة المدنية (من بونابرت وهو فى مصر)، وكارثة أبو قير الاولى . إن مجرد عودته قد جعلت الانتصارات الجديدة على الحدود الشرقية لفرنسا تبدو تافهة، لانها وقعت فى غياب الرجل العظيم» (٥٠) .

وكان حكام «الإدارة» يخططون لانقلاب جديد، مثل الانقلابات السابقة التى ساعدتهم على الاحتفاظ بالسلطة حتى ذلك الحين.

وكانوا بحاجة الى «جنرال جمهورى» شعبى، مثل أبطال الرومان، ينقذ البلد، ثم يعود الى ثكناته . ووقع الاختيار على بونابرت الذى استقبله الشعب الفرنسى بصورة شبه هستيرية، ونظم المتآمرون خطتهم بإحكام ، حتى أنهم أرسلوا مجلسى النواب، والشيوخ، خارج باريس بحجة واهية، وكان رئيس المجلس النيابى أحد إخوة نابليون، وتوجه الجنرال بجنده،، ودخل مجلس الشيوخ يوم «١٧ برومير» (٥١) وقرأ عليهم «خطبة قصيرة محبوكة بعناية فائقة، وكان مما قال: نريد جمهورية أساسها الحرية الحقيقية، والحرية المدنية والتمثيل القومى، وأنا أقسم باسمى واسم زملائى فى السلاح إننا سنحصل عليها» وفى

اليوم التالى ، الذى دخل التاريخ لأنه فتح صفحة جديدة فى تاريخ فرنسا، بل في تاريخ أوربا كلها، واجهت « خطبته (أمام مجلس النواب) والتى أثقلتها البلاغة الرومانية العسكرية » عاصفة من الاعتراضات والأسئلة ، لم يجد بونابرت ردا عليها ، فإذ به يبادر «بالتهديد الذى سبق أن اشهره فى وجه مسلمى القاهرة»، كما يعلق مؤلفا « كتاب الثورة الفرنسية » : قال بونابرت الهتافات المعادية تضعف من موقفه : «تذكروا اننى أتقدم وآلهة الحرب والنصر بجانبى» ، وعلت صيحات ممثلى الشعب «فليسقط الدكتاتور! فلتحيا الجمهورية ودستور العام الثالث ! فلنمت فى مواقعنا» وصاح أحدهم « أمن أجل ذلك انتصرت ياجنرال ؟ » وحدث شغب، فاستدعى لوسيان بونابرت جند أخيه صارخا « إنهم يقتلون الجنرال ! » .. فهجم الجند على قاعة المجلس ، حيث قبض على البعض ، بينما قفز الآخرون من النوافذ فارين لينجوا بحياتهم.

وهكذا استولى بونابرت ، بالقوة المسلحة على الحكم.

بعد ثلاثة أشهر من تركه مصر، وشهر واحد من وصوله الى فرنسا، كانت هذه هى الديمقراطية التى تحدث عنها ، ثم يحق له بعد ذلك أن يغتالها ! .

وفى يوم ١٩« بروميرٍ» عاد بونابرت الى باريس بعد أن كتب روايته لما حدث، وأصبحت قصته هى الوثيقة الرسمية للأحداث، وهى الرؤية التي احتفظ بها التاريخ.. حتى عهد قريب.. وكونت على الفور حكومة جديدة ، اسمها حكومة «القناصل» ، أكدت فى ١٥ ديسمبر من عام ١٧٩٩ : «أن الثورة مرتبطة بالمبادىء التى قامت عليها، ولذا، فالثورة قد انتهت » (٥٢) وبدأ «العهد الجديد الذى تشكل على انقاض الجمهورية البرلمانية، التى أطاح بها انقلاب عسكرى» (٥٣) . وتم بالطبع تحرير دستور جديد، سمى «دستور العام الثامن » أى عام ١٧٩٩ . وعرفت باريس نكتة تقول: علام يحتوى الدستور؟ فتكون الاجابة: على بونابرت ، بينما شهر السياسى الكبير والثورى العتيق «سيياس» علنا ببونابرت، مؤكدا انه يريد أن يصبح ملكا.

وكان علي حق فى ظنه، «فالقناصل» ثلاثة، ولكن السلطة كلها كانت في يد «القنصل الأول» الجنرال بونابرت وحده: كيف ننسى أنه أكد، فى أول تصريح له أن «الثورة انتهت».. الثورة التى يقال انه علم مبادئها للمصريين ولأوربا وبدأ عصر الاستفتاءات، ليؤكد بونابرت شعبيته، وكما ساعده اخوه «لوسيان» فى إنجاح انقلابه العسكرى ضد نواب الشعب المنتخبين ساعده ايضا فى هذا الاستفتاء الاول، فكان التزوير السافر

الذى أظهرته أخيرا دراسات المتخصصين . ويعلق «تولار» قائلا إن هذا الاستفتاء، «لم يكن استفتاء حرا للرأى العام، بل كان مجرد تصديق على الأمر الواقع» .

وهكذا انتهى عام ١٧٩٩، الذى بدأه بونابرت حاكما مطلقا على مصر المحتلة، وانتهى وهو حاكم مطلق على فرنسا. وما كانت سياسته فى فرنسا إلا امتدادا منطقيا لسياسته فى مصر.

كان بونابرت «القنصل الأول» والوحيد فى الواقع على الرغم من وجود قنصلين بجانبه ـ يسيطر سيطرة كاملة على الوزراء وبل وعلى الادارة كلها، حتى أن أحد معاصرى ذلك الوقت ، صاغ كلمة «بيروقراطية» ، وقد لاحظ المؤرخون كلهم أن المركزية ، وسلطتها المطلقة، التى نظم بها بونابرت شئون البلد فى ذلك العصر، كانت كلها مستوحاة من النظام الادارى الملكى الذى ساد لقرون قبل الثورة حتى مجلس الدولة الجديد رأوا فيه صورة حديثة «لمجلس الملك» أيام الحكم المطلق فى العهد السابق للثورة.

وعلى مر الايام، فقدت فرنسا كل الحريات التى اكتسبتها بقيام الثورة الكبرى ، سنة ١٧٨٩.

وقد يكون أول قانون يدل على هذه الحقيقة، هو القانون الذى صدر فى ٧ فبراير سنة ١٨٠٠، والذى حل كل السلطات الجماعية والانتخابية

والحكم المحلى فى مقاطعات فرنسا المختلفة، ذلك الحكم المحلى الذى يقال إنه علمه للمصريين.

لقد أصبح لمبدأ السلطة هو اساس كل مايوجه نظم الحياة العامة، خاصة أن التمثيل النيابى أصبح «تشويها سافرا» للحياة النيابية المسئولة . وفى الشهر الاول من عام ١٨٠٠ - أى بعد تركه أرض مصر بخمسة أشهر فقط - صدر أول قرار بإلغاء كل الجرائد التى تنشر فى باريس . كانت تلك الجرائد حرة فى كل ماتكتب دون أية رقابة عليها، حتى تلك اللحظة ، ولكن بونابرت لم يترك منها إلا ثلاث عشرة جريدة شريطة ألا تعارض الحكومة، وإلا تلغى هى الأخرى وفورا .

وكانت أهم ضحايا هذا القرار، صحف اليسار، التى كانت لاتزال تنادى بمبادىء الثورة.. ولكن بونابرت كان يشعر أن الخطر على سلطته مازال يأتى من هذا الاتجاه . لم يكن القضاء على الاعلام اليسارى كافيا فى نظره، لذا، صدر، فى عام ١٨١٠، أمر بتشكيل «الإدارة العامة للطباعة والمكتبة».. وهكذا انتهى ماتبقى من حرية الصحافة فقد أصبح عدد جرائدها لايتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، ولايسمح لها بالحديث إلا عن الآداب والفنون . وفى عام ١٨١١، استولت الدولة حتى على تلك الصحف القليلة الباقية . ولم تكن حجة خطر الفكر الثورى كافية ، فقد انتهى اليسار فى فرنسا منذ سنة ١٨٠٠، ففى ٢٤ من ديسمبر سنة

١٨٠٠، انفجرت قنبلة وبونابرت في طريقه الى الاوبرا، ونجا «القنصل» وراح ضحية محاولة الاغتيال عشرات من الضحايا، واتهم بونابرت في الحال «اليعاقبة» بهذه المحاولة التى اهتز لها الرأى العام، جاء هذا الاتهام العلنى قبل أن يبدأ التحقيق.

وقد ثبت بعد ذلك أن الجناة الحقيقيين، كانوا من الملكيين اليمينيين.

ولكن بونابرت انتهز الفرصة، وأمر بالقبض على اليساريين - وكان صاحب كل سلطة، بما فيها السلطة القضائية - وقبض على مائة وثلاثين من «اليعاقبة»، وبدون محاكمة ، تم إعدام بعضهم، ونفى الباقى الى مستعمرات أمريكا الوسطى، حيث كان الجو يقتل كل من يحكم عليه بالنفى فيها، وهكذا كان أول تطبيق لقانون الحرية الشخصية في عهد بونابرت، هذه الحرية الشخصية التى ألغيت تماما، فيما بعد، بعد السيطرة الكاملة للبوليس على حياة الافراد.

كان بونابرت قد أكد فى مجلس الدولة خط سياسته، قائلا: «سياستى هى أن أحكم كما تريد الاغلبية وأظن أن هذه هى الطريقة المثلى للاعتراف بسيادة الشعب . لقد انتصرت فى حرب «الفانديه» لاننى أعلنت أننى كاثوليكى، واستقريت فى مصر لاننى أصبحت مسلما، وكسبت النفوس فى ايطاليا لاننى أصبحت من أتباع البابا، ولو كان علىّ أن أحكم يهودا، لأعدت بناء معبد سليمان» (٥٤) ، وبهذه الفلسفة ، انتهى كل دور للحياة النيابية، ومكاسب ثورة ١٧٨٩ الديمقراطية.

من هذا المنطلق، أعاد بونابرت العلاقات مع البابا، لانه إعتبر الدين من أهم وسائل الحكم، وعندما توصل الى اتفاق مع روما، في عام ١٨٠١ ، كانت شروطه غريبة، إذ جرد (بونابرت) البابا من كل سلطة على الاساقفة الفرنسيين ، وأصبح من حقه هو وحده أن يعينهم ، ولم تقم بعد ذلك أية جمعيات دينية أو أديرة إلا بموافقته.

ويقول «سوليه» (فى كتابه الذى سبق ذكره) إن الشعب فرح بالحرية الدينية ، ولذا قبل الدكتاتورية ، لأنه عاد الى كنائسه .

وعندما توصل بونابرت، بعد ذلك الى انهاء الحرب فى عام ١٨٠٢ زادت شعبيته وزاد طموحه ، وتقرر أن يكون « قنصلا مدي الحياة »، وأعاد الرق الذى كانت الثورة قد ألغته على الورق في مستعمراتها الأمريكية (٥٥) . وفى عام ١٨٠٣ - ولا يسعنا الا ملاحظة الايقاع الزمني السريع - اعاد تنظيم «المعهد الفرنسي» - وكان فرعه فى القاهرة مفخرة الحملة - فألغى فيه أقسام العلوم الانسانية والسياسية ؛ مما جعل «ستندال»، المؤلف المشهور المتيم بحب نابليون، يشرح فيما بعد، مدافعا عنه قائلا:

«قد يكون طاغية، استعبد الصحافة، وحارب الفلسفة والافكار الليبرالية».. ولكن الموقف السياسى فى فرنسا كان يبرر ذلك:

«وبدون الطغيان العسكرى، كانت فرنسا، فى عام ١٨٠٠، ستعرف المصير نفسه ، الذى عرفته عام ١٨١٤ (عندما احتلتها جيوش الاعداء) أو ربما حتى ما رأته فى عصر الإرهاب (...) لقد انقذ فرنسا» (٥٦) .

نابليون الإمبراطور

وبالفعل، انصلحت الحال فى فرنسا، وباعتراف اعدائه أنفسهم، ولكن قبضة بونابرت زادت من سطوتها مع الزمن، وظهرت نيته الحقيقية، عندما بدأ فى انشاء طبقة جديدة من المميزين، فقد اخترع نيشانا اسماه «الليجيون دونار» (٥٧) لتكريم من يرام جديرين بالمكافآت، وكان ذلك النيشان ، صورة طبق الاصل لنياشين العهد الملكى . وكان كل شىء ينبىء بعودة الملكية: فاصبح لخدم القنصل زيهم الخاص، وبدأت الالقاب تعود فى الاحاديث العادية، وتكون بلاط كبير فى قصره، ووضعت له ايضا مزاسم صارمة . وفى مارس من سنة ١٨٠٤، قرر مجلس الشيوخ - الذى لم يكن له إلا دور صورى - أن «ينهى (بونابرت) عمله بأن يصبح سرمديا مثل مجده » ، ويتوج امبراطورا (٥٨) . فكان بعدها الدستور الجديد للإمبراطورية.وكانت سلطات « الجنرال الجمهورى » شاملة لدرجة أن التغيير لم يلحظ فى اى من بنود الدستور الجديد .. ولكن القوانين توالت لزيادة سيطرة نابليون ..

والحديث يطول عن طغيان نابليون، الذى جاء ليتوج ثورة، كانت مبادئها «الحرية والمساواة والإخاء» ، ولسنا بصدد سرد تاريخه المعروف، ولكن لايمكن المرور على بعض الامور دون توقف.. فالكنيسة، مثلا، أصبحت – مثل غيرها من المؤسسات ـ أداة فى الدولاب الاعلامى لنابليون وعائلته ، بعد أن توج كل أخ له وأخت ، فى البلدان التى غزاها، فكان الدرس الدينى فى فرنسا كلها ، مثلا يضع بين أوامر الرب «حب الطفل واحترامه وطاعته ووفاءه للامبراطور، والخدمة العسكرية والاتاوات المفروضة للدفاع عن الامبراطورية » [٥٩] . وبينما كانت البيانات العسكرية التى يرسلها نابليون من الجبهة وتقرأ فى المدارس ومع صلاة كل يوم أحد، كان القساوسة يتبارون فى تملق نابليون حتى أن الإمبراطور نفسه قال يوما :

«أنا أعفيكم من مقارنتى بالرب»، فقد ذهب بهم الحد إلى أن أحدهم – مأمور طبعا مثله فى ذلك ككل القساوسة ـ ذهب الى حد تأكيد فكرة أن نابليون هو ممثل الرب على الأرض، وقال إنه واثق أن الرب يأسف انه قد سبق أن أرسل السيد المسيح، لانه يعرف أن نابليون كان اجدر بأن يكون ابنه ؛ بينما قال اخر: «إنه لشرف عظيم للرب أن عبقرية خارقة (مثل عبقرية نابليون) تسبح له » ! [٦٠] . لم يكن الامر غريبا

على نابليون : ألم يسبق لاحد جنرالاته أن استقبله «كقنصل أول» بقوله: «خلق الرب بونابرت، ثم استراح»؟ (٦١).

وبعض الامور قد تبدو طريفة لمن لم يعشها، ونرى أنها ستساعد القارىء على تخيل معاملة نابليون للحرية، التى وعد فى أول عهده بحمايتها. فقد أنشأ طبقة جديدة سمى أعضاؤها، نبلاء الامبراطورية، حولت ضباطه الى دوق وكونت ، الى آخر ألقاب الملكية السابقة، ثم أصدر أمرا بألا يزوج احد من نبلاء العائلات العريقة، أثناء الملكية بناته إلا بإذن خاص منه حتى يزوجهن هو بجنده النبلاء المحدثين (٦٢) ، ولم يستطع أحد أن يرفض أوامره ، ومن يعترض فإن مصيره السجن أو المنفى . وزادت سلطة البوليس الى حد لم تعرفه فرنسا من قبل، وكان المعارضون يسجنون ثم يحكم عليهم دون أية محاكمة.

كان بونابرت شغوفا بالفنون، وقد يكون أحد دلائل هذا الشغف، ما انتقاه من تحف ايطالية لبيته الخاص . ولكنه عرف أيضا كيف يستغل هذا المجال - مجال الفنون - لتوظيفه فى تأليه صورته الذاتية، على حساب حرية الخلق الفنى بالطبع ، كما وظف الصحافة بعد كبت حريتها ، ولكن الخلق الفنى كان يحتاج حرية لا يتنفس ولا يبدع دونها.

وكتاب «جان تولار» عن «أسطورة نابليون» ينقسم الى قسمين،. فالقسم الثانى يحكى امتداد الاسطورة بعد وفاة الامبراطور، وتأثيرها

على فنانى البلاد الأخرى .. أما الجزء الاول ، فهو عبارة عن سرد لعناوين كل ما كان نابليون يأمر به ، حتى تخلق اسطورته . وكان «تولار» قد نوه فى كتاب آخر عن اهتمام بونابرت بالفنون، وإدراكه انها الوسيلة المثلى للدعاية، ولشخصه بالذات (٦٣).

ويضرب مثلا للحد الذى وصلت اليه عبادة الفرد فى عصره، خاصة بعد عام ١٨٠٥، بلوحة ترى فيها كل شعوب العالم ـ بما فيها شعب هنود أمريكا – وهى تنحنى لتمثال نصفى للامبراطور، وما يهمنا فى هذا الكم من الاعمال الفنية – التى تمجد بونابرت ، والامبراطور نابليون – هو، أولا، كيف كانت تصدر الأوامر، وبالتفصيل الدقيق، للفنانين ، لكتابة الشعر والمسرحيات والموسيقات .. إلى آخره، نجده فى الفصل المسمى « خلق الأسطورة » ، وثانيا طبعا، ما أمر به من أجل تصوير الحملة على مصر ، بما يليق بهذه الاسطورة نفسها خاصة أنها رسمت كلها بعد عودة بونابرت ، وبريشة فنانين لم يذهبوا يوما الى مصر : أشهرها « مرضى الطاعون فى يافا » سنة ١٨٠٤، التى كان نابليون يرد بها على ماقاله الانجليز، من انه سمم مرضى الطاعون من جنوده واللوحة للفنان الكبير «جرو» وكان لها نجاح كبير.

ويعلق كتاب آخر على هذه اللوحة قائلا: «إن الهدف من هذه اللوحة هو تأكيد شجاعة نابليون والحماية الإلهية التى يتمتع بها» (٦٤) وهذا هو بالفعل الانطباع الذى توحى به اللوحة.

فمن ير بونابرت واقفا وسط اللوحة (وهو دائما فى وسط كل اللوحات) . والضوء مسلط عليه، وهو يلمس بيده يد أحد مرضى الطاعون الملقى على الارض، لايسعه إلا أن يتذكر السيد المسيح (عليه السلام) عندما لمس يد الابرص فخلصه من مرضه (٦٥) والفارق الوحيد هو أن مرضى الطاعون من الجنود الفرنسيين لم يشفوا من مرضهم.

وقد اثبتت الدراسات الأخيرة أن بونابرت قد أمر، بالفعل، بإعطائهم السم ليتخلص منهم، وهو عائد مهزوم من عكا، ثبت ذلك بعد أن أثارت هذه القصة من المعارك الكتابية أكثر مما أثاره نابليون من حروب ، فكان مريدوه ينفون بشدة مثل هذه القصة التى فضحها الانجليز ، بينما يتلقفها أعداؤه بشغف شديد، لتأكيد وحشية الرجل « السفاح » .

أما عن السيد المسيح، ومقارنته بنابليون، فإن «تولار» يخصص فصلا كاملا عنوانه «المسيح» فى كتابه عن «اسطورة نابليون».

وفى كتاب الرسومات الخاصة به، نرى لوحة رسمت عندما اعادوا رفاته الى باريس فى عام ١٨٤٠، وهو يخرج منتصرا من القبر، وكأنه بالفعل السيد المسيح كما تصوره الكثير من اللوحات الدينية على مر القرون.

ولم يذكر «تولار» لوحة أخرى عنوانها «سماحة بونابرت» ، التى تصور بونابرت والشيوخ المصريين يسجدون أمامه، لعفوه عنهم بعد

الثورة عليه، وقد يكون ضعف مستواها الفنى سببا لتجاهله إياها وباقى اللوحات التى صورت معاركه فى مصر.

ولم يعرف تاريخ فرنسا، الزاخر بالأعمال الفنية الرائعة، فترة هبط فيها الانتاج الفنى الى مثل هذا المستوى المتدنى، كما عرف فى السنوات الخمس عشرة التى تولى فيها نابليون السلطة المطلقة فى بلده، فالحرية لا تتجزأ عندما يختص الأمر بقضية الابداع الفنى، خاصة إن كان لا يتحرك إلا فى اطار توجيهات دعائية خانقة، وبدائية فى تصورها.



لم يكن ماسبق إلا سردا سريعا لتوظيف نابليون كل انتاج عقلى فى سبيل مجده الشخصى، وهو الذى وعد، عند توليه السلطة بحماية حريات الثورة، ثم توج نفسه امبراطورا، وتوج كل اخوته وحتى ابنه الرضيع بعد ذلك (٦٦) . وكانت انتصاراته وغزواته تبرر، الى حد ما، مانسميه الآن «عبادة الفرد»، الى أن جاءت الخطيئة: قامت الحملة على اسبانيا دون أدنى مبرر موضوعى، مقنع للشعب الفرنسى الذى كان يدفع من دمه وحريته ثمنا للحروب التى لا تنتهى من أجل مجد فرنسا!!

لم يكن هناك مبرر لتلك الغزوة الجديدة، اللهم إلا اهداء عرش اسبانيا الى اخيه ، هكذا فهم الشعب تلك الحرب التى كانت أول درجة فى سلم سقوطه ، حتى انه اعترف هو نفسه بها كخطأ فادح، عندما كان فى «سانت ـ هيلانة» يبنى دفاعه ضد كل ماقيل عنه والحديث عن الحرب الاسبانية سيكون له شأن بالنسبة لقضيتنا ، ولكنها تفجر هنا قضية علاقته بالدول الاوربية التى استولى عليها، وقيل ان الجند الفرنسيين علموا شعوبها مبادىء الثورة الفرنسية الكبرى ، تلك الدول التى كان يحكمها اخوته ، أو حتى هو نفسه، مثل ايطاليا التى توج نفسه ملكا عليها سنة ١٨٠٥.

الإمبراطورية والحرية الفرنسية

كيف نفهم علاقة فرنسا الامبراطورية بالدول الحليفة، إذا تجاهلنا علاقة نابليون بفرنسا الثورة، التى ورثها ليحمى فيها ـ كما وعد ـ الحريات المكتسبة بعد سقوط الملكية، وتحول البلد، لأول مرة فى تاريخه، الى جمهورية؟ كانت صحف الجنرال الجمهورى بونابرت تقول عنه: «.. إنه يرى كل شىء، فهو مبعوث الأمة الكبرى (...) انه يعرف أن هناك رجالا لاتعرف سلطتهم إلا حدود إرادتهم، ولايحدث هذا إلا عندما تكون هذه الفضيلة ـ وهى اسمى الفضائل ـ فى خدمة عبقرية لا حد لها» . ألا تنبىء هذه الكلمات المبكرة بما سوف يحدث بعد ذلك بالفعل؟ أو عرفنا كيف حكم مصر؟ .

بعد هذا التمجيد المطرد، جاء الاستفتاء على « دستور العام الثامن» أي دستور انقلاب بونابرت العسكرى سنة ١٧٩٩، هذا الاستفتاء الذى زورت نتيجته بمهارة فائقة، حتى ظن الجميع أن وراء بونابرت حركة من الحماس الشعبى الكاسح.

وبعد ذلك مباشرة، كانت معركة «مارنجو» (١٨٠٠)، التى أنقذ فيها الجنرال «ديسى» بونابرت ، من هزيمة محققة .. ولكن وفاة «ديسى» فى هذه المعركة سمحت لبونابرت وأعوانه تأكيد العبقرية العسكرية الفذة لبونابرت الذى حول الهزيمة التى شاهدها الجميع، الى انتصار باهر .. وبعد هذا الانتصار المزعوم لبونابرت زادت بلاشك سيطرته الشخصية على الحكم ، استنادا على هذا النصر الرائع.

وإن كان بونابرت قد خدع المفتونين به، أو غير المستفيدين من حكمه بقناع زائف فإن هذا القناع بدأ يسقط، نابليون يقول حرفيا إن القوة هى «المبدأ الاساسى لأى حكم»، واستمرت الحروب التى أثقلت كاهل الشعب بثمنها الباهظ، على الرغم من الانتصارات التى تحقق . وتوالت البيانات التى ترسل من الجبهة لتقرأ فى الكنائس والمدارس، وحتى على الجمهور فى المسارح، وقد زاد انتشارها بصورة واضحة بعد عام ١٨٠٦، لتبرر بطريقة ما، استمرار المعارك ويعلق «تولار» (الذى نستعين به اساسا فى سردنا عن نابليون لدراساته الوافية الحديثة عن

الرجل الاسطورة «المنقذ») قائلا: «وهكذا خلقت أكذوبة الجيش القومى الذى يربط بين القوات المسلحة، والشعب، بينما لم يعد الجيش الكبير (كما كان يسمى جيش نابليون) إلا أداة لتحقيق رغبات الامبراطور» . ويؤكد «تولار» انه منذ عام ١٨٠٨، اختفى تماما كل ماتبقى من حريات، وحتى الدستور لم يعد نابليون فى حاجة الى احترامه كما كان يحترمه من قبل، (وإن كان ذلك صوريا بل وبطريقة تكاد تكون هزلية) .

أصبح نابليون يؤكد الآن بشكل سافر أن «الغرور وحده كان الدافع الحقيقى وراء الثورة، ولم تكن الرغبة فى الحرية هى التى اشعلتها » ، وحسب هذا المنطق ، لم يعد هناك أى داع الآن لاحترام أية صورة من صور الحرية المكتسبة أيام الثورة.

وهكذا كان حكمه بالفعل، وينقل لنا «تولار» قول أحد السياسيين المعاصرين لنابليون ، مؤكدا أن «عبقرية نابليون وطبيعته كانتا ترفضان مبدأ أى تقسيم للسلطة» (٦٧) . والصورة العامة للحكم الامبراطورى يوضحها معاصر آخر بقوله: «لم يكن هناك مايسمى بالمعارضة بصحيح العبارة، فلم يكن هناك معارضة أثناء الإمبراطورية ولكن كان هناك مشبهون ومغضوب عليهم، وبعد قليل، أصبح هناك مضطهدون» . لم تعد هناك، كما يقول تولار ، دكتاتورية من أجل الصالح العام ، كما كانت تقبلها طبقة البورجوازية المنبثقة عن الثورة، هذه الطبقة الجديدة التى

ساندت حكم نابليون، ولقد أصبحت دكتـاتورية نابليون دكتاتورية من أجـل رغبـات فـرد واحـد (٦٨) ، خاصة بعد عام ١٨٠٧، وكان الجميع ينتظر بعد أن استتبت الامور، وانتهت فوضى الحكم الثورى أن تتحول هذه الدكتاتورية الى نظام دستورى ليبرالى، كما سبق أن وعد بونابرت، ولكن «الجنرال الجمهورى» السابق، أصبح بوصفه امبراطوراً، لايهتم ولايحارب إلا من اجل توطيد، عروش عائلته ، وعرش ابنه من بعده (٦٩) لم تعد الدكتاتورية الامبراطورية من أجل رفاهية الشعب وسكينته ، فقد أخذت أحلام نابليون فى التوسع حتى وصلت به الى اسطنبول . عن طريق روسيا، كما حدث فى عام ١٨١٢، لقد بدأت الهوة تتسع بين نابليون وشعبه، وكانت قد بدأت مع الحرب الاسبانية فى عام ١٨٠٧، وظلت تزداد اتساعا ، كذلك ازداد عدد المنشورات التى تفضح الدكتاتورية الامبراطورية (٧٠) وتفضح عائلة بونابرت التى أصبحت تسيطر - لحسابها الخاص - على مقادير أوربا ، وثرواتها.

وإذا كانت هذه هى الحال فى فرنسا، فكيف تتخيل ان تكون فى البلاد التى اكتسحتها جيوشه وتوج جميع أفراد عائلته ملوكا عليها؟

★★★

نذكر أولا أن الاطماع الاستعمارية لنابليون خارج اوربا لم تهدأ إلا لقلة الحيلة، فقد ارسل بعثة علمية الى استراليا، حتى يأتى الاستعمار

بعدها ان أمكن ثم ارسل بعثة علمية أخرى الى مصر، في يناير من عام ١٨٠٣، وبالهدف الخفى نفسه، وجاء التقرير مؤكدا سهولة غزو مصر مرة ثانية، ولكن المعارك فى اوربا نفسها لم تتح لنابليون فرصة الخروج منها، خاصة أن البلاد المجاورة اخذت تتساقط تحت إمرته، وحتى البعيد منها، ولذا فإن الحديث الحالى عن الوحدة الاوربية ، يرجع دائما الى اول من حققها، وهو «شارلمان» امبراطور القرن التاسع الميلادى، ثم الى نابليون ، الذى تشبه به، وحاول تحقيق مافشل فيه تاريخ الماضى. ولكن ، أى أوربا هذه التى وحدها نابليون تحت حكمه للحظة وسط سيل القرون؟.

لن نسرد طبعا تاريخه المعروف ، ولكننا سنذكر بعض الحقائق التى كانت تنبىء بها أقواله هو نفسه ، هذه الأقوال التى تتسم بصراحة المنتصر المتعجرف وصلفه.

المعروف أن نابليون قرر، في حربه الضروس ضد انجلترا، ان يخنقها اقتصاديا بأن يمنع سفنها وبضائعها من الوصول الى القارة الأوربية، فكانت سياسة «الحصار الاقتصادى» تلك هى التى أجهزت على كثير من الموانىء الفرنسية والاوربية ، والبلاد التى تعيش ، الى حد ما، على تجارتها الخارجية مع انجلترا ، مثل البرتغال واسبانيا، فكانت الحرب ضدهما عام ١٨٠٧، وكانت الحرب ضد روسيا

فى عام ١٨١٢، ومن قبلهم هولنــدا التى كان قد ضمها الى امبراطوريته .

رفض ملك هولندا وهو أخو نابليون نفسه، أن يطيع أوامره لما يراه من نتائج ضارة على رعيته الجدد، بعد ان تفهم موقفهم من القوانين الجديدة، فغضب الامبراطور بالطبع وكان قد سبق لنابليون أن قال فى الموضوع نفسه : «أنا لم اسبتول على حكومة هولندا لأخذ رأى سكان امستردام بعد ذلك، وأعمل مايريده الآخرون»، وعندما بلغه رفض الايطاليين لسياساته المجحفة لحقوقهم قال أيضا: «إن شعوبى فى ايطاليا تعرفنى بما فيه الكفاية، فعليها ألا تنسى أن أصغر أصبع من أصابعى يعرف اكثر بكثير مما يدور فى رء وسهم كلهم أجمعين»، انه الصلف نفسه، والغرور الذى لا حد له فتكون النتيجة الحتمية: الهزيمة النكراء فى اسبانيا، ونتيجتها فداحة الخسارة فى روسيا بعد ذلك ، ولن نعجب أن رأيناه يعامل الفرنسيين الذين فى البلاد التى ضمها بالفعل الى الامبراطورية الفرنسية – والمتوقع انها دول حليفة – على انهم فرنسيون يتبعون سياسته ، أولا واخيرا ، ولايعملون لصالح البلاد التى استوطنوا فيها بإذنه : إن هذه البلاد لم تكن حليفة للامبراطورية بقدر ما كانت فى خدمة الامبراطورية . ويلخص «تولار» الموقف بكلمات

مقتضبة، لها معنى أكبر وأعمق مما تبدو : «إن نابليون لم يكن يريد حلفاء ، ولكنه يريد اتباعا فقط (...) ولذا، فقد امتزجت صورة الثورة الفرنسية ، فى البلاد التى ضمها اليه، بالاستعمار الاقتصادى القاسى، مع أن هذا النوع من الاستعمار لم يكن ليتفق مطلقا مع الامكانات الحقيقية لفرنسا نفسها».. أما المؤرخ «مارسيل دونان»، الذى تخصص في دراسة هذا الحصار القارى فهو يقول : «إن الامتيازات التى يطالب بها نابليون البلاد الاخرى، هى، فى الواقع، من أجل التجارة والصناعة الفرنسيتين، فهو لا يفكر دقيقة واحدة أن يقدم هذه الامتيازات لأى دولة من الدول الحليفة: كانت المنتجات الفرنسية ترسل الى كل مكان، وتدخل البلاد الاخرى بحرية مطلقة، ولها علاوة على ذلك، امتيازات أخرى تفرض على الدول الحليفة بالقوة، بينما الحدود الفرنسية مغلقة بإحكام تام أمام أى منافس أجنبى فالضرائب الباهظة تفرض على بضائع اى بلد غريب، وتملأ خزانات الجمارك الامبراطورية بالملايين» (٧١) فكان الخراب لهذه الدول، والفوضى لفرنسا، لانها لاتستطيع أن تفى، بصناعاتها الناشئة، متطلبات هذه الاسواق الهائلة على اتساع القارة ، من هنا جاءت القطيعة بين أصحاب المصانع ونابليون ، عندما بدأ حرب اسبانيا باسم مصالحهم ، ونشر مبادىء الثورة والحرية الفرنسية ، لقد

فهموا أن السبب الحقيقي من وراء هذه الحرب الجديدة ـ المكلفة – ليس إلا تحويل اسبانيا الي مملكة أخرى خاصة بعائلة بونابرت.

فما العجب إن قامت بعد ذلك الثورات في البلاد التي «حررت» بالاسم ، « واستعمرت » بالفعل ، كما حدث أيام حروب الثورة التحريرية ، وكما حدث في مصر؟ فالحال لم تختلف بل ساءت حالة البلاد «الحليفة» وهي تحكم باسم «الأمة الكبرى » ، ولا ترى إلا استعمارا عسكريا وقاتلا اقتصاديا، ناهيك عن ضريبة الدم، لتغذية جيوش فرنسا بالرجال (٧٢) ؟ قامت الثورات الشعبية ضد الامبراطور، وعرفت بطولات شهداء الحرية الحقيقية، حرية الوطن، بينما تصدر الأحكام الفرنسية التعسفية ضد كل من يثور على هذا الوضع المشين لبلاد لم تعرف مثل هذا الذل من قبل . بدأت ما يسميها تولار «الحرب القومية في أوربا» (...) منذ عام ١٨٠٩.

وكانت حروب نابليون ذات طابع بشع، كما عرفتها أسبانيا مثلا، فقد قال أحد الضباط وهو يرى الفظائع التي ترتكب في روسيا : « أهذه هي الحضارة التي أتينا بها إلى روسيا! ماذا تكون نتيجة هذه البربرية عندما يشاهدنا العدو ونحن نمارسها ؟ » ، كلام مماثل سبق أن قيل في مصر، كما سنرى فيما بعد .

وعندما هزم نابليون عام ١٨١٤، كان هذا بالضبط ما قاله السياسى اللامع بنچامين كونستان: «إن نابليون يسير ضد تيار الحضارة الأوربية» . وعلينا أن نذكر هنا ما قاله الجنرال بونابرت عند عودته من مصر: «إنه كان سعيدا فى ذلك البلد البعيد، حيث استطاع أن يتحرر هناك من كل قيود الحضارة الأوربية » (٧٣) : كلام خطير لم يرد أحد أن يفطن إليه.

ثم كانت الهزيمة الكاملة بعد الحملة الفاشلة على روسيا، وإقصائه من الحكم، ونفى نابليون الى جزيرة «ألبا» ليهرب منها بعد أشهر قليلة، ويعود مرة أخرى الى فرنسا، وقد فهم، بذكائه الخارق، أين تقع الأخطاء التى أبعدت عنه هذه الشعوب التى «حررها» بمبادىء الثورة، لذا ، تقدم آنذاك – فى أبريل من عام ١٨١٥ – بمشروع لدساتير جديدة من أجل شعوب الامبراطورية، يرتكز فيها أساسا على« نظام اتحاد أوربى » . ولم تمهله الأحداث أكثر من ثلاثة أشهر وأسبوع واحد، عرفت باسم حكم الأيام المائة، انتهت بهزيمة «واترلو» الشهيرة والمنفى النهائى لنابليون فى جزيرة «سانت – هيلانة» وانتهى تاريخه السياسى، بعد أن شوه صورة الثورة عند شعوب أوربا، كما يرى المؤرخ والفيلسوف المعاصر لنا، «ريمون آروون» (٧٤) .

★★★

وعلى الرغم من كل ذلك، فقد أصبح نابليون، فى ثورة ١٨٣٠ - أى بعد خمسة عشر عاما من إقصائه - رمزا للحرية التى يموت من أجلها الجمهوريون والليبراليون، مما جعل كلا من السياسى الشاعر «لامرتين» والروائى السياسى «شاتوبريان» عدوى نابليون اللدودين، يصلان إلى النتيجة نفسها «يبدو من هذا الواقع، ان هذا الشعب الفرنسى الحر، لايحب الحرية» (٧٥) محتمل ، ولكنه بلا شك، يحب الأساطير، وكانت اسطورة النسر الجريح المهزوم المعزول المنفى على صخرة جزيرة نائية على خط الاستواء، قد بدأت تستحوذ على خياله، وذلك لأسباب عديدة.



نرجو أن يكون القارىء قد تعرف، بعد هذا العرض السريع الموجز لتاريخ نابليون بونابرت، على حقيقة شخصية قائد الحملة على مصر، سواء قبل أن يغزو بلدنا، عندما لم يكن إلا بطل جيش ايطاليا، او عندما نمت الشجرة وأصبحت العملاق الغازى المنتصر دائما، الامبراطور نابليون.

وعلينا الآن، بعد أن عرفنا التاريخ، كما يحكى حاليا فى فرنسا، أن نتعرف على ماجعل من اسم نابليون ، بعد هزيمته ووفاته ، اسطورة جديدة ، لاتزال تنبض بالحياة فى قلوب عابديه حتى يومنا هذا . نرجو أن يساعدنا هذا على فهم الطريقة التى يتحدثون بها عن أولى هزائمه ، وهى حملته على مصر.

الفصل
الثالث

أسس أسطورة
الحملة ونابليون

« فخمسة جنود من أدنى صفوف جيشنا كانوا عام ١٨٠٦ ، هم تقريبا الأسياد في القاهرة »

«شاتوبريان»

التسلسل الزمنى لأهم أحداث الحملة الفرنسية على مصر: ١ يوليو ١٧٩٨ – ١٨ أكتوبر ١٨٠١ ، (ثلاث سنوات وأقل من أربعة أشهر) .

بونابرت في مصر: ١ يوليو ١٧٩٨ – ٢٢ أغسطس ١٧٩٩

(سنة وشهران أو أربعة عشر شهرا)

– ١٩ مايو ١٧٩٨ : الاقلاع من ميناء «تولون».

– ١١ يونيو ١٧٩٨: الاستيلاء على مالطة وضمها لفرنسا.

– ٢ يوليو ١٧٩٨ : الدخول إلى الاسكندرية ثم إلى رشيد.

– ١٣ يوليو ١٧٩٨: هجوم مراد بك« في شبراخيت، على السفن الفرنسية وأغراقها قبل وصول الجيش الفرنسى للنجدة.

المقاومة فى اقاليم مصر السفلى تستمر والجيش يتقدم نحو القاهرة.

– ٢١ يوليو ١٧٩٨: معركة إمبابة المسماة عند الفرنسيين «معركة الأهرامات». مراد بك يتجه إلى مصر العليا.

– ٢٤ يوليو ١٧٩٨: دخول بونابرت إلى القاهرة.

– ١ أغسطس ١٧٩٨: معركة أبو قير البحرية . «نلسون» الأميرال الانجليزى يغرق الأسطول الفرنسى.

- ١١ أغسطس ١٧٩٨: معركة الصالحية التى يهزم فيها ابراهيم بك فيهرب الى الشرق.

- ٢٢ أغسطس ١٧٩٨: انشاء «معهد مصر» ، المسمى «بالمعهد الفرنسى» ، وهو فرع «للمعهد» المشهور فى فرنسا.

- ٣١ أغسطس ١٧٩٨: بونابرت يرسل الجنرال «ديسى» إلى مصر العليا للقضاء على مراد بك ومماليكه.

- ٧ أكتوبر ١٧٩٨: أول معركة نظامية بين «ديسى» ومراد بك فى سدمنت فينتصر «ديسى» ويستولى على الفيوم.

- ٢١ - ٢٢ أكتوبر ١٧٩٨: ثورة القاهرة الأولى تفاجىء الفرنسيين.

- ٢١ يناير ١٧٩٩: هزيمة أخرى لمراد بك أمام قوات «ديسى» . يعى مراد بك الدرس فيكون بعد ذلك الكر والفر.

المقاومة مستمرة فى مصر العليا كما فى مصر السفلى.

- مارس ١٧٩٩: بونابرت يتجه إلى أرض فلسطين المسماة آنذاك بسوريا لمنع الجيوش العثمانية من الوصول إلى مصر.

- ٧ مارس ١٧٩٩: يافا مدينة مفتوحة للسلب والاغتصاب ليومين ، ثم قتل ثلاثة آلاف سجين كانوا قد أمنوا على حياتهم.

– ٧ مارس: هزيمة العثمانيين فى «جبل طابور».

– ٨ أبريل: هزيمة العثمانيين فى «كفر قنا» التى يسميها بونابرت «معركة الناصرية».

– من ١٩ مارس ١٧٩٩ إلى ١٠ مايو ١٧٩٩: حصار عكا دون جدوى ، فيكون الانسحاب القاسى.

بعد ١٠ مايو: الطاعون والعطش أثناء عودة الجيش.

– يونيو ١٧٩٩: ثورات المقاومة فى مصر السفلى من أسباب الاسراع الى القاهرة . الجنرال «لانوس» يحرق مدينة دمنهور لمساعدتها «للمهدى» وأنصاره المحاربين.

– ١٥ يوليو ١٧٩٩: نزول الأتراك إلى العريش واستسلام الحامية الفرنسية.

– ٢٥ يوليو ١٧٩٩: هزم بونابرت الأتراك، وأسمى نصره «معركة أبو قير» ليمحو ذكرى الهزيمة الأولى للأسطول.

– ١٣ أغسطس ١٧٩٩: بونابرت يترك مصر خلسة، والقيادة العليا لكليبر.

كليبر ٢٣ أغسطس ١٧٩٩ – ١٤ يونيو ١٨٠٠

– ١ نوفمبر ١٧٩٩: هزيمة أخرى للعثمانيين .. ولكن كليبر يطلب بعدها فتح باب المفاوضات للجلاء عن مصر.

– ٢٤ يناير ١٨٠٠: معاهدة العريش تسمح للأتراك بالدخول إلى مصر، ولكن الانجليز يرفضون شروط المعاهدة.

– ٢٠ مارس ١٨٠٠: معركة عين شمس، المسماة بالفرنسية، «معركة هليوبوليس» التى يهزم فيها كليبر الجيش العثمانى : ثورة القاهرة الثانية التى تفاجىء الفرنسيين.

– ٢١ أبريل ١٨٠٠: نهاية الثورة واخمادها.

– ٥ مارس ١٨٠٠: معاهدة صلح مع مراد بك.

– ٢٧ مارس ١٨٠٠: يدخل كليبر الى القاهرة. ليجعلها تدفع ثمن ثورتها.

– ١٤ يونيو ١٨٠٠: سليمان الحلبى يطعن كليبر فى مقتل.

مينو ١٥ يونيو ١٨٠٠ – ١٨ أكتوبر ١٨٠١

– ٨ مارس ١٨٠١ : ينزل الانجليز الى شاطىء ابوقير، ويهزمون مينو وجيشه.

– ٢١ مارس ١٨٠١: ثانى هزيمة قاضية لمينو على أيدى الانجليز فى الاسكندرية.

– ١٠ مايو ١٨٠١: الجنرال (بليار) قائد القاهرة يواجه الانجليز بجوار بلبيس ويهزم أيضاً .

- ٨ أبريل ١٨٠١ : موت مراد بك ؛

وصول الانجليز والعثمانيين الى امبابة.

- ٢٧ يونيو ١٨٠١: «بليار» يستسلم ويفتح لهم القاهرة.

- ١٤ يوليو ١٨٠١: «بليار» وجنده يبحرون من أبو قير.

- ٣١ أغسطس ١٨٠١: باقى الفرنسيين يتركون الاسكندرية.

- ١٨ أكتوبر ١٨٠١: يسافر مينو تاركا مصر.

١٧٩٨ : فرنسا في «عصر الأساطير» ...

لم يفق الجمهور الفرنسى بعد من انبهاره بالانجازات الاسطورية لجيش ايطاليا، وهو غارق فى تأليه، «الجنرال الجمهورى» الشاب النابغة بونابرت المثالى، وفجأة، عرف أنه ذهب إلى مصر، بلد الأساطير، مع الجيش الأسطورى نفسه، الذى لم يهزم فى معركة واحدة فى ايطاليا. التهب الخيال، تحمست النفوس، جاءت الأخبار تؤكد المسيرة الباهرة للقائد الأسطورى وجيشه: الاستيلاء السريع على مالطة، الانتصارات الفرنسية على «أشهر فرسان فى العالم» المماليك: اسم غريب كأنه من قصص «ألف ليلة» ؛ غزو مصر وحب المصريين لبونابرت واحترامهم له. إن النصر حليفه دائما: ألم يصل سالما إلى مصر دون أن يعثر عليه «نلسون» والأسطول البريطانى المرابط فى البحر المتوسط، فى انتظار فريسته الفرنسية الثمينة، انها المعجزة..

كان بونابرت قد أرسل العلامة «مونج» – أثناء وجوده فى ايطاليا بعد انتصاره على النمسا – الى باريس ليعرض نتيجة انتصاره على أعضاء حكومة «الادارة» عام ١٧٩٧. وقال «مونج» فى خطبة رنانة: «إن مجد جيش ايطاليا يدوى حتى نهاية مصر العليا؛ حتى البدو تحت خيامهم يتحدثون عنه فى أمسياتهم» (٧٦) ، وضعت إذن أول لبنة لأسطورة الحملة قبل حتى التفكير فيها، وسنجد هذه الصورة الشاعرية

للبدو تحت خيامهم فى أدبيات الحملة بعد ذلك، حتى القرن العشرين، دون أى مرجع جدى ، غير الخيال الخصب والخطابى «لمونج» صنيعة بونابرت، والعجيبَ أن البدو عرفوا بعد ذلك بعدواتهم المفرطة للفرنسيين، كما سنرى فيما بعد.

ولكن الشعارات الجميلة، والصورة الشعرية لها فعل السحر، خاصة اذا وجدت بعد ذلك ما يغذيها من شعارات جوفاء أخرى.

وعلى مر السنين ستزيد التهويمات المختلفة (كما سنرى) والتقارير المضللة التى كان بونابرت يرسلها من مصر كما كان يفعل أثناء حربه فى إيطاليا، علاوة على مقالات جريدتين جديدتين تطبعان فى مصر، وتُحكى الأحداث كما يريد لها بونابرت أن تعرف : السياسة الناجحة نفسها، التى أثبتت صلاحيتها المذهلة أثناء غزو ايطاليا. ثم كانت هذه الانتصارات التى قرر لها بونابرت اسماء تثير خيالات الفرنسيين وتوهماتهم ، وتبهرهم بايحاءاتها الأسطورية، فمثلا ، أصبحت معركة تقع بجوار إمبابة، تسمى «معركة الأهرامات» ومعركة أخرى فى قرية مجهولة بالشام ، سميت «معركة جبل طابور» ؛ وكان أى اشتباك مع العدو ، يتحول الى نصر كاسح، حتى وإن كان فى حقيقة امره مشكوكا فى نتائجه، مثل معركة شبراخيت، التى خسر فيها الفرنسيون بقدر ما خسر المماليك، ان لم يكن أكثر، وكما سبق أن فعل بونابرت أثناء حربه

فى ايطاليا، اذا خسر عشرة آلاف جندى ، أبلغ عن ألف فقط، كما حدث في حصار عكا.

ولكن الجند والضباط كانوا يرسلون فى خطاباتهم الحقائق المريرة لموقفهم فى مصر، وكان الأسطول الانجليزى يستولى أحيانا على المراكب التى تنقل هذه الرسائل، فينشرها فى الجرائد الأوربية. وهكذا عرف مثلا ان بونابرت أمر بإعطاء الأفيون القاتل لبعض جنده المصابين بالطاعون، وان «كليبر» يستغيث من موقف الجيش فى مصر، ولكن اشعاع كلمة «جيش الشرق» وصيت بونابرت، كانا أقوى من أية حقائق تقال: عندما نزل الجنرال الهارب من هزيمته فى مصر على شاطىء فرنسا، استقبل استقبال الأبطال، بصفته «المنقذ» المنتصر الذى « لم يهزم يوما » . فى معركة ما، كان فشله أمام عكا معروفا. ولكن ألم ينتصر في أبوقير؟ فى الواقع أن انتصاره على العثمانيين لم يقع فى أبوقير، ولكن بونابرت أراد لنصره هذا الاسم حتى يمحى ذكرى هزيمة أبو قير الأولى، على يد «نلسون» الانجليزى وفرح الجمهور الفرنسى لهذا الانتقام، ونسى عكا، والجيش المعزول فى مصر دون قائده.

وعندما عاد الجيش الفرنسى من مصر، نشر الكثير من المذكرات والخطابات لمن كانوا فى هذه الحملة . ولكن أشهر ما نشر كان ما يعتبر المحاولة الأولى لوصف مصر، كان جزءى كتاب «فيفان دينون» الشهير:

« رحلة الى مصر العليا والسفلى» وبه من الحقائق ما لا يستطيع أن يفخر به أى جيش يدعى غزو بلد ليحررها ويخلصها من طغيان المماليك. ولكن القارىء الفرنسى لم ير فى الكتاب الا جمال رسومات عن أناس وآثار لا تمت الى الحضارة الغربية بصلة ؛ فكان الانبهار . وعندما نقرأ ما كتبه «دينون» فيما بعد، سنعجب للطمس الذى جعل القراء لايفطنون الى ما يقال ، بجانب هذه الرسومات الرائعة ؛ فالقارىء الفرنسى لايريد أن يرى غير بطولة جنده.

ثم كان نشر كتاب وصف مصر، وكان «كليبر» أول من فكر فيه، وبعد وفاته تبنى «مينو» المشروع وفرح نابليون الذى أمر بطبعه، لما يضيفه المشروع من مجد على مجده، وهكذا نشر على صفحته الأولى: «مطبوع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون العظيم ، بالمطابع الامبراطورية سنة ١٨٠٩ » وكان «كليبر» هو أول من فكر فى نشر أبحاث العلماء فى مصر.

وفى عام ١٨١١، ظهر «لشاتوبريان» - أشهر أدباء ذلك العصر - كتاب يؤكد اسطورة الحملة، علما بأن المؤلف كان من أعداء نابليون السياسيين . ولكن مؤلفنا هذا كان لايرى القائد، وإنما يحب مجد وطنه وصناعه، وهم فى نظره، جند الجيش الفرنسى، وليس قائدهم الذى استغل شجاعتهم لمجده الخاص .

شاتوبريان: المسار من باريس إلي أورشليم

«الفيكونت رينيه دى شاتوبريان» كان من العائلات التى يرجع تاريخها الى القرون الوسطى، مما يدل، فى النظام الاقطاعى الغربى، على منتهى الأصالة، حتى وإن كان لقب الأسرة ليس من الألقاب الكبيرة، كأمير او دوق مثلا، فالعبرة عندهم، كانت بالسلف وليس بالمركز، وبالتالى، كان «شاتوبريان» النبيل الملكى، يفخر كثيرا ويعيد مرارا انه «سليل البارون دى شاتوبريان الذى ذهب مع القديس لويس الى الأرض المقدسة وسجن معه فى معركة المنصورة » . وعندما عاد إلى «شاتوبريان» الشاب الملحد، ايمانه الدينى، اعتبر أن من واجبه كمسيحى مؤمن ، أن يخوض بدوره معركة المسيحية بصفته صليبيا من العصر الحديث ليثبت أنه جدير بسلالة الصليبيين التى ينحدر منها . علاوة على ذلك كان والده على حد قوله «ضد الإسلام فى مجال الدبلوماسية ، وكان يؤكد أن أربعين ألفا من الجرابيع الروس، فى استطاعتهم المرور على جثث الانكشارية، والاستيلاء على القسطنطينية» ونلاحظ أنه لا يقول أبدا أسطنبول.

وعندما قرر «شاتوبريان» كتابة رواية عن «الشهداء» المسيحيين الأوائل ، بعد النجاح الساحق لكتابه الشهير «عبقرية المسيحية»، قام برحلة إلى الشرق ، ليصف الأماكن التى ستدور فيها أحداث قصته الجديدة ، بصورة واقعية .

وقبل أن نتعرض لما رواه عن رحلته التى اعتبرها ، فى المقام الأول، حجا إلى أورشليم، علينا أن نفهم الروح التى ذهب بها إلى «الأرض المقدسة» : «كنت على وشك النزول على تلك الشواطىء التى زارها مثلى.. (أسماء عديدة فى ثلاثة أسطر عن مشاهير الصليبيين كلهم من الملوك والفرسان).. وهذا القديس لويس الذى بهر الكفرة بفضائل أخلاقه» (٧٧) . ثم نراه بعد ذلك ، وطوال صفحات وصفه لرحلته الطويلة، ينعت الإسلام بأعجب التهم فالإسلام مثلا هو : «العبادة التى تعادى الحضارة ، بنظامها الأساسى، المؤيد للجهل والطغيان والرق.. إنه الدين الذى أحرق مكتبة الاسكندرية ويعتبر دعس الرجال ميزة » ، ثم يقارن هذه الرؤية بالمسيحية التى «أحيت ، فى العهد الحديث، عبقرية الحكماء القدامى، وألغت الرق»، وكان دائما يطرح الكثير من الأفكار التى تحث على قيام حرب صليبية جديدة، لتحرير البلاد المسيحية من الإمبراطورية العثمانية . والكتاب ينتهى بسيرة «القديس لويس» الذى كان سيحترم وحده (فى تونس) بصفته فرنسيا قبل كل شىء.. ثم يسرد علينا المؤلف تاريخ حربه وموته. وما العجب، وقد بدأ كتابه بذكر سلفه «البارون چوافرا » الذى ذهب إلى الحرب الصليبية مع «سان لويس» .

ومع كل هذا ، فهو لا يرى أى تناقض بين هذا الهجاء المفرط والهجوم السافر، وإعلان حسن نياته فى مقدمة أول طبعة لكتابه هذا،

حيث يؤكد : «أن المسافر يشبه المؤرخ: واجبه يحتم عليه أن يقص بأمانة ما شاهده وما سمعه، لن يسمح له أن يؤلف شيئا ، ولا أن يتجاهل شيئا، وأيا كانت أراؤه الخاصة ، فلا يجب أن تعميه مشاعره لدرجة أن يسكت عن الحق أو يشوهه. » .

وبهذه الثقة فى موضوعيته التى لا تشوبها أية نيات خاصة، يبدأ وصف الطريق الذى سلكه من مدينة بوردو إلى أورشليم . فمن الطبيعى أن نراه إذا ما قابل بعض الصبية من البدو يلعبون وكأنهم جند فرنسيون ، قد تأثر لدرجة البكاء كما يحكى : «وحتى لا أنسى شيئا، صرخت نحوهم، الله يريد هذا ! الله يريد هذا !، كما كان يفعل زملاء چوافرا .. والقديس لويس» . نحمد الله أنه لم يذهب فى تقليده للصليبيين ، وهم يطلقون هذه الصيحة ، الى حد قتل هؤلاء الأطفال كما فعل الأوائل ! .

★★★

وعندما يصل إلى مصر، يرفض إعادة وصفها مرة أخرى: «أنا نفسى قلت ، فى مكان آخر ، ما كان علىّ أن أقوله عن مصر . فكتاب «الشهداء» ، حيث تحدثت عن هذه الأرض العتيقة ، كامل بالنسبة لما يخص العصور القديمة». وعلى طريقة رحالة ذلك العصر، فهو لا يرى، حيث يذهب، إلا آثار الماضى وما قيل عنها فى الكتب القديمة، كما تحتم

عليه ثقافته الكلاسيكية. كان أيضا يراها «كمهد العلوم، وأم الأديان والقوانين » . وهو يثبت بهذه الكلمات أنه - وسنه تحتم عليه هذا - كان يرى مصر كما كان يراها فلاسفة التنوير فى القرن الثامن عشر، ومؤلفو روايات الخيال العلمى فى ذلك القرن.

والأمر يهمنا عندما يبدأ فى سرد تفاصيل مروره عليها، وما يراه رأى العين. إنه يذهب إلى القاهرة ليرى النيل والأهرامات ولكنه لم ير الأهرامات بالفعل إلا من بعيد لضيق الوقت ، مما يدل على سرعة مروره، وبالتالى ، على عدم تعمقه فى تحليل انطباعاته، فهو لم يمكث فى القاهرة أكثر من يومين ، وعندما ركب مثلا مركبا ليذهب به من رشيد إلى القاهرة ، يقول : « وعندئذ كانت أول رؤية لى لهذه الدلتا الرائعة ، حيث لا ينقص إلا حكومة حرة وشعب سعيد. ولكن ما قيمة بلد جميل دون استقلال، إن اصفى السماوات لتصبح بشعة إذا ما قيدتها الأغلال بالأرض .

لم أجد هنا ما يوازى روعة هذه السهول إلا ذكريات مجد وطنى : كنت أرى بقايا صروح الحضارة الجديدة التى جلبتها عبقرية فرنسا إلى ضفاف النيل : كنت فى الوقت نفسه أذكر أن حراب فرساننا و سناكى جنودنا ، كانت قد عكست أشعة هذه الشمس الساطعة مرتين، مع الفارق طبعا، لأن فرساننا الذين هزموا يوم المنصورة، انتقم لهم جنودنا فى معركة الأهرامات » .

نلاحظ أنه على الرغم من تأكيده رؤية آثار العبقرية الفرنسية على ضفاف النيل، إلا أنه لم يحدد اثرا واحدا ، فجاء تأكيده مبهما حتى يحق لنا أن نظنه خياليا.

ويبدو أن هذا ، بالضبط ما فكر فيه الدارس الذى تولى تحقيق هذا النص الذى أعيد نشره أخيرا فجاءت فى أسفل الصفحة المذكورة حاشية تحاول إسعاف النص الخيالى، لتؤكد : «يرى فى مصر حتى الآن الكثير من المصانع التى أقامها الفرنسيون» ، ويتأكد مرة أخرى عدم الدقة ، بل الافتقار إلى تحديد صرح واحد أو مصنع واحد يعرف باسمه أو بموقعه . ويبقى للقارىء المتعجل - الواثق من صحة ما يقرؤه، كما يحدث عادة - الانطباع بوجود هذه المصانع، حتى يومنا هذا ، دون الحاجة إلى أى تمحيص أو مراجعة .

وبعد وصف مطول للباس الجند الألبانيين ، ومعاملتهم للفلاحين، ووصف رحلة شاتوبريان، على مركب يسبح به لمدة سبعة أيام من رشيد إلي القاهرة ، وذكر ما كتبه الإغريق عن عظمة ملوك مصر الفرعونية ، نصل أخيرا إلى صفحة لابد من ترجمتها كاملة لما كان لها من أهمية فى خلق أسطورة الفرنسيين فى مصر، وأسطورة الحملة على الأخص.

و «شاتوبريان» الذى يدعى التواضع كعادته، لا يذهب إلا إلى القنصل الفرنسى كلما نزل فى مدينة ، حتى تؤدى له فروض العظمة التى تتطلبها سمعته الأدبية، ومركزه كنبيل عريق ودبلوماسى سابق،

فعندما وصل إلى القاهرة – والكلمة لكاتبنا – أرسل القنصل الفرنسى «خمسة مماليك فرنسيين حتى يرافقونا فى تجوالنا» .

«كان هؤلاء المماليك في خدمة الباشا . فالجيوش الكبيرة تترك دائما وراءها بعض المتأخرين : وهكذا فقد جيشنا مائتى جندى، أو ثلاثمائة ، بقوا مبعثرين على أرض مصر. انضم هؤلاء الجند الى مختلف البكوات، وسرعان ما عرفوا بشجاعتهم وكان الجميع يؤكد أن هؤلاء الهاربين من الخدمة لو أنهم اتحدوا ولو أنهم عينوا بك فرنسيا من بينهم لكانوا استولوا على البلد لولا التفرقة التى أبعدت بعضهم عن بعض. ومع الأسف الشديد لم يكن لهم قائد ، ومات أغلبهم وهم فى خدمة الأسياد الذين اختاروهم » .

نتوقف هنا لحظة لنعلق على كلمة غريبة، هى «كلمة الجميع» وقد اخترناها ترجمة للتعبير الفرنسى المستعمل وهو العالم كله . وعلينا أن نلاحظ أن «شاتوبريان» لم يبق فى القاهرة إلا يومين اثنين فقط ، وأنه لم يقابل إلا القنصل الفرنسى وهؤلاء المماليك الخمسة ، وحدث له ما يحدث لكل الفرنسيين الذين لا يتحدثون العربية ولا يفهمونها ، من ثم تكون مصادر معلوماتهم كلها من جانب واحد. أيا كان فباقى الصفحة يلقى ضوءا أكثر فجاجة على العقلية التى يتعامل بها رحالتنا مع مصر ما بعد الحملة .

نعود الى كلامه : «عندما كنت في القاهرة ، كان محمد على باشا يبكى وفاة أحد هؤلاء الشجعان . كان هذا الجندى فى أول أمره ضارب طبل صغيرا فى أحد فيالقنا ، وسقط فى أيدى الأتراك بسبب ظروف الحرب وعندما أصبح رجلا، وجد نفسه في صفوف فرق الباشا. لم يكن محمد على يعرفه بعد ، ولكن عندما رآه يهاجم فيلقا من الأعداء ، صرخ قائلاً : من هذا الرجل؟ لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا وبالفعل كان فرنسيا.. ومنذ تلك اللحظة أصبح اثيرا لدى سيده وكان صدى أمجاده حديث الجميع. وقتل هذا الجندى قبل وصولى إلى مصر بقليل فى معركة فقد فيها المماليك الخمسة الآخرون جيادهم» !! ناهيك عن النرجسية الشوفينية التى تتصف بها هذه القصة فسنقابلها كثيرا فى الكتابات التي تتحدث عن الجند الفرنسيين كلها ، ولكن الجملة الأخيرة توضح مصدر الحكاية ، وهم - بالطبع - زملاء الجندى المتوفى الفرنسيون الخمسة، والذين وجدوا فى هذا النبيل الرحالة، سذاجة تسمح لهم بتجسيد خيالاتهم أمام نبيل ما كانوا يحلمون يوما بشرف الحديث معه.. وناهيك عن تفخيم دورهم فى بلد اختاروا أن يبقوا فيه، بدلا من العودة الى فرنسا ، وهم - وباعتراف «شاتوبريان» نفسه - هاربون من خدمة وطنهم.

نصل بعد ذلك مباشرة إلى وصف تفصيلى لهؤلاء المرتزقة المهاجرين، لنعرف من أين جاءوا وكيف يعيشون. ولا يفوت الكاتب أن يؤكد : «كان الباشا يقدر هؤلاء المماليك الخمسة حتى أنه كان يفضلهم على باقى جنده، فقد كانوا هم، دون غيرهم ، يمثلون الجسارة بل يتفوقون فيها على هؤلاء الفرسان المرعبين الذى حطمهم الجيش الفرنسى يوم الأهرامات . إننا فى عصر العجائب، فكأن لكل فرنسى اليوم قدر يحتم عليه القيام بدور خارق، فخمسة جنود من أدنى صفوف جيشنا ، كانوا عام ١٨٠٦، هم تقريبا الأسياد فى القاهرة» .

هكذا كان «شاتوبريان» يرى هؤلاء الجند الهاربين من الخدمة لا لشىء إلا لأنهم فرنسيون ونراه يعجب حتى بمهارتهم فى افساح الطريق لموكبه فى أزقة القاهرة المزدحمة! هكذا كان يرى ، أو بالأصح لا يرى ، حقيقة موازين القوى فى قاهرة ١٨٠٦، فاحتقاره للبلد يجعله يظن أن خمسة جنود من أدنى صفوف الجيش الفرنسى.. يمكن أن يكون لهم هذه المكانة التى يتحدث عنها باقتناع شديد .

ولنا أن نتخيل الانطباع الذى تتركه مثل هذه الأسطر فى نفس القارىء غير الناقد – وكلنا يقرأ بسرعة وبلا تريث ناقد لما يقرأ، خاصة إن كان المؤلف «شاتوبريان» نفسه – هذه الأسطر التى خطها «شاهد أمين» حسب كلمات المقدمة، وإن كان شديد الغرور والشوفينية ، فلقد كان هناك ، ورآهم وتحدث إليهم ...

وأيا كان الأمر، فالوصف الباهر يستمر فى الصفحة التالية : «كان هـؤلاء الملوك المنفيون (يقصد الجنود الخمسة) قد تبنوا ، مثل الإسكندر الأكبر (نلاحظ هذا التفخيم المبالغ فيه) ، تقاليد البلاد التى فتحوها ، فكانوا يرتدون الجلابيب الحريرية والعمائم البيضاء الجميلة، والأسلحة الرائعة، وكان لهم حريم وجوار وجياد من أحسن السلالات، كل هذه الأشياء التى لم يمتلكها آباؤهم فى مقاطعات جاسكونى وبيكاردى من حيث أتوا..» ، لأن هـؤلاء « الملـوك » كانوا فى الواقع من أدنى طبقات الريف الفرنسى ! وسنرى فى حينه كيف رد « جيرار دى نرفال » على هذا الكلام فيما بعد عندما حضر هو أيضا الى القاهرة ، وقابل من تبقى من هؤلاء الجند . كيف أجاب على وصف، أو تخيلات عبقرى الأدب ، ومؤلف الروايات الرومانسية الشهيرة : « آتالا » ، « رينيه » و « الشهداء » .

وشاتوبريان الذى لم يمكث إلا يومين بالقاهرة، ولم يكن قد زارها قبل الحملة ، ومن ثم ، لا يعرف ماذا كانت حقيقة الحياة فيها ، يقول : «إن القاهرة لا تزال تحتفظ بالكثير من آثار مرور الفرنسيين عليها: فالنساء يظهرن أكثر مما كن يفعلن ، وأنت حر فى تجوالك فى أى مكان، والملابس الأوربية التى كانت تسبب الإهانة ، أصبحت تسبب الآن الاحترام . وهناك حديقة صغيرة، لطيفة مزروع بها نخيل ، ولها ممرات

دائرية، فهى متنزه عام : إنها من صنع جنودنا » . أخيرا، وجدنا شيئا ملموسا تركه الجند الفرنسيون ... حديقة صغيرة لطيفة .

إن شوفينيه كاتبنا تجعله يرى بلده فى كل مكان، وصلفه يجد غذاءه فى كل خيال. إنه يصف مثلا شاطئ النيل قائلا : «النخيل متراص على الشاطىء ، مثل المخارف التى تزين قصور فرنسا. إن الطبيعة يحلو لها أن تذكرنا بأفكار الحضارة ، فى البلد الذى ولدت فيه هذه الحضارة حيث يحكم الآن الجهل والبربرية» .. (يقصد الاسلام) .

★★★

وتكتب كلودين جروسير فى دراستها عن إسلام الرومانسيين ، أن شاتوبريان، منذ اللحظة الأولى «يضع نفسه فى دور المجاهد ويستعمل كل أسلحته فى الحرب التى يخوضها من أجل مجد المسيح ومجده الذاتى» .. فهو «يترك وطنه وفى ذهنه صورة واضحة متخيلة عن الشرق الذى سيزوره ولا يسمح له - بالطبع - مروره السريع باليونان والشرق الاوسط أن يعيد النظر فى هذه الافتراضات . وسواء كان مدركا أم غير مدرك، فهو يمحو كل مالا يطابق هذه الصورة المسبقة، ويؤكد اراءه المسبقة بهذه الطريقة. مما يدل على إرادة مصرة على تدمير الشرق ، إرادة هدفها الإسلام ، والمكانة التى حظى بها هذا الدين فى أدبيات القرن السابق له» (٧٨) (تقصد فى القرن الثامن

عشر) . والباحثة تؤكد، بعد ذلك على سيطرة فكرة الحروب الصليبية على «شاتوبريان» .

ولكنها ، على عمق درايتها بشخصية مؤلفنا ، ودراسة نياته ، لم تشك للحظة واحدة فيما قاله عن الآثار التى تركتها الحملة على مصر : «على الرغم من أنه (على حد قولها) .. لم يكـن يوما من المنبهريـن بـ «بونابرت» إلا أنه لم يسعه إلا الفخر بإنجازاته في مصر» ، ومرة أخرى نقرأ عن الانجازات ولا نعرف عنها شيئا .

ويذكرنا هذا الكلام بـ «ديكوت» - الذى سنقرأ دراسته عن أدباء القرن التاسع عشر - فهو أيضا يفخر بهذه الآثار التى «رآها» شاتوبريان ، مؤكدا أنه : «حتى ألد أعداء نابليون من الرحالة الملكيين ، مثل الكونت دى فوربان فى كتابه رحلة إلى المشرق . اعترفوا بالأهمية الخارقة لمرور نابليون على مصر» . ويعلق ديكوت، في عام ١٩٦٧ ، ليؤكد على كلام «شاتوبريان» القائل : إن مرور نابليون على مصر كان «أول شعاع نور اخترق ظلمات الإسلام والبربرية » .

ويلاحظ ديكوت بالفعل أن شاتوبريان إذا ما تحدث عن أمجاد الملحمة التى نسجها نابليون ينسى كل شيء ليذكر أن «هؤلاء الرجال، الذين هبوا لينتزعوا استقلالهم الوطنى من أطماع بونابرت لا يحلمون إلا به ، لأنه هز خيال الشعوب ، من البدو تحت خيامهم حتى التوتون فى عششهم » .

ولا يلاحظ «ديكوت ، أن هذا الكلام الانشائى لا يقدم دليلا واحدا، حتى وإن كان واهيا . أما «البدو تحت خيامهم» . فقد عرفنا أنها جملة من خطبة حماسية لمونج ، وأصبحت من لزوميات ذكر الحملة على مصر فى كل أدبياتها.

نضيف إلى كلام ديكوت أن شاتوبريان قال أيضا إن بونابرت «كبير (...) لانه علم اسمه للشعوب المتوحشة كما علمه للشعوب المتحضرة» ، وهذه «الشعوب المتوحشة» لم تكن طبعا ، بمنظور شاتوبريان ، إلا مصر والشام التى عرفته غازيا : إن مؤلفنا مر على هذه البلاد مسرعا، لأنه كان على موعد غرامى فى أسبانيا، ليؤكد تحليل كولدين جروسير عن تفكيره المسبق الذى لن يغيره شىء، مهما رأى أو سمع، وأمثال ديكوت يصدقونه بإيمان مؤثر فـ «شاتوبريان» مثلا الذى تخيل أن خمسة مماليك فرنسيين كانوا تقريبا أسياد القاهرة ، يحكى كيف رأى بعينيه «الاسكندرية ، حيث تدخل السفن الأمريكية الآن، مثلها مثل السفن التركية، وهذا انقلاب يرجع الى انتصار اسلحتنا» . وإذا كان أى قارىء يعرف، من جهة، أن الفرنسين قد خرجوا مهزومين من مصر ، ويعرف ، من جهة أخرى العلاقات السابقة على الحملة بين مصر وفرنسا ، والتعاملات التجارية مع أوربا فى القرن الثامن عشر ، فيظهر له بداهة أن شاتوبريان لم يكن يعرف شيئا ، ومن ثم توهم أن حملة

بونابرت هى التى فتحت الميناء للسفن الاوربية . لقد كان يجهل كل شيء، فمثلا أن فرنسا كانت تشترى قمحا من مصر جعلها تظن أن البلد ثرى لدرجة إطعام أهله وجيوشها معا ، وكان ذلك من أسباب ارسال حملة عسكرية عليها ، بل وفشلها أيضا. ولكن هذا الجهل بالأمور لم بمنع «شاتوبريان» من الزهو بنتائج الحملة ، حتى وإن كانت من نسج خياله.

«شاتوبريان» الذى كان لا يغفر لبونابرت هزائمه التى جعلت العدو يحتل باريس مرتين، اعترف على الاقل أن «لنا دائما كيلين ومعيارين : إننا نوافق رجلا، من أجل فكرة، أو نظام أو مصلحة ، على ما نلومه عند رجل آخر، من أجل فكرة أخرى ونظام آخر، ومصلحة أخرى » (٧٩) .. وطالما اتهم «شاتوبريان» الطاغية بونابرت باختلاق الأمجاد . ومع ذلك فالحديث عند شاتوبريان إذا ما وصل إلى مصر ، نراه يأخذ مجرى آخر، مثله فى ذلك مثل الكثيرين ممن سنقرأ لهم بعد الآن .

يعد كتاب «المسار من باريس الى أورشليم» . من أهم كتب الرحلة في بداية القرن التاسع عشر ، إن لم يكن أولها، بسبب تاريخ نشره ، سنة ١٨١١.

كان شاتوبريان أول هؤلاء الرحالة الرومانتيكيين الذين جذبهم بعد ذلك سحر تلك البلاد المجهولة الغريبة التى يحلمون بها، بل ويحلمون فيها · فكانت هذه الرؤية الجديدة التى يتخللها الكثير من الخيالات

فأكسبت الأدب أبعادا شاعرية لم يعرفها من قبل. وقد تكون لوحات الفنانين الشهيرة عن الشرق، أجمل ما أنتجته هذه الموجه من الاغتراب جنوب البحر الابيض.

ولكن «شاتوبريان» فى رحلته لا يرى فى كل موقع يزوره ، أو يمر عليه مرور الكرام إلا ذكريات ثقافته الكلاسيكية وما قاله الإغريق والرومان عن هذه المنطقة وما دار فيها من أحداث فى الزمن السحيق . إنها رحلة مكتبية أكثر منها رحلة من ينظر الى واقع مختلف يريد فهمه. وإن نظر - كما فعل فى مصر - فهو لا يرى إلا مايريده أن يكون . وقد أكدت شهرة الكتاب خيالات المجاهد الصليبى وأكاذيبه ، بل وأكدت أوهام هذا الشوفينى المتعنت وحولتها الى مسلمات رددها من بعده الكثيرون وكان أشهرهم كما سنرى ، الشاعر فيكتور هوجو.

المفروض أن التفخيم الزائد يجعل أى قارىء منطقى يشك فى صحة ما يقال خاصة أن الكاتب ليس مجرد رحالة يسرد ما يراه فقط، ولكنه أيضا مؤلف فنان ذو خيال ، سبق أن بهر قراء عصره ؛ وكان «شاتوبريان» معروفا بجنون العظمة حتى أثناء حياته، فمن الغريب أن الدارسين الفرنسيين الذين يعرفون ذلك حق المعرفة قد وجدوا فى هذه الصفحات تأكيدا لما اراده دائما بونابرت نفسه وهو تحويل كل ما يتعلق به الى أسطورة .. فكان شاتوبريان أول من أرسى حجر

الأسطورة المثيرة للحملة الحضارية على مصر، فى كتابه « المسار من باريس إلى أورشليم » .

لقد أكد كاتبنا بعد ذلك بسنين الأسطورة السوداء لبونابرت الطاغية، سفاح الحريات والأبرياء، خاصة فى «مذكرات ما وراء القبر» . وسنراه يتراجع عن بعض ما قاله عن الحملة ، ولكن بعد أن أكد سنة ١٨١١ ، أسطورة أثارها ، فسبق السيف العذل .

الميموريال

يقال إن هجوم «شاتوبريان» الشرس على نابليون المهزوم فى عام ١٨١٥ ، تسبب فى رد فعل مناصر للإمبراطور المنفى مما ساعد على خلق أسطورة نابليون المنتصر لمجد فرنسا . ويقال أيضا إن نشر قصيدة لـ «لامرتين» فى عام ١٨٢٣ يمدح فيها رجعية بونابرت، لأنه استطاع أن يوقف التجاوزات الثورية عند توليه السلطة ، يقال إن نشر هذه الفكرة كان سببا لخلق الأسطورة فى الاوساط الادبية. إلا أننا لا نظن أنهما كانا السبب الرئيسى فى اكتساح الاسطورة الجديدة ، وانتشارها بطريقة واسعة ، خاصة بعد وفاة نابليون عام ١٨٢١ . فالأسباب الأخرى كثيرة .

عندما سافر بونابرت إلى مصر كان بطل الحملة على إيطاليا ؛ وعندما عاد من مصر، أصبح بطل الحملة على ايطاليا وبطل الحملة على مصر. ثم استولى على الحكم سنة ١٧٩٩، وأدار دفة الأمور الداخلية

بحكمة أعادت الى البلد سكينة لم تعرفها عبر عشر سنوات صاخبة ، وحلت إدارته المركزية المحكمة ، إلى حد كبير تلك الأزمة الاقتصادية السرمدية في ذلك العصر. ولكن الحملة على مصر كانت قد أثارت غضب تركيا التى انضمت الى انجلترا وروسيا ، فكان ثانى التحالفات ضد فرنسا ، وكانت الحرب .

وكتاب أرتور ليفى «نابليون والسلام» ، الذى نشر فى منتصف القرن العشرين من تلك النوعية التي لا ترى فى الرجل عيبا يحاسب عليه . فالمؤرخ يدافع عن بطلة دفاعا لا يخلو من سذاجة عندما يؤكد مثلا أن نابليون كان رجل سلام ، وأن الحرب كانت دائما تفرض عليه. وأرتور ليفى يتجاهل - لأنه منساق وراء مشاعره الجياشه - أن الحرب تفرض أحيانا كحل لا مناص منه للدفاع عن حقوق اغتصبت وما أكثر ما اغتصب ، نابليون من البلاد الأخرى .

أيا كان الأمر فالقنصل الأول الجنرال بونابرت ، الامبراطور الذى توج نفسه سنة ١٨٠٤ لم يكف عن الحرب، ولا عن الانتصارات إلى أن بدأ نجمه في الأفول حوالى عام ١٨٠٧ ، حتى انتهى به الأمر إلى هزيمة «واترلو» سنة ١٨١٥ ، فكان نفيه فى جزيرة سانت هيلانة وهو يحاول الوصول الى الولايات المتحدة ليعيش فيها بعيدا عن السلطة ومات سنة ١٨٢١ ، فى تلك الجزيرة التى شبهت بالصخرة التى حط عليها النسر الجريح .



«الجنرال بونابرت يهدى قائد الإسكندرية العسكرى سيفه»
(وهذا الزيف بعينه فالإسكندرية لم يكن لها قائد عسكرى مصرى) ·

وفى تلك الأثناء كانت الملكية قد عادت إلى فرنسا «فى شاحنات عدو» احتلها بعد أن هزم نابليون.

وكانت الحقيقة التى أصبحت مثلا شهيرا «عاد البوربون ملوك فرنسا ولم ينسوا شيئا ، ولم يتعلموا شيئا » : وكان من بين أخطائهم العديدة تسريح جيش نابليون فعاد الجنود الى موطنهم الأصلى فى الريف. وهم يبكون أيام المجد التى عاشوها مع إله اسمه الامبراطور . فبدأت الأساطير تنساب على ألسنة هؤلاء الجنود العاطلين الفقراء المنتشرين في كل مكان ، حتى أصبحت سيرة الامبراطور المنفى صورة اسطورية تحكي فى كل انحاء فرنسا . ومما ساعد على انتشار تلك الاساطير وتصديقها أن هؤلاء الجنود كانوا يعتبرون شهود عيان عاشوا، بالفعل ، أحداث الأسطورة التى يروون فيها كيف كان هذا الامبراطور المؤله ينتصر، وكيف كان يعامل جنده ، وكيف اكتسحوا العالم تحت امرته .

وكان هذا على المستوى الشعبى ، الذى عبر عنه بلزاك احسن تعبير فى روايته طبيب الارياف كما أسلفنا .

أما على مستوى علية القوم والمثقفين ، فقد انفجر غضب النبلاء ، الذين أصبحت لهم اليد الطولى عند عودتهم من المنفى مع الملك معبرين عن حقد وكراهية حولت صورة نابليون «المغتصب» ، (للعرش) إلى غول،

قاتل، فاسق الى آخر قاموس الرذائل ، بعد نعته بكل الشتائم . وطبعا، أثار عنف هذا الهجوم رد فعل عكسى ، كما يحدث عادة ، خاصة أن الشعب نسى ، بسبب نفى نابليون وإذلاله ، ما كان يقاسيه أثناء حكمه . ورأى العامة أن كل هذا الهجوم افتراء على اسم الرجل الذى وهب فرنسا مجدا لم تكن تحلم به عندما اذلت كل ملوك اوربا ، بل واستولت على عروشهم ، واستباحت بلادهم ، فأصبحت فرنسا هى المركز الذى تعيش تحت إمرته أوربا كلها . وكان الشباب يقارن بين مايسمعه من آبائه عن أيام المجد الذى ولى وحل محله حكم ملكى لا طعم له ولا معنى . فكان رد الفعل المنتظر ، وهو الأسطورة الايجابية التى واجهت الاسطورة السلبية ، وحدث انفجار فنى عبر فيه الكتاب والشعراء عن مشاعر الاعجاب والاعتزاز .

وكان الشعور بالشفقة الممزوج بالانبهار لما يعانيه الامبراطور ، ذلك « النسر المنفى على صخرة استوائية» ، قد انساهم ما عرفته فرنسا تحت حكمه من كبت للحريات، وما عانوه فى ظل دولة بوليسية ، وعبادة لشخص نابليون وعائلته . وبدأت سيول من الكتب التى تحكى عن حياته فى المنفى تغرق الأسواق ويتخاطفها القراء، الى أن ظهر سنة ١٨٢٣ – أى بعد سنتين من وفاته – كتاب «الميموريال» . هذا الكتاب الذى يحكى على لسان «لاس كاز» الصديق المرافق لنابليون فى منفاه ، كل ما يفعله

ويقوله القائد المخلوع : وقد نجح هذا الكتاب نجاحا منقطع النظير: كان له تأثير لا يتخيله إنسان على شباب الجيل الجديد، فأعيد نشره أربع مرات. وفى تلك الأحاديث التى تبادلها نابليون مع رفيق المنفى - وهو يعرف أن «لاس كاز» يدون كل كلمة ينطق بها - شرح سياساته وقراراته السابقة كلها وأجاب عن كل ما يتهمه به أعداؤه فظهر بصورة المدافع عن الحرية ، ممثل الجمهورية فى أسمى مبادئها ، حامى العروش من غوغاء الثوار الفوضويين، نصير القوميات عدو الطغاة صديق الشعوب.. كما تحدث عن حروبه وخططه العسكرية وانتصاراته . واعتذر حتى عن اخطائه ، وكان أكثرها فداحة، بل السبب الذى أوصله إلى الهزيمة النهائية ، غزوه لأسبانيا . ومحت هذه الصورة الرائعة واقعه السابق كله .

جاء «الميموريال» سنة ١٨٢٣ من بعد «المسار من باريس إلى اورشليم» الذى كان قد نشر سنة ١٨١١ ، وقال فيه نابليون بالطبع ما أراد أن يقال عنه وعن حملاته وأمجاده التاريخية الأسطورية : كانت أكثرها غموضا وأسطورية الحملة على مصر. ونظرا للنجاح الساحق الذى حققه هذا الكتاب، والذى فاق نجاح كتاب رحلات شاتو بريان ، علينا أن نتعرف على ما قاله «نابليون» عن الحملة على لسان « لاس كاز » ليصبح ما يرويه هو الحقيقة الوحيدة التى يؤمن بها الجميع .

★★★

كان « لاس كاز » من النبلاء المهاجرين الذين عفا عنهم بونابرت ، فعملوا له . وكان من أعضاء مجلس الدولة الذى ساعد نابليون بونابرت فى إدارته المركزية المحكمة على كل شئون الدولة .

وكانت تربية «لاس كاز» تؤهله لأن يكون - بعد هزيمة نابليون - من الأوفياء القلائل له في محنته، فقد تربى كنبيل يقدس الملكية ، ويضحى بكل شيء فى سبيل شخص الملك .

انبهر لاس كاز بنابليون - كما نرى ذلك واضحا في كتابه «الميموريال» الذى نشره بعد وفاة الإمبراطور - انبهارا يصل إلى حد عبادة المؤمن لإلهه . وفى محنة نابليون المهزوم ، وبعد أن انفض عنه كل قريب ومستفيد ، كانت تلك المشاعر تعبر عن نبل فى الأخلاق ووفاء لم يجدهما نابليون عندما اصبح طريدا تحاربه دول اوربا وملوكها كلهم . ولذا ، فقد صدق «لاس كاز» فى كل كلمة قال عن لسان سيده وهو يقدم لنا، بسذاجة شديدة وبقلم بارع الدليل على أن نابليون لم يكن غافلا عن مصير هذه المذكرات التى «يمليها» بنفسه فهو يحكى مثلا كيف كان الامبراطور يتحدث ثم يصحح مرة ومرتين وثلاث ما كان «لاس كاز» قد دونه بعد حديثه مع سيده (٨٠) !

وما قيل هنا عن مصر يعتبر ثانويا فهناك مذكرات أخرى أملاها نابليون أكثر استفاضة فى هذا لموضوع، ولكن اهتمامنا ينصب أساسا على الميموريال، بسبب النجاح الذى لاقته تلك المذكرات بالذات عند نشرها ، على عكس ما حدث للمذكرات الأخرى ولا يزال انتشار الميموريال واسعا وسط الأجيال التى استمرت فى قراءته ، فى أحدث طبعاته ، على الرغم من مرور حوالى قرنين من الزمن على ظهوره لأول مرة.

ومـا يخص مصر فى هذا المجلد الضخم، له شقان ، الشق الأول : حديث نابليون عن الحملة وما كان ينبغى أن يحدث فى مصر لو لم يتسبب كليبر ومينو فى خسارتها . والشق الثانى : رد نابليون على الاتهامات التى وجهت اليه، وكان أهمها وأشدها عنفا، ما كان من إصداره أمر تسميم جنوده المرضى بالطاعون . ويقول «لاس كاز» فى هذا الشأن : «جنرال ، بطل ، رجل عظيم ، احترمه القدر كما احترمه الناس ، يثير فضول ثلاث قارات فى العالم، يفرض الاحترام حتى على أعدائه، نراه فجأة، متهما بجريمة معروف أنها شنعاء، لامثيل لها فى التاريخ، متهما بعمل غير إنسانى، بشع، قاس، خاصة وهذا هو الأهم، أن مثل هذا العمل لا طائل من ورائه» . لقد اخترنا هذه الأسطر من الصفحات الخمس التى تدحض بكل ثقة ماقيل عن ذلك الحادث كله، أو

تلك الإشاعة الكاذبة ليتعرف القارىء على الأسلوب الذى يتحدث به «لاس كاز» عن نابليون. ولايرى الكاتب أية غضاضة فى تقديم الدليل القاطع، والساذج على كذب هذا الافتراء المغرض الذى يتهم نابليون بقتل جنده . وإليكم الدليل حسب قوله: «إليكم ماعرفته من أعلى مصدر كان يمكن أن يؤكد الأمر، وهو قول نابليون نفسه» . فالأمر واضح: إن نابليون المتهم سيكون هو نفسه القاضى فى تلك المسألة، لأن ما يقوله كله مثل قول الأنبياء لايمكن الشك فى صحته .

وأيا كان الأمر ، فليس ما يهمنا مافعله بونابرت فى جنده ، لكن ماقاله نابليون عن حملته على مصر لتصبح أيضا «كلمة الحق» . ولن نستطيع تقديم كل ماقيل، ولذا ، لن نترجم هنا إلا مايبدو لنا أكثر دلالة بالنسبة لما أصبح ـ بعد نشر تلك المذكرات ـ الحقيقة الوحيدة التى لايشك فى صحتها فى نظر الأجيال المتتالية كلها. فـ «لاس كاز» لاينقل إلا عن لسان نابليون ، خاصة عندما يقول ، وكأنه يتحدث مع قرائه ولايكتب لهم: «أتعرف! إن ماكان جديرا بالإعجاب فى الحملة على إيطاليا، سنجده ، كله، مرة أخرى فى مصر . إن من يشاهد ويفكر سيجد أن الأمر كان على مستوى أعلى ، بسبب الصعوبات المختلفة التى أضافت إلى هذه الحملة صفة خاصة، وكانت تتطلب من قائدها وسائل أخرى ، واختراعات جديدة ، فالأمر هنا مختلف كلية : المناخ ،

الأرض، السكان، الدين، التقاليد، طريقة المحاربة.. إلخ .. إلخ» . ونظرا لأن هزيمة بونابرت أمام حصار عكا كانت أولى الهزائم فى تاريخ الجنرال العبقرى، ولأنها كانت فى تاريخه الحافل بالانتصارات كالخطيئة الأولى التى لاتغتفر، وكان أعداؤه كثيرا مايلمحون إليها، نجد، لذلك ، حديثا هنا عن عكا يحاول استغلال شهرتها، فهو يحملها - (بالمرة!) - سبب فشل الحملة كلها وكأنها السبب الوحيدة. فنراه يسرد تاريخ الحملة فى نقاط لايهمنا منها إلا مايلى : (...)

النقطة الأولى : «أن امتلاك مصر دبر بحكمة ونفذ بمهارة. ولو أن عكا استسلمت للجيش الفرنسى، لحدث انقلاب كبير فى الشرق، فالقائد العام كان سينشىء إمبراطورية هناك، وكان لمصير فرنسا شأن آخر».

النقطة الثانية: «أن الجيش الفرنسى لم يتكبد أية خسائر تقريبا، عند عودته من الحملة على سوريا، فقد كان الجيش فى حالة رائعة، وفى ثراء مدهش» .

النقطة الثالثة: «أن سفر القائد العام (إلى فرنسا) كان نتيجة خطة رائعة ، وفى منتهى النبل . ولابد أن نضحك على غباء كل من نظر إلى هذا السفر على أنه هروب أو تملص من المسئولية».

النقطة الرابعة: «سقط كليبر ضحية تطرف الإسلام المتعنت، فما من شىء يبرر ، بأى شكل كان، الاتهام الباطل الذى يعزو هذه المصيبة لسياسة سلفه (بونابرت) أو لمؤامرات من تبعه فى الحكم (مينو) » .

النقطة الخامسة: «من شبه المؤكد، ونقولها بالدليل القاطع، أن مصر كانت ستظل مقاطعة فرنسية إلى الأبد، لو أن من دافع عنها كان أى شخص آخر غير مينو إن الأخطاء الجسيمة التى ارتكبها هذا الأخير أوصلته إلى نهايته...».

« وقال الإمبراطور إن الجيش الذى قاده فى هذه الحملة ، كان آخر جيش يمكن أن يتولى مثل هذه المهمة، (كان جيش إيطاليا) : ومن الصعب وصف حالة الاشمئزاز ، والضيق، والحزن، واليأس التى أصابت هذا الجيش ، في الفترات الأولى من وصوله إلى مصر» . ولكن القائد العام عرف كيف يرفع من روحهم القتالية ويشجعهم على الاستمرار فى هدفهم البطولى. وبعد هذا الغزل النرجسى الذى يستمر لصفحات، نصل إلى المهم، وهو علاقة بونابرت بالمصريين..

ويعرف القارىء العربى للمرة الأولى أن «سلطان كبير» كما كان المصريون يسمون بونابرت، كان يعنى «أبا النار»...! وكان «أبو النار» هذا «قد أصبح محبوبا جدا. فقد عرف كيف يجعلهم يكنون لشخصه احتراما خاصا وأينما كان ظهوره فالجميع يقف فى حضوره، ولم يكن أحد غيره يحظى بمثل هذه التحية. كانت المجاملات المستمرة التى أنعم بها على المشايخ، والمهارة التى عرف كيف يكسب بها ودهم، قد جعلت منه الملك الحقيقى على مصر، وأنقذت حياته أكثر من مرة، ولولا

إنذاراتهم له، لذهب ضحية المعركة المقدسة (الجهاد) مثل كليبر ؛ فقد كان كليبر ـ على عكس ماكان يفعل القائد العام ـ قد أمر بضرب أحد المشايخ فكرهوه، ومات» .

نلاحظ أنه بهذا الكلام، قد ألقي حمل فشل الحملة على عاتق «مينو» أولا، وثانيا، جعل من «كليبر» الصورة الكريهة ـ سوداء العروس ـ التى تبرز مهارته وشعبيته ؛ ناهيك عن جهله بالتقاليد الشرقية، ولو أننا نفهم، إن صدق قوله، أن المشايخ لم يكونوا يقفون لأحد من الفرنسيين غيره!، ولم يقل ـ ولن يقول ـ إن ثورة عارمة قامت فى عهده، مثلما قامت ثورة أخرى فى عهد «كليبر» .

والقصص التى يحكيها بعد ذلك، عما حدث أثناء وجوده فى مصر، ترمى كلها إلى التوصل لنتيجة واحدة. ولذا اخترنا القصة التالية كأحسن مثل لما يهدف إليه الحاكي: «وفى مرة أخرى دخل العرب (البدو) الذين كانوا يعادوننا، قرية متاخمة للحدود، وقتلوا فلاحا بائسا. فثار السلطان الكبير ، وأمر بتتبع القبيلة فى الصحراء وإبادتها وهو يقسم أن ينتقم منهم. حدث هذا أمام المشايخ الكبار، فضحك أحدهم من ثورته ومن إصراره قائلا: سلطان كبير إنك تلعب هنا لعبة خاطئة: لا تغضب هؤلاء القوم، فهم كفيلون بأن يردوا لك شرك عشرة أضعافه. ولم كل هذه الضوضاء؟ ألأنهم قتلوا بائسا؟ أكان قريبا لك (ابن عمك) ؟

فرد عليه نابليون على الفور: إنه أكثر من ذلك. إن كل من أحكمهم أولادى، إن السلطة لم تعط لى إلا لأكون كفيل أمنهم : فانحنى المشايخ كلهم عند سماع هذه الكلمات قائلين: آه! ما أجمل ماقلت! لقد تكلمت مثل النبى».

« وقرار الجامع الكبير فى القاهرة ، لصالح الجيش الفرنسى تحفة تشهد على براعة القائد العام : لقد جعل مجلس كبار المشايخ يدلى بقرار علنى، يعطى المسلمين الحق فى طاعة الجنرال الفرنسى ، ودفع الجزية له . إنه المثل الأول والوحيد لمثل هذا القرار، فمنذ «صدور» القرآن ، لم يحدث مثل هذا الأمر، لأن القرآن يحرم على المسلمين طاعة الكفرة: والتفاصيل شيقة، وستجدها فى تأريخ الحملات على مصر» .

وبعد هذا الكلام «الجميل» مباشرة يبرر نابليون للمرة العاشرة - كما سبق أن فعل فى مؤلفات أخرى - هزيمته أمام عكا، يبررها بوجود زميل سابق له كان من بين المرتزقة الفرنسيين الذين أرسلهم السلطان العثمانى لمؤازرة جزار باشا فى دفاعه المستميت عن قلعته. فالفشل على يد ضابط فرنسى يكره نابليون لأسباب شخصية، أخف وطأة على سمعة نابليون، العبقرية العسكرية الفذة من خبر هزيمته على يد أتراك مسلمين. ولم تكن هذه الذكرى مجرد ذكرى هزيمة حصار، بقدر

ماكانت أول هزيمة لبونابرت، عرفتها فرنسا كلها، وتسببت حسب تحليلات نابليون فى فشل «المشروع الشرقى» كله.

ولكن ذكريات الحملة على مصر كانت أكبر وأزهى من أن تظلمها هزيمة رجع منها الجيش «دون خسائر تذكر» كما سبق أن قرأنا عن لسان نابليون، فهناك مثلا كيف وصلته ، وفى الحقبة نفسها، «رسائل من روما ورسائل أخرى من مكة، فالبابا يناديه بولدى العزيز جدا، والشريف يدعوه حامى الكعبة المقدسة» . وفى تلك الاثناء، كان القائد العام يشارك جنده فى متاعبهم وأزماتهم. ولذا كان الجند يضحون بحياتهم لإنقاذه من القنابل المصوبة نحوه. وما العجب فى ذلك؟ «كان الجيش الفرنسي قد اكتسب سمعة رائعة فى مصر، وكان يستحقها، لقد شتت هذا الجيش، المماليك المشهورين، وهم أعنف فرقة محاربة فى الشرق، وجعلهم ينتفضون خوفا منه» (٨١) . ولذا فهو يرفض ماقيل عن ضحايا هذه الحملة ، فهم أقل بكثير مما قاله المغرضون. ويثبت «لاس كاز» أن بونابرت فى مصر كان أعظم من قيصر ومن الإسكندر الأكبر. ولذا فسفره المفاجىء إلى فرنسا لم يكن إلا من أجل إنقاذها. وقد تم ذلك بالفعل أما عن الجيش الذى تركه، فما كان له أن يترك مصر أيا كانت الظروف، وموت «كليبر» هو الذى سبب المأساة. ويبدو لنا أن ذاكرة نابليون قد خانته أيضا عند هذه النقطة، إذ يعرف الجميع أنه هو

الذى أصر على تعيين «مينو» في هذا المنصب بعد وفاة «كليبر» مما تسبب فى أستياء شديد لدى ضباط الحملة.

وعلينا أن نستمر فى قراءة ما أملاه نابليون على مرافقه الوفى ، فنابليون يحمل « كليبر » المتوفى مسئولية هجوم الإنجليز الأخير على جيش « مينو » ، ويتفوق على نفسه عندما ينهى هذه الصفحة بإغفال دور « ديسى » فى معركة « مارنجو » عندما أنقذ الجنرال بونابرت من هزيمة ماحقة.. لأن « ديسى » أيضا كان قد توفى. المعروف أن كلا من «كليبر» و «ديسى» كانا معه فى مصر ، وأنهما أبليا بلاء حسنا، بل يبدو أنه كان بلاء أكبر مما يحتمله غرور نابليون ونرجسيته ، حتى بعد مرور خمسة عشر عاما على الأحداث فى مصر. ولكن المهم هو أن يظهر نابليون بصورة القوة الخارقة التى لاتهزم أبد، وإن هزم ، فيكون ذلك بسبب أخطاء الأقزام الذين يحيطون به ، وإن انتصر، فبفضل عبقريته هو وحده ودون أية مساعدة خارجية.

ومن أعجب مايراه القارىء فى هذه المذكرات التى أملاها نابليون على رفيق المنفى ، الأحلام التى تبدأ بحرف « لو » : ماذا كان سيحدث « لو » أنه انتصر فى اقتحام عكا مثلا ؟ : « كان وجه العالم سيتغير. لو أن عكا فتحت ، لطار الجيش الفرنسى إلى دمشق ، ثم إلى حلب ، وفى لمح البصر، كانت جيوشنا ستصل إلى نهر

الفرات ؛ كان مسيحيو سوريا ، والدروز ، ومسيحيو أرمينيا سينضمون إلى جيشنا، كانت الشعوب ستهتز (...) ، كنت سأصل إلى القسطنطينية والهند، كنت سأغير وجه العالم» [٨٢] ! والواقع أنه ـ والحق يقال ـ لم يخص الشرق وحده بأحلام عظمته وجبروته، فالعالم كله كان سينعم ، بلدا بعد بلد، بما كان سيتفضل عليه من نعم ، « لو » أن أعداءه كانوا أمهلوه الوقت ، لو أنه كان انتصر على انجلترا... لو... لو...

نراه يشرح ماذا كان سيحدث لو أنه استولى على الشرق، فهو يرى أنه «كان سيتحول إلى دين الإسلام هو وجيشه ليوطد سيطرته على إمبراطورية الشرق». ثم يحلم مرة أخرى «بغزو الهند كما غزونا مصر» دون أن يذكر مرة واحدة، أن الحملة لم تحقق هدفا واحدا من الأهداف الأساسية التى قامت لأجلها، ولكننا نراه يعتبر حملته على «سان ـ دومنج» خطأ فادحا، ويعزو فشلها إلى قائدها طبعا، لأنه لم يتبع «حرفيا» الإرشادات التى أمره بها... وقد مات ذلك القائد أيضا هناك، وسط هزيمته.

ثم ، تمر الصفحات والأيام الرتيبة فى منفى «سانت ـ هيلانة»... ومرة أخرى ، يعود « نابليون » إلى ما أسماه مؤرخ معروف «حلم لم يتحقق » يعود إلى الحلم المهزوم ، حلم السيطرة على مصر :

« لـو أنني تسيدت على البحـار، لأصبحت سيد الشرق ، والأمـر كـان أكثـر مـن ممكـن ، لـولا غبـاء بعض البحـارة ، أو سـوء تصـرفهـم » .

« عندما سافر فولنيه إلى مصر ، قبل الثورة، قال إن مصر لن تحتل إلا بعد ثلاث حروب كبيرة : حرب ضد انجلترا ، وحرب ضد السلطان، وحرب ضد الأهالى . والحرب الأخيرة كانت تبدو له صعبة وبشعة . لقد أخطـأ فولنيـه كليـة فـى تقديره بالنسبة للحـرب الثالثـة ، لأنها لـم تمثل شيئـا بالنسبـة لنا . لقـد وصلنا بالفعـل ، وبسـرعة فـائقـة ، إلى جعل الأهالى أصدقاء لنا ، وأصبحت قضيتنا هـى قضيتهم » .

«إن حفنة من الفرنسيين كانت كافية لفتح هذا البلد الجميل، وكان عليهم ألا يفقدوه أبدا! لقد أنجزنا فيه معجزات فى الحرب والسياسة! إن قضيتنا لم تكن لها علاقة بالحروب الصليبية القديمة: كان الصليبيون لاحصر لهم، وكان التطرف الدينى وحده هو الذى يحركهم، أما جيشى فكان العكس من ذلك صغيرا وكان الجند غير متحمسين بالمرة لمهمتهم (...) ولكنى استطعت أن أوفق بينهم والبلد، حيث الوفرة فى كل شىء، والأسعار زهيدة لدرجة أننى فكرت ألا أعطى الجند إلا نصف راتبهم، واحتفظ لهم بالنصف الآخر.. لقد كانت سيطرتى عليهم كاملة حتى أن

مجرد «أمر اليوم» كان يكفي ليصبحوا محمديين (مسلمين) كانو سيضحكون للأمر، ويسعد الأهالي بذلك، ومسيحيو الشرق أنفسهم كانوا سيظنون أن قضيتهم قد انتصرت، كانوا سيوافقون وهم يظنون أن هذا هو أفضل حل لهم ولنا... » [٨٣] .

وتتوالى التهويمات لنتعرف على السعادة التي ضاعت فرصتها على كل بلدان العالم ، لأن « لو » لم تتحقق ، والأعداء لم يمهلوا منقذ البشرية الوقت الكافي لتحقيق الجنة على الأرض ، تحت سيطرته .

ومرة أخرى، يعود الحديث إلى أرض الفراعنة، من حيث خرجت الديانات السماوية الثلاث. وأخذ نابليون يقارن بين الإسلام والمسيحية. ثم أخذ يشرح أن «الهدف الرئيسى من الحملة على مصر كان زعزعة القوة الإنجليزية فى أركان العالم الأربعة، من أجل ثورة تغير وجه الشرق كله، وتعطى للهند مصيرا آخر» . كان يقول : «إن مصر كان عليها أن تقوم بدور سان - دومنج ومستعمراتنا الأمريكية، وتجمع بين حرية السود ورخاء تجارتنا، إلخ.. كانت هذه المستعمرة الجديدة ستهدم الإنجليز فى أمريكا، والبحر المتوسط، وحتى ضفاف نهر الكانج» . ولانرى فى هذا الكلام، الصريح، أية إشارة إلى المشروع الحضارى الذى طالما سمعنا أنه الهدف الرئيسى من وجود الجيش الفرنسى فى

مصر... ومثل كل ما يمس الأسطورة لم يلحظ أحد هذه الصراحة فى الاعتراف بحقيقة نيات الحملة على مصر.

***

هـذا هـو كـلام نـابليـون نفسـه ، الذى لـم يفنـده إلا أعـداؤه وبالتالى، لم يشكك فيه أحد حتى عصرنا هذا. وقبل أن نتعرف على مثل من أمثلة هذا التفنيد، فلنقرأ ماكتبه المفكر «جان بريفو» فى آخر طبعة حديثة، كمقدمة لجزءى «الميموريال» فى صفحة عنوانها «التشويه التاريخى فى الميموريال» إن بريفو يفند، على ضوء الدراسات الحديثة كل ما يؤكده « لاس كاز » – بعد الحديث مع سيده – عن قدرة نابليون وحده على خلق كل شىء وإرجاع كل الأفضال إلى شخصيته الفذة وحدها. يلاحظ «جان بريفو» كيف أن هذا الحديث المدون حرفيا، يجعل القارىء يتخيل شخصية ذات «قوة خارقة» ؛ ولذا يتهم الكتاب بخلق أسطورة «تجعل الرجل العبقرى يحل محل الله فى كل أمر» (٨٤). وينهى المفكر المعاصر مقدمته قائلا: «هذا الكتاب جدير بأن يخلق أسطورة» ؛ وقد خلقها بالفعل.

أما الحقيقة وراء هذه الأسطورة فهى لن تكتشف ، أو بالأصح لم يقتنع بها الجميع، إلا أخيرا فقد سبق أن كتب «شاتوبريان» عدو نابليون اللدود، فى «مذكرات ماوراء القبر» حقائق رفض الجمهور المنبهر

أن يصدقها، خاصة أنها كانت تعنى ماحدث فى مصر. ولكنه كان يكتب وقد سبق السيف العذل ، والجميع منبهر بأسطورة نابليون والحملة على مصر، خاصة الشعراء والكتاب. لقد قال نابليون ما أراد أن يصدق، فأصبحت كلمته هى الحقيقة الوحيدة التى يؤمن بها الجميع، كما سنرى .

الفصل
الرابع

الأسطورة عند الأدباء

« أخذت أوربا من شرلمان ، وآسيا من محمد » .
(ڤيكتور هوجو)

كان الجيل الجديد - من الشبان الذين عاشروا فى طفولتهم أصداء أمجاد نابليون الحربية - قد ضج من حماقات آل «بوربون» وعجرفة نبلاء عاشوا فى المنفى ولم يدركوا التحول الذى طرأ على المجتمع الفرنسى . هذا الجيل سمع عن الثورة ولم يقاس من أخطائها ولا من جرائمها ، ولم يعرف من نابليون إلا ما يقصه ، بحزن ، معاصرو المجد الفرنسى الزائل ، وما يقوله نابليون نفسه فى «الميموريال» عن أحلامه التى حرم من تحقيقها لإسعاد شعوب العالم ، هذا الشباب وصل إلى درجة الغليان ثم الثورة العارمة سنة ١٨٣٠ (٨٥) . ولم يجد الجمهوريون والليبراليون الثائرون غير اسم نابليون ليكون لواء لثورتهم ، كأحسن نصير للحرية ، وهذا فى ذاته كاف لإثبات قوة أسطورة نابليون الخادعة، وسط الشباب الذين ماتوا على المتاريس من أجل الحرية ، هاتفين باسم الامبراطور ،الذى كان ، وباعتراف من مجدوه كلهم ، قاتل الحريات فى فرنسا وفى امبراطويته كلها ! كان هذا هو رد الفعل السياسى لأسطوة نابليون بعد نشر الميموريال (٨٦) . وكان يوازيه تيار عاطفى ، وجد فى الفنون ، وحساسية الأدباء ، أرضا خصبة تؤجج مشاعر القراء . إنهم يقرأون ، بشغف شديد هذا التبجيل لنابليون ، البطل الضحية ، الذى ساعد منفاه على زيادة حب الناس له ، بسبب شفقة محت من ذاكرتهم كل شوائب الماضى .

ولم ينج من طوفان ذكرى الرجل الكبير إلا القليل جدا من المثقفين المبدعين ، ممن كانوا أعداء له ، مثل شاتوبريان ، فقد اكتسحت أسطورة الامبراطور المخلوع العقول كلها ، وكان أول ضحياها الأدباء والفنانين ؛ فكتاباتهم كلها تنم عن سيطرة كاملة لصورة نابليون على فكرهم لقد كانوا ضحية الأسطورة بقدر ما ساهموا في تأكيدها وترويجها . وسنعرض بعض الأمثلة المأخوذة من روائع أهم أعلام ذلك العصر، لنعرف ما قالوا عن الحملة على مصر .

الحملة فى أسطورة نابليون عند «بلزاك» ١٧٩٩ - ١٨٥٠

مصر نفسها كانت أسطورة ، كما سبق أن أشرنا فأصبح وجودها بين حملات نابليون وكأنها أغلى جوهرة تزين تاجه . وخير دليل على هذا ذلك النص الذى يصور فيه الكاتب الكبير «بلزاك» أحد الجند المسرحين ، وهو يقص على إخوانه من الفلاحين ، مغامراته مع نابليون ذلك القائد الذى كان ينزل إلى المعارك ، فيتساقط ضحايا رصاص العدو من حوله بينما لا تمسه طلقة واحدة ، بسبب العقد الذى أبرمه مع أحد الشياطين.وإذا حصد الطاعون جند الحملة ، بقى هو وحده كالوردة الندية وسطهم . وإذا ما انسحب من مصر ، فهذا لأن الساحر «مودى» (٨٧) هو الذى أطلق الطاعون الذى هزمه ؛ فالقوى الخارقة هى الوحيدة القادرة على هزيمته . وهذا الجزء من رواية «طبيب الأرياف» ، ليس

طويلا ، وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد أن الجزء الخاص بالحملة أطول فصل في سرده المشوق ، وكأنه أخطر مرحلة فى تاريخ نابليون الطويل: إن ما يعضد أسطورة لا يمكن أن يكون إلا أسطورة أخرى .. ومصر أسطورة لأنها خارج العالم الأوربى .

كان «بلزاك» الذى كتب فى قصصه ما أسماه «بالسجل المدنى» لفرنسيي عصره ، موفقا جدا فى عرضه لعقلية فلاحى بلده آنذاك ، والنص يعتبر فى تاريخ الأدب الفرنسى ، من أوقع ما كتب فى هذا الصدد . إنه يصور بأمانة شديدة ، ما كان يمكن أن يفهمه أهل الريف من الأحداث ، حتى إن كانوا شهود عيان لما حدث ، مثل ذلك الجندى : إنه يؤكد خزعبلات وتخيلات على أنها حقيقة لا يمكن أن يقصها أو يصدقها إلا عقل ساذج ، جاهل وبدائى ، وحتى إن كانت القصة من نسج خياله ، وليست تصوره الحقيقى للأحداث ، فهو يدرك إذن أن جمهوره لن يفتتن بالحقيقة ، ولكنه سيفرح بهذه القصص الخرافية وسيصدقها لجهله بكل شئ . ونلاحظ أخيرا أن العلاقة بين الجند والشعب المصرى كانت منعدمة تماما .

وفى كتابه عن «أسطورة نابليون والكتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر» يعرض علينا موريس ديكوت كيف هيمنت شخصية نابليون على كل أعمال بلزاك ؛ وكأنه لا يستطيع أن يتخلص من ظل

العبقرى الفذ الذى حكم وسيطر بقوة وجبروت اعتبرهما بلزاك أهم قيمتين فى الوجود . وكان «بلزاك» ملكيا فى انتمائه السياسى ، ولم ينضم يوما إلى حزب نابليون . وعلى الرغم من انتمائه للحزب الملكى ، إلا أنه لم يكف لحظة عن تصوير نابليون من خلال شخصيات تتصف ببعض صفاته ، فتنال عطف القارئ وإعجابه ، مثلما بهر نابليون بلزاك الارستقراطى اليمينى .

سنجد هذه الظاهرة بين الكثير من كتاب ذلك الجيل ، الذى خلق ، من خلال رواياته ، أو أشعاره ، أسطورة نابليون ، وذلك على الرغم من انتمائه – السياسى أو الطبقى – لألد أعداء الامبراطور المنفى .

★★★

عند « ستندال » :

والمثل الآخر ، المعاصر «لبلزاك» هو الكاتب الشهير «ستندال» (١٧٨٣ – ١٨٤٢) . كان ستندال يعتبر أن الرواية «مرآة يسير بها المؤلف على الطريق» فينعكس الواقع عليها ، وفى هذا الواقع الذى يصوره لنا، شخصية أصبحت علما فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وهى شخصية «جوليان سورل» بطل روايته الشهيرة «الأحمر والأسود» .

والرواية تحكى طموح شاب من الفلاحين ، سمح له تعليمه بالوصول إلى أعلى درجات المجتمع الارستقراطى ، لولا أن حبه المجنون لسيدة

متزوجة جعله يطلق النار عليها ، فيحكم عليه بالإعدام . ومن أهداف هذه الرواية ، حصر آمال شباب ذلك الجيل ، جيل ١٨٣٠ ، بين لونين يرمز الأحمر فيهما إلى زى الجند ، والأسود إلى دراء القساوسة ولا يرى ستندال – مثل بطله جوليان – مستقبلا آخر غير هذين الزيين لطموحات الشباب المثقف فى عصره . وجوليان مهووس فى إعجابه بنابليون ؛ يقال لنا فى أول الرواية إن «اعترافات روسو وتقارير معارك الجيش الكبير الامبراطورى وميموريال سانت – هيلانة كانوا بالنسبة له، بمثابة القرآن» (٨٨) ، وكان يقضى الساعات يستمع إلى قصص معارك ايطاليا الأسطورية ، وعندما كبر ، أصبح يقضى الليالى فى قراءة الميموريال يستشف من خلاله كل خطوات حياته ، حتى أنه إذا ما أراد غزو قلب امرأة درس فيه استراتيجية نابليون الحربية لسحق أعدائه وكثيرا ما يقارن جوليان مجتمع عصره بما كانت عليه الحال فى عهد نابليون ، عندما كانت البطولات هى التى تجعل البسيط ضابطا وقائدا . ونراه يستمع مرة إلى عاملى بناء ينشدان حبهم للامبراطور الراحل ، ذلك « الملك الوحيد الذى احتفظ الشعب باسمه » . ويؤكد العاملان ما يرمى إليه المؤلف فى روايته ، وهو يتلخص فى جملة يقولها أحدهما : «الجندية ؟ فى عصر الآخر كان عامل البناء يصل إلى رتبة جنرال (...) أما الآن ، فلا يذهب إلى الجيش إلا الفقراء » . إن ما يميز

إذن عصر نابليون بالنسبة للشعب ، سواء كان فلاحا مثل جوليان أو عامل بناء ، هو المساواة الطبقية التى يحلم بها كل فقير ، ومادمنا ندرس الأسطورة ، أى نحاول أن ننظر إليها بعين ناقدة ، فلنتذكر أن العصر الذى كان يصل بعامل البناء إلى أعلى صفوف القيادة ، لم يكن يوما إلا فى بداية الثورة ... فقط ! وتذكر مصر فى هذه الرواية ثلاث مرات ، بكلمات تلخص رؤية مثقفى ذلك العصر للبلد البعيد ، الذى لا يعرفونه إلا من خلال مسلمات ثقافية ترددها الأجيال في كل الكتب .

فنقرأ تشبيها يقول : « كمظهر الحزن (...) على وجـه الفـلاح فى مصر » ، و «غلالات المومياء المصرية» ، و «نهر النيل (...) ملك الأنهار».

لم يزر «ستندال» مصر حتى يتحدث عن وجه الفلاح فيها ، ولكنه ، وهو الممثل لفلسفة التنوير فى عصره ، لا يعرف عنها إلا «حزن الفلاح» و «المومياء» و «النيل» كلمتان سحريتان وفلاح لم يشاهده ، وربما يكون قد قرأ وصف فولنيه الرافض لكل صورة إيجابية فى مصر . ولكنه يتحدث بثقة المعبر عن حقيقة يقينية يعرفها الجميع ، أصبحت بالفعل من مسلمات الحديث الغربى عن مصر (٨٩) .

وبالثقة نفسها ، كان ستندال قد أفتى فى كتاب آخر ، فيما فعله بونابرت أثناء الحملة ، وأوغل فى دفاعه الحار عن نابليون وما يقال عن

جرائمه فى ذلك البلد البعيد . ففى عام ١٨١٦ ، كان الهجوم على الإمبراطور لمنفى على أشده فانبرى ستندال يدافع عنه لأنه كان يرى فيه «أعظم رجل عرفته الإنسانية منذ يوليوس قيصر» . ويشرح «ديكوت» لنا أن ما قاله ستندال فى كتابه عن حياة نابليون آنذاك ، كان ردا على الأعداء الذين لقبوا الامبراطور المهزوم «بأتيلا» و«نيرون» و«تيمور لنك» و«جانكيز خان» . كان ستندال يرد على ما عده اتهامات كاذبة ، وأخذ يبرر تصرفات نابليون السابقة فهو كثيرا ما يحول الأخطاء إلى أمجاد لأن منطقه يختلف عن منطق النبلاء الذين يهاجمون من عد فى نظرهم «مغتصبا» للحكم الشرعى الملكى . ويرى ستندال فى نابليون نصير الأفكار الليبرالية ، كما يصور نابليون نفسه فى «الميموريال» ولذا نرى ستندال يؤكد أن هزيمة «واترلو» كانت نكبة على أوربا بكل المقاييس ، لقد تسببت فى رأيه فى « تأخير الأفكار الليبرالية لقرن من الزمن » . وكانت الشائعات تؤكد ، على لسان الأعداء أن نابليون كفر بدينه وأعلن إسلامه فى مصر ، ويرد ستندال على هذا الكلام شارحا : «أن إسلامه هو نفس إسلام الماجور هورنمان والرحالة الآخرين ، الذين ترسلهم جمعية افريقيا لاستشكاف أسرار الصحراء» . ما كان إذن إسلامه إلا نفاقا سياسيا مشروعا علاوة على أن نابليون «كان يريد أن يكسب ود سكان مصر . فكان محقا فى تملقه هذا بادعاء الإسلام ، إذ كان يأمل

فى أن تصاب نسبة كبيرة من هذا الشعب المتطير بالرعب عند سماع جمله الدينية ونبوءاته . أما فكرة أنه أراد وبصورة جديدة ، أن يكون محمداً آخر ، فهذه فكرة جديرة بعقلية المهاجرين» . والمهاجرون هنا هم هؤلاء النبلاء الذين فروا من الثورة ، ولم يعودوا إلى فرنسا إلا مع عودة الملكية . كان ستندال يكن لهم احتقارا لا حد له ، كما يتضح من هذه الجملة ، خاصة أنهم كانوا أيضا لا يكفون عن مهاجمة رجله المؤله . ويستطرد كاتبنا دفاعه المستميت عن معبوده مؤكدا : « أنه لا يجدر بعاقل أن يسخط من القرارات القاسية التى اتخذها القائد الغازى فى مصر ، لقد حكم بالإعدام رميا بالرصاص على مائتى قسيس (أى شيخ) «يعتقد» (ونلاحظ هذا الشك ، فهو لا يقول : كانوا) أنهم كانوا وراء الفتنة ، ولابد من النظر إلى الموضوع من وجهة نظر فاعليته فقط. فهذا الإعلام جعل المسلمين ، الذين اعتادوا الطغيان ، يتمسكون بحكم عرفوا مدى سطوته » .

نستخلص من هذا الكلام أن أعداء نابليون كانوا يعرفون كيف حكم مصر فى حقيقة الأمر ، وأن «ستندال» لم يكن يعرف أنها لم تكن فتنة واحدة ، بل فتنتين : ما حدث للحملة بعد رحيل بونابرت لا وجود له إذن؛ هذا من جهة ؛ وهذا يعنى أيضا أن الذين لم يتحدثوا عن تلك الأفعال التعسفية ، مثل إعدامه لمائتى «شيخ» ، كانوا يخفون كل حقيقة قبيحة يعرفون أنها لا تليق بإعجابهم بنابليون المنزه عن كل خطأ .

ومن جهة أخرى ، رأينا «ستندال» يحكم على المصريين ، أو بالأصح «المسلمين» ، بصورة مغلوطة ! فكلامه، حسب المنطق ، الفرنسى نفسه ، فيه مفارقة غريبة ، إذ يثبت اعترافه بقيام فتنة : رؤيته للمسلمين خاطئة، فكيف يثورون إن كان الطغيان هو ما اعتادوا عليه ، فأحبوه وتمسكوا به ؟! وفكرة ترحيبهم بالطغيان هذه، من مسلمات الفكر الغربى عن المسلمين ، وسنقابلها مرارا ، كما سبق أن قابلناها بالفعل عند «كوندرسيه» والفارق الوحيد بين «ستندال» و«كوندرسيه» أن «كوندرسيه» ، عندما كتب هذه المسلمة ، لم يكن وجود بونابرت فى مصر قد أثار فتنة بعد ، أى لم يثبت عدم قبول المسلمين للطغيان بعد ، ففكرة تعلق المسلمين بالسلطة الطاغية ، عبر عنها «ستندال» على أنها أمر مفروغ منه ، لأنها من المسلمات التى لا تناقش ، والجميع يعترف بصدقها ، لذا ، فهذه المسلمة تستعمل لدحض حجج أعداء نابليون ، وإقحام من ادعى أن نابليون كان سفاحا قتل «قساوسة» مصر ، أى مشايخها دون مبرر مقبول .

نلاحظ أيضا ما قيل هنا عن إسلام نابليون حين كان فى مصر ؟ هذه الشائعة بالذات ، استعملها كل من كان يريد أن يهاجمه ويطعن فى ذمته ، وهو الذى حكم بلدا أعاد إليه الطمأنينة ، عندما أعاد للكاثوليكية هيبتها ، بل أعاد وجودها نفسه ، وكانت حكومات الثورة قد محتها من خريطة فرنسا .

عند « لامرتين » :

المثل الثالث الذى نستعين به ، وسط عظماء كتاب ذلك العصر، هو «لامرتين» (١٧٩٠ - ١٨٦٩) الشاعر الرومانتيكى الكبير ، الذى لعب دورا مهما فى سياسة فرنسا الداخلية ، والذى درس «ديكوت» علاقته بأسطورة نابليون باستفاضة فى كتابه ، فقد بدأ «لامرتين» حياته ملكيا، ثم أصبح من أكبر رموز «الجمهورية الثانية» فى فرنسا ، وعدوا لنابليون وذكراه . وعلى الرغم من ذلك ، يقال إن الفضل فى تحويل أسطورة نابليون الشعبية إلى أسطورة أدبية ، يرجع إليه بسبب قصيدته «بونابرت» التى نشرت سنة ١٨٢٣ . وإن كان رأيه في نابليون يهمنا بالدرجة الأولى ، لدوره المتميز باعتباره شاعرا كبيرا وسياسيا مؤثرا ، إلا أن ما نبحث عنه الآن هو وجود الحملة كجزء من أسطورة نابليون في أدبه ، ونجد بالفعل فى مذكرات لامرتين صفحة تحكى ما كان عليه صيت نابليون ، والحملة ، فى الريف الفرنسى ، سنة ١٨٠٢ .

كان شاعرنا طفلا فى قريته، وكان يرى البائع المتجول يبيع كميات من الرسوم الشعبية المنتشرة آنذاك وكان من بينها رسم «لرجل صغير، نحيف وأسود يقفز بفرسه وبيده سيف طويل أمام كومة من الأحجار المقطوعة تسمي أهرامات»،كانت هذه هى صورة معركة الأهرامات التى انتصر فيها الجنرال بونابرت وكان مثقف القرية يشرح لزراعى الكرم

معنى هذا الكلام، ويقضى كل أمسيات الشتاء ليعلق عليها ويشرح «معنى هذه الصور الحقيقية الجميلة» . ولن نعجب إذا وجدنا هذا الطفل، وقد أصبح كبيرا ، لا يذكر فى قصيدته إلا ما عرفه وهو صغير ، من أمجاد الامبراطور المتوفى ، وتتلخص هذه الأمجاد فى ذكر جسر «آركول» والحملة على مصر والشام ، وعبوره لجبال الألب مع جيشه وتكاد تكون هذه اللحظات الثلاث فقط، هى كل ما رأى من صور فى طفولته .

الأسطورة لها ، إذن ، ثلاثة أسس ، والحملة أحدها . أما تفاصيل هذه الحملة ، فلا يتحدث عنها إلا الأعداء الحاقدون . إنهم لا يرفضون المبدأ ، ولكنهم يحاولون هدم صورة الرجل الذى أسموه «الغول» ، «السفاح» ، وقد وجدوا فى تصرفه فى مصر خير دليل على صحة اتهاماتهم . أما المعجبون به ، فهم يرفضون هذا الكلام . وكلمة «مصر» السحرية ، أو «الأهرامات» تكفى لأن تخلب لب أى فرنسى فى ذلك العصر ، دون الاحتياج للدخول فى أية تفاصيل ، فمجد الرجل العظيم يغمر بضوئه الساطع ، أى حدث فى حياته ، فما بالك إن كان يقع فى كوكب آخر ، حيث تقع مصر الغامضة ؟!

عند « فيكتور هوجو » :

بقى لنا الحديث عن الشاعر الأديب الذى جمع بين الشعبية والثقافة، وهو فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥) فهو أطول شعراء جيله عمرا ،



المماليك يسجدون لبونابرت ، أمر لم نسمع به أبداً ،

وأكثرهم إنتاجا ، وأوسعهم شهرة ، كان رجل سياسة . أيضا ، وإن كان دوره أقل تأثيرا من دور «لامرتين» . ولكن شعبية «هوجو» واضطهاد نابليون الثالث له ونفيه ودفاعه عن الفقراء والبؤساء ، ساعد على انتشار شعبيته وشعره ، الذى كان له تأثير كبير على القراء.

وبصفته من أكبر الشعراء الرومانتيكيين ، فقد وصلت سمات الفن الرومانتيكى عنده إلى أقصى حدودها . فكانت كتاباته تهتم بكل ما هو غريب وعجيب ، وتستعمل التفخيم المبجل ، والمبالغة الزائدة فى التعبير عن مشاعره ، وكان العالم ينقسم فى رواياته إلى خيرين وأشرار ، والأبيض عنده أبيض ، والأسود أسود ، فكانت الملائكة والشياطين فى عالم خيالى خصب ، ثرى بالشخصيات الفذة .

كان إعجابه إذن شديد بالشخصيات الفذة ، وكان نابليون من هذا الطراز الفريد من البشر ، فأثار انبهار فيكتور هوجو حتى كتب فيه العديد من القصائد ، التي أصبحت من أهم ما أرسى أسطورة نابليون - والحملة - فى الوعى الفرنسى المعاصر له .. واللاحق به .

كان هوجو فى أول حياته ملكيا ، يعيش فى وسط لا يتحدث عن نابليون إلا بصفته «سمام يافا» ، «الجبان الذى هرب من مصر وهرب من روسيا تاركا من أرسلهم طموحه هناك للطاعون والثلوج » . ومر «فيكتور هوجو» مثل لامرتين بفترات متناقضة من حيث انتماءاته

السياسية ، كان ذلك طبيعيا فى قرن عرف أربع ثورات ، وملكيتين ، وجمهوريتين، وامبراطوريتين . النتيجة الحتمية لتلك التقلبات أن المعايير كانت تختلف من نظام لآخر ، فكانت النظرة إلى نابليون ، ثم إلى الحزب البونابرتى – عندما تكون فيما بعد – تختلف مع اختلاف الأحداث، إلا أن «هوجو» ظل دائما وفيا لإعجابه بنابليون ، وإن كان ينتقد أحيانا أخطاء رآها تشوب حكمه وطموحه ، ولكن قصائده فى مديح نابليون حولت الرجل الكبير إلى شخصية أسطورية لا مثيل لها ، لأنها تخرجه من نطاق عالم البشر .

وشعر «فيكتور هوجو» يتصف بثراء الكلمات الرنانة ، حتى أن بعض قصائده سلسلة من أسماء البلاد والمدن ، ترتيبها وحده يحولها إلى نغم رائع يصل بالشعر إلى مستوى الموسيقى . وكانت مهارته فائقة فى استعمال الأسماء القديمة ذات الإيحاءات الشاعرية الأسطورية للقارئ الفرنسى . وكثيرا ما يتساءل القارئ المعاصر إن كان استعماله لكلمات النيل والأهرامات ومصر ، كان استعمالا موضوعيا ، أم أن «هوجو» استعارها فقط لزوم جموح شيطانه الشعرى. ولكن القارئ المعاصر له لم يكن ليذهب إلى حد هذا التحليل الموضوعى فالحملة ونابليون كانا من التاريخ القريب ، والكثير من الكتاب والشعراء الآخرين، يتغنون ، أيضا ، بهما (٩٠) فتداخل الشعر والوحى الغناء على

أحداث مبهمة ، لا يذكر إلا اسمها ، فأصبحت وكأنها حقيقة واقعية ، بل ومن مسلمات الأمور والتاريخ ، حتى طمست بتكرارها المستمر كل ما يمكن أن يشكك في صحتها . ولا ننسى الدور لذي لعبته جيوش «محمد علي» وأسطوله في الحرب بين الدولة العثمانية ، وثوار اليونان : هذه الحرب التي اشتعلت لها قصائد الغرب ، وذهب إليها بايرون ، الشاعر الانجليزى الشهير، ليدافع عن حرية اليونان فمات هناك . وكان «فيكتور هوجو» من أكثر الشعراء هجاء وعنفا ضد « المسلمين » في ديوانه الشهير «الشرقيات» .

لقد تعامل مع هذه الحرب على أنها حرب دينية ، فهاجم الإسلام بشراسة ، واعتبر «إبراهيم» القائد المصرى المنتصر ، من السفاحين ، إلى آخر ما يصوره العقل الغربى عادة من تخيلات عندما يتعامل مع «بربرية المسلمين» والحرب ضد «الهلال القاتل» . وقد يشرح هذا تأكيد «هوجو» المستمر على انتصار نابليون في مصر ، وكأنه انتقام رجعى لما يراه اليوم من الجنود المسلمين ، ووسط هذا الهجاء الدموى ، نجد قصيدته الشهيرة «هو» .

و «هو» هو هذا النابليون الذى يراه هوجو في كل زمان ومكان .. ونلاحظ كثرة استعمال الشاعر لاسم مصر فى هذه القصيدة أيضا ، فعندما يعدد أمجاد نابليون ، نراه يذكر ، بين أربع لحظات مجيدة ،

«النيل» ، ثم «الاهرامات» ، وكأن حملة مصر وحدها تعادل نصف أمجاد الامبراطور المنتصر . ونقرأ قصيدة أخرى سميت «بونابردى» وهو الاسم الذى كان ينطق به المصريون اسم بونابرت ، وفى هذه القصيدة ، يتغنى فيكتور هوجو بالآثار العميقة التى تركها نابليون فى مصر ، وقارئ القصيدة يعجب لمجرد التأكيد على ما يعتبر حقيقة لاشك فيها ، دون أن يذكر حدث واحد يعضد هذه المسلمة . وسنجد الحملة ، كاسم ، لازمة دوما فى كتابات «هوجو» التى تمجد نابليون كلها ، ودوما دون أية تفاصيل .

فيكتب مثلا فى رواية «البؤساء» أن نابليون «يمزج أرقام نيوتن (٩١) بمجاز محمد ، وترك وراءه فى الشرق كلمات كبيرة كبر الاهرامات» ، وذلك دون أن يفصح الكاتب ، طبعا ، عن هذه ، الكلمات أو هذه المجازات وماذا يعنى بمجاز محمد ، ولكن نغمها جميل فهوجو شاعر حتى فى نثره . كما أننا نقرأ فى إحدى قصائده بيتا من الشعر يقول فيه : « أخذت أوربا من شرلمان وآسيا من محمد» .. فتظهر الحقيقة جلية للقارئ : إنها التفخيم الشعرى والخيال المتوهج ، فما مصر بآسيا ، ولا حتى الشام التى قاد فيها بونابرت حملة سنرى حقيقتها فيما بعد ، ولكن مجرد ، انتصاره فى معركة إمبابة، المسماه بمعركة الأهرامات ، وهى التى تذكر دائما ، تلك المعركة تتحول بفعل سحر الشاعر المفتون ،

إلي الاستيلاء على آسيا بأكملها ..ولا يقال ولو لمرة واحدة مثلا أن بونابرت رحل بعد سنة من وصوله إلي مصر ، أيا كان سبب رحيله ، وأن الحملة فشلت في كل أهدافها باعتراف معاصريها من السياسيين . إن اسمى « مصر » و « الأهرامات » يكفيان لإذكاء خيال « هوجو » المتوهج .

وكانت رحلة نابليون – وفيكتور هوجو مثله في ذلك مثل الآخرين ، لا يقول الجنرال بونابرت – إلى مصر هي التي تسمح لشيطان الشعر عند هوجو أن يؤكد سيطرة رجله العظيم على العالم كله. فهو – على حد تعبير «ديكوت» الذي يصف الامبراطور كما يراه هوجو – «عملاق (..) يحنى جبال الألب ويسيطر على النيل (..) بينما يده الأسطورية تلعب بالأهرامات وكأنها خشخيشة» . لن نعجب ، بعد ذلك ، إن رأى ڤيكتور هوجو أن الذى هزم نابليون ، لم يكن جيوش الأعداء ، وإنما إرادة الله وحده ، فنابليون ليس من البشر العاديين حتى يهزمه بشر آخرون، وهذا ما يؤكده في أكثر من قصيدة :

لا يسعنا أمام هذا اليقين ، إلا نذكر ذلك الجندى الفلاح في رواية «طبيب الأرياف» الذي يؤكد - هو أيضا - أن نابليون لم يهزمه البشر في مصر وإنما الطاعون والساحر مودى . لقد وصل إذن هوجو شعره الراقى بجهل الفلاح الأمى ، فاجتمعا في العبادة نفسها ، عبادة

امبراطور ألهوه ، لأنه ، على حد قول فيكتور هوجو ، جعل فرنسا مسيطرة على العالم كله ، بفضل وصوله إلى أقصى حدود العالم ، وهى الكرملين فى روسيا والأهرامات فى مصر .

ولا يقول أبدا إنه هزم فى البلدين كليهما ، إنه يغفر له الكثير لأن المجد فى الحملات الأخرى يجعل كل الأخطاء تغتفر ويبقى هذا الانبهار حتى عنـدما يتحـول فيكتـور هــوجو إلى جمهـورى يسارى ، يدافع عن حرية ، لم تقتل مثلما قتلت فى عهد الامبراطور .. وباعتراف فيكتور هــوجــو نفســه ! .



نلاحظ بعد هذا العرض السريع ، أن الحملة لم تكن تنسب فى أسطورة نابليون ، عند فيكتور هوجو وغيره من الفنانين ، إلى الجنرال بونابرت . فمن البديهى أن أمجاد نابليون اللاحقة طغت على أفعال الجنرال بونابرت السابقة ، فدخلت فى زمرة الانتصارات التى هزت أوربا بعدها ، لعشر سنوات متتالية . ولا ننسى أيضا أن الحملة على إيطاليا كانت قبل الحملة على مصر ، فضاعت نتائج الحملة على مصر وحقيقتها ، بين معارك إيطاليا الرائعة الصيت التى سبقتها فى الزمن، وانتصارات الامبراطور التاريخية التى جاءت من بعدها ، ومن كان يدرى ، بين جمهور فرنسيى ذلك العصر ، ما حقيقة الأمور فى بلد بعيد

مثل مصر، حتى إن كان الأعداء يختلقون الشائعات المغرضة حول ما حدث في هذا البلد الغامض : « ألم يقولوا إنه اشترك هناك في الطقوس الدينية الإسلامية ، وإنه أجرى عملية ختان ليؤكد إسلامه ، وإنه اشترك في الاحتفال بمولد محمد وبوفاء النيل ، وإنه كان يصلى بآيات من القرآن ؟ » . ويرد ديكوت (الذى درسه أخيرا) على هذه الاتهامات الكاذبة بتأكيده : «لقد خلطوا بينه وبين مساعده مينو» .. ونود التنويه بأهمية هذه التبرئة لدلالتها على طريقة الفرنسيين فى التعامل مع نابليون حتى الآن .. ففى عام ١٨١٦ ، اعترف ستندال ، كما قرأنا ، بمكيافيلية نابليون الذى استعمل الإسلام ليسيطر به على عقول المصريين ؛ وديكوت الذى يكتب سنة ١٩٦٧ ينفى ، بجملته هذه ، أية شبهة من هـذا القبيل ، من على جبين بونـابرت .. كيف يمكن أن يحدث هـذا ؟ .



في دراستنا عن أسطورة الحملة فى الأعمال الأدبية الشهيرة تعرضنا ، مثلما فعلنا مع أسطورة نابليون ، إلى أشهر النماذج فى هذا الميدان . فقد سبق لنا أن قابلنا بعض الفقرات التى تدل على أن ما كان يتغنى به فيكتور هوجو مثلا من مسلمات مبهرة – لم تجد أية تفاصيل

لتعضدها - ليست أكثر من خيال شاعر ، عشق مجد قائد فذ ، ذهب إلى بلاد فى أقـاصى العالـم ، مثل موسكـو ومصر ، فزاد ذلك من انبهاره ، بسبب بعد المكان وغموضه ، ولكن الموقف كان مختلفا مع كتاب «المسار من باريس إلى أورشليم» فـ «شاتوبريان» زار بنفسه مصر ، فى عصر لم تكـن معروفة فيه بعد، وقال إنه شاهد بعينيه الآثـار الـرائعـة التى تركتها الحملة على ضفاف النيل . فكان لكلامه أكبر أثر ، لأنه بقلم الشاهد الأمين ، ورجل السياسة والأدب المشهـور ، وجاء كلام «الميموريال» عن نجاح الجيش الفرنسى فى مصر ، ليؤكد أكثر وأكثر تخيلات رجل الأدب الشهير ولكن نابليون والحملة كانا ملكا للتاريخ قبل أن يكونا ملكا للفنانين - فما قول المؤرخين فى هذا الصدد ؟ .

الفصل
الخامس

الأسطورة عند المؤرخين

« كان الفرنسيون والمصريون يتبادلون القبلات والتهانى عند وصول خبر انتصار بونابرت فى معركة « أبو قير » الثانية ، لأن نبأ النزول التركى كان قد أشاع الفزع .. »
«بينوا - ميشان»

أصبح «الحزب البونابرتى» – على مر العقود – من الأحزاب السياسية الفعالة ، وامتزجت عند البعض ، أسطورة الثورة بأسطورة نابليون . وبدأ الخلط ، بالفعل بين الفكرتين ؛ فعلى الرغم من أن للحزب الجمهورى القديم تياره الخاص المعادى لفكرة الإمبراطورية ، فإن فكرة «نابليون حامل لواء الثورة» كانت قد رسخت فى الأذهان ، حتى أن أحد معاصرى ثورة ١٨٣٠ – التى رفعت لواء «الحرية ونابليون» – يقول ، مثلا : «أنا لا أفهم شأن هؤلاء الليبراليين ، الذين أحبوا نابليون إلى درجة الهوس ؛ فأنا لا استطيع أن أفهم ذلك التوفيق بين حماسهم لفكرة الحرية ، وحماسهم فى الوقت نفسه ، لطاغية كان ، مما لا شك فيه ، عظيما ولكنه ، قطعا ، لم يعرف الليبرالية » .

وفى عام ١٨٧٢ – أى بعد الهزيمة النكراء على يد «بسمارك» بروسيا ، وثورة «الكوميونه» الدموية فى باريس – قال «جامبيتا» الجمهورى فى إحدى خطبه : « .. إن فرنسا المجيدة ، فرنسا الثورة ، فرنسا محررة الجنس البشرى ومعلمته ، فرنسا النشاط الرائع كما يقال عنها ، فرنسا الأفكار العامة للعالم أجمع ..» [٩٢] تلك الـ «فرنسا» التى يتحدث عنها «جامبيتا» ، هى وريثة ثورة ١٧٨٩ ، وأمجاد نابليون ، وهى التى ستشكل سياسة «الجمهورية الثالثة» الجديدة وفلسفتها ، وستمضى فيهما حتى الحرب العالمية الثانية .

وتمثل السياسية التعليمية أهم تطبيقات تلك الفلسفة ؛ فقد جاءت «الجمهورية الثالثة» بعد هزيمة ١٨٧٠ ، فكان لابد لتلك السياسة أن تتجه إلى التأكيد على التاريخ المجيد لفرنسا «المنتصرة دائماً » ، ومؤازرة وإذكاء الروح القومية ، وتأليه الأبطال القوميين وعلى رأسهم «نابليون» الذى أذل أوربا كلها ، وألمانيا بالذات . ولا نجد هذا الاتجاه فى كتب التاريخ المدرسية فقط ، بل نجده أيضا ، فى كثير من الكتب التى تؤرخ لسيرة نابليون ، وتتحدث عنه وكأنه من الآلهة أو القديسين .



«ميز» و «ليجران» : «فى بلاد نابليون – مصر»

صدرت سلسلة من الكتب بعنوان «فى بلاد نابليون» ، نختارها كمثل فاضح لذلك الاتجاه فى بداية القرن العشرين ، وقد نشرت تلك السلسلة فى طبعة قيمة فاخرة ، تحمل الكثير من الرسوم ، التى كان نابليون قد أمر برسمها لدعايته الذاتية ، مما جعلها تسحر العيون ، ومن ثم ، يعجب بها الشباب وغير المتخصصين ، ويكون لها – بالطبع – التأثير الأكبر على عامة الجمهور . وقد اتخذت تلك السلسلة عنوانا يعد، فى ذاته خير دليل على الرؤية التى يتبناها الناشر والمؤلفون فى سرد انتصارات نابليون فى البلاد التى غزاها .

وما يهمنا منها ، هنا ، ذلك الكتاب الذى يحكى عن «مصر» ؛ وقد اشترك : «چان ميز» و «چورچ ليجران» .

ويتعرض أولهما - «چان ميز» - فى الجزء الأول من الكتاب إلى الحملة فى ذاتها .

وتتأكد الرؤية المنبهرة المحدودة ، منذ الصفحات الأولى . فمما يعجب له أن يبدأ المؤلف قائلا إن «حكومة الإدارة أعلنت الحرب على مصر ، فى ١٢ أبريل ، وكذلك على جزيرة مالطة..» . والدارس للتاريخ يعرف أن من أسباب تكوين التحالف الثانى ضد الجمهورية الفرنسية ، أن الحملة نزلت على الإسكندرية دون إعلان حرب على تركيا ، صاحبة الأمر فى مصر آنذاك ، بعد أن استولى بونابرت عنوة على مالطة ؛ وأن أحدا لم يكن يعرف هدف تحرك الأسطول ، وإلا سبقهم الإنجليز إلى هناك ، ولكن الأحداث تحكى فى هذا الكتاب على طريقة روايات المغامرات المثيرة . فبونابرت ، مثلا ، يستعد «لعمل كبير سيذهل العقول ويبلبل أوربا : إنها الحملة على مصر» (٩٣) ، وبهذا الأسلوب ، يصف «ميز» استيلاء الحملة على كنوز جزيرة مالطة كلها ، لينتهى هذا الجزء بالكلمات التالية : «إن علم الحرية يرفرف الآن على كل الطبايا» فى الجزيرة . ومن البديهى أن قراء ذلك العصر لم يفطنوا ، كما لم يفطن المؤلف نفسه ، إلى تلك المفارقة الصارخة ، التى تجمع بين «الغزو

والنهب» و «الحرية» . ثم ينقل المؤلف بيان بونابرت لجنده قبل وصولهم إلى مصر : «أيها الجند ! ستشتركون فى غزوة لها نتائج لا تحصى على الحضارة وتجارة العالم .. » . ثم نقرأ البيان الذى وجهه إلى الشعب المصرى ، ودون أن نعرف تأثير ذلك البيان على جمهور المصريين ، نجد المؤلف يعلق عليه بقوله : «إنه تحفة من تحف فن العلوم السياسية» .

يصف الكتاب بعد ذلك غزو الإسكندرية ، وكيف أن جنديا فرنسيا واحدا هو الذى اخترق التحصينات ، فتبعه باقى الجيش ، وعندما رآهم «الأتراك ، فروا هاربين بين الحدائق وهم يصرخون رعبا » ونجد بجانب هذا الكلام رسما عنوانه : «دخول الجنرال بونابرت إلى الاسكندرية «بريشة كولسون» حيث نرى بونابرت فى وسط الرسم ، ممتطيا جوادا أبيض ، ويده ممدودة وكأنها تعد بالصداقة والسلام ، بينما النساء والأطفال الرضع على الأرض يتوسلون إليه وقد ازورت وجوههم هلعا ؛ ونرى آخرين يفرون رعبا . ومؤلفنا معجب إعجابا كبيرا بـ «تكتيك» بونابرت الذى يحطم مع رجاله المماليك «فيصبحون ، آنذاك ، وبالفعل ، منقذى العرب وأصدقائهم » . وأثناء رحلة الجيش إلى داخل البلاد ، «أدرك بونابرت فقر المنطقة ، وهو مستمر فى مسيرته نحو دمنهور ، فأرسل كل المؤن التى تحتاجها فرقه ، على الجمال ووسائل النقل الأخرى » . فهو القائد الذى لا ينسى رفاهية رجاله لحظة وحدة .

ثم نقابل رسما آخر سمي «بونابرت قبل معركة الأهرامات» للفنان «جرو» ، ونرى فيه بونابرت وقد مد ذراعه مشيرا إلى الأهرامات الثلاثة الموجودة في مؤخرة الرسم ، وبجواره ضباطه . ونرى في الأسفل ، جسد زنجي ميت ، ومن تحته رجلين مهزومين ، أحدهما مملوك والآخر عاري الجسد ، ينظران إلى بونابرت وقد رفعا أيديهما في توسل .

وبعد أن رأينا هذين النموذجين ، سنقلع عن وصف تلك الرسوم ، لأنها متشابهة كلها ، فهي تصور الفكرة نفسها : الانتصار الكاسح لراكب الجواد الأبيض ، والتوسلات التي ترتفع من أسفل ، حتى إن كانت تلك التوسلات توسلات الجند الفرنسيين المصابين بالطاعون .

ويكون خير تعليق على تلك اللوحات ، وصف الكتاب ، نفسه لحكم نابليون للقاهرة . فالمؤلف يقول : «إنه يتملق الكبار ، ويعد البؤساء بحمايته ، ويترك حكم العدالة للقاضي (المسلم) ويسلم حكم القاهرة لديوان من تسعة أفراد ، (...) ، ولكنه يحكم بالإعدام على كل من يرفض طاعته . إن الحديد موجود تحت المخمل » ، كيف لا نعجب من مثل هذا الحاكم الحكيم ، الذي يحترم أهل البلد ، لكنه ، في الوقت نفسه ، يرهبهم فيخشونه ؟

ويستمر مؤرخنا في وصف ما حدث في مصر :

«تم منذ الساعات الأولى، إحصاء أملاك المماليك كلها ومصادرتها ؛ ووضع كل ثمين في صناديق دمغت بخاتم أمين صندوق الجيش،

والقيادة العامة ، واللجنة المسئولة عن الجرد : كل ما يصلح (...) للجيش أرسل إليه على الفور ، ويتم بيع الباقى إلى شركة تجارية» . «وبعد الغزو ، كانت رفاهية الجنود ، همَّ نابليون الأكبر ، ومن ثم ، فقد أمر ، من فوره ، ببناء أفران ومستشفيات وفرض ضرائب باهظة لسد حاجة الرواتب والشئون الأخرى . وفى نهاية شهر يوليو ، كانت ضرائب التجار فى الإسكندرية ورشيد ودمياط ، والضرائب على وكالات الصابون والتفاح ، والسقائين ، وتجار السكر ومشايخ الغورى ، تسمح بدفع كل ما تأخر من رواتب . وأخذ الجمهوريون ينعمون برخاء الحياة الشرقية ومتعتها ، بعد أن أكل الجند وارتدوا ثيابا أكثر ملاءمة للجو ، وركبوا أفضل جياد فى العالم ؛ فالجديد الذى يقابلونه من التقاليد ، يرفه عنهم ، وسرعان ما فهموا الدور السياسى المطلوب منهم ، فأصبحوا يدعون أكبر احترام لله (الكلمة العربية) ونبيه ، وهم يسخرون سرا منهما» .

«وفى الوقت الذى يفكر نابليون فى محاربيه ، يتخذ كل القرارات المطلوبة للإدارة الرشيدة للبلد ، ولنشر النفوذ الفرنسى . فلكل منطقة فى الدلتا أحد نوابه بفرقته» . ويستمر الوصف ، والراوى ينظر بعين العطف بل والانبهار ، إلى كل ما يفعله الجيش ؛ فالأسلوب الذى قد يفقد خصوصيته عند الترجمة ينم عن التقدير والإعجاب بكل ما يتخذ

من إجراءات ، دون أن يتعرض ، ولو بكلمة ، لما يمكن أن يكون عليه رد الفعل المصرى ، من تطبيق تلك الإجراءات . ويكفينا عرض النموذج التالي لنتعرف على مدى احتقار المؤرخ للمصريين ، وانبهاره ، فى الوقت نفسه ، بالأحداث التى يرويها : «فى التاسع من أغسطس ، وعلى مسافة من بلبيس ، قابل الجيش القافلة الشهيرة (للحجاج) . وكان يحاول سلبها مائة من الأعراب الذين فروا هاربين عندما رأوا الزى العسكرى الفرنسى ؛ ولم يتبق على الطريق إلا طابور طويل من الجمال، محملة كلها بالبضائع وبعض النسوة العجائز ، القبيحات ، اللاتى يتسترن فى محامل مهلهلة ، ألفان من الحجاج ، بثياب بالية ، قذرة كلها قمل ، وقد انحنوا حتى الأرض أمام القائد العام ، عندما أخبرهم أنه سيحميهم » . . . .

وبعد ذلك ، يستمر بونابرت فى بحثه عن هؤلاء الأعراب حتى يراهم على بعد : «كانت الفرقة هناك ، محملة بغنيمة مكة الثرية – ما العمل ؟ هل يترك الفريسة تفر ؟ لا – الجنرال الصغير ، منتصب على سرجه . يستديز صائحا : لوكلير ! فرسانك ، قناصوك ، خيالتك ! إلى الأمام!!! – حضر ، صخب هائل ، الأرض ترتعش تحت وقع حوافر الجياد، كسندان يرتجف تحت المطرقة ؛ المعركة تحتدم جسما لجسم : الفرنسيون يختفون وسط القطيع المعادى للحظة . كلهم أعصاب وجرأة،

يرشقون ، يصوبون ، ينضحون من الدائرة التى بدأت تضيق ، مرشدو حرس القائد العام يرتمون فى المعترك ! «مورا» ، «كافارللى» ، «سلكوفكسى»، القيادة العليا كلها تتخبط بعنف ، والسلاح فى أيديهم»، والقارىء يلهث مع الأسلوب الذى يصف معركة «الشجيع» ضد قوى الظلام ! وتنتقل الغنيمة من الأعراب إلى الفرنسيين ... وهكذا ينعم أفراد الجيش بأملاك الحجاج الذين كانوا «تحت» حمايتهم ، ولا يرى المؤلف أية غضاضة فى تلك الحادثة ! يقصها علينا بأسلوب ينم عن انبهاره بالجيش الأسطورى الذى يعرف كيف يغتنم الفرص ... ويستمر هذا الانبهار بتصرفات بونابرت وجيشه كلها حتى أن العلماء والمشايخ أيضا «مبهورون بتقوى» بونابرت الإسلامى «لابد لبونابرت أن يطفىء الكراهية الأبدية التى يكنها المسلم للغريب ، للكافر ، فهو يعرف أن سلامة جيشه طوع المشاعر التى سيثيرها تصرفه ! إنه يعرف ذلك ، فينتهز - بمهارة - الفرصة ، التى تتيحها له أعياد النيل ، لتكريم أقدم العادات المصرية ، ليؤكد ، بذلك ، مدى صدق احترامه لأفكار الشعب المصرى السياسية والدينية » ، فأمامهم شعب يكره الفرنسيين ، لا لشىء إلا لأنهم «غرباء أو كفرة» ، وبونابرت الذى يمد لهم يد التسامح والتفاهم ، على الرغم من «الضرائب الباهظة» ، والاستيلاء على الأملاك والغنائم . «ففى الثامن عشر من أغسطس ، عندما وصلت المياه إلى

المستوى المطلوب ، يستعد الجميع لشق الخليج . وتقول جريدة الكورييه ديچبت إن القائد العام ، ومعه جنرالات القيادة العليا كلهم ذهبوا منذ السادسة صباحا ومعهم القيادات المحلية كلهم ، إلى مقياس النيل بجزيرة الروضة : «الحشد الهائل للأهالى ، على ضفتى النهر ، يهتف من السعادة ، هتافات تجمع اسم بونابرت إلى اسم الله ، الله الكبير . الموسيقى الجمهورية بنغماتها الحربية تمتزج بالسمفونيات الغربية للفرق العربية ، وصدى ضرب المعاول فى الأرض ...» ويستمر الوصف للحفل الذى يسعد الجميع ، ولا عجب ، مادام المصدر لهذا الوصف البهيج هو الجريدة الفرنسية التى ترفع من الروح المعنوية للجند ، وترسل صورة مشرقة عن الحملة إلى فرنسا البعيدة . وهكذا نقرأ أن «حشدا هائلا يسير مع بونابرت ، والناس يتغنون بأفضال النبى والقائد الكبير ، إنهم يقولون : نعم لقد جئت لتحررنا بأمر الله الرحيم ، لأنك منحت الانتصار وأجمل نيل شاهدناه منذ قرن من الزمن ، إنها نعمتان لا يمنحهما إلا الله . وبعد فورات الفرح تلك ، تأتى الصيحات باللعنات ضد المماليك ، وبكواتهم وطغيانهم الملعون . ينتهى اليوم بحفل كبير ، وتنار القاهرة كلها ليلا » . ومادمنا لن نعرف غير ذلك ، فما أجمل الحياة التى عاشها كل من المصريين والفرنسيين معا فى ذلك العصر .

ولكن هذا لا يعنى أن بونابرت يؤمن بهذه الاحتفالات : «فبينما نراه يتملق تعصب العادات القديمة لأهل البلد ، نرى بونابرت منهمكا فى نشر العلم الغربى وحضارته . ففى السابع والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨ ، نراه يجمع العلماء والفنانين الذى أحضرهم معه ، وينشىء المعهد (الفرنسى) الشهير ، فى واحد من أجمل المساكن بالقاهرة : قصر حسن كاشف . ثم يستمر فى إرساء السلام فى الدلتا ومصر الوسطى ، ويعمل كل يوم لتحسين حكومة غزوه . إنه ينشىء محاكم تجارية ، ويصدر تنظيما جديدا لكل مجموعة من الشرائع ، ويحرم العقوبات الجسدية مثل الضرب بالعصى ، ويضم صغار المماليك إلى الجيش ، ويأمر بإنشاء مكاتب تسجيل ؛ وبكل هذه الإجراءات ، يصل إلى تحرير القبطى ، وإلى سيادة مبدأ المساواة بين كل الطبقات . ويتغير مظهر القاهرة ، رويدا رويدا بين يدى الجنرال الصغير ، فتتحول إلى عاصمة فرنسية ، يتدرب السكان على الصناعات الصغيرة ، وفى ورش الأسلحة والبناء والسباكة إلخ ، التى تفتح وتنظم . الحضارة الأوربية تدخل بطريقة غير محسوسة : أصبح للمدينة مسرح وجريدتان: لاديكاد إچيسان والكوربيه ديچبت [٩٤] . ويؤمن بونابرت أنه يعضد من الروابط التى تجمع بين المنتصر والمهزوم بمشاركة الشعب المسلم فى العيد القومى للجمهورية» . ويلى هذا الكلام ، وصف للديكور الذى

بنى من أجل الحفل ، وهو يذكرنا بما رأيناه من رسوم للاحتفالات المسرحية للثورة فى فرنسا . على أننا نجد هنا مسلة عملاقة، مكتوب عليها : «إلى الجمهورية فى السنة السابعة . إلى طرد المماليك فى السنة السادسة» ، وباللغة العربية «هذه الآية (هكذا !) التى يعتز بها المسلمون لا إله إلا الله ومحمد رسوله» . وتصدح الموسيقى وتطلق الأعيرة النارية، ويمر الجند أمام القائد العام .. وما من كلمة طبعا ، عن مشاعر الجمهور إزاء كل هذا الاسراف فى استعراض القوة .

ولكن ، «يبدو الصفاء تاما بين الشعبين ، ومع ذلك ، فهناك فى قلوب المسلمين بذرة قديمة من البغض!، ويكفى بعض الفرمانات التى يوزعها مبعوثو (السلطان) حتى تنفجر الثورة ، دموية ، متطرفة ، والفتنة لا تفاجىء بونابرت ! فقد كان ينتظر منذ أمد بعيد أن يثور الشعب ضد حكومته . لقد اتخذ كل الاحتياطات ! كانت القلعة مسلحة وجميع أبواب المدينة قد نزعت حتى لا تعوق تحركات الجيش فى الضواحى المختلفة » .

فبونابرت لا يمكن أن يخطىء ، وما يفعله كله لا يدل إلا على بصيرته النافذة ! والملاحظ أن «الفتنة لا تفاجىء بونابرت» على عكس كل ما هو معروف عن ظروف قيام الثورة الأولى ، والدليل ، ما حدث أثناءها ؛ ولكن «ميز» لا يقبل أن يكون بونابرت غير مدرك لحقيقة

الشعور الشعبى و«يفاجأ» إنه ينتظرها «منذ أمد بعيد» : وصل بونابرت إلى الاسكندرية فى الثانى من يوليو وقامت الثورة فى الحادى والعشرين من أكتوبر ، فأين «الأمد البعيد» ؟! ولا يشعر القارىء إلا بمدى بربرية المصريين ، عندما يقرأ وصف «ميز» للثورة وأحداثها اللاهثة التى راح ضحيتها الفرنسيون المسالمون ؛ فالذى يحرك المتظاهرين «عنف دموى يسيطر حتى على القوى المجاورة للقاهرة ، حيث ذبح ثلاثة وثلاثون مريضا قادمين من بلبيس ، وقبل وصولهم إلى القاهرة» ، ولذا يجد القارىء نفسه متعاطفا مع ما يحدث بعد انتهاء الفتنة : «يندفع الفرنسيون ، المتعطشون للانتقام فى الشوارع ، يركضون إلى الجامع ، يحطمون القناديل ، يشوهون الكتب المقدسة وينهبون المتاجر المفتوحة» . والأسـلوب يجعل القارىء يعتقد - بما لا يدع مجالا للشك - أن ما حدث ، أنذاك ،"كان نتيجة حتمية ، بل وعادلة لما حدث من «عنف (المسلمين) الدموى» . ونجد هنا أيضا ، ما سيقال مرارا ، أن الثورة لم تقم إلا بتحريض من الخارج . وهكذا تكون تبرئة بونابرت والجيش من أية مسئولية فى إثارة ضغائن المسلمين .

أما عن «الحملة على سوريا» ، فما أجمل المعارك : دخول «رينييه» إلى العريش ، مثلا ، « من أجمل العمليات الحربية التى يمكن

إنجازها». وشروط استسلام الحامية على يدى بونابرت «شروط معتدلة نسبيا» . فلا يمكن لبونابرت أن يكون غير «معتدل» ،. لأن إنسانيته لا حد لها وفى غزة ، «برسل بونابرت مفاوضا قبل إطلاق النار ، لينذر العدو كما هى العادة . ولكن الفرنسيين استشاطوا غضبا ، عندما رأوا، فوق سور المدينة ، رأس مندوبهم . وقد رفع على حربة . فيطلق أمر الهجوم وينطلق رماة الرمانات ، والنقابون وزارعوا الألغام والآخرون من الثغرة ثائرين ، ويهجمون على القلعة . يفقد العدو صوابه ذعرا ، ولا يعرف أين يذهب ، يبحث عن ملجأ فى الطبايا ، على صخور الميناء حيث يأمل فى الهرب على المراكب إلى عرض البحر . ولكن الجند (الفرنسيين) كانوا قد تعبوا من إراقة الدماء ، وفضلوا النهب . ولمدة ثلاثين ساعة ، يسلبون وينهبون يخولون المدينة إلى صورة بشعة لا يستطيع أن يتصورها المرء ، وقد كتب بونابرت قائــلا : لم تبد لى الحرب أبدا بمثل هذه البشاعة ؛ أبدا» ..

وهكذا ، فهو مشكور لأنه لا ذنب له فيما حدث ، خاصة أنه يرى أن «الحرب بشعة» ويعني ذلك أنه غير راض عنها ، مجبر عليها إجبارا .

ولا يرى المؤلف تناقضا بين هذا الكلام ، وما يليه من أحداث ؛ فعندما يجد بونابرت نفسه ، بعد ذلك مباشرة ، أمام ثلاثة آلاف سجين، سلموا أنفسهم آمنين «لـ «بوهارني» و «كروازييه» ، فإن المسألة تبدو

عسيرة فى بادىء الأمر ، ولكن بونابرت ، الحكيم الذى لا يخطىء فى قرارته أبدا ، يحلها بمنتهى البساطة ..» ما العمل؟ بونابرت يجزم القضية ، ويأمر بقتلهم جميعا .

«إن فتح غزة يمكن الجمهوريين من موارد مهمة تسمح لهم بسد متطلبات المراحل الأخيرة . فهناك مخازن المؤن والذخيرة الحربية ، وطاقم كامل لمدفعية ميدان» .. وهكذا ، تنتهى قضية قتل الأسرى .

ومرة أخرى ، تعترض بونابرت مشكلة تبدو عسيرة ، وهى فى تلك المرة ، مرض الطاعون . وكالمعتاد ، لا يتصرف إلا كقائد سام فى أحكامه وقراراته : «إنه لا يتردد» ؛ ويكون وصف زيارته للمرضى ؛ وبجانب النص ، رسم للوحة الشهيرة لزيارة بونابرت «لمرضى الطاعون فى يافا» إن بونابرت ، على حسب النص ، «يتصرف بهدوء تام ، وينظم التفاصيل الإدارية كلها ، ويجيب على من يلاحظ أن هذه الزيارة الطويلة لا داعى لها قائلا : هذا واجبى ؛ أنا القائد الأعلى ...» إنها الأسطورة، الأسطورة المثيرة لرجل فوق البشر ، يكاد يكون من الآلهة ، تحكى سيرته وكأنها سيرة قديس .

إنه فرنسى وسط أناس غير أوربيين ؛ ولكنه إذا فشل أمام عكا ، فذلك لأن «مصوبين من الدرجة الأولى وضابطا مهاجرا ، هو لى بيكار دى فليبو ، التلميذ السابق لمدرسة بريان (الحربية) ، وزميل بونلبرت ،

جاءوا ليدعموا بمهارتهم الأوربية قوة المسلمين وصلابتهم» . إن الذى هزم الجيش الفرنسي أمام عكا ، ليس المسلمون ، ولكن أوربيين مثلهم ؛ فلا حرج من الهزيمة . أما عن حصار عكا ، «فكادت تقع» فى يدى بونابرت ، لولا الإنجليز ، خاصة أن فرق «دجيزار (الجزار) قد أضعفها حصار شهرين ، فلم تعد خطرا على أحد ، لذا قرر بونابرت أن ينهى الحملة على سوريا ويعود إلى القاهرة » ، وهكذا يتحول انكسار بونابرت أمام عكا وفشله إلى ما يشبه النصر ، مع أن المعروف أن صمود عكا هو الذى جعل بونابرت يقتنع أخيرا بفشل الحملة نفسها ما دام الهدف منها كان ، أيضا ، الوصول إلى اسطنبول عن طريق الشام ، ونلاحظ أن الإنجليز - وليس الجزار وقواته - هم الذين أوقفوا بونابرت فى تقدمه الكاسح ، فلا يليق بفرنسي ، وأى فرنسى ، «القائد الذى لم يهزم يوما» لا يليق به أن يكون سبب فشله من غير الأوربيين . كما أننا نلاحظ أن الحملة صورت وكأنها نزهة حربية كما كان «ديسى» فى الصعيد منتصرا على مراد بك .

وبونابرت معصوم من الخطأ ، حتى عندما يقتل جنده : إنه يجد نفسه ، وهو عائد بعد الحصار الفاشل لعكا ، فى مواجهة مرضى الطاعون من جنده ، خاصة من لا أمل فى شفائهم . فلا يجد بونابرت إلا حلا واحدا ، «فيأمر بإعطائهم كمية كبيرة من الأفيون حتى لا يموتوا

بأيدى الأتراك (...) فيموت معظمهم ، ومن استطاع أن يتقياه يشفى من المرض ، وهؤلاء سيحكون على زملائهم ، بعد ذلك ، ما كادوا يلقونه من مصير» ، وتنتهى المشكلة بالنسبة للراوى ، الذى لا يعلق بكلمة واحدة على ذلك الحادث ، وكأنه لا أهمية له .

والطريق إلى القاهرة شاق، فيتذمر الجند : «فطريق الصحراء أنهك الرجال،، ويعضهم يرفض السير ويلعن الجنرال (...) ولكنهم عندما يشاهدون أول نخيل مصر ، تنتهى الشكوى ، ويعم الفرح» . إنه الفرح الذى نجده فى كل صفحة ، على الرغم من كل شىء ؛ فالملحمة ، كما يصورها لنا «ميز» ملحمة نصر وسعادة للفرنسيين .

أما الهزائم ، فهى فى حقيقتها ، ليست هزائم : فالمؤلف عندما يصف ، مثلا ، معركة «أبو قير» - التى دُمرت فيها السفن الفرنسية كلها ، فكانت أهم أسباب فشل الحملة - يتحدث عنها وكأنها مجد يضاف إلى أمجاد الفرنسيين ، لأن «المعركة لم تكن متكافئة» ، ولأن «المحاربين الفرنسيين كانوا من الأبطال» ، وهكذا يكون وصف المعارك الفرنسية كلها : فالجنرال ديسى «بعد انتصاره الباهر (على مراد بك) فى سيدمان ، طارد عدوه طوال شتاء بأكمله فى مصر العليا، وأخيرا ألقى به وراء سيان (أسوان) ، على طريق النوبة» . ويصل القارىء ، من ثم ، إلى النتيجة الخاطئة ، أن مراد بك انتهى ، وأن الصعيد فتح للفرن

الفرنسى . «ولم تكن حروب باقى الجيش ، بقيادة بونابرت ، أقل روعة... (ويحكى الحملة على الشام كما أسلفنا) . فالشتاء سيسمح له أن يمر دون مشكلات كبيرة فى الصحراء التى تفصل بين المدن السورية حيث يقابل التجمعات فى يافا (...) ودمشق » : إنه لقاء الأحبة ! .

وترتيبات بونابرت قبل رحيله إلى فرنسا ، تصور بالصورة المنبهرة ، نفسها، التى يعبر عنها الأسلوب المستمر لمؤرخنا . ولا يرى «ميز» غضاضة فى أن بونابرت «يفكر فى فتح باب المفاوضات مع الباب العالى» ، مما يدل على اعترافه بالهزيمة . ولكن «ميز» – بالطبع – لا يقول ذلك . إنه ينبهر بما كتبه القائد العام للسلطان ، كرؤية علوية للأمور والسياسة الحكيمة ، إذ يقول بونابرت فى خطابه «للإمبراطور سليم : عليك أن تستعد لنشر راية النبى ، ليس ضد فرنسا ، وإنما ضد الألمان والروس الذين يضحكون على حربنا الحمقاء ؛ فإنهم إذا رأوك ضعيفا ، سيرفعون رءوسهم ويعربون عن حقيقة مقاصدهم بصوت عال» . ولا نجد من يقول لنا إن بونابرت نفسه هو الذى أشعل تلك «الحرب الحمقاء» بغزوه مصر ، دون إعلان حرب على تركيا ؛ وحتى إن كان قد أعلن تلك الحرب ، فهو المعتدى على أرض غيره .

نصل أخيرا إلى الصفحة التى تتحدث عن رحيل بونابرت والتى تصف المركب الذى يحمل «أعظم رجل عرفته الأرض» ، وتكاد تكون

قصيدة شعر فى وصفها للرياح والموج، والقدر الذى ينتظر من تحمله .. إنها النهاية المنطقية للملحمة الرائعة التى أبهرنا بها المؤرخ ذو الخيال الشاعرى ، والمعلومات المشوشة المنقوصة ، والمنطق الاستعمارى العنصرى .

★★★

أما الجزء الثانى من الكتاب ، الذى كتبه «چورچ ليجران» ، فهو لا يتعرض إلا لبعثة العلماء . ومن البديهى أنه أكثر أمانة ودقة فى عرضه ، ويكون التحيز هنا لقوم وهبوا حياتهم للعلم ، ولم يجدوا من الجيش أى سند أو تقدير. ونجد فى هذا الجزء ما يفيدنا لتقييم الدور الحقيقى لبعثة علمية ، كان واجبها الأول ، خدمة الجيش وأهدافه.

وعلى الرغم من إعجاب «ليجران» الكبير بأعضاء البعثة ، واحترامه الذى لا حد له ، لشخصياتهم وإنجازاتهم ؛ فإنه يعتبر من القلة التى تحدثت عن الحملة بموضوعية نسبية ، تضيف إلى كتابته المصداقية الضرورية لأى تأريخ علمى محترم . وهو لا يحكى إلا ما يخص البعثة العلمية .

نعرف منه أن «مونج وبرتولى وبونابرت ، هم الذين ابتكروا الخطة التكميلية لإلحاق لجنة للعلوم والفنون بالجيش المنتصر ، تكون مهمتها تحضير وتنفيذ استعمار مصر بعد ذلك» : هذه حقيقة المهمة التى سافر

من أجلها العلماء إلى مصر مع جيش الحملة ، «تحضير وتنفيذ استعمار مصر» لصالح فرنسا .

وعندما يتحدث «ليجران» عن أهداف بونابرت من وراء غزو مصر ، فهو يؤكد أن بونابرت كان «يحث (حكومة) الإدارة على أن تعهد إليه بجيش من اختياره ولجنة من العلماء . وفي المقابل ، يعاهدها هو على الاستيلاء على مالطة التي عرفت بحصانتها ؛ والاستيلاء على مصر الخصبة ، وطريق مفتوح إلى الهند ، بكنوزها الأسطورية» : الحملة إذن استعمارية بحتة ، بما فيها بعثة العلماء . ولا يمنع هذا المشروع الاستعماري الخالص ، بونابرت من طلب : «الشاعر ديليل والموسيقي ميهول والمغني لاييس ، الذي كان سيقوم بدور شاعر الملاحم الذي يتغنى بانتصار الجيش وهو على رأسه مثل (الشاعر الشهير) أوسيان وعلاوة على لجنة العلماء ، كان بونابرت يريد ممثلين ، وراقصين ، وخاصة راقصات... » ، ولكن الجميع اعتذر عن السفر في اللحظات الأخيرة .

والهدف من لجنة العلماء واضح ، لأن « بونابرت سينشيء مستعمرة مثالية ، تكون جديرة به وبالفلاسفة وبأصدقائه» .

«كان بونابرت يحب العلماء إلى درجة قد تعادل حبه لجنده ، ولكن شريطة أن يكون هؤلاء الرجال – على الرغم من ملابسهم المدنية – نوى

منفعة له حتى يحقق مشروعاته الواسعة . كانوا سيسيرون ، حسب رؤيته ، جنبا إلى جنب مع جنده ، فيطيعه الجميع طاعة سلبية عمياء ، وتنضوى قيادة العلماء العليا تحت قيادته ، مثلما تنضوى قيادة الجيش أيام المعارك .

ولكن الجيش ، ضباطا وجنودا ، لا يحبون هؤلاء المدنيين ، ويتصرفون معهم بغلظة واستعلاء . وكان الجند يكرهونهم ويضطهدونهم ، لأنهم – على حد قولهم – هم الذين وضعوهم فى مأزق هذه الحملة . ويحكى أحد هؤلاء العلماء ما كان عليه أفراد الجيش من خلق قائلا : «إن كنت تقرأ صحيفة فى مكان عام ، ودخل ضابط عليك ، فهو يأخذ منك الجريدة دون أن ينبس بحرف . إذا وقفت فى طابور لدخول مسرح ، كان من حق أى عسكرى أن يتجاوزك ، ويمر أولا ، ولا يتحمل أن ينتظر . وهم لا يتحدثون إلا عن إلقاء الأزواج من النوافذ» ، للاختلاء بالزوجات . كانت هذه حقيقة عقلية أفراد الجيش الفرنسى ، حتى فى معاملتهم للمدنيين من الفرنسيين أنفسهم ، حتى وإن كانوا من كبار علماء عصرهم . ونتعاطف طبعا مع العلماء ، عندما نعرف بالتفصيل ما عانوه من سخرية وسوء معاملة من باقى أفراد الجيش . وإذا كانت تلك حالهم مع المدنيين من الفرنسيين ، فعلينا أن نتصور كيف كان جند ذلك الجيش يعاملون أفراد الشعب المهزوم .

نعرف مثلا كيف أن الجنرال «كافاريللى» كان يجهد مهندسيه ، إذ كان عليهم ، مثلا ، «إعداد مشروع نصب تذكارى للشهداء الذين سقطوا فى فتح الإسكندرية» دون مبالاة بالشهداء من العلماء . كما أن «الجنرال چيرار بدأ يغضب (...) لأن (اثنين من العلماء) كانا يبديان اهتماما واضحا بالآثار القديمة ، مما يتنافى مع تخصصهما كمهندسين للأشغال تحت إمرته من أجل عمل محدد» . والمفهوم طبعا ، أن عملهما كان أساسا لمصلحة الجيش ، بينما كان للعلماء ، كما يكتب أحدهم ، هدف آخر عند سفرهم إلى مصر : « كنا نشعر ببعض الغبطة كلما فكرنا أننا سننقل إلى وطننا ، كل نتائج العلم القديم للمصريين . كنا سنحاول القيام بغزوة حقيقية باسم الفنون. كنا سنعطى أخيرا ، ولأول مرة ، فكرة حقيقية وكاملة عن الآثار التى لم يتحدث عنها الرحالة القدامى والمعاصرون إلا بصورة غير مرضية » . وبناء عليه ، فكلما مروا على أثر ، حفروا عليه كلمة : « الفرنسيون منتصرون فى كل مكان » . لكن الجيش كان لا يحبذ وجود هؤلاء العلماء معه ، مما جعل أحد أهم أعضاء الفريق العلمى ، وهو «چوافرا سان - هيلار» يكتب قائلا : « إن علماء القاهرة البائسين أُخذوا إلى مصر حتى تقرأ فى تاريخ بونابرت جملة مديح

أخرى ، ويُحتفظ بهم الآن حتى لا توجد جملة هجاء فى سيرة «كليبر» (...) فلم تتحسن حالنا منذ رحيل بونابرت (...) مع أننا نستحق الآن احترام مواطنينا أكثر من أى زمن آخر : لقد جمعنا مادة لأجمل عمل يمكن لدولة أن تنجزه (...) ونخشى من غيرة العسكريين . نعم يا صديقى ، إن هذا العمل سيبرر ، فى يوم ما ، للأجيال القادمة ، الطيش الذى أصاب أمتنا حين ألقت بنفسها فى الشرق . سنتباكى على مصير كل هؤلاء الجند الشجعان الذين سقطوا فى مصر ، وسيكون وجود مثل هذا العمل الثمين هو العزاء الوحيد . سيجئ العصر الذى نرى فيه هذا الجيش ، نفسه، الذى لا هم له إلا تلطيخ وجهنا ، يتشرف بأنه رآنا وعرفنا ، فلننتظر ونعرف كيف نتعذب هنا بصبر» . نبوءة صادقة ، إذ نرى فيما بعد كيف أن «كليبر» قرر أن يتبنى مشروع نشر ذلك العمل ، وهو كتاب «وصف مصر» حتى يخفى به هزيمة الحملة وفشل أهدافها كلها . وأصبح هذا الكتاب هو الإنجاز الملموس الوحيد الذى تفخر به فرنسا بعد فشل الحملة .

ومن خلال التفاصيل التى يرويها «ليجران» ، نعرف أن الضابط المهندس «بوشار » كان «يقيم تحصينات طابية سان – چوليان» عندما اصطدم بحجر رشيد ، بالمصادفة البحتة .

ويصور لنا «ليجران» ، أيضا ، حياة هؤلاء العلماء، الذين أنشأوا «مسرحا للهواة ، وقاعات للتدريب بالسلاح ، ومحلا (ترفيهيا) . لقد أنشئ ، وفي زمن وجيز، حي فرنسي كامل، ولم تكن هناك علاقة بين ذلك الحي والحي الوطني ، كما هي الحال اليوم » .

« وكانت صعوبة اللغة العربية أهم ما يمنع العلماء الفضوليين من الاختلاط (بالناس) ، ولكنهم تعلموا ، رويدا رويدا ، لغة اصطلاحية تسهل معرفتها وهي التي يستخدمها الأوربيون حتى يومنا هذا وتعتبر بالنسبة للعربية السليمة مثل لغة الزنوج الفرنسية مقارنة باللغة الفرنسية القح ، وقد اكتفت بها الغالبية العظمى من العلماء» . لغة تكفي الحياة اليومية ومتطلباتها .. وهل كانوا يحتاجون إلى أكثر من ذلك ؟ لذا اكتفوا بها ؛ ثم إننا لن نسمع أن لقاء فكريا أو حوارا سياسيا دار بين أحدهم والمصريين .. وهل كانوا في مصر من أجل ذلك ؟

ونظرا لأن هذا الموضوع محدود ولا يحتمل الكثير ، فإن «ليجران» ينهي - باقتضاب شديد - هذا الفصل بالأسطر التالية : « كان تأثير المعهد (الفرنسي) كبيرا جدا على مصر ، فقد أعدت فيه - المستقبل - كل الإنجازات والمشروعات الكبرى، وكان كل فرد فيه يكن حبا عميقا للعلم ، ولا يتهاون في مجهوداته، لكن هذه الجمعية الشهيرة لقيت ، بعد ذلك، مصير الحملة نفسه .وبعدما عادت إلى فرنسا ، أخذت تجتمع في

باريس ، ونشرت أبحاثها من العام الثامن من الثورة (١٧٩٩ - ١٨٠٠) ، إلى العام الحادى عشر منها (١٨٠٢ - ١٨٠٣) ، وقد حل محلها ، بعد ذلك ، كتاب « وصف مصر الكبير ». وانتهى تاريخ المعهد الفرنسى .

لا يقول «ليجران» إن ثورة القاهرة قامت بإيماز من الخارج بل على العكس من ذلك ، فهو يقول : « كان سكان القاهرة ناقمين على المهندسين ، مجندين ومدنيين ، لأنهم أرادوا بناء حصون حول المدينة ، كما كانوا يمرون على الأحياء ليسجلوا المنازل والسكان ، من أجل فرض ضريبة الأملاك» ؛ لذا كان بيت العلماء أول مكان هجم عليه الثوار. ويصف لنا «ليجران» كيف دافع العلماء عن أنفسهم بشجاعة مع أن كثيرا منهم كان يمسك البندقية لأول مرة فى حياته. ونعرف من خلال وصفه للثورة أن أحد الشوارع الرئيسية «كان اسمه شارع ديپتى - توار، وهو الذى مات ميتة مجيدة فى أبو قير ..»، ونذكر هنا أنه على الرغم من قيام الثورة بعد شهرين فقط من وصول الفرنسيين ، إلا أن أسماء الشوارع كانت قد تحولت إلى أسماء شهدائهم .

أما عن فتح قناة تربط بين البحرين الأبيض والأحمر ، فإن المؤرخ يحكى التاريخ الطويل لهذه الفكرة ، منذ أن كانت هناك قنوات اتصال مع البحر الأحمر عند الفراعنة ، و «استطاع (عمرو بن العاص) أن

يعيد ذلك الاتصال في أقل من سنة ، مما جعل بونابرت يفكر في محاكاته ، بعد آخرين كثيرين» ، وقد شجعت حكومة «الإدارة»، المشروع، فحث بونابرت المهندس المسئول على السير في هذه الطريق قائلا : « انشر بحثا في هذا الأمر ، واجبر الحكومة التركية على إيجاد مصلحتها وعظمتها في مثل هذا المشروع » : كلام يؤكد للمؤرخ أن بونابرت كان لا يؤمن بالفكرة ، خاصة أنه كان على وشك العودة إلى فرنسا ، ولم يترك لخليفته «كليبر» أى توجيهات فى هذا الشأن .

ومن الاعترافات الضمنية لهذا الجزء من كتابنا اعتراف كاتبه بأن صعيد مصر لم يكن فى قبضة الفرنسيين كما كان يدعى الكثيرون ، وأولهم شريكه فى تأليف الكتاب «چان ميز» ، فهو يصف الظروف الصعبة التي عمل فيها العلماء ، و «دينون» مع حملة «ديسى» على الصعيد : « وهم يحاربون فى كل خطوة» ، ويعرض علينا نصوص الكتابات التى نقشت على الآثار . ويحكى «ليجران» كيف انبهر الجميع، جندا وعلماء ، بجمال تلك الآثار ، فتحمس «ديسى» لها ، وكتب لبونابرت حتى يتم نقل المسلات إلى باريس .

وفى الجزء الأخير من الكتاب - الفصل السابع عشر تحديدا- نتعرف على ما عانى منه العلماء حتى لحظة رحيلهم ، من معاملة سيئة ، حتى من «مينو» القائد العام آنذاك : عندما استعد العلماء للرحيل،

ومعهم صناديق بها ثمرة أبحاثهم ، «ظن الجند أن هذه الصناديق الثقيلة تحوى كنوزا ، فقرروا نهبها ليلا ، وعلى الرغم من مجهودات العلماء إلا أن الجنود استطاعوا سرقة أحدها ، وعندما كسروه ، لم يجدوا به إلا عينات من معادن سيناء، فاستشاطوا غيظا وألقوها كلها بعيدا . عندئذ ، وصل (أحد الضباط) فجعل العلماء وأمتعتهم تحت حمايته (....) ، وأوصلهم سالمين إلى الإسكندرية » . أصر «مينو» – بعد ذلك – على الاستيلاء على ما جمعوه كله ، « ورفض العلماء بشدة، ولكن المهندسين اضطروا إلى ترك رسومهم وأبحاثهم ، وصار على كل منهم أن يكتب تعهدا بأنه لم يأخذ معه شيئا يفيد الموقف السياسى أو الحربى لمصر » .

وينهى «ليجران» الجزء الخاص به بقوله : « وجاء بعد علماء الحملة ، آخرون ، لا يقلون عنهم شهرة ، أعطوا لمصر أحسن ما لديهم من علم ، وأصفى ما فى قلوبهم . إنهم جند مثل الكولونيل سيف (سليمان باشا) وأطباء مثل كلوت وغيرهم كثير » .

«لابد للمؤرخ أن يقوم بدراسة مستفيضة لهؤلاء كلهم، ليعرفنا بالمتممين المحترمين لزملاء بونابرت » : نتعرف هنا على الوجه الآخر لملحمة الجيش الفرنسى فى مصر، إنها أسطورة علماء الحملة الذين حضروا إلى مصر وتأثيرهم عليها فنحن نجد أن بعضا ممن خدم محمد

على من الفرنسيين ، بعد مرور أكثر من ربع قرن على الحملة ، قد صُوروا كما لو كانوا جزءا من تلك الأسطورة ، لكن الواقع ، الذى يؤيده نص «ليجران» نفسه ، يؤكد عدم وجود أى ارتباط بينهما . فنجد ، من ناحية ، مرتزقة أجبرتهم ظروفهم الخاصة ، وظروف بلدهم ، على خدمة مصر ولحساب واليها ، وعلى الناحية الأخرى ، نجد علماء جاءوا مع حملة لم تدم أكثر من سنوات ثلاث وشهرين، لينقلوا إلى فرنسا ثمرة أبحاثهم . فلماذا يطمس هذا الفارق الجوهرى فى ظروف كل من الفريقين ، اللذين عملا لأهداف ، هى ؛ فى الواقع ، متناقضة ؟

فى الجزء الأول من كتاب « ميز وليجران» ، نرى نموذجا للأسلوب الساذج فى انبهاره البدائى المتطرف ، الذى كان يكتب به مناصرو انتشار الاستعمار فى الدولِ التى لا تستطيع منافسة القوة العسكرية الحديثة للجيش الفرنسى . وكان هذا النوع من الكتب ، يساعد المواطن الفرنسى على محو ذاكرة الهزيمة النكراء أمام البروسيين فى حرب ١٨٧٠ . وكان التمجيد المستمر لكل ما يقوم به الجند الفرنسيون ، يصور وكأنه أفعال بطولية وشريفة ؛ ناهيك عن كونهم جند «نابليون العظيم» ، قاهر أوربا كلها .

وقد استمر هذا الأسلوب الشوفينى - الساذج المنبهر - حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، والتى كان من أهم أسبابها ، الانتقام من

الامبراطورية الألمانية، حيث إنها كانت قد أذلت فرنسا فى عام ١٨٧٠ ، حتى أن تتويج « غليوم الأول» امبراطور ألمانيا الموحدة أخيرا ، تم فى قصر «ڤرساى» الشهير فى فرنسا .

وعلى الرغم من الانبهار المستمر بالحملة وجيشها الرائع ، إلا أن الرؤية بدأت تتحول ببطء ، على مر السنين .

والنموذج الذى نقدمه الآن كدليل على ذلك التطور ، هو كتاب «باستر» : «بونابرت فى مصر» ، المنشور سنة ١٩٣٢ (٩٥) .

بدأ المؤرخ بالاعتراف بحقائق لم يعد من الممكن تجاهلها وإن كانت الأسطورة لاتزال أقوى من أى تفكير علمى، لأن الفكر الاستعمارى لايزال سائدا. فالرؤية التى تحاول أن تكون موضوعية ، تصل فى النهاية ، إلى نتائج غريبة متناقضة ؛ لأن المؤرخ المزعوم لم ينتهج الموضوعية فى تقييمه للأطراف والمواقف ، كما سنرى .

فيقول «باستر» ، مثلا : «كان كل من يقود هذه الحمَلة من الشباب ؛ وربما كان هذا سبب قيامها بأعمال رائعة» .

وللقارئ أن يعجب لذكر تلك «الأعمال الرائعة» بهذه الصورة المبهمة، خاصة عندما يصل إلى نهاية الكتاب ، وما انتهى اليه المؤلف ذاته من نتائج فى تقييمه النهائى لأعمال الحملة .

بادئ ذى بدء ، فإن «باستر» لا يبرئ نابليون من عيوبه ، فهو يذكرنا مثلا أن «بونابرت قرر ، أيضا ، أن يصطحب معه شاعرا لينشد أمجاده بلغة الآلهة ... » ، أى أن مجد بونابرت الشخصى كان له الاهتمام الأول فى استعداده للحملة على مصر . ونرى كذلك أن مؤلفنا يقيم احتلال بونابرت لجزيرة مالطة بأسلوب مزدوج : «لقد رفع بونابرت عادة النهب إلى مستوى المؤسسة ، مثلما فعل يوليوس قيصر من قبل» ، فإن كان بونابرت ناهبا ، فهذا لا يقلل من شأنه ، إذ إن يوليوس قيصر كان يفعل ذلك من قبل ! كما سنلاحظ أيضا تحامل «باستر» على المسلمين ، فهو يكرر ، مثل غالبية المؤرخين الاستعماريين ، الأفكار المسبقة التى يحملها كل من تعامل مع المستعفرات الإسلامية، نراه يقول ، مثلا : «ولكن (السيد) كريم ، مثله فى ذلك مثل كل مسلم ، كان يكّن الكراهية للمسيحيين» ، وهكذا تحول من تاجر إلى محارب . ولم يخطر ببال مؤلفنا لحظة واحدة ، أن «المسيحيين » الممثلين فى جيش بونابرت ، ذهبوا إلى السيد كريم غازين. وتعبيراته فى وصف «الهجوم الخاطف» المنتصر على الإسكندرية ، تفضح وجهة نظرة تلك ، حيث نراه يقول معقبا : «كما كان يحدث أيام الحروب الصليبية» . فذكرى الماضى تهيمن كلية على تفكيره ، وهو لا ينكر الفظائع التى ارتكبها الجيش الفرنسى ، معترفا بالواقع المرير : «ولكن ذهب رجال ونساء وشيوخ

وحتى أطفال إلى أحد المساجد حيث ذبحهم جنودنا لأنهم كانوا في حالة من العنف الجنونى الذى عادة ما ينتاب الجند عند الهجوم» ، كيف لا نسامح هذه الفعلة الشنعاء ونتفهمها إذن ، مادامت تلك «عادة الجند عند الهجوم» ، خاصة أن بونابرت قد «أصدر أوامر صارمة ، (....) فمن لم يحترم السكان أو من يهين ديانتهم ، أو يسخر من عاداتهم ، أو ينهب ، أو يقصر فى احترام نسائهم ، سيعدم على الفور رميا بالرصاص» . وبما أن أوامر بونابرت كانت ، ولابد ، مطاعة ، يكون انطباع القارئ ، إذن ، أن هذا ما كان يحدث بالفعل ، خاصة أن المؤرخ لم يعرض علينا حدثا واحدا ، خرج فيه الجند على طاعة تلك الأوامر. فلا مناص للقارئ إذن من أن يجل مثل هذا القائد وجيشه فهما اللذان صانا شعبا وفدا ليه ، بكل هذا الاحترام .

و«باستر» معجب جدا بعبقرية بونابرت السياسية ؛ ألم يقل للمصريين « بسخرية مترفعة : نحن، الفرنسيين ، مسلمون بحق .. » ؟ وهذه «السخرية المترفعة» تعليق من المؤلف ، فإن شرح مؤرخنا شيئا ، فهو لا يشرح عقلية بونابرت ، بقدر ما يشرح رؤيته هو للجمهور المصرى الذى استمع إلى كلام بونابرت . ويتأكد هذا الانطباع ، عندما نقرأ ما قاله مؤلفنا بعد ذلك : «والنتيجة أن المشايخ والعلماء تعهدوا فى الرابع من يوليو ، أن يؤثروا على الجماهير لصالح بونابرت ، لأنهم قد

اقتنعوا بقول بونابرت بأن «الفرنسيين مسلمون بحق..» . وتتوالى أدلة انبهار المصريين بالمستعمر الجديد ، لأن بونابرت ، مثلا «فكر أن يدخل إلى مصر طواحين الهواء ، وهو ما فعله العلماء (الفرنسيون) فيما بعد ، فكان سبب انبهار الشعوب» . كما أن بونابرت «أطلق منطادا» ولابد أنه أذهل الجمهور المسلم ، ولكن «باستر» لم يقل الحقيقة الكاملة ، وهى أن المنطاد سرعان ما سقط فكانت الكارثة والسخرية كما قال الجبرتى حين قدم وصفا ساخرا للحادث ، ولكن باستر لم يقرأ حتى ترجمة الجبرتى.

ويستمر «باستر» قائلا :

« إن بونابرت استطاع أن يكتسب المشايخ : أغدق عليهم « البقشيش » السخى بكرم شديد حتى أن هذه الشخصيات الكبيرة التقية ، وجهت إلى المصريين بيانا بما كان يريده بونابرت ، قائلين : الجنرال الجمهورى يحترم محمدا ، إنه رسول الله ولابد من الخضوع للقدر ولسيد الساعة . ولكن الازدواجية الشرقية ، تعادلت هنا مع الدهاء الكورسيكى (لبونابرت) ، ففى الوقت ذاته ، كانت شرطة بونابرت المتميزة ، تجهل أن هؤلاء المتدينين ، أنفسهم ، يرسلون سرا إلى السلطان (العثمانى) رسائل ، يتوسلون فيها إليه أن ينظم جيوشا تنجد مصر فى أسرع وقت ، لأن مغامرا كان قد استولى عليها » . وعلى الرغم من اعتراف مؤلفنا بهذه الحقيقة

التاريخية ، التى تؤكد فشل بونابرت فى كسب ود المصريين ، ومن ثم ، فشل «سياسة البقشيش» ، إلا أننا نراه يكتب قائلا : «ولكن بونابرت قد اكتسب دون أدنى شك ، وبسرعة فائقة ، هيبة كبيرة جدا ، كبيرة لدرجة أن الفلاحين المصريين ، وبعد مرور مائة وثلاثة وثلاثين عاما ، مازالوا يتحدثون عنه فى سهراتهم» . ولم نعرف ماذا يقول هؤلاء الفلاحون فى تلك السهرات ، بل ولا من أين عرف مؤلفنا هذه المعلومة غير الموثقة . ويتكرر الأمر فيما يخص حملة الجنرال «ديسى» فى الصعيد : «وبعد مرور مائة وثلاثين سنة ، لا ينسى سكان مصر العليا مروره» . ومرة أخرى ، لا يقول ما الذى يذكره «سكان مصر العليا عن مروره» . وفى الحالتين كلتيهما ، فالأسلوب يوحى بأن ما يقال ، ينم عن الانبهار والحب .

ويستمر الكتاب فى عرض الحقائق التى لم يعد من الممكن إغفالها ، ولكن بطريقة غريبة لا تدل إلا على شئ واحد ، وهو الرغبة الجامحة للمؤرخ فى تأكيد عكس ما يقدمه من وقائع . فمثلا نراه يقول : على الرغم من أن مصر قد كسبت الكثير من السيطرة الفرنسية ، إلا أن بونابرت كان يدرك أنه لن يغزو قلوب المسلمين ، وأن حائطا لا يمكن كسره كان يفصل بين المسيحيين ، حتى إن كانوا غير مؤمنين ، كما كان جنده ، وبين الكفرة . و«الكفرة» هنا هو الاسم الدارج للمسلمين

عند كثير من الكتاب الفرنسيين . والقارئ الموضوعي المنطقي ، لا يسعه إلا ملاحظة أن ما كسبته مصر من السيطرة الفرنسية ، كلام عام لا يؤيده مرجع أو حتى مثل واحد في كتاب «باستر» هذا .

و«فجأة ، من الحادى والعشرين إلى الثالث والعشرين من أكتوبر ، انفجرت ثورة في شوارع القاهرة . وبونابرت ، الذى لم تنجح ودأعته ، أثبت سلطته المعتادة ، (...) . فقد فهم نابليون بونابرت أن نظريات القرن الثامن عشر الفلسفية والإنسانية ، لم يكن لها مجال تطبيق فى الشرق» : هكذا كان الأمر إذن : بونابرت ، تلميذ إنسانية التنوير الذى جاء ليطبقها فى مصر ، فهم أن البلد دون هذا المستوى ، ولا يصلح معه الأسلوب الإنسانى لفلسفة القرن الثامن عشر . إن كان بونابرت قد جار وهو فى مصر ، فالذنب ليس ذنبه ، بل ذنب الشعب المصرى الذى لم يفهم ، ولم يحترم إنسانية الجيش الغازى . حقيقة مرة ، خاصة أن التأثير الفرنسى الرائع كان سريعا فى تحضير القاهرة : «أصبحت القاهرة ، بعد بضعة أسابيع (من دخول الفرنسيين) ، عاصمة أوربية كبيرة ، واحة للحضارة الغربية ... وأراد بونابرت أن يدهش المدينة بأحد احتفالاته العسكرية التى برع فى تنظيمها . وقد أنشد الشعراء المسلمون فى وصف الاستعراض العسكرى».و«باستر» ، الذى اعترف من قبل أن بونابرت قد أحضر معه من ينشد أمجاده ، لم يفكر لحظة

أن ما حدث فى هذه المرة أيضا ، كان بأمره ، أو تملقا للحاكم المنتصر، الذى يحب التمجيد ، بل وينتظره ممن هم تحت سيطرته . فما بالك بحال المدنيين المهزومين ، والوصوليين منهم بالذات ؟

وأثناء مروره على يافا فى الطريق إلى عكا ، «أصبح بونابرت فى قسوة الغزاة الشرقيين . (فعندما استسلم له الأسرى العثمانيون) ، أمر بإعدامهم على الفور وكان عنده منهم آلاف كثيرة . قد يبرر هذا التصرف مقتل مبعوثنا ، ولكن هذا لا يمنع أن الفعلة كانت شنيعة ، وهى تلقى بغلالة على مجد بونابرت فى مصر» : ولكن ، ألم يقل «باستر» ، فى أول كلامه ، ما يعنى أن تلك «الفعلة الشنيعة» ما كانت تحدث لولا تأثر بونابرت بالشرق ، وأساليب «الغزاة الشرقيين» ؟ وإذا هزمه الشرق أمام عكا ، قال : «لم تستطع عبقرية بونابرت شيئا هنا . فقد كان أمام قوة (خارقة) من الطبيعة» . وهذا يعنى أن الذنب ، مرة أخرى ، ليس ذنب بونابرت ... وأن هزيمته تلك لم تكن تقصيرا منه ، ولا ترجع حتى لبطولة أهل عكا ، فى الدفاع عن أنفسهم ووطنهم .

وما دام «باستر» قد اقتنع بأن إعدام الأسرى فى يافا كان «فعلة شنيعة» ، فلماذا إذن لم يتفهم تأثير مثل تلك الجريمة على نفسية جنود آخرين يوقنون أنهم لن يلقوا إلا الموت على يدى بونابرت ، إذا هم استسلموا ، فيكون رد فعلهم ، من ثم ، المقاومة البطولية المستميتة ؟

وعندما فشل حصار عكا ، نراه يقول : «ومن جهة أخرى ، لم يعد لدى بونابرت أى وهم (عن حقيقة الموقف) ، فسياسته الإسلامية قد فشلت تماما . فعلى الرغم من انتصاراته ، وهيبته التى أصبحت أسطورية ، كان بونابرت ، بالنسبة للمسلمين ، لا يزال يلقب بالكافر ، الجدير بالجحيم ، وبالكلب ابن الكلب» ، فذنب بونابرت الوحيد ، أثناء وجوده فى الشرق ، أنه مسيحى : هكذا يرى «باستر» السبب فى فشل الحملة .

فالمسألة عنده ، إذن ، تكاد تكون حربا صليبية جديدة ، إذ إنه يقول عن أحد انتصارات الجيش الفرنسى فى الشام : «ستة آلاف فرنسى هزموا سبعة وعشرين ألف تركى ! وفى هذا المكان نفسه ، فى الخامس من يوليو سنة ١١٨٧ ، هزم المسلمون جى دى لوزينان ! يا له من ثأر !» . ولنتذكر القارئ الكريم أن هذا الكلام كتب عام ١٩٣٢ ، أى بعد أكثر من سبعة قرون من الزمن . وهذه الروح قد تكشف مدى موضوعية مؤرخنا الجزئية عند الحديث عن بونابرت ، الذى لم يكن يحارب من أجل مجد المسيحية . فبعد عودته من الشام : «كان بونابرت يلجأ لوسيلة بسيطة ليشرح فشله لحكومة الإدارة ، فهو لا يتحدث إلا عن انتصاراته ، وقال إن عكا كانت فى قبضته ، وكان فى استطاعته احتلالها بقواته ، لولا أنها كانت تعانى من الطاعون ! وأنه

تنـازل عن احتـلالها خـوفا على جيشـه من العدوى ، وليس لأى سبب آخر» .

وبينما كان بونابرت أمام عكا ، كانت الأحداث فى مصر تتشكل فى هذه الهيئة التى يتحدث عنها «باستر» : «ففى حين كان ديسى يعيد السلام إلى مصر العليا (...) كلفتنا ثورات الأمير «هادج» (حاج) بعض الصعوبات التى سرعان ما أزيلت . إن العصابات المسلمة غير المنضبطة ، لم تستطع أن تصمد أمام سناكى مشاتنا أو سيوف فرساننا . ومع ذلك ، فالأمير «هادج» تسبب فى مضايقتنا بسبب تحركاته السريعة» . ونحن نعجب هنا لحنكة الأسلوب وخبثه ، ونلاحظ طبعا استعمال كلمة «مضايقات» للتقليل من شأن ما تكبده الجيش الفرنسى من خسائر نتيجة مقاومة أهل الصعيد ، وكذلك بسبب ثورة الدلتا التى انتشرت كالنار فى الهشيم : «كانت الدلتا كلها تقريبا فى حالة ثورة . كان أحد المتعصبين ، وهو مهووس أرعن من النوع الذى يفرزه الإسلام دائما ، يمر على الأقاليم مؤكدا أنه مرسل من الله ، يحمس السكان ليأخذوا السلاح ، ويحثهم على الانقضاض على الفرنسيين . كانوا يسمونه «الملاك المُهدى» . وكان يدّعى أنه نزل من السماء على فرس اسمه «البورق» (...) واتبعه بضعة آلاف من المتعصبين المتطرفين ، وقد هجموا على دمنهور ، واستولوا عليها وقتلوا

حاميتها الصغيرة» : هكذا ، «فالحامية صغيرة» ، ولذا هزمت ، والثوار كانوا من المتطرفين الذين لا يؤمنون إلا بالخزعبلات ، فأصبحت محاربتهم حقا ، وثورتهم تخلفا وجهلا . كان هذا هو عدو الفرنسيين فى مصر ، فى حين كان بونابرت ، فى عكا ، يثأر لهزيمة الصليبيين فى القرن الثانى عشر فى بلاد الشام . ولم يعرفنا «باستر» بما صارت عليه دمنهور بعد تلك الأحداث ...

«باختصار ، كان بونابرت يفعل المستحيل حتى يرفع من هيبته التى اهتزت لفشله أمام عكا . كان يمجد انتصاره فى جبل طابور (بالأرض المقدسة) (...)» .

«وفى الوقت نفسه ، أخذ يحتفل فى القاهرة بانتصارات جيش سوريا فى احتفالات رائعة (...)» .

«كان مجدا لا حد له ... وكان ، أيضا ، فشلا دمويا ...» .

هكذا صور لنا «باستر» الحملة فى مصر والشام . فما الذى استخلصه من هذا التاريخ العاصف ؟

«ما الذى تبقى من كل هذا المجهود الجبار ، وهذا الفيض من العبقرية والقوة ؟ ، ما الذى تبقى من الحملة على مصر وهذا الحظ المدهش والسلطة الكاملة لبونابرت ، «سيد النار» ، «السلطان الكبير» كما كان يقول المسلمون ؟ لم يبق شئ ، غير المجد والزخارف

على الأثاث ، فلولا غزو مصر ، لما وجد «النمط الأمبير» (الامبراطورى) (...) ولكن لم يكن كل شئ فانيا فى هذه الحملة الهائلة . كل هؤلاء الأناس الطيبين لم يقتلوا ولم يموتوا بالطاعون هباء . فحيث فشل الجيش ، نجح المعهد (الفرنسى بالقاهرة) نجاحا يفوق أى توقع . فعلماؤنا ، ومثقفونا ، وفنانونا ، فتحوا للعالم كنز الآثار المصرية . وبعد قليل ، سيفك «شامبليون» رموز اللغة الهيروغليفية . لقد اكتسحت العبقرية الفرنسية ضفاف النيل . فمنذ هذا اليوم ، أصبحت لغتنا هى لغة كل من كان له شأن فى مصر . وأصبح كل مثقف مصرى ينظر نحو فرنسا ، (...) إن المصريين لا يحتملون الإنجليز ، ولكن كانوا سيستقبلوننا بتسامح ودى ، فقد فعل الزمن فعلته ، لقد نسيت قرارات بونابرت التى اتسمت ببعض الشدة ، ولم يعد أحد يذكر إلا المحاسن الإدارية ، وانتصاراته المبهرة . فكل المثقفين المصريين يشكرون ، فى صميم قلوبهم ، الكورسيكى الكبير الذى خلص مصر من عبء المماليك . ثم بقى المجد ، فشبح الجنرال الشاب على حصانه الأبيض المعروف ، لا يفترق عن القاهرة والأهرامات . كل من يعيش فى مصر وكل من يمر عليها ، يظن دائما أنه سيرى ، عند ناصية الشارع ، منتصر «أبو قير» متوجا ببريق السناكى» : حديث غريب ، وكأن مؤرخنا يكتب بعد خروج الحملة

ببضع سنوات ، وكأن العقود التي مرت على مصر والعالم ، لم تغير شيئا منذ عام ١٨٠١ . والسبب لا علاقة له ، طبعا ، بالتاريخ العلمى الأمين ، لأن «باستر» ، مثله فى ذلك مثل كثير من المفكرين الفرنسيين - منذ عام ١٩٣٢ ... وحتى يومنا هذا ! - لا يزال يأسف على عدم اشتراك فرنسا فى غزو مصر وضرب الإسكندرية فى عام ١٨٨١ . وضاعت «ثورة الدلتا» ، و«سلام مصر العليا» ، وجرائم بونابرت كلها فى طى النسيان لأن «باستر» يريد ذلك ، كما يريد أن تكون نهاية المماليك على يد بونابرت وليست على يد محمد على . فهو فى التحليل الأخير ، لم يقدم لنا من محاسن الحملة إلا عبقرية «شامبليون» ، علما بأن علماء إنجليز وفرنسيين ، فكوا رموز اللغة الأكادية القديمة ، فى العصر نفسه ، ودون أن يحتاجوا إلى حملة عسكرية تساعدهم فى دراستهم العلمية ، إن كانت الحملة قد أفادت «شامبليون» حقا .



إن ما توصل إليه «باستر» من نتائج ، وتعليقه عليها ، يثبت لنا أن تأريخه لم يكن بريئا ، فهو يريد أن يثبت بشتى الطرق أن الحملة لم تكن فاشلة من جميع النواحى . والغريب هنا أنه ، هو نفسه ، قد اعترف بذلك فى سياق الحديث ، ملاحظا أن «الزخارف على الأثاث»

هى الحقيقة الوحيدة التى نتجت عن الحملة . ولو أضفنا إلى هذا الرصيد الساخر الهزيل ، دراسات «شامبليون» ، كان علينا أن نسجل أن الفضل فيها لا يرجع إلى الحملة فى ذاتها ، ولكن إلى اكتشاف حجر رشيد ، بالمصادفة البحتة ، والذى كان سيكتشف إن عاجلا أو آجلا ، خاصة أن فك رموز اللغة الآشورية لم يرجع إلى «اكتشاف حجر آشورى» بالذات .

إن حصاد الحملة ، وعلى حد قول «باستر» نفسه ، كان هزيلا . أما أن الفرنسيين كانوا سيُستقبلون فى مصر سنة ١٨٨٢ بالأحضان لأجل بونابرت ، على عكس ما حدث للإنجليز المحتلين ، فما هذا إلا تهويم شوفينى ليست له قيمة علمية ، أو حتى إنسانية . فمنذ متى تستقبل الأمم – مهما ضعف شأنها – غزاتها «بتسامح ودى» كما يحلم «باستر» ؟

إن مثل هذا التأريخ – والأمثلة كثيرة مع الأسف الشديد – يجبر أى دراس على قراءة غير بريئة لكتابات مؤرخين أثبتوا أنهم ، قبل كل شىء ، أصحاب هوى وغرض ، وإلا ، لم طُمس كل تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر ، ودور اسماعيل باشا فى إعادة العلاقات الودية مع فرنسا ، وبالتالى ، تحولُ بعض مثقفينا إلى فرنسا ؟

إن كتاب «باستر» ليس الوحيد من نوعه ، وسنجد الكلام نفسه فى كتب أخرى ، من أشهرها كتاب «بينوا – ميشان» الذى سنعرض له فى الصفحات التالية .

★★★

« بينوا – ميشان » : «بونابرت فى مصر أو الحلم الذى لم يتحقق »

كتب المؤرخ «إميل بورچوا» ، فى عام ١٩٠٠ ، أن : «سر سياسة الإمبراطور (نابليون) يكمن فى طرقات المشرق ، فى الافتتان الذى جذبه إلى الشرق » . وفى عام ١٩٦٦ ، كتب « بينوا – ميشان » عن « بونابرت فى مصر أو الحلم الذى لم يتحقق » [٩٦] كتابا يرتفع بهذه الفكرة إلى مستوى النظرية ، ليشرح أن حياة نابليون ، السياسية الحربية ، كلها ، ما كانت إلا من أجل تحقيق هذا الحلم .

ويبدأ مؤرخنا بإشارة «تاليران» إلى ضرورة غزو مصر قائلا : «كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، ويجب أن تصبح كذلك بالنسبة للجمهورية الفرنسية» .

«غزو الرومان كان سبب انهيار هذا البلد الجميل ، وفتح الفرنسيين سيكون سبب رخائه» .

«سرق الرومان مصر من ملوك اشتهروا بالآداب والفنون (...) وسيسلبها الفرنسيون من أبشع طغاة عرفهم التاريخ...» . وأسلوب مؤرخنا يدل على تعاطف كبير مع تلك الأفكار، ولذا، نراه يبرز فقرة فى قرار حكومة «الإدارة» بفتح مصر، تشير إلى أهمية «تحسين أحوال أهل البلد بكل الوسائل المتاحة..» . ولذا، سيبرهن لنا «بينوار - ميشان» حسن نية بونابرت عند غزوه مصر، واتجاه سياسته من هذا المنطلق.

عندما استولي بونابرت على جزيرة مالطة، «حرر كل المسلمين المحكوم عليهم بالأشغال، وكانوا حوالي السبعمائة (...) توصل إلى فكرة إعادتهم إلى مصر، واعتبارهم «روادا» فى المدن والواحات، للإعلان عن قوته وسماحته في كل مكان، وحتى يخبروا إخوانهم فى الدين أن الجيش الفرنسى هو مقدمة الحرية» . ثم نقرأ البيان الذى يقول فيه بونابرت لجنده، على السفن المتجهة إلى مصر، إن «الشعوب التى سنذهب إليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا، ولكن المغتصب يعتبر وحشا فى كل البلاد».

«السلب لن يثرى إلا القليل، ولكنه وصمة لشرفنا، وتدمير لمواردنا، ويحولنا إلى أعداء لشعوب، من مصلحتنا أن تكن لنا الصداقة...»، وعلينا أن نفهم، طبعا، أن الجيش التزم بهذه التوجيهات (!) . وعندما ترك بونابرت الإسكندرية، أكد فى تعليماته «لكليبر» قائد المنطقة،

«ضرورة تأكيد العلاقات الطيبة مع الجمهور المسلم : ... أحرم على كل فرنسى، سواء كان جنديا أم غير جندى، أن يدخل المساجد كما سبق (...)، وستؤكد للجيش أوامرى الخاصة بالاغتصاب والنهب ...» .

ويقول المؤرخ بأنه بعد «معركة الأهرامات (...) وُجد أربعون مدفعا تركيا مثبتة على الحوامل فى أرض المعركة»، مما يدل، من جهة، على أن المماليك كانوا يستعملون المدافع، ويوحى من جهة أخرى، بأنها لم تستعمل فى المعركة.

ثم يكون اللقاء مع المشايخ، فى القاهرة بعد فتحها: بدا عليهم الذهول عند رؤية القائد الشاب النحيف : « صدمهم فى أول الأمر أسلوبه الفظ، وتشنج يده على مقبض سيفه، واستقباله لهم واقفا، ولكن نظرته وهيئته كان فيهما من السيطرة ما يجبر على الاحترام ؛ فسرعان ما تيقنوا من قوة شخصية هذا الذى سيتعاملون معه».

«استقبلهم بونابرت واحدا تلو الاخر، وقال لكل منهم كلمة ودية . ثم وجه إليهم كلمة قصيرة ليبث فيهم روح الثقة، ولكن، عندما أرادوا الركوع أمامه عند الرحيل، مؤكدين له تفانيهم الأبدى الأكيد، أنهضهم بحركة آمرة، وأفهمهم بصريح العبارة أنه سيحكم عليهم من أفعالهم، وليس من كلامهم؛ فإن انضواءهم السريع لم يبد له صادقا» . ويود القارىء لو عرف مرجعا لهذا الكلام، وإن كان منطقيا ولا تشوبه

تعليقات عنصرية استفزازية، نظرا للموقف الذى وُضع المشايخ فيه أمام المنتصر الغريب، ونظرا لتقاليد العصر . ولكن الفقرة التالية لها مرجعان لاثنين ممن عاشوا أحداث الحملة، يلاحظ أن نظرتهما يشوبها ، من جهة، الكثير من النرجسية، ومن جهة أخرى، سذاجة كبيرة فى تصديق المظاهر، كما أثبتت الأحداث بعد ذلك . ففى «عيد النيل»: «كان الناس يتغنون بمديح النبى والجيش الفرنسى»، «كانوا يقولون: نعم، لقد جئتم لتحررونا بأمر الله الرحيم، فإن النصر كان لكم، ولكم أجمل نيل منذ مائة عام ؛ نعمتان لا يمنحهما إلا الله».

(وهذه العبارة، كما نرى، موجهة إلى الفرنسيين والجيش الفرنسى، على الرغم من أننا قد قرأنا العبارة نفسها موجهة إلى شخص «بونابرت»، فى الصفحات القليلة السابقة، ولنا أن نعجب إذا عرفنا أن مصدر العبارتين واحد، وهو جريدة «الكورييه ديچبت» الفرنسية).

وعندما ذهب بونابرت لتناول العشاء عند الشيخ البكرى، وأخذ المدعوون يرتلون القرآن، «استمع إليهم بونابرت بخشوع عميق، مما كان له أحسن الأثر على الحاضرين كلهم»، إن شاهديه كانوا من قراء الجريدة الفرنسية التى كانت تطبع فى مصر لنشر مثل هذا الكلام...

«وفى الثانى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨، حقق بونابرت أحد أعز مشروعاته وهو إنشاء «المعهد الفرنسى فى مصر» (ويقول القرار) :

«الهدف الأساسى لهذه المؤسسة هو:

أولا: تقدم ونشر التنوير فى مصر.

ثانيا: البحث، ودراسة ونشر العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية لمصر.

ثالثا: إبداء الرأى فى الأمور المختلفة التى ستطلبها منها الحكومة (...).

ويقترح المعهد جائزتين سنويتين: إحداهما، لمسألة تخص تقدم الحضارة فى مصر، والأخرى لمسألة تخص تقدم الصناعة».

كما أمر بونابرت بإنشاء جريدتين، هما «لاديكاد إيچبسيان» ، و«لى كورييه ديچبت». وكان بونابرت «يعرض المشكلات الأساسية للبلد، على العلماء، والتى كان لزاما عليهم حلها ليصبح البلد دولة حديثة. والغريب أنه فعل ذلك ببصيرة نافذة وفهم عام، نستطيع بعدهما أن نؤكد، دون أية مبالغة، أنه ما من مشكلة عرفتها مصر منذ عام ١٨٠٠ حتى يومنا هذا، إلا وأدركها بونابرت ووجد لها حلا (...) لقد أخرت القوى المتضاربة المصريين فى تطورهم، وكان عليهم أن يمروا بمائة وخمسين سنة ليحققوا ما رسمه لهم بونابرت، ومن المؤكد أن تطورهم الحالى كان سيصل إلى الدرجة نفسها، حتى وإن لم يكن بونابرت قد نزل على شاطىء الإسكندرية، ولكنهم كانوا سيصلون إليه بطرق أخرى، وكان

فكرهم سيدمغ ببصمة مختلفة». فبالنسبة لمؤرخنا، الذى يؤكد مضمون كلامه أن مشروعات بونابرت لم تخرج عن حيز الورق الذى كتبت عليه، يرى «بينوا - ميشان» أن تأثير بونابرت مستمر لا مناص من ذلك، وقد فاته أن المشكلات العملية ـ أيا كان من يتعامل معها ـ لها دائما حل واحد، وبونابرت كان يرى، ببصيرته النافذة، ما كان لابد أن يراه أى متعامل ذكى مع المشكلة، كما حدث بعد ذلك، بالفعل، مع محمد على . فلم يكن قضاء «محمد على» على المماليك مثلا، فكرة ابتكرها بونابرت من فراغ، ولكن ذلك كان الوسيلة العملية الوحيدة لإنشاء دولة مركزية حديثة، وهلم جرا. وعلى الرغم من أن «بينوا ـ ميشان» يعترف ضمنيا بهذه الحقيقة، إلا أنه يكابر ويصر على تأكيد تأثير بونابرت على تطور مصر، متناسيا دور إسماعيل باشا.

وكالمعتاد، لن نجد مرجعا واحدا لمساندة ما يقوله المؤرخ عن مشاعر المصريين بعد ذلك . ويتعرض هنا «بينوا ـ ميشان» لما لقيه علماء الحملة من ردود أفعال إيجابية: «فنشاطهم، المركز كلية على العلوم، كان محيرا خاصة أن (الطبقة المسيطرة على البلد) لم تكن تستطيع حتى أن تتخيل، بوضوح ، ما يفعلونه (...)، وقد ظنوا أنهم سحرة، أما الشعب البسيط والفلاحون، فلم يكن هذا رد فعلهم، وغالبا ما يكون السبب فى ذلك، عدم وجود أية تحفظات أو أفكار عدائية مسبقة لديهم . كان

العلماء وطلبة المدارس العليا (٩٧) يزورونهم بطريقة منتظمة، ليلاحظوا أسلوبهم فى الزراعة، وهى التى لم تختلف منذ القدم، ولكنهم كانوا يرشدونهم إلى بعض الطرق العملية التى تسهل عليهم عملهم، فأحبهم الفلاحون، وسرعان ما أظهروا لهم الثقة والتقدير، فكانت الطبقات الأقل تنويرا، كالمعتاد، هى التى تعبر عن تشوقها «للتنوير»، وهى التى مهدت لتقارب الحضارتين» . كلام جميل، ورؤية وردية، لا تساندها حادثة معروفة أو أثر سمع عنه ؛ والدليل أن ما جاء مباشرة بعد هذه الأسطر، يكاد ينفى كل ما سبق أن قرأناه، إذ نجد، بعد آخر جملة ترجمناها، ما يلى : «ولكن الزرع كان لايزال هشا، وكانت مصر مستعمرة عسكريا، وكانت تنحنى تحت وطأة الإجبار، لأنها لا تستطيع غير ذلك، ويقول لنا برتييه : كان كل شىء بالقوة، وما من شىء يتم بالاقتناع......، خاصة أن الساحة امتلأت، بعد معركة «أبوقير» مباشرة، بالعملاء الإنجليز والأتراك، فكانوا يجوبون وادى النيل، ويحاولون حث السكان على الثورة بتذكية تطرفهم الدينى» . ، فالأمر واضح: لولا تدخل القوى الأجنبية المعادية لفرنسا، لما ثار المصريون؛ فهى، من جهة، فكرة تبرىء الفرنسيين من وزر أعمال قد تتسبب فى الثورة ، ومن جهة أخرى، تثبت أنه لولا هذا التدخل، لعاش المصريون فى وئام وسعادة مع الجيش الفرنسى . «وجاءت التعزيزات كثيرة من جوانب مختلفة، وضاعفت

الأسلحة الموزعة عند اللزوم من حماس الجماهير المتطرفة»، على الرغم من اعتراف «برتييه» السابق ذكره .

ويصف «بينوا ـ ميشان» الثورة الأولى للقاهرة وصفا دقيقا، ولولا تسميته المستمرة للثوار «بالمتطرفين الدينيين»، لكان موضوعيا فى تأريخه لها. ولن يذكر «بينوا ـ ميشان» – مثل كل المؤرخين تقريبا – دخول الجند الفرنسيين إلى حرم الأزهر بجيادهم، مما يؤكد عدم إدراكهم لما يعنيه مثل هذا التصرف لجمهور القاهرة وباقى المسلمين، فعلى العكس من ذلك، يقول : «أثبت الجيش الفرنسى قوته، وتأثر بذلك خيال الشعوب، فصوت الرعد المتواصل الذى سمع عندما فتح دومارتين نيران مدفعيته على الأزهر، جعلهم يظنون أن الله مؤيد لقاهر المماليك، وأقنعهم بأن بونابرت يحب القرآن، وأنه كان يقول الحق عندما أعلن عن إرادته فى إسعاد الشعب العربى . وانتشرت فى المدينة والأقاليم، ألف شائعة تقول إن محمدا قد ظهر «للسلطان الكبير» أثناء الفتنة وقال له: شعب القاهرة مجرم، كنت طيبا معه، ولذا، ستنتصر، ستدخل قواتك إلى الأزهر، ولكن عليك أن تحترم الأشياء المقدسة وكتب القانون (الإلهى)، لن أكون معك بعد الآن، إن كنت غير كريم بعد المعركة، ولن تقابل إلا الهزائم ..»

ويقلب القارىء كفيه عجبا لهذا الكلام، فمن أين أتى به مرجع «بينوا ـ ميشان» فهو كلام لم نجده عند أى مؤرخ آخر، إنه يذكرنا بما يقال عن الهنود الحمر، عندما ذهب إليهم الإسبان، وقيل إنهم ظنوا أن آلهتهم تناصر هؤلاء المعتدين.

ويعترف «بينوا ـ ميشان»، بعد هذا الكلام مباشرة، بأن بونابرت قد أجبر على إعادة الديوان، بعد أن أصدر قرارا بإلغائه ردا على عجزه أمام ثورة القاهرة، وذلك لأنه اكتشف أن إلغاءه يحمل مساوىء عديدة . وتؤكد هذه الحادثة أن هذا الديوان لم ينعقد، فى الأساس، لصالح المصريين، بل لصالح حكم بونابرت، فهو لا يستطيع توصيل أوامره دون معاونة القنوات المحلية . ومرة أخرى، نقرأ كلاما غريبا، لا يصدقه إلا من لم يقرأ الجبرتى، وهذا أضعف الإيمان، فمؤرخنا يؤكد ما يلى: «عندما انتشر الخبر وعرف أن بونابرت يعيد لمصر حكومتها الخاصة، بل ويهدى إليها تمثيلا وطنيا، انفجرت مظاهر الفرح فى كل مكان. كان الناس يقبلون بعضهم البعض، ويتبادلون التهانى فى الشوارع، وعندما حل الليل ، عبرت إنارة الطرق التى جرت بطريقة عفوية ، عن الرضا العام . ما من شىء كان يستطيع أن يساعد التقارب المصرى ـ الفرنسى أكثر من ذلك » ؛ وكأننا فى فرنسا، حيث كان «للتمثيل الوطنى» معنى لا يمكن أن يفطن إليه مصريو ذلك العصر، ولكنهم،

قطعا، فرحوا لعودة الديوان الذى انعقد دائما، ومنذ قرون، قبل مجىء الفرنسيين . والكلمات المستعملة تدل على أسلوب مؤرخ «أجنبى» فى الحديث عن شعب غريب عليه، لا يستطيع تخيل عقليته، بل إنه لا يفهم الأمور إلا فى أطر تخصصه هو، ولا يتصور أن يكون فى الوجود غيرها.

ويؤكد «بينوا ـ ميشان» على «الاستقبال الحافل الذى لقيه أعضاء البعثة العلمية من السلطات المحلية، لأن الشعوب بدأت تفهم معنى عملهم ونتائجه»، دون أن يفطن إلى أن هذه البعثات كانت بصحبة جند، سنرى فيما بعد كيف كانوا يعاملون الأهالى . «رعشة فرح كانت تسرى فى وادى النيل كله، كانت مصر تصحو من سبات قرون، وأخذ الشعراء العرب ينشدون أفضال «السلطان الكبير» بتعبيرات لم تفقد حتى يومنا هذا، مذاقها الحلو» . هكذا يرى مؤرخنا الأمور، ليثبت أنه لم يقرأ ـ أو لم يشأ أن يقرأ ـ إلا ما يسعد شوفينية لا تتلاءم مع الموضوعية العلمية المفترضة فيه.

ولكن «بينوا ـ ميشان» مجبر على الاعتراف بأشياء، من البديهى، أنها كانت أكبر من أن تخفى، أو تتجاهل. فهو يقول عن مذبحة يافا البشعة : «كانوا لأول مرة أمام مدينة فتحت، ويستطيعون الانتقام لما لاقاه الكثير من زملائهم أثناء فتنة القاهرة، فزاد عنفهم عشرة أضعاف ما كانوا يشعرون به من غضب، (...) المنازل نهبت ودمرت، والنساء قد

اغتصبن، وذبح الجند المسلمون».. لم تكن هذه «أول مرة» كما سنرى فيما بعد، ولكن كان لهم العذر هنا على ما يبدو، ثم يكون تعليق أحد الفرنسيين الذين شاهدوا ما حدث للأسرى المسلمين من قتل، وهو يستخلص بمرارة (نتائج الجريمة) : «إن هذا المثل سيعلم أعداءنا أنهم لن يستطيعوا بعد الآن الثقة فى الأمانة الفرنسية، وستقع علينا، إن آجلا أو عاجلا، دماء هؤلاء الضحايا الثلاثة آلاف».

ولا نعجب إلا لأمر يبدو لنا منطقيا، ولكن يبدو أن المنطق يختلف من عقلية إلى أخرى، فمؤرخنا لا يربط مطلقا بين هذا الكلام البشع الذى يعترف به موضوعيا، وباقى «*الأحداث الرائعة*» التى يحكى عنها فى وادى النيل ، مع أن بونابرت هو بونابرت، والجند الفرنسيين هنا هم الجند الفرنسيون هناك . نراه مثلا يصدق مظاهر الفرح التى استقبلت عودة بونابرت المنتصر من الحملة على الشام، لأن «بونابرت كان قد أرسل أمامه مبعوثين معهم بيانات الانتصار، حتى تؤثر إيجابيا على الشعب» وعلى الرغم من التناقض الواضح، فإنه يعترف بعد بضع صفحات أن «أعضاء الديوان كانوا يعرفون جيدا أن بونابرت قد هُزم، وهو أيضا كان يعرف ذلك»، فكيف إذن صدق أن مظاهر الفرح لم تكن مفتعلة أو بأمر من بونابرت نفسه كما كان يحدث، وكما يعرف كل دارس متعمق لسياسة بونابرت فى مصر، وفى غير مصر . وكالمعتاد

فى مثل هذه الأمور، فإننا لن نجد مرجعا واحدا يؤيد ما يؤكده المؤرخ الفرنسي من أن «الفرنسيين والمصريين كانوا يتبادلون القبلات والتهانى عند وصول خبر انتصار بونابرت فى معركة «أبوقير» الثانية، لأن نبأ النزول التركى كان قد أشاع الفزع...» . وإمعانا فى التجاهل - أو الجهل - نقرأ بعد ذلك أن «التوافق المصرى - الفرنسى كان على الطريق السليم»، وكأن وادى النيل، من أقصاه إلى أقصاه، لم يكن فى حالة من الثورة والمعارك، وهو الأمر الذى دعا بونابرت إلى العودة من عكا مسرعا.

والغريب أن «بينوا - ميشان» يعترف بذلك، وإن قلل من شأنه، قائلا: «ألم يشجع غيابه نشاط المحرضين الدينيين، وهم دائما على استعداد لاستعمال بلاغتهم لتهييج تطرف الجماهير؟ فعندما سافر إلى سوريا وبمجرد أن أدار ظهره، قامت ثورة أمير الحج، وظهر شخص غريب اسمه المهدى، وكان يسمى نفسه الملاك مهلك المسيحيين ، ليثير القلاقل عند الحدود الليبية، ولكن هذه المحاولات سرعان ما دحرت» . لقد كانت معارك المهدى المذكور فى الدلتا وليست على الحدود الليبية، وقد كلفت الفرنسيين الكثير، وأيا كان الأمر، فهى تثبت أن «التوافق المصرى - الفرنسى (لم يكن) على الطريق السليم». ولكنه التناقض الذى لابد من وجوده إذا ما أصر المؤرخ على الاعتراف بالأحداث

الحقيقية، وهو ينشد ـ فى الوقت نفسه ـ أفكارا ذاتية لا تمت إلى الواقع بصلة . ويحاول مؤرخنا أن يضع قليلا من المنطق فى كلامه، من خلال ما يظنه قد مر بذهن بونابرت، إنه يقول: «فى مايو ١٧٩٨، سافر بونابرت إلى مصر التى لا يعرفها، والتى وصفها كثير من الرحالة على أنها مكان ساحر، حيث ينمو كل شىء بوفرة، وحيث السكان الذين يتطلعون إلى استقباله بأذرع مفتوحة. منذ ذلك الوقت، عرف كيف كانت مصر الحقيقية، فقد جاءت معلومات مادية تحل محل اندفاع الخيال. اكتشف عظمتها ومشكلاتها، وجفافها القاسى، ومناخها النارى، والسرعة التى يتحول بها لطف السكان إلى وحشية عندما تلتهب العواطف»، ويشير المعنى الأخير، بالطبع، إلى التطرف الدينى، دون أن يكتب مؤرخنا أن المصريين سلبوا، أيضا، حريتهم وكرامتهم. وهذا التعليق يفرض نفسه على كل من تذكر أن كتاب «بينوا ـ ميشان» هذا، قد نشر عام ١٩٦٦، أى بعد أن نجحت ثورة الجزائر فى تخليص البلاد من الحكم الفرنسى، ولم يلعب فيها التطرف الدينى دورا يذكر، فعلى الرغم من كل الأحداث المعاصرة لـ « بينوا ـ ميشان»، إلا أنه لم ير غير التطرف الدينى سببا لكل معركة التحم فيها الجيش الفرنسى بالشعب المصرى، لأن ذلك ما كان يقال، وهو يعيده بأمانة شديدة.

أما ثورة القاهرة الثانية، فهو يمر عليها مرور الكرام، مكتفيا بالإشارة إلى أنها قامت لأن «نصيف باشا، عندما وصل إلى مشارف القاهرة، أرسل نداء إلى الشعب، طالبا منه الثورة على المحتل الأجنبى» ، ونعجب لانصياع أهل القاهرة السريع لأوامر الأتراك، خاصة أن مؤرخنا تحدث من قبل عن فرحة القاهريين بهزيمة الأتراك فى معركة «أبوقير» الثانية، على يد بونابرت، وخوفهم منهم؛ ولكن مؤرخنا ـ وتناقضاته لم تعد تحصى ـ يرى أن «الصداقة المصرية – الفرنسية توطدت (بعد هذه الثورة) وتعمقت لدرجة أنها استمرت حتى بعد جلاء قوات الحملة، وبقيت حتى يومنا هذا (بسبب) روح كليبر العادلة وإنسانيته»، وهو لن يذكر طبعا ما قام به إسماعيل باشا فى هذا الصدد، وهو سبب استمرار الصداقة «حتى يومنا هذا».

و«بينوا ـ ميشان» يؤكد، أيضا ، أن عصر «مينو» كان «فجر مرحلة سعادة (...)، على الرغم من تأكيد الجبرتى بأن المسلمين كانوا أقل سعادة فى عهد مينو عما كانوا عليه فى عهد كليبر...» : و« بينوا – ميشان» يتخذ المسرحيتين اللتين كانتا تمثلان حينذاك بالفرنسية، مثلا حاول أن يثبت به صحة كلامه: «كان أعيان القاهرة يجدون فيهما من المتعة ما يعادل متعة أعضاء الحملة»!! وهذا الكلام كله، أولا وأخيرا، بلا أى مرجع، ومن البديهى أنه من تهويماته المتعددة، خاصة إذا عرفنا أن الجبرتى كان يقول ـ وباعتراف «بينوا ـ ميشان» نفسه – عكس ذلك...!

وتعرض خاتمة الكتاب بتأكيد موثق بالأحداث، نظرية مؤرخنا، وهى أن «ذكرى مصر كانت فاتنة لدرجة أن بونابرت كان مصمما على العودة إليها، حين تتيح له شئون القارة (الأوربية) فرصة»، ولم تسنح له تلك الفرصة على الرغم من محاولاته المتكررة، ولذا، كان عنوان كتاب «بينوا ـ ميشان»، «بونابرت فى مصر، أو الحلم الذى لم يتحقق».

«جورج سبيلمان» : «نابليون والإسلام»

ولنقرأ الآن كتابا بعنوان «نابليون والإسلام» [(٩٨)] لمؤلفه «الجنرال «جورج سبيلمان» . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى شخصية مؤلفه، فهو، حسب مقدمة الكتاب : «ضابط تولى مسئوليات عسكرية وسياسية وإدارية فى أرض الإسلام لأكثر من ربع قرن، مما جعله خير من يستطيع تفهم الصعوبات التى لقيها نابليون والوسائل التى لجأ إليها ليتخطاها (...) إنه المتخصص فى إسلام البحر المتوسط الذى يدرسه منذ عام ١٩٢٠ كمؤرخ، واجتماعى واقتصادى، وإدارى، لوجوده فى (فرنسا) عبر البحار، على كل سلالم التدرج الوظيفى»..

لقد عرف هذا الضابط إذن ـ ولا يقال إنه كان يوما فى مصر ـ إما سوريا، أو شمال إفريقيا، عندما كانت فرنسا تستعمرهما، وإن كان كتابه قد نشر عام ١٩٦٩، أى بعد استقلال معظم البلاد المستعمرة.



«بونابرت يهدى وشاح الجمهورية ذا الألوان الثلاثة لأحد البكوات»
(المعروف أن المصريين رفضوا ارتداء أية علامة تخص الجيش المحتل)

وعنوان الكتاب ، عنوان خادع، فالمؤلف لا يتعرض لقضية «نابليون والإسلام» إلا فى صفحات معدودة، فى حين أنه هو فى حقيقة الأمر، يقص علينا علاقة نابليون بالدول الإسلامية فى الشرق العربى، وأحلامه باستعمارها.

فالعلاقة بين نابليون وهذه الدول قديمة، منذ أن مرّ بأزمته عام ١٧٩٥، عندما كان مغضوبا عليه، ففكر جديا فى الالتحاق بالخبراء الفرنسيين الذين كانوا يُرسلون إلى تركيا لإعادة تنظيم جيش السلطان، وكان كثير من الضباط النبلاء الفارين من الثورة، قد سبقوهم إلى هناك.

ويقص «سبيلمان» علينا تاريخ فكرة احتلال مصر، منذ أن عرضها الفيلسوف الألمانى «ليبنتز» على الملك «لويس الرابع عشر» مؤكدا له: «أن أفضل وسيلة لضرب (هولندا) هو احتلال مصر، ستجد هناك الطريق الحقيقى لتجارة الهند، وستأخذه منها، وستؤكد السيطرة الأبدية لفرنسا على المشرق، وستُسعد البلاد المسيحية، وستملأ العالم اندهاشا وإعجابا: ستصفق لك أوربا ، ولن تتحد ضدك»، ثم يسرد «سبيلمان» تفاصيل استمرار الفكرة طوال القرن الثامن عشر، إلى أن حولها «تاليران» و«بونابرت» إلى حقيقة.

ويقدم المؤرخ الأمر بالطريقة المعهودة ؛ فمثلا يؤكد أن بونابرت قد حرم النهب على جنده، فيفهم القارىء أن الجيش تصرف بعد ذلك وكأنه من ملائكة الرحمة، ثم يعلق على بيان بونابرت للشعب المصرى، مؤكدا النجاح الساحق لتأثير هذا البيان على المصريين، ويصف «سبيلمان» مظهر «كليبر» الجميل، وكيف أن «حجمه الكبير وأناقته الرجولية ابهرت المصريين إعجابا به (كما أن الجنرال) «ديسى» استحق لقب «السلطان العادل» بسرعة فائقة وسط المصريين (٩٩) . كل ذلك دون أى مرجع علمى . وعموما، فمراجعه تستحق، فعلا، النقد. فهو يلجأ مثلا إلى «تيار» مؤرخ القرن التاسع عشر، الذى لم يعش أحداث الحملة، ليثبت أن «المشايخ كانوا منبهرين بتقوى بونابرت، وهو يردد معهم أحاديث النبى»، وأقل ما يقال عن هذا المرجع، إنه ضعيف، إذ أن «تيار» نفسه نقل هذا الكلام عن مرجع قد يكون غير موثوق به، ليتحمل مثل هذا الجزم . وسنلاحظ أن كل ما سيقال عن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين لا مرجع له، مما يجعل القارىء يتساءل: هل كان الجنرال يؤرخ أم يتخيل؟ .

ولنقرأ معا ما يقوله:

طلب بونابرت من العلماء الفرنسيين «أن يساهموا أيضا، بملاحظاتهم وبحوثهم، فى تنمية التجارة، وزيادة الرخاء، وإنشاء

صناعات جديدة وصغيرة، لتسعف بقدر معقول، النقص المقلق فى مواد الاحتياجات الضرورية والذى يسببه الحصار الإنجليزى، وقد أكد هذا النشاط لدى المصريين فكرة أننا باقون فى البلد مهما حدث» .. كيف عرف هذا؟ أم أنه قد استنتجه باجتهاد شخصى؟ «الجندى الفرنسى، عامة، يتصرف بطيبة ملحوظة، وهو سهل المعاش مع الآخرين، مع نزعة ملحوظة للسخرية.. ولكن الحياة المشتركة بين عنصرين شديدى الاختلاف فى الدين والتقاليد والعادات، ودرجة التطور، كان لابد لها أن تسبب المقدور، وهو الاحتكاكات الجادة.. فقد سبب اهتمامنا بالنظام، والإدارة الجيدة، واللوائح، ضيقا مكبوتا، خاصة فى القاهرة، حيث يتبلور الرأى العام» . ولن يتعرض مؤرخنا هنا إلى ما وصل إليه ذلك «الضيق» من ثورة، ولا للأسباب الحقيقية لتلك الثورة، فالثورة ـ أو «الضيق» ـ ترجع، فى نظره، إلى جهل المصريين بحماس الإدارة الفرنسية، ورفضهم لها، وعلى الرغم من كل ذلك، فهو يؤكد بعد ثلاث صفحات «إعجاب المصريين المنبهر» بما أنجزه العالم «كونتيه» ليسد «احتياجات جيش يحارب وقد انقطع عن وطنه» : كان نشاط العلماء، مثل «كونتيه»، يساعد الجيش إذن، وليس المصريين . ومرة أخرى، يعود «سبيلمان» ليؤكد ذلك التأثير الانبهارى على «الشعوب» بسبب انتصارات الجيش الفرنسى فى الشام، أثناء حصار عكا الفاشل، دون

أن يذكر ما كان يتزامن مع تلك الحملة من ثورات فى وادى النيل، من شماله إلى جنوبه، فهو لا يقول إلا كلمة عارضة: «الأمن فى المقاطعات البحرية، أو مصر السفلى، أخذ يتناقص بسبب قلة القوات الفرنسية التى تركها بونابرت فى مصر والتى كانت لا تكفى لحفظ الأمن».

أما بالنسبة لما حدث للأسرى الذين استسلموا للجيش الفرنسى فى يافا، والذين أمر بونابرت بإعدامهم، فإن «سبيلمان» يعترف بفظاعة الجريمة: «أثارت هذه المجزرة استياء أكثر الرجال قسوة في الجيش، إلى حد الغثيان (... وعندما ظهر الطاعون) ربطوا الوباء، بما حدث، واعتبروه نتيجة له، قالوا، إنه العقاب».

ثم نراه يصف «العودة المنتصرة إلى القاهرة» بعد الهزيمة أمام عكا، والتى: يعترف: «بأنها أول فشل جاد فى تاريخ بونابرت العسكرى»، ونقرأ على مدى صفحتين وصفا لاحتفال المصريين بعودة المنتصر. إنهم لا يصدقون ما قاله بونابرت لهم عن انتصاره فى الشام ولكن: «هذا«الأبو ـ نابرد» استطاع أن يستولى على كم كبير من الحصون فى الشام، وأفنى جيش عبدالله ، باشا دمشق، ثم عاد سالما إلى القاهرة، فهذا ما يبدو لهم أمرا مدهشا، وكل ذلك بعدد محدود من الرجال . إنهم على حق . إن هذا الرجل الرهيب «لسلطان النار» حقا! إن الإعجاب يختلط بمشاعرهم، التى كانت قائمة أساسا على الرهبة،

ونشاطه أيضا يملؤهم دهشة . لقد عاد لتوه من حملة مضنية، وتراه يتولى ، من فوره، شئون البلد، ويستقبل ويدير ويحث ويتصور ويحرك كل شيء ، وذلك كله دون هدنة، بسرعة، يعتبرها أهل القاهرة، جنونية، يا له من شيطان!».

... بل يا له من ادعاء ، فمطلبنا الوحيد أن نعرف من أين أتى سبيلمان بهذا الكلام الجميل؟!

ويعترف الجنرال المستشرق بالحقيقة الموضوعية، وهى أن الحملة «على المستوى الحربى والدبلوماسى، كانت فشلا تاما، سواء فى مصر أو فى الشام (...) وموقفنا فى مصر كان سيئا، فالبلد لم يكن قد سلم بعد. كنا نحتله، هذه حقيقة، ولكن مشروعنا لم يكن له أساس قوى، فقد ثارت علينا المدن مرتين فى ثلاث سنوات، ولم يستتب الأمن فى مقاطعات مصر السفلى والمتوسطة، لكن مصر العليا كانت أكثر أمنا، بسبب الإدارة الحكيمة لديسى ، السياسى البارع والجندى العظيم»، وهذا ما يشك فيه كل قارىء للدراسات الحديثة، الأكثر دقة فى معلوماتها، والأكثر موضوعية فى عرضها.

ويتبع هذا الكلام، نظريات غريبة لجنرال، يكتب عام ١٩٦٩، أى بعد أن استطاعت الجزائر أن تحصل على استقلالها، بعد كفاح مرير بدأ منذ استعمارها عام ١٨٣٠، ناهيك عن باقى المستعمرات الفرنسية فى

آسيا وإفريقيا، «فسبيلمان» يشرح، آسفاء ما كان يمكن أن يحدث لو بقى الفرنسيون فى مصر، متناسيا نتيجة الحضور الفرنسى فى الجزائر: «الزمن وحده كان كفيلا بتحسين أمورنا، ونشر خيرها على البلد، بعد إثبات اعتدالنا، وولائنا، واحترامنا للدين، وفعالية إدارتنا، ومحاسن الرخاء الذى نحضره معنا (... ولكن) عداوة دفينة أو معلنة لغالبية الشعب المسلم، أجبرت بونابرت وخلفاءه على الاعتماد، أكثر مما كانوا يتمنون ، على الأقليات الإثنية أو الدينية، مما أكد للسنيين ـ أى أغلبية المسلمين ـ ريبتهم وأحقادهم الكريهة » !!

وهكذا ، يفهم من هذا النص ، أن الخطأ ليس فى الغزوة وجيشها المستعمر ، ولكن فى شعب أساء الظن بالفرنسيين دون سبب مقنع . ثم إن بعض «التجاوزات (مثل) قمع ثورة القاهرة الأولى الذى كان قاسيا ، ثم تنفيذ عقوبة الحكم بالإعدام لأسباب تافهة ، ومجزرة حامية يافا ، هذه التجاوزات تركت ذكريات بشعة . ولذا ، صاحبت رحيل الفرنسيين فرحة الجميع (...) وكان يُخشى أن تظل فرنسا مكروهة إلى الأبد فى مصر ، بعد أن جاء الفشل السياسى بعد الفشلين العسكرى والدبلوماسى »، ولا يذكر المؤرخ قمع الثورة الثانية للقاهرة ، ولكنه يؤكد أن «الانجليز قد كُرهوا» بعد رحيل الفرنسيين ، ولا نعرف كيف أو لماذا، وكان عددهم محدودا جدا ولم يبقوا فى مصر إلا أشهرا معدودة ، ولم تكن لهم صفة فيها .

ويكمل مؤرخنا تصوره للأمور : ثم كُره الأتراك أيضا «حتى أن عددا كبيرا من المصريين وصلوا بسرعة إلى نتيجة ، هى أن زمن هؤلاء الكفرة الفرنسيين لم يكن بالسوء الذى كان الوعاظ الدينيون يستمرون فى تأكيده ؛ ولكن المصريين كانوا يشعرون بذلك دون أن يجرؤوا على الإفصاح به» .. ونتساءل مع القارىء : كيف استطاع مؤرخنا معرفة هذا الشعور إن كان دفينا ، صامتا ؟ . ولكن ، ألم يقل جزار باشا عام ١٨٠٢ ، لمندوبى «القنصل الأول بونابرت» : «إن القاهرة تفكر بحنين فيكم، وتشتهى أن تكونوا فيها مرة أخرى» : من هم هؤلاء الـ «هم» الذين يتحدثون عنهم فى عام ١٨٠٢ ؟ ألم يكن مراد بك قد سبق أن انضم إلى الفرنسيين ليضمن سيطرته على مصر العليا عند عودة العثمانيين ؟ وألم يتفاوض البرديسى بك معهم أيضا ، بينما ذهب الألفى بك إلى الحزب الإنجليزى ؟ أهؤلاء هم الشعب المصرى بأكمله ، الذى خدعه الوعاظ ؟! هذا من جهة. ومن جهة أخرى ، نلاحظ ، طبعا ، وجود مترجم مع «سيبستيانى» ، رسول بونابرت ، وكلام جزار باشا لم يصل إلينا فى نصه الأصلى ، مما يجعلنا نشكك فى مضمون الترجمة وصحتها ، لما قابلناه فى دراساتنا مرارا من تحوير عفوى أو مقصود فى ترجمة كلمات عربية غاية فى البساطة (١٠٠) .

ويصل «سبيلمان» إلى نتيجة أن «الحملة لم تكن فاشلة بل على العكس ، فلقد كانت نجاحا كبيرا» . وما سبب هذه الثقة ؟ ، «إن هذه النتيجة الرائعة (أى احترام المصريين وندمهم على انتهاء الوجود الفرنسى) كان سببه شجاعة جندنا ، الذين لم يموتوا هباء هناك ، وأيضا لكوكبة العلماء ، والمهندسين والفنانين والمستشرقين الذين جمعهم بونابرت ، وهم متحمسون بإيمانه ، إلى المعهد الفرنسى الذى أنشأه بعد شهر واحد من دخوله القاهرة (...) إن عمل هذا المعهد العظيم ...» ، وهنا ، يتوقف القارىء ليتعرف أخيرا على ذلك النشاط الذى قرأ الكثير عنه ، دون أن يعرف ماذا كانت فوائده للشعب المصرى، بالضبط، وتجىء المعلومات مبهمة كالمعتاد ، ثم يقدم المؤلف الأعمال المبهرة ، فيصاب القارىء بخيبة الأمل : يقول الجنرال المستشرق : «من بين أمور كثيرة ، هناك «الوصف العام لمصر» الشهير ، أول مؤلف علمى عن هذا البلد (...) ، كذلك دون «ڤيڤان دينون» وصور كتاب «رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا أثناء حملات الجنرال بونابرت» وهو كتاب خلاب .. هذان العملان العملاقان هما الركيزة الأساسية لعلم المصريات القديمة والحديثة . وقد تسبب هذان الكتابان فى موهبة «شامبليون» (١٧٩٠ - ١٨٣٢) (...) و«ماربيت» (١٨٢١ - ١٨٨١) (...) ، وآخرين (...) هم فخر العلم الفرنسى . وقد حكم «شاتوبريان» على الحملة

بالحكم التالى : «لقد بذر الفرنسيون فى مصر بذور الحضارة التى زرعها محمت (محمد على باشا) ، وهكذا زاد مجد بونابرت ، فشعاع نور تسلل إلى ظلمات الإسلام ، وفتح فجوة فى البربرية» . وينهى مؤلفنا فصله عند هذا الكلام ، مؤكدا بهذه الطريقة تضامنه المطلق مع هذا الكلام الأخير ، واحتقاره المعلن للإسلام ، والمسلمين . وكان قد أشار بالفعل فى الصفحة السابقة إلى أن محمد على هو الذى وطد التأثير الفرنسى على مصر ، فاضحا بهذا التأكيد ، قراءته السريعة والسطحية لتاريخ مصر ، خارج نطاق ما يخص فرنسا ذاتها ؛ فالتأثير الفرنسى لم يستطع السيطرة على بعض المثقفين المصريين ، كما يعلم الجميع ، إلا منذ عهد إسماعيل باشا . ولكن الاعتراف بهذا يعنى الفشل الكامل للحملة ، لأن هذا التأثير جاء بعد مضى أكثر من نصف قرن على حدوثها ، وفى ظروف أخرى ؛ وهذا ما لا يستطيع مؤرخنا المستشرق الاعتراف به ؛ فلا بد للحملة أن تنجح ، ولو كان نجاحها ملفقا .

والغريب أن «سبيلمان» يكتب قائلا : «مما لا شك فيه أن المارونيين والدروز والأرمن والأكراد ، وحتى العرب أنفسهم كانوا مستعدين للقتال فى سبيل التخلص من سيطرة الأتراك ؛ ولكنهم سرعان ما كانوا سيواجهون سيطرة بونابرت ، وكثرة تبعاتها ، وأن المشاكل الإدارية

كانت ستتسيهم المحاسن المكتسبة» : إنه يعترف إذن بأن المشروع كان فاشلا بلا شك ، فلماذا التهويمات بعد هذا الاعتراف ؟

وأخيرا ، يتعرض مؤلفنا لموقف بونابرت من الإسلام ، ويصحح ما يقال عن أن كلام بونابرت عن الإسلام لم يكن إلا «دعاية اللحظة» . فهو يؤكد ، مستندا فى هذه المرة إلى مراجع موثقة ، احترام نابليون للإسلام ونبيه حتى نهاية حياته ، بل وإعجابه بهما ، قائلا مثلا ، وهو فى المنفى ، بعد قراءته للقرآن : «دين محمد هو أجمل دين» . وقد مات نابليون معلنا انتماءه للكاثوليكية ، ويعلق «سبيلمان» بحق أن نابليون صاحب «فكر دينى سمح ، كان منتشرا فى القرن الثامن عشر» . ولا ينفى هذا استغلاله للنزعة الدينية فى مصر ، فى محاولته كسب ود العلماء والمشايخ ، وعامة الجمهور . ويشرح مؤرخنا بعد ذلك كيف استمر حلم الشرق يراود نابليـــون حتى أيامه الأخيرة . وأهم ما يلفت نظرنا فى هذا التاريخ ، البعـــثة الدبلوماسية التى ترأسها الكولونيـــل «سيبستياني» عام ١٨٠٢ ، والمهمة الحقيقـــية التى وكلت إليه ، فهذا الجاســـوس الرسمى يكـــتب فى تقـــريره عن جولته أن جيشا من «ستة آلاف فرنسى كاف لغزو مصر» . لكن ظروف نابليون لن تسمح له بإعادة الكرة مرة أخرى ، ولا بتنفيذ محاولاته غزو شمال إفريقيا .

وينتهى كتاب «سبيلمان» بمحاولة أخرى لتقييم نهائى للحملة ، فى ست عشرة صفحة ، يصعب تقديمها كاملة . ولذا ، نلخصها بترجمة أهم فقراتها ، وإن كان «سبيلمان» يكرر نفسه ، لزيادة تأكيد ما عنده من قول . فالمؤلف مستشرق عسكرى ، قضى حياته منفذا للسياسة الاستعمارية «للجمهورية الثالثة» ، بين الحربين العالميتين ، قبل أن تصل ثورات التحرر فى العالم الثالث إلى ذروتها ، كما حدث بعد ذلك . لذا ، يرى «سبيلمان» الأمور – بطبيعة الحال – من منطلق خاص ، لا يمكن أن توافق عليه حتى العقلية الفرنسية الجديدة ، لهذه الشعوب نفسها التى استعمرت العالم : كانت الفكرة المسيطرة هى أن «الحضارة» واحدة ، لا ثانى لها، وهى الحضارة الأوربية ؛ وأن «التحضر» هو الوصول إلى النمط الأوحد من الحياة فى كل أشكاله من ثقافة وأسلوب حياة ، على أن يكون استيعاب تلك الحضارة ، بتوجيه من الدول «المتحضرة» ، وتحت سيطرتها . إنه الاستعمار فى أكثر صوره فجاجة، كما شكل نظريته الفلسفية مفكرو القرن التاسع عشر ، وسياسيو «الجمهورية الثالثة» . وكان الكل مؤمنا بأن رسالتهم فى الحياة ، بل واجبهم المقدس ، هو «تحضير» الشعوب ولو بالقوة ، بل وبالقوة أولا . وهو أمر طبيعى ما دام الهدف الحقيقى هو الاستعمار الاستغلالى ، والحصول على موارد وأسواق بلاد أضعف من أن تدافع عن حريتها .

من هذا المنطلق ، يرى الجنرال «سبيلمان» أن بونابرت كانت له سياستان ، أولاهما رائعة : تلك السياسة الأولى هى التى عبر عنها فى بيانه إلى المصريين ، فى الثانى من يوليو ١٧٩٨ ، والتى طبقها لمدة ثلاثة أشهر ، حتى ثورة القاهرة الأولى . إنها «نوع من الحماية ، أو التفويض ، أو حتى حكم مشترك بين الأتراك والفرنسيين . كما عُرف وطبق بعد ذلك بثمانين عاما . وتتجه تلك السياسة أولا إلى تخليص مصر من طغيان المماليك الذين يستغلون البلد ؛ ثم إنشاء منظمة إدارية مصرية خالصة ، لها فاعليتها وتماسكها ، على جميع المستويات : القرية ، والمقاطعة ، والأمة ، ثم إعادة البلد إلى رخائه السابق بتجديد نظام الرى ، والزراعة ، والحرف والصناعات الصغيرة ، مما يسفر عن بداية لتجهيزات إنشاء الموانىء وطرق المواصلات البرية والنهرية ، ليساعد ذلك كله على تنمية التجارة . وتلك السياسة ، أخيرا ، تسجل جرداً شاملاً ودقيقاً لكل الموارد ، على أن تبقى قيم الماضى ، وحماية آثار حضارة لها آلاف السنين وكنوزها الثقافية . وتكون السيادة الاسمية والسلطة الدينية الحقيقية لسلطان القسطنطينية ، خليفة المسلمين ، وأن تحترم هذه السيادة . حقيقة أن خطط بونابرت كانت ترتب لإدخال عناصر فرنسية فى كل المهن والتخصصات إلى مصر ولكن الهدف لم يكن هو الاستعمار ، فهؤلاء الفرنسيون كانوا سيلعبون

دور المرشد ، المحرك ، الحافز للهمم . حقيقة أن كثيرا منهم كانوا ضـروريين لاحتياجات قـوة الحملة ، لأن تموينها من الوطن الأم كان لا يزال صعبا وخاضعا لتقلبات الظروف ، فالبحر المتوسط لم يصبح بحرا فرنسيا بعد .. .» : كلام متناقض ، لأن الذئب يحاول التخفى تحت جلد الحمل المزيف .

ولكن هذا المشروع الرائع – الذى لم يكن «استعمارا» – قد فشل ، لأن حكومة « الإدارة » و « تاليران » لم يفيا بوعدهما ، ولم يقوما بالعمل الدبلوماسى اللازم ، الذى كان لابد له أن يحظى بموافقة سليم الثالث على الغزو الفرنسي لمصر . ومن ثم ، فقد انضمت تركيا إلى إنجلترا عدوة فرنسا ، بل انضمت أيضا إلى عدوها اللدود ، روسيا ، وتكون التحالف الثاني ضد الجمهورية الفرنسية ، وكان ما كان . وهكذا، أجبر بونابرت ، الذى لم يكن يريد الاستعمار ، على انتهاج سياسة مغايرة لمشروعه الأول بسبب ثورة المسلمين عليه فى « جهاد » دينى أمر به السلطان . والمعروف لدى القارىء للفرنسية ، ما يعنيه استعمال كلمة « الجهاد » فى السياق السياسى : إنها الحرب الشعواء باسم التطرف الدينى « الجاهل المتعنت » بل و « المتوحش » .

والحق أن دارس هذه القضية ، قد يشعر بالامتنان «لسبيلمان» ، الذى حمل الحكومة الفرنسية وزر هزيمة بونابرت ؛ فكثير من المؤرخين غيره ، ردوا فشل الحملة ، فقط ، إلى سوء فهم المصريين ، الذين لم يدركوا أن بونابرت جاء كصديق يجلب لهم الرخاء والسعادة ، فعاملوه كعدو ، وردوا له الجميل بأسوأ طريقة ، وإن كان «سبيلمان» نفسه ، يقول ذلك أيضا : لقد نزلت القوات الفرنسية عنوة فى ظلام الليل على شاطىء مهجور ، ولم يفهم أهل الاسكندرية أن الجند والسناكى والمدافع كانت عنوان محبة وبشير خير ! وكان هذا الخطأ - خطأ المصريين فى الفهم - هو الذى تسبب فيما حدث بعد ذلك من مصائب ، وفشل الأهداف النبيلة لبونابرت وجيشه .

ولنعد إلى «سبيلمان» وبونابرت ، الذى أجبر على تغيير خططه الجميلة ونياته الحسنة ، لسبب واحد ، هو أنه كان يفتقر إلى جيش كبير، إذ يقول مؤرخنا : « لم يكن معه الكثير من الجند » . ولا يفطن مؤلفنا إلى مغزى هذه الكلمات ، فلو كان لدى بونابرت جيش أكبر، لتغيرت الحال ؛ ونفهم إذن أنه كان سيلجأ إلى حروب لا نهاية لها - كما حدث له فى أوربا بعد ذلك - كان سيلجأ إلى القوة الغاشمة وما يترتب عليها من فوضى وظلم . وفى هذه الحالة ، نتساءل عن مصير الهدف الأول من مصاحبة المصريين ، وأين يقع مشروعه الجميل ؟

أيا ما كان ، «فسبيلمان» يرى أن بونابرت قد أجبر على التنازل عن أهـدافه النبيلة، إذ أعلن «المسلمون السنيون» الحرب عليه بأمر السلطان، فكانت ثورة القاهرة التى أجبرته على ارتكاب الخطأ الفادح ، الذى جعله «يرتكز على الأقليات الإثنية والدينية ، وكان ذلك على نقيض نياته الأولى . وبسبب هذا ، لم يعد بونابرت يعتبر الحكم الموضوعى المسلم به ، وأصبح ندا بدلا من أن يرتفع فوق الأحزاب . ولكن ، وعلى الرغم من كل ذلك ، كم كان حليما صبورا : فعلى الرغم من كل الصعاب والطاعون الذى تفشى وسط جنده ، كان يأمر المعهد الفرنسى بالاستمرار برصانة فى أبحاثه ، حتى ينهى الجرد الكامل ، الدقيق ، المنظم للبلد . لا . فالحق يقال ، لم تكن الحملة على مصر فى المشرق من النوع الاستعمارى المعتاد . كان بها جوانب كثيرة جديدة ، إنسانية وغير مغرضة . وكانت هذه الروح هى روح كثير من القواد آنذاك . ففى مصر العليا ، مثلا ، كان الجنرال « ديسى » جديرا بقلب «السلطان العادل» ، الذى أطلق عليه عفوياً ، فقد كان جنديا ذا كفاءة معروفة ، وقد أثبت أنه رجل إدارة من الدرجـة الأولى ، وكان مديرا جيدا ، كريما، متسامحا ، مثقفا ، وحريصا على أحوال السكان الأصليين . ونرى «مارمون» يفعل الشىء نفسه فى الاسكندرية، ونعرف أن «مينو» وصل به الأمر الى التحول إلى الدين الإسلامى».

طبعـا لـم يكـن بـونابرت يفعل كل ذلك من أجل صالح المصريين فهو لم ينس لحظة واحـدة المصـالـح الفـرنسية ...) إذ أنه لم يكن يهدف من وراء كل ذلك – وهنا يتنفس القارئ الصعـداء لوصوله أخير ، إلى شفافية القول – لم يكن يهدف إلا إلى تحويل البحر المتوسط الى بحر فرنسى حتى يتسنى له غزو البلاد التى تفصله عن الهند ليصل إليها.

نكتـفى بهـذا القـدر الـذى أثبت لـنـا « بحـق » حسن نيات السياسة الإسلامية للجنرال بونابرت فى مصر، لنـصـل إلى ما سبق أن قاله «سبيلمان» ، وهو يكرره هنا مرة أخرى ، فى خاتمة كتابه ، وهـو النجاح الرائع للمعهد الفرنسى الذى كان سبب شهرة فرنسا وتأثيرها على مصر . ويبدو أن مؤلفنـا كان يجهل أن هذا المعهد قد أغلق بعد رحيل الحملة ، ولم يكن له ذكر حتى عندما أعيد فتحه بعد ذلك بسنين بالاسكندرية . ولكن مؤرخنا يجهلُ الكثير.

فهو مثلا يكتب أن : «عبدالرحمن الجبرتى الذى ترك مذكرات لها أهميتها، كان من أنشط مندوبى الانجليز فى مصر..» ، فى حين أن المعروف ان المؤرخ الشهير كان من بين أعضاء الديوان الذى جمعه «مينو» وكان عليه بعد رحيل الفرنسيين، أن يشرح أسباب هذا التجاوب

معهم . ان «سبيلمان» لم يقرأ «مذكرات عبدالرحمن الجبرتى» ، وكان القارىء قد فهم ذلك من خلال ما تخيله «سبيلمان» عن مشاعر المصريين وردود أفعالهم، فمن البديهى أنه يكرر تهويمات بعض أعضاء الحملة دون الرجوع الى المصدر المصرى الوحيد عن الحملة، من وجهة النظر المحلية، مع أن «مذكرات» الجبرتى كانت منشورة بالفرنسية ومعروفة لكل من يهمه الأمر. ولكن ما العجب وقد قرأنا رأى «سبيلمان» فى الشعب المصرى، وهو المتبنى لرأى «شاتوبريان» المحتقر للمسلمين؟ فمن الطبيعى أن يترفع مؤرخنا عن قراءة ما كتبه أحد هؤلاء المسلمين .

كما سنرى أنه لم يقرأ بتمعن كاف كتاب «ڤيڤان دينون» عن رحلته فى مصر، والذى اعتبره هو نفسه من أهم انجازات الحملة: سنرى عند التعرض لهذا الكتاب المهم، إلى أى مدى وصلت تهويمات الجنرال المؤرخ عن اعجاب المصريين بجند الحملة . فما يقصه «دينون» عن الحملة، وتصرف الجند مع الشعب، يتعارض تفصيليا وجوهريا مع كل ما يدعيه «سبيلمان».

ولكننا نتفهم رؤية «سبيلمان» الاستعمارية مرة أخرى، عندما نصل إلى الصفحات الأخيرة لكتابه ؛ إن كل ما سبق كان له هدف أوحد، وهو

أن يثبت فى عام ١٩٦٩ رأيه فى سياسة المصريين المعاصرة ، «فسبيلمان» يصل إلى نتيجة حتمية، فى نظره ، وهى أن إدارة المصريين لقناة السويس بمثابة «قتل الدجاجة التى تبيض لهم ذهبا» .

وتتضح إذن الرؤية ، دون أدنى شك ، فى الغرض من وراء شرح «سبيلمان» لسياسة بونابرت الإسلامية، ودفاعه عن نياته الحسنة. لقد أجهض بغض المسلمين، تلك السياسة ، فهم لم يفهموا أن مصلحتهم تكمن فى الاذعان لخططه ، فبونابرت لم يكن يقصد الاستعمار، بل إنه لم يبغ الا تخليصهم من جبروت المماليك . ولكن لو أن فرنسا استمرت فى سيطرتها على قناة السويس، فممن يا ترى كانت ستخلص مصريى القرن العشرين؟



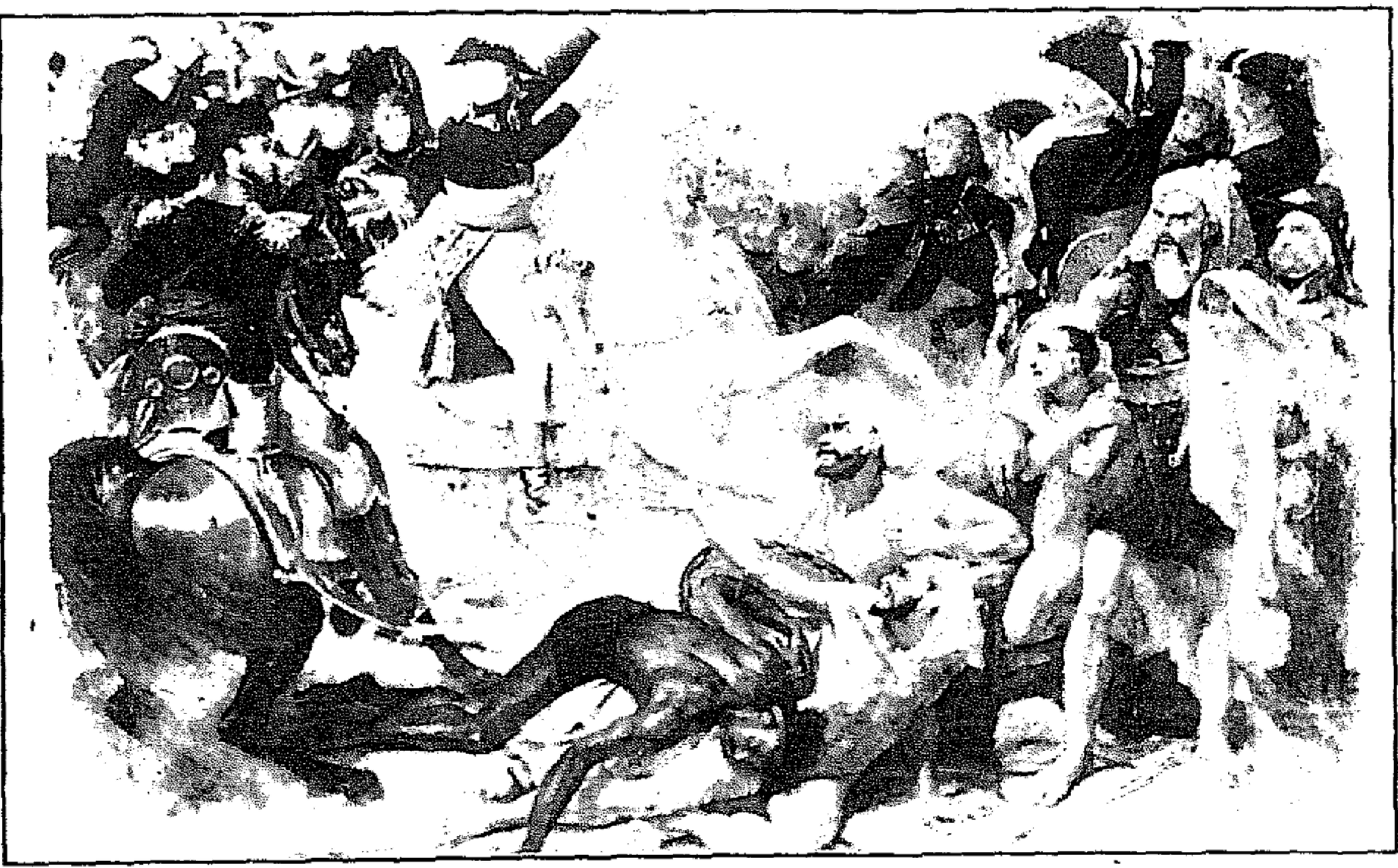
الفرق ضئيل إذن بين ما يقوله الجنرال « سبيلمان » فى عام ١٩٦٩، وما كان « باستر » قد نشره عام ١٩٣٢ : إنه من المدرسة الاستعمارية التى قضى عليها تحرير شعوب العالم الثالث المستعمرة فى تلك السنوات، ولم يكن الجنرال قد اقتنع بالواقع الجديد ، ولم يكن هو الوحيد الذى لايزال يعيش فى الماضى ، كما سنرى فى الصفحات التالية .

«ترانييه» و«كارمينيانى»

«بونابرت: حرب مصر»

ففى عام ١٩٨٨ ، صدر المجلد الفاخر عن « بونابرت : حرب مصر» . [١٠١] ومقدمة الناشر للكتاب تقول: «أصبح بونابرت، بعد أن انتصر على المماليك، وتحطم أسطوله، سجين فتحه، لذا، فهو لن يحقق أهدافه. وعلى الرغم من ذلك، فنتائج حملته ستكون هائلة.. أعمال المعهد الفرنسي ستخرج البلد من غفلته، واكتشاف حجر رشيد سيؤسس علم المصريات ويسمح لـ شامبليون بفك الرموز الهيروغليفية» . ويبدأ الكتاب فى أولى صفحاته، بمقولة لنابليون: «مجد الجيوش واكتشاف فنى، هكذا كانت الحملة على مصر» .. وانفراد هذه الجملة على أولى صفحات الكتاب ، وحدها ، دون أى كلام آخر، ينبىء القارىء بادىء ذى بدء، بما سيجده من أسلوب فى هذا العمل ، الذى قدم له مؤرخ نابليون الشهير، الأستاذ « جان تولار » الأستاذ بجامعة السوربون ورئيس معهد نابليون.

والكتاب لمؤرخين هما «جان ترانييه» و« ج. س. كارمينيانى » . وبه كم من الرسومات واللوحات الملونة ، يسيل لها لعاب أى مهتم بالحملة، او حتى بالفنون ، وعددها «٣٧٣ منها ٤٢ بالألوان » ، والطباعة



معركة الأهرامات
(بريشة الفنان جرو الذى لم ير مصر يوماً فى حياته)

كما سبق أن وأشرنا ، فاخرة فى ورقها ، وعرضها الشيق الجميل. والمقدمة التى يكتبها «جان تولار» تثبت أن مقدمة الناشر كتبت بقلمه، غير أن «تولار» يزيد ، بعد تكرار ما قيل فى مقدمة الناشر، بتأكيده أن محمد على «سيستفيد مما أنجزته الحملة، ليحدث البلد. فى عام ١٨١٥ وسيطلب*، فرنسيين ليعيد بناء جيشه، ولإنشاء نظام صحى جديد، والتوسع فى زراعة الوادى » .

ثم يبدأ الكتاب بعرض أهداف الحملة ، وهى « فتح مصر ومشروعات خاصة « بالقسطنطينية » وأهداف معينة بالنسبة للهند، ودحر المماليك الظالمين ، وتحرير المستعبدين ، وعتق المسلمين ، وحماية التجار الفرنسيين ، وكان عددهم ، بالمناسبة ، ثلاثة فى مدينة القاهرة، ودراسة الاثار على طبيعتها ، ثم التبادل والتحسينات الخ» ... ولن نعرف ممن « سيحرر المستعبدون ويعتق المسلمون » . وفى هذه المقدمة السريعة، يصف « جان ترانييه » سياسة بونابرت فى مصر بانبهار شديد، فبونابرت مثلا يقول لأعضاء الديوان : « ... أبلغوا شعبكم أننا أصدقاء اوفياء للمسلمين . النصر للسلطان ، لعنة الله على المماليك. السعادة لشعب مصر (...) كل من أحكمهم أولادى . فيرد أعضاء الديوان عليه بقولهم.. إنك تتكلم كالنبى».

«إن عنايته تشمل كل شيء وكل الناس، هذا ما يكتبه الشيخ الجبرتى» . ولن نقرأ مرجع هذه الفقرات الواضحة فى معناها. ويستطرد «ترانييه» وصفه «لمصر أثناء الحملة» كما يقول عنوان هذه الصفحات، قائلا: «سعد الرجل المصرى بطرد المماليك، ولكنه انسان متقلب وإن كان طيب القلب، فهو الآن يتنفس الصعداء، ويلجلج بعض الفرنسية، بينما الجند (الفرنسيون) يرطنون بعض العربية. إن الجند بسطاء طيبون (يدفعون بسخاء ويمرحون). الحياة محتملة ويمكن حتى أن تكون لطيفة، لو أن رسائل فرنسا تصل ، ولو لم يجبُروا على كل هذا الاحترام إزاء نساء هذا البلد».

« ولكن الانجليزى الغيور يراقب خلف هذه الصورة الزاهية، ويعمل. إنه يرسل الجواسيس الى اليابسة، والمهيجين والمجرمين والجنيهات. وفى الخامس والعشرين من أكتوبر ١٧٩٨، ينفجر التمرد فى شوارع القاهرة (...) وتلقى أيد خفية بالحجارة والرماح» . وهذه الثورة يسميها مؤلفنا «تمردا» ليقلل من شأنها مؤكدا : « فى نهاية اليوم، أعادت مدافع «دومارتين» وفرسان «دوما» التائهين الى الصراط المستقيم، قمع قاس ، وبضعة رءوس مقطوعة، وعدد من المشايخ المحكوم عليهم بالاعدام، تثبت للعامة أن «السلطان ابو نابرتى» عادل ولا يمزح. حتى أن هذه الحادثة الدموية لم تعد أكثر من حادثة عارضة لا تمنع الجنرال

من استمراره فى سياسة الدمج» . ثورة القاهرة ليست اكثر من «حادثة عارضة» . ونعرف أخيرا أن المرجع الذى يستمد منه مؤلفنا هذه المعلومات ، والذى يقلل من شأنها، هو «الكومندان لاشوك» الذى أفتى بهذه الرؤية للوقائع ، ولم يظهر فى وصفه للثورة الا بطولة المقاومة الفرنسية لهذه الأحداث الدموية.

وهو أيضا الذى يوحى لـ « جان ترانييه » بالنتيجة التى لخص بها عرضه السريع لوقائع الحملة ، قائلا : «إن مينو وقع معاهدة استسلام محترمة ، وعاد إلى فرنسا» ، وكأن الحملة انتهت على خير وجه .

«ولكن السكان الذين لا يزالون منبهرين، سيتحدثون فى مصر ولمدة طويلة، عن «السلطان الكبير» الذى عرف كيف يعطى لبلدهم ، النائم منذ الفراعنة ، أبعادا جديدا» .

وبعد هذه المقدمة الخاصة «بترانييه» نراه يسرد علينا تاريخ الحملة، منذ أن أصدرت حكومة «الادارة» أمر البعثة للقائد العام الجديد «والذى كانت تعبيراته من وحيه (...) :

المادة الأولى: القائد العام لجيش الشرق يتوجه الى مصر بقوات برية وبحرية ويستولى على البلد.

المادة الثانية: يطرد هذا القائد، الانجليز من كل ممتلكاتهم في الشرق، في كل مكان يستطيع الوصول اليه، ويدحض بالذات، كل وكالات التجارة على البحر الأحمر.

المادة الثالثة: يقطع القائد برزخ السويس ويأخذ كل الترتيبات الضرورية، ليؤكد ملكية الجمهورية الفرنسية ، الحرة المطلقة، للبحر الأحمر.

المادة الرابعة: يحسن القائد ، بكل الوسائل التى يمتلكها ، حال أهل مصر.

المادة الخامسة: يحافظ بقدر استطاعته على العلاقة الطيبة مع السلطان ورعاياه المباشرين.

المادة السادسة: هذا القرار لن يتم طبعه».

كلام واضح وصريح، يرد على كل من يرى أن هدف الحملة كان «إسعاد المصريين» ، فالمادة الرابعة المبهمة كانت ، كما هو بين ، تحية عابرة للأدبيات المثالية لفلسفة التنوير والثورة، ذرا للرماد في العيون، ولن نفهم لها معنى وسط الأهداف السياسية الأخرى لو أننا تناسينا ما كانت فلسفة التنوير والثورة تدعيانه ، من مشاعر انسانية ، وضرورة اصدار رسالة محبة وسلام لكل شعوب العالم. من الطبيعى اذن أن يصاحب البرنامج السابق ذكره ، « جيش من ثمانية وثلاثين

ألف رجل ، كـان من بينهم ستة آلاف وخمسمائة من المحاربين» بعتـادهم . هذا لايمنع مؤلفنا ، بعد أربع صفحات من نشر الهدف الصـريح للحملة ، والذى اعتـرف انـه مـن تعبيرات بونابرت نفسه – ان يكتب الآتى : « كــان بـونــابرت يتمنى أن تكون لحملته أبعاد ثقافية وفنية وعلمية. انه يريد ان يكـون هـدفها تقدم التنوير » . التنوير من أجل علوم فرنسا، هذا مما لا شك فيه، ولكن تنوير علـوم فرنسا وحـدهـا .

ومؤرخنا يفتقر الى الدقة، مثل كل من كتب عن الحملة بانبهار شوفينى. فهو يشرح مثلا أن المماليك ، «كانوا من صنع السلطان سليم الذى أوجدهـم حتى يساندوا حكمه » . بينما يقص علينا المجلد الذى ينشر فيه هذا الكلام نفسه فى الملحق كيف «أنشأ أحد السلاطين الأيوبيين، فى عام ١٢٣٠ هذا الجيش» . كما سيقول مؤرخنا إن انفجار سفينة المؤن الحربية، فى معركة أبو قير «سيصل دويه حتى القاهرة» مما يدل على أن كلامه نظرى، لأنه لم ينظر حتى إلى خريطة الدلتا، فالمسافة بين القاهرة والاسكندرية لا تسمح بما يؤكده من أن الدوى وصل إلى أول الدلتا.

يشرح لنا كيف ان بونابرت «قرأ قبل رحيله كل ما نشر عن مصر، كما قابل المسافرين واستمع الى الدبلوماسيين، وحدد بالتالى السياسة التى سينتهجها : سياسة المخلص» . ومرة أخرى، نقرأ البيان الذى

أصدره لجنده، والذى يحرم عليهم فيه النهب والاغتصاب. ومرّة أخرى، نتأكد أن الجنود لم ينهبوا، ولم يغتصبوا ، « لأن بونابرت لم يأت غازيا ولكن محررا » ، ولذا ، «ستبقى صورة فرنسا المتسامحة الذكية حية لأعوام طويلة، عند كثير من المصريين» . يكـرر مؤلفنا الكلام نفسه ، ومن البديهى أنه كلام يسعده.. « أصـدر بونابرت أوامر صارمة للحامية التى بقيت بـالاسكندرية ، يحرم عليهم دخول المساجد، المغتصبـون والنهـابون سيعدمون، كل شىء يشترى ويدفع ثمنه كاملا». وسياسة الأمان ، تلك، تستمر عندما يدخل بـونابرت مـدينة القـاهـرة : « قال بـونـابـرت للمشايخ : ثقوا بسماحتى، فأجابوه قائلين : الله وحـده غفـور رحيـم . فـرد عليهم بغلظة: نعم، ولكنى غير ملزم بأن أكون هكذا » (...) .

وحتى تجد سياستـه السلمية صـدى مقبـولا لـدى الشعب ، أصـدر أوامـر صـارمـة لجنـده ... ومرة أخرى لن نسمـع أن جنـديـا اقترف ما يستحق عليه العقاب . ثم نقرأ مرة أخرى أن «كليبر وهامته الضخمة ملأ قلوب المصريين إعجابا... » وذلك دون مرجـع أيضـا .

وكما عرفنـا الأهـداف الحقيقيـة للحملـة ، وذلك بـوضـوح تـام ، عرفنا أيضا حقيقة الديوان الذى أنشأه بونابرت ليحكم المصريين

أنفسهم ، تحت إمرة الفرنسيين ، فالكتاب ينقل إلينا أوامر تكوين إدارات المصريين ، قائلا : الدواوين « يلاحظها مفوض فرنسى . أما الأغوات ، والموظفون التابعون للديوان من أهل البلد ، فهم تحت ملاحظة السلطة الفرنسية (...) . على الفرنسيين المبادرة ، والملاحظة ، والمراقبة ، وعلى أهل البلد التنفيذ ، وأحيانا ، التقدم بالاقتراحات » . هذه هى حقيقة الدولة « المتحررة » التى أراد بونابرت أن ينشئها ، وعندما نُفذ حكم الاعدام فى السيد محمد كريم ، «يقع رأسه على الأرض ، ويؤخذ ليثبت على قمة حربة ، ليمر على جميع أحياء القاهرة، وعليه بيان مكتوب يحكى خيانته » .. ويقابل القارىء هنا عادة من عادات غوغاء باريسية أثناء الثورة ، من تثبيت رءوس ضحاياهم على الحراب والمرور بها فى الشوارع والأزقة . فلا عجب إذا عرفنا بعد ذلك « أن الشيخ الشرقاوى رئيس ديوان القاهرة (...) الذى أغدق عليه بونابرت بأفضاله، تعاون بحماس لكل قرارات القائد الأعلى التى ستساعد على استقلال مصر فى المستقبل، ولكنه يأبى مع ذلك تنفيذ أى قرار يمكن أن يرسى السيطرة الفرنسية» . وعلى الرغم من هذا الاعتراف، فإن المؤرخ يرى أن « الدعاية الانجليزية النشطة » هى التى توعز للسكان ألا يعيشوا فى أمان مع «سيطرة (الفرنسيين) المؤقتة» . ولكن على الرغم من أن « مصر خاضعة » إلا أن «الفروق

كبيرة جدا (...) ولابد من وجود احتكاكات بين الشعب وجيش الاحتلال » . وكلمة « احتكاكات » لفظ غاية فى التهذيب والحياء لاستخدامه تعبيرا عما كان يحدث بالفعل. وقامت ثورة القاهرة الأولى : « مات فيها ثلاثمائة فرنسى وحوالى أربعة آلاف ثائر (...) ، وعلى الرغم من هذا الفشل الجسيم ، إلا أن بونابرت استمر فى سياسة التوفيق، وقرر أن يمنح عفوه للجميع . لم يعاقب إلا من أتى بجريمة النهب أو إراقة الدماء . ولم يصدق أهل البلد مثل هذا الكرم فى أول الأمر، ثم تأكدوا ، باستغراب ، من حقيقة هذه السماحة المدروسة » . ولكن ، « وليؤكد بونابرت استياءه فقد ألغى الديوان، وعاد إلى الادارة المباشرة، ولكنه عاد بعد قليل الى تأليفه مرة أخرى ، لأنه أراد أن يستمر فى تطبيق سياسة التقارب التىَ كان ينتهجها» ، ولا يقال أبدا ان عقد الديوان كان ضرورة ملحة للفرنسيين أنفسهم، فهم لا يستطيعون الاستغناء عنه، لدوره الحيوى فى الاتصال بالجماهير، وتنفيذ رغبات المستعمر وأوامره.

أما حياة الفرنسيين فى مصر، فإنها تصور بألوان وردية؛ فنعرف مثلا أنه فى ديسمبر من عام ١٧٩٨ : «وعلى الرغم من أن القائد العام كان قد أصدر أوامر صريحة بعدم تعرض الجند لنساء البلد دون رغبتهن، إلا أنه يترك، برضاء تام ، قصص الغرام التى ينسجها

فرنسيون ذوو عقول خلاقة» لإيجاد وسائل الاتصال الودى. وهكذا. فالرومانسية هى الصفة التى تتسم بها علاقات الجند بنساء البلد. « ويقال إن أكثر ما عجب له أهل البلد، لم تكن العادات الأوربية التى لم يحبذوها ، ولا حتى الاختراعات العجيبة التى أنجزها علماء المعهد (مثل) عرض المنطاد، ولكن الشعب قد عجب لرؤية المنتصرين يعملون طوال اليوم ويعيشون بطريقة بسيطة ولا يستغلون انتصارهم» ... «يقال» ، من الذى قال؟ أمر غامض كالمعتاد، ناهيك عن أن محاولة اطلاق المنطاد قد فشلت مما يثبت هنا أيضا أن المعلومات التى يقدمها مؤرخنا منقوصة.

كما أن حياة المنتصر لم تكن بالتقشف الذى يلفت النظر، كما سنفهم من مذكرات من كانوا أعضاء فى تلك الحملة، ولكنها الأسطورة التى تصف أناسا أسطوريين، خاصة أن المؤلف يعيد ويكرر ما سبق أن قرأه فى الكتب الأسطورية ، دون التأكد من مصادرها، لأنها توافق هواه ، فمرة أخرى، نعرف أن الجيش الفرنسى وصل الى سهل غزة وأن أحد الشهود العيان كتب: «انطلقت الأناشيد الجمهورية فى الوديان نفسها، التى كان الصليبيون الأوربيون ينشدون فيها ترانيم ايمانهم المسيحى» .. فالحروب الصليبية لاتزال فى الأذهان.

نرى أن كل ما يفعله الجند كان مبررا، حتى وإن كانت مجزرة يافا البشعة، التى استنكفتها انسانية الضباط الفرنسيين أنفسهم ؛ ففى السابع من مارس ١٧٩٩ ، دخلت كتيبة «لان» من فجوة فى حصن المدينة : «كان العدو يدافع عن نفسه بضراوة ، ولكن وفى هذه المرة ، استشاط غضب المهاجمين . كانت ذكرى زملائهم المقتولين فى القاهرة تسيطر عليهم ، واستمر القتل والاغتصاب والسلب والنهب طيلة الليل . وحاول الضباط ان يحدوا من هذا العنف . ولكن دون جدوى ، وفى الصباح كان المنظر بشعا . أكثر من ثلاثة آلاف جثة كانت تفترش أرض المدينة . أبيدت عائلات بأكملها » . ، وبعد ذلك ، كان إعدام الأسرى ، بعد أن وعدهم «أوجين دى بوهارنييه» بالأمان إذا هم استسلموا . والغريب هنا هو انفراد مؤرخنا ، دون كل المؤرخين ، بوصف تلك الفعلة الشنيعة على أنها «بدت فى عصرها ، منطقية جدا لغالبية فرنسيى الجيش » ، فى محاولة يائسة منه ، لتبرئة بونابرت بأى ثمن . والمعروف أن الطاعون ، عندما تفشى بين جند الفرنسيين بعد ذلك اعتبره كثير منهم عقابا من السماء لفعلتهم الإجرامية .

أما عن حصار عكا ، فلا عجب إن كان قد فشل ، ما دامت الحامية التى دافعت عن الحصن «كان بها بعض الطوبجية ، الذين علمهم الفرنسيون فحفظوا الدرس جيدا » .

ولكن الكتاب يعترف ، ولو بأسلوب ملتو ، بما كانت عليه حقيقة السياسة الاستعمارية من عنف . فعندما عاد بونابرت فاشلا من الشام، أراد أن «يؤكد الولاء له ، لأن الخوف لا يزال أكثر الأسلحة فعالية فى مصر (...) قبض على الأشخاص «المريبين» وأعدموا رميا بالرصاص، كانت هذه الوسيلة تبذيرا للذخيرة ، فلجأوا الى جلاد متمرن ، فعال ولا يكلف الكثير . والعاهرات اللاتى كن يزحمن الثكنات ، ألقين فى النيل (....) . كانت الغرامات ، والقروض الاجبارية، والضرائب ، تسيء، الى حد ما ، الى سياسة التقارب التى انتهجها بونابرت على الدوام» . ولا يسعنا طبعا إلا الإعجاب بتعبير «الى حد ما» ، خاصة بعد الذى قصه علينا من إعدام بالجملة ، ولم نعرف عدد من أُعدموا لمجرد الارتياب فيهم وكان رميهم بالرصاص يكبد ذخيرة الجيش الكثير : ألم تعلمهم الثورة فى فرنسا وسائل «رخيصة» للتخلص من الأعداء ؟

والنتيجة التى يتوصل اليها مؤلفنا لا تخلو من سخرية غير مقصودة طبعا . فهو مقتنع تمام الاقتناع بروعة أعمال الحملة ، بعد كل ما حكى عن المذابح العشوائية : ألم يقل إن أعداء الفرنسيين «كانوا يظنون أن الفرنسيين يتمتعون بقوة خارقة يتعذر شرحها» ؟

«حملة مصر ، التى يمتزج فيها الحقد والحب ، والعظمة والخسة ، والشمس والموت ، فتحت آفاقا جديدة للفرنسيين والمصريين ، بفضل

ماتوصلوا اليه من تفهم أعمق ومتبادل لاختلافهم ..ربما لم تكن إلا بداية «الحلم الشرقى» ، ولكنه كان أحسن ما فى هذا الحلم» !!

والغريب أن هذا الكلام فى تناقض تام مع التعليقات التى نقرأها فى المجلد نفسه ، تحت اللوحات التى تنقل الينا . فنصف المجلد تقريبا من الرسوم واللوحات التى رسمها فنانون بعضهم كان مصاحبا للحملة والبعض الآخر رسمها بعد ذلك بتوجيهات بونابرت لدعايته الشخصية، ولنقدم بعضها للقارىء الكريم .

فمثلا ، هناك اللوحة المسماة «دخول بونابرت الى الاسكندرية فى الثانى من يوليو ١٧٩٨ » وهى تصور الموتى على الأرض والجرحى يتوسلون الى بونابرت على حصانه الابيض ، والنور يغمره ، والتعليق يقول : «بونابرت ينقذ أباً بإشارة من يده» ... وعدد الضحايا تحت حوافر حصانه لايحصى . ولوحة أخرى عنوانها : «مسيرة الجيش فى الصحراء » والشرح يقول : « ... ويصاحبه رجال من البدو الذين يقتلون بقسوة من يبتعد عنه من الجند ..» : كلام لا نجد له مرجعا فى النص المكتوب ، الذى لا يصور بونابرت وجيشه إلا منتصرين ، مثلما نرى فى اللوحة الأولى . ثم نرى لوحة «بونابرت (وهو) يهدى الوشاح الجمهورى ذا الألوان الثلاثة لأحد بكوات مصر» ، ونرى هذا «البك» وهو فى الواقع من المشايخ ، ورأسه منحنٍ ، ويداه معقودتان على صدره فى

وضع ذليل ، بينما نقرأ تحت الصورة ما يلى : «أمر القائد العام يوما أن يأتى اليه البكوات ، ثم خرج وعاد وبيده أوشحة بألوانها الثلاثة، ووضع أحدها على كتف الشرقاوى ، واذا بالشرقاوى يلقى به فجأة وقد احمر وجهه غضبا ويقدم استقالته . حاول المترجم جاهدا أن يشرح للمشايخ المجتمعين أن القائد العام يريد تكريمهم بجعلهم يرتدون الشارات نفسها التى يرتديها هو ، ولكنهم أجابوا : سنفقد احترامنا أمام الله وفى قلوب إخواننا فى الدين » . مأخوذ عن مقال «الحملة على مصر فى أعين الكتاب المصريين » بقلم ابراهيم أمين غالى » (١٠٢) ، وكنا نظن أن مثل هذا الكلام كان يكفى لعدم نشر اللوحة الكاذبة، اللهم إلا إذا كان الهدف هو فضح الاسطورة ، واللوحة . وتحت رسم آخر عنوانه « مناظر من مصر السفلى - ١٥ سبتمبر ١٧٩٨ » نقرأ «.. كلف هذا اليوم الفرنسيين ثلاثة قتلى وتسعة عشر جريحا ، فى حين قتل حوالى الثلاثين من الفلاحين الثائرين . وفى الفترة نفسها قامت محاولات ثورية عديدة فى مقاطعات المنصورة ودمياط والمنزلة » ، وهو اعتراف يتنافى مع ما نقرؤه عن الحياة الوردية للفرنسيين فى النص المكتوب لهذا المجلد . وتحت لوحة عن «ثورة القاهرة - ٢١ أكتوبر ١٧٩٨» نقرأ : «بعد وفاة الجنرال دوبوى أخذ الجنرال بون قيادة المكان ، وجمع الوحدات المتناثرة فى المدينة ، وبعد معارك ضارية

فى الشوارع ، رُد الثوار الى جامع الأزهر ، الذى سيصبح الملاذ الأخير لهم » ، هذا الكلام أكثر بكثير مما سبق أن قرأناه فى النص عن « الحادثة العارضة» . كذلك ما كتب تحت لوحة تصور « بونابرت (وهو) يعفو عن ثوار القاهرة » (....) فالجنرال بونابرت قد عفا « عن كل من لم يوجد بيده سلاح» ، ثم عن جموع السكان . ومع ذلك ، فالعقاب كان بشعا للمحرضين على الثورة وكل من « يثبت اشتراكه فى القتل أو السلب » . « قطعت رءوس ستة مشايخ من الأحد عشر شيخا الذين ثبتت مسئوليتهم بعد القبض عليهم ، وكل رجال قبيلة البدو الذين قتلوا ركبا لأحد عشر مريضا من فرقة رينييه القادمة من بلبيس . كذلك ، سينفذ حكم الإعدام فى كل الأسرى المسلحين ، وستلقى جثثهم فى النيل ، كى تمر على مدن الدلتا كلها ، فتعرف تلك المدن عندما تراها مارة عليها أن سيف بونابرت لا ينهزم ، وأنه لا جدوى من معارضة إرادته» . ثم لوحة سميت «بونابرت فى الجامع الكبير بالقاهرة» نرى فيها بونابرت على جواده فى ساحة الأزهر، ويحكى التعليق تفاصيل المعركة كلها ، حتى بعد أن استسلم الثائرون : «بقيت بعض المعارك المتفرقة وسط أطلال الجامع الكبير ، حيث سينتحر بعض المتعنتين حتى لا يسقطوا أحياء فى أيدى الفرنسيين . تسبب يومان من الثورة فى وفاة نحو ثلاثمائة فرنسى ، منهم كثير

من علماء المعهد الفرنسى ، وكثير من الضباط ، كان من بينهم الجنرال دوبوى قائد المنطقة ، والضابط سولكوفسكى ، الياور المفضل لدى بونابرت . وقد مات أكثر من ثلاثة آلاف من الثوار » . وتحت رسم آخر سمي أيضا «ثورة القاهرة – ٢١ أكتوبر ١٧٩٨» نقرأ ما يلي : «استغل الانجليز والأتراك حالة التذمر التى خلقتها (اللوائح الفرنسية) وساعدهم على ذلك الأئمة والمفتون الذين يحرضونهم على الثورة ، بإذكاء التطرف الديني » .

إن الرسوم واللوحات هى التى تعرف قارىء هذا المجلد أن الحياة اثناء الحملة لم تكن وردية كما يوحى بذلك النص المكتوب ، نرى مثلا الرسم الذى يعرف بالمقاومة المسلحة فى الريف حيث « يتجمع البدو وأهل مكة تحت قيادة الشريف «حسن» فى معركة أبومنا – ١٧ فبراير ١٧٩٩ أو معركة بنوث ٨ – ١٠ مارس ١٧٩٩ ، لأنه فى الثالث من مارس ، حجزت مراكب فرقة ديسى (....) أمام قرية بنوث ، وهاجمها الشريف «حسن» واستولى عليها على الرغم من مقاومة أطقم المراكب الذين قتلوا جميعا (خمسمائة رجل ، من بينهم مائتا بحار) وصل لواء الجنرال بلليار بعد فوات الأوان ، ولكنه تعقب حسن» .

أما عن الحملة فى الشام ، فهناك رسم يشير الى «النقيب أوجين دى بوهارنييه (...) يتفاوض بصحبة كروازييه (...) مع جزء من

الحامية التى احتمت فى الخان لتسلم نفسها ، وقد وعدها بالأمان (....) لكن بونابرت لم يبال وأمر بإعدامهم . وإن كان الجيش لم يوافق على هـذا القرار ، الذى قال عنه (المؤرخ) تيير (فى القرن التاسع عشر) إنه : العمل القاسى الوحيد فى حياة امبراطور المستقبل » .

ومرة أخرى ، ناقضت التعليقات التى تشرح الرسوم كلام النص وتأكيداته غير الموثقة.



منذ بداية هذا الكتاب ، والأمور تبدو مؤكدة ، وكأن الدراسات السابقة قد أثبتتها ، مثلما يقال عن العمل العظيم للمعهد الفرنسى، وامتداد التأثير الفرنسى بعد ايقاظ مصر من غفوتها .

أصبحت هذه المقولات من المسلمات التى لاتناقش ، حتى أن أستاذا مثل « جان تولار » الذى نقب عن كل كلمة قالها نابليون ، وكل عمل قام به ، بدقة متناهية ، وروح نقدية رائعة ، وبكل ثقل سمعته العلمية يرجح هذا الكلام المبهم .

والأسلوب المستخدم بعد ذلك، يصعب توضيح خصوصيته مهما بلغت فعالية ترجمته الى العربية ، فهو أسلوب لايستعمل إلا التعبيرات والكلمات التى تؤثر على القارىء بطريقة لاواعية ، فتجعله ينبهر ببونابرت ورجاله ، ويقلل فى الوقت ذاته من شأن المصريين وكفاحهم .

فالنظرة العلوية لمؤلف الكتاب لاترى إلا ماهو سيىء فى كل مايفعلونه ، ولاترى خطأ فيما يقترفه الفرنسيون .

«فترانييه» المسئول عن النص المكتوب ، ليس مؤرخا بقدر ما هو مؤلف فنراه يحبذ جانبا ، ويحتقر الجانب الآخر فتأتى كتابته دعاية سافرة للأمجاد الفرنسية ؛ وإذا لزم الأمر ، اختلق الأعذار لتبرير مالا يبرر ، وفخم مالا يستحق حتى الذكر . والرسوم المعروضة ، بتعليقاتها تأتى أحيانا على عكس ماقيل فى النص ، ولايبدو أن المؤلفين اهتما كثيرا بهذا الأمر ، مما يقلل من القيمة العلمية لكتاب ، نتوقع أنه يؤرخ لواقع لاتتغير صورته عبر الصفحات .

وأقل مايقال عن هذا الكتاب ، الجميل المظهر ، والذى نشر عام ١٩٨٨ ، انه لايستند إلا على الكتب التى تغنت بأسطورة بونابرت والحملة ، وتجاهل كل ماقيل عن الحقائق المريرة لتلك الحملة ، وبقلم من كان مصاحبا لها، إنه ترديد لكل ماسبق ان كتب دون سند علمى ، بلا أية اضافة جديدة ، اللهم إلا الدفاع عن مجزرة اسرى يافا، وهو الأمر الذى لم يصل إليه أكثر المؤرخين انبهارا بالحملة وببونابرت .

وتأتى بعد ذلك التعليقات تحت اللوحات ، والمسئول عنها «كارمينيانى» لتؤكد ذلك التناقض الذى نلاحظه عند مؤرخى هذه المرحلة فهم لم يتخلصوا بعد من داء الدفاع عن بونابرت حتى وإن كان ظالما ،

وتمجيد الحملة حتى وان كانت فاشلة ، وفى الوقت نفسه يعترفون بجوانب سلبية فرضت نفسها على أكثر المؤرخين تحيزا لمجد الجيوش الفرنسية .

يبقى دور «جان تولار» الذى قدم للكتاب بإعجاب شديد ، وكأنه يوافق على كل كلمة جاءت فيه .

★★★

« جان تولار » والحملة

مقدمة «جان تولار» لهذا الكتاب ، تجبرنا على التنقيب عما قاله المؤرخ الكبير عن بونابرت والحملة ، خاصة أن كتابه المهم عن نابليون أو «أسطورة المنقذ» ، كان قد نشر فى عام ١٩٨٧ ، اى قبل عام واحد من ظهور هذا المجلد . وكان «تولار» قد اهتم بدراسة الحملة كجزء من تاريخ نابليون ، ولكن كتابته عن الحملة سبقت هذا التاريخ بسنوات أربع .

نشر لـ « تولار» مقال فى مجلة «لستوار» ، عام ١٩٨٣ (عدد ٦١) عن «بونابرت فى مصر» ، ونشرت المجلة على غلافها – إمعانا فى تأكيد أهمية مقال «تولار» – صورة للوحة ، لم يذكر اسم راسمها ، نرى فيها بونابرت على اليمين ، ومن ورائه ضباطه ، منتصبين فى إباء ، وفى النصف الأيسر ، مجموعة من المصريين ، خاشعين ، ورءوسهم كلها

أقصر من رءوس الفرنسيين وأحدهم يركع أمام بونابرت ليتسلم منه سيفا وعنوان اللوحة «الجنرال بونابرت يهدى سيفا للحاكم العسكرى للإسكندرية» علما بأن الحاكم العسكرى لم يكن يوما مصريا أثناء الحملة .

وتحت عنوان مقال «بونابرت في مصر» نقرأ ملخصا لأفكار المقال بالخط العريض · «أيوجد فى تاريخ فرنسا حملة أكثر غرابة من غزوة مصر عام ١٧٩٨؟ حتى إن كانت «جنونية» ، فهذا لم يمنع حرب بونابرت من تغيير وجه الشرق الأدنى ، وفي مصر نفسها تختلف الآراء حول نتائج الوجود الفرنسى ، سواء أكانت هذه الآراء ايجابية أم سلبية » .

ويشرح «تولار» هذه المقدمة بقوله : «جنونية ، لأن الغزوة تبدأ فى شهر يوليو ، مما يدل على الجهل التام بمناخ المنطقة ، ولأنها هجوم على بلد لم تعلن الحرب عليه . وجنونية ، من جهة أخرى ، لأن السبب المعلن كان إنشاء مستعمرة ، فى اللحظة التى يعلن فيها حق الشعوب فى تقرير مصيرها . والأغرب أن الجيش الفرنسى وجد نفسه سجين فتحه ، لايستطيع الرجوع الى فرنسا ، فى حين يتركه القائد لمصيره ، ويعود مسرعا لإنقاذ جمهورية ، يهددها تحالف كان منتظرا من أمد بعيد . وعلى الرغم من ذلك ، وحتى ان كانت مجنونة (.....) فقد ولدت

الحملة علم المصريات (....) وساعدت على الانطلاقة الاقتصادية لمصر، لأنها أعادت للشرق الأوسط مكانة ، كان قد فقدها» . ويلاحظ «تولار» الاهتمام الحالى بالحملة «فأعيد نشر كتاب بونابرت فى مصر لبينوا – ميشان كما اعيدت ترجمة الجبرتى» . لذا ، أخذ «تولار» يقدم فى مقاله تاريخ الحملة ، مؤكدا ان فكرة الاستيلاء على مصر كانت وليدة سياسة «تاليران» ، حتى اهتم بونابرت بالفكره . ويرفض «تولار» ما يؤكده أسلافه من المؤرخين – ومنهم «بينوا – ميشان» أن بونابرت كان يحلم دائما بإمبراطورية شرقية .

أما عن الحملة ، فقد تم الاستعداد لها فى سرية تامة ، وبسببها أبعد عن فرنسا – وهى مهددة – أحسن جيوشها وأكبر علمائها. ولكن «الغزوة لم تكن بالسهولة التى كانوا يتوقعونها . فالهجوم أثناء شهر يوليو كان بمعدات لاتتلاءم مع الحرارة الشديدة للجو ، وكل أقوال الشهود العيان تؤكد انهيار الروح المعنوية للجند ، وقد أصبحوا ضحايا لأنواع مختلفة من الحمى ، علاوة على أن دوافعها لم تكن مقنعة (.....) فالجند لايدافعون (كما حدث فى حروب الثورة) عن أرض الوطن (.....) فكانت حالات الانتحار العديدة » .

ولكن بونابرت يعيد تنظيم البلد ، ومثل أسلافه لم يتحدث «تولار» عن رد الفعل المصرى على بيانات بونابرت ، وكذلك لم يتعرض لما

اتخذه بونابرت من اجراءات لتمويل خزانة جيشه . فهو يرى ان احترام بونابرت لشعائر الدين الاسلامى كاف لكسب محبة الجمهور المسلم . وكان الاهتمام بالآثار كبيرا . ولكن هناك بعض الثورات المحلية ، الى ان نصل الى ثورة القاهرة ، فى الحادى والعشرين من أكتوبر : «ان العامل الدينى هو الذى يشرح هذا ، وليس تأثير الانجليز او المماليك» ، ومن البديهى ان «تولار» يرد هكذا على من سبقه من مؤرخين ، يؤكدون هذا الكلام الذى ينفيه هو ، ولكننا نراه يتفق معهم على ان التطرف الدينى ، وليست أفعال الجيش أو إجراءات بونابرت ، هى التى تسببت فى الثورات على الجيش . والجديد هنا ، تأكيد «تولار» على انضمام علية القوم للجيش الغازى ، متخذا «الجبرتى» مثلا لذلك :«هذا البورجوازى المثقف ، الذى ترك مذكراته (.......) كان عضوا فى الديوان الثالث الذى أنشأته السلطات الفرنسية ، فى حرصها على اشراك الأعيان فى ادارة مصر . لم يرفض الجبرتى هذا التعاون مع العدو ، حتى إن كان كتوما (بالنسبة لهذا التعاون) فى مذكراته . ما أسباب هذا التعاون؟ أهو الحس الانتهازى ؟ الخوف ؟ الاقتناع بأن المستعمر الفرنسى يستطيع تحسين البلد ؟ نلاحظ انه يكتب باستحسان عن اعدام الناهبين الفرنسيين ، انه يرى فى هذا التصرف دلالة على اصرار بونابرت على حماية الممتلكات . ويلاحظ (الجبرتى) ان الشعب ،

فى المدن والقاهرة بالذات ، قد عاد الى أخطائه السابقة» .. وعندما يصف «تولار» - سريعا - الحملة على الشام ، نراه يعزو فشل بونابرت أمام عكا الى وجود «المهاجر فليبو» الفرنسى وإلى المساعدة الانجليزية، دون ذكر لمجازر بونابرت السابقة ، ولكنه يصف تدهور حالة الجيش الصحية والمعنوية أثناء العودة ، ويلاحظ ان هذه الأمور لم تؤثر بأى صورة على مشروعات بونابرت ، ولكنه يعود الى فرنسا بعد انتصاره على الأتراك فى معركة «أبو قير» الثانية .

أما عن نتائج الحملة ، فقد كان المستفيد الأول منها هو بونابرت نفسه : « لقد تسببت هذه الحملة - أكثر من حملة ايطاليا - فى ازدياد هيبته بصورة هائلة ، فلا يستطيع الخيال الشعبى (الفرنسى) إلا أن يلتهب لذكر انتصارات دارت تحت سفح الأهرامات ، أو بجانب الأماكن المقدسة (بفلسطين) وانتشرت الرسوم الشعبية بألوانها الرديئة ، حيث شىء من الجمال وقليل من النخيل يكفى وراء جنودنا بزيهم الكامل ، وهم يعاركون أناسا لهم شكل غريب وعلى رءوسهم العمائم . وفى ركن من الرسم ، أو يتوسطه ، ضابط شاب نحيف ، شرس ، واثق بنفسه وبالانتصار، يلقى أوامره . هكذا وجدت فرنسا فيه القائد الذى كانت تبحث عنه

لينهى الفوضى التى سببتها الثورة » . ويلى هذا، شرح للدور الذى لعبه بونابرت وفريقه «بمهارة» ، لتغذية الأسطورة ، على الرغم من «الانبهار الشعبى العفوى» للحملة.

«ولكن كانت هناك نتائج أخرى للحملة بالنسبة لفرنسا»، فكان التأثير على الفن أول مايرشدنا إليه «تولار»، وكأنه اهم مانتج عن الحملة، ولو ان «تولار» يجد فى هذه «الموضة» نوعا من التملق لحاكم فرنسا، «القنصل الأول بونابرت» ، لأن هذا النموذج لم يكن جديدا على ميادين الفن، خاصة فى إيطاليا، ويرى «تولار» ان تلك اللوحات كان لها أكبر الأثر على اهتمام الفنانين الرومانتيكيين من بعد؛ مثل لوحتى الفنان «جرو»، «مرضى الطاعون فى يافا» عام ١٨٠٤ و «معركة «أبو قير» عام ١٨٠٦، ولوحات لآخرين مثل لوحة الفنان «جيران» عن «الجنرال بونابرت يعفو عن متمردى القاهرة»، والتى عرضت عام ١٨٠٨ ويذكر «تولار» كتاب «فيفان دينون» عن رحلته وانبهاره بالآثار المصرية، ويصف لنا جمال الرسوم التى نشرت فيه ويلفت نظرنا أن «تولار» ، مثله فى ذلك مثل غيره لم يتوقف عند الصفحات التى يحكى فيها «دينون» عن الوجه المظلم للحملة على مصر، تلك الصفحات التى سنترجمها فيما بعد.

الأثر الايجابى الآخر للحملة، من وجهة نظر مؤرخنا، هو اكتشاف حجر رشيد، وما سببه من فك للرموز الهيروغليفية على يد الفرنسى «شامبليون» ، بعد ان فشل الانجليزى «يونج» فى تلك المهمة.

ويقول «تولار»: «من جهة اخرى وعلى المستوى الحربى، فلابد ألا نبالغ فى الدروس المستفادة من الحملة على مصر، فإنشاء جيش استعمارى لم يأت إلا فيما بعد، مع غزو الجزائر، ولكن مما لاشك فيه ان الحملة كان لها اكثر من نتيجة غير فرنسية. فعواقبها الدبلوماسية كانت مهمة، على الأجلين القصير والبعيد». لقد أثبتت الحملة ان «قسطنطينية لم تعد قادرة على الاحتفاظ بفتوحاتها القديمة. وكانت انجلترا واعية لأى تغيير جذرى» ، يطرأ على المنطقة.

ثم يستعرض «تولار» مايقوله الدارسون للحملة، خاصة من العرب. ويختار مثالا على ذلك صلاح الدين بستانى، الذى يرى انها بداية الصحوة الاقتصادية لمصر، فما بونابرت، من وجهة نظره، إلا رائد محمد على الذى حقق مشروعات بونابرت واستعان بالفرنسيين فى نهضته. ثم يهاجم «تولار» سلسلة مقالات «رشاد رشدى» فى جريدة الأهرام : « فهى نتيجة التعليم الدينى السلفى المتعنت الذى يتهم فرنسا بجلب سموم الغرب ، لأن رشاد رشدى يتهم الحملة بأنها افقدت مصر هويتها» . ويكفى هذا الوصف الغريب لرشاد رشدى

ليفهم القارىء العربى « تعنت تولار » نفسه ، انه لايريد ان يرى ان فقدان الهوية ، فى مصر ، مرفوض من الدينى وغير الدينى ، كما يحدث فى فرنسا بالضبط وفى كل بلدان العالم، ثم ينصح مؤرخنا «المخرج يوسف شاهين بخصوص فيلمه المقبل (عن الحملة) الذى تشترك فرنسا فى انتاجه ان يعى ان الحملة كانت تحمل بذور فتح قناة السويس ، وتنظيم مجرى النيل ، كما أنها تسببت فى صحوة مصر السياسية والاقتصادية ، واكتشاف ماضيها» . وهكذا ينتهى هذا المقال المكتوب سنة ١٩٨٣. ويشرح لنا إعلان تلك الأفكار، منذ ذلك التاريخ ، تبنى «تولار» لكتاب « ترانييه وكارمينيانى » ، وكتابته لمقدمته .

ظهر للمؤرخ بعد ذلك العديد من الكتب، تفضح كلها أسطورة نابليون.. إلا فيما يخص الحملة على مصر!

ويتعرض «تولار» للحملة طبعا فى كتابه الشهير عن «نابليون أو اسطورة المنقذ»، عام ١٩٨٧ ، يرى فيه مؤرخنا ان الحملة على مصر كانت لها أهداف مهمة، وهى « قطع طريق الهند على الانجليز، (...) إنشاء مستعمرة تساوى – على حد قول تاليران – كل المستعمرات التى فقدتها فرنسا . (...) وترسيخ قاعدة لغزو الهند فى المستقبل ، وهى التى تعتبر أهم مورد للثراء البريطانى : (...)

كان غزو مصر يبدو جنونا (...) خاصة ان البلد لايزال مجهولا، على الرغم من تاكيدات القنصل الفرنسي «ماجالون» عن سهولة مثل هذا الفتح . ولكن خيال بونابرت كان يستهوى الشرق.. (...) اما الرأى العام ، فقد التهب حماسا لحملة تذهب الى منطقة غامضة، كان كتاب فولنى ، الاطلال ، قد جعل منها موضوعا ساخنا»، وأراد بونابرت ان تكون لحملته على مصر «صبغة علمية»، ليؤكد تكاتفه مع تيار الفلاسفة «الفكريين» (١٠٣) . وأيا كان الامر «ففتح مصر بدا، قبل كل شيء ، عملية سياسة داخلية: إن بونابرت كان اكثر واقعية مما يبدو، حسب ما نسب اليه من تصريحات بعد ذلك ، حتى يفكر فى إنشاء امبراطورية خاصة به فى الشرق، مثلما فعل الاسكندر، كانت هناك عوائق متعددة، أولها الدين واللغة ، وهى تمنع مثل هذا التفكير. (...) انهيار المماليك بسرعة: معركة واحدة كانت كافية لذلك (...) فسرعان ما تحول هذا الانتصار ، وبفضل ما قيل عنه من اساطير، الى معركة كبيرة جدا . ولكنها ، على الاقل ، فتحت القاهرة لبونابرت (...).. وفى الحادى والعشرين من اكتوبر، عبرت ثورة القاهرة عن عداء السكان (...) وقد اثبتت هذه الفتنة العنيفة حدود انضمام الاعيان المسلمين» إلى بونابرت...

لن نعرف تفصيلات اخرى عن الثورة ؛ فرأى « تولار » واضح : الـدين وحده هـو سبب رفض المصريين لبونابرت : « مشروعات تحويل الجيش الى الاسلام كانت تقابلها صعوبات جمة (مثل احتساء الخمر) ودون الدخول فى الاسلام، فلا امل فى اى انتشار فى الشرق الادنى ، كما يثبت ذلك شارل - روو » ، فى كتابه بونابرت حاكما على مصر (١٠٤) .

وعلى الرغم من تشبيه «تولار» لموقف الفرنسيين فى مصر «بالكابوس» ، إلا انه يؤكد ان : «بعض المسلمين قد انضموا للفرنسيين، ولكن كان هذا شأن البورجوازية المستنيرة وحدها، وهى التى يمثلها الجبرتى»: فالاستنارة فى نظره، هى التى تقود الى التعامل مع الجيش المستعمر. ولايفوتنا انه لايذكر اسما آخر غير اسم «الجبرتى» .

وفى عام ١٩٩١، يضيف «تولار» بعض التفاصيل الأخرى عن الحملة، فى كتابه عن «حكومتى الادارة والقناصل»، انه يثبت فيه ان بونابرت لم يكن مجددا، بقدر ما كان منفذا، أثناء توليه «قنصلية» فرنسا بعد عودته من مصر، فما كان بونابرت إلا منفذا لسياسة الحكومة السابقة، حكومة «الادارة» التى سبق أن ارسلته الى مصر، فهو يرى ان البعثة العلمية التى صاحبت الحملة على مصر، لم تكن اكثر من «تبرير للحملة» ، ولكن «تولار» صور بونابرت على أنه : «حامى

العرب ومحرر الفلاحين ، متعهد باحترام الدين وتقاليد الاسلام ؛ كان عليه ان يعيد ايضا ثراء مصر، التى كانت تصدر الغله لروما القديمة، حربه إذن حرب تحرير » . ولكن المصريين لم يقبلوا الوضع ، « وكان على الفرنسيين إخماد فتنة القاهرة بعد ان اعطى الفرنسيون امتيازات لليهود » .

.. أى نعم ، فعلى القارىء ان يعيد القراءة ويتأكد من ذكر اليهود حيث انهم لم يذكروا يوما فى أى نص آخر. ومثل هذا الكلام يأتى هكذا، دون أى مرجع، بالطبع. ويبدو ان «تولار»، هو الآخر، اصطدم بضرورة تبرير اخطاء الحملة، على الرغم من مرور اكثر من قرن عليها، حتى إن لجأ المؤلف الى قضايا معاصرة له ليستخدمها فى تبريراته: ففى النصف الثانى من القرن العشرين، تقوم الحروب بين العرب ، مصر بالذات ويهود اسرائيل؛ فيشرح هذا «لتولار» فى عام ١٩٩١، ثورة القاهرة فى عام ١٧٩٨ ! .

إنه ، مثل اسلافه – «سبيلمان» بالذات ـ يقحم الحاضر، وينتهز فرصة تأريخه للحملة، ليصفى حسابات قضاياه المعاصرة.

ويأتى «تولار» الى لحظة حساب الحملة: «إن نتيجة الاستعمار بدت ايجابية الى اقصى حدود على المستوى الثقافى» : فتولار سعيد جدا بإنشاء المعهد الفرنسى، وما جمع من عناصر «لوصف مصر» ،

واكتشاف حجر رشيد؛ ولن يذكر غيرهما كنتيجة ايجابية مادية مؤكدة للحملة.

فنظرة «تولار» إذن، لم تتغير كثيرا، منذ كتابة مقاله فى عام ١٩٨٣، ولكن وفى عام ١٩٩١ نفسه، تنشر له «الببليوغرافيا النقدية الجديدة لمذكرات المرحلة النابليونية، المكتوبة بالفرنسية او المترجمة إليها»؛ وهو لايقدم فيها إلا «الكتب التى تخص نهاية الحملة، بعد سفر بونابرت» (١٠٥).

«أما المذكرات الخاصة بالحملة، فهى فى الببليوغرافيا النقدية لمذكرات الثورة ، التى نشرها فيررو سنة ١٩٨٨» .

مجلد « تولار » ، يلخص فى بضعة سطور محتوى كل عنوان يقدمه . فتقرأ عن مذكرات احد جنود الحملة مثلا « أنها ضرورية لمعرفة الحال البائسة للجند فى مصر ، بالنسبة لشخص لايهتم بالمجد » .

ويلفت نظرنا عنوان « مذكرات تصلح لتأريخ حملتى مصر وسوريا» ، لجال فرنسوا ميوو ، والتى يعلق عليها «تولار» بما يلى: «فعلى حسب الطبعة الثانية، يبدو ان نشر هذا الكتاب أثار غضب بونابرت ، وان هذه الطبعة (الثانية) بها عناصر إضافية لم يجرؤ ميوو على ذكرها عام ١٨٠٤ » . والكثير من المذكرات يفضح – على

حد قول قارئها «تولار» - « فظائع الجند » فى البرتغال ، واسبانيا وروسيا. ولكننا لم نسمع منه اى تعليق على فظائع الجيش فى مصر.

★★★

لايختلف «تولار» إذن منهجيا عن اسلافه ، ممن تبنوا النظرة المتعالية على الشعوب المستعمرة، والتى كانت سائدة عند كل من كبر وتعلم وتشبع، بفلسفة «الجمهورية الثالثة» القومية الاستعمارية قبل الحرب العالمية الثانية، فهم يدلسون «بضمير مستريح»، حسب التعبير الفرنسى، ويتجاهلون ردود الافعال الطبيعية لاى شعب يخضع للقوة الغاشمة، ولا يفهمون ثورته على مستعمر يستغل ضعفه. ولذا، نراهم لايعزون رفض المصريين للاستعمار الفرنسى إلا لسبب اختلاف الدين، فقط، ولا يذكرون الافعال الاستفزازية للجند الفرنسيين.

وعلى الرغم من أن الكنيسة المسيحية ، قد وقفت الى جوار كل المتمردين على المحتل الفرنسى- الذى كان يدين هو نفسه بالمسيحية الكاثوليكية - فى كل بلاد أوربا وأسبانيا بالذات، أثناء حروب نابليون، بعد الحملة على مصر؛ إلا ان أحدا من المؤرخين لم يعتبر ذلك إلا عاملا من العوامل المساعدة للثورة ؛ وذلك على العكس ، تماما ، مما يرونه فى مصر. فعندما وقف المشايخ والعلماء مع ثوار القاهرة اعتبرهم المؤرخون، هم وحدهم، السبب فى الثورة، والمحرضين عليها. وعندما

تعرض « تـولار » نفسه للثـورة الاسبانيـة على غزو نابليون للبلاد ، كتب قائلا : « مرة أخرى ، يكتشف نابليون الحرب القـومية ، التى تمـزج الوطنية بالتطرف الدينى .. » (١٠٦) ؛ ولكن كلمتى « قـومية ووطنيـة» لم تستعمـلا ولـو لمرة واحدة عندما تحدث عن الثورات فى مصر، مع التشـابه الكبير لما حدث فى البلدين كليهما. وكـان مثقفو الاسبان يحبـذون الحكم الفرنسى ، كما يرى المـؤرخون الفرنسيـون ان مثقفى مصر احتفلوا ببونابرت ؛ وعلى الرغم من ذلك التشابه، لم يـذكر احدهم ثورة القـاهرة بالخير ويتفق المؤرخـون على ان الحملة لم تنجح إلا ثقافيا ، دون ذكر كلمة « فشـل » بالنسبة لباقى اهدافها، مستعملين أسلوبا غاية فى التهـذيب ، عند التعرض المباشر للمسألة . فمن البـديهى أنهم لايحبذون فكـرة انكســار الجيــش الفرنسى إلا اذا كان العدو اوربيـا مثلهم ، فيكـون ، عنـدئـذ ، جـديرا بالندية ؛ ولعب الانجليز هذا الدور اثناء حصار عكـا . ويضخم دور المعهد الفرنسى فى كتبهم ، حتى يساند فكرة « النجـاح الثقافى » ، دون ان يقدموا دليلا واحدا يثبت ان المصريين استفادوا من هذا النجـاح . فكل مايقال عن التأثير الفرنسى فى القرن التاسع عشر، كان بسبب فتح باب مصر للإرساليات الفرنسية فى عهد اسماعيل باشا ، أى بعد مـرور عقـود ، اختلف فيها كل شىء، حتى سياسة فرنسا نفسها.

وهكذا تأكدت اسطورة الحملة ونتائجها، لكل من أراد ان يعرف عنها شيئا، من غير المتخصصين.

***

«كلودين جروسير» : «إسلام الرومانتيكيين»

نأخذ كأحسن مثل على تأثير كتابة هؤلاء المؤرخين ، وعلى رأسهم أشهرهم ، « جان تولار » ، ما نقرؤه من تعليقات « كلودين جروسير » فى كتابها عن « إسلام الرومانتيكيين » فى عام ١٩٨٤ . من البديهى أن « كلودين جروسير » باحثة جادة ، لم تقصر فى البحث عن معلومات تخص الحملة، فجاء تعليقها كالآتى :

« استطاع بونابرت ان يقنع انه المالك الوحيد لحقيقة الاسلام (فى مصر) . وعندما افنى تهديد المماليك الجاثمين لقرون على انفاس المصريين ، استطاع ان ينال تأييد شعب اعتبره مخلصه . وما كان هذا الاسلوب إلا إعادة لما فعله فى ايطاليا بنجاح ظاهر . ولكن الأرض المسلمة لها صعوبات اخرى ، خاصة بغربتها ، مما يشرح اللجوء الى العلم والاستثمار الفرنسى فى هذا الميدان . وترك بونابرت بعد رحيله من الارض الافريقية ، الكثير من آثار مروره : لقد أنشأ المعهد الفرنسى حسب رغبته ، حيث يعمل مائة من العلماء

المصاحبين للجنرال . لن يعود بعضهم الى فرنسا ، أو قد يعودون مرحليا ، ليؤكدوا استمرارية الوجود الفرنسى أثناء القرن التاسع عشر » . ولا نعرف من أين جاءت الباحثة بهذه المعلومة الخاطئة ، خاصة انه لاتوجد هوامش هنا تدل على مراجعها . ويقابلنا الغموض نفسه عندما تؤكد : « على الرغم من ثورة القاهرة ومقتل كليبر فإن شعبية بونابرت لاتخبو (..) ، ففى القاهرة نفسها ، يعيد الكولونيل السابق للجيش الفرنسى ، سيف ، تنظيم الجيش المصرى من اجل محمد على : ما اكثر الامثلة لذرية رائعة متميزة ! » . وهكذا ، يختفى مرور السنوات ، واختلاف الظروف ، ويتم دمج عصر محمد على بظروفه الجديدة ، لعصر سابق لا علاقة له بما حدث اثناء الحملة . ونذكر ما تلحقه الباحثة بعد ذلك لتأكيد امانتها .. « لتدخل فرنسا فى مصر فى بداية العصر ، تاريخ طويل . ولكن ، على عكس ماحدث اثناء الحروب الصليبية ، فالتدخل فى هذه المرة لم يثر معارضة الشعب ، او ، على الاقل ، فهذه المعارضة لم تكتب..» .. ولذا ، فكيف لانعذرها مادامت لم تقرأ إلا مؤرخين لم يتحدثوا عن المقاومة المصرية ؟

★★★

« برتران سوليه » : « فى مصر مع بونابرت »

الرؤية الفرنسية للحملة تتطور باستحياء شديد. فأصبح هناك من الاحداث مالا يمكن اغفاله . ولدينا نموذج ممتاز لهذا التطور، فيما يقال عن الحملة للأطفال. فالحديث الموجه لهم لابد ان يكون واضحا سلسا.

ففى سلسلة الكتب التى تحكى مغامرات شاب فى نهاية القرن الثامن عشر، «الموجهة لسن ١٢ عاما ومابعدها»، نذهب مع البطل الى « مصر مع بونابرت » (١٠٧) . وهو الكتيب المنشور سنة ١٩٨٨.

ومع ان المؤلف دارس جاد للموضوع ، إلا اننا نراه يجعل من الجنرال «ديسى» وليس «كليبر» خليفة لبونابرت فى مصر، وهو خطأ فادح . ولكن باقى معلوماته التاريخية صحيحة ، خاصة فيما يخص اعمال السطو التى يقوم بها الجند: الحق يقال ان الضابط يحاولون الحد من نهمهم المخرب، ولكن دون جدوى ، وهدف الحملة، والكتاب واضح منذ الصفحات الاولى : «الجيش الفرنسى للشرق فى طريقه الى مصر ليحرر المصريين من طغيان المماليك (...) ، إنهم طغاة ، دكتاتوريون» : نلاحظ ان كلمة «طغاة» ، وهى من مفردات الثورة ، فى حاجة الى توضيح للجيل الجديد، فتضاف اليها الكلمة الحديثة « دكتاتور » ، ليفهم المعنى ؛ فالقرن العشرون ضد « الدكتاتورية » ،

كما كــان « الطغاة » اعداء « الثورة الكبرى » فى القرن الثامن عشر، فيصبح المماليك جديرين فعلا بالمحاربة. وفى الطريق الى القاهرة عبر الصحراء ، يدور الحديث التالى، عندما يهجم البدو على الجيش : « ولكن ، لماذا يهاجموننا؟ لقد جئنا لنخلصهم من المماليك » .

« - هناك مجرمون فى كل مكان». وفى حادثة اخرى، يحكى ضابط ماحدث: «ظهر فرسان عرب فى الصحراء، أخذ الفرنسيون يلوحون لهم بإشارات ودية، دون حتى الإمساك بأسلحتهم، حدث هجوم (العرب عليهم) ، وقتلوا جميعا. أتفهمون، لم نعد نعرف كيف نتعامل مع الناس هنا (...) يعلم الله وحده ما فى عقول هؤلاء المتوحشين» .

وعلى الرغم من ذلك ، فإننا نقرأ كيف ان الجند أحرقوا قرية الرحمانية ، انتقاما لعدم وجود اى شىء يؤخذ . كما ان المرور على باقى القرى يدل على ان كل الاهالى قد فروا أمام الجيش المتقدم . ثم نشاهد الجند وهم يتاجرون ويتعاركون بعد معركة امبابة ، وقد قضوا الليل يجردون جثث الموتى من كل ما كان عليها . فمن نصدق ؟ قول جيش التحرير، أم سطو الجند على الفلاحين العزل ؟

البطلة غير متفائلة ، وهى فرنسية كبرت فى القاهرة : « الناس لا يحبوننا على الرغم من المظاهر . فالتجار يتحملوننا ، لأننا نجعلهم يعملون ، ولكن الأعيان منقسمون . أما الشعب ، بصفة خاصة ، فهو لا ينظر إلينا كمحررين ، ولكن ككفرة أعداء للدين الإسلامى ، على الرغم من تأكيدات بونابرت .. أنا أسمع الناس يتكلمون ، وهم لا يعرفون أننى أفهم لغتهم » . ويرد البطل قائلا : «أنا لا أفهم بالضبط معنى معاركنا : علينا طرد المماليك ، ولكن ما هذا إلا حجة » . ولا يقول ما وراء هذه « الحجة » .

وترى شخصية أخرى أن الفرنسيين اقترفوا هفوات تسببت فى نشر الشائعات عن أن الفرنسيين ، مثلا ، حطموا الأبواب فى بعض الأحيان «حتى يتسنى لهم ذبح المسلمين العزل عند اللزوم... كلام فارغ، ولكن الناس يصدقون أى شئ ! (......) إن أصدقاء المماليك يجدون فى كل ذلك حججا ليمشوا بالنميمة فى حق المحتلين ، ويثيروا الغضب والكراهية » : الأمر واضح من حيث صورة المصريين السذج ، لأن من بين ما يستغله «أصدقاء المماليك» ، كان « تنظيف الشوارع » الذى يرفضه الشعب ، وتقوم ثورة القاهرة ؛ أمر لا يفهمه البطل ، لأن «بونابرت قال : كل من أحكمهم أولادى : جئنا نخلصهم من المماليك؛ أفيكون هذا هو جزاءنا» . فترد الشابة الفرنسية : «يبدو أن الشعوب

عليها أن تحرر نفسها ، وأنها لا تحب الحرية التى تأتيها من الخارج» ؛ فالفرنسيون أحضروا إذن الحرية بالفعل ، ولكن المصريين لم يقدروا قيمة الهدية . ويعرض المؤلف ما تم من تدمير بسبب ضرب الأزهر بالمدافع ، « حيث تنهار المنازل المجاورة على السكان ، الشيوخ منهم والشباب ، وأغلبهم لا علاقة له بالمعركة (...) جلادو الشرطة يعملون بهمة ونشاط ؛ مئات الجثث تلقى فى النيل ، يجرفها تيار النهر ، قد يصل عددها إلى الألفين» .

وعندما تتحرك قوة عسكرية نحو الفيوم «لتحصيل الميرى (...) ومصادرة الجياد والجاموس ، تقول (الشابة الفرنسية) : هكذا كان يفعل المماليك » . ولن نجد كلمة واحدة بعد ذلك ، تعليقا على هذا الرأى الخطير .

يعجب البطل ، أثناء مجزرة سكان يافا ، لما حدث لجند الجيش الفرنسى : «ماذا أصاب جند الجمهورية ، الذين دربوا على الدفاع عن الوطن المهدد ، وهم حاملو قيم الحرية والعدالة ؟ » ... ! وتستمر المجزرة والسلب والنهب ، والبطل فى حالة من الغثيان . ويزداد الأمر سوءا ، ولا يكاد يصدق عينيه ، وهو يرى الجند يعدمون الأسرى الذى أسلموا حياتهم للجيش المنتصر «بهدوء تام» . كانت النتيجة أن بعض الجند قالوا بعد ذلك : «إن السماء تعاقبنا (على هذه الجريمة) ، فالطاعون يقتل عشرات الجند منذ ثلاثة أيام » .

وبعد الهزيمة أمام عكا ، يعترف الجنود : « لقد أحرقنا القرى والمحاصيل وقتلنا كل شئ يتحرك» ، ونقرأ وصف ما حدث آنذاك ، وتطول ترجمته .

وفى النهاية ، تلخص النتيجة .. «كان بونابرت عابسا ، غالبا لأنه لم يكن فخورا بهروبه من مصر (...) : فقدت مصر ، كما فقدت جزيرة مالطة ، التى أخذها الإنجليز» . وينتهى الكتيب ، ولا يسع القارئ إلا الإشفاق على الشباب الذى سيقرأ هذا الكلام المتناقض ، فمما لا شك فيه أنه سيصاب ببلبلة !! فهل عبرت الشابة الفرنسية التى تتحدث العربية عن رأى المؤلف ؟ ربما . ولكن ألم يؤكد لنا مرارا أن الجيش جاء ليحرر المصريين ؟ وقيل إن «أصدقاء المماليك» هم المسئولون عن الشغب والثورة !! وأن الشعب المصرى لم يفهم النية الحسنة لجند عزل ، يُقتلون وهم يلوحون بصداقة للبدو ؛ وأن الإسلام هو سبب كراهيتهم لأنهم «كفرة» : ما هذا إلا أسطورة الحملة ، وما سبق أن كتبه مناصرو الاستعمار الفرنسى للدول «غير المتحضرة» . ثم يأتى وصف الفظائع التى ارتكبها هذا الجيش نفسه ، والاعتراف بفشل الحملة ، وقد «هرب» بونابرت وضاعت حتى جزيرة مالطة ..

أهو الاعتراف بالواقع المرير، ولكن دون ذكر كلمة «فشل» إبقاء على ماء الوجه ؟ ألم يقل إن «جند الجمهورية (...) حاملو قيم الحرية والعدالة» ، تحولوا إلى سفاحين ناهبين ؟

من البديهى أن الحقائق وراء الأسطورة بدأت تفرض واقعها المرير : هذه الحقائق التى عرفت منذ أيام الحملة نفسها ، ثم طمست لأكثر من مائة وخمسين عاما .

★★★

هكذا كانت أسطورة نابليون والحملة .

ماذا كان يمكن أن تفعله جيوش أوربا مجتمعة أمام عبقرية عسكرية مثل عبقرية نابليون بونابرت ؟ لقد تجلت تلك العبقرية فى أكبر معاركه ، عندما هزم جيوش أوربا ، التى تحالفت كلها ضده فى الثانى من ديسمبر ١٨٠٥ ، سارت تلك المعركة وكأن نابليون هو نفسه الذى رسم لها خططها بإحكام ؛ بما فى ذلك تحركات أعدائه ، فكان لهم بالمرصاد حيث أراد : أصبح اسم هذه المعركة «أوسترليتز» أكبر النياشين على صدر نابليون ، وأسماها ، وهو القائد الذى كسب من المعارك ما يكفى لنياشين أكثر من قائد .

وماذا كان يمكن للحقيقة أن تفعله أمام عبقرية إعلامية مثل عبقرية بونابرت الجنرال ، ثم نابليون الإمبراطور ، خاصة أنه كان لا يدافع عن هذه الحقيقة إلا أعداؤه ، فتظهر الحقائق البذيئة وكأنها افتراء وكذب من حاقدين ومتنمرين ، أو نقول يمينيين لا يبغون إلا عودة الملكية السابقة .

على الرغم من ذلك ، فقد قيلت الحقيقة ، وإن أهملت لعقود ، بل لأكثر من قرن ، إلى أن عادت ليعترف بها الجميع . بالضبط مثلما حدث . للملوك المتحالفين ضده ؛ فبعد الهزائم العديدة ، عرفوا

كيف يهزمونه فى معركة «واترلو» ، فأنهوا حكمه ، بل أنهوا حياته السياسية والعسكرية معا . كذلك ، جاءت الحقائق ، أخيرا ، لتفضح الوجه الآخر للأسطورة المنيرة .

عاشت أسطورة نابليون بونابرت تتحدى أى عداء ، كعداء «شاتوبريان» الملكى مثلا ؛ أو عداء الجمهوريين الشهيرين ، «لامارتين» والمؤرخ «ميشليه» ، وكان كلاهما من مؤرخى الثورة ، والمدافعين عنها . رفض ثلاثتهم أسطورة نابليون لحامى القوميات والحريات ؛ ووقفوا ضد التيار العنيف الذى أطاح بعقول الفرنسيين كلهم ، فأصبح اسم نابليون ، حتى الأمس القريب ، رمزا لمجد فرنسا ، وصورة حية للمنقذ الذى انتشل شعبها من الهاوية .

نسى الجميع ذلك الثمن الباهظ الذى دفعته فرنسا من أجل بضع سنوات من المجد الحربى . فنابليون ترك فرنسا مهزومة ، محتلة ، وقد استنزف دمها لسنوات طويلة ، وتأخرت عن ركب الثورة الصناعية التى كانت قد بدأت فى إنجلترا ، بعد أن فقدت من أراضيها أكثر مما كسبت فى حروب الثورة كلها .

ولكن سحر الأسطورة ، التى خلقها نابليون بونابرت ، كان أقوى من الحقيقة . تلك الحقيقة التى فضحها أكثر من « شاهد من أهلها » ، كما سنرى فى الجزء الثانى من هذه الدراسة بإذن الله .

هوامش المقدمة

١- يكفينا ذكر ما ينتهى إليه الدرس الخاص بالحملة : عمت الفوضى مصر بعد رحيل الفرنسيين، «ولكن سكان القاهرة تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى، فحفزهم ذلك على التحرك، وأعطاهم قوة المبادرة، فوجدوا فى شخص القائد الجديد للألبان «محمد على»، الأداة المنشودة..» ، ص ٥٦ .

- كتاب تاريخ خاص للطلبة المصريين :

Charles-H. Pouthas - Histoire de l' Egypte depuis la conquête ottomane, Paris, Hachette1948.

شارل - هـ . بوتاس .

« تاريخ مصر منذ الفتح العثمانى»

٢- تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للعلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بيروت - دار الجيل ١٩٧٨ ، ٣ أجزاء .

٣- السيدة / مها جاد الحق، بكلية الآداب جامعة القاهرة، قدمت فى رسالة ماچستير، دراسة نقدية لأول ترجمة ظهرت فى فرنسا سنة ١٨٣٨، للمستشرق «الكسندر كاردان» . إنه يفضح بها سوء طباع

المسلمين، ليتعظ المستوطنون الفرنسيون فى الجزائر، كما يشرح ذلك هو نفسه، في مقدمته للقارىء الفرنسى. وقد ظهرت أخيرا ترجمة أخرى لنفس النص للجبرتى عن الحملة أيضا، سنة ١٩٧٩، «لچوزيف كيوك» وهى أكثر أمانة من سابقتها . ولكن عدد قرائها أقل بكثير طبعا من قراء الترجمة الأولى، المنتشرين على مدى قرن وأكثر من الزمن .

هوامش المدخل

1- Henry Laurens : L' expédition d' Egypte, 1798-1801-Bonaparte et l' Islam. Le choc des cultures, Paris, Armand colin,1989.

والترجمة التى نشرت بالقاهرة سنة ١٩٩٦ عنوانها :

«الحملة الفرنسية فى مصر، بونابرت والإسلام» .

تأليف « هنرى لورانس » - ترجمة بشير السباعى .. القاهرة - دار سينا - بدون تاريخ - وقد أجبرنا على إعادة ترجمة بعض المقاطع . فلنا ، مع الأسف الشديد ، أكثر مٌن تحفظ على أسلوب المترجم .

هوامش الجزء الأول : عصر الأساطير

هوامش الفصل الأول : الحملة فى تاريخ الثورة.

1- Jacques Solé : La Révolution en Questions Seuil,1988

«چاك سوليه» :

الثورة من خلال الأسئلة : ص ٢٤ .

2- La Légende de la Révolution, Centre National des Lettres,1988

«أسطورة الثورة» : ص ١٣٦ .

مجلد نشرت فيه مجموعة أبحاث عن الثورة، وهو أهم مرجع لنا فى كل ما نقوله عن الثورة ورجالاتها خارج نطاق السرد التاريخى. ونظرا لصعوبة الرجوع إلى المقال المختص عند كل معلومة، نكتفى بالإشارة إلى اسم الباحث فقط عند عرض رأيه.

ويقول كاتبا بحث «الأسطورة المباشرة للثورة فى صحافة ١٧٨٩» ، وهما «لابروس» و«ريتاه» : إن المستمعين لقراء الجرائد، كانوا يتأثرون جدا بنبرات صوت قارئها.

ومن الجمل اللافتة للنظر، هذا الوصف لرجال الثورة ؛ نشر فى ٣٠ يوليو سنة ١٧٨٩ ، أى بعد شهرين فقط من اجتماع «مجلس طبقات الأمة» الثلاث: وهو يقول : «لم يكونوا رجالا، بل آلهة يلقون بالبرق على المغارة البشعة التى تحتوى على الجرائم كلها » .

٣- كتب المفكر المؤرخ «إدجار كينيه» هذا التشبيه بالنص فى كتابه عن المسيحية والثورة الفرنسية، سنة ١٨٤٦، عندما شبه جيوش الثورة بالصليبيين، الذين ذهبوا إلى المعارك «بإنجيل ١٧٨٩ الحربى» لأن : «الكلمة التى بذرها هذا الإنجيل على أرض المعارك هى كلمة فرنسا، هذا المسيح الجديد الذى كلف بنشر روح التضامن والصداقة فى العالم، روح الثورة » (اسطورة الثورة ص ٤٣٣) . وقد قال ، فى كتابه هذا، من بين ما قال، إن «الاستيلاء على سجن الباستيل كان بمثابة تحرير للعقل البشرى وللجميع » . والحق أنه تراجع عن كل هذه الآراء بعد ذلك بسنين .

٤- قصة من تأليف «باربو - روابيه» لخصها «هنرى كولييه» فى أسطورة الثورة ص ١٧٦ .

٥- تأكيدا لفكرتنا هذه، نذكر ما حدث فى الفن ، إذ كتب «شاتوبريان» أشهر كتابين له فى ذلك الزمن ، وهما قصة « الشهداء » ، و « عبقرية المسيحية » ، ونجحا نجاحا ساحقا : كانا فاتحة للتيار

الرومانتيكى الذى يرفض القوانين الكلاسيكية والموضوعات الإغريقية والرومانية . هذا الاتجاه الجديد الذى حطم أغلال المثل الكلاسيكى ، يبحث عن الجذور المحلية ، الكلتية منها والمسيحية ؛ وكان هذا الاتجاه إنذارا ببزوغ فكرة القوميات التى اجتاحت أوربا فى القرن التاسع عشر بعد ذلك . وبالتالى ، قضى على تصور وحدة أوربا التى ورثتها الأجيال السابقة بعد سيطرة روما وثقافتها على الكل، ولعدة قرون . وكان ذلك الاتجاه فى صورته الفنية قد بدأ ينتشر كالنار فى الهشيم ، فى ألمانيا بالذات ، وكان قد بدأ فيها وفى إنجلترا تحديدا .

٦- هذا ما يؤكده «چان إمرار» فى أسطورة الثورة ص ٢٤ .

٧- كان مؤلفه الضخم ، فى ٤ أجزاء ، « القاموس النقدى للثورة الفرنسية » الذى كتبه مع المؤرخة « مونا أوزوف » ، بمثابة ثورة فى تأريخ « الثورة الكبرى » . واعتبر الكتاب تحررا من سيطرة اليسار على سرد هذا التاريخ وفضح أساطير تبنتها «الجمهورية الثالثة » ، وصاغتها ونشرتها من سنة ١٨٨٠ إلى عام ١٩٥٠ تقريبا .

٨- «حرب ڤانديه» .. ، بحث «لفرنسوا لوبران» نشر فى مجلة «لستوار» أى التاريخ - عدد ١٦١ ديسمبر ١٩٩٢ .

٩- سوليه ، ص ٢٢٩ .

10 - François Furet et Denis Richet, La Révolution française, Pluriel, (1965)1973.

«فرنسوا فوريه» و «دينى ريشيه» : الثورة الفرنسية ص ٢٢٥.

١١- «ليون بلدرماير»، «لستوار» عدد ١٧١ - نوفمبر ١٩٩٣.

١٢- «دانيال مارتين» فى «أسطورة الثورة» ص ٢٠٦.

١٣- «باتريس جنفيه». فى «لستوار» عدد ١٧٧ - مايو ١٩٩٤ .

١٤- المؤرخ «بيير شونو» فى «لستوار» عدد ١٦٢ - يناير ١٩٩٣.

١٥- إن من أكثر الأفكار التى يمكن أن تنبت فى عقل أى سياسى، شذوذا، هى أن يظن أنه يكفى لشعب ما أن يدخل مسلحا على شعب آخر ليجعله يتبنى قوانينه ودستوره . ما من أحد يحب المبشرين المسلحين .

«فوريه وريشيه » . ص ١٤٩ .

١٦- «إيف بونيه» فى «أسطورة الثورة» ص٤٠٩ .

١٧- «أنطوان كور» المرجع نفسه ص٤٠٩ .

١٨- نشر فى عام ١٩١٦، الجزء الأول من كتاب «تاريخ فرنسا المعاصرة» لمؤلفه إرنست لافيس ، وهو الذى شكل المنهج التاريخى لأجيال من تلاميذ المدارس الفرنسية، ونقرأ فيه : «كان الفرنسيون

يلمحون ، من وراء ساحة قتال «ڤالمى»، الشعوب تتعانق، والجنس البشرى كله وقد تجدد بفضل الحرية والإخاء، والجنة محققة على الأرض » : « چان ميشيل جايار» فى « لستوار » عدد ١٢٥ سبتمبر سنة ١٩٨٩ .

١٩- نذكر منها مقاطعتى «بريتانيا» و «ألزاس» ، اللتين كانتا من نصيب ملكى فرنسا اللذين تزوجا وريثتى هاتين المقاطعتين.

كما اشترت الملكية جزيرة «كورسيكا» .. قبل سنة بالضبط من ميلاد نابليون بونابرت فيها . ومن الغريب أن سكان « بريتانيا » و «كورسيكا» فى مشاكل دائمة مع الحكومة المركزية الفرنسية حتى يومنا هذا، ومازالوا يعتبرون أنفسهم من قومية غير القومية الفرنسية. وسكان «ألزاس» على الحدود الألمانية يتحدثون لغتهم التى تدين للألمانية أكثر مما تدين للفرنسية .

20- Jean Starobinski, Le reméde dans le mal- Paris gallimard,1989.

جان ستاروبنسكى : «الدواء فى الداء» ص٣٥ .

٢١- كان هذا هو الهدف منذ اندلاع الثورة، وحتى قبل إعلان الجمهورية . ارجع الى النص ذى الهامش رقم ١٦.

22- Louis Madelin, La France du Directoire Paris, Plon, S.D.

«لوى مادلان» : فرنسا حكومة الادارة ص ١٤٧.

٢٣- «ايف بونيه» فى أسطورة الثورة» ص٤٠٩ .

٢٤- «فوريه وريشيه» : ص ٤٢٩ .

٢٥- «سوليه» : ص ١٤٥ .

٢٦- «فوريه وريشيه» : ص ٣٦٨-٣٠٤ .

٢٧- «سوليه» : ص ٢٣٢ .

٢٨ - «فوريه وريشيه » : ص ٣٨٧ .

٢٩- «سوليه» : ص ٢٣٧ .

30- Benoist - Méchin: Bonaparte en Egypte ou le Rêve inassouvi , Lausanne, Clairefontaine,1966.

«بينوا - ميشان» : «بونابرت فى مصر، أو الحلم الذى لم يتحقق ».

٣١- كان رموز العصر يلقبون بأسماء مشاهير الرومان ، فإذا وصف الجمهور أحدهم مثلا بالنزاهة ، قيل عنه : إنه «بروتوس» رمز النزاهة فى التاريخ الرومانى . وهكذا .

ويقى من هذا العصر اسم الثورى المفكر الكبير «بابوف» ، الذى لقب «بجراكوس» ، فأصبح اسمه «جراكوس بابوف» . و «جراكوس» هذا اسم اخوين فى تاريخ روما ، قتلا لمحاولتهما التصدى لجشع

النبلاء، وحاولا فرض قانون لتحديد الملكية. ونظرا لأن فلسفة «بابوف» كانت قائمة على فكرة المساواة الاجتماعية ، فقد لقب هكذا ، ويقى حتى فى المعاجم الحديثة ، وكأن أهله هم الذين اختاروا له هذا الاسم بايحاءاته المفخمة لكفاحه وأفكاره ، فأصبح « جراكوس بابوف » للأبد .

32- Condorcet' L'essai d' un tableau des progres de l' esprit humain,1794.

بحث عن صورة تاريخية لتقدم (وانجازات) العقل البشرى ١٧٩٤ .

33- Mehmed Efendi : Le Paradis des infideles, François Maspero,1981.

محمد إفندى «جنة الكفرة» ص ١١٣ هامش ١٦٥ نجد فى هذا الكتاب تقريرا لسفيرين ، وتعليقات الصحف الفرنسية المعاصرة لبعثتيهما .

٣٤ – جانين اوبوابيه فى «لستور» عدد ٧٠ سبتمبر ١٩٨٤ ص ٦٦.

35 - Christopher Herold : Bonaparte en Egypte, Paris Plon,1964. ص٢٥٣

«بونابرت فى مصر» ، ترجمة فؤاد اندراوس – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر – القاهرة – ١٩٦٧ ، وقد ترجم هذا الكتاب الى

العربية، والفرنسية . وقد أثار غضب بعض المؤرخين الفرنسيين، لأنه كشف الكثير مما كان مستورا حتى ظهوره، من أفعال الجند الفرنسيين فى مصر . علاوة على انه ، وعلى حد قول احـد المـؤرخين : « لا يحترم الرجل الكبير » فالكثير من الفرنسيين لا يحتمل ، حتى الآن ، ان يمس بونابرت بنظرة ناقدة ، وإن كانت موضوعية وصحيحة علميا .

36- Henry Laurens : Le royaume impossible
Paris, Armand Colin,1990

«هنرى لورانس» المملكة المستحيلة ص ١٤ - ١٥ .

37- Arthur Lévy : Napoléon et la paix Paris, Nelson, S.D.

«أرتور ليفى» : «نابليون والسلام» .

38- Balzac : le Médecin de campagne , Garnier,1961

. 39- Gérard de Nerval : Le voyage en Orient

وسنعود فيما بعد، وباستفاضة ، الى هذا الكتاب لأهمية ما يعطيه لنا من معلومات .

40- André Raymond : Artisans et commerçants au Caire au xviii siécle.
Damas, Institut français d' Etudes arabes,1973.

أندريه ريمون» : «حرفيون وتجار فى قاهرة القرن الثامن عشر» .

من أهم ما كتب أيضا فى الغرب عن مصر قبل الحملة ، كتاب الامريكى بيتر جران» : «الجذور الإسلامية للرأسمالية » .

41- Jean Tulard : Napoléon ou le mythe du sauveur, Paris, Fayard,1987.

«جان تولار» : «نابليون أو أسطورة المنقذ»

هوامش الجزء الأول

هوامش الفصل الثانى : نابليون بونابرت الجنرال والإمبراطور

٤٢- وهى فى مبنى الإنفاليد فى باريس، الذى تحول الى شبه معبد لذكرى الرجل العظيم ؛ وهو من أهم المزارات للسياح والمعجبين بنابليون حتى الآن .

٤٣- « عشاء بوكير» .

٤٤- «فوريه» و «ريشيه» : ص ٣٦٠ .

٤٥- «الثورة الفرنسية» .

46- Le Courrier de l' armée d' Italie ou le patri-ote français a Milan La France vue de l' armée d' Italie Le Journal des hommes vertueux.

٤٧- الثورة الفرنسية : ص ٥٠٦ .

48- Jean Tulard : Le Directoire et Le consulat, Paris , Que sais je.. P.U.F.1997.

«جان تولار » : «حكُما الإدارة والقناصل» ص ٧٦ .

٤٩- المرجع نفسه : ص ٩٩ .

٥٠- «الثورة الفرنسية » : ص ٤٤٤ .

٥١- كانت الثورة قد أبدعت تقويما جديدا منذ قيامها وكان للأشهر أسماء جديدة . ويبدأ عد السنين منذ بدايتها ، أى «السنة الأولى» من الثورة.. الخ.

٥٢- «شوسينان - نوجاريه» مجلة «لستوار» عدد ١٢٤ - يوليو - أغسطس ١٩٨٩ .

٥٣- المرجع نفسه : «ميشيل فينوك» : ص ١٠٨ .

٥٤- «حكُما الادارة و... » ص ٨٠ .

٥٥- فى مقال «لستوار» عدد ١٧٥ : مارس ١٩٩٤ ، عنوانه : «عبيد

الثورة السود» ، يقول كاتبه «فرنسوا ليبران» ايضا ، إن بونابرت لم يستطع إلا التخلي عن مستعمرة «سانت دومانج» ، بسبب فشل الحملة عليها، هذه الحملة التى كان يقودها زوج أخته ، الجنرال «ليكلار» الذى مات أثناءها .

وقلما تسمع عن هذه الحملة ، على الرغم من أهميتها .

فهذه النصف جزيرة ، كانت من المستعمرات القليلة التى بقيت لفرنسا فى القارة الأمريكية ، بعد هزيمتها فى حرب «السنوات السبع»، سنة ١٧٦٣ ، والسبب معروف ، وهو أن القائد لم يذكر فى التاريخ ، إلا بصفته زوج إحدى أخوات نابليون .. أما إن كان الجنرال بونابرت هو قائدها ، فلابد أن الأمر كان سيختلف طبعا ، مثلما حدث مع الحملة على مصر . وقد فقدها كما فقد مصر بعد ثورتها هذه والحرب ضدها .

56- Maurice Descottes : La légende de Napoléon et les écrivains français du xix. Siécle, Minard,1967.

«موريس ديكوت» : « أسطورة نابليون والكتاب الفرنسيين فى القرن التاسع عشر » – ص ١٨١ .

٥٧ – وهذا النيشان لايزال يمنح من الحكومة الفرنسية حتى يومنا هذا . والكلمة – مثل كل ماكان مرجعه سياسيا فى عصر بونابرت –

مستوحاة من كلمة «الفيلق» الرومانية . والمعنى الحرفى هو «فيلق الشرق » .

٥٨ – من الأمور التى لايمكن أن تمر على القارىء دون إرجاعها الى جنون العظمة التى كان يعانى منها «الجنرال الجمهورى العفيف الزاهد» كما كان يراه المعجبون به ، أن أسقف مدينة « دانس » فى فرنسا ، هو الذى كان يتوج الملوك ولكن بونابرت أصر على أن يتوجه البابا نفسه ، وفى روما بإيطاليا ولحظة التتويج ، أخذ نابليون التاج ليضعه بنفسه على رأسه ، ثم توج زوجته «جوزفين» . ومن المعروف أنه أخذ ، من كنز مجوهرات ملوك فرنسا ، هذه الماسة العملاقة المسماة « بالوصى » ، وقد زين بها قبضة السيف الذى صيغ خصيصا لحفل التتويج ، وهو موجود حاليا بمتحف «اللوفر» ، كما نقرأ فى كتاب « ايريك لى نابور » ، عن « الوصى ، الليبرالى والفاسق » ، ص ٢٦٦ .

كذلك ، أعاد نابليون ترميم مقابر ملوك فرنسا فى « سان – دينى» ، قرب باريس ، سنة ١٨٠٦ ، أى بعد سنتين من تتويجه حتى يدفن بها مع زوجته : «جان – ميشال لينيو » فى « لستوار» ، سنة ١٩٩٣ – عدد ١٦٧ – ص ٧٨ .

٥٩ – «تولار» – ص ٣٦٤ .

60- Jean Tulard : Le mythe de Napoléon, Paris, Armand Colin,1971.

«جان تولار» : «أسطورة نابليون » ص ٣٦ .

٦١ – «حُكَّما الادارة و ... » ص ٨٦.

٦٢ – هناك أكثر من مرجع يؤكد ، بل يعطى أسماء من طبق عليهم هذا الأمر ، الذى صدر لوزير الشرطة بالذات .

«ديكوت» ص ١٤٨ – ١٤٩ و «إدوار هيريوو»

- Edouard Herriot : Madame Recamier et ses amis, Paris, Payot,1928.

« مدام ريكامييه وأصدقاؤها » – ص ١٤٦ .

٦٣ – «أسطورة نابليون» : ص ١٢

64- Napoléon, Caricatures et dessins Bibliothéque Marmottan,1975.

«نابليون ، الكاريكاتور والرسومات » دون اسم مؤلف.

٦٥ – نقرأ في إنجيل مرقص ، فى الإصحاح الأول (٤٠ – ٤٢) :

«فأتى إليه أبرص يطلب إليه جاثيا وقائلا له : إن أردتَ تقدر أن تطهرنى ، فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له : أريد فاطهر . فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص وطهر » .

٦٦ - ولد ابن نابليون من زوجته الثانية ، الأميرة النمساوية «مارى - لويز» عام ١٨١١ ، وقدم للشعوب بصفته «ملك روما» - ولكنه عرف فيما بعد باسم «النسر الصغير» ، وكان عنوان مسرحية ذاع صيتها ، كتبت فى نهايات القرن التاسع عشر ، وهى من أهم مكونات «أسطورة نابليون» . ومثلت دور «النسر الصغير» ابنة نابليون ، « سارة برنار » فى فرنسا ، وفاطمة رشدى فى مصر .

• ٦٧ - المرجع نفسه : ص ٣٢٠ .

تقص علينا « كاترين دريجيه » فى مقال عنوانه : « ممنوع الضحك على رئيس الدولة !» ، أن نابليون لم يكن يحتمل أى نقد . وأنه أرسل شخصا لا قيمة له إلى مصحة الأمراض العقلية ، لمجرد أنه أطلق عليه نكتتين تافهتين ؛ مما يذكرنا بالنظام الستالينى الذى كان يرسل إلى المصحات النفسية من لم يوافق على سياسته .

«لستوار» ، عدد ١٧٧ - مايو ١٩٩٤ .

٦٨ - «بياترس كاسبريان - بريكور» : « الأوديسية المملوكية »

Béatrice Kasbarian Bricourt, L' Odyssée mameluke, Paris, 1988 L' Harmattan.

هذا الكتاب يحكى ماحدث للمماليك الذين خرجوا من مصر مع ماتبقى من الجيش الفرنسى سنة ١٨٠١ ، وكان بينهم «رستم» ، ذلك

المملوك الذى أهدى إلى بونابرت ، والذى لازمه بعد ذلك ، وأصبح من النجوم فى فرنسا ، بسبب ردائه الغريب عليهم . وقد كتب رستم هذا مذكراته .

وتأخذ منها المؤلفة ، الحادثة التالية : عندما أصر بونابرت على أن تخرج السفن إلى البحر فى مناورات كان قد أمر بها على الرغم من اعتراض أميرال البحار ، بسبب سوء الأحوال الجوية ، وكانت الكارثة ، و «شاهد رستم البحارة وهم يغرقون . وفهم لحظتها أن إرادة بونابرت تكاد تكون مماثلة لإرادة بكوات مصر » . ص ٩٩

٦٩ - قال نابليون حرفيا : « لقد أثبت أننى أريد إيقاف الثورات كلها . إن الملوك مدينون لى بأننى أوقفت شلال الفكر الثورى الذى كان يهدد العروش . إن كل العروش ستنهار إذا سقط عرش ابنى» : «تولار».

والغريب أن كثيرا من المؤرخين اعتبر ، حتى الأمس القريب ، أن نابليون هو «الثورة الكبرى » بعينها !

٧٠ - فى حديث نشر فى جريدة «لوموند» بتاريخ ٢٩ سبتمبر ١٩٩٥ يقول المؤرخ والمفكر «ماكسيمليان رويل» ، « إن : «كارل ماركس كان يدين ثلاثة أنواع من الدكتاتورية ، وكان يرى أن أحسن تعبير للدكتاتورية على الإطلاق ، كان قطعا دكتاتورية نابليون الأول » .

٧١ - حكْما الإدارة و ... ص ٢٠٢ .

72- Jean Tulard : Nouvelle bibliographie critique des Mémoires sur L'époque napoléonienne, Paris, Droz,1997.

«الببليوغرافيا النقدية الجديدة لمذكرات المرحلة النابليونية »

نقرأ فى ص ١٣٠ ، عن مذكرات أحد «الجنود السويسريين فى خدمة الأجنبى » ، وكان صاحبها ، واسمه «جاتلن» – فى خدمة نابليون، إلى أن انقلب عليه لما يراه يحدث فى وطنه ، فكون فرقا للدفاع عن سويسرا ضد الفرنسيين – كذلك، نقرأ عن أحد مواطنى «جينيف» ، اسمه «ماسيه دى لاروه» ، وفى مذكراته ماحدث للجيش الفرنسى الذى طلب منه السويسريون «بالحاح » أن يترك المدينة ، وثورة نابليون عندما عرف أن الجيش انسحب بالفعل .

وقد نشر فى سنة ١٩٩٣، مجلد آخر بعنوان الببليوغرافيا المدروسة لما نشره الشهود العيان للحملة على مصر (١٧٩٨-١٨٠١) وقد قدم لها ايضا الاستاذ «جان تولار» .

Philippe de Meulenaere .- Bibliographie raisonnée des témoignages oculaires de lExpédition dEgypte (1798-1801),.
Librairie Chamonal,1993

٧٣- «المملكة المستحيلة» ص ١٩ .

٧٤- يرى «ريمون آرون» أن نابليون اخطأ لأنه ظن أنه مثل يوليوس قيصر، يستطيع أن يغزو العالم، فى عصر انتهت فيه مثل هذه الغزوات التى تتغاضى عن رغبة الشعوب فهزمته ثوراتها العفوية المنتصرة فى آخر الأمر : لقد حول تعاطف شعوب اوربا مع تجربة ثورة الشعب الفرنسى الى كراهية .

75- Chateaubriand : Mémoires dOutre Tombe
- La Pléiade nr f,1946.

«شاتوبريان» : «مذكرات ما وراء القبر» . ص ١٠٠٤

الجزء الأول

هوامش الفصل الثالث : أسطورة الحملة ونابليون عند الأدباء

76- Alba : Histoire:1789-1939. Paris,
Hachette,1940.

«أ. ألبا » : تاريخ 1798-1939

٧٧ – «المسار من باريس الى اورشليم» ص ٢٢١

78- Claudine Grossir : L' islam des romantiques - Paris, Maisonneuve et Larose,1948.

نضيف إلى كلامنا ، فقرة من هذا الكتاب ، قد توضح العقلية الغربية التى كانت تتعامل مع الشرق فى ذلك الزمن تقول «كلودين جروسير» : «إن مؤلف المسيرة» مقتنع تمام الاقتناع بأن المسلمين لا يعرفون شيئا عن الحرية وأن أوربا ، ووطنه بصفة خاصة ، لهم الحق بل من واجبهم تعليم المسلمين هذه الحرية، وشن الحرب ضد الطغيان من أجل رفاهية هذه البلدان المقهورة . وهو ، مثل بونابرت ، يقدم نفسه علي أنه المحرر الذى لا يمتلك وسائل مواطنه الشهير العسكرية ، ولكنه لا ييأس من اقناع مواطنيه بضرورة التدخل الفرنسى فى الشرق وهو لا يشك لحظة في نجاح مثل هذه المبادرة ، لأنه يرى أن هذه المساعدة مطلوبة ، بل منتظرة بفارغ صبر ص ٦٢ – ص ٦٣ .

نستخلص من هذا التحليل ، أن «شاتوبريان»، من جهة ، لم يشك لحظة فى نجاح الحملة على مصر، مع أنه عاصر فشلها. ومن جهة أخرى ، كان يحارب مبدأ نابليون وسلفه من البوربون ، لكبتهم الحريات! فهل يعقل أن فاقد الشيء يعطيه؟

٧٩– « مذكرات ما وراء القبر » ص٣٠٤ .

80- Las Cases : Le Mémorial de Sainte - Hélene, La Pleiade,

«لاس كاز» ميموريال سانت ، هيلانة » .

الجزء الأول ص ١٤٦ .

– كلمة « ميموريال » بالفرنسية تطلق على النصب التذكارى ، كما أنها تعنى سرد ما يستحق الحفظ والتدوين .

– نجد فى هذا الكتاب، الذى «صححه» نابليون بنفسه ، ليتأكد من مطابقة صورته فيه بالأسطورة التى نسجها لنفسه، وأراد للجمهور ألا يرى غيرها، نجد كلاما واضحا لا يحتمل أى تأويل، عن فلسفته فى شأن ما يدون عادة، ويصبح «التاريخ الرسمى الذى لا يكتبه إلا المنتصر حسب تعبيره هو نفسه. يقول مثلا عن التأريخ الكلاسيكى للإغريق ، وعن انتصاراتهم على الفرس : « لا ننسى أن من قال هذا الكلام ، هم الإغريق أنفسهم ، وأنهم كانوا سطحيين ، فعالين (فى تمجيد ذاتهم)، وأن مامن حولية فارسية نشرت لتجعلنا نحكم (بموضوعية) من خلال مناقشة تثير الجدل» (ص ١٨٤) : كلام ينطبق أولا وأخيرا على ما قاله هو نفسه عن حملته على مصر .. وباقى غزواته.

٨١– نذكر ، بمناسبة هذه التهويمات ، ما قاله عن الجنرال «ديسى» الذى اسماه البدو «السلطان العادل» (ص ٥٩٠) . وقد أصبح هذا

القول الوحيد لنابليون وحده، فيما بعد، من أكثر المسلمات رسوخا فى أدبيات الحملة .

٨٢- نراه فيما بعد، يوضح رؤيته لمستقبل العالم : «أوربا تغزو افريقيا من الجنوب (أى جنوب أوربا) ، والجنس الأوربى سيغمرها فى المستقبل كما غمر أمريكا (...) الجنس الأوربى سيغمر الكرة الارضية ويحكمها ؛ ونعم الحضارة ستكفر عن جرائم الغزو أو دنس الهدف ! » (ص ٦٩١) .

ألا يذكرنا هذا «الجنس الأوربى» ومشروعه بالفلسفة النازية؟ غير أن نابليون ، بعذره النبيل هذا ، وهو نشر الحضارة ، كان يتمتع بنفاق لم تتسم به الأهداف النازية .

٨٣- من البديهى أن نابليون ، فى ذلك الوقت، كان قد نسى الكثير مما حدث له فى مصر، وكان هذا الحديث يدون بعد مرور أكثر من عشرين عاما على ما يقصه ؛ عشرون عاما من الأحداث الصاخبة ، والدليل أنه احتاج الى «الرجوع مرارا إلى قراءات كتب عن مصر، ليصحح ما يقوله ، ويتأكد من صحة ذكرياته» (ص ٨٢٩) . كذلك، فهو يتعلم اللغة الإنجليزية «بقراءة الموسوعة البريطانية» ، وبالذات «مقال النيل، وكان يأخذ منه بعض الملاحظات، يستفيد منها عند إملاءاته للمارشال» .. الذى سيكتب عن حملته على مصر : «لقد دون (من هذا

المقال) نقاطا ستكون مهمة (لسرده أحداث) حملته على مصر» (ص ٣٧٣ - ٣٧٤) ..

٨٤- وقد تناسى كل القراء هذه الكلمات : «كان الإمبراطور يقول : فى التحليل الأخير ، لابد أن تكون عسكريا حتى تحكم : أنت لا تحكم إلا (وأنت ترتدى) المهماز والزى العسكرى » (ص ٨٧١) .

الجزء الأول

هوامش الفصل الرابع : الأسطورة عند الأدباء

٨٥- وهى الثورة التى وصفها رفاعة الطهطاوى فى كتابه «تخليص الإبريز .. » .

٨٦- من النتائج المباشرة لتلك الأسطورة انتخاب «لوى نابليون بونابرت» لرئاسة «الجمهورية الثانية» سنة ١٨٤٨، بصفته «ابن شقيق الامبراطور الكبير» . ثم قام «الأمير الرئيس» بانقلاب بعد ذلك بسنوات ثلاث، فأصبح «نابليون الثالث» ، وكانت الإمبراطورية الثانية فى فرنسا.

٨٧- وغالبا ما يكون هذا الاسم تحويرا لكلمة «المهدى»، الذى دوخ الفرنسيين هو وأتباعه فى الدلتا، إلى أن قتل فى معركته الأخيرة .

88- Stendhal, Le Rouge et le Noir, Librairie Mireille Ceni,1962.

المفروض أن تستعمل اللغة الفرنسية تعبير «كلمات الإنجيل» للتعبير عن المعنى الذى يقصده «ستندال» هنا. ولكن استعماله لكلمة «قرآن» تعنى، فى الوعى الفرنسى، ومنذ ذلك العصر، التشبث الأعمى، والإيمان المتطرف . وباقى النص يشرح هذا قائلا : «كان ليقبل الموت فى سبيل هذه الكتب الثلاث، ولم يؤمن يوما بغيرها» . والمعنى الهجائى الساخر واضح لمن يحلل النص فى السياق الفرنسى .

٨٩- كلمة فلاح بالفرنسية تنطق «بييزان». ولكننا ، وحتى يومنا هذا، نقابل كلمة «فلاه» أى الكلمة العربية «فلاح»، بمعنى الفلاح المصرى بالذات، للتعبير عن الذل والبؤس والخنوع فى لغة الكثير من الفرنسيين، واستعمالها يكون دائما فى سياق الازدراء. والله أعلم لماذا. فلا سند تاريخى واقعى يَعضد هذه الرؤية، لو قورن الفلاح المصرى بنظيره فى فترات التاريخ القديم نفسها، اللهم إلا ما كتبه المؤرخون اللاتين من هجاء، بعد أن أرعبتهم كليوباترا ، عندما كادت تنقل سلطة العالم المعروف من روما إلى مصر . ومنذ ذلك اليوم، والصورة عن مصر دائما سلبية ، بعد الافتراءات الكاذبة للرومان على شعب خشوا بطشه إلى درجة قتله بالحياة، وتحويله إلى مزارع لصومعة الغلال الخاصة بهم ، ولا حياة له خارج هذا النطاق.

٩٠- حتى الشعراء المغمورون مثل «بارتيليمى» و«جوزيف ميرى».. الذين نشرا قصيدة طويلة سنة ١٨٢٨، عنوانها. «حملة نابليون على مصر» .. "La Campagne d' Egypte de Napoléon..

ثم نشر «بارتيليمى» .. قصيدة أخرى عنوانها «ابن الانسان» - "Le fils de l'homme" عن نابليون ايضا. وهذا اللقب يطلق عادة على النبى عيسى عليه السلام، بصفته ابن الله فى الديانة المسيحية .

«ديكوت» ص ٢٠٥ .

٩١- قد يكون سبب هذه الجملة أن بونابرت كان قد انتخب عضوا فى شعبة الرياضيات فى المعهد الفرنسى الذى أنشأ له فرعا فى مصر.

هوامش الجزء الأول

الفصل الخامس
الأسطورة عند المؤرخين

٩٢ - «ميشيل فينوك» فى مجلة «لستوار»، العدد ٧٣، عام ١٩٨٤ .

93- Jean de Metz et Georges Legrain Aux pays de Napoléon - L' Egypte Grenoble - Jules Rey, Edit.,1917.

94 - La Décade Egyptienne

. Le Courrier d' Egypte.

جريدتان فرنسيتان طبعتا فى مصر، وقد لعبتا الدور نفسه الذى سبق أن لعبته الجريدتان المطبوعتان فى ايطاليا أثناء الحملة عليها قبل الحملة على مصر .

95- J - L. Gaston Pastre

Bonaparte en Egypte - Editions des portiques,1932.

٩٦- «ديكوت» ص ٤٦ .

٩٧- هذه هى المرة الوحيدة التى نجد فيها ذكر «طلبة المدارس العليا» بين علماء الحملة .

98- Général Georges Spillmann:

Napoléon et lslam - Librairie académique, Perrin,1969.

٩٩- إن نابليون وحده هو الذى قال ذلك فى كتاب الميموريال، فأصبح من المسلمات !

١٠٠- سبق أن أشرنا إلى ما وصلت إليه دراسة ترجمة الجبرتى من نتائج مؤسفة ، بسبب المغالطات العديدة التى فضحتها رسالة

السـيدة / مها جاد الحق . كما سنرى، عند قراءة كتاب «بريجون» فى الجزء الثانى، ما كان المترجمون يقولونه من أكاذيب لبونابرت .

101- Jean Tranié et J.C.'Carmigniani. Bonaparte - La campagne d' Egypte, préface de Jean Tulard, Pygmalion - Gérard Watelet,1988.

(وجدير بالذكر أن اللوحات الموجودة فى دراستنا هذه ، مقتبسة من هذا الكتاب).

١٠٢- مقال فى مجلة :

Le Souvenir Napoléonien

«الذكرى النابليونية» . العدد ٢٩١ يناير ١٩٧٧ وهو المرجع الذى استعمله المؤرخ وأرشدنا اليه .

١٠٣- اسمهم بالفرنسية :

Les Idéologues:

١٠٤- نشكر «تولار» على افصاحه عن مصدر معلوماته هذه.

فالسفير «شارل - روو» ، الذى كتب الكثير عن الحملة فى بدايات القرن العشرين كان لسان الاستعمارى الذى أكد اسطورة بونابرت ملهم المصريين ، ورفضهم لسياسته لعدم قدرتهم على استيعاب سمو مشروعاته. ومن أغرب ما أكده، أن المصريين لم يفهموا أن بونابرت

جاءهم كصديق، مع أن مؤرخنا قرأ، بلا شك، الميموريال، حيث يشرح نابليون مشروعاته الاستعمارية ، كما اسلفنا، دون أن يذكر ولو لمرة واحدة أى مشروع «صداقة» أو «تحضر» مع بلد كان سيستعمل أهلها جندا، تسهل التضحية بهم أمام مدافع أعداء طموحاته : والكلام منطقى لأنه طبق بالفعل مع البلاد الأوربية المستعمرة الأخرى .

ونظرا لشهرة «شارل - روو»، فلم نتعرض لكتاباته التى قرأها كل عربى مهتم بالقضية، وتأثيره واضح على كثير من المؤرخين العرب .

105- Nouvelle bibliographie critique des Mémoires sur l' époque napoléonienne, Genéve, Droz,1977.

١٠٦- « نابليون .. » ص ٣٩٣ .

107- Bertrand Solet, En Egypte avec Bona-
. parte
_ Le Livre de poche , Jeunesse , Paris, Hachette1988.

رقم الايداع ٣٤٤٠/٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0579- 9

الفهرس

كتاب الهلال يقدم

ابراهيم عبد القادر المازنى
رائدا .. ومبدعا .. ومفكرا

بقلم

د . احمد السيد عوضين

يصدر أبريل ١٩٩٨

الاشتراكات


قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م.ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣ ٢

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



استمتع بالخدمة المتميزة وكرم
الضيافة بأحدث طائراتنا
أكثر من ٤٠٠ رحلة اسبوعياً إل
٩٤ مدينة عالمية وم
سماء با

د. ليلى عنان

الحملة الفرنسيّة في مَحكمة التاريخ

• الجزء الثاني •





سلسلة شهرية تصدر عن

دار الهلال

الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

سكرتير التحرير **عادل عبد الصمد**

مركز الادارة

دار الهلال : ١٦ ش محمد عز العرب

ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

فاكس : FAX -3625469

العدد ٥٧٤ - جماد ثانى - أكتوبر ١٩٩٨

NO - 574 - OC - 1998

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا ١٧٠ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢ ديناراً - الكويت ١,٥ دينار - السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبى ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

الحملة الفرنسية

فى محكمة التاريخ

(الجزء الثانى)

بقلم

أ . د . ليلى عنان

أستاذ الحضارة الفرنسية
جامعة القاهرة

دار الهلال

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفي جمعة

القاهرة

الغلاف للفنان

حلمى التونى

مدخل الجزء الثانى

سبق أن تعرف القارىء فى الجزء الأول من هذه الدراسة «الحملة الفرنسية ، تنوير أم تزوير : عصر الأساطير» ، على الجذور التى نبتت منها فكرة الحملة على مصر ، والجو الذى نشأت فيه، وتتبع تطورها حتى أصبحت أسطورة يفخر بها كل فرنسى ، حتى يومنا هذا .

إذ كانت فرنسا ثورة ١٧٨٩ هى الحرب ، الحرب فى الداخل والخارج . ومنذ الأشهر الأولى لقيامها ، اعتبر الجميع أن فرنسا أصبحت على دراية تامة بكل شئون البشر فالثوار – حسب تعريف أحد الصحفيين المعاصرين لهم – قد تحولوا إلى آلهة، وغدت هناك تجربة رائعة للثورة لابد أن تطبق نتائجها على شعوب العالم التى تنتظر الخلاص على يديها ، ففرنسا الثورة هى روما العصر الحديث ، ولابد لها ، بالتالى أن تستولى على العالم لتفرض قوانينها الحكيمة على الجميع .. مثلما فعلت روما القديمة فى الماضى. كان هذا جزءا من ميراث فلسفة التنوير ، وانبهاره بالإله الجديد ، «العقل البشرى» ... الفرنسي. أصبحت تلك الفكرة خير تبرير للتوسع الاستعمارى «للأمة العظمى» ، التى هى فرنسا الثورة، فكان القتل مصير كل من يناهضها؛ وكان الفرنسيون الرافضون للحكم الجديد على رأس قائمة القتلى .

وباسم الحرية ، وقوانين أكثر الأمم حكمة فى الوجود ، قامت حكومات الثورة باحتلال البلدان المتاخمة لحدودها ، وقد عوملت تلك البلدان ، سواء كانت بلچيكا أو إيطاليا ، كمستعمرات يستنزف الجيش الفرنسى المحتل كل مواردها من أجل الجمهورية الجديدة ، مما أثار ردود الفعل الوطنية والثورات التحريرية . وقد كشفت الدراسات ، التى نشرت بمناسبة مرور قرنين من الزمن على قيام تلك «الثورة الكبرى» ، زيف أسطورة الجند الفرنسيين الذين نشروا مبادىء الحرية والمساواة والإخاء في البلاد التى «حررتها» اسماً واستعمرتها بالفعل، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وكان كل ذلك لإيجاد حل للأزمة الطاحنة التى تعصف بالاقتصاد الفرنسى ، وكان أكثر المؤرخين فضحا لذلك الواقع المؤسف، هو «فرانسوا فوريه» في كتبه عن «الثورة الفرنسية» .

كان جو الأساطير مسيطرا على كل أدبيات آنذاك ، فكان انتصار الجنرال بونابرت فى إيطاليا سبباً فى بزوغ نجم أسطورة جديدة ، عرف هو كيف يستغلها .

وكما نقرأ فى كتب «جان تولار» الحديثة ، فقد كانت سيطرة بونابرت التامة على العقول من خلال الدعاية المكثفة لشخصه ، من أحسن مؤهلات هذا الجنرال العبقرى الشاب ، وذلك بمساعدة فريق ناصره ، وجعل منه منقذ فرنسا المنتظر . وقد زاد الانبهار ببونابرت آنذاك ، عندما احتل مصر ذلك البلد البعيد الغامض ، الذى يعد هو أيضا من أساطير الفكر الفرنسى ، بسبب أهرامات أسطورية كان يعيش فيها كهنة الفراعنة الحكماء . وبما أن بونابرت وحزبه لم يتحدثوا إلا عن

انتصاراته التى ضخمت للغاية ، كما فعلوا أثناء حملته السابقة على إيطاليا ، فقد عاد بونابرت ، بعد فشل الحملة على مصر ، حاملاً لقب «المنتصر الذى لا يهزم أبداً». واستولى بونابرت على الحكم بعد شهر واحد من عودته إلى فرنسا ، بعد انقلاب عسكرى سافر على الشرعية النيابية. وبدأ تاريخ بونابرت الطاغية الذى سيصبح الإمبراطور نابليون ، الأسطورة الجديدة وتحول كل ما يمس شخصه إلى معجزة لا يقدر عليها إلا إله؛ وقد شبه بالرب فعلا كما قرأنا فى الجزء الأول من دراستنا هذه، وفى كتب «چان تولار» أيضا.ولقد كانت العبقرية الإعلامية لنابليون – امبراطور الثورة – أقوى من أية حقيقة فقام بتجريد فرنسا من مكاسب الثورة الديمقراطية كلها ، بعد أن ألغى كل الحريات ، بما فيها الحريات الشخصية. ولكن نجمه بدأ فى الأفول عندما بدأت هزائمه تتوالى إلى أن جاءت النهاية : احتلت جيوش أوربا كلها فرنسا ، وعادت الملكية ، ونفى الإمبراطور المخلوع إلى جزيرة «سانت – هيلانة» الاستوائية . وبدأت فى الوقت ذاته أخطاء ملوك فرنسا ، فأخذت الأساطير تحكى عن نابليون «المهزوم العظيم» الذى مكن فرنسا ذات يوم من كل بلدان أوربا .

زادت الأسطورة انتشارا عندما ظهرت فى المكتبات مذكرات «لاس كاز» التى كونت كتاب « الميموريال» الشهير ، حيث قال نابليون فيه ما كان يريد أن يقال عنه وعن حكمه ، وحبه للحرية ودفاعه عن القوميات ! وصدق الجيل الجديد من الفرنسيين التهويمات التى أطلقها الأسير العبقرى من جزيرته النائية ، وتغنى الشعراء والكتاب بأمجاد الرجل

العظيم ، وأخذوا يرددون كل ما قاله هو عن نفسه . وقد كانت رحلته الباهرة إلى بلاد الأساطير ، مصر الغامضة ، أهم درة فى تاريخ نابليون المجيد ؛ فأصبحت الحملة عليها جزءا من أسطورة كاذبة ، هى أسطورة نابليون نفسه .

جاءت أخيرا مبادىء ثورة ١٧٨٩ إلى الحكم مع الجمهورية الثالثة، عام ١٨٨٠ ، لتمحو ذكرى هزيمة فرنسا النكراء فى عام ١٨٧٠ ، عندما احتلها البروسيون لإنشاء «إمبراطورية ألمانيا» فأكدت الجمهورية الثالثة على كل أمجاد فرنسا السابقة خاصة الأمجاد الحربية ، وكان لنابليون - بالطبع - نصيب الأسد فى تلك الأمجاد .

وبدأت تلك الجمهورية ، فى الوقت ذاته ، تتوسع فى الحروب الاستعمارية وقد جعلت الحملة على مصر ، خير مثل يحتذى به ، لبلد ناءٍ متخلف ، حملت له الجيوش الفرنسية الحضارة والحرية. فقد كان إرساء الحضارة فى البلاد المتخلفة ذات الأجناس الدنيا - كهدف نبيل - أفضل حجة لتبرير تصرفات الرجل الأبيض فى القرن التاسع عشر ، وهو - بالتالى - خير وسيلة لطمس فكرة استنزافه موارد الدول الضعيفة فى افريقيا وآسيا . فتغنى المؤرخون بالحملة على مصر ، للتأكيد على الدور التحضيرى الأبدى للجند الفرنسيين، مغفلين كل ما يمكن أن يمس ، بسوء ، سمعة الجيش الفرنسى، حامل لواء الحرية والحضارة للعالم . وعلى الرغم من اعترافهم بفشل الحملة ، إلا أنهم قد

نشروا تلك الأفكار مؤكدين أن الحملة على مصر كانت لها «نتائج باهرة». ولم تزد تلك النتائج - باعترافهم - على ثلاث : اكتشاف حجر رشيد، كتاب «وصف مصر» وإنجازات المعهد الفرنسى، دون توضيح ماهية تلك الإنجازات بالضبط ، أو مدى استفادة المصريين منها .

ناهيك عما قيل فى حب المصريين لبونابرت والجيش المستعمر ، وفرحتهم بهما ؛ علاوة على إطلاق مسلمات لا حصر لها ، كلها مبهمة لا تستند إلى واقع محدد ، أو مرجع موثوق به. والغريب أن كثيرا من الفرنسيين كان قد فند صحة تلك المسلمات الخادعة ، وهم ممن لا نستطيع رد كلامهم ، لأنهم شهود الحملة العيان .

وإذا كنا قد تعرفنا - فى الجزء الأول من دراستنا هذه «عصر الأساطير» - على المناخ الذى ترعرعت فيه الأسطورة ، وتابعنا تطورها؛ فإننا نكمل هنا ما قد بدأناه ؛ فنعرض لكتابات بعض هؤلاء الفرنسيين التى تتسم بنزعتها المستمرة لتمحيص المفاهيم والتصورات الراسخة عن الحملة وتأثيرها على مصر والمصريين ، ومن ثم فإنها تعتبر كتابات تحطيم الأسطورة القديمة وتفنيدها بالانفلات من أسر المسلمات العتيقة، وذلك فى إطار محاولتنا حصر دلائل التأثير الواقعى للحملة على مصر والمصريين المعاصرين لها ، وما بعدها أيضا : الأمر الذى يهيىء لنا معرفة الوجه الآخر للحملة .

ونبدأ «بشاتوبريان» الذى كان أول من وضع أسس أسطورة الحملة على مصر فى كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» كما سبق أن قرأنا .

الفصل الأول

شاهد من أهلها المعاصرين

«كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التى أخمدنا بها مثيرى الشغب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن حكمنا كان خاطئا لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة» .

كابتن «مواريى»

إذا درسنا ما كان يقوله عن نابليون ألد أعدائه من الأدباء، فإن الصورة تكون أكثر وضوحا ، ومن ثم ، نستطيع أن نتفهم التأثير الذى أحدثته أسطورة نابليون على عقول بعض الفرنسيين ، حتى يومنا هذا .

لقد كان مؤلف «المسار من باريس إلى أورشليم» الكاتب الكبير «الفيكونت رينيه دى شاتوبريان» وهو عملاق من عمالقة أدب ذلك العصر والعدو اللدود لنابليون ، يلتقى مع العملاق «فيكتور هوجو» فى نقطة واحدة، وهى أن فرنسا عرفت - أيام نابليون - مجدا لا حد له ؛ ولكنه يختلف معه بعد ذلك ، اختلافا جذريا(*).

فعلى الرغم من أن «شاتوبريان» كان ألد أعداء نابليون ، إلا أن انتصارات الإمبراطور كانت تدغدغ شوفينيته المتوهجة. لقد قال فى الرجل ما قاله مالك فى الخمر ، وجاءت الدراسات الحديثة لتؤكد صحة كل ما قاله «شاتوبريان» عنه ، خاصة دراسات «چان تولار» - كما أسلفنا فى الجزء الأول - عن نابليون وأساطيره المصطنعة . ومن هنا ، كانت أهمية قراءة الوجه الآخر لأسطورة نابليون بونابرت فى مصر ، كما قالها «شاتوبريان» فى القرن التاسع عشر ، قبل أن نقرأ شهادة من شارك فى الحملة لقد قال مؤلفنا الشهير الحقائق التى لم يهتم أحد بالرجوع إليها ، إلا أخيرا جدا . وعلينا أن ننوه هنا إلى ظاهرة لم نؤكد عليها فى حينها - أى فى الجزء الأول - وهى أن «شاتوبريان» ، فى كتابه الشهير «المسار من باريس إلى أورشليم» ، مجد جند فرنسا فى مصر، ولم يقل كلمة عن قائدهم كما أنه «رأى» آثار الحضارة الفرنسية، فكان من أوائل من أرسوا أسطورة الحملة التحضيرية على مصر. كانت

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

الحقائق قد عرفت من خلال نشر مذكرات شهود عيان للحملة ، وإن كانت تلك المذكرات لم تحدث تأثيرا يذكر لدى القراء ، حتى يومنا هذا . ولكن «شاتوبريان» ، كان قد تعرف على بعضها ، بعد نشره لكتاب «المسار من باريس إلى أورشليم» .

نشـــر هذا الكتاب - كما سبق أن أشرنا فى الجزء الأول - سنة ١٨١١ ، ونشر الميموريال سنة ١٨٢٣(*). وهلع «شاتوبريان» من الأسطورة التى بنيت لتؤله نابليون ، وحاول جاهدا أن يحطهما فى «مذكرات ما وراء القبر» ولكن هذا المجلد لم ينشر إلا بعد وفاة كاتبه ، أى بعد ١٨٤٨ فجاء مهملا من القراء ، مثله مثل كل ما يمكن أن يمس أسطورة الحملة عندما يتعرض الكاتب إلى ما حدث للمصريين على يد جيش المجد ، أى «جيش إيطاليا» .

ولكن الأمر هنا له دلالة كبيرة بالنسبة لنا ، إذ رأينا «شاتوبريان» ، سنة ١٨١١ يرسخ أول فكرة موضوعية عن أمجاد الجيش الفرنسى فى مصر ثم نراه يتراجع عن نظرته المنبهرة تلك ، بل يغير رأيه تماما بعد ذلك ، كما سنرى ؛ لم يؤثر ذلك على القراء الفرنسيين مطلقا، كما سنراهم دائما ، لا يهتمون إلا بالتمجيد ويهملون ، إهمالا تاما ، كل ما يمكن أن يفضح حقيقة بذيئة ، لا يحتمل الضمير الفرنسى أن يعترف بها. إلى أن جاء جيل ما بعد انهيار الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، أى جيل ما بعد ستينات القرن العشرين .

---

* ارجع إلى الجزء الأول .

لقد بهر «شاتوبريان» ، في وقت سابق ، بـ «خمسة جنود فارين من الخدمة» ، عندما رآهم على وشك السيطرة على مصر سنة ١٨٠٦ ، وهم يفتحون له الطريق في أزقة القاهرة . ورأيناه يتغنى بأمجاد الحضارة التي أهدتها فرنسا بجندها إلى مصر ، وبما رآه من آثارها التي لم نتعرف منها إلا على حديقة صغيرة. فكيف غير «شاتوبريان» رأيه بعد ذلك ؟ وماذا قال بعد أن قرأ – حسب اعترافه ، وبعد أكثر من ربع القرن– مذكرات شهود الحملة العيان ، والتي سنعرض لها فيما بعد ؟

نتذكر طبعا أن غضبه من نابليون ينصب على كون الجنرال سياسيا ملحدا ، يلعب بانتماءاته الدينية المتغيرة حسب الظروف ؛ في حين أن واجبه كان يحتم عليه ، من وجهة نظر شاتوبريان ، أن يقوم بدحض الإسلام ، وتمجيد المسيحية ، ثم تنصير مصر. فقد كان واجبه الأول أن يكمل ما فشل فيه الملك لويس التاسع ، وباقي الصليبيين ولكننا نرى «شاتوبريان» ، بعد ذلك ، وقد توصل إلى معرفة بعض ما تم من فظائع على يد الجيش الفرنسي ، حتى أنه يعترف – ويا للعجب – بحق المصريين في الدفاع عن أنفسهم .

وفي «الميموريال» ، وقبله ، نرى أن نابليون كان قد نفى كلية أمر تسميم جنده ؛ وكانت هذه التهمة قد لاحقت نابليون منذ عودته من مصر، حتى أنه قد أمر برسم لوحة تؤكد زيارته لمرضى الطاعون، ، والعناية بهم، بل ولمسهم أيضا، كما سبق أن رأينا ولكن «شاتوبريان» يدين نابليون ، ويؤكد جرمه – مدللا على ذلك بشهادة الأطباء الذين حضروا تلك المأساة – وينفي في الوقت نفسه ، أي ادعاء يعمل على تبرئه نابليون من تلك الجريمة .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفرنسيين أخذوا ينظرون إلى نابليون وكأنه السيد المسيح بعد أن وصلت الأسطورة إلى ذروتها سنة ١٨٤٠ عندما عاد رفاته إلى باريس ، فأصبحت تلك الاسطورة ، بالتالى ، أقوى من أى دليل أو شهادة يمكن أن تمس شعرة من سمعة الرجل .

وعلينا أن نقرأ - حرفيا - ما كتبه «شاتوبريان» فى مؤلفه الذى نجح نجاحا باهرا وإن كان قراؤه قد أصروا على عدم رؤية هذه السطور التى تجرح إعجابهم برجل عظيم آخر ، هو نابليون .

«شاتوبريان» : «مذكرات ما وراء القبر»

ولد «شاتوبريان» فى ١٧٦٨ ، أى أنه كان يكبر بونابرت بسنة واحدة ؛ ولذا فقد جاءت شهادته مختلفة اختلافا جذريا عما رآه باقى الأدباء الذين كتبوا عن الإمبراطور : فهم لم يتأثروا إلا بما قيل عنه ، فى حين أن «شاتوبريان» نفسه كان معاصرا لحياة نابليون من بدايتها إلى نهايتها .

فقد مات الإمبراطور فى ١٨٢١ ، ولم يمت «شاتوبريان» إلا فى ١٨٤٨ . أى أنه قد تعرف أيضا على مدى الإطراء والتضخيم اللذين أضفاهما باقى الأدباء على أسطورة نابليون المنفى المتوفى . وكان «شاتوبريان» من النبلاء الذين هاجروا بعد الثورة ، ولكنه عاد سنة ١٨٠٠ ، عندما أصدر بونابرت عفوا شاملا عن كل من يعود إلى فرنسا من المهاجرين شريطة أن يقبل حكمه ، وينسى مطالبة «آل بوربون» بعرش الملكية. وبالفعل ، عاد كثير منهم ، وأصبحوا من أخلص معاونى الحكم الجديد . وعين «شاتوبريان» دبلوماسيا سنة ١٨٠٢ ، بعد أن

أصبح ، بين عشية وضحاها ، أشهر كاتب فى فرنسا ، عندما نشر روايته «آتالا» ، ثم كتاب «عبقرية المسيحية» . وقد واكب نشرهما - بما لهما من طابع دينى مؤمن إيمانا مطلقا - المصالحة التى تمت بين بونابرت والبابا ، وعودة الكنائس إلى وظيفتها الأساسية ، بل وعودة الفرنسيين إلى دين أجدادهم . ولكن نابليون أمر باختطاف «دوق دانجيان» من الأراضى الألمانية ، وأصبح هذا الأمير الشاب رمزا لتعسف نابليون ، عندما حوكم محاكمة صورية ، وأعدم فى الليلة نفسها دون سبب يذكر ، اللهم إلا ضرورة إرهاب التيار اليمينى فى البلاد . قدم آنذاك «شاتوبريان» استقالته ، وأصبح من ألد أعداء نابليون ، وانضم إلى معارضة الأدباء التى تزعمها بعض أصدقائه من مشاهير ذلك العصر . ثم سافر بعد ذلك إلى الشرق وزار من بين الدول التى مر عليها فى سنة ١٨٠٦ ، مصر محمد على ، ثم نشر كتابه «المسار من باريس إلى أورشليم» .



إن ما يهمنا الآن هو ذلك المجلد الضخم لسيرته الذاتية الذى أسماه «مذكرات ما وراء القبر». ومثلما رسم نابليون لنفسه صورة مجملة فى «الميموريال» ، جاءت هذه المذكرات ، التى دونها «شاتوبريان» طوال حياته ، ليحكى فيها ما يريد هو أن يعرف عنه ، وعن آرائه السياسية وحياته الخاصة ، وكان قد لعب بالفعل دورا فعالا فى سقوط نابليون ، وإحلال عائلة «البوربون» بدلا منه على عرش فرنسا ، عندما نشر فى

١٨١٤ ، منشورا بعنوان «عن بيونابرته والبوربون» ومجرد استعماله للاسم الإيطالي لنابليون ، يفصح عن رأيه الذي تضمنه ذلك المنشور .

ولعب «شاتوبريان» خلال الحقبـــة الملكيـة بعد ذلك دورا ســـياسيا محدودا ، ولكنه صدم في الحكم الملكي ، لرفضه ليبرالية سياسية كان «شاتوبريان» ينشدها دائما ، وكان غيابها سببا في كراهيته لنابليون .

وتعتبر «مذكرات ما وراء القبر» من أجمل ما كتب في الأدب الفرنسي، وهي في شموخها كالجبل الذي يبهر بعظمته ، وإن كان المؤلف يرهق القارئ بذاتيته المفرطة ، وبادعائه المستمر تواضعا لا يخدع أحدا. وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يكف عن ذكر نابليون الذي نجده تقريبا في كل فصل من فصول هذه المذكرات الضخمة ، بل نجد فصولا بأكملها تفرد لسرد تاريخه العاصف. وما هذا ، بالطبع، إلا دليل قاطع على سيطرة فكرة هذا الرجل الفذ على كل من عرفه أو عاش في عصره ، حتى وإن ناهضه بقوة ، كما فعل «شاتوبريان» .

والمنشور المسمى «بيونابرته والبوربون» يعرف الفرنسيين بكل ما كان يقال عن نابليون من شائعات واتهامات ، أصبحت بفضل أسلوب «شاتوبريان» الساحر ، ذات مصداقية أقنعت من كان رافضا لها ؛ بما في ذلك فكرة أن نابليون، في حقيقته، لم يكن إلا «بيونابرته»، أي ذلك الإيطالي الذي يدعي أنه فرنسي ؛ فبأي حق يتولى حكم فرنسا وهو غير فرنسي ؟ وكان نابليون ، بالفعل ، يكتب اسمه بهذه الطريقة عندما كان يشترك في حركة تحرير جزيرته كورسيكا ، قبل أن ينضم إلى مؤيدي

الثورة الفرنسية، فى أول حياته. وكان لمنشور «شاتوبريان» صدى جعل الملك ، العائد إلى فرنسا ، يعتبره من أهم دعائم ملكه الجديد. كل هذا يؤكد لنا درجة كراهية «شاتوبريان» للإمبراطور المهزوم ، ويجعلنا نهتم جدا بما كتبه عنه حتى بعد أن خيب آل «بوربون» آماله. توالت بعد ذلك الثورات وأصبحت لنابليون سيرة عطرة يتغنى بها الجميع، فكانت محاوله تفنيد ما قيل فى «الميموريال» من أهم أهداف «شاتوبريان»، وبالتالى دحض الأسطورة المنيرة التى اكتسحت أعمال الأدباء. وأغرت السياسيين، حتى نسوا حقيقة حكم نابليون القاتل للحريات. كان «شاتوبريان» قد ترك السياسة، وكرس وقته كله لتدوين باقى مذكراته، لنجد فيها ما يهمنا من رؤية معاصر فذ، لشخصية نابليون الفذة، فتكون الوجه الآخر للأسطورة التى ترعرعت فى حياته: إنها الأسطورة السوداء «للغول»، «السفاح»، «الطاغية» .. إلخ..



أول ما يلفت النظر فى هذه المذكرات بعد اصطدامنا بالذات المتضخمة لكاتبها، إيمانه المطلق المتعنت بالمسيحية، بمذهبها الكاثوليكى طبعا، وحبه الشوفينى لبنى وطنه. كما يلفت النظر، أيضا إيمانه وتمسكه بالأفكار الليبرالية، التى أثبت إيمانه بها برفضه حكم نابليون عندما لم يجدها فيه، كما كان غيابها عن الحكم الملكى لعائلة «بوربون» نفسها، سببا فى معارضته لها، فكان رفضه لكليهما، على الرغم من إيمانه بشرعية عائلة «بوربون» وولائه لها.

والمؤلَّف الذى سنقرأ أجزاء منه، يقع فى أكثر من ألف صفحة، ولا يسعنا بطبيعة الحال إلا تقديم ترجمة لبعض الفقرات التى نرى أنها أكثر دلالة، حتى تتضح لنا الصورة، عندما يحكم «شاتوبريان»، عبقرى الأدب، على نابليون، عبقرى الحرب والسياسة.

★ ★ ★

نقرأ فى الصفحات الأولى من المجلد، وفى الصفحة السادسة تحديدا: «فى الرابع من أكتوبر عام ١٨١١ ،...، هذا الرجل الذى لا يهدى سلطة العالم إلى فرنسا إلا ليسحقها هى نفسها تحت أقدامه، هذا الرجل الذى أعجب بعبقريته وإن كنت أمقت طغيانه، هذا الرجل يحيطنى بتعسفه وكأنه صحراء تحيط وحدتى، هذا الرجل يطحن الحاضر، ولكن الماضى يتحداه». نلاحظ أن هذه الكلمات، الواضح معناها، والتى قد كتبت منذ ١٨١١، تلخص بدقة متناهية كل ما سيقوله «شاتوبريان» عن نابليون بعد ذلك، على مدى حياته الطويلة؛ إنها ببساطة، رأيه فى هذا الرجل « العبقرى ... الطاغية» خاصة أن ما سيؤكده «شاتوبريان» بعد ذلك من محاربته للطغيان، حقيقة تاريخية، تثبتها كل أفعاله حتى وفاته سنة ١٨٤٨. ويقول صادقا: «دافعت عن حريات فرنسا لأنها وحدها الكفيلة باستمرار شرعية العرش». ولذا، سنجد أن كره الطاغية، فى كتابه، يتزامل دائما مع انبهاره بعبقرية نابليون. فهو كثيرا ما يلقبه «بالجائر على حرياتنا»، كما يعترف، فى الوقت نفسه، أن «هذا الرجل العملاق الذى شاهدته يهوى، هو بحق سيد أوربا». وعندما تم إعدام «دوق دانجيان» وترك «شاتوبريان» خدمة

نابليون، وتحول إلى معارض له، نرى الكاتب يعجب لمثل تلك السقطة من رجل مثل نابليون: «إن العقلية الفذة لا تلد الشر دون ألم، لأن الشر ليس نبتها الطبيعى، وما كان عليها أن تحمله» . ورأيه فى نتائج الإمبراطورية لا شك فيه: «لقد مررنا، دون أية فائدة بالعديد من الجرائم وبالكثير من المجد، إن الثورة والإمبراطورية لم يكن لهما أية فائدة». وعلى الرغم من ذلك، فهو يرى أن «جيلا جديدا وقويا نبت من كل هذه الدماء، وكبر وأصبح لا يهدر إلا دماء الغرباء، تحول الجمهوريون على مر الأيام إلى إمبراطوريين، ومن طغيان الجميع إلى طغيان شخص واحد»، الذى هو بالطبع طغيان «بونابرت». إن «شاتوبريان» يعذر الفرنسيين إلى حد ما «لأن الجمهور سئم الفوضى، فعاد طواعية إلى عبودية القانون»، ولكنه كان قانون «الطاغية بونابرت» فقد «أغرق (هذا الرجل) أرض فرنسا بأمجاد تتساوى فى عددها بعدد الكوارث». وعلى الرغم من ذلك، فهو يكتب قائلا: «إعجابى ببونابرت كان دائما كبيرا وصادقا، حتى عندما كنت أهاجمه بضراوة».

ولذا، فهو يعيب عليه جريمتين، قتل الدوق الشاب البرئ، وغزو أسبانيا، لأنه «عندما كان يخرق القوانين الأخلاقية، كان، فى الوقت ذاته، يهمل ، بل يحتقر قوته الحقيقية، وأعنى بذلك ميزاته الرائعة من نظام وعدل»، وكأن «شاتوبريان» لا يحتمل أن تكون لشخصية نابليون وجه قبيح، وهو المعجب المنبهر به. إن كاتبنا يتمزق بين حبه لوطنه، الذى حرم من كل الحريات أثناء حكم نابليون، ويفخر فى الوقت نفسه، أى فخر، بالمجد الذى وصلت إليه الجيوش الفرنسية فى عصر الإمبراطور.

ولكن ما الثمن الذى دفعه الفرنسيون فى سبيل ذلك المجد؟، وأين الحرية التى لا يرى «شاتوبريان» قيمة تعلو قيمتها؟

إن «شاتوبريان» يذكر القارئ أن أول عمل لفت الأنظار إلى بونابرت كان أثناء حصار مدينة «تولون»، «حيث أراق لأول مرة الدماء، وكانت دماء فرنسية». لقد أعاد «بونابرت، القنصل الأول، النظام إلى فرنسا، ولكنه فعل ذلك كطاغية».. «إن بونابرت كان يعتبر أى استقلال ثورة على سلطته»... «كان يغار من أية شهرة، ويعتبرها اغتصابا لحق خاص باسمه وحده: كان لابد أن يكون اسم نابليون هو الاسم الوحيد فى العالم». وإذا ما قارنه بالإسكندر الأكبر، الذى حاول نابليون محاكاته، قال: «كان المقدونى ينشئ الإمبراطوريات وهو يركض، بينما كان بونابرت يحطمها وهو يركض؛ وكان هدفه الوحيد أن يصبح وحده سيد الكرة الأرضية، دون أن يزعج نفسه بوسائل الاحتفاظ بها»... «لقد ورث كل ما بنته الملكية الفرنسية على مر القرون وما اكتسبته الثورة من أراض لفرنسا: جلس على هذه المنصة الرائعة ومد ذراعيه، واستولى على الشعوب وجمعها من حوله، ولكنه فقد أوربا بالسرعة التى استولى بها عليها، وأجبر الحلفاء على احتلال باريس مرتين، على الرغم من عبقريته العسكرية. كان العالم تحت قدميه، ولم يفز فى نهاية الأمر إلا بالسجن لنفسه، وبالمنفى لعائلته، وبضياع كل التوسعات التى حصلت عليها فرنسا، بل وجزء من أرضها العتيقة». ثم يتحول «شاتوبريان» إلى أسلوب السخرية المريرة «مجد مولانا لم يكلفنا إلا نحو مائتين أو ثلاثمائة ألف رجل فى السنة، ولم ندفع إلا ثلاثة ملايين من جندنا ثمنا

له، ومواطنونا لم يدفعوا له إلا خمسة عشر عاما من العذاب وفقدان حرياتهم: هذه الترهات، ألها أية قيمة؟... إن مصائب الثورة خدمت الجميع، ولكن مصائبنا أثناء الإمبراطورية كانت لها نتيجة أكبر: لقد ألهت بونابرت! وهذا يكفينا طبعا».

إنه يذكر القارئ بما حدث عندما فشلت محاولة اغتيال بونابرت سنه ١٨٠١: «لقد صدر أمر بنفى مائة وثلاثين من الجمهوريين دون أية محاكمة، إلى جزر سيشيل، وجزر القمر، ،...، وهناك، مات أغلبهم».. «ولذا لا يمكن أن يحارب بونابرت إلا بما هو أكبر منه، وهو الحرية: لقد كان مذنبا فى حقها، وبالتالى، فهو مذنب أمام الجنس البشرى أجمع» لذا، عندما أعيد رفاته إلى باريس فى عام ١٨٤٠، وفتحوا نعشه، قال «شاتوبريان» : «وجدوا أن أظافره قد طالت، وأنا أظن أن هذا حدث ليسمح له بأن يمزق ما تبقى من حرية فى العالم»!

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن «شاتوبريان» لا يزال يعترف بعظمة الرجل الذى وصفه «بالعملاق»، والكلمة تلخص نابليون كما يراه كاتبنا الثائر عليه، فذلك العملاق ذو الشخصية النابغة، لم يكن على المستوى الذى ينتظره المرء من مثله: كان طاغية، وقتل الحريات، وأخطأ أخطاء ليست جديرة – لفداحتها – بعظمته كعملاق. وعلى الرغم من أن حكمه كان نقمة على فرنسا لما دفعته من ثمن له، إلا أن فرنسا قد ألهته. إن كانت الجيوش الفرنسية قد غزت العالم، وأسعدت فرنسا بمجدها الحربى الرائع، فالفضل فى ذلك يرجع إلى جيل من عباقرة الجند الفرنسيين.

فإن «شاتوبريان» يشكـك دائما فى العبقرية العسكرية «لبونابرت» - كما كان يسميه - بينما يرى فى الضباط الآخرين الفضل فى اكتساح جيوش العدو. واللافت للنظر أن الدراسات الأخيرة عضدت الكثير مما عابه «شاتوبريان» على نابليون، القائد الحربى الأسطورى.

ولا ننسى أن نضع لمسة أخرى على الصورة التى قدمتها لنا تلك المذكرات عن الإمبراطور، ألا وهى إعجاب «شاتوبريان» الذى لا حد له «بجورج واشنطن»، فقد قابله مرة واحدة أثناء الرحلة التى قام بها إلى أمريكا فى شبابه، وهو يقول عنه «الجندى المواطن، محرر عالم بأسره».

فالقيمة الأولى عند «شاتوبريان» هى الحرية السياسية، وقد كتب هذه الجملة بعد أن توفى نابليون، ثم أفرد فصلا كاملا يقارن فيه بين الرجلين وقال ملخصا رأيه: «إن واشنطن لم يهتم إلا بمصير وطنه، بينما بونابرت لم يكن له هدف إلا مجده الشخصى»، فماذا كانت النتيجة؟: «بقيت جمهورية واشنطن وتحطمت إمبراطورية بونابرت. لقد خرج واشنطن وبونابرت من عباءة الديمقراطية، ولد كلاهما من الحرية، فكان الأول وفيا لها، وخانها الآخر. ويعيد «شاتوبريان» الكرة بعد ذلك بسنوات، ليؤكد بإيجاز شديد، أين يرى العظمة الحقيقية: «لقد شاهدت واشنطن فى بيته الصغير «بفيلادلفيا»، وشاهدت بونابرت فى قصوره».



يقال إن منشور «شاتوبريان» سنة ١٨١٤، هو الذى استفز الرأى العام، والأدباء الذين ردوا عليه بخلق أسطورة مضادة لدحض اتهاماته التى حولت الإمبراطور إلى أفاق، قاتل، مستبد ... إلى آخر تصويره له،

كوحش مغتصب لعرش فرنسا. ودارت الأيام، وكان على «شاتوبريان» أن يواجه ما أثاره هجومه من تأليه للإمبراطور المهزوم مع أنه قاتل الحريات وقاتل الأبرياء. فكان هذا الحكم على نابليون فى المذكرات التى لم تنشر إلا بعد وفاة كاتبها، والتى يصل فيها «شاتوبريان»، نسبيا، إلى قدر من الموضوعية، فى محاولته فصل فضائل نابليون عن جرائمه: اعترف بعظمته كعملاق آدمى، له صفات لا توجد عند غيره، وأخطاء قاتلة له ولفرنسا، لا توجد هى أيضا عند غيره .



إذا ما وضعنا فى حسباننا ذلك الكسل الإنسانى الذى غالبا ما يجعل المرء يكتفى بوجه واحد من العملة، دون أدنى محاولة لمعرفة الوجه الآخر، نستطيع، من خلال رأى «شاتوبريان» السابق، أن نستخلص مدى انبهار الأجيال التى توالت بعد حكم نابليون بشخصيته الفذة، حتى وإن كانوا، على شاكلة كاتبنا، ممن لا يؤلهون بونابرت، وبالتالى عدم التشكيك فى مشاعر بدائية قد تكون كلها رافضة، أو كلها منبهرة.

شاتوبريان والحملة على مصر

كان لحملة بونابرت على مصر مكان الصدارة فى أسطورة إنجازاته الرائعة، كما سبق أن رأينا مع الشعراء والفنانين الذين عرضنا بعض كتاباتهم (*) . وكانت الأسطورة المضادة تستغل، أيضا، تلك الحملة، ليس فقط لشهرتها، ولكن لما أذيع عن جرائم بونابرت فيها. وقد لاحقت سيرة

* فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

تلك الجرائم نابليون طوال حياته، حتى أنه حاول تفنيدها في «الميموريال» كما أسلفنا. ولكن «شاتوبريان»، كان قد وجد فيها ما يؤكد طغيان نابليون، ويدل على أنه سفاح قاتل مرتد دينيا؛ فما كان من مؤلفنا إلا أن رد على دفاع نابليون بالدليل القاطع على صدق الاتهامات الموجهة له.

وهكذا أصبحت الحملة على مصر من أهم عناصر أسطورة نابليون السوداء، كما كانت درة الأسطورة المنيرة.



ويمكن أن نؤكد، فى تلك الأسطورة السوداء، أن الحملة تعتبر فى بعض أحداثها - من وجهة النظر الغربية -أسود ما فى تاريخ نابليون كله. ولذا فقد أفرد لها «شاتوبريان» عشرين صفحة، ليؤكد صحة الجرائم التى اتهم بونابرت باقترافها أثناء وجوده فى مصر. ولم تكن جرائم ضد المصريين، ولكنها ضد الجند الأسرى العزل، بل وضد جنوده هو نفسه.

ويتهم «شاتوبريان» بونابرت بجريمة أخرى ، وهى جريمة فى حق المسيحية وفى حق فرسان الحروب الصليبية، متناسيا تماما أن بونابرت كان فى شبابه صديقا «لليعاقبة»، بل كان صنيعتهم بالفعل، وبالتالى، كان، وأثبت طوال حياته، أنه من تلاميذ التنوير الملحدين، وأن الدين فى يده، أيا كان، لا يمكن أن يكون إلا سلاحا يستعمل عند اللزوم. ولذا، كان «ستندال» قد فهم، كما سبق أن قرأنا، تصرف بونابرت مع الإسلام فى مصر، لأن «ستندال» كان شديد الإعجاب بنابليون السياسى

الداهية، أولا؛ ولأنه ، ثانيا، كان هو نفسه من تلاميذ التنوير فكان يشارك بونابرت عدم مبالاته، ولنقل احتقاره للإيمان، ولكن إيمان «شاتوبريان» المطلق، يجعله لا يحتمل أن يهزأ بونابرت هكذا بالدين المسيحى، حتى يتعامل معه كما يتعامل مع الإسلام... وما أدراك ما كان يقوله «شاتوبريان» عن الإسلام والمسلمين! ويتضح لنا هنا الوجه الصليبى «لشاتوبريان» بإيمانه المطلق بالمسيحية المنتصرة على الإسلام من خلال الحروب الصليبية، ورفضه بالتالى لحملة لم يكن هدفها الأول والوحيد تنصير مصر فهو يؤكد بمرارة شديدة، ويعد هذا الندم، على ما كان يقوله القائد الفرنسى المنتصر للمسلمين فى القاهرة حتى يستميلهم بعدائه للمسيحية وحبه للإسلام، ثم يضع بجانب ذلك مباشرة ما كان يقوله للبابا فى روما حتى يستميله: إن «شاتوبريان» لا يحتمل أن يكون بونابرت سياسيا ملحدا، لا يدين إلا بدين مصلحته الذاتية. ويقوم «شاتوبريان» بعقد مقارنة بين ما فعله الإسكندر الأكبر، ومحاولة برنابرت التمثل به فى الشرق، وفشله فى هذا الميدان: فقد نجح الإسكندر فى إقناع العالم بأنه ابن الإله آمون، وفشل بونابرت «فى إقناع المسلمين بأنه محمد آخر». كذلك، تحدث عن بؤس الجند فى بلد لم يجدوا فيه ما كانوا يحلمون به، بعد أن غنموا فى إيطاليا وتمتعوا بكل ما كان مباحا أو غير مباح.

ثم، وهو الأهم طبعا، جاءت، فى تلك الصفحات قصة مذبحة أسرى الحرب الأتراك فى يافا وبونابرت فى طريقه إلى عكا، ثم قتل مرضى الطاعون من جنده بتسميمهم» فى يافا أيضا، وهو فى طريق العودة.

وكان «الميموريال» قد حاول تفنيد هذين الاتهامين البشعين كليهما. وقد رفض المعجبون بنابليون دوما الاعتراف بحقيقة تلك الأحداث ، كما سبق أن رفضها من ألهوه في القرن التاسع عشر، إلى أن جاءت آخر الدراسات لتؤكد صدق ما قاله «شاتوبريان» ، في صفحاته العشرين تلك. والمفاجأة، أن كاتبنا يدرك فجأة، أن صفحة الجيش الفرنسي في مصر لم تكن ناصعة البياض كما كان يظن، حتى أنه نقل وصف بعض ما قد اقترف من مذابح.

ومذكرات «شاتوبريان» التي يحكي فيها كل الفظائع التي اقترفها بونابرت في مصر، من أشهر كتب الأدب الفرنسي، ومن أهم أعمدة الثقافة الفرنسية، وكثيرا ما تؤخذ منها كاملة وعلى الرغم من ذلك فتلك الصفحات لا يذكر مصدرها أبدا، وكأنه لا وجود لتلك المذكرات، حتى أننا قرأنا أخيرا كتابا عن الحملة، يأخذ كاتبه، المؤرخ الفرنسي، منها أفكارا ومقاطع، دون أن يذكر مصدرها، وهو على يقين، طبعا، أن أحدا لم يلحظ عملية السطو تلك؛ فمن ذا الذي يقرأ ما يقال عن الحملة عندما يتهم الجيش الفرنسي بالسوء؟!



فـ «شاتوبريان» يقول ، مثلا: «يالها من مجزرة، لقد كتب الجنرال المساعد «بواييه» إلى أهله:عندما حوصر الأتراك (في الاسكندرية) من كل جهة، ذهبوا ليحتموا عند إلههم ونبيهم، لقد ملأوا مساجدهم، رجالا، نساء، شيوخا، شبابا، أطفالا، ولقد ذبحوا كلهم».

ونقرأ فى الصفحة التالية، ما يؤكد أن «شاتوبريان» لم ير فى الواقع، أثناء وجوده فى مصر، من آثار للحضارة الفرنسية، إلا تلك الحديقة التى سبق أن تحدثنا عنها، فهو يقول «عندما مررت بالقاهرة، كانت المدينة قد احتفظت بآثار مرور الفرنسيين: حديقة عامة ، كانت من صنع أيدينا (الفرنسيين) مزروعة بالنخيل، كانت تحيطها المطاعم فى الماضى، ومع الأسف فإن جنودنا قد تصرفوا مثل قدماء المصريين، فقد طافوا بتوابيت الموتى حول احتفالاتهم» فكانت ذكرى ضحاياهم تحوم حول تلك الاحتفالات. ويدل مايقوله بعد ذلك على أنه قد اطلع على كثير من المذكرات التى كتبها جنود الحملة وضباطها يشكون فيها بؤسهم فى ذلك البلد البعيد، الذى لايشبه ما صادفوه من قبل فى الحملة على إيطاليا. ولا يمنع هذا شوفينية «شاتوبريان» من الإصرار على أن الحملة كانت «شعاع نور تسلل فى ظلمات الإسلام، وفتحت فجوة فى قسوة البربرية». ومرة أخرى لم يقل كيف أو لماذا ؟!

كلامه متناقض طبعا، وقد تمزق الكاتب بين حبه لوطنه ولبنى جلدته، والاعتراف بما لا يحتمل الشك، وهو أفعالهم الشنيعة: نظرته إلى ما يقترفه نابليون من فظائع تجعله يصرخ أحيانا بكلمات نعجب لها تحت قلمه، فهو يحكى مثلا كيف أعدم بونابرت فى يافا ثلاثة آلاف سجين حرب، استسلموا وهم عزل، وهى الجريمة التى قيل إن السماء قد أرسلت الطاعون عقابا للفرنسيين عليها.

ويعلق «شاتوبريان» قائلا: «هل أنقذت مجازر يافا جيشنا؟... إن كانت القضية مسألة حق، (كما قال نابليون فى «الميموريال» عند مناقشة تلك الصفحة السوداء من تاريخه)، فبأى حق استولى الفرنسيون على

مصر؟».. كلام غريب إن عرفنا أن كاتبه هو «شاتوبريان» الصليبى الاستعمارى. ولكنه أخذ يسرد بعد ذلك على صفحتين، ماقرأه فى مذكراته «مييو»، أحد ضباط الحملة:

«إن «مييو» فى أول طبعة من مذكراته (١٨٠٤)، لايقول شيئا عن تلك المجازر، وأنت لن تجدها إلا فى طبعة ١٨١٤. وقد كادت هذه الطبعة تختفى نسخها، وقد توصلت إليها بعد مشقة. ولكن، كان لابد لى من شهادة شاهد عيان، ليؤكد لى مثل هذه الحقيقة المؤلمة»: إن الشهود لم يكونوا ينشرون إذن الحقيقة كاملة عندما كان بونابرت فى أوج مجده، ولم تظهر تلك الحقيقة إلا بعد هزيمته عام ١٨١٤! وقد سبق أن عرفنا كيف كانت الرقابة شديدة على المطبوعات، بل محكمة على كل ما كان يمكن أن يمس سيرة «القنصل الأول»، ثم الإمبراطور. وهذا مثل لا نستطيع الشك فيه ، لأن «شاتوبريان» نفسه كان يرفض دائما أى خبر يمكن أن ينال من سمعة الجيش الفرنسى وقد نقل «شاتوبريان» الكثير من البشائع التى تمت أثناء العودة من الحملة الفاشلة على الشام تلك الحملة التى قرأنا عنها ما قاله «لاس كاز»، عن لسان نابليون، عن جيش «فى حالة رائعة، وفى ثراء مدهش» (*) ولكن شهادة «شاتوبريان» جاءت وقد سبق السيف العذل، جاءت وقد كانت أسطورة نابليون، وأسطورة الحملة، أقوى من أية شهادة يمكن أن تزعزع سلطانها، حتى جاء، بعد نشر «مذكرات ما وراء القبر» مباشرة، انتخاب الأمير «لوى - نابليون»، كرئيس للجمهورية، مكتسحا منافسيه، لا لشئ إلا لأن اسمه «بونابرت» وهو ابن أخ لنابليون.

★ ★ ★

---

* أرجع إلى الجزء الأول.

وأعتقد الآن أن الصورة قد بدأت تتضح ؛ فمن البديهى، أننا لو جمعنا كل خيوط تكوين أسطورة نابليون من جهة، وما قاله نابليون نفسه، وهو «أعلى مستوى»، على حد قول «لاس كاز»، من جهة أخرى، لاتضحت صورة الحملة فى أسطورتها، كما عرفتها الأجيال المتتالية بعد ذلك، فما دام المرجع الأساسى هو «الميموريال»، فلا شك أن مشايخ القاهرة انبهروا ببونابرت، ولا شك، أيضا، أن الشعب المصرى قد أحب الفرنسيين، ولم يثر عليهم، لأن نابليون لم يذكر فى حديثه مع «لاس كاز» الثورتين اللتين قامتا فى القاهرة. ومن البديهى أن جمهور القراء قد اكتفى بالمرجع الوحيد الذى وجدوا فيه ما يشبع تهويمات تطمئن النفس الفرنسية التى وجدت فى أسطورة نابليون الكثير من تطلعات العقلية الاستعمارية آنذاك. ونقول ذلك لأن الجيل الذى نشأ بعد انهيار الهيمنة الإمبريالية الفرنسية، والذى قرأ التاريخ دون أن تعميه عقد يبحث لها عن حلول فى واقعه التاريخى (وإن كان من نسج الخيال)، ذلك الجيل، جيل «المؤرخين الجدد»، رأى الأمور بنظرة مختلفة ، فحطم الأوثان، كما قرأنا فى الجزء من هذه الدراسة.



«فيفان دينون» : «رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا»

من البديهى أن «شاتوبريان» لم يقرأ إلا جزءا ضئيلا مما نشر من المذكرات العديـدة التى ظهرت بعد عودة الجيش الفرنسى من مصر. ولكن الغريب، أنه لم يقـرأ أشهـر تلك الكتب، وهو كتاب «فيفان دينون»، أو ربما قرأه كما قرأه الآخرون، أى دون أن يعى ما فيه من صفحات

تدين الجيش وتصرفاته في مصر. وكتاب «دينون» كان قد لقى نجاحا ساحقا عند نشره في عام ١٨٠٢، حتى أنه قد أعيد نشره ست مرات حتى عام ١٨١٢.



«رحلة إلى مصر السفلى ومصر العليا، أثناء حروب الجنرال بونابرت» كتاب في جزءين (١) ، ويعد أشهر ما كتبه «شاهد من أهلها» وقد أعيد نشره أخيرا، وذلك لأهميته.

وقد اشتهر هذا الكتاب للأهمية الكبيرة في تعريف المثقف الفرنسى بنوع جديد من الجمال المعمارى والفنى الذى تعرف عليه «دينون» عندما قابل الآثار المصرية، فقد أعجب «دينون» بذلك الفن الذى لا ترضخ قوانينه لقوانين الفن الإغريقى الصارمة، التى لم تعرف أوربا غيرها على مر القرون، فلم يكن هناك تقريبا، إلا الفن النيو - كلاسيكى، وهو الذى - يحاكى مبانى الإغريق والرومان وفنونهم في الرسم والنحت. ليس ذلك فحسب، بل إن الجمود الذى سيطر على الفنون المرئية، كان مسيطرا أيضا على الآداب بأنواعها، وحتى على كتابة التاريخ؛ ولم يجرؤ أحد على التحرر من محاكاة فنون الماضى السحيق إلا نادرا. ومن البديهى أن القراء الكثيرين لكتاب «فيفان دينون» الشهير، لم يهتموا إلا بتلك الناحية، خاصة أن التعرف على جمال الفن الفرعونى كان وراء خلق نمط جديد في الفنون الجمالية: لقد أراد نابليون لعصره نمطا خاصا، فاستوحى الفنانون، فيما سمى «بالنمط الإمبير» (أى «نمط الإمبراطورية»)، كثيرا من الآثار المصرية، نراها، حتى الآن، فيما شيد

فى باريس من مسلات وتماثيل مصغرة لأبى الهول، كما نرى ذلك النمط يزين، بالنحاس المطروق، أثاث عصر الإمبراطور، وهو يحاكى حتى يومنا هذا، ويحمل الاسم نفسه. وكانت الرسوم العديدة التى نشرها «فيفان دينون» فى الجزء الثانى من مؤلفه ، رائعة ، على الرغم من أنه كان قد رسمها فى ظروف صعبة، حيث كانت المعارك تدور من حوله فى مصر العليا (*). وتعتبر تلك الرسوم المحاولة الأولى لما سيصبح، على يد الفنانين الآخرين بعد ذلك رسوما لكتاب «وصف مصر» الشامل لكل مظاهر الحياة آنذاك. ولكن «دينون» لم يكن يدرس البلد من أجل حسن استغلاله، ولكنه كان منبهرا بذلك الجمال الفذ الذى لم ير مثله من قبل، والذى لا يخضع لأى من تلك القوانين الكلاسيكية المقدسة فى أوربا، ولذا فقد كانت أهميته بالنسبة للقراء تعادل أهمية اكتشاف جديد، يغير النظرة الكلاسيكية المتحكمة فى أذواق أوربيى ذلك العصر.

وبناء على ذلك ، فقد أهمل القراء أو تجاهلوا ما قصه «دينون» عما يقترفه الجيش من أعمال غير إنسانية فى فتحه لمصر، ولم نر مؤرخاً واحدا، أو حتى كاتبا يشير إلى صفحات تدمغ الجيش الفرنسى بوصمة البربرية. والصفحات التى سنترجمها للقارئ المعاصر لها أهمية كبرى، ليس فقط لأن كاتبها شاهد عيان، ولكن، وهذا هو الأهم، لأن هذا الشاهد كان من أشد المعجبين بالجنرال بونابرت، وكان أيضا من أشد

* بعض منها فى كتابنا هذا.

المتحمسين للمشروع الاستعماري الاستيطاني الحملة. وسنلاحظ هذا في حينه .. وإليكم الآن أهم ما قاله في هذا المضمار (*) .

هذا الكتاب ، الذي ينبئ عنوانه الخادع أنه مذكرات رحالة وليس فنانا ، قد كتب أساسا ، لقارئ فرنسي ، يجهل كل شئ عن مصر. ولاننسى أن «دينون» ، الفنان ، الاستعماري ، قد استفاد بصورة خاصة من مصاحبته للجيش الذي ذهب ، تحت قيادة «ديسى» ، لمحاولة السيطرة على جنوب الوادي ، الذي كان يتمركز فيه مراد بك ، ومماليكه.

★★★

إن «دينون» يبدأ كلامه بتأكيد أهمية رؤيته ، لأنــه – كمــا يقول – تجول «في بلد لا تـعرف عنه أوربـا غيـر الاســم ، فكـان كل شئ مهما للوصف» ، وكان أول ما عرفه – بالطبع – هو الهجوم على الاسكندرية ، عندما نزلت قوات الحملة في غربها. وهو يؤكد أن المدافعين كانوا شرسين : «لم يهرب منهم أحد ، فكان لابد من قتل كل من وجــد على الأسـوار، وقد مات منا مائتـا جنـدى»، مـما يدحــض أسطــورة عــدم مقاومــة المــصريين للغــزو الجديد ، ونكتشـف الآتي: أن «أسطورة قديمة كانت قد أكدت أن دخول مركب من الفرنجة إلى الميناء القديم ، يعني انتهاء سيطرة المسلمين على الاسكندرية ، وقد حققنا بمركبنا هذه النبوءة» . ولن نعجب لمثل تلك النبوءة التي لم يتحدث

* بعض هذه المصطلحات سبق نشره في «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة نفسها.

عنها غيره ، ولكن علينا أن نعتاد مثل تلك الخزعبلات التى لن يعرفها إلا الفرنسيون ، وغالبا ما تشرح لنا عقليتهم أكثر مما تصور حقيقة الأمر آنذاك . وترشدنا تلك الخزعبلات إلى ما كان يراه الفرنسيون من طباع الهنود الحمر فى المصريين: إذا كان يقال إن نبوءة كانت تؤكد للهنود الحمر أن سيطرتهم على بلادهم ستنتهى عندما تحضر إليهم آلهة من البحار الشرقية ؛ وقيل إن تلك النبوءة جعلت الهنود يتخاذلون فى دفاعهم ليقينهم أن الأسبان القادمين إليهم ، آلهة وليسوا بشرا. وبالنسبة لمصر فإن الموقف يثير العجب بسبب سذاجة «دينون» ، لأن تلك المذكرات لم تنشر فى فرنسا ، إلا بعد عودة البلاد إلى «المسلمين» بالفعل ، مما يؤكد كذب النبوءة ، وليس صحتها كما يقول .

يحكى لنا «دينون» كيف خرج وحده ليلا فى مركب صغير مع رجل مصرى ، فيقول : «بدأت أشعر أننى استهنت بنفسى ، فأنا موجود فى هذه الساعة ، تحت رحمة الرياح ، وسط بحر هائج ، وحيدا مع رجل يستطيع ، مثله مثل باقى مواطنيه ، أن يبغض الفرنسيين ، وذلك دون أى ظلم ، وقد يريد الانتقام منى» . نلاحظ هنا أنه على الرغم من تحمسه الشديد للمشروع الاستعمارى وإعجابه الشديد بمشروعات بونابرت ، إلا أنه يفهم أن من حق المصريين كراهية الفرنسيين ، وهو أمر لا نجده عند باقى زملائه بشكل عام . إنه ، فى هذه الأسطر القليلة، يعترف – وياللعجب – بحق المصريين فى بغض المستعمر ، مما ينبئ (أو المفروض أن ينبئ !) بنظرة موضوعية ، قد نتأكد فى باقى تعليقاته .

يعلق «دينون» على ما شاهده قائلا : «بونابرت ، الذى استولى على الإسكندرية بالسرعة نفسها التى استولى بها القديس لويس على دمياط، لم يقترف فيها الخطأ نفسه» : يعجب القارئ المعاصر، طبعا ، لربط الحملة الحديثة لبونابرت بالحملة الصليبية للملك لويس التاسع ، وبعد مرور خمسة قرون من الزمن ، والكاتب ليس مسيحيا متزمتا مثل «شاتوبريان» . ولكن ذلك لن يبدو لنا غريبا بعد قراءة باقى مذكرات الشهود المثقفين للحملة . ويقول «دينون» عن معركة إمبابة : «إن أفضل فرسان فى الشرق ، وقد يكونوا أفضل فرسان فى العالم ، انكسروا أمام حفنة من الجند المدججين بالسناكى» : من هنا ، نفهم بدايات أسطورة المعركة التى سميت «معركة الأهرامات» فى فرنسا ، لأن الدراسات الحديثة أثبتت أن عدد الجند الفرنسيين كان ، فى حقيقة الأمر ، أضعاف أضعاف عدد المماليك المحاربين ، حتى قيل إنها كانت «مجزرة أكثر منها معركة» (٢) . ولكن بونابرت نفسه أراد لها أن تكون معركة أسطورية مثل كل انتصاراته ، كما سبق أن رأينا فى معارك إيطاليا . والدليل على ذلك ، أنه أصر على تسميتها «معركة الأهرامات» مع أنها وقعت فى إمبابة ، أى على بعد أكثر من عشرة كيلومترات عن الأهرامات ، لأن الجمهور الفرنسى سيفرح بالاسم الاسطورى ، وهو يجهل كل شئ عن إمبابة . وقد رأينا بالفعل كيف كان لهذا الاسم صدى كبير عند الكتاب ، وفى شعر «فيكتور هوجو» بالذات .

وكان بونابرت قد أكد بعد تلك المعركة ، فى بياناته للشعب المصرى، ما قاله من قبل ، بأنه لم يحضر إلا لتخليصه من جبروت المماليك وطغيانهم . .

وبعد حديث «دينون» عن تلك المعركة ضد المماليك ، يعلق كاشفا عن ضمير حى ، من البديهى أنه أرقه كثيرا ، أثناء الحملة ، فيقول : «لقد استطعنا طرد المماليك ، وهذه حقيقة ، ولكن ، ألم نحل محلهم بعد أن طردناهم ؟ . ونلحظ هنا بداية أسطورة أخرى ، هى أسطورة «طرد المماليك» .

ومرة أخرى ، نقابل كلمات تحاول التصوير الموضوعى لما حدث ، فهو يقول : «إن قسوة حياة البدو لا مغالاة فيها : فالأسرى الذين أخذوا من بيننا ، يصفون ما عانوه من عذاب أثناء أسرهم ، وهم يعتبرون هذا العذاب جزءا من طريقة عيش هؤلاء القوم ، وليس نتيجة لبربريتهم ... ، وهؤلاء الضباط لم يشكوا من أية معاملة سيئة ، ولم يحتفظوا بذكرى أليمة ، فى ظرف بائس ، كان عليهم أن يشاركوا فيه حياة سجانيهم الخشنة» : هذه لفتة إنسانية ، تحاول وضع الأمور فى نصابها ، لتصحيح كل ما قيل عن البدو ، وهم الذين أذاقوا الفرنسيين مر العيش والحرب .

أما عن مقاومة المصريين ، فنقابل مشهدا سيتكرر مرارا فى كتاب رحلة «دينون» : «بعد أن جرحوا كلهم ، قبض عليهم ، وأعدموا كلهم . أيقن الجنرال «مينو» آنذاك أنه لابد من تلقينهم درسا قاسيا . فانطلقنا ومعنا مائتا جندى ... ، وجدنا العدو على الجياد أمام القرية ، مستعدا

للمعركة . هجموا علينا فى أول الأمر ، وحاربنا حتى الارتشاق بالسناكى (وتكون الغلبة للفرنسيين ، بالطبع ، لكثرة عددهم) . تركت القرية للسلب والنهب إلى آخر اليوم ، ثم أحرقت عن آخرها فى المساء : كان اللهب ، وصوت المدافع ، يخبران الناس طيلة الليل ، وعلى بعد عشرة فراسخ ، أن انتقامنا كان كاملا ورهيبا» . وعندما نقرأ مثل هذا الوصف من شاهد عيان ، نفهم لماذا قال «دينون» قبل ذلك إن الفرنسيين – على حد قوله – قد حلوا محل المماليك بعد طردهم . أهكذا كان يتخيل الفرنسيون أن المماليك يعاملون الفلاحين ؟

ويستمر الوصف : «عدنا إلى فوة ، حيث استقبلنا كمنتصرين ، يعرفون كيف يحدون من انتقامهم (ثم ...) استمع السكان باحترام وخضوع إلى البيان الذى قرئ عليهم بالنسبة للحملة ، والأسس التى ستنتظمها الإدارة الجديدة (للمنطقة)» . من البديهى أن «فيفان دينون» لا يستطيع أن يتفهم نفسية مدنيين مهزومين وعقليتهم . لقد حكى من قبل كيف يُعامل المقاومون من المصريين ، فكيف يعجب من خضوع المدنيين أو يزهو به ؟ ولكن الغريب أنه يرى فى ذلك الخضوع – المفهوم فى ظروف الحرب – احتراما يذكرنا بترجمة «السلطان الكبير» «بأبى النار» ، أى تحويل كل ما يمس المصريين ، حتى أقوالهم ، ولكل ردود أفعالهم، على أنها انبهار يدغدغ مشاعر الشوفينية الفرنسية ، يحدث هذا حتى عند فنان مثل «فيفان دينون» وهو الذى يحاول أن يكون موضوعيا ، بل ويؤرقه ضميره ، أحيانا ، لما يحدث على أيدى جند الحملة .

نرى الآن مثالا آخر للمنطق الفرنسى آنذاك ، ذلك المنطق الأعرج

الذى يسمح بكل شئ ، أو بالأصح ، بالشئ ونقيضه معا : إنه المفارقة التى تسمح بالاستفادة من الوضع الراهن ، وضع الغازى الباطش ، والتمتع براحة الضمير ، لأن نياتهم حسنة . صحيح أن تلك النيات لم توجد إلا فى خيالهم ، ولكنها بقيت فى الأسطورة المتداولة ، وإن لم يكن لها أى أصل فى الحقيقة . فنرى «دينون» يقول : مندوبو هذه المنطقة قدموا ما تبقى لديهم من دجاج وأوز للجند الذين حضروا ليخلصوهم من تأنيب الضمير (تأنيب ضمير أهل البلد) ، هذا التأنيب الذى كان يؤرق الفلاحين منذ ثلاثة أسابيع . كنا نستقبل فى كل قرية على الطريقة الإقطاعية ؛ وكانت أهم شخصية فى البلدة تستقبلنا ، وتجعل الأهالى يدفعون الثمن بعد ذلك . كان لابد لنا أن نتعرف على هذا التعسف قبل معالجته ، ولو أننا كنا مبهورين بالسهولة التى أتاحت لنا دراسة تقاليد بلد ، كنا سنغير من طباعه ، فكنا نترك الأمر على ما هو عليه فى هذه المرة» . هكذا يتحدث «دينون» بروح المفكر الساذج الذى يظن أنه، إذا استفاد مؤقتا من وضع يراه خاطئا ، فما ذلك إلا أمر مرحلى ، لأنه «سيعالجه» . ولم يعالج أى شئ فى إيطاليا من قبل ، فلماذا يعالج فى مصر؟ والجيش فى الحالتين كلتيهما هو المستفيد الأول . ولكن لن تفوتنا هنا النية فى «تغيير طباع البلد» ، دون الإدلاء بأية تفاصيل ؛ أمر لم نقابله عند غزو البلاد الأوربية ، التى تم تغيير نظامها السياسى ، بل والاقتصادى ، ولم تمس «طباعها» . ولن نتعجل فى الحكم قبل قراءة باقى ما كتبه ، وكان أول من فضح ، علانية ، الأفعال الحقيقية للجيش

الفرنسى فى مصر .

مشهد يتكرر كثيرا ، وهو على أية حال ، مشهد معروف فى كل البلاد المهزومة ، وهو مشهد الانتقام من المدنيين العزل ، إذا ما هاجم سكان البلد أحد الضباط الغزاة ، فقتلوه ، وهو ما يسمى بلغة الفرنسيين أنفسهم : «بطولات المقاومة الشعبية» ؛ ولكن الاسم يختلف طبعا ، إن كانت تلك البطولات تنفذ على أيدى أعداء ، هزمتهم القوة الفرنسية المحتلة . ولذا ، نقرأ الكلمات الآتية ، وقد كتبها الفنان الرحالة الموضوعى ، دون أى تأنيب لضمير ، نراه حيا فى فقرات أخرى .. إن «دينون» ، والحق يقال، فى مفارقاته المستمرة ، لا ينكر الدور البذئ الذى قام به الجند . نقرأ إذن : «رسمت قرية «ألقان» ، هذه القرية التى قتل فيها الضابط «جوليان» وخمسة وعشرون من جنده ، وقد طرد سكانها ، وأحرقت كلها» .

الأسطورة تقول إن الجيش الفرنسى جاء ليعلم الشعب المصرى مبادئ الثورة والتنـوير ، وليحرره من سطوة المماليك ، ولكن الحقيقة التى يفضـحها لنا «دينون» ، تثبت عكس ذلك ، أن الجيش الفرنسى كان، فى الواقع - مثلما كان فى إيطاليا - جيش مرتزقة لا يهمه إلا السلب والنهب ، ويحكى شاهدنا العيان : «فى كفر شاباس ، عاد الطبيب مسرعا وهو يقول : إنهم ينتظروننا بالبنادق ... أخذوا يطلقون النار علينا ... ، سقط الضابط فى الماء ، بينما تشتت الجند جريا وراء الأهالى ، الذين كانوا يحملون أمتعتهم ؛ عندئذ ، ركض الجنرالان وراءهم ، فى محاولة لتنظيم هذه الفوضى ، ولجمع شمل الفرقة ؛ وكانت

نتيجة ذلك ، أننا اضطررنا إلى المرور تحت نيران العدو ، وقد مات وجرح الكثير من العسكر (بسبب نهمهم للسلب)» .

سبق أن عرفنا «دينون» نفسه أن الهدف الرئيسي من الحملة كان تغيير تقاليد المصريين ؛ ولذا ، نراه يؤكد: «إن سعادتي كبيرة لرسم المصريات في اللحظة التي تسبق تأثيرنا على التقاليد الشرقية ، التي قد ترفع الحجاب الذي يغلفهن». ونتساءل ، لماذا يريد الفرنسيون تحويل المصريين إلى فرنسيين ؟ لأن «الفرنسي» ، هو «الحضارة» ، حتى إذا تصرف كما نرى في كتاب «دينون» .

وتستمر المقاومة ضد الجندي الفرنسي الغازي ، ونراها في هذا الكتاب لا تهدأ يوما واحدا ؛ وأمثلة البطولات المصرية لا تتوقف ، ومنها هذه الصفحة : «كان العدو يسير (نحونا) ، وشاهدنا أعلامه ... أرسلنا إليهم القناصة ، وفي اللحظة نفسها ، احتدم العراك ، وعلى الرغم من مدافعنا ، فإنهم لم ينسحبوا : كان تفانيهم وشجاعتهم يحلان محل الأسلحة التي افتقروا إليها . ولكن بعد أن دحرنا هذه المقدمة أكثر مما حطمناها، وجدنا المقاومة في القرى بعد ذلك أشد ضراوة» : كلما ازداد قمع المقاومة عنفا ، ازدادت ضراوة واتساعا ؛ ولم يمنع ذلك نابليون من الإصرار على ذكر محبة المصريين لجيشه الرائع في «الميموريال» . وعلينا أن نذكر هنا أن الثورة الفرنسية على الطغيان كانت موضع فخر لا حد له للفرنسيين ؛ أما إذا ثار المصريون أيضا دفاعا عن حريتهم واستقلالهم ، يكون تعليق «دينون» على ثورة القاهرة الأولى ما يلي : «إن الغوغاء ، وبعض الكبار وكل الاتقياء ، أثبتوا منتهى التعصب الديني

الأعمى الشرس أثناء الثورة» . لقد نسى «دينون» ما قاله سابقا عن حق المصريين في بغض الفرنسيين المحتلين البلد .. إن المفارقة هى أساس تفكيره ، بلا أدنى شك .

ثم يرحل «دينون» بعد ذلك مع الجنرال «ديسى» ، فى حملته على مراد بك في صعيد مصر ، ولم يستطع الجنرال التخلص منه أو من مماليكه وفرسانه ، وعاش الفرنسيون أثناء تلك الحملة الثانية حربا يومية طاحنة ؛ ولم يهدأ لهـم بال لليـلة واحـدة . وتتأكد تلك الحقيقة التاريخية عند قراءة مذكرات «دينون» ، الصادقة حتى فى مفارقاتها ، وهو يقول : «لم نستطع إنقاذ إحدى القرى من النهب والسلب لأننا وصلنا متأخرين ؛ لم يمض ربع الساعة ، إلا وخلت البيوت من كل شئ ؛ هرب السكان العرب إلى الحقول ، فقيل لهم أن يرجعوا ، فأجابوا ببرود شديد : وعم نبحث فى بيوتنا ؟ أليست هذه الحقول الجرداء بالنسبة لنا مثل منازلنا ؟ ولم نكن نستطيع الاجابة على هذه الجملة البليغة» . لقد قام الجند بتفريغ المنازل من كل شئ ، وجاء الضباط بعد ذلك يحاولون ترضية الأهالى بطريقة ساذجة بدلا من معاقبة الجند . فكان «الرد البليغ» لفلاحين عزل ، لم يعد لهم إلا قرية خاوية ، أكلتها جرذان الجيش المتعطش للنهب والسلـب . وتستـمر ملحـمة «الأرض المحـروقة» كمـا سبـق أن حدث فى «فانديه» فرنسا . ويستطرد المؤلف ليحكى باقى قصة الملحمة : «ذهبـنا مع فرقة مكونة من ثلاثمائة رجل لنحصل الميرى، أو ضريبة الأرض ، ومصادرة الخيل والجاموس : كنا فى ذلك نتبع

وسائل المماليك الذين يقومون بالرحلة العسكرية نفسها فى المقاطعات التي ولوا عليها ، وهم يعسكرون أمام المدن والقرى، ويأكلون على نفقة أهلها إلى أن يدفع لهم ما جاءوا فى طلبه» ، «كانوا يقولون عنا إننا ابتلاء من عند الله أرسله الله عليهم ليعاقبهم على خطاياهم ؛ وكان يجدر بهم – فى الحقيقة – أن يطلقوا علينا اسما أكثر عنفا» . والكلام هنا واضح لا يحتاج إلى أى تعليق أو توضيح .

وعندما قاومت جزيرة فيلة مقاومة عنيفة ، وصدت الفرنسيين أكثر من مرة ، قال «دينون» : لم يكن فى إمكاننا (ونحن على ضفاف النيل) تغيير قرارهم . ولكن ، هل نترك حفنة من الفلاحين الوقحين على بعد أربع خطوات من إقامتنا ، ليكونوا قدوة سيئة للآخرين ، ولذا فقد قررنا العودة مرة أخرى فى اليوم الثانى ،.....» وعدنا بالفعل ومعنا مائتا جندى ؛ وعندما رأونا ، بدأوا يستعدون للقتال ،.....» صرخنا فيهم أننا لا نريد لهم مكروها ، ولا نطلب منهم إلا الدخول الودى إلى الجزيرة» ، وبدأ ضربهم بالمدافع ، وتم سحقهم طبعا ، «كان تفريغ ما فى مخازن الجزيرة عملية قام بها الجند حتى آخر النهار» . وهكذا ، وضح معنى «الدخول الودى» . ويصف «دينون» كيف كانت الأمهات يشوهن بناتهن حتى لا يغتصبن ، ويعجب من وحشيتهن . . ونذكر هنا – بالمناسبة – ما كان بونابرت قد قاله لجنده فى أول بيان له قبل الوصول إلى مصر : «... الشعوب التى نذهب إليها تعامل النساء بطريقة مختلفة عنا ؛ ولكن الذى يغتصب امرأة فى أى بلد فى العالم وحش كاسر ، والسلب لا يثرى إلا قلة من الرجال ، ولكنه أمر مخزٍ لنا ويبدد مواردنا ؛ ويجعلنا أعداء

للشعوب التى نريدها صديقة لنا ، من أجل مصلحتنا» . وقد نسخ أغلب المؤرخين هذه الكلمات ، ولم يتحدثوا ، بعد ذلك ، عن السلب والنهب والاغتصاب ؛ فكانت النتيجة أن القارئ – خاصة من قرأ في «الميموريال» عن حب المصريين للجيش الهمام – كان يظن ، دائما ، أن الجند الفرنسيين تصرفوا كملائكة رحمة في مصر ولم يكونوا جيشا غازيا ومستعمرا بكل المعانى المعروفة للكلمة ولقانون الحرب فى ذلك العصر .

كيف نتخيل مشاعر شعب عومل كما يحكى «دينون» الذى يكتب بالحرف الواحد : «كان لابد من تجويع البلد لنبعد العدو (...)، كنا نأخذ معنا الأهالى فيتحول البلد بعد مرورنا إلى أرض جرداء»، «بعد ثلاث عشرة ساعة من السير، وصلنا لنبيت فى «جمارسييم» وكان هذا لسوء حظ هذه القرية لأن صراخ النساء جعلنا نفهم أن جنودنا قد انتهزوا فرصة حلول الليل ليتصرفوا بحرية، فعلى الرغم من تعبهم إلا أنه كان مازال لديهم فائض من الطاقة، وكانوا ينتزعون بالفعل ما هم فى غير حاجة إليه، بحجة البحث عن مؤن: فما كان من السكان، وقد فاض بهم الكيل بعد أن نهبوا واغتصبوا إلا أن هجموا على الدوريات التى أرسلناها للدفاع عنهم ورد جنود الدوريات بقتل الأهالى، لأنهم لا يستطيعون التفاهم مع أهل القرية، ولا يستطيعون شرح الموقف لهم»... والحق أننا لا نتخيل كيف يشرح الموقف.. وأى موقف...؟!

ولا تفوت بشاعة «هذا الموقف» على شاهدنا الموضوعى فيعلق قائلا:

«ما أكثرك يا حرب بريقا فى التاريخ ! ولكن إذا ما شاهدناك عن قرب تحولت إلى وجه شنيع، عندما لا تخفيه بشاعة التفاصيل» وهل نجد فى تلك الحرب تفاصيل أخرى غير التى سردها علينا هذا الشاهد الواقعى الأمين لما كان يحدث بالفعل؟

ولكن ما أعجب منطق «دينون» فى الصفحة التالية : «فى الثالث والعشرين، علمنا أن فرساننا قابلوا تجمعا فى المنشية، وقتلوا ألفا من هؤلاء المنحرفين ! درس لا أخوة فيه، ولكن موقفنا يجعله ضروريا: هذه المقاطعة التى كانت دائما ثائرة ، كانت لها سمعة فظيعة ، وكان لابد لها أن تتعلم ألا تقارن بنا (.....) ربما كان لابد لهم أيضا أن يقتنعوا أننا أكثر انتقاما وأقل تسامحا مما يظنون» .

«وأخيرا ، قد يكون السبب أننا لا نجد وقتا لوعظهم ، فلابد – نظرا للظروف البائسة التى تمر بنا – أن نعاقب بشدة من يصرون على عدم تصديقنا عندما نقول لهم إن كل ما نفعله ما هو إلا لصالحهم».

لم ير المصريون – وعلى حد قوله هو نفسه – إلا القتل والسلب والنهب والاغتصاب ، ولكنه يريدهم أن يفهموا أن كل ذلك لم يكن إلا لصالحهم ! منطق غريب ، خاصة إذا لاحظنا أن «دينون» ، يعتبر من يدافع عن نفسه «منحرفا» ، «سيئ السمعة» ، «بائسا» ... ولا يفوتنا صلفه وهو يتحدث عن قوة جيشه .

ويتأكد خطأ منطقه ، أو مفارقات أقواله ، فى السطور التالية ،

عندما نراه يريد تعليم المصريين الشجاعة ، أثناء وصفه هؤلاء الفلاحين، فى حربهم ضد الفرنسيين . ولسنا نعرف فى أى فريق نجد الشجاعة إذا كان الجيش الغازى يحارب بمدافعه وبنادقه ، والمصريون سلاحهم الوحيد هو العصى ، وهم مع ذلك لا يهابون الموت ويحاربون من أجل حريتهم .

يقول «دينون» : «من الممكن أن نقول إن أى مصرى ، على المستوى الشخصى ، حاذق وماهر (....) ، ولا أعرف إلى أى مدى نستطيع أن نجعله يتعلم الشجاعة ؛ ولكن يجب أن نرى بحرص ، بل وبنوع من الفزع ، صفات الجند التى يتحلون بها ؛ فهم غاية فى الزهد، يسيرون كأحسن عدائين ، يركبون الخيل وكأنهم من الأساطير ، يسبحون كالدرافيل ؛ إنهم شعب مكون من ملايين كثيرة ، وله كل هذه الصفات ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن أربعة آلاف فرنسى منعزلين يحكمونهم بعنف على مساحة مائتى فرسخ ! لأن عادة الطاعة طريقة مثل عادة القيادة ، حتى ينام البعض فى تعسف سلطته ، بينما يصحو الآخر على صوت أغلاله» . وفى الصفحة نفسها من الكتاب ، وبعد هذا الكلام مباشرة ، يجئ الدليل القاطع الواقعى على افترائه : «ألفان من العرب على الجياد وخمسة أو ستة آلاف فلاح من المشاة، ظنوا أنهم يستطيعون سحق الخيالة (الفرنسية) ،.....، تقدموا أمام طهطا ، عندما اكتشفهم الفرسان ، مستعدين للحرب» .

إن «دينون» ، مثله فى ذلك مثل كل مثقفى الغرب ، لا يستطيع

تغيير آرائه المسبقة ، التى قرأها فى كتب مثل كتاب «كوندرسيه» الذى سبق أن تحدثنا عن افترائه على «المسلمين» - فى الجزء الأول. ولذا ، فهو لا يعزو انتصار الفرنسيين لمدافعهم التى تصوب إلى صدور فلاحين سلاحهم الوحيد هو العصا . يتحدث عن الآلاف التى تتقدم دون خوف نحو مدافعهم ، ثم يرى أن حكم «أربعة آلاف فرنسى» يحكمون «بعنف» - على حد قوله - يرجع إلى «عادة الطاعة» . وما فائدة التعليق إن كان حتى رأى العين لم يقنعه ؟ إن كان هو نفسه لا يعى معنى ما يقوله ، وكأن الفرنسيين يطاعون دون مدافع .

والأمثلة عند «دينون» كثيرة للبطش الفرنسى : «وصلنا أمام قرية ، ما عرفنا لها اسما إلا فى اليوم التالى ، وكان اسمها «البيرا» ، فقد وصلنا إليها مساء ، ولم نجد بها ساكنا واحدا ليخبرنا باسمها . وأنا أحب أن نجد القرى بلا سكان ، حتى لا أسمع صراخ الأهالى ونحن مضطرون لتجريدهم من كل شئ ، لم يتبق فى القرية إلا الحوائط ، فالأبواب والأخشاب كلها كانت قد نزعت وأخذها أهل القرية معهم ، وكانت القرية تبدو - بعد تركها بساعتين - وكأنها أثر له من العمر قرن من الزمن (.....) ، توجهنا ، (بعد ذلك) ، إلى ... «فارشنت»، ....، تلك القرية البائسة، كانت قبل بضع ساعات ، قد سلبت على أيدى المماليك ... ، وصلنا ، وسلبنا ما تبقى فى المخازن ؛ حاولنا جمع العسكر لمنع تلك الفوضى ؛ ولكن كيف ومعاقبة الجيش بأسره كانت ضرورية فى حالة كتلك .... وكى نتفادى نظرات اللوم فى عيون

الأهالى ، تركنا القرية فى منتصف الليل ....، وصلنا فى الحادية عشرة إلى قرية كبيرة ، لم أعرف لها اسما أبدا ، حيث تجول العسكر لسوء حظها ولخراب أهلها» .. «فى اليوم التالى ، لم يكن متبقياً لنا إلا ثلاثة أرباع الفرسخ ، حتى نصل إلى فرساننا الذين لم يتقدمونا إلا لأكل البلد قبلنا» ، .. «كنا نحارب – منذ ست ساعات دون توقف – عدوا عديم الخبرة ، لكنه شجاع ومتعصب دينيا ، ويقاوم بإصرار : لم يكن ينسحب إلا جماعة ، فكان واجبا علينا قتل كل من تقدم منه» .

ونعجب أن «فيفان دينون» ، على الرغم من كل ما يحكيه هو نفسه من تفاصيل بشعة ، إلا أنه يصر على أن ما يحرك الأهالى هو التعصب الدينى . ولكن ، ألم يكن «دينون» واحدا من جيل تلاميذ فلاسفة التنوير ذلك الجيل الذى لا يرى فى أى إيمان إلا «تعصبا» و «تطرفا» ؟ فما دام المحاربون مسلمين ، فلابد لهم أن يكونوا «متعصبين دينيا» ، حتى وإن كانوا يدافعوا عن قريتهم وحياتهم وأعراضهم . ونعجب هنا أيضا لاعترافه بشجاعة المحاربين ، وقد رأيناه من قبل ، يتساءل عن كيفية تعليمهم الشجاعة .

ثم تكون هذه الصفحة بالغة الأهمية ، لأن «دينون» يقول فيها ما ينبغى أن نقوله نحن : «كنا نتباهى بأننا أكثر عدلا من المماليك ، وكنا، مع ذلك ، نقترف كل يوم ، مضطرين ، عددا كبيرا من المظالم . كانت صعوبة تمييز أعدائنا بناء على الشكل واللون ، تجعلنا نقتل يوميا فلاحين أبرياء ؛ كان الجند الذين نرسلهم للاستكشاف ، يظنون

أن التجار المساكين، من أهل مكة (الذين حضروا لمساعدة المصريين). وقبل أن نصل إليهم لنعيد العدل - إذا ما كان هناك وقت للعدل - يكون الجند قد قتلوا اثنين أو ثلاثة ، وتكون قافلتهم قد سلبت أو بددت ، وجمالهم قد تم تبديلها بجمالنا الجريحة (...) ، وعندما كان الفلاحون يذعنون لتهديدنا ، ويحضرون لدفع الميرى ، كما يحدث أحيانا ، كنا نظن تجمعهم ، بسبب كثرتهم ، عداء لنا ، ونظن عصيهم أسلحة فكان عليهم أن يتحملوا رصاص القناصة ، أو رصاص الدوريات، قبل أن يشرحوا موقفهم ؛ فكانوا يدفنون موتاهم ، ونظل أصدقاء إلى أن تتاح لهم فرصة انتقام مؤكد ، والحق أنهم عندما يبقون فى منازلهم، ويدفعون الميرى ، ويوفون باحتياجات الجيش كلها ، ويستسلمون لنا، كانوا يوفرون على أنفسهم مشقة السفر والبقاء فى الصحراء. وفى تلك الحالة، كانوا يرون مواردهم تؤكل بانتظام ، فيأكلون نصيبهم ، ويحتفظون ببعض أبوابهم ، ويبيعون البيض للجند ، ولا يغتصب إلا القليل من نسائهم وبناتهم» ، نرى ماذا كان يعنى الاستسلام من نتائج حميدة ومنظمة فى السلب والنهب والاغتصاب . ولكن الأهم والجديد ، ما نقرؤه فى أول النص ، عما تثيره رؤية عصى فى أيدى الفلاحين ؛ إنها كفيلة بإرسال القناصة ضدهم : أين تقع الشجاعة هنا ، إن كانت مجرد عصى تثير مثل ذلك الفزع ؟

ونستمر فى التعرف على الحقائق التى شاهدها «دينون» ؛ وهو

يقول : «أما مصير السكان ، الذين جئنا إلى مصر لإسعادهم ، دون شك ، فلم يكونوا أحسن حالا (مما سلف) ؛ إذا ما اقتربنا منهم خافوا وتركوا منازلهم ، ولا يعودون إليها إلا بعد رحيلنا ، ولا يجدون فيها إلا الطين الذى بنيت به ؛ فالأدوات ، والمحاريث ، والأبواب والأسقف كلها، كانت تستعمل لإبقاء النار (من أجل طهى طعام جنودنا) كانت الأوعية تكسر كلها والغلال تؤكل كلها ، ويشوى الدجاج والحمام كله ؛ ولا تتبقى إلا جثث الكلاب لأنها أرادت حماية ممتلكات أسيادها . ولو أننا مكثنا فى تلك القرية ، يصدر الأمر لهؤلاء البؤساء بالعودة ، وإلا عوملوا على أنهم متمردون متواطئون مع أعدائنا ، وتضاعف بالتالى الغرامة التى يدفعونها» .

ونقرأ هذا الاعتراف الأخير ، وهو يصف الخدم وكثرتهم فى ذلك البلد الفقير : «يجب أن نعترف أننا أصبحنا ، رويدا رويدا ، شركاء فى هذا الفساد ، وأننا كنا نتشبع بعقلية الشرقيين ونحن نتنفس هواءهم نفسه ، وأننا أصبحنا لا نعرف كيف نتخلص من هذه الحاشية كلها (من الخدم) » . ألم يقل «دينون» نفسه فى أول كتابه إن الفرنسيين قد حلوا محل المماليك ؟ وكم مكث «دينون» مع بونابرت فى مصر ، حتى يؤثر «هواء الشرقيين» عليه بهذه السرعة ؟

ملاحظة أخيرة : كتاب «فيفان دينون» هذا يتحدث عن «المصرى» وعن «الفلاحين»، فكلمة «مسلمون» نادرة الاستعمال ، مما يدل على أن المقاومة كانت من جميع المصريين ، مسلمين وأقباطا ، خاصة أن ما رآه المؤلف يقع أغلبه فى صعيد مصر ، حيث أغلب السكان أقباط حتى

يومنا هذا . وتنطبق هذه الملحوظة إذن على كل من تحدث بعد ذلك عن الفلاحين والمصريين ، أقباطا ومسلمين . وهى جديرة بالتنويه لما جلبه «الجنرال يعقوب» رئيس مخابرات الجيش الفرنسى من تهمة على بنى دينه ، وهم أبرياء من أفعاله الخائنة المشينة .

★★★

ختاما ، نذكر أن «دينون»، الذى كان من أكثر المتحمسين للمشروع الاستعمارى ، كان يحلم بجلب الأوربيين والأمريكان للاستيطان فى مصر ، وهو – بالطبع – لا يذكر شيئا عما سيكون لأهل مصر فى تلك الجنة المرتقبة ، التى رأينـــاها منفــذة ، بالفعل ، فى الجزائر بعد ذلك بسنوات .

وسافر بونابرت خلسة إلى فرنسا فى الثالث والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٩ ؛ وكان من الرفاق المختارين لمصاحبته فى تلك الرحلة ، «فيفان دينون» ومذكراته .

واللافت للنظر أن كتابه ، على نجاحه وانتشاره ، لم يعرف إلا كدليل للفنانين في جولة بين الآثار، يحكى فيها الكاتب انبهاره بالنمط الجمالى الجـديد الذي يختلف كلية عن أنمـاط الجمال الكلاسيكية المعهودة آنذاك . ويعجب الدارس لإهمال كل القراء ، إلى يومنا هذا ، لكل ما قصه «دينون» ، دون مواربة ، عن تصرفات الجيش فى البلد؛ ومن خلال وصفه لتلك التصرفات ، فإننا لا ندرى كيف ومتى استطاع هذا الجيش تلقين المصريين أصـول حضارة غربية ، تتمثل فى مبادىء الثورة الكبرى ؟

و «چان – كلود فاتان» ، الذى أعد المقدمة للطبعة الجديدة ، كان – على حد علمنا ، والله أعلم – أول من أشار إلى حقيقة هذا الجيش الذى لا يمكن أن تفخر به دولة . إنه جيش لا يحارب بقدر ما يغتصب ويسلب وينهب ويحرق فلاحين عزلا ، لا يجدون غير عصيهم ليصدوا بها مدافع الطغيان الجديد الذى حل محل طغيان المماليك ، على حد قول «دينون» نفسه .



هذه الصفحات الدامغة للحكم الفرنسى ، مأخوذة ، كما سبق أن قلنا من «رحلة إلى مصر السفلى والعليا» لـ «فيفان دينون» ، وقد نشرت سنة ١٨٠٢ ، أى أثناء حياة المؤلف . ولم يكتب أى ممن كانوا معه أثناء الحملة ، كلمة واحدة مما قيل فى هذه المذكرات . وقد نجحت نجاحا كبيرا ، قبل أن تترجم إلى الإنجليزية والألمانية وقد درسها كثير من النقاد ، وأعجب الجميع بأسلوب هذا الفنان ، الذى قدم أيضا ، لوحات جميلة ، وخرائط غاية فى الأهمية فى الجزء الثانى من كتابه الشهير . وعلى الرغم من ذلك ، لم يعلق على هذه الصفحات إلا آخر من أعاد نشرها ، وهو «جان – كلود فاتان» ، الذى يعد من الجيل الجديد للمستشرقين الفرنسيين ، الذين لا يتورعون الآن عن ذكر الحقائق كاملة. وكانت كل التعليقات ، قبل ذلك لا تشير إلا لما أثبته «دينون» من رؤية ثاقبة ، عندما رأى الآثار المصرية لأول مرة : بدأ النفور منها لعدم وجود علاقة بينها وسنن الجمال الكلاسيكى ، الذى تؤخذ قوانينه من الفن الاغريقى القديم ، ثم نرى نظرته ، على مر الصحفات ، تتحول

رويدا رويدا ، حتى يفهم أن لهذا الجمال المصرى القديم ، قوانين أخرى ، خاصة به ، فيعجب به ، ويفهم أن فى العالم شيئا آخر غير النمط الأوربى ، الوارث للفن الإغريقى . وعلى الرغم من تكرار وصف العنف - كما سبق أن رأينا - إلا أن أحدا - عدا «جان - كلود فاتان» طبعا - لم يعلق على طريقة معاملة الفرنسيين للفلاحين ، تلك الطريقة التى يفضحها «دينون» واستمر الجميع بعد نشر وقراءة مذكراته ، فى الإشادة بالتنوير والحرية اللذين جلبهما الجيش الجمهورى إلى مصر .

قد يكون خير مثال على تلك النظرة الجزئية ، بل المتحيزة - إن كنت تدرى فتلك مصيبة - ما قاله الأستاذ «جان - مارى كاريه» فى رسالته الشهيرة : «الرحالة والكتاب الفرنسيون فى مصر» ، وهى من الكلاسيكيات فى هذا الموضوع ، وقد أعيد نشرها لنجاحها ، بعد ظهورها لأول مرة سنة ١٩٥٦ ، فهو لم ير ، ولم يقرأ، من كتاب «دينون» ، إلا ما يخص الفن ، وشخصية «دينون» المحببة إلى النفس. وكيف لا ، وقد أهدى الأستاذ «كاريه» هذا جزءى رسالته الضخمة «إلى ذكرى كل الفرنسيين الذين ساهموا فى اكتشاف مصر القديمة ، وساهموا فى نهضة مصر الحديثة».

إلى هنا، والأمر يمكن أن يكون مقبولا فتلك هى سنة المستشرقين حتى عهد قريب ، ومع ذلك ، فالقارىء لا يسعه إلا العجب ، عندما يقرأ فى الجزء الثانى من الكتاب أن «المعهد الفرنسى» ، ذلك المجلس العلمى الشهير ، قد «دخل مصر مرتين بصورة رسمية ، المرة الأولى مع بونابرت (..) والمرة الثانية مع ليسبس (..) . وبين هاتين البعثتين

السلميتين ، بعثة ١٧٩٩ وبعثة ١٨٦٩ ..» وعلى الرغم من أن «كاريه» قد قرأ وقدم بإسهاب كبير ، مذكرات «دينون» ، بل وتحدث عنها فى ٢٦ صفحة في الجزء الأول من بحثه ، إلا أنه ، وبعد كل ما عرفه ، مازال يسمى الحملة «بعثة سلمية» ، كأن بونابرت كان على رأس رحلة استكشافية ، أعضاؤها من علماء «المعهد الفرنسى» ، ولا يصحبه فى رحلته تلك ستة وثلاثون ألف جندى من الغزاة . وتزداد الدهشة ، عندما نقرأ بعد ذلك تقديمه لخطابات مؤرخ يدعى «جوزيف ميشو» ، زار مصر أثناء حكم محمد على ؛ ويعلق عليها «كاريه» قائلا : «هل يعنى ذلك أن «ميشو» يوافق على أساليب محمد على ؟ لا ؛ إنه يعترف بذكاء الباشا ونشاطه ، ولكن ، كيف يوافق على استغلاله للفلاحين دون رحمة ؛ كيف يوافق على نظام الضرائب الظالم والرعب البوليسى الذى كان يسود البلاد أثناء حكمه ؟ صحيح أن مصر كانت تطيع ، وتسير ، وتحفر القنوات (.. إلخ) ولكنها كانت تفعل ذلك تحت ضغط الغرامات وضرب العصى» (...) ، «كان نتيجة ذلك النظام ، عذاب الشعب وبؤسه» (٣) ، .. نعم ، يدهش القارىء ، لأن الأستاذ «كاريه» لم يتوقف ولم يقل الكلام نفسه ، عندما تحدث بإسهاب عن مذكرات «دينون» ، مع أن بها تفاصيل أكثر عما عاناه الفلاحون ، كما سبق أن قرأناها مترجمة ، ولم يتوقف عندها الدارس الأستاذ «كاريه» ، ألأن الضرب والبؤس كانا ينبعان من الحكم الفرنسى .. فلا يبدو الأمر غريبا عليه ؟! أم أن «ضرب الحبيب ..»؟ ولكن عندما لاحظ كاتب آخر البؤس نفسه ، والضرب نفسه أثناء حكم محمد على ، يصبح الكلام جديرا

بالتعليق ، بل ويشار إليه بالبنان على صفحتين من القطع الكبيرة فقد شعر الأستاذ «كاريه» هذه المرة بالظلم الذى يقع على شعب مصر المسكين المقهور، وكان الأجدى أن يذكره هذا القهر ، بقهر آخر ، سبق أن نزل على الشعب نفسـه ، ولكن على أيدى الفرنسـيين الغازين ، لكنه لم يفعل ، لأنه لا يريد أن يرى .

وهكذا نتلقى درسا قاسيا في موضوعية العلماء الغربيين . والعلم ، فقد درَّس الأستاذ «جان - مارى كاريه» لمدة ثلاث سنوات في جامعة القاهرة ، ومن يدرى كم من الحقائق المزيفة قال لطلبته المصريين . وسبق أن رأينا .. ما كانت المدارس الفرنسية تقوله لتلاميذها المصريين في العصر نفسه ، أى قبل ثورة يوليو سنة ١٩٥٢(*) .

وبعد أن عرفنا ما كتبه الفنان «فيفان دينون» فلنقرأ الآن ما كان يكتبه مدنى آخر ، من خطابات لأهله ، في العصر نفسه .

«فرانسوا برنوابيه» : «مع بونابرت، في مصر وسوريا(**)»

كان الفنان «دينون» من المقربين جدا للجنرال بونابرت، وعندما سافر القائد العام من مصر إلى فرنسا سرا كان من بين من انتقاهم لمصاحبته أيضا، جنرال آخر، لم يكن من العسكريين، إذ كان «مديرا لشفل جيش الشرق». ويقول «كريستيان تورتيل» إنه وجد، بين اوراق عائلته القديمة، خطابات هذا المسئول إلى زوجته وابن عمه، وقد نشرها «تورتيل» هذا في عام ١٩٨١ (٤).

* انظر الملحق.

** بعض من هذه الصفحات سبق نشره في «الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة» للدارسة.

يحكى الجنرال «برنوابيه»، فى أحد خطاباته الأولى زيارته سرا للسفينة التى يسافر عليها القائد العام لجيش الشرق، وهى سفينة لوريان : «لم أر فى حياتى مافاجأنى وأعجبنى مثل قاعة الاستقبال بها : كانت مصممة لملك ولد فى الرخاء أكثر منها لجنرال جمهورى، ولد من أجل مجد وطنه .. وقيل لى إن أصول المراسم مراعاة بدقة فى هذا المكان : إنهم يحاولون نسخ العادات القديمة للبلاط الملكى، وبدا لنا الأمر مضحكا للغاية وكأننا نشاهد نبيلا كبيرا مرفها وسط معسكر من الجند الاسبرطيين»:

تدل هذه السطور على عقلية «فرانسوا برنوابيه» نفسه فهو يتكلم كالثوار الذين أرادوا التخلص من بذخ النبلاء السابق كله؛ وفى الوقت نفسه تشير هذه السطور الى نمط الحياة التى سيحياها بونابرت فى مصر، والتى تذكرنا بحياته فى ايطاليا .

وفى الطريق إلى الاسكندرية قابل الأسطول الفرنسى سفينة حربية تركية : «أبلغ بونابرت قبطان هذه السفينة نية الفرنسيين الدخول فى أراضى سيده، بصفتهم أصدقاء، ما جاءوا إلا لمعاقبة بكوات المماليك، لما يوجهونه من إهانات للمسيحين يوميا. ولذا فبونابرت ينصحه أن يستقبلنا كأصدقاء، وإلا أغضب السلطان» : كان هذا بالفعل ما قاله أيضا بونابرت لجيشه ، وكان الجميع يعتقد – كما سنرى لا حقا – أن فرنسا وإسطنبول متفقتان معا على تلك الحملة .

وينزل الجيش على شاطىء الإسكندرية : «عندما رأى حاكم الاسكندرية أننا نستعد للنزول الى الشاطىء ، أخذ يصلح بسرعة فائقة

تحصيناته السيئة، وأثار الغوغاء ضدنا» هكذا يوصف كل من حاول التصدى للحملة الغازية. ثم يصف «برنوابيه» نزول الجيش الى الشاطىء: «كان المنظر مهيبا ، وكنا نعجب له ، وكان لابد أن يستغربه المصريون ، فمما لا شك فيه ، أنهم لم يروا مثله من قبل ولكننى عجبت أنا نفسى لعدم المبالاه التي قبولت بها تحركاتنا كلها، ومن المؤكد أنهم كانوا يحتقرون المنظر أكثر مما يعجبون به، فمن كان يراهم يظن أنهم هم المنتصرون علينا (...) وعلى الرغم من تحركات أكثر من ألف رجل ومعداتهم إلا أننى رأيت أهل البلد يتوجهون إلى شاطىء البحر ويغسلون وجوههم وأجسادهم ، ثم يفرشون جلابيبهم الكبيرة على الرمال، وينظرون نحو الشرق ، ويقومون بالصلاة فى منتهى الهدوء ، ثم ينسحبون دون أن يلتفتوا إلى ما يحدث حولهم ، ما أعجب هذا البلد !»: بل ما أعجب رؤية الفرنسيين لأهل البلد ، فهم يعتقدون أن المصريين كالهنود الحمر، سينظرون إليهم وكأنهم آلهة هبطت من السماء أو جاءت من وراء البحار الشاسعة كما كان يقال عنهم .

وتبدأ الحياة في الاسكندرية المفتوحة ، ويبدأ استياء الجيش كله من البلد الجديد الغريب. وعلى الرغم من أن «برنوابيه» كان متحمسا جدا لتلك الحملة، إلا أنه يكتب قائلا : «مهما يكن الأمر، فأنا ألعن مائة مرة من كان سببا فى حضورنا إلى هنا ، فى مثل هذا البلد.. كلما فكرت فى حالنا ، وجدتنا تعساء، فإذا ما صادفنا فى الشوارع نساء، أو أطفالا ، نراهم يهربون أمامنا، وكأننا حيوانات كاسرة ، حتى الحيوانات التى تجدها أكثر ألفة من حيوانات أى بلد آخر، مرعوبة منا، خاصة الكلاب ؛

وهى فعلا تتبعنا بعناد شديد لدرجة أننا لا نستطيع التخلص منها إلا بالسلاح». قصة الحملة مع الكلاب طريفة ، وقد أمر بونابرت بإعدامها فى القاهرة لإزعاجها إياه أثناء الليل. ويقول الجبرتى إن الكلاب تتبع وراء الفرنسيين لأن لباسهم كان غاية فى الغرابة !

خرج الجيش من الاسكندرية فى طريقه إلى القاهرة عبر الصحراء. وكانت المأساة – ولا ننسى أن تلك الرحلة تمت فى شهر يوليو : «إننى أرى ولكن بعد فوات الأوان ، أننا ضحية ، وظيفتها تحقيق مشروعات نبتت فى الخيال الهائج المجنون لبعض الرجال، ليحققوا طموحاتهم المفرطة ، غير مبالين بضحاياهم . وأكثر شىء أدهشنى أن الجنرال بونابــرت لم يفكــر فــى توفير مياه الشرب لجيشه»، ومن ثم بدأ التعرف على السراب فى الصحراء ، ونتائج هذا الاكتشاف ، وتأثيره على الجند : «اجتاح اليأس كل النفوس ، وكانت النتيجة أن السير أصبح أكثر بطئ .. وكثيرا ما كنت أصم أذنى وأنا أسمع آهات وصرخات زملائى فى البؤس وهم يتوسلون لنساعدهم فى لحظة الموت، كنت أراهم يسقطون عند قدمى ، دون أن يتحرك لى ساكن ، لأن العذاب الشخصى يغلق القلب دون أى شعور غيره. كان كل منا يتبع طريقه فى صمت كئيب . كنا لا نلقى إلا بالكاد ، نظرة اشفاق على الجثث المشوهة التى نجدها بكثرة فى طريقنا». وأخيرا يصل الجيش إلى مدينة دمنهور : عندما اقتربنا هرب الفلاحون ومعهم حيواناتهم ومؤنهم كلها : لقد خلعوا حتى أبواب منازلهم . ولا بأس فقد تركوا المياه ، وكانت هى كل ما نبتغيه من متعة فى هذه اللحظة » .

ويتكرر وصف «برنوابيه» لهجوم البدو المستمر عليهم، وكيف أنهم كانوا لا يتركون للجيش لحظة أمان واحدة ، إلى أن يصل الجند إلى الرحمانية : «عندما رآنا أهل هذا الكفر من بعيد ، لاذوا بالفرار. وكانت النساء تطلق العويل.. وعلى الرغم من جمال هذا المكان ، إلا أن الحزن خيم عليه، لهروب أهله منه . وعندما شاهد الجيش هذا المنظر ولم يجد أمامه أى مورد ، رأى أن الانتقام هو الأصوب ، فأحرق كل شيء. ياله من منظر بشع، وقد قضى الحريق على نصف البلدة» ، الانتقام بالحريق: ممن ؟ ولماذا ؟ .

يركب الجند بعد ذلك مركبا ، وإذا بفرقة من المماليك تظهر على الشاطىء أمامهم : «نظر إليهم الجنرال «ياوونسكى» باستخفاف ، ولم يشعر بأى خوف ، وكان يعتقد أن المصريين لا يعرفون المدفعية، كان يقول : «أريدهم أن يقتربوا لأرى المفاجأة عندما يسمعون هذا الدوى»، وجاءت المفاجأة بالفعل، ولكن على غير ماكنا نتوقع ! إذ اكتشفنا فجأة ثلاثة مدافع مخبأة على شاطىء النيل. كنا بجانبها ولا يمكن أن نحتمى من طلقاتها»، تدور المعركة وتكاد المراكب الفرنسية تهلك بمن عليها ، لولا ظهور باقى الجيش الفرنسى : «لم يهرب المماليك أمام هذا الجيش المرعب، بل رأيناهم يتراجعون بخيولهم بأقصى سرعة ، والسيوف فى أيديهم .. كانت المعركة غير متكافئة ، فالعدو لم يكن لديه إلا ألف أو ألف ومائتى رجل ليصد هجومنا !». وتنتهى المعركة لصالح الفرنسيين كالعادة للسبب نفسه الذى يعترف به «برنوابيه» وهو كثرة عدد الفرنسيين، وقلة عدد المحاربين المماليك بالنسبة لهم .

ثم يجىء مشهد يدل على أن الجند الفرنسيين كانوا أقرب إلى المرتزقة منهم إلى محاربين من أجل مبدأ فلم نرهم - ولن نراهم - يهتمون بغير الغنائم: «وجدت بعض الجنود على شاطىء النيل يتعاركون من أجل بقايا ملابس أحد فرساننا الموتى ، فاشتريت منهم الحذاء والقبعة والقميص» ..

ويحرق البدو ، فى إحدى القرى، موظفا فرنسيا وخادمه : «عندما رأى بونابرت تلك الوحشية، استولى عليه السخط فأمر بإحراق القرية، وذبح سكانها كلهم ، أو إطلاق النار عليهم. ولم يمنع هذا الدرس القاسى أن نقابل جثثا كثيرة فى طريقنا وقد شوهها هذا الشعب المفترس»: سنقابل بتكرار ملح، هـذا التصعيـد فى العنف ، فكلما حاول الفرنسيون قمع المقاومة ، وكلما كان العقاب قاسيا ، زاد عنف المقاومة ، واتسعت دائرة الثورة، مثلما يحدث فى كل البلاد المفتوحة .

وتستمر المسيرة نحو القاهرة : «فى اليوم التاسع عشر، لم يعد اثنان من الجند يتحملان هذا الطريق الشاق، فأمسكا بأيديهما، وألقيا بنفسيهما فى النيل أمام زملائهما وقد فضل كثيرون إنهاء حياتهم بالرصاص ، ليهربوا من هذا العذاب الأليم ».

أما عن معركة إمبابة فهو يكتب قائلا : « لم تكن معركة .. كانت مذبحة .. حاول بعض المماليك استجداء الفرنسيين قبل سقوطهم فى النهر ، ولكن جندنا لم يستجيبوا ، وأصموا آذانهم لأى شعور بالرأفة : لم يعد يهم إلا المجزرة .. » : أكدت آخر الدراسات تلك الحقيقة، حتى أن أحد المؤرخين المحدثين يقول عنها إنها لم تكن أكثر من «مناوشة لم

تذكر فى التاريخ إلا لأنها فتحت أبواب القاهرة لبونابرت» (٥). وقد أسلفنا كيف حولها الشعراء والمؤرخون إلى معركة اسطورية كجزء من مجد نابليون الاسطورى. وكان معاصرو بونابرت قد هولوا فى عدد المماليك المحاربين، وفى عدد ضحاياهم حتى يتلاءم ذلك مع سمعة الجنرال الذى لا يهزم أبدا .

وعلى الرغم من أن «برنوابيه» لم يكن عسكريا إلا أن شهادته مهمة جدا ، فقد كان كلامه موجها إلى زوجته ولا علاقة له بأى نية دعائية أو حتى تسجيلية . إنه شاهد موضوعى ، ولا ينتمى مثل غيره ، إلى الجوقة التى كانت تنشد المواويل كلما فعل بونابرت شيئا .

ويحاول مراسلنا بعد ذلك، تحليل طباع المصريين كما رآهم فى القاهرة؛ وهو يقول إنهم يخضعون لأية سلطة طاغية تستبعدهم . وكأن المقاومة التى شاهدها فى الدلتا كانت لشعب آخر، فلا مناص من ترديد الافكار المسبقة، فهو يقول مثلا : «لقد سخر المصريون لدرجة أنك تجد الخدم كثيرين وبأسعار رمزية، إنهم يفعلون كل شئ نطلبه. وهم عادة ماهرون جدا فى عملهم، وفى منتهى الأمانة »: من يقرأ هذا الكلام يظن أنه لا يوجد خدم فى فرنسا؛ والقارئ لأية قصة أو مسرحية من الأدب المعاصر لتلك الفترة، يجدها تزخر بهم، وأشهرهم شخصية الخادم «فيجارو» بطل المسرحيات المعروفة فى ذلك العصر.

نجد فى تلك الخطابات بعد ذلك، مثلا لما يمكن أن يسمى بالأسطورة والحقيقة: فـ «برنوابيه» يحلم بالأسطورة، وفى الوقت نفسه، يقص على زوجته الحقيقة التى عاشها هو نفسه : «فى اليوم التاسع من أكتوبر

مثلا . وصلنا فى الصباح الباكر إلى كفر يبدو بائسا: فأغلب المنازل كانت مبنية بالطين، وكان منظر الأطفال العرايا يثير الشفقة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لابد من أخذ مال هؤلاء التعساء، الذين أرعبهم مجرد اقترابنا منهم. وبينما كنا ننصب الخيام، رأينا بعضهم يهرب، وأولادهم على ظهورهم، ويسحبون وراءهم كل ما يملكون كان أول هم لنا استدعاء كبير هذا الكفر، وإبلاغه أننا حضرنا لنأخذ الضرائب. جاء الشيخ وهو يبكى، ليقول إن البدو مروا عليهم منذ أسبوع وأخذوا كل شئ. ولكن المحصل «دوفال» مع أنه رجل طيب القلب، لم يكتف بهذا الشرح – سواء كان الشرح صادقا أم كاذبا – قال إنه لابد أن يحصل المبلغ وإلا نفذ الأوامر، وضربهم بالعصى عند أى رفض. عندئذ، أخبر الشيخ أهل الكفر بالتوجه إلى معسكرنا لدفع المال».

«كانت الساعة الثانية ظهرا، ولم يظهر أحد. فأراد قائد فرقتنا أن يستعمل أعنف الوسائل ليحصل الضرائب، فذهب إلى الكفر ومعه مائة رجل (...) أما المحصل «دوفال» فقد بقى فى المعسكر حتى لايرى هذه المشاهد المزعجة. كنا نقول إنه من القسوة أن ينفذ الجمهوريون مثل هذه الأوامر، لأن مثلهم الأعلى هو أن يجعلوا الشعوب سعيدة، وأن يعاملوها كأخوة . كانوا، بهذه الطريقة، مجبرين على التمثل بأكثر الطغاة قسوة لابتزاز هذا الشعب، والعصى فى ايديهم. ألقينا اللوم على بونابرت الذى كان يستطيع أن يحسن من حال هؤلاء البؤساء ويفرض عليهم قوانين أكثر انسانية. وبهذه الطريقة ، كانوا سينعمون بحكم يدعى أنه كريم وعادل ومستقل. ولكن مع الأسف ، فالحقائق تثبت أنهم مازالوا يقاسون

من استعباد مخجل الى أقصى درجة، وظالم إلى أقصى درجة.. ويشع إلى أقصى درجة».

«كان المماليك يحكمون بسيطرة كاملة على الأقاليم : كانوا يجبون الضرائب ويختلقون أنواع الإهانات ضد الفلاحين .. وما كان يخزينا ، هو أن بونابرت مع الأسف الشديد، كان يستعمل وسائل المماليك نفسها».

«وفي تمام الساعة السادسة مساء، عادت فرقتنا إلى المعسكر ومعها عشرة فلاحين، مقيدين وكأنهم ممن حكم عليهم بالأشغال الشاقة، لأنهم لم يدفعوا الضريبة. وقد أحضرت الفرقة معها أيضا شيخ الكفر. وشرح له «دوفال» أن لابد له أن يجبر هؤلاء الفلاحين على دفع الضريبة فى ظرف ساعة، لأنـــه هـــو وحده المسئول ، علاوة على ما سيصيبه من ضرب بالعصى، إلى أن يدفع المبلغ.. وهكذا انتهى هذا اليوم البغيض المضنى » .

«قد تظنين يا زوجتى الحبيبة ، بعد تلك الصورة التى وصفتها لك، أن مصير هؤلاء المساكين وبؤسهم ، يجب أن يجعلنا تنظر اليهم على أنهم أكثر الناس بؤسا على الأرض !... من المؤكد لو أنه كان شعبا مثقفا ومستنيرا لما تحمل مثل هذا الطغيان، وأنه سيثور ضد مضطهديه، ولا يتحمل بطشهم!.. ولكـــن هـــذا الشعب الجاهل لا يشعر بذلك ويتحمل كل شيء بصبر واستسلام ، دون أن يكون أكثر تعاسة. أنا أوافق «جان – جاك روسو» الذى يثبت بكفاءة أن العلوم والفنون مضرة

لسعادة البشر ، لأنهم لا يعرفون السعادة إلا فى حالهم الطبيعية وهى حال المتوحش» .

لا شك أن هذا اعتراف صريح ببطش الفرنسيين، وإذن واضح بالثورة لو أن الشعب المصرى كان «مثقفا ومستنيرا»، وتثور القاهرة بالفعل بعد هذا الخطاب، والمفروض أن تكون المفاجأة إذ أثبت الشعب المصرى لمراسلنا أنه ليس شعبا جاهلا أو متوحشا .

فما رد فعل «برنوابيه» إزاء هذا الدليل القاطع على أن المصريين ليسوا كما ظن فى أول الأمر، شعب عبيد مستعبدين؟ وبم سيصف الثوار الذين رفضوا البطش الفرنسى ؟

«.. الحشد الهائج المتعصب تعصبا دينيا أعمى ،...، وفى هذا الوقت، وفى المساجد، كان كهنة الدين يخطبون فى الناس ضدنا بمواعظ خبيثة ومتمردة ، حيث كانوا يدخلون سلطة الله ونبيه ليزيدوا من ثورة هذا الحشد من المتطرفين : إنها خير وسيلة يلجأ إليها دائما القساوسة ليؤثروا ويهيجوا المؤمنين كما يريدون» .

نرى المفارقة العجيبة ؛ فتصبح ثورة القاهرة عند من ينشدها تطرفا دينيا وتعصبا أعمى، ولا يحاول «برنوابيه» أن يربط بين الأحداث ، وما سبق أن قاله فى خطابه السابق، عن جهل شعب يقبل البطش الفرنسى دون أن يثور .

وفى خطاباته لابن عمه ، يقول مراسلنا : «يا ابن عمى العزيز، بالنسبة للنساء فإليك قصة طريفة .. عندما حضر جنرالاتنا الى القاهرة، استولوا بالقوة على النساء اللاتى تركهن المماليك فى قصورهم . ظنوا

أنهن غنيمة طيبة، بسبب ثراء ملابسهن وجمال زينتهن. وهجموا عليهن دون تمييز فريسة عن الأخرى . ولكن عندما هدأت رغبتهم بدأوا يتعرفون على فرائس شهوتهم. كانت خيبة الأمل كبيرة ، عندما اكتشفوا أنهم لم يرثوا إلا بقايا مهملة ! ولذا، حاولوا التخلص منهن . ومنذ تلك اللحظة، مرت هؤلاء النسوة على كل الأيادى، حتى أصبحن ملكاً للجنود».. وكان «برنواييه» يحكى لابن عمه عن مغامرات، يخفيها طبعا عن زوجته، نفهم منها ان همه الوحيد فى القاهرة - عندما كان ينتهى من تلبية أوامر بونابرت الخاصة بملابس الجند - هو البحث عن فتيات يشبعن رغبته الجنسية . وقد اشترى - بمعنى الكلمة - فتيات مسلمات ومسيحيات، وصفهن بالتفصيل الفاضح، وما شعر به من لذة معهن. وقد زوج احداهن إلى خادم عنده ثم دخل بها والعريس مسجون فى حجرة أخرى : كانت تلك هى الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذه الفتاة التى رآها فرغب فيها .

والأحلام التنويرية لهذا الثورى المدنى لا تنفصل عن الواقع الغريب الذى يعيشه، فى ازدواجية لم نعد نستغربها من رجال جيل الثورة، فمراسلنا يكتب فى أحد خطاباته ما يلى : «أما نحن - الفرنسيين - فواجبنا يحتم علينا تخفيف معاناة هذا الشعب البائس وآلامه، بأن ندخل عليه تقاليدنا وقيمنا . لقد بدأنا فى كسر سياستهم الطاغية وسلطتهم المطلقة، ولكنى لا أعرف إن كنا نستطيع إلغاء الفقر»..من البديهى، ومن واقع خطابات «برنواييه» نفسه، ان المصريين لم يروا من التقاليد

الفرنسية، إلا حرق القرى، والضرب بالعصى، والبحث عن العذراى الجميلات. ولا يزال مراسلنا لا يفهم ثورة المصريين على الوجود المستعمر : « يريد الإنجليز طردنا من مصر : ومن أجل هذا الهدف، دبروا للمرة الثانية خطة لا مثيل لها فى جبنها . استعملوا السلطان لإثارة سكان الأقاليم علينا . والبلاط العثمانى يعرف جيداً التعصب الدينى الأعمى للمصريين، وهو أعنف تطرف فى الشرق كل . فاستغلوا سذاجة المؤمنين الغبية، لخدمة الهدف الإنجليزى . كل الوسائل كانت متاحة، حتى أكثرها بغضاً» .

«إن البلاط العثمانى لا يخجل من سحق أى إحساس بالعدالة أو الإنسانية، من أجل تحقيق طموحاته الآثمة وجشعه النهم، فألقى بملايين الأفراد فى هــوه من البؤس والعذاب، وخطة هجومه دليل كاف على نفاقه» . من البديهى أن «برنوابيه» قد نسى تماماً ما قاله هو نفسه فى خطاباته الأولى عند وصوله الى مصر، ورأيه فيمن خطط لهذه الحملة...

وتحرك جزء من الجيش تحت قياده بونابرت صوب الشام : «أخذ بونابرت معه عشرة من أغنى وأشهر سكان هذا البلد كرهينة ، حتى يأمن سلامة المدينة الكبيرة أثناء غيابه»، مما يؤكد لنا خشية الفرنسيين الدائمة من ثورة المصريين . وفى الطريق الى عكا «كنا ننوى التوقف فى قرية ... وعندما اقتربنا منها، شاهدنا ناراً عالية . ظننا فى أول الأمر ان السكان قد أوقدوا هذه النار ليعبروا عن فرحتهم بمرور بونابرت عليهم . ولكن عندما اقتربنا فهمنا أن حريقا هائلا قضى على القرية كلها . ولدى وصولنا، انتابنا الفزع امام هذا المنظر البشع الذى يصعب وصفه . فلم

نجد إلا رماداً وجثثاً من كل جنس وسن، كانت ترقد فى كل اتجاه وقد اخترقتها الطعنات . ولابد انهم اصيبوا هكذا وهم يحاولون الفرار من النار . لم يكن يرفرف فوقهم إلا الصمت الرهيب (السبب) كان الجنرال بونابرت مع اثنين من قواده ... وتجمع حولهم بعض الفلاحين، وظن الفرنسيون أنه حب الاستطلاع (ثم اتضح ان معهم عصا انهالوا بها على بونابرت ورفاقه ضرباً) فما كان من الفرسان إلا ان انهالوا عليهم بسيوفهم، ثم حكم على سكان القرية كلهم بالقتل، وأحرقت عن آخرها» :

هذه القصة، على قسوتها، لا تخلو من عنصر فكاهى، فعلى الرغم من المقاومة المستمرة فى مصر كلها، وعلى الرغم من ثورة القاهرة، إلا ان بونابرت مازال يعتقد ان الالتفاف حوله أمر عادى ولايزال «برنوابيه» يظن ان النار تعبر عن فرحة اللقاء بهم !

ماسنقرؤه بعد ذلك يؤكد مدى تهويمات الجيش الغازى، فعندما تقدم بعض الأتراك نحوهم فى غزة «قال لهم بونابرت إنه يجئ اليهم كصديق، وان هدفه الوحيد هو معاقبة الطغاه الذين يعذبون الشعب، ليعطى هذا الشعب الاستقلال المطلق. كانت هذه الكلمات جديرة بكهربة أى شعب غير الشعب السورى، لأن الشعب السورى تعود العبودية منذ قرون طويلة . وكلمات حرية واستقلال غريبة كل الغرابة عليه، ولا معنى لها بالنسبه له»، ولم يشرح لنا «برنوابيه» ما كان يعنيه بونابرت بكلمة «الاستقلال المطلق»، الذى جاء بونابرت خصيصاً ليهديه إلى الشعب السورى، بعد الحروب والمجازر التى شاهدها . خاصة اننا نرى معه بعد هذا التطبيق العملى لهذا «الاستقلال المطلق» : « لو ان خبر انتصاراتنا

فى سوريا وصل إلى فرنسا، فلا شك أنهم سيبتهلون هناك الى الله شاكرين له . ولكن، إذا ما شاهدوا مثلى الآثار الحزينة لمدينة يافا المسكينة، والجرائم البشعة التى راح ضحيتها السكان، فإن الفرنسيين سيتساءلون بسخط عن الآلهه التى تحمى مثل هذه الأفعال . وإن كان قانون الحرب يسمح بذلك، إلا أن ما شاهدته يجعل البدن يقشعر ...».

«وصلنا يوم ٢٢ تحت أسوار يافا. وكانت الفرق التى تدافع عن هذه القلعة مكونة من محاربين من دول مختلفة، الذين سرعان ما تجمعوا . ومع ذلك فإن هذا التجمع من الأجانب كان يدافع بإصرار، عن قلعة لا يحميها إلا سور دون خندق . فقد كان التعصب الدينى الاعمى يقوى من عزيمة هؤلاء الجند الذين لم يخافوا محاربة الفرنسيين وهم وراء تلك الأسوار الضعيفة» . أرسل بونابرت ضابطا يطلب من الحامية أن تستسلم، فما كان من قائد الحامـية إلا ان أمـر بقتلـه، لما اعتبره فى ذلك من وقاحة فادحة، فكان الهجوم : «لم أكن أتخيل مجزرة أبشع مما رأيت : كانت فرقنا تنتقم لوفاة رسولنا! وعلاوه على ذلك، فالإصرار المتعجرف الذى جعل المحاصرين لا يستسلمون، كان يشعل ثورة جندنا (...)، قتل كل شئ وحرق؛ لم تتوقف فرقنا عن القتل إلا عندما أعياها الجهد لكثرة الذبح : لم يمنعهم الجنس أو السن» .

ثم يعد بونابرت ألفا وخمسمائة جندى أن يعيدهم سالمين إلى حدود الشام إذا ما استسلموا وعندما وافقوا، أمر بقتلهم كلهم رمياً بالرصاص : «وبعد ذلك، شاهدنا مناظر مؤسفة تتلاحق أمامنا : رأينا الجند يعودون الواحد تلو الآخر إلى المعسكر، محملين بكل أنواع

البضائع . ولكن حدث ما لم أره من قبل، شاهدت تجارة الفتيات، وهم يبدلونهن بألف شئ» . وقالت فريسة أحد الضباط إنها ابنه الحاكم ولا يحق له أن يأخذها، فذبحها بسيفـه أمام الجميع . وعندما عرف بونابرت بما تسببه تلك البائسات من فوضى فى المعسكر، أمر بإعدامهن كلهن» ..

ثم أرسل بونابرت بياناً الى سكان نابلس، يطلب فيه من السكان تسليمه المماليك، وإلا حاربهم، وكان في الوقت نفسه يؤكد نياته السلمية لمن يثبت انه صديق: «أرسل بونابرت بيانه هذا الى القدس أيضا ...، وإلى بيت عانيا وبيت لحم وأريحا، ليبشر الشعوب بمجيئه وبنيته السلمية» ويبدو ان الشعوب كانت قد فهمت معنى كلمة «النيات السلمية» بالفرنسية، ولذا، كتب «برنوابيه» معلقاً : «ولكن هذا البيان لم يهدئ من روع الشعب الذى عرف ما بدر من بونابرت فى يافا» .

وبعد فشل حصار عكا، عاد بونابرت أدراجه والطاعون والجوع والعطش يحصدون من رجاله المئات . ولكن البطش لم يتوقف : «حتى يعاقب بونابرت سكان هذه المنطقة على الاستقبال السيئ الذى قابلونا به فى طريقنا الى عكا، أرسل بعض الجند : فانتشروا فى كل القرى، وجعلوا كل السكان يهربون، وأخذوا منهم كل حيواناتهم، وأحرقوا كل مساكنهم . وبعد فترة وجيزة، أصبحت هذه المنطقة الجميلة صورة للخراب . استطاع بونابرت، بانتقامه هذا من السكان، أن يحرم عدونا من كل موارده، في حاله ما إذا فكر فى متابعتنا ... وفى يافا، بقى الجيش ثلاثة أيام لينتهى من تدمير المدينة ، وتحطيم كل التحصينات».

قابل بعض زملاء مراسلنا من الضباط ديرا فى طريقهم فتوقفوا وهددوا الكهنة، فأعطاهم هؤلاء المحاصرون الطعام الخاص بهم . ودعا الضباط كبير الكهنة الى الأكل معهم : «وبسرعة أثر نبيذ قبرص الذى كنا نشرب منه الكثير على عقولنا ، وذكرنا بحماسنا الجميل للحرية. ذلك الشعور النبيل بالاستقلال. أخذ كل منا يتخيل الحكومة المثلى لإسعاد الشعوب. ولكن كبير الكهنة أيضا كان قد تأثر بالنبيذ وأراد أن يعبر عن رأيه هو أيضا فأخذ يدافع عن الدين. أثارنا كلامه فاندفعنا نحوه وكأننا الموج الهائج ، ونحن ننعته بأقذر الحماقات»... وهكذا انتهى درس التنوير الوحيد الذى قابلناه ، ولم يكن أكثر من حماقات سكارى .

كان كل من «فيفان دينون» و«فرانسوا برنوابيه» من المقربين جدا إلى بونابرت.. ولذا فقد اصطحباه عندما سافر خلسة من مصر ولكن كان هناك العديد من الضباط الذين بقوا مع الجيش ممن نشروا مذكراتهم ، نقرأ منها ما نشر أخيرا .

***

«مارى - جوزيف مواريى» :
«مذكرات عن الحملة على مصر»

«مارى جوزيف مواريى» نقيب فى الجيش الفرنسى، شارك فى غزو مصر واحتلالها وكتب مذكراته عن تلك الأعوام الثلاثة ، وكانت تلك المذكرات معدة للنشر فور عودته ، ولكن المشروع فشل، إلى أن حصلت إحدى الدور أخيرا على حق نشرها(٦).

و«مواريي» من الجند المحترفين ، ويفهم من كلامه أنه شارك فى عديد من حروب الثورة الفرنسية فى أوربا : إنه ، بالنسبة لنا، نموذج ممتاز لضابط جيش الثورة ، ولم تكن الحملة على مصر، بالنسبة له ، إلا حربا وسط حروبه الأخرى، لا تختلف إلا من حيث تغيير القارة. وقد نجد فى مذكراته ، إذن ، ما لم نجده فى كتاب الرحالة الفنان «فيفان دينون»، الذى لم يحضر إلى مصر إلا لأسباب فنية : إن «مواريي» ابن الثورة الذى يحارب فى جيش ينشر مبادئها ويموت ليدافع عنها . هكذا تقول الأسطورة على الأقل ، ولابد أن يشعر القارىء بنوع من التشويق فى قراءة مذكرات مثل هذا البطل ... ترى ماذا نجده يقول؟



يحكى «مواريي» أولا خيبة أمل أفراد الجيش فى جزيرة مالطة ، لما وجدوه ، أو بالأصح ، لما لم يجدوه هناك ؛ فيقول : «.. فحولنا آمالنا نحو مصر : أخذ خيالنا، الذى تغذيه ذكريات التاريخ ، يرى فى كل مصرية، مفاتن كليوباترا وإغرائها كليهما . ولكن وصولنا إلى مصر، وحياتنا فيها، قد بددا ذلك الوهم الجميل ، فأخذنا نتحسر على شواطىء (أنهار إيطاليا وألمانيا) فى أوربا» . نلاحظ أولا أن الأحلام لم تكن غير أحلام متعة ليس إلا ، وأنها لا تترك شيئا للثورة ومبادئها ، أو للحضارة الغربية وسموها. ونلاحظ ، ثانيا، أن هذا الضابط يتمتع بثقافة تتيح له الحلم بكليوباترا كما يراها التراث الكلاسيكى ، غانية تتلاعب بحواس الرجال ، وليست ملكة كادت تهزم روما . وتتوالى الأحلام : «ياللفرحة! سنرى الأرض العتيقة ، مهد العلوم والفنون ! سنجد تلك الوديان حيث

كان بنو إسـرائيل يذهبون بغنمهم ؛ سنرى تلك المبانى السـرمدية ، رمز قـوة الفـراعنة ، تلك الأهرامات، والمسلات ، وحطام المعابد القـديمة ، تلك المدن والأماكن الشهيرة التى رأت انتصـارات المقـدونيين والرومان ، والمسلمين وأقدس ملوكنا ! (....) ، إننا نتشوق للتفوق (فى مصر) على الأبطال الوثنيين، والانتقام لدم المسـيحيين أجدادنا». نلاحظ، طبعا ، مقدار ثقافة هذا الضابط التاريخية ، وارتباط مصر، فى ذهنه ، بتاريخ العهد القديم أولا ، وبالحروب الصليبية ثانيا : ذكرى هزيمة الملك «القـديس» لويـس التاسع فى المنصـورة . ونلاحظ ، أيضا ،كيف أنه لا يرى فى الحملة إلا فرصة للانتقام من المصريين والمسلمين : ألا يذكرنا ذلك «بشاتوبريان» ؟. كل الأحلام هنا أحلام مجد حربى فقط ، وما يصاحبه من سبايا حسان .

ويسترسل «مواريى» فى آماله : « كان أملنا أن نعيد إليها الحضارة، وحكم العلوم والآداب ، أن نعيد إليها الرخاء والخصوبة والسعادة ... ستعوضنا هذه المستعمرة الجديدة عما فقدناه بسبب الدهاء الإنجليزى، الذى سلبنا ممتلكاتنا فى العالم الجديد (أمريكا). من يستطيع التعبير عن أوهامنا اللطيفة التى كانت تشغل همومنا فى هذه اللحظة ، والتى كنا كثيرا ما نتحدث عنها فى لقاءاتنا؟».

إن الأحلام فى مفارقة غريبة ، بين الحقيقة، وهى استعادة بعض النفوذ الفرنسى على مستعمرات جديدة ، وبين خيالات فلسفة التنوير فى تصدير الحضارة الغربية إلى البلاد التى يرونها متخلفة، لإيجاد

سبب أخلاقي للغزو الاستعماري. ولكن ، أنلاحظ مرة أخرى أن الثورة ومبادئها لم تذكر في تلك المشروعات البناءة بتاتا؟.

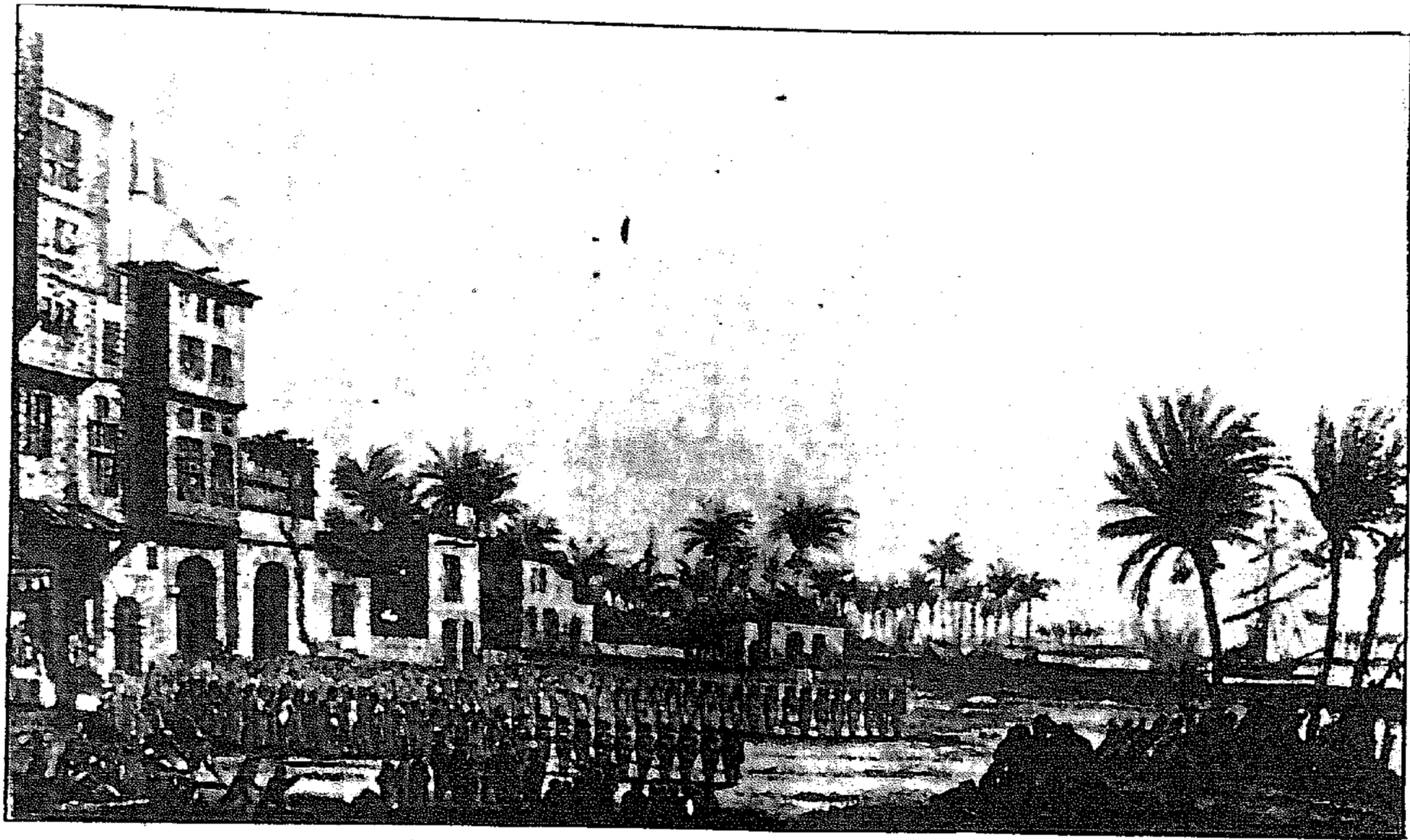
ثم ، كان الهجوم على الإسكندرية: «كان السكندريون الذين قاومونا ينتظرون انتقاما رهيبا ، انتقاما كانوا يستحقونه. لقد كانوا يعتقدون أن مدينتهم التى استولينا عليها ستتحول إلى بركة من الدماء وحريق كبير، كما هى الحال فى قوانين الحرب. فكم دهشوا، بل أعجبوا بنا، عندما رأونا وكلنا مودة، نتمتع بتلك الإنسانية الهادئة التى قالت عنها بعض الدول الأخرى إنها تعوزنا . لقد احترمنا دينهم ، على الرغم مما قيل لهم بأنه لا دين لنا؛ وحمينا الأشخاص والممتلكات؛ كل شىء جعل هذا الشعب المرعوب والمخدوع يطمئن ، خاصة عندما استمع إلى بيان الجنرال بونابرت».. وما العجب فى ذلك ، وما الذى كان ينتظر من شعب هزم بعد أن قاوم بقدر استطاعته كى يبقى حرا؟ إن أوهام الفرنسيين لاحد لها، و«مواريى» يجهل مثلا رد الفعل ، عندما ذبح الجند الفرنسيون كل النساء والشيوخ والأطفال الذين احتموا بالمسجد ، أثناء الدفاع عن المدينة، وقد ذكر الحادثة ضابط آخر قرأ «شاتوبريان» مذكراته كما أسلفنا. وسنقابل أوهاما كثيرة من تلك، عن حب المصريين واحترامهم للفرنسيين إلى أن جاءت مقاومة السيد كريم، وثورتا القاهرة مفاجأة تامة لهم. أما عن تأثير بيان بونابرت ، فما هو ، أيضا، إلا جزء من تهويمات النرجسية الخاصة بالشوفينية الفرنسية آنذاك.

ويصف «مواريى» ما رآه بعد المعركة: «لم تعد مدينة الاسكندرية إلا حطاما لمدينة كانت مشهورة ومزدهرة، ولم نر فيها إلا رذائل شعب أبله

مستعبد، سرعان ما أدركنا استحالة تحضره ، وعودته إلى شهرته السابقة. هذا الفتح الأخير (الغزو الفرنسى) لم يساو فى نظرنا قلائل الرجال الذين كلفنا إياهم». قد نتسائل عن معنى «رذائل شعب أبله ومستعبد»؛ ولكن الجملة بليغة من حيث شرح عقلية الضابط فى ذلك الغزو، وسيطرة الأفكار المسبقة على تفكيرهم. ونلاحظ انتهاء مشروع «تحضير» المصريين بسرعة فائقة ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون أن تعود مصر إلى أمجادها الفرعونية ، تحت إمرتهم، وبصرف النظر عما حدث لها منــذ قرون عديدة . ثم نلاحـظ الضيق الذى لازم مشاعر رجال الجيش، وكان من أهم أسباب فشل الحملة، ما كان يعانى منه الرجال فى بلد غريب عليهم كلية؛ إنهم لا يجدون فيه ما تعودوا أن يجدوه فى البلاد الأوربية التى سبق أن فتحوها - مثل ألمانيا وإيطاليا - من متع.

ثم ذهب «مواريى» مع فرقته إلى رشيد : «مات جند كثيرون من العطش ، ومات آخرون لأنهم شربوا - دون تمهل - المياه المالحة التى قابلناها (ونحن فى الطريق إلى رشيد عبر الصحراء) ،...، مدينة رشيد تبدو فى غاية الجمال وممتعة للغاية لمن عاش بضعة أشهر فى مصر، ولكنها أكدت لنا الشعور السيىء الذى حالفنا منذ وصولنا إلى هذا البلد». نراه يتجه، بعد ذلك ، إلى القاهرة مع فرقته فيقول:

«وفى الرحمانية ، وعدنا القائد العام بعودة سريعة إلى الوطن ،...، وقد جعلنا هذا الوعد ننسى ما قاسيناه فى مصر، وأخذنا نتحمل بصبر



«مشهد رشيد» (نلاحظ عدد الفرنسيين المستعمرين)

مايستجد من إرهاق» . ثم استمرت المسيرة نحو القاهرة عبر الدلتا، والرجال سعداء بالوعد الكاذب الذى وعدهم إياه القائد العام : «حينئذ، رأينا كيف يتعذب الضباط أكثر من الجند ، لأن الجند كانوا يحصلون على الأكل بالنهب والعنف، مما يحرم الضباط من فرصة شراء أى شيء.. فبينما كان الجند يأكلون حماما ودجاجا وأشياء أخرى مسروقة، يكتفى الضباط، مجبرين، بوجبة مقززة وغير كافية من الفول لعدة أيام.. لم يمر علينا من قبل مثل هذا القحط ولا مثل هذا التعب : فالسير الإجبارى على رمال حارقة ، دون نبيذ أو خبز أو أى أكل مغذ ، والسهر ليلا وسط أعداء همهم الوحيد هو مفاجأتنا، كل ذلك دون ساعة واحدة من النوم أو الراحة ... ألم تكن كل تلك المصائب كفيلة بهدم عزيمتنا وصدنا؟ ولذا فقد شاهدنا العديد من العسكريين يسقطون أمواتا من الجوع والإجهاد ، وآخرين كثيرين ينتحرون من شدة اليأس . وقد رأينا أخوين ارتبطا ببعضهما وألقيا بنفسيهما فى النيل».

ثم يحكى «مواريى» حياته فى القاهرة : «كان ركوب الحمير هو الشئ الوحيد الذى يعطينا بعضا من الترفيه، وكنا نستعملها للجرى فى شوارع المدينة أو لزيارة الضواحى. تستطيع تأجير الحمير من أى مكان وبسعر ضئيل جدا، إنهم يخبون فى منتهى السرعة، وكذلك سائقوهم...».

«أما بالنسبة للنساء ، فلم نجد فى القاهرة الموارد التى قدمتها لنا مدن (إيطاليا والنمسا). ليس من الممكن ، ولا حتى من الحكمة، أن ترى

نساء الأثرياء، لأنهن دائما سجينات وتحت السيطرة الرهيبة لطغاة غيورين . هناك بعض بيوت الدعارة؛ ولكن القبح والقذارة واللغة غير المفهومة للعاهرات ، كانت تثير فينا الغثيان وتجعل أكثر الرجال فجرا يهربون مذعورين»: هكذا كان الضباط المثقفون يقضون أوقاتهم إذن، بين جرى الحمير، والبحث عن النساء.. بلا مخالطة تذكر مع أهل البلد، مما كان يمكن أن يتيح فرصة حوار يتعلم منه الشعب المصرى مبادىء الثورة الشهيرة ؛ هذا - بالطبع - إن كان فى نية الضباط تعليم أى شخص أى شىء . ولكننا سنرى ضابطنا هذا يتعرف فيما بعد على جارية شركسية ، ويحاول تهريبها معه إلى فرنسا عند رحيله.

لكن الضيق كان يطحن نفسية الجميع؛ ويقول «مواريى» : « لم نكن نخشى التعبير عن ضيقنا، وكنت تسمعنا نقول إن الجنون هو الذى خطط لمشروع هذه الحملة ، والتهور هو الذى أخذ على عاتقه تنفيذها . وكان البعض الآخر يقول ، بل إن طموح القائد هو الذى أحضرنا إلى هنا ، لقد جاء ليبنى لنفسه عرشا من عرقنا ودمائنا». أما بالنسبة للبدو، فقد كان تعليق «مواريى» طريفا : «لم يكونوا يهاجموننا كالشجعان، ولكن كانوا يفاجئوننا كالخونة ، ويذبحون الفرق التى نشرناها فى القرى، وحتى على النيل ، وتحولوا إلى قراصنة ليحاربونا . وقد كانت تلك الحرب المتقطعة أكثر ضررا علينا من حرب جسورة ونظامية ، فقد كلفتنا الكثير من الجند الشجعان؛ وإذا بخبر موت خمسة عشر من رجالنا فى إحدى القرى، يصل إلينا فى السادس والعشرين من

أغسطس. فصدر الأمر بحرق تلك القرية وبالانتقام الشرس منها. ولكننا وجدنا القرية خاوية: فسكانها كلهم كانوا يعلمون بقدومنا، فهربوا؛ فاضطررنا إلى الاكتفاء بتخريبها بالنار. ولكن ثورة الجند وجدت منفذا لها مع عجوز وزوجته الكهل، وجدت ملابس فرنسية ملطخة بالدماء عندهما . كذلك وجد الجند حماماً ، ومنه الكثير فى مصر، وكانت هذه هى الغنيمة الوحيدة التى حصلنا عليها من تلك القرية البائسة». الجيش يتحرك إذن ، من أجل الانتقام أولا، ومن أجل الغنيمة ثانيا . ولو أننا تذكرنا ما قاله «مواريى» نفسه عن الانتقام لأجداده الصليبيين لفهمنا روح هذا الجيش الذى لا يبغى إلا عنفا. ثم نتذكر أيضا ما قاله عن إعجاب السكندريين بسماحة الفرنسيين، التى لا نرى لها أى أثر هنا، وهم يهاجمون قوما وينتقمون منهم لدفاعهم عن حريتهم، بعد أن استعمرهم جيش مغتصب؛ ثم سلوك هذا الجيش الذى لا يعرف إلا الحرب النظامية، حيث تتحرك الفرق حسب قواعد صارمة، وكأنها تلعب الشطرنج ، بينما الحرب الشعبية للتحرير تختلف فى قوانينها وفنونها عن حرب بين حكومتين . وسيقابل الإمبراطور نابليون فيما بعد هذا النوع من الحروب عندما ستثور عليه شعوب البلاد المستعمرة فى أوربا، وأشهرها حروب أسبانيا وروسيا، وكانت الثورات الشعبية مندلعة أيضا فى النمسا وألمانيا. وسيقابلها نابليون، العبقرية العسكرية الفذة بالاندهاش نفسه ، للجوئها إلى حرب العصابات الفتاكة ، مثل ما فعله البدو فى مصر . ويفهم مراد بك هذا القانون ؛ ولذا كانت له النصرة فى

صعيد مصر ، حيث لم يستطع الجنرال «ديسى» هزيمته لأنه لم يفلح يوما فى مواجهته فى معركة نظامية تكون الغلبة فيها له ولمدافعه.

ويستمر «مواريى» فى حديثه : «كانت الشكوك دائمة، لسبب واحد، وهو إيمانا بأن شقاءنا وتضحياتنا لا عائد من ورائها ، ولا فائدة لها لمجد وطننا الحبيب وسعادته». كانت لتلك الروح الانهزامية أسباب كثيرة، أهمها المقاومة المستمرة فى الأقاليم ، وقد وصلت أنباؤها إلى «مواريى» وفرقته «هذه الأنباء جعلتنا نتوقف للتفكير بجدية، فقد ظن كثير منا أن مصر كلها ستقوم ضدنا ، وتهجم علينا فى سبيل سحقنا تحت وطأة حجمها الهائل . كانت تلك الفكـرة جديرة بإرعاب أى جيش غير جيشنا ،....، فالحقيقة أن حياتنا البائسة التى عشناها فى هذه الأجواء، جعلتنا لا نبالى بالحياة أو الموت » ... «كان البدو فى منطقة دمياط يجعلوننا ، دائما، نعيش وكأننا على شوك ،....، وكان القديس لويس قد نزل فيها فى الرابع من يونيو سنــة ١٢٤٩ ، عندما قام بأول حملة على الأرض المقدسة . ووقع أسيرا فى المنصورة فى العام التالى»: ذكرى لا تفارق الضابط «مواريى» ، وكأنها تذكرة دائما بضرورة الانتقام لتلك الهزيمة القديمة قدم القرون السالفة كم من الضابط لم يحلم إلا بهذا الانتقام فى جيش الثورة الإنسانية الأخوية؟. وتصلهم أخبار ثورة القاهرة الأولى وهم فى دمياط، فيصفها «مواريى» بالوحشية وتعليقه وحده يثبت إلى أى مدى كان الفرنسيون غافلين عن حقيقة مشاعر المصريين : «كنا نتخيل أن الرعب من أسلحتنا ، والقوة التى أخمدنا بها مثيرى الشغب ، سيفرضانا نهائيا على المهزومين . ولكن حكمنا كان

خاطئا، لأننا سمعنا مباشرة بثورة القاهرة ،...، ولم تنته تلك الزوبعة، إلا وقامت زوبعة أخرى فى مصر السفلى . فقد قام (الإنجليز والأتراك) بنشر الكثير من فرمانات الباب العالى المزيفة ، كان يقال فيها إننا حضرنا إلى مصر على غير إرادة السلطان» . وهنا، علينا أن نشرح ما قد يبدو سذاجة من قبل «مواريى»؛ فالحقيقة أن الجيش الفرنسى كان يجهل أن السلطان لم يوافق يوما على قيام الحملة ضد مماليك مصر ، كما كان يزعم بونابرت . ومن عجائب سياسة بونابرت أنه كان يكرر تلك الأكذوبة ، إلى أن أرسل السلطان جيشا ليحاربه، فانفضح الأمر.

ولن نعود إلى مشاكل «مواريى» التى لا حصر لها ؛ فقد ظهر الطاعون بعد أن أصيب الجيش بالدوسنتاريا ، والتراكوما التى تسببت فى كف بصر كثير من الجند . يقول ضابطنا : «... فبدأنا نفهم مدى المخاطر التى تحاصرنا ، واستحالة العودة إلى الوطن، أو الاستمرار فى امتلاك هذه الأرض ، إلا إذا أرسلت لنا فرنسا مزيدا من المؤن» . ولكن كيف والإنجليز يحاصرون مصر بعد أن دمروا الأسطول الفرنسى فى «أبو قير».

ويسجل «مواريى» بفخر شديد أقوال بونابرت للمصريين بعد ثورة القاهرة – وقد قال القائد العام للمشايخ مايلى : «... بلغوا الشعب وعرفوه أنه منذ بدء الخليقة ، كان مكتوبا ، أن بعد تحطيمى لأعداء الاسلام، وبعد تكسيرى للصلبان سأحضر من أقاصى الغرب لأتمم المهمة التى وكلت إلىّ . أرشدوا الشعب إلى أكثر من عشرين فقرة فى كتاب القرآن المقدس ، تقول إن ما حدث كان مكتوبا؛ وكذلك أن ما

سيحدث كان مشروحا . فليعرف إذن من يلعننا ولا يخشى أسلحتنا، أن عليه تغيير مشاعره، لأنه إذا رفع إلى السماء دعوات ضدنا فهو يتمنى هلاكه . فليبارك المؤمنون الحقيقيون انتصار أسلحتنا».

«وأستطيع أنا أن أحاسب كل واحد منكم على مشاعره الدفينة فى قلبه ، لأننى عليم بكل شىء ، حتى مالم تبوحوا به لأحد. ولكن سيجىء اليوم الذى يرى فيه العالم أن كل المجهودات البشرية لاتستطيع شيئاً ضدى».

كانت تلك هى دروس الديمقراطية وتعليم مبادىء الثورة التى كان يلقنها بونابرت لمصر . وهى طبعا تتلخص فى كلمتين .. تأليهه، والرعب منه . ويعلق «مواريى» على هذا الكلام قائلا : «أما منجمو مصر، فكانوا إما ضحية هذا الاسلوب العجيب، أو أنهم أخذوا، سرا، بعض الرشاوى فهدأوا من ثورة الشعب (...) وتنبأوا بطريقة غامضة، أن السلطان الفرنسى سيتحول إلى الدين الإسلامى ، وسيلبس العمامة، ويجعل الجيش كله يتبع قانون محمد» . إن رجال الدين فى عرف أتباع فلسفة التنوير، خاصة إذا ما كان أتباع هذا الدين من الهنود الحمر أو المصريين ، يلقبون «بالمنجمين» أى الدجالين . ولا يفطن «موارييى» إلى أن الثورة، بعد دحرها ، لم تكن تحتاج إلى من يهدىء من عنفها ، بعد القمع الرهيب الذى ذهب ضحيته آلاف الثائرين لحريتهم ، كما أن بونابرت قد أمر المشايخ ، بعد تهديدهم ، بكبح جماح الثورة ، وما فخر «موارييى» بلباقة

القائد العـــام ، إلا مثل يعرفنا بما كان يراه أو يظنه الضباط المثقفون لجيش الحملة .

وتوجه «مواريي» مع حملة بونابرت على ما كان يسمى آنذاك بسوريا؛ وكان على الجيش أن يسير مرة أخرى فى الصحراء . فيقول كاتبنا : «ولكن المجاعة ازدادت شيئا فشيئا واضطررنا إلى أكل الجمال، والخيل وكل ماكنا نجده ، بينما كان المماليك تحت أعيننا ينعمون بموكب رائع من المؤن». ثم يصف «مواريي» ماحدث لهم بسبب الطاعون الذى أهلك ثلثى الفرقة التى كان ينتمى إليها .

وينقل إلينا «مواريي» التقارير الكاذبة التى سيرسلها بونابرت إلى حكومة «الإدارة» عن انتصاراته، وهو شاهد عيان على الهزيمة ، مما يثير غضبه واستياءه. يقول بونابرت مثلا : «بعد أن نقلنا الحرب إلى قلب سوريا ومعنا حفنة من الجند ، أخذنا أربعين من مدفعية الميدان، وخمسين من العلماء، وأسرنا ستة آلاف أسير، ومحونا تحصينات غزة ويافا وحيفا وعكا، ونحن نعود الآن إلى مصر ..» . يرسل بونابرت هذا الكلام إلى الحكومة فى فرنسا، و«مواريي»، والجيش كله، يعرف أن الحملة على الشام قد فشلت بفشل حصار عكا . وبدأت مرة أخرى العودة إلى مصر عبر الصحراء : «لم يكن بإمكاننا الشك أكثر من ذلك ، فعلينا الآن أن نعود أدراجنا فى هذه الصحراء البشعة ، حيث كان عذابنا كبيرا ،...، لم يعد مرضى الطاعون، والجرحى ، وكثير من الجند يتحملون عذاب العطش ، فكانت نهاية حياتهم فى هذه الصحراء

الفظيعة» كانت عودة قاسية ، حتى شبه اثنان من «المؤرخين الجدد» تلك العودة فى حر الصحراء ، بما لقيه الجيش الفرنسى من عذاب فى ثلوج روسيا سنة ١٨١٢ ، بعد هزيمته فى موسكو وعلى الرغم من عذاب الجيش الفرنسى إلا أن تخريبه لم يتوقف . فيقول «مواريى» : «قام الجيش بنسف كل التحصينات ، وبحرق القرى وكل حقول الغلة التى وجدها فى طريقه ، حتى يؤخر مسيرة أعدائه الذين يطاردونه؛ ولم يكن ذلك إلا النتيجة المؤسفة للحرب». غريب أن يقول جندى مخضرم مثل «مواريى» هذا التعليق : أتراه لم يقابل مثل تلك القسوة من قبل؟ . ويأمر بونابرت مدينة القاهرة بالاحتفال بعودته من الشام. وعلى الرغم من كل ما قاله «مواريى» من قبل، نراه يؤكد: «كان دخول القائد العام عند عودته إلى القاهرة سبب فرحة كبيرة للشعب (...). ولكن علينا أن نعترف أننا لم ندع الشعب المصرى يعرف إلا الأخبار التى كانت فى صالحنا، ومنها مثلا أننا قضينا كلية على عكا، وخربنا كل ضواحيها، وقتلنا كل الجند الذين كانوا يدافعون عنها، وأننا لم نترك سوريا إلا لأن الأقدار تنادينا إلى مصر ، إلى آخره . ولابد لك أن تعاشر هذا الشعب، لتتخيل مقدار جهله وسذاجته . وكانت النتيجة أن الدواوين والمشايخ وجهوا نداء إلى الرعية يطلبون منهم أن يساعدوا مشروعات هذا الرجل العظيم الذى كان، على حد قولهم، يقرأ القرآن كل يوم، لأنه سيتحول إلى الدين الإسلامى».

مرة أخرى، لا يرى «مواريى» – مثله فى ذلك مثل باقى الفرنسيين – الشعب المصرى إلا كما يريد أن يراه هو. وهو يظن أن أوامر بونابرت

التى نفذها المشايخ المهزومون وهى ردود فعل تلقائية لشعب جاهل وساذج. والساذج هنا ، بلاشك، ليس الشعب الذى يصدق إسلام بونابرت، وإنما «مواريى» الذى ظن أن الشعب من السذاجة بحيث يصدق تلك الخدعة. وسنرى فيما بعد إلى أى مدى كانت رؤيته مجرد تهويمات صلف المنتصر وغروره الأعمى.

لا يكف «مواريى» وزملاؤه عن الحلم بترك مصر. ويعترف ضابطنا بحقائق مؤلمة قائلا: « قامت فتنة فى الاسكندرية هدفها تسليم المكان إلى الإنجليز، فكانت، علاوة على شكنا فى الانتصار، وازدرائنا وتعبنا، وأشياء أخرى كثيرة تجعلنا ، نحن الجيش، نريد ترك مصر» ... أليست تلك الشكوى مكررة وسبق أن قالها منذ وصوله إلى مصر؟

وينقل إلينا «مواريى» حديثا دار، على حد قوله ، بين الشيوخ وبونابرت، بعد عودته من معركة «أبو قير» الثانية ، التى انتصر فيها على الأتراك . ولنذكر أن «مواريى» – مثله فى ذلك مثل أفراد الجيش كلهم – لم يكن يتحدث العربية، وإليكم هذا الحوار:

«– سيدى الجنرال، لقد وعدت أن تصبح مسلما .

– أنا لم أعد بشىء . وعليكم أن تعرفوا أننى مسلم وقد أكون أكثر إسلاما منكم؛ وانكم إن لم تتصرفوا بطريقة صحيحة ، وأحسن مما تصرفتم حتى الآن، فسأعود إلى المسيحية، لأعاقبكم» : لم يكن «مواريى» من كبار الضباط حتى يحضر هذا الحديث المزعوم؛ ومع ذلك فهو يؤكد أن المشايخ اقتنعوا بكلام القائد العام.

وسافر بونابرت ؛ وإليكم تعليق «مواريي» على ذلك الحدث المفجع: «يختلف طبع كليبر المعروف، بعض الشيء عن طبع بونابرت، وجعلنا ذلك نأمل في أنه سيفاوض أعداءنا ، ويعيدنا إلى وطننا . بونابرت كان لا يعمل إلا لحسابه الخاص، ولم يكن يهتم إلا بتقدمه على طريق النجاح؛ ولكن «كليبر» لم يكن يفكر في نفسه ، ولا يهتم إلا براحة جنده وسعادتهم .. لو أن بونابرت استطاع الحصول على الحكم المطلق في وطنه الجديد، لمكث في مصر، ونحن ندفع له الثمن من دمائنا . إنه مثل قيصر، يفضل أن يكون الأول في القاهرة على أن يكون الثاني في باريس ، ... ، أما «كليبر» فلم تكن له أية مصلحة خاصة لإبقائنا في بلد ، عرف بفراسته أننا لن نستطيع أبداً البقاء فيه ..».

لن نعجب بعد قراءة هذا الكلام لحالة التذمر التي اجتاحت الجيش الفرنسي آنذاك ؛ تذمر وصل إلى حد جعل «كليبر» يحل فرقة كاملة ، على الرغم من قسوة القرار.فعل ذلك عندما تمرد المدافعون عن حصن العريش، حتى أنهم سلموا الحصن للأتراك.

ومرة أخرى، نعرف رأي «مواريي» في الشعب المصري ، وهو يقول دون أية موارية : «لم يكن من الممكن إخفاء أنباء مفاوضاتنا مع الوزير العثماني عن الشعب المصري . وحتى نمنع أي رد فعل متطرف ، لأن هذا الشعب مثله مثل شعب إيطاليا ، يتوجه دوما نحو المنتصر...»؛ ويفوت «مواريي» أن هذا شأن أي شعب في بلد هزم جيشه ، سواء كان ذلك في إيطاليا، أو مصر، أو حتى فرنسا . إذا هزم بلد وأصبح فريسة

مستعمر لا يستطيع محاربته بأسلحة متكافئة، فهو عادة ما «يتوجه» فعلا ، ولكن لأنه مجبر على الطاعة، والفارق كبير . أيا كان ، فهذا الكلام يدلنا على حقيقة مشاعر الشعب الإيطالى ..

إن كل صفحات هذه المذكرات تحكى على الدوام ، كل ما كان يقوم به الجيش من نهب وسلب، كما سبق أن قرأنا فى كتاب «فيفان دينون»؛ ومع ذلك «فمواريى» يقص علينا كيف وجه «كليبر» خطابا إلى المصريين، بعد أن قرر الرحيل عن مصر ، بعد مفاوضات العريش؛ يقول فيه : «إننا لا نترك أى ذكريات عنف ضدكم..»، وهذا الكلام يثبت لنا إلى أى مدى يمكن للمغالطة أن تصل . وهل نعجب بعد أن عرفنا أن «السلطان الكبير» تحول فى إدراك الفرنسيين إلى «أبى النار» (*) .

من الطريف أن «مواريى» يحكى ظروف العودة المنتصرة للجيش الفرنسى بعد معركة هليوبوليس (أى عين شمس) وكيف استقبلتهم مدينة القاهرة بالمدافع ، بينما كان الفرنسيون ينتظرون مواكب الفرح! يصف «مواريى» ما حدث بعد ذلك باقتضاب شديد : «كنا أحيانا نضرب المدينة بالمدافع أو نستولى على بعض المنازل فنحرقها فى الحال» .

«واقتحمنا حى بولاق الوقح البائس . وقد دافع عن نفسه بإصرار، وبعد ساعات من القتال ، كسرنا الأبواب ودخلنا بالقوة. كم دفع هذا الحى المسكين ثمنا لفتنته الطائشة! رأيت السكان وقد ذبحوا عن

---

* ارجع إلى الجزء الأول من هذه الدراسة.

آخرهم، بينما المنازل تحرق بعد أن نهبت على أيدينا ولم يعد ممكنا لمن رأى بولاق من قبل أن يتعرف عليها بعد تلك الأفعال المحزنة القاسية، وما ذلك إلا نتائج حق الحرب البشع. كأن جهنم قد انتقلت إلى المدينة».

نذكر القارئ أن صاحب هذه الكلمات جندى محترف، حارب كثيرا من قبل ومن البديهى أن ما رآه هنا يفوق ، بكثير ما تعود عليه فى الماضى. ولكن كلمة «بولاق الوقح البائس» تلفت نظرنا ، فالازدراء موجود ، حتى وإن امتزج بالشفقة.

ثم ننتقل إلى الصفحات التى يحكى فيها «مواريى» كيف بدأ «كليبر» يستعد لزيارة الدلتا : «بدأت الشائعات، وقيل إن كليبر سيفعل مثل بونابرت، وأنه سيهرب إلى فرنسا، ويأخذ معه غنائم عديدة ماهى إلا نتاج أعمالنا وتعبنا» .. ولكن «كليبر» يُقتل: «كان بيننا عقول مضللة ، أو سيئة النية ، قالت إن كل تلك الاحتفالات بدفن «كليبر» ماهى إلا أكذوبة، لأن الجنرال قد رحل إلى فرنسا ... وأن نعشه خال ، ولكنه دفن فى حفل مهيب لإلغاء خبر سفره» . إنها دلالة على الحالة النفسية لجيش فقد كل مقومات الثقة فى قواده ، ثم نقرأ بيان الجنرال «عبد الله مينو» إلى جنده:

«وصلتنى شكاوى بالغة الخطورة ،....، أيها الجند ، كونوا كرماء مع المصريين، ولكن ماذا أقول . إن المصريين اليوم هم الفرنسيون؛ إنهم إخوانكم . فاعرفوا كيف تحترمون الشيخوخة ؛ كيف تحترمون النساء؛ كونوا عادلين ..» . كلمات مقتضبة، لها دلالتها . وتعرفنا كيف يعامل

الجند الشعب نساءً وشيوخا، وتشرح لنا كيف ستكون الحال لو أن الجيش استمر هكذا في تلقين مبادى الثورة الانسانية للمصريين.

وكلمات «مينو» غاية في البلاغة: إنه مقتنع تماماً أن مصر أصبحت فرنسية، وأن المشروع الاستيطانى فى طريقه إلى التنفيذ، بعد أن سافر بونابرت بسبب فشل المشروع، وتأكد «كليبر» من استحالة تنفيذه، ففاوض الباب العالى على هذا الأساس. وها هو رأى «مواريى» نفسه في الموضوع: «لو أن القدر أراد لنا مستوطنة دائمة فى مصر، لما كان لأحد أن يجعلها تزدهر أكثر منا ولا أن يقويها أكثر منا؛ ولكن يبدو أن هذه المنطقة التعسة، التى كانت غاية فى الثراء والتنوير ، محكوم عليها بالبربرية لأجل طويل ، محكوم عليها بالبؤس والخرافات المؤسفـــة». ونرد على «مواريى» بقول المفكر الفرنسى الكبير «ألكســى دى توكفــيل» فى تقريرة عن استعمار الجزائر ، فى عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا ... لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤساء وأكثر فوضى، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٧). ولكن ألا نفهم من كلام «مواريى» خيبة الأمل أمام فشل المشروع وازدرائه الكاذب لما لا يستطيع أن يصل إليه؟.

يؤكد هذا الشرح ما سينقله ضابطنا عن «مينو» بعد ذلك، بما فيه من تناقض وأسف : «تذكــروا أننــى دائــما مسئــول عــن الحفاظ على مصالح الجمهورية (الفرنسية) ، ومصالح الجيش ومصالح شعب مصر الذى أتولى حكومته . تذكروا أنه يجب علىّ من أجل الوصول إلى

هذا الهدف، أن أنتزع من مصر كل مواردها المادية التى تستطيع أن تزودنا بها، وأن أعمل ، فى الوقت نفسه، على إسعاد الشعب الذى يسكنها » . ونعجب للاعتراف بما كانوا يسمونه «سياسة الليمونة المعصورة» ، مع ضرورة إسعاد شعب «تنتزع» موارده كلها من أجل جيش بلد آخر، وكان من حق الرجل أن يشكو ، فالمعادلة حقا مستحيلة .

ثم تتوالى الأحداث ، ويحاصر ما تبقى من الجيش الفرنسى فى الاسكندرية ، حيث نجد فى خطاب التاسع من يوليو سنة ١٨٠١ ، وصفا لحالة البؤس ، والمجاعة والأمراض التي يعانى منها الجميع ، ثم يتم أخيرا ترحيل الجيش ، فيقول «مواريى» : «تركنا ونحن فى أعظم فرحة ، هذه المنطقة ، المضرة للفرنسيين القدامى والفرنسيين المعاصرين، هذه المنطقة الموبوءة بكل آفات البشرية ، من الطاعون إلى العمى...» (٨).

ونلاحظ مرة أخرى أن صورة «الفرنسيين القدامى»، أى الصليبيين لا تفارق، حتى آخر لحظة ، مخيلة «مواريى» ، أحد ضباط الحملة المخضرمين .

★★★

وتنتهى مذكرات «مواريى» مع رحيله إلى فرنسا؛ وتثبت لنا هذه المذكرات ، أن ضابطا ممن كانوا يتمتعون بثقافة تاريخية وأدبية لا بأس بها فى ذلك العصر، لم يفكر لحظة واحدة فى مخالطة المصريين و«تنويرهم»، على حد قول المستعمرين، ولا يكن لهم إلا الاحتقار

والازدراء، كأى غاز متعجرف ، فى ذلك العصر وفي كل العصور. ولن نراه يتبادل الحديث إلا مع جارية شركسية، اتصلت به وحاولت الفرار معه، فالنقيب «مواريى» جندى محترف لا يفكر إلا فى الانتصارات الحربية ، والانتقام للهزيمة التى لحقت بأجداده . وكانت غالبية الجيش ، إن لم يكن كله ، على شاكلته : كانوا كلهم جندا محترفين مثله ، لم يجدوا فى مصر المتعة التى كانوا ينتظرونها فى بلد ثم فتحه ، لأن واجب البلد المهزوم ترفيه الجيش المحتل، وإشباعه قبل كل شىء ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أن المشروع الحضارى لم يجد فرصة واحدة للتنفيذ .. هذا إن كانت هناك ، أساسا، نية جادة لتنفيذه.

★★★

كليبر فى مصر

قرأنا ما كتبه أربعة من معاصرى الحملة وعرفنا أن ثلاثة منهم قد عاشوا – بالفعل – أحداثها ، ورأينا أن ذكرى هزيمة الملك لويس التاسع فى القرن الثالث عشر ، والرغبة المحمومة فى محو تلك الذكرى الأليمة بانتصار جديد ينتقم للماضى السحيق ، هى التى جمعت ما بين النبيل الصليبى ، والفنان المفتون ببونابرت ومشروعه الاستعمارى ، والضابط المحترف المثقف ؛ وهى أيضا التى رسمت لهم توجهاتهم وسيطرت على كتاباتهم. ولأسباب لا علاقة لها بحقيقة الأحداث ، لم يجد القارىء فى كتبهم إلا إشارة عابرة لذلك المشروع الذى اتصفت به الحملة فيما بعد ، ولم تؤكد تلك الأسباب إلا بعد ذلك بعدة عقود .

شاهدنا أيضا معهم تلك الأحداث فى عنفها الدموى ، ولم نر ، خلاف ذلك ، إلا «حديقة صغيرة» فتنت «شاتوبريان» الذى نرجع إعجابه بها إلى أنه ربما لم ير – سنة ١٨٠٥ – أثرا ملموسا للفرنسيين يفخر به ، غيرها (*).

قد يقال إن تلك الكتابات سطحية ، ترى التفاصيل دون أن تفصح عن حقيقة المشروع من ورائها ، كما خطط له كبار القادة ، وقد يقال إن تلك الكتب الأربعة ليست بأكثر من انطباعات شخصية .

---

* كما قرأنا فى الجزء الأول: عصر الأساطير .

ولكن ما القول عندما تعرض علينا أوامر قائد نستشف من خلالها واقع الأمر بموضوعية ؟ ولذا ، فإننا فرحنا لنشر مكاتبات كليبر وهو من أكبر كبار القادة الفرنسيين ، حتى أن بونابرت ترك له القيادة العامة عند رحيله المفاجىء ، وإن كان ضابطا صغيرا مثل «مواريى» لا يهتم إلا بحياته اليومية ، ولم نسمع منه أنه تلقى يوما أمرا غير عسكرى ، إلا أن نيات القواد قد تكذب ذلك الجهل بالنيات الحسنة للحملة ، فمن البديهى أن مكاتبات كليبر لابد أن تزيح الستار عما أراده مخططو الحملة ، فى جانبيها العسكرى والفنى . وقد ظهر فى أربعة أجزاء كتاب «كليبر فى مصر ، ١٧٩٨ - ١٨٠٠» (٩) ، يعرض فيه «هنرى لورانس» ما وجده من أوراق كليبر قبل وبعد توليه قيادة الحملة .

وكما سبق أن قرأنا الكتب الأخرى ، فإننا لن نهتم إلا بما يساعدنا على معرفة حقيقة تلك الحملة ، التى حملت رسالة حضارية ، بل وإنسانية ، لم نقابل حتى الآن ما يمكن أن يعضد وجودها قد تكون مكاتبات كليبر - نظرا لأهمية دور الرجل فى استعمار مصر - هى الفيصل فى تقييم حقيقة تلك الحملة ، التى نراها حربا استعمارية مثلها مثل حروب الثورة الأخرى فى أوربا نفسها ، وإن اختلفت معاملة الجيش لشعب يختلف عنه جنسا ودينا ولغة ، وحسب منهجنا ، ونظرا لتكرار الأوامر نفسها بعد الأحداث نفسها ، لأن السياسة فى معالجة الأمور واحدة ، فإننا لن نعرض إلا ما يبدو لنا مثاليا فى تصوير تلك السياسة ، وما كانت تقابله من صعوبات ، وما كانت تلجأ إليه من حلول لمشاكلها .

أما باقى تلك المكاتبات فمراسلات إدارية ، وأوامر تنظيمية وتحركات الضباط وتنقلات الفيالق ، ولا تعنى شيئا بالنسبة لقضيتنا .

★★★

نقابل كليبر ، أول ما نقابله ، حاكما على الإسكندرية فقد جرح فى رأسه ، إثر الهجوم على المدينة ، واستلزم علاجه بقاءه هناك ، فعينه بونابرت حاكما عليها ، كما عين «مينو» حاكما على رشيد . وكتب كليبر، بصفته حاكما ، عدة خطابات إلى بونابرت ، وإلى الجنرالات الآخرين ، كما كتب العديد من البيانات لجنده وسيساعدنا ذلك الكم الضخم من المكاتبات على تقييم حقيقة الوجود الفرنسى فى مصر ، من حيث الموقع المتميز لكاتب تلك الخطابات والبيانات .

ويكون أول بيان يلفت نظرنا ، تصويرا فجاً لحقيقة الأمور :

«العاشر من يوليو ١٧٩٨ : لقد بلغ الجنرال أن كثيرا من الفرنسيين يتبولون ويتبرزون بجوار المساجد والمقابر : ونظرا لأن هذا الأمر يجرح الاحترام الذى وعدنا به الدين الاسلامى بصفة خاصة ، فعلى القواد (أن يمنعوا حدوث مثل هذا التصرف فيما بعد)». فالأوامر شىء - وهى تصدر عادة عن فكرة سياسية بعينها ، وهى كسب ود المصريين خاصة المسلمين منهم - والحقيقة التى تنفذ شىء أخر : لا علاقة طبعا بين عقلية الجند والهدف السياسى وهو احترام دين الغالبية من سكان البلد المستعمر؛ فالجند أناس بدائيون ، لا يعرفون معنى الحضارة حتى ينشروا تعاليمها، وتلك الحادثة ، فى ذاتها ، دليل واضح على أنهم بعيدون كل البعد عن أية فكرة للتعاطف مع الشعب ، الذى قيل إنهم

حضروا ليجلبوا له الحرية والتنوير ، إن كانت تلك الفكرة قد وصلت إلى أنفار الجيش البسطاء .

فأفكار المثقفين الذين يزينون الحملة بالنيات الحسنة ، غريبة تماما على جمهور هؤلاء الجنود الجهلة ، كما سبق أن تعرفنا على أحدهم فى قصة «بلزاك» الشهيرة «طبيب الأرياف» (*) .

ننتقل بعد ذلك إلى ما تبع هذا البيان من خطابات وبيانات أخرى ، نقرؤها حسب تأريخها : «الحادى عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : الجنرال المواطن ، بحارة الأسطول الذين يقودون السفن ، والذين أمر بإرسالهم إلى اليابسة ، يتسببون فى أكبر فوضى . وقد اشتكى لى قائد أبو قير منهم مر الشكوى فهم لا يكتفون بقطف الثمار ، ولكنهم يقتلعون الشجر من الجذور. ولك أن تتخيل كم يتسبب هذا التصرف فى الإضرار بنا أمام سكان من مصلحتنا مراعاتهم» ، لاحظ كلمة «مصلحتنا» ، وهى طبعا محور كل التعاملات. ومرة أخرى ، نرى أيضا التناقض بين فكرة القائد الذى يرغب فى اكتساب مودة الشعب المستعمر لغرض فى نفسه، وبين جنود يعيشون الحقيقة ، وهى حقيقة جيش مستعمر ، يتصرف بحرية مطلقة ، بل وبغوغائية تامة ، فى بلد مفتوح .

وتبدو هذه الحقيقة جلية ، عندما قام سكندرى بطعن طوبجى بحرى فرنسى ، ثم هرب ، فظهرت أنيات من يخطب ود الشعب : قبض فى الحال ، على ثمانى رهائن ، ثم اتسع الأمر ، وأخذت رهينة من كل حى

* كما أسلفنا فى الجزء الأول من هذه الدراسة.

.. ويشرح لنا البيان التالى حقيقة أمر الجيش مع أهل البلد من خلال تلك الحادثة :

«أيها الجند ، ستتعرضون لمثل هذه الحوادث ، ما دمتم لا تنصاعون لأوامر القائد العام ولا تحترمون أملاك الأهالى ، وعاداتهم وعقيدتهم ، ونظرا لأننى ملزم بحمايتهم ، كما أننى ملزم بالسهر على أمنكم ، فقد وجدت نفسى مجبرا على إصدار الأوامر التالية ، بعد ما سمعته من تجاوزاتكم وفوضاكم :

المادة الأولى : من دخل حريم مسلم ، سيعتبر محرضا على الفوضى ، متهما بالقتل ويعاقب بالإعدام .

المادة الثانية : من تسلق سوراً لبيت مسلم ، أو لأى بيت آخر ، أيا كانت حجته ، سيعتبر لصا ، ويعاقب بالإعدام .

المادة الثالثة : من اصطاد داخل المدينة ، وأطلق نار بندقيته على الحمام ، وعرض السكان للموت أو الجرح ، كما سبق أن حدث ، سيعتبر قاتلا ، ويعاقب بالإعدام ....» ، (الخ) ..

ولم نسمع أن أحدا عوقب بعد ذلك ، وكأن الجند تحولوا ، فجأة ، بعد هذا التحذير ، إلى ملائكة ، لا يضرون أحدا ولا يستهزئون بمشاعر أحد، ولم نعرف أيا من تلك الجرائم اقترفها ذلك الطوبجى البحرى المطعون، فقتله السكندرى طعنا ، ولكن جملة كليبر «.. كما سبق أن حدث » ، تثبت أن تلك الأفعال كانت شائعة .

«الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى مينو ، قائد رشيد : من

السهل الحصول على وسائل نقل ، لإحضار مؤن إلى هنا ، لولا أننا قد نسينا أن السياسة تمنعنا من المصادرة ، وبالتالى ، فلابد من إيجاد المال الضرورى لنا». وبسبب ذلك الاحتياج ، سنراهم يتوسعون فى السياسة المضادة لرغبتهم الأولى - إن كان لها أية قيمة غير إعلامية فى واقع الأمر - ويصادرون كل ما يحتاجون إليه .

«أخذت كتب قانون ، مكتوبة بلغة البلد ، من بيت المفتى . فمن كانت معه تلك الكتب ، عليه أن يعيدها إلى قائد المنطقة. وبما أنه لا شك فى أن المصادفة البحتـــــة هى التى أوصلتها إليه ، فلن نعاقبه على هذا الشأن ...»

«المسلم الذى قال إنه سيضرب الفرنسيين ، ضرب على بطن قدميه مائة ضربة عصا بأمر الشريف كان هذا أمام فرقة فرنسية» .

على الرغم مما ورد فى البيان سالف الذكر شديد اللهجة ، الموجه إلى الجند السارقين ، إلا أن اللص الفرنسى لن يعاقب ، بينما تصادر حرية الكلمة لدرجة أن أحد المصريين يعاقب أشد عقوبة لمجرد أن تفوه بتهديد خاوى المعنى ، لا يعبر إلا عن ثورة غضب عابرة نتيجة للاستفزازات الفرنسية. ونرى الشريف ، وكان ، آنذاك السيد كريم ، يتولى بنفسه تنفيذ أمر الفرنسيين ، وضرب «المسلم» بالعصا. كانت تلك سياسة كريم التى أوهم بها الفرنسيين أنه يتعاون معهم ، وهو يدبر فى الوقت نفسه حركة المقاومة إلى أن انكشف أمره ، وحكم عليه بالإعدام .

«السابع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ : إن خشب التدفئة هو أكثر ما

ينقصنا بعد المال ولذا فقد ذهب الجند إلى ممارسة أفعال يصعب السيطرة عليها ؛ فقد سرقوا حتى السواقى وناعوراتها» : وكان ذلك - بطبيعة الحال - خير دليل على جهل الجنود ، إذا تسببت تلك الأفعال فى تهديد الإسكندرية حيويا ، فقد شحت مياه الشرب ، ثم منعت بعد ذلك.

طعن سكندرى آخر جنديا فرنسيا ، فحكم عليه بنسف منزله ، ولكن الجندى الفرنسى لم يمت ، وطلب العفو عن السكندرى . فكتب كليبر فى ذلك الشأن قائلا : «فليقنع هذا المثل للكرم الفرنسى المسلمين أننا - عندما حضرنا لنخلصهم من اضطهاد المماليك - لم نكن نبتغى إلا حسن التفاهم الذى تحتمه السياسة والحكمة على الأمتين كلتيهما»، هذا ما قاله فى العلن ، ولكنه ، فى الحقيقة كان لا يوافق على مثل ذلك «الكرم» ، فهو يكتب فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ إلى بونابرت قائلا : «لا أمل لى فى إحراز أى نفع من وراء مثل هذا الكرم : فهؤلاء الناس يأخذون كل علامات الطيبة التى أعبر عنها ، على أنها دلالات ضعف ؛ ومن جهة أخرى ، إذا ما أثبتّ نوعا من الحزم ، ولا أقول صرامة ، تجدهم جاثين عند قدمى ». ثم يقــول للجنــدى المطعون : «أيها المواطن ، إنك أول من ضربته خناجر التعصب الدينى المسلم الأعمى..» : نلاحظ مرة أخرى أن فكرة دفاع المصريين عن حريتهم الحقيقية أو كرامتهم لم ولن تخطر لحظة واحد على بال أى من الجند الفرنسيين أو ضباطهم ، وعلى ذلك فإن أية مقاومة أو ثورة تحدث فى أى

مكان ، سواء كانت فى الإسكندرية أو القاهرة ، أو الأقاليم أو الوجه القبلي ، فهى تعزا دائما إلى «التعصب الدينى المسلم الأعمى» كما سبق أن قرأنا فى الكتب الأخرى .

«التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٨ ، إلى بونابرت : إن المتطلبات التى تجد ، تهاجمنا باستمرار ، قد أجبرتنى على طلب مقدم من تجار هذه المدينة ، ثلاثون ألف جنيه ، لحين تحصيل الجمارك . وسأرسل هذا المبلغ ، على الفور ، إلى خزينة أمين الصندوق الذى يستغيث » . نذكر طبعا ، أن سياسة حكومة «الإدارة» كانت أن يعيش الجيش على خيرات البلد المفتوح ، الذى ينهب إلى أقصى درجة ، وكانوا قد سموا هذه السياسة رسميا ويحق «سياسة عصر الليمونة» . وجاء الجيش إلى مصر، على أنه فى بلد غنى سيجد فيه الجيش كل ما يحتاج إليه ، بل وسيثرى أيضا كما حدث فى إيطاليا التى نهبت عن آخرها . ولكن موارد مصر أثبتت عجزها حتى عن سد متطلبات الجيش .


«الحادى والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : ... سأكتفى بمبلغ الخمسة عشر ألف جنيه قيمة السلفة التى قدمها التجار الفرنجة والمحايدون ؛ أما بالنسبة للمسلمين الذين لا يقدرون رأفة الأمة الفرنسية، وكرمها ، فقد فرضت عليهم ضريبة مائة ألف جنيه تدفع فى ظرف أربع وعشرين ساعة ، وسيبقى أربعة من أهم التجار الموجودين هنا ، تحت سيطرتى لهذا الأجل ، وقد انسحبت بعد إصدارى هذا الأمر ؛ فحاولوا التحدث معى ، لكنى أمرت بإبلاغهم أننى لن أستمع إلى أى شىء حتى

يصل المبلغ إلى خزينة أمين الصندوق» . سنقابل ، كثيرا ، ذلك النوع من تناقض الكلام ، الذى ينبىء عن منطق خاص جدا بهؤلاء القوم المتحضرين؛ فبينما يتحدث كليبر عن «رأفة الأمة الفرنسية وكرمها» ، نجده في اللحظة نفسها ، يحتجز الرهائن ويفرض الضرائب الباهظة .

نقرأ بعد ذلك عن المقاومة خارج الإسكندرية : «الحادى والعشرون من يوليو إلى الجنرال مينو : ذهب الجنرال دوموى مع رتل من الجنود إلى دمنهور (ليعاقبها على تمردها) ، ولكن البدو من سكانها استقبلوه استقبالا سيئا للغاية ، فعاد إلى الإسكندرية مسرعا دون أن يذهب إليك كما كان مخططا، وقد فقد في هذه العملية ثلاثين أو أربعين رجلا»، الرابع والعشرون من يوليو سنة ١٧٩٨ : «أنا محاط بالبدو من كل جهة . فما حدث «للدوموى» فى دمنهور جعلهم أكثر جرأة . لقد نزلنا على ثلاثين أو أربعين من البدو بالسيوف تقطيعا على بعد نصف فرسخ من المدينة ، واليوم يزخر بهم الوادى ، وسنضربهم بالسيوف مرة أخرى» .

ولكن النغمة التي لم ولن تنقطع ، تستمر : «الثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : لقد أخبرت الفرقة أنه لن يوزع عليهم ، مستقبلا ، لحم بقر مملح ، وستحل البقول محل هذه الأكلة مؤقتا » ، فقد كان الجيش فى مجاعة يرثى لها ، وستكون تلك المجاعة من أهم أسباب انهيار مينو ، وفى الإسكندرية أيضا ، فى آخر أيام الحملة .

ويستمر البدو فى هجومهم الخاطف : «الحادى والثلاثون من يوليو سنة ١٧٩٨ : خرج اثنان من فرسان البدو من كمين، وقتلا أحد الفرنسيين بطلقة مسدس، وجرحا الآخر فى مقتل ، سيكون ذلك دائما



،هجوم البدو عند أسوار القاهرة، (وهو اعتراف بما تكبده الفرنسيون من جراء تلك الهجمات)

جزاء استهتار جندنا»، فقد كان البدو يتصيدون أى جندى خارج صفوف جيشه. وقد قاموا ، أثناء الحملة ، بالدور الذى قام به فرسان القوقاز أثناء غزو روسيا بعد ذلك بسنوات ؛ وكان يساعدهمْ على تلك الهجمات الخاطفة ، سرعة جيادهم وصغر حجمها .

ونقرأ بعد ذلك خطابا من السيد كريم : «حتى الصهاريج والأدوات الخاصة بالرى ، حطمها الجند عند دخولهم » ، وكان هذا الخطاب سبب بيان إلى الجند : «فى السادس من أغسطس سنة ١٧٩٨ : ... رأى الجنرال كليبر بسخط شديد تصرفات لا تغتفر لبعض الجند الذين تسيطر عليهم روح تخريبية ، ولا يراعون المصلحة العامة ؛ أهدروا هذه المبانى، ويمنعون اليوم منْ يقومون بإصلاحها من إتمام عملهم ...». نتعرف مرة أخرى ، على تصرفات الجند الجهلة الذين لا يدركون نتائج تخريبهم ، رغم أنهم أول من يقاسى منها ، إذ لن يجدوا ماء للشرب بعد ذلك ، وهذا خير دليل على مستواهم الثقافى. ويعبر المثل التالى تعبيرا دقيقا عن حقيقة شخصيتهم : «وصل إلى الجنرال كليبر أن رجالا فى خدمة الجمهورية ، غير جديرين بلقب فرنسى ، يبددون ما يتسلمونه من المخازن ، ويبيعون للأفراد حتى أسلحتهم ..» .

وبعد معركة «أبو قير» البحرية ، التى قضت تماما على الأسطول الفرنسى ، نقرأ ما يلى : «إلى القائد البحرى جانتوم فى الثامن من أغسطس ١٧٩٨ : أبلغنى الجنرال دوموى أن نصف البحارة وصغار

الضباط البحريين الذين مركزهم الكابتن باrريه فى بحيرة سابيس ، قد فروا من الخدمة» .. ترى أين ذهبوا ، وكيف كانوا يعيشون؟!

«الثالث عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : المواطن الكومندان ، نحن على علاقة ودية بقبائل من العرب المسلمين الذين يساهمون فى ازدهار الرخاء هنا ، ويحضرون لنا الحيوانات والمؤن المختلفة . وقد بلغنى أن كثيرا منهم قد أهينوا وارتكبت ضدهم أعمال عنف» : بدأت علاقة الفرنسيين بالعرب بداية سيئة فى الإسكندرية كما سبق أن قرأنا ، ولكن خيانة الجيش الفرنسى هذه ، لا تشرح ، طبعا كل ما تكبده بعد ذلك من حرب العرب المقاومين له؛ ويوضح لنا هذا الخطاب طريقة معاملة الجند حتى لأصدقائهم من البدو .

«الخامس عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : إن أول استجواب لأخى عبد الكريم يجعلنا نأمل فى الحصول على موارد سخية من المال، ستفى بمصروفات هذا الشهر ، وهكذا ينتهى على الأقل موضوع من الموضوعات التى تقلقنا» : إن ما فعله الفرنسيون فى سبيل الحصول على ممتلكات السيد كريم وأمواله يجعلنا نعتقد أن السبب المباشر للقبض عليه قد يكون الطمع فى ماله ؛ لقد قالوا إنه رفض دفع الفدية التى طلبوها منه بسبب بخله ، ويبدو أن المبلغ كان أكثر بكثير مما كان يمكن أن يدفعه ، فنفذ فيه حكم الإعدام ولو أنه دفع الفدية ، لما قتلوه ؛ فالمسألة كلها إذن تهديد للحصول على المال ، كما يفعل قاطع الطريق إذا خاب أمله فى استسلام فريسته .

«الثامن عشر من أغسطس ١٧٩٨ : ... ومن أجل هذا ، فعلى قائد الرحمانية أن يقبض على بشير شاوس وبطانى شاوس وشريف شاوس والأمير إبراهيم قائد دمنهور ، ويصدر أوامره لاثنين منهم ، ويحتفظ بالآخرين كرهائن إلى أن تصل الجياد والرجال إلى الإسكندرية». فكان الإرهاب المستمر هو وسيلة الحصول على متطلبات الجيش ، ونلاحظ أن أخذ الرهائن كان شيئا عاديا بالنسبة لهم لضمان تلبية طلباتهم ، مما يدل على حالة عدم الأمان المستمرة التى كانوا يعانون منها. وتدل الرسـائل التالية على أنهم كانوا فى حاجة ماسة إلى الاستيلاء على أى شىء ، كى يخرجوا مما أسماه كليبر «حالة البؤس التى (يعانون) منها » :

«إلى بونابرت فى العشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، ألفت نظركم بصفة خاصة إلى أحوالنا المالية . الإنجليز لا يسمحون بدخول أية سفينة أو خروجها . وقد توقفت التجارة تماما ، والجمارك التى كنتم تأملون فى ريعها ، لا تنتج شيئا بتاتا » . «إلى الجنرال مينو فى الحادى والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ : إن حظنا وملاكنا الحارس هما وحدهما اللذان يستطيعان إخراجنا من حالة البؤس التى نعانى منها» .

«إلى بونابرت فى الثالث والعشرين من أغسطس ١٧٩٨: إن الجمارك التى كانت توفر فى الماضى حوالى خمسين ألف «إيكو» (١٠) شهريا ، لن تنتج مليما واحـدا مادام الإنجليز يسدون الميـناء ، ومادمنا لا ننعم بالهـدوء فى داخل البلاد» . ونلاحظ أن الجملة الأخيرة

سترد كثيرا وكأنها لازمة للترنيمة الأخرى : من أين الموارد ، والأمن غير مستتب؟

«إلى الجنرال بونابرت فى السابع عشر من أغسطس سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن ، لدينا وسيلة أخرى تجعل المسلمين يباركوننا وهى أن نعدهم برد المائة ألف جنيه ، التى أوجبنا دفعها للمجهود الحربى ، عقابا لهم على الصعوبات التى أثاروها فى تغطية سلفة الخمسة عشر ألف جنيه فى الوقت المناسب ، عندما طلبتها ، ... ، لاحظت أيها الجنرال المواطن ، أن هؤلاء الرجال لا يقبلون أية ضريبة مباشرة ، بينما تراهم متمرسين على دفع الضرائب غير المباشرة وقبولها » .

ثم ها هى المواد التى تنظم وظائف الديوان السكندرى ، تفضح ما قيل عن الدور الديمقراطى لتلك المجالس . ونأخذ بعضاً من بنود تلك اللائحة التنظيمية لنرى حقيقة أمرها :

«الديوان السكندرى :

... فقوتهم إذن قوة معنوية ووسائلهم وسائل إقناع .

(وظيفتهم الحفاظ على الهدوء) وإذا احتاجوا مساعدة خارجية فعليهم التوجه إلى الحاكم الفرنسى .

المادة الثالثة : وسائل التأكد من الهدوء الداخلى والخارجى ولا يستعمل الأغا القـــوات التى يأتمـــرها إلا بعد إخطار الحاكم الفرنسى (...) .

المادة السادسة : أعضاء الديوان سينهمكون بصفة خاصة فى الحفاظ على الوفاق (بين الجيش و) شعب الإسكندرية ، هذا الوفاق الذى نتمتع به منذ فترة والذى سيجلب السعادة للجميع » .

نستخلص إذن أن دور الديوان الوحيد هو فى الحقيقة ، الحفاظ على أمن الفرنسيين من غضب السكان وثورتهم؛ وعلى الرغم من ذلك فإن أعضاءه لا يتحركون إلا بإذن من القائد الفرنسى ، حتى فى هذه المهمة التى يقومون فيها بوظيفة الشرطى التابع للمستعمر الفرنسى .

«إلى الجنرال بونابرت فى الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ : نظرا لما أنا مقتنع به من أن السلام القوى لا يضمنه إلا وجود رهائن ، فقد رفضت أن أستمع إلى أى اقتراح قبل أن يسلموا لى أربعة من دمنهور نفسها ، وشيخ من كل قبيلة من القبائل الأخرى ، وقريب لكل شيخ من المشايخ الآخرين لهذه القبائل نفسها ... وسأرسل أهمهم إليكم فى القاهرة ، وحينئذ سنتمكن من تنظيم الضرائب . وفى هذه الحالة ، نأمل وصول دفعة جديدة من الجياد العربية» . «تنظيم الضرائب» هو إذن الهدف الوحيد لهذا «السلام القوى» الذى ينشده كليبر .

«إلى اللجنة الإدارية فى الخامس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أرسل إليكم بيانا عن توزيع ضريبة المائة ألف جنيه التى سبق أن فرضتها على المسلمين» وفى اليوم التالى ، فى خطاب إلى بونابرت بتاريخ السادس من سبتمبر : «أمرت فورا بمساهمة مسببة ، قدرها أربعمائة ألف جنيه كما سترون فى القرار التالى ،...، ليس هذا كل شىء ، ولكن مسئول

المال القبطى أمر فى الوقت نفسه بالاستيلاء على مائة وستين قنطارا من الزيت، وهكذا ، فبينما أمرت أنا بمساهمة قدرها ثلاثمائة ألف جنيه من جهة ، يكون هو قد تحرك من جهة أخرى . لا أعرف إن كانت الإسكندرية قد مرت فى عهد المماليك ، بمثل هذا الأسلوب العنيف ،....، وهكذا سيدخل مبلغ صاف من مائة وتسعين ألف جنيه»، يعترف كليبر إذن لأول مرة ، وبعد وصولهم بشهر واحد ، أن المماليك أنفسهم لم يلجأوا إلى مثل طغيان الفرنسيين وجبروتهم فى تكبيد الأهالى ما يفوق طاقتهم من ضرائب ، ولا يسعنا هنا إلا ذكر ما قاله «فيفان دينون» فى هذا الموضوع نفسه .

«إلى المواطن برتليمى، فى الثالث عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : ستتوجهون إلى قرية غطاس ، ولتقبضوا على كل من يقاومكم، واحتجزوا النساء والأطفال والشيوخ بعناية . أما عرب القرية الذين سيموتون فى هذه الحملة ، فلتفصل رءوسهم بيد أهل البلد الموجودين معكم (المرشدون) وتوضع على قمة زانة ليراها المارة. ولتدمروا بعد ذلك ، القرية عن آخرها ، ثم أشعلوا النار فيها » ... «إلى بونابرت فى السادس عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أيها الجنرال المواطن لقد عوقبت قرية بركة غطاس على تحالفها الخبيث مع العرب أولاد على ، وأعتقد أن أمر القبض على كل من يقاوم قد نفذ بكثير من الاتساع» . والكلمات هنا – على اقتضابها – تعنى ما تعنيه من عنف مبالغ فيه ووحشية لا ضرورة لها . إن الكابتن «مواريى» لا يشكو وحده إذن من ضراوة هذه الحرب ، وما العجب ، وقد كان كثير من الضباط

المنتصرين على متمردى حرب الفانديه فى فرنسا . والتى عرفت ببشاعتها (*) ؟.

«إلى الجنرال مانسكور فى الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ : أمر القائد العام أن تفرض ضريبة على منازل الإسكندرية للإنفاق على أعضاء الديوان والأغا ، ولدفع أجور الانكشارية ، وكذلك لتغطية تكاليف نظافة المدينة .. » ، وهكذا بررت نظافة المدينة باقى التكاليف التى تخدم أغراض الجيش .

«الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (بمناسبة الاحتفال بأحد أعياد الثورة الفرنسية) : ... ولكن هذا الاحتفال الذى أمر به ، ما كان ليعجب القائد العام ، لو أن سكان الاسكندرية لم يشتركوا فيه والمسلمين منهم بصفة خاصة . ولذا ، حاولت كل ما فى وسعى لأجعلهم يتوجهون معنا إلى عامود بومبى بالذات (الذى يسمى حاليا عامود السوارى)» : وقد كتب كثير من الفرنسيين عن فرحة المصريين بالاشتراك فى أعياد الجيش ؛ وهذا الخطاب القصير يؤكد لنا طبعا عكس ذلك ، فقد كان تصرف المصريين هو التصرف الطبيعى لشعب مستعمر ، مغلوب على أمره .

وقبل سفره إلى بلاد الشام مع حملة بونابرت عليها ، كتب كليبر فى الثامن من فبراير سنة ١٧٩٩ قائلا : «أخبرنا الجند بالبؤس الذى ينتظرهم حتى نصل إلى سوريا ، وقد تقبلوا تلك الأنباء بشجاعة . ولكن

* ارجع إلى الجزء الأول.

من الصعب إخبارهم أننا لن نعود إلى أوربا عن طريق الدردنيل ، رأيت أن أترك لهم هذا الوهم ...» : إن هذا الاعتراف خير دليل على استياء الجيش من حياته فى مصر ، ودليل قاطع على أن القواد كانوا يعرفون ذلك وعلى أعلى مستوى. لقد كان الرحيل أمل الجند الوحيد ، حتى إن كان عن طريق حرب ضروس فى الشام ثم التوجه إلى فرنسا من الشرق. ونرى هنا كيف كان القواد يكذبون على جندهم حتى يرغموهم على تنفيذ خططهم ، والجند فى غفلة عن مصيرهم ولا همَّ لهم إلا العودة إلى الوطن ، حتى إن كان ذلك يجبرهم على الالتفاف من الشرق .

«من دمياط إلى الجنرال فردييه ، فى العاشر من فبراير سنة ١٧٩٩: بالنسبة للجمال ، لا تحترموا أية ملكية خاصة فالكل مأمور بأن يستولى على كل شيء فى هذه اللحظة العاجلة. يجب أن تظهر فى هذا الأمر أشد الحزم ..»

«إلى الجنرال مورا فى الثامن والعشرين من مايو سنة ١٧٩٩ : أيها الجنرال المواطن ملحق مع هذا، أمران تلقيتهما من القيادة العامة، أحدهما خاص بتخريب البلد الذى سيتولاه فرسانك..»، وكانت أوامر بونابرت كالتالي: «سيتولى الجنرال كليبر أمر حرق كل المحاصيل حيث يمر، وسيسير بحيث يستطيع أن يرسل دوريات مكثفة من الفرسان، يساندها بعض المشاة، لنهب القرى الموجودة على الطريق، والاستيلاء على الحمير والحيوانات والجياد.... إلخ».. كلام وأوامر لاتحتاج أى تعليق.. فكان الخراب التام لكل المنطقة. والرسالة التالية تلخص حقيقة ماقترفه الجيش آنذاك من فظائع:

«إلى الجنرال دوجوا، دمياط فى الحادى والعشرين من يونيو سنة ١٧٩٩: لقد ارتكبنا في الأرض المقدسة معاصى بالغة الخطورة، وسخافات كبيرة، ولكن، يجب أن نترك ستار المحظورات ينسدل على هذا كله، وألا نرفعه، خشية أن يعاقبنا المولى فى غضبه على جبرنا...»، نلفت النظر، مرة أخرى، إلى أن كاتب هذه السطور هو الجنرال كليبر الذى سبق أن اشترك مع الجيش الجمهورى، فى تخريب المناطق الثائرة فى فرنسا، وفظائع تلك الحرب الأهلية مازالت تحكى حتى يومنا هذا، ولم نقرأ شيئا لكليبر يدل على أنه ندم يوما على مااقترفه من ذنوب فى حرب «الفانديه» التى كان من المنتصرين فيها. ولكن من البديهى أن مافعله، وفعله الجند الفرنسيون فى فلسطين، يفوق بكثير كل ما مر به من قبل، والدليل، هذا الخطاب الصريح.

ثم سافر بونابرت عائدا إلى فرنسا، وترك لكليبر أمر الحكم فى مصر، فأرسل كليبر إلى حكومة «الإدارة» تقريرا قال فيه من بين ما قال: «..... مع أن مصر هادئة ظاهريا، إلا أنها ليست مطيعة. الشعب قلق، ولايرى فينا.. مهما فعلنا، إلا أعداء ملكيته، وقلبه متفتح دائما لأى أمل فى التغيير لصالحه».. تلفت نظرنا كلمة : «مهما فعلنا»، وبعد ما قرأناه عما «فعلنا» هذه، قد لايسع القارىء إلا التعجب لمنطق الفرنسيين.. وتجىء الأسطر التالية لتؤكد سخرية الموقف: «.... كان فى إمكان العرب وحدهم أن ينظموا لنا قوافل فى الرمال الحارقة؛ إلا أنهم خدعوا مرات عديدة لدرجة أنهم لم يعودوا يعرضون علينا خدماتهم الآن، ولكنهم يبتعدون عنا ويختفون».

تكاد هذه الفقرة الأخيرة تكون من أبلغ ماسطره كليبر في الموضوع الذى يهمنا، لأنه يفضح بقلم شاهد من أهلها، معاملة الفرنسيين لمن ساعدوهم بغية الكسب المادى؛ فما بالنا بمعاملتهم لمن لم يساعدوهم؟

★★★

نكتفى بهذا القدر من خطابات كليبر قبل أن يصبح قائدا عاما لجيش الشرق فى مصر، والتعليق الوحيد الذى نراه ضروريا، قبل أن ننتهى من الأجزاء الأربعة لخطابات كليبر، هو ملاحظة ماحدث أثناء حكمه للإسكندرية فى شهر يوليو، أى قبل أن يحطم «نيلسون»، الإنجليزى، الأسطول الفرنسى فى «أبوقير» أول أغسطس من عام ١٧٩٨. قيل مرارا إن هذه الحادثة حولت الجيش الفرنسى إلى جيش سجين فى مصر، كان عليه أن يعيش بعد ذلك، على موارد البلد فقط، لاستحالة وصول أية إمدادات بسبب الحصار الإنجليزى للشواطىء: ولكننا نرى، بعد قراءة مخاطبات كليبر تلك، أن الاحتياج إلى فرض الضرائب الباهظة كان سمة هذا الاستعمار، منذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى مصر، فخطابات يوليو التى قرأناها ـ أى مخاطبات ماقبل دحر الأسطول الفرنسى ـ لاتدع أية بادرة للشك: لقد جاء الجيش منذ اليوم الأول كالجراد، يقضى على الأخضر واليابس، وكلمات «لابد من إيجاد المال الضرورى لنا» شبه لازمة لكل خطاب، مع أوامر المصادرة العنيفة واللجوء الدائم إلى أخذ الرهائن، هذا من جهة. وقرأنا، من جهة أخرى، الأوامر التى كانت تصدر للجنود، فلم نقابل، ولو لمرة واحدة، أية بادرة «تحضير» لمصريين يُسلبون وتلوث قبورهم ومساجدهم، لم نقابل

جنديا أو ضابطا واحدا صدر له أمر، أو نفذ أمرا لنشر مبادىء الثورة، تلك الثورة التى لم نسمع عنها إلا فى احتفال فرنسى أجبر «المسلمون» - بالذات - على الذهاب إليه.

من البديهى إذن أن الجيش الفرنسى - بجنده وقواده - لم يتصرف إلا كما يتصرف أى جيش غاز، إن حافظ على المواطنين المهزومين، فهو يحافظ عليهم لأنهم كالبقرة الحلوب، إذا نفقت، انتهى مورد الرزق، فلابد إذن من الحفاظ على بعض مظاهر التودد، حتى تستمر البقرة البائسة فى إدرار لبن يعيش به الغازى.

وتتضح هذه الصورة أكثر وأكثر عندما ننتقل إلى مكاتبات كليبر بعد أن أصبح حاكما مطلقا على مصر: من هذه المخاطبات، تتضح لنا، بصورة فجة، معاملة القيادة العليا للشعب المصرى، وبالتالى، معاملة كل من كان تحت إمرة هذه السلطة العليا، أى كل الفرنسيين الموجودين آنذاك مع الجيش فى مصر. فلنقرأها معا، لعلنا نجد ولو إشارة واحدة إلى تلك المبادىء التى جاء الجيش من أجل تعليمها للشعب المصرى، سواء طبقها الفرنسيون أو علموها لشعب يجهلها.

★★★

إذا انتقلنا إلى الجزءين الثالث والرابع من كتاب «كليبر فى مصر»(١١) وجدناهما من تسعمائة وسبعين صفحة، نتعرف فيها على مكاتبات عديدة، أهمها طبعا خطابات وبيانات الجنرال كليبر الذى أصبح - بعد سفر بونابرت - القائد العام لجيش الشرق، نجد فيها من الخطابات التى يهمنا أمرها أكثر بكثير مما وجدنا بالجزءين الأول

والثانى، وهذه الخطابات تحتاج ـ لكثرتها ـ إلى نوع من العرض يختلف عما لجأنا إليه فيما سبق. بعضها لن يهمنا بحثه بصورة مباشرة أو حتى غير مباشرة، مثل مكاتبات المفاوضين الفرنسيين والعثمانيين والإنجليز من أجل اتفاقية إجلاء القوات الفرنسية، التى عرفت «باتفاقية العريش»، والتى كان فشلها سببا فى المعركة التى دارت بين الفرنسيين والعثمانيين فى «هليوبوليس» ، أى عين شمس، وكان انتصار الفرنسيين فى تلك المعركة سببا مباشرا فى استمرار بقاء القوات الفرنسية فى مصر، على الرغم من رغبة كليبر وجيشه فى العودة إلى الوطن، لأن الحملة كانت فى نظرهم فاشلة من بدايتها، ولا أمل يرجى من ورائها، كما نجد تقارير مطولة عن حالة الفرنسيين فى مصر، كان القائد العام يرسلها إلى حكومة «الإدارة»، وهو يجهل أن بونابرت أصبح فور وصوله إلى فرنسا المسيطر على كل مقاليد الحكم هناك، بعد تلك المخاطبات المهمة التى قد تفيدنا معرفة بعض منها، نجد كما هائلا آخر يوضح بصورة مباشرة القضايا التى تهمنا، وسنصنفها حسب موضوعاتها، لننتقى منها مايبدو لنا أكثر دلالة؛ فلا داعى لتكرار ممل، خاصة أن المشكلات هى نفسها، لاتتغير، والحلول المطروحة أيضا لاتتغير. وقد تعرفنا على بعض منها، عندما كان كليبر حاكما على الإسكندرية.

فكيف يكون الأمر وهو الآن حاكم على مصر كلها؟

★★★

ولنبدأ بالخطابات التى تعبر بصورة واضحة عن حالة الجيش، بعد أن تركه بونابرت، لنستشف منها ما سنقرؤه بعد ذلك، عن معاملة

الجيش المستعمر للمصريين تلك المعاملة التى تحتمها ظروف الجيش المشار إليها من قبل.

بادىء ذى بدء، يتضح لنا الأمر عندما نقرأ ما أرسلته الحكومة من باريس إلى القائد العام، الجنرال بونابرت، فى الثامن عشر من سبتمبر ١٧٩٩، أرسلت خطابا يفيد بأن المفاوضات ستبدأ مع العثمانيين من أجل إجلاء القوات الفرنسية عن مصر، وأن خبر هزيمة بونابرت أمام عكا كان قد وصل «منذ بضعة أيام»؛ كما أن الخطاب ينبىء بونابرت بحال القوات الفرنسية المهزومة فى فرنسا، ويأمره بالعودة لاحتياج البلاد إلى جيشه: المعنى واضح، فحكومة «الإدارة» قد اعترفت إذن بفشل مشروع الحملة بعد بدئها بسنة واحدة، واحتياجها لجيش الشرق؛ أمر مصر لم يعد يهمها، وفرنسا فى حاجة إلى كل قواتها، خاصة جيش الشرق هذا الذى سبق أن أثبت جدارته الفائقة فى إيطاليا. وصل هذا، الخطاب بعد رحيل بونابرت بمفرده من مصر طبعا، وأصبح على كليبر وحده أن يواجه الموقف: رحل بونابرت، وترك الجيش، والحكومة فى باريس لم تعد تهتم بإنجاز ماسافر من أجله بسبب فشل الحملة، ولا نعرف متى وصل هذا الخطاب إلى مصر، فقد كان الحصار على شواطىء الاسكندرية قاسيا، والأخبار والمراسلات تصل، إن وصلت، بعد شهور من إرسالها؛ ولكن المؤكد أن الرسالة وصلت بعد فترة من سفر بونابرت، وقد يكون بعده بشهور عديدة.

نرى بعد ذلك كليبر يشكو إلى مينو، فى الثامن عشر من سبتمبر

١٧٩٩، سوء الأحوال التى تركها بونابرت وراءه، فلا يوجد شىء فى الخزائن ينفق منه؛ وكان حكم كليبر على إدارة بونابرت أن «نظام الإدارة (....) كان غاية فى السوء»، ثم نراه يطلب من مينو فى خطاب آخر، أن يتودد إلى الأسطول الإنجليزى، الذى يحاصر الشواطىء، ليحصل منه على بعض الصحف، حتى يكون على دراية بما يحدث فى فرنسا وأوربا، وبما يفعله بونابرت، وهو طبعا لم يتخيل أن بونابرت كان قد سيطر على الحكم فى باريس فى ذلك الوقت.. ونراه يشكو فى خطاب بتاريخ الرابع من أكتوبر ١٧٩٩ إلى مينو مرة أخرى، يشكو مما يسببه الرمد والطاعون من مصائب للجيش الفرنسى.

وبعدها بأيام معدودة، وبالتحديد فى التاسع من أكتوبر ١٧٩٩، يرسل أحد المسئولين تقريرا مطولا إلى حكومة «الإدارة»، يصف فيها الحال فى مصر، وهو يجهل طبعا أن هذه الحكومة قد انتهى عهدها. إنه يرسل صورة بائسة يائسة: فالعدو والطاعون على الأبواب، والموارد شحيحة إن وجدت، والضباط والجنود «متأكدون أنهم يضحون بحياتهم وصحتهم من أجل الوطن وذلك دون جدوى»، هذا المسئول الكبير يناقش فى تقريره مشروع احتلال مصر، وننتقى من صفحاته العديدة مايبدو لنا ذا مغزى: «لاشك فى أننا لو كنا الأسياد المؤمّنين لمصر، لاستطعنا أن نخلصها فى بضع سنوات من معظم الآفات التى تخربها، مثل الطاعون والعرب (البدو) ،....، فتكون مصر أجمل مستعمرة فى العالم،.....، ونظرا لما استجد من ظروف» بعد احتلال مصر، دون موافقة الباب العالى «فشعب مصر الذى كان علينا أن نعده صديقا،

أصبح، فجأة عدوا لنا»... ومن مناقشته لسياسة فرنسا، نصل إلى حقيقة الحملة ومغزاها: «ينظر الآن إلى الإمبراطورية العثمانية على أنها مبنى قديم على وشك الانهيار، وأوربا مستعدة منذ وقت بعيد لتقسيم أشلاء هذا المبنى، وكثير من السياسيين يعتقدون أن هذا الحدث قريب، ويرون أن على فرنسا أن تأخذ نصيبها، وأن مصر هى هذا النصيب»، ولكن هذا المسئول يرى أن الوقت لم يحن بعد لهذا الحدث المنتظر، وأن الحل الوحيد للخروج من المأزق الذى يجد الجيش الفرنسى نفسه فيه، هو أن تعلن روسيا الحرب على الباب العالى، حتى تذهب القوات العثمانية إلى تركيا نفسها لحمايتها، فلا تمثل بعد ذلك خطرا على القوات الفرنسية فى مصر، ويلفت نظرنا طبعا كلامه عن الشعب المصرى الذى أصبح إذن، حسب منطقه، عدوا بعد أن كان صديقا!

وقد تدل الكلمات التالية على حالة الفتور التى كان يحارب بها الفرنسيون، أو على منهج حروبهم، وكليبر هو الذى يكتب هذه المرة إلى حكومة «الإدارة» فى السادس عشر من نوفمبر ١٧٩٩، يصف لها الإجراءات التى اتخذها لحماية موارد مصر من التهريب لصالح «جيش الأعداء»، أى الأتراك: «.... لقد منحت الفرق الحق فى الاستيلاء على أية غنيمة تحصل عليها من القوافل الخارجة من مصر. وبهذه الطريقة حصلت، فى وقت وجيز، على ثمانمائة من الإبل، وزعتها على الفرق المختلفة»، وبما أن جيوش الأتراك قد تنزل قريبا إلى أرض مصر، فقد «ابتسم جنودنا عند التلويح بهذا الأمل، لأنهم ـ بصرف النظر عن سعادتهم بإحراز انتصارات جميلة ـ سيغنمون بكثرة»، الجيش يحارب

من أجل الغنائم، مما يسعد الجند، ولكن التقرير ينتهى بتلخيص الحالة العامة للجيش، فيقول كليبر: «ولكنى أرجو منكم أن تدركوا أن حالتى تسوء كل يوم أكثر فأكثر، وأن المستشفيات وحدها تحرمنى من حوالى ثلاثمائة رجل فى الشهر وأن الطاعون حاليا بالإسكندرية، وأن كل الظروف تتضافر لتدفعنى إلى النهاية الحتمية التى كان الجنرال بونابرت قد تنبأ بها، ولكنه أراد أن يتفاداها»، فكليبر يرى إذن أن المفاوضات من أجل الخروج من مصر، وبالتالى إعلان فشل الحملة، هو «النهاية الحتمية» للحملة والحالة التى وصل إليها الجيش الفرنسى، حتى قبل أن يذهب بونابرت إلى فرنسا سرا.

وجاء ليعضد هذا التقرير، تقرير آخر للسياسى «تاليان»، الذى كان قد لحق بجيش الشرق فى مصر بمحض إرادته، مما جعل تقريره، كما يقول هو نفسه، مجردا من أية أغراض ذاتية، وهو مدون بتاريخ الحادى والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩. وقد كان «تاليان» بصفته موجودا فى مصر، لايزال يجهل أن بونابرت قد سيطر على الحكم، وسنجد فى تقريره، مرة أخرى، الأسباب الحقيقية ـ بل الوحيدة ـ لغزو مصر، وهو يؤكد أنه لن يناقش الحملة، أو أسبابها، التى كانت ترمى إلى «الحصول على تعويضات من إنجلترا»، وهو يقصد الحصول على مستعمرات تحل محل المستعمرات التى أخذتها إنجلترا سابقا من فرنسا، ولكنه يتكلم عن النتائج مثل: «ثورات القاهرة والمنصورة ودمنهور التى ذبح فيها كل الفرنسيين (الذين كانوا فى هذه المدن) بالإضافة إلى العديد من حركات التمرد علينا التى كلفنا إخمادها حياة كثير من الشجعان»، نراه يشكو

أيضا مما يعانيه الفرنسيون من «العرب (البدو) الذين لايبغون إلا النهب»، ويقول «تاليان» إن بونابرت كان يضمر منذ زمن ترك مصر، لأنه عند وصوله إلى هذا البلد اكتشف سريعا أنه «خدع بالنسبة لإمكانات هذا البلد، وما كان يستطيع تقديمه سواء لفرنسا، أو لجيشه».

«فهذه الملايين التي جنتها باريس وسهولة الحصول عليها من القاهرة، لم تكن فى الحقيقة إلا بعض آلاف من أكياس الضريبة على الأهالى، دفعت بعد صعوبات جمة (....)، الضرائب التى فرضت، وهى أقل بكثير من احتياجات الجيش نفسه، لم تحصل إلا بسلطة القوة (....)، لو كانت هذه الحملة قد نجحت (نلاحظ أن هذا التقرير بتاريخ ديسمبر ١٧٩٩) (.....) لكان من الصعب جدا ـ فى اعتقادى ـ أن نخلق مستعمرة أوربية فى بلد تتعارض معنا دائما عاداته وتقاليده ، خاصة دين الأهالى.وعلى الرغم من حكمة تصرفاتنا منذ ثمانية عشر شهرا، فإننا لم نجد حتى الآن إلا بضعة رجال يتحالفون معنا تحالفا مؤقتا، وغير مضمون، بضعة رجال يرون أن مصالحهم تتماشى مع مصالحنا، ومن المؤكد أنهم سيتركوننا عند أولى هزائمنا (لأننا فى بلد) شعبه كثير ودائما على أهبة الاستعداد للثورة (.....) فالجيش مسئول دائما عن تحصيل الضرائب لأن الفلاح المصرى لايدفع إلا إذا استخدمنا القوة، فلا يستطيع الجيش أن يحارب العدو ويكون ـ فى الوقت نفسه ـ بالداخل لتحصيل الضرائب (....) خاصة أنه منذ هروب بونابرت ، والجنود فى حالة ثورة ولايرون أصغر مركب يعد للسفر إلا ويقولون إنه

يعد لهروب الجنرالات؛ فسبب ثورات الجند ليس فقط ضيق ذات اليد.....».

وبعد هذا التقرير الطويل بثلاثة أيام، أى فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٧٩٩، نقرأ خطابا من كليبر لأحد قواده يهنىء فيه فرقة لم تتجذب «لعدوى» تمرد الجند المنتشرة آنذاك، نقرأ فى هذا الخطاب أن سبب ذلك التمرد كان سفينة ظن الجند أنها تقل القواد الفارين من مصر، بينما لم يكن على ظهرها سوى «رجال أصحاء وموسسات (......) من بلاط بونابرت»، وفى خطاب آخر بتاريخ السادس عشر من يناير ١٨٠٠، يكتب كليبر رأيه الصريح، مرة أخرى، فى بونابرت الذى «كان قد ضحى بهذا البلد قبل سفره بمدة طويلة. ولكن، كان عليه أن يجد الفرصة السانحة للهروب منه؛ إنه لم يفعل ذلك إلا ليتجنب مصيبة تسليمه (وقد ترك هذه المهمة لكليبر الذى يؤكد) فأنا لا أريد أن أرى باقى الجيش يذبح واحدا تلو الآخر، دون أية فائدة حقيقية للوطن: أنا الذى اعتبرت هذه الحملة خاسرة كلية بعد كارثة أبوقير وإعلان الحرب علينا من طرف الباب العالى ـ سأتحمل مسئوليتى كاملة ـ ولكنى وصلت إلى نهاية المطاف ولم يعد بيدى شىء».

وعندما اجتمع كليبر بقواده لبحث الحالة الراهنة، قيل فى تقرير الجلسة من بين ماقيل: «..... وفى حالة الهزيمة الحربية، كيف نستطيع إنقاذ حياة عشرين ألف جندى من موت محقق على أيدى جند (عثمانيين) جامحين وشعب من المتعصبين الذين يجهلون كل حقوق الحروب والشعوب المتمدينة (.....)» !!.

«ولم يعد هناك أى أمل فى حكومة لن ترسل أية إمدادات، بعد المبادىء التى أعلنتها، والتى تلوم فيها الحملة بطريقة قاطعة، وتجعل من هذه الغزوة تهمة توجهها إلى من أصدر أمرها أو تركها تنفذ، معلنة أن هذه الفعلة كانت ضارة بكل مصالح الجمهورية، بعد أن حولت أكثر حلفائها قدما وأمانة إلى عدو انضم إلى أوربا كلها ضدها....» (يقصد الإمبراطورية العثمانية).

أصبحت الحملة إذن اتهاما لمن أمر بتدبيرها، وكأنها سبة يتهم بها من أنجزها لأنها قد فشلت، ولم تدر على فرنسا إلا الخراب، فقد تحولت الدولة العثمانية من حليف إلى عدو، كانت حليفة لفرنسا منذ القرن السادس عشر، فتحولت إلى عدو لدود انضم إلى روسيا وانجلترا فى التحالف الثانى ضد الجمهورية، وذلك لأن فرنسا قد غزت مصر دونما سبب، بل حتى دون إعلان حرب وكانت تلك هى النتيجة الوحيدة التى جنتها فرنسا من الحملة، كما اعترف بذلك معاصروها من السياسيين.

ونستمر فى قراءة التقرير الذى يصف أوضاع الجيش الفرنسى فى مصر، وقد دب اليأس فى قلب كليبر أكثر عندما عرف أن بونابرت أصبح المسيطر على كل الأمور، ولم يرسل ـ مع ذلك ـ إمدادات للجيش الذى «هرب» وتركه فى مصر، وبعد أن استعرنا من هذا التقرير بعض الجمل التى بدت لنا مهمة لدراستنا، فإنه يستمر لصفحات عديدة سنترك قراءتها مؤقتا لنعود إليها فيما بعد فى محاولة منا لاستجلاء أمور الفرنسيين فى مصر من زاوية أخرى، ولكن كليبر يبلغ بعد ذلك – فى

الحادى والعشرين من يناير ١٨٠٠- أن الجند الفرنسيين قد سلموا العريش للأتراك، ولم يكن ذلك وحده كافيا كمصيبة، فقد زاد الأمر سوءا أن منهم من انضم بالفعل إلى الجيش العثماني.

ونرى كليبر الذى عرف أخيرا أن بونابرت قد استولى على حكومة «الإدارة»، وقد أرسل خطابا آخر، فى الثامن والعشرين من يناير ١٨٠٠، موجها إلى تلك الحكومة ولم يدرك بعد أن اسمها نفسه قد تغير إلى «حكم القناصل»، ويشكو كليبر فى هذا الخطاب مرة أخرى من المقاومة التى يلقاها من البكوات (المماليك) ومن «شعب ثائر» من البديهى أنه يعمل له ألف حساب.

وبعد ذلك بيومين، يعيد كليبر الكلام نفسه فى خطاب آخر إلى حكومة «الإدارة»، يشكو فيه من استمرار خطر «البكوات» وأنصارهم فى مصر العليا على وجه الخصوص، وهو كلام له أهميته بالنسبة لما قيل مرارا عن سيطرة الفرنسيين عليها، بينما مراد بك يمثل الخطر الدائم هناك. وفى الصفحة التالية، نجد مرة أخرى الشكوى من خطر «العرب وسكان البلد» ولكنه يشكو أساسا من «أنه يكفى للرد على الأفكار المبالغ فيها عن إيراد مصر السنوى، ذكر ما تركه الجنرال بونابرت من ديون تصل إلى أحد عشر مليونا، مع أنه وجد، عند وصوله إلى هذا البلد، موارد هائلة قد نضبت كلها فى الوقت الحالى».

يعرفنا مرة أخرى أن «الحملة على مصر التى أصبحت مهملة كلية، أصبحت أيضا اتهاما صريحا ضد من أمر بها»، ولا يفوت شوفينية كليبر أن ينهى تقريره الأليم بالكلمات التالية: «أيا كان، فالجيش

الفرنسى ترك عند السكان (المصريين) أثناء وجوده في مصر، أحسن ذكرى لانتصاراته، وذكرى العدالة والاعتدال اللذين حكمنا بهما، والإحساس بقوة الجيش وسلطة الأمة التى ينتمى إليها، الاسم الفرنسى سيظل محترما ليس فقط فى هذا الإقليم من الامبراطورية العثمانية، بل فى الشرق كله»، يبدو أن كليبر قد نسى ماكتبه هو نفسه عما اقترفه هذا الجيش في يافا وكل فلسطين من فظائع، ولن ننسى مقارنة هذا الكلام بما سنقرؤه، بقلمه عن معاملته للمصريين، وقد اكتفت الذاكرة الفرنسية بهذه الجمل الإنشائية الرنانة لتؤكد بعد ذلك محبة المصريين لجيش كانت له تلك الصفات، صفات لم يذكرها إلا كليبر نفسه.

ومما يؤكد هذا الكلام، الخطاب الذى وجهه كليبر إلى أعضاء ديوان القاهرة، وقد أوشك على انهاء مفاوضاته للخروج من مصر، دون أن يدرى أن رفض انجلترا لشروط معاهدة الجلاء، سيجبره على البقاء.

إنه يقول لهم ماسبق أن قرأناه في مذكرات «مواريى»، وكان ذلك فى الأول من فبراير ١٨٠٠، يتكلم كليبر عن الذكرى العطرة التى سيتركها عدل الفرنسيين وسط الشعب الذى حكموه بتعقل وحكمة. ويزيد علينا، لنعرف لغة الذئب عندما يتحدث إلى ضحاياه، يزيد علينا واجب قراءة الأسطر الأخيرة من الخطاب: «إن شعوب مصر، الذين تبعوا نصائحكم قد انصاعوا لأوامر السلطة: إن الوفاق الذى دام دائما بيننا وبينهم ماهو إلا نتيجة جهدكم ومكافآته، وأرجو ألا تكدر هذه الوحدة حتى تنفيذ بنود المعاهدة، وإذا ظهرت أية اضطرابات غير متوقعة لتعكر صفاء هذه الوحدة، سأضطر إلى قمعها بالسلاح . والسلام».

وهكذا انتهى الخطاب، وقارىء التاريخ يعرف ماحدث، إذ فشلت المباحثات ثم قامت معركة عين شمس، وتلتها مباشرة ثورة القاهرة الثانية التي استمرت شهرا كاملا على الرغم من تحذيرات كليبر، ولكننا نرى هنا أن «الديمقراطية» التى علموها للديوان لا مكان لها فى هذا الخطاب، فالأمر واضح بالنسبة للمهمة التى كانت موكلة للديوان وأعضائه.

ومن خطاب فى الخامس والعشرين من فبراير ١٨٠٠، نعرف من كليبر أن الفرنسيين قتلوا شخصا وأنه يخشى نتائج تلك الجريمة. ولذا، ونظرا لدخول «ثلاثة أيام العيد» فلابد أن يكون الاحتياط على أشده، و«ألا يخرج جندى واحد من مركزه أيا كان السبب (....) حتى يسود الأمان المدينة (القاهرة)» ، فالتوتر إذن مستمر، والخوف من الثورات قائم باستمرار، فعلى الرغم من أن الشعب مهزوم إلا أنه مازال يقاوم، ويشكل خطرا دائما، كما سبق أن فهمنا أيضا من الخطابات والتقارير السابقة كلها.

ونفهم من خطاب كتب فى الثامن والعشرين من فبراير ١٨٠٠ أن كليبر عرف أخيرا أن بونابرت هو المسيطر الوحيد على الأمور، فى فرنسا، وأن أسطورة الحملة قد بدأت تنتشر على غير حقيقة الأمور، ثم يكتب كليبر إلى وزير الحربية فى فرنسا، من بين طلباته، أن يعّرف «اليوم للجمهور المخدوع ما كان ينوى أن يقدمه مزينا بأبهج الألوان».

ونفهم من خطاب لـ «مينو» فى الرابع والعشرين من مايو ١٨٠٠ أنه

يأمل فى تأدية مهامه «عندما يهدأ البلد» مما يؤكد استمرار حالة القلق، بعد شهر من نهاية ثورة القاهرة الكبرى التي كانت قد انتهت فى أبريل.

ونكتفي بهذه النماذج لنعطى صورة سريعة لما كان يعانى منه الجيش الفرنسى فى مصر بعد سفر بونابرت، مما نستخلصه من الكتابات الرسمية وغيرها، وقد فضلنا ألا نلجأ إلى ما كان يكتبه المفاوضون الإنجليز لرؤسائهم عن حالة أعدائهم، فقد يكون فى كلامهم مبالغة، أو نية معينة، نظرا لظروف وجودهم وسط الفرنسيين آنذاك.

وقد يبدو بعد ذلك أمر الأحوال المالية للفرنسيين واضحا، لايحتاج إلى الكثير من نماذج الخطابات؛ فالخطابات التى تتحدث عن الحالة الاقتصادية للجيش تكاد ـ لكثرتها ـ تملأ كتابا خاصا بها، فلا نكاد نقرأ خطابا إلا ويشكو من الاحتياج الملح، ثم نقرأ أمر إرسال فرق لمصاحبة من كان مسئولا عن جباية الضرائب التى لاتنتهى.



فريسة تلهث وتستغيث والصياد على وشك النيل منها، وما من مساعدة تكفى لإنقاذها، هذا هو الانطباع الذى يخرج به القارىء بعد كل هذه الخطابات التى لاتكف عن طلب المعونة، وهى دائما معونة مالية لاتكفى إعاشة آلاف من الجند فى حالة تأهب مستمر، والمعونة الوحيدة هى الضرائب والتعسف فى المطالبة المستمرة، سواء كان ذلك من حق دولة الفرنسيين أم لا، فقد تكفل العثمانيون مثلا بتحصيل الضرائب على أن يكف الفرنسيون عن المطالبة بها ما داموا على وشك الخروج من مصر، سيتكفل الأتراك بمعيشتهم، ولكن هذا البند من المفاوضات لم

يمنع كليبر من المطالبة بجمع مايمكن جمعه والاستيلاء عليه، وتتلاحق الطلبات حتى يعجب القارئ للمرة الألف بعد المائة، من أين كان المصريون يدفعون كل هذا؟ ولا يفوتنا أن الأمر لم يختلف عما قرأناه في الجزء الأول من خطابات كليبر، بعد نزول الفرنسيين إلى الإسكندرية مباشرة.

فمنذ الخامس من سبتمبر ١٧٩٩، أي بعد سفر بونابرت مباشرة، يكتب كليبر أنه لم يجد مليما واحدا في خزائن دولته.

ونفهم التوتر الذي يسود الخطابات التي يطلب فيها مثلا، وقف بناء فنار كان بونابرت قد أمر بإنشائه قبل سفره، لأن بونابرت «لم يترك عند رحيله مالية مزدهرة تسمح بأن نهتم، بمثل هذا المشروع الفاخر»، وكان هذا الكلام في السادس عشر من سبتمبر ١٧٩٩، وقد يكون هذا هو السبب الذي جعله، في السادس والعشرين من الشهر نفسه، يأمر أن يكون نصف قوافل البدو من نصيب الفرق التي ستستولي عليها، وكأن الجنود قطاع طرق، لايحاربون إلا من أجل الغنيمة. ولكن، ألم تكن تلك هي الحال عندما كان الجيش نفسه يحارب في إيطاليا تحت قيادة بونابرت؟ ؛ وكانت ضروريات الاقتصاد تحتم على كليبر أن يأمر الجيش، في الثلاثين منه، بارتداء زي قصير، حتى يقتصد في النسيج المطلوب وبتلاحق المتناقضات، فنرى كليبر، مثلا يستمع في الثامن من أكتوبر «لسكان المنصورية الذين يشكون أن الفرنسيين قد استولوا على بهائمهم، فلا بد من وقف مثل تلك الأفعال، والتفاهم معهم بالنسبة لما هو ضروري لنا. وفي مثل تلك الأحوال فإن السياسة الوحيدة الرشيدة أن

يعطونا ولا نأخذ منهم»، نراه بعد هذا الكلام الجميل فى الثانى والعشرين من نوفمبر، أى بعد شهر ونصف الشهر، يأمر أحد قواده الحربيين، بالآتى: «من الضرورى أن تعيشوا على موارد البلد، سواء كان ذلك بالاستيلاء أو بأية طريقة أخرى، وإذا رأيت أن بإمكاننا الحصول على مؤن للتخزين، فعليك أن تصدر الأوامر الصريحة بذلك، وتجعلها تحترم بطريقة صارمة»، وكان أى تصرف يراه الفرنسيون فى غير صالحهم، يجازى بفرض ضريبة جديدة، تدفع بمساندة الجيش، الذى يرسل مع المسئول عن تحصيلها، قد يلخص الموقف ماكتبه كليبر فى الثانى والعشرين من يناير ١٨٠٠، بتعبير لانستغربه بعد كل ما قرأناه من وسائل شتى للحصول على المال، فهو يقول: «عزيزى الجنرال، علينا الآن أن نعصر مصر كما يعصر «الشريتلى» الليمونة، وبعد أن نقوم باستخلاص كل شىء، من نقود إلى عينيات فإننا بالكاد، نكون قد حصلنا على ما نحتاج إليه فى هذه الظروف»....

و«عصر الليمونة» كان كما سبق أن عرفناه، هو، اللفظ الذى استعمله سياسى مرموق أيام حروب الثورة التحريرية، وهو يتحدث عن الدول التى تم «تحريرها»؛ وبالتالى، فكليبر باستعماله هذا التشبيه البليغ، يعبر دون أن يدرى، عن سياسة فرنسا فى كل البلاد التى ذهبت إليها جيوشها. والعجب أن يأتى هذا الكلام بعد كل ما قرأناه من وسائل الضغط للحصول على المال، فقد كنا نظن أن البلد قد «عصر» إلى آخر قطرة فيه، وسيزداد «العصر» عنفا بعد الثورة الثانية للقاهرة، فالفريسة مازالت تلهث: حكمت عليها الظروف، وانتصارها فى عين شمس على

العثمانيين أن تبقى تلهث فى بلد سبق أن تم «عصره» إلى آخر قطرة وما من أمل فى الحصول على عون من أحد.

قد تشرح لنا هذه الخلفية عن حالة الفرنسيين، ما سنراه الآن من معاملة كليبر للمصريين؛ هؤلاء المصريون الذين لاوظيفة لهم فى الحياة، إلا الإنفاق على الجيش الفرنسى.

★★★

كان فرض الضرائب وسياسة الاستيلاء يجعلان كليبر يتحدث طوال الوقت عن «الأقباط»، هكذا كان يسمى تلك الفئة من المصريين الذين تولوا - بمساعدة الجيش الفرنسى - تحصيل الإتاوات والضرائب، لأن البكوات من المماليك، كانوا يوظفونهم للغرض نفسه، مما يعنى أنهم فئة معينة من أقباط مصر، وهى فئة الذين يتولون شئون الحسابات، وقد أصبحوا الملتزمين لدى الجيش المستعمر، الذى كان يبيح لهم حق تحصيل الضرائب. وقد كانت سيطرتهم تامة على اقتصاد البلاد، حتى جعلت منهم المتحدثين الرسميين للشئون المالية للجيش الفرنسى أثناء المفاوضات مع العثمانيين، ونرى كليبر يبلغ فى خطاب بتاريخ الثلاثين من يناير ١٨٠٠ أن «الوزير العثمانى قد طلب أن يذهب أهم الأقباط إلى الصالحية، بعد مداولتهم مع مصطفى باشا، ليدبروا أمر المعاهدة، فيما يخص مؤن الجيش الفرنسى».

وقارىء الخطابات يصل إلى درجة الإشباع من كثرة تردد اسمهم، وكأنهم جزء من المستعمرين، فمصالحهم واحدة، وهؤلاء «الأقباط»

لايتحركون إلا بمساعدة فرق حربية، عرفنا سابقا من «فيفان دينون» كيف كانت تتصرف مع الفلاحين للحصول على المال المفروض عليهم، ففى السادس والعشرين من فبراير ١٨٠٠ مثلا، نقرأ: «إليك المرسوم التالى، الذى يفى بالترتيبات مع الأقباط، حتى يدفعوا للخزينة، شهرا بعد شهر، مبلغ مائتين وخمسة وستين ألف «باتاك» (١٢)، على حساب ضرائب مصر العليا والسفلى، ومن الضرورى حمايتهم وتوفير القوة المسلحة التى قد يحتاجون إليها ليستطيعوا الوفاء بمستلزماتهم، هذا ما أرجو أن تفعله، أن تربط هذه العملية المالية بتحركاتك الحربية، وبقدر المستطاع» . وفى الثامن عشر من يناير ١٨٠٠ : «عليك أن تمتنع عن دفع أية مصروفات لأى من خدمات المهندسين أو المشاة، فالمال كله لابد أن يذهب إلى البحرية، عليك أن تضغط على الأقباط، وتلح عليهم بالتهديد، كى يحصلوا لك على المال...» . وفى الثانى والعشرين من يناير ١٨٠٠: «اضغط على الأقباط، وهددهم، وأرسل ثلاثمائة رجل من المشاة ومدفعين للجنرال دوجوا، لا لشىء إلا لتحصيل الضرائب سواء كانت مالية أو عينية»، ولنتخيل ما فعله المدفعان فى تلك المعركة مع الفلاحين.

ثم تتغير لهجة كليبر مع «الأقباط» شيئا فشيئا، فهو مقتنع بأنهم يسرقون المال، فيبدأ فى التهديد بقطع رأس من يتأخر منهم عن دفع ما اتفق عليه؛ ثم نراه يشكو منهم عندما يرسل تقريرا إلى «القنصل الأول بونابرت» فى التاسع عشر من مارس ١٨٠٠، لأنه اكتشف أن «الأقباط قد خدعونا بأبشع طريقة فهم يقسمون إيرادات مصر إلى ثلاثة أجزاء:

ثلث للفرنسيين وثلث لهم، والثلث الأخير كانوا يرسلونه للبكوات والمماليك الهاربين.... إلخ إلخ إلخ»، والاسم الوحيد الذى لم يشك فيه كليبر يوما هو اسم المعلم يعقوب، الذى يتفوق حتى على حسن طوبار، رجل الفرنسيين الآخر فى مصر، والذى كان قد بدأ مجاهدا خطرا ضدهم... ثم تحول إلى مساعدهم الأكبر، ويتقاسم هذا الشرف اسم آخر، هو اسم حسين كاشف.

★★★

ولنا أن نتخيل كيف تكون العلاقة مع باقى المصريين ، بعد أن رأينا أنهم لايعاملون إلا «كليمونة» ماخلقت لغير العصر، أو نراهم أمام المدافع يدفعون المزيد من الضرائب، وقد يكون أول ما يلفت نظرنا وسط هذا الكم الهائل من الرسائل والمخاطبات الرسمية وغيرها، ما أرسله «ديوان القاهرة» إلى قائد القاهرة فى لغة ركيكة هى ترجمة خطابهم إلى الفرنسية : «تلقينا خطابكم الخاص بالمظالم التى تحدث فى المدينة، والذى تطلب فيه من الديوان ألا يخشىء شيئا ، فأنت تظهر الحق دائما، لأنك مجبر على توفير العدل للشعب ، خاصة الفقير . وما أجمل النظام الذى تهديه اليوم إلينا ، لقد فرح به كل شخص . وسنخبرك من الآن فصاعدا ، كما أمرتنا ، بكل المظالم التى سبق أن حدثت، لتعرف كل الشرور التى تقع علينا فى المدينة، وذلك دون خوف من أى شخص، مادمت تساندنا بسلطتك، لأن واجبك أن تعرف الشعب بواجباته، والحكومة باحتياجاتها ، مما لابد أن يدركه كل عضو يعرف ما حدث فى المدينة . ونحمد الله على النظام الذى أعطيتنا إياه . حفظك الله»، وتاريخ

هذا المكتوب السابع عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، ويبدو إيجازه غريبا على ذلك العصر ، وقد يكون فى هذا الإيجاز أبلغ تعبير عن الشكوى المكتومة «لما يحدث علنا فى المدينة» ، ناهيك عن «واجبات الشعب واحتياجات الحكومة» !

ومع هذا الخنوع الظاهرى ، وفى خط مواز له ، نجد فى التقرير الذى سبق أن قرأنا جزءا منه ، المرسل في سبتمبر (أى فى الشهر نفسه) إلى حكومة «الإدارة» : «التعصب الإسلامى ضدنا لا يروض بأية وسيلة . فهذا الشعب لا يرى مسيحيين يحكمونه إلا بصبر نافذ ؛ ولا تمنع أقسى العقوبات سكان القرى من الثورة عند سماع أى خبر فى غير صالحنا أو أى فرمان ضدنا ينشر بينهم» . فالمدينة والقرى إذن فى حالة من التأهب للثورة ضد مظالم الجيش المستعمر ، ومذكرات «مواريى» أحسن دليل على تلك الحال من التذمر المستمر الذى ينبىء بما سيحدث فى ثورة القاهرة الكبرى بعد ذلك بأشهر معدودة ، بينما حركات التمرد فى الريف مستمرة .

وفى خطاب بتاريخ الخامس عشر من سبتمبر عام ١٧٩٩ ، نقرأ كلاما غريبا ، إذ يتساءل فيه كليبر عما إذا كان «حسين أغا قد دفع الخمسة آلاف «تاليرى» ثمنا لحريته (...)، والسؤال نفسه بالنسبة لمصطفى بشتيلى ، المحكوم عليه بأربعة آلاف وخمسمائة «تاليرى» ، حسب التقرير المرسل عن سجناء القلعة . وأنا أرى أشخاصا كثيرين آخرين مستعدين لشراء حريتهم» .. فكل شىء بثمنه، والحرية أولا التى

تستعمل كسلاح لإجبار المصريين على دفع ما يفرض عليهم من إتاوات، أو ربما فقط كثمن لإخلاء سبيلهم بعد القبض عليهم لسبب آخر .. أو حتى دون سبب . وهذا هو مفهوم «الحرية» التى تعلمها المصريون من الجيش الفرنسى ؛ ونلاحظ أنها المرة الوحيدة التى تستعمل فيها كلمة «حرية» ! وفى مكتوب آخر بتاريخ السادس عشر من سبتمبر، أى بعد ذلك بيوم واحد، نفهم أن الشيخ السادات قد تم احتجازه لدفع كل ما يملك . فكليبر يقول : «سيعاد إليه كل شىء ماعدا ثلاثة مراكب سننظر فى أمرها ، حتى أعرف إن كانت لازمة ضرورية لإعادة الجسر، ....، إن نيتى، بصورة عامة، هى احترام المؤسسات الدينية الخاصة بالإنفاق على المساجد ومشايخها ، ولذا، فمثل هذه الطلبات من أجل استرداد هذه الأشياء لابد أن تقبل دائما» . والنية حسنة ، حتى لا يثور الرأى العام ؛ فالمؤسسات الدينية لابد أن تحترم ، وكانت تلك هى سياسة بونابرت من قبل ؛ ولكن كلام كليبر يدل على أن الاستيلاء يتم أولا، ثم ينظر فى الأمر فيما بعد .

وكثيرا ما تصدر الأوامر لمعاقبة القرى التى لا تفى بطلبات الجيش، وهى طبعا فى تناقض مستمر مع النيات الحسنة ؛ ونأخذ كمثل لها الأمر الذى صدر فى اليوم نفسه لمعاقبة قريتين لم تمتثلا لأمر صرف الغلال والحبوب التى يحتاجها الجيش . وتلفت نظرنا جملة فى خطاب بتاريخ السابع عشر من سبتمبر ، تبدو لنا بليغة فى تعبيرها ؛ إذ يقول كليبر للقائد الحربى فى دمياط : «لن نخشى أى نزول (للأعداء) على

الشواطيء لمدة ستة أشهر ، وبالتالى ، فإن لديك من الفرق ما يسمح لك بالسيطرة على البلد وتحصيل الضرائب» .. فالضرائب لا تحصل إلا بمعونة الجيش وباستخدام القوة ، ولابد من «السيطرة على البلد» أولا؛ كلمات تتكرر لدرجة الملل ، فلا ضرائب دون قوات مسلحة بكامل أجهزتها الحربية، ولا فرقة حربية دون تحصيل ضرائب . ولا يسع القارىء إلا الابتسام بمرارة ، عندما يكرر كليبر أسفه لما يقترفه الجيش من أعمال، كالذى نقرؤه مثلا فى خطابه إلى قائد المنيا الحربى، فى الثامن والعشرين من سبتمبر، يقول فيه : «كان أمرا رائعا أن تعاقب القرى المتمردة ؛ ولكنه أمر مؤسف أن نضطر إلى مثل هذه الوسائل؛ ورأيى أن الدرس المرعب الذى أعطيته لهم سيكون عبرة وستكون نتيجته قطعا ما ننتظره (من الآخرين)» . ولا ندرى إن كان واجبا على القارىء أن يشكر كليبر على تلك المشاعر الرقيقة .

وثمة خطاب يبدو غامضا للقارىء ، إذ يقول فيه كليبر لقائد من قواده «المواطن شامبى يطالب أن يكون لتلاميذ المدرسة نصيب من الملابس التى توزع على الفرق . ولا يسعنا إلا الموافقة على طلبه ؛ ولذا أرجو أن تصدر الأوامر حتى يحصل كل تلميذ على زى كامل بأقصى سرعة» . فما تلك المدرسة التى لم نسمع عنها ، اللهم إلا إن كانت المدرسة التى يتعلم فيها المماليك الذين استولى عليهم الفرنسيون ، أو انضموا إليهم ، أو الأقباط الذين اختارهم المعلم يعقوب ، ليتعلموا نظام فن الحرب الغربى ، ونحن نميل إلى هذا الشرح بسبب أمر إلباسهم زيا

كباقى الفرق، خاصة أننا لم نقرأ ما يفيد أن الفرنسيين علموا المصريين أى شىء، أو فتحوا لهم أية مدرسة .

نجد أيضا وصفا شاملا لحالة الشعب المصرى ، فى التقرير الذى أرسله المسئول الذى سبق أن استعنا بمكتوبه، والذى أرسل إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من أكتوبر عام ١٧٩٩ ؛ يقول فيه مراسلنا كيف خُدع الفرنسيون فى موارد البلد حتى أن «خمسة عشر شهرا من الأبحاث والتجارب من قبل رجال مستنيرين ، لم تستطع حتى الآن محو هذه الانطباعات الخادعة (عن ثراء البلد)» فمجمل العائد «بصرف النظر عما يسرقه - بكثرة - الأقباط ، الملزمين بتحصيلها ، يوازى بالتقريب أربعة عشر مليونا لاغير» ، وقد «حصل الجنرال بونابرت، عند وصوله ، على أربعة ملايين تقريبا، من الشعوب المختلفة والتجار، ومن الضرائب غير العادية ،...، ولم تعد الظروف تسمح لنا بعمل المثل ، وعلى الرغم من ثوراته العديدة ضدنا ، فإن الشعب المصرى يمكن أن يعتبر شعبا وديعا ولكنه كتوم ، ولا نستطيع أن نقول إنه يحبنا، مع أننا عاملناه أفضل، بكثير، مما يعامل به أى شعب مهزوم ، ولكن اختلاف التقاليد ، خاصة الدين ، واختلاف اللغة عوائق لا حيلة لنا فيها ولا تسمح بأية عاطفة صادقة ،...، المصريون يبغضون المماليك ويخشون سيطرة قسطنطينية، ولكنهم سيفضلون حكمنا على حكم أى من الدول التى يسمونها مسيحية» .

«ولنا فى كل مكان عشرة آلاف عدو خفى ، وصديق واحد ظاهرى» ،

وماهذا إلا نموذج لما ينفرد بشرحه هذا التقرير الطويل الذى يصعب تقديمه للقارىء كاملا .

ويبدو أن حدثا جللا وقع فى دمياط ، لأن قائدها مينو يكتب إلى كليبر فى الثالث من نوفمبر قائلا : «كان لحادثة دمياط أحسن تأثير، فمن كان ينوى أن يرفع رأسه منهم، يحاول أن يخفيه الآن بين سيقانه» ؛ ولا نعرف ما الذى فعله حتى يصل إلى هذه النتيجة ، ولكننا نتخيله بسهولة .

وتتوالى الخطابات ، ويتغير الكلام والأهداف هى نفسها ؛ فلا نجد ضرورة لتكرارها . غير أن هناك بعض كلمات لافتة للنظر ، مثل الأمر الذى صدر ضد من تبقى من سكان بولاق على قيد الحياة، بعد المجازر والحرائق التى أعقبت ثورة القاهرة الثانية ، وذلك فى السادس عشر من إبريل عام ١٨٠٠؛ إنها المبالغ الباهظة المطلوبة ، على أن تدفع فى ظرف عشرة أيام لا غير . والذى يقرأ تلك الأوامر يتأكد أن «الليمونة (كان يتم) عصرها» بطريقة منظمة ومستمرة فى كل الظروف ، ومن توابع الثورة ، ذلك الخطاب الدورى إلى الجيش فى التاسع عشر من مايو عام ١٨٠٠، الذى يدل على أن الاضطهاد مستمر يوميا: «يتلقى القائد العام التماسات وشكاوى من سكان مدينة القاهرة يوميا ، بسبب اهانات وابتزازات أخرى يمارسها قواد المناطق بطريقة تعسفية؛ وتدلنا تلك الشكاوى ، على وقوع تجاوزات أخرى مشينة، فهناك إفرنج ومسيحيون آخرون يدعون أن أشياء تخصهم قد سلبت منهم أثناء الثورة ، يذهبون إلى هؤلاء القواد زاعمين - بحق أو

دون حق – وجـود تلك الأشياء في منازل محمديين (مسلمين) وبناء على ذلك فإن هؤلاء القواد يصدرون أوامراهم بفتح تلك المنازل ، ويسمحون للمسيحيين – دون أى أمر رسمى – بأخذ الأشياء التي يدعون ملكيتها . مثل هذا التصرف لا تكون له إلا نتيجة واحدة، ألا وهي نشر الذعر والرعب فى النفـوس بدلاً من عودتها إلى السكينة والثقة التى توطد الهدوء العام، ولابد من وقف مثل تلك التصرفات فورا»، ولم نسمع عن معاقبة أحد بعد ذلك ..

إن قارىء التقرير الذى أرسل إلى فرنسا عن كبح الثورة ، والوصف السعيد لكل الفظائع التي اقترفها الجند أثناء ذلك كى يشفوا غليلهم ، لن يعجب – هذا القارىء – إذا ما ارتكب بعد ذلك ما يراه كليبر «مشينا» ، فمن الطبيعى أن تتحول القاهرة إلى مرتع لكل من أراد أن ينتقم لنفسه من جار أو صديق لأمر ما؛ وترشدنا مساعدة الضباط الفرنسيين إلى ما كان يحدث غير ذلك من تصرفات ، فى مدينة هزمت وأحرقت وأذلت؛ وكان كليبر نفسه يرى أن انتقام الجند منها كان أمرا مشروعا ، ومن حق الجيش المنتصر .

وبعد تلك اللفتة «الإنسانية» ، تكون الأوامر التى ترشدنا إلى معنى «السكينة والثقة» عند كليبر ، وهى الأوامر التى تخص حادثة القبض على الشيخ السادات وضربه ؛ تلك الحادثة الشهيرة التى أثارت الرأى العام، آنذاك ، بصورة فجة .

وأول حديث عنها ، تجده في خطاب العاشر من مايو عام ١٨٠٠

الذى يقول فيه كليبر : «بناء على خطاب المعلم يعقوب ، سترسل ضابطا من القيادة العامة إلى القلعة ، ليبلغ الضابط «دوبا» أن يأمر بتجهيز عدة ضرب العصا الخاصة بالسادات البخيل؛ ولحظة تنفيذ ضرب السادات ، يدخل ضابطك إلى السجن، ويسلم «دوبا» أمر وقف تنفيذ الحكم ، ويؤخذ المجرم إلى منزله ومعه عشرون جنديا تحت قيادة ضابط مسئول مسئولية تامة عن السجين ، وكذلك تابعى الذى ستحمّله أنت شخصيا هذه المسئولية . وسيقال للسادات إنه إن لم يدفع فى ظرف ستة أيام من اليوم ، مبلغ مائتين وخمسين ألف «باتاك»، سيرسل مرة أخرى إلى القصر (القلعة) هو وزوجته ولن يخرج منه» . ونذكر هنا أن السيد كريم كان قد اتهم هو أيضا بالبخل عند الحكم عليه بالإعدام. من البديهى أنه قد قبض على الشيخ السادات بعد وشاية من المعلم يعقوب. وبعد تلك الأوامر، نجد خطابا طويلا من الشيخ السادات بلا تاريخ، موجها إلى «القائد كليبر» ، يذكره فيه: «لقد كنت دائما صديقكم منذ وصول القائد العام بونابرت والفرنسيين إلى القاهرة» ؛ وأن ما أخذه منه المحروقى لم يكن إلا سلفة ؛ وأنه فى الثامنة والستين من عمره ولم يضربه أحد فى حياته ، «ولا والدى ولا من ربونى» ؛ ويذكره أيضا أنه من بيت كانت له مكانته منذ خمسمائة عام، وأن الجميع ، حتى الأمراء كانوا يحترمونه . وأن الجنرال بونابرت نفسه قد أحبه واحترمه . فهو يتوسل إليه لأنه يضرب فى اليوم مرتين ، وأن على من يتهمه بأن لديه مالاً يخفيه، أن يخرجه بنفسه . وبعد ذلك بصفحات عديدة ، نجد خطابا بتاريخ الثانى والعشرين من مايو عام ١٨٠٠، يفيد بالآتى :«فليصدر

الجنرال (داما) أوامره حتى تسلم زوجة الشيخ السادات الى الشيخ سليمان الفيومى . وسيرحل الشيخ السادات نفسه إلى القلعة ، وله حق اختيار خادمين» . ثم «إلى قائد القلعة فى الثانى من يونيو عام ١٨٠٠ .. فليترك الشيخ السادات لشأنه مادام مصرا على موقفه ؛ ولكن عليك مراقبته حتى لا يستطيع الهرب» . هكذا كان يعامل صديق الفرنسيين .. فما بالك بالآخرين .

وقد اعتبر الناس ، فى ذلك الوقت ، ما حدث للشيخ السادات وهو من أكبر مشايخهم ، رمزا لما يعانون من تعسف . ولهجة الاحتقار التى يستعملها كليبر فى الحديث عن السادات تفى بما يكفى لنتخيل كيف كان يعامل باقى المصريين ، إن كانت تلك معاملته لأحد كبارهم .

★★★

وهناك – من ناحية أخرى – قصة الفرنسيين والمماليك، وأشهرهم طبعا مراد بك ، ونكتفى بقصتهم معه . فكل الخطابات تدل على أنه وأنصاره كانوا يمثلون ، دائما، خطرا محدقا يهددهم ويمنعهم من السيطرة على مصر العليا ، أى الصعيد ، ويحرمهم من خيراتها . ونفهم – سواء كان ذلك من التقارير المرسلة إلى فرنسا ، أو الأوامر المرسلة إلى القواد الحربيين – أن البدو ومراد بك ومماليكه ، لا يتركون الفرنسيين يهنأون بالراحة يوما واحدا ؛ وإذا ما انتصر عليه الفرنسيون فى معركة واحدة ، فهم فى كل مرة يأسفون لأنهم لم يستطيعوا الإجهاز عليه . فالفر والكر كانا أساس

هجومه ، مما جعله هو وجنده كالسراب ؛ كلما لحق بهم الفرنسيون ، اختفوا ، أيا كانت خسائره ، وكانت دائما ضئيلة . ونعرف من خطاب بتاريخ الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٧٩٩ ، أن ثلث الجيش الفرنسى يتمركزون فى الصعيد من أجل محاولة القضاء عليه ، مما كان يضعف طبعا الجيش الفرنسى كله ، ويدل على أهمية مراد بك وخطره عليهم .

ولكن الأمور تتغير عندما تدخل المفاوضات مع العثمانيين والانجليز فى مرحلتها الحاسمة ، وينتظر الجميع – وأولهم الفرنسيون – أن يحل الجيش العثمانى محلهم فى مصر . ولذا ، لا نعجب عند قراءة الخطاب التالى ، المرسل من مراد بك ، إلى القائد الفرنسى الذى يحاربه . يقول له فى الثامن من فبراير عام ١٨٠٠ : « إلى الجنرال الفرنسى . كتب لى كل من الوزير (العثمانى) وإبراهيم بك أن السلام قد تم مع الفرنسيين ، وأن علىّ أن أمتنع عن أى فعل عدائى ضدكم . وعلى الرغم من ذلك ، إلا انكم مازلتم تطاردونني ؛ فإذا حدث مكروه فستكونون أنتم البادئون . لقد أخبرتكم بما حدث، وعليكم أن تتوقفوا عن مطاردتى وتأكدوا أننا فى هذه الحالة، لن نضير أى فرنسى . حامل هذا الخطاب سيفيدكم بالباقى». وفى الحادى عشر من فبراير ، يهنىء كليبر الجنرال الذى تلقى هذا الخطاب على قبوله «الهدنة التى عرضها مراد بك ، نتيجة المعاهدة مع الوزير (العثمانى)» .. ولا يمنعه ذلك من تهنئته مرة ثانية بعد ذلك بأسبوع، فى التاسع عشر من فبراير، عما «قام به ضد مراد بك وسكان

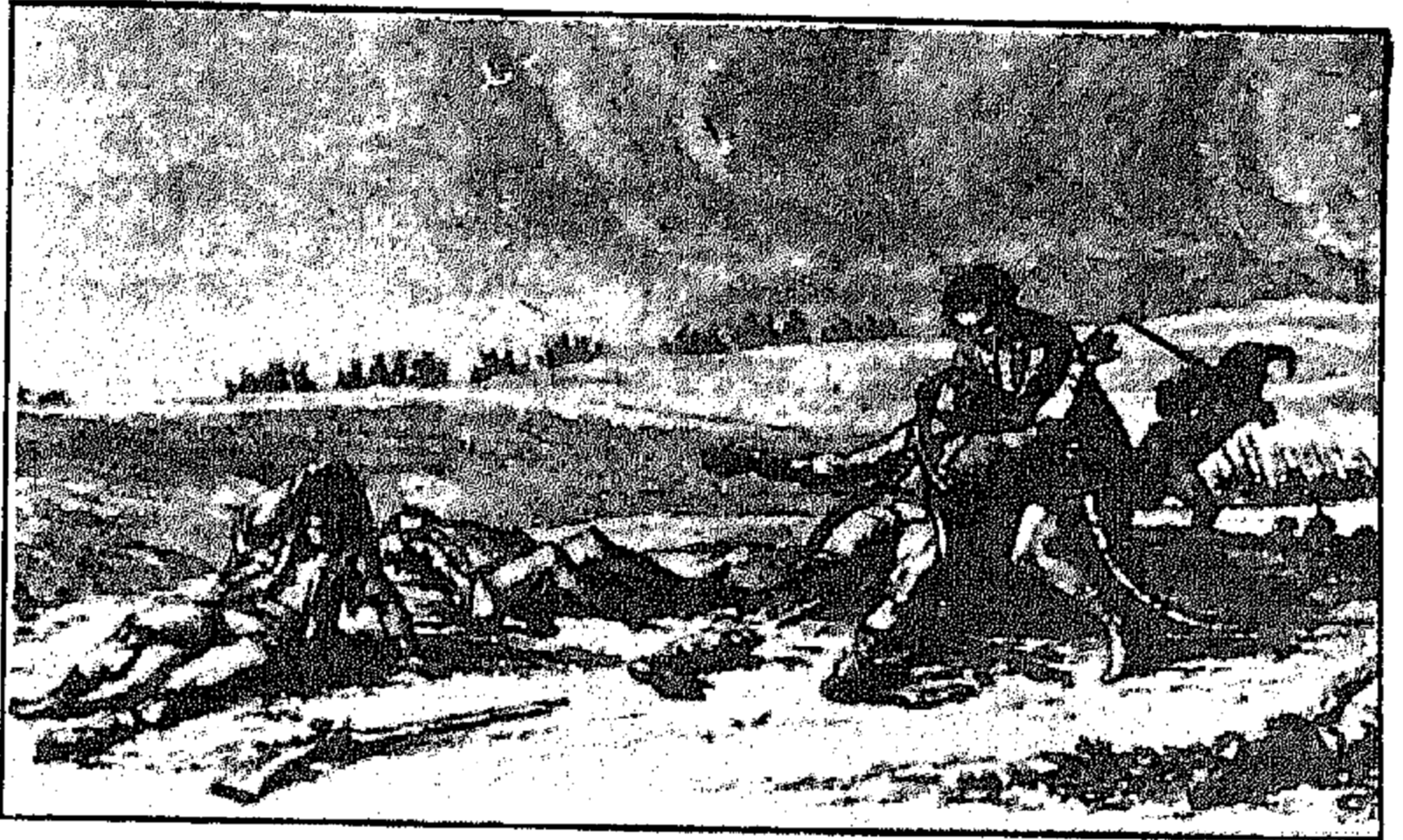
مقاطعة بنى سويف»، أى أن الهدنة لم تمنعهم من مُحاربة مراد بك. ثم تكون الخطوة التالية ، عندما ذهب سكرتير المعهد الفرنسى، كمندوب لكليبر، ليعقد اتفاقا مع مراد بك ، عن طريق زوجته «الست نفيسة»، ليعرض عليها صداقة الفرنسيين لو أن مراد بك انفصل عن قوات العثمانيين؛ إنه يعرض عليها أن يقتسم الفرنسيون الحكم على مصر مع مراد بك، إلى أن تنتهى الحرب فى أوربا ، فيترك له الفرنسيون الحكم على البلد كله . وينتهز الرسول فرصة وجوده مع «الست نفيسة» ليطلب عفو «جواريها وجوارى إبراهيم بك اللاتى يعشن مع الجنرالات الفرنسيين،خاصة تلك التى تعيش عندك (كليبر) والتى طلب منك الجنرال دوجا حمايتها» .

صدق «فيفان دينون» عندما قال إن الفرنسيين حرروا مصر من المماليك ، وحلوا مكانهم ! وكانت جوارى الجند أقل حظا . فقد أخذ أسيادهن فى بيعهم عند الرحيل ، وكانت البحرية الإنجليزية هى التى تشترى منهم كل شىء : السلاح والجوارى . هذا ما يصفه المؤرخ «ماكيزى» فى كتابه عن «النصر البريطانى فى مصر» .

ولنعد إلى الخطاب السابق ذكره ، لنقرأ البقية : «وعدت هذه السيدة أن تضم صوتها إلى صوت الشيخ الفيومى (...) حتى لا تصاب هذه الجوارى بأى أذى . سترسل «سيلون» إلى بيت الشيخ، ومما لاشك فيه أنها ستكون فى مأمن عنده. وقالت الست نفيسة إن الجنرالات الفرنسيين يعيبهم أنهم خطفوا أجمل جواريهم ، وكان خطأ هؤلاء



«معركة سيدمان جنوب الفيوم بجانب بنى سويف»
(نرى فيهما ماتكبده الفرنسيون من المقاومة المصرية)



الجوارى تغيير بيوتهن. ولكن لابد أن ينظر إلى هذا النوع من الأخطاء برأفة» . ولم نعرف ماذا سيحدث بعد ذلك لهؤلاء الجوارى ..

لن نعجب، بعد هذا الخطاب ، إن قرأنا فى التقرير الذى أرسله كليبر إلى الحكومة الفرنسية عن الأحداث التى مر بها هو وجيشه منذ فشل معاهدة العريش ؛ نقرأ بقلمه : «عندما وصلت شروط المعاهدة العريش، بعث مراد بك يطلب صداقة الفرنسيين»، والدليل عندنا أن العكس هو الصحيح . والأكاذيب التى ستستجد هى التى ستصبح الرواية الرسمية للتاريخ الفرنسى ، إذ يضع كليبر على لسان مراد بك بعد ذلك، ما يحلو له ليفخم دور القوات الفرنسية التى لم تستطع ، حتى آخر لحظة ، القضاء عليه والسيطرة على الصعيد ؛ وزيارة سكرتير المعهد إلى «الست نفيسة» خير دليل على ذلك . أما علاقة مراد بك بالفرنسيين بعد ذلك ، فالكل يعرفها لأنها جزء من التاريخ المعترف به من كل جانب.



ولكن ما لا يذكره التاريخ ، هو ما يبدو للوهلة الأولى كذبة كبيرة . فالمعروف أن كليبر كان يرفض فكرة تحويل مصر إلى مستعمرة فرنسية ، مما جعله على غير وفاق مع بونابرت . وبسبب تلك المسألة ، نجد كثيرا من الخطابات المتداولة بينه وبين مينو الذى كان يحبذ الفكرة، بل كان من أكبر أنصارها ، فكانت سبب خلاف عنيف بينهما. وقد قُتل كليبر بعد ثورة القاهرة الثانية بفترة وجيزة ، ويبدو أن عدم اهتمام الحكومة

الفرنسية بحاله هو وجيشه، ويأسه من الوصول إلى معاهدة مقبولة للانسحاب من مصر ، جعلاه يعيد النظر في خططه .. فكان المشروع التالى؛ مشروع جذب يونانيين إلى مصر ليقوموا بالدور الذى قام به الأوربيون والفرنسيون بعد ذلك فى الجزائر .

وأول تنويه عن الموضوع ، نجده فى خطاب بتاريخ السادس من مايو عام ١٨٠٠ ، أى بعد ثلاثة أسابيع تقريبا من نهاية ثورة القاهرة ، يقول فيه كليبر لأحد قواده : «أنا سعيد جدا أن تجنيد نيكولو قد نجح إلى حد ما ؛ احمه بقدر المستطاع ، هو ورئيس كنيسته بالإسكندرية لأننى أظن أن هذا هو العون الوحيد الذى يمكننا أن ننتظره ، ولو أن مامن شىء مضمون» .. وبعد هذا الكلام الغامض ، تتضح الرؤية فى الخطاب المرسل إلى قائد منطقة دمياط الذى نقرأ فيه : «استمر فى حماية المراكب اليونانية التى تصلك من الموانىء المختلفة (...) وقل لهم أن يخبروا مواطنيهم بأننا سنستقبل الذين يريدون الهجرة من بلدهم ليستوطنوا فى مصر ، بكل الحفاوة الممكنة . سألحق بالخدمة من كان منهم جنديا أو بحارا ، وسأعطى أرضا للفلاحين ، والتجار منهم سيتمتعون بأكبر قدر من الحرية ، وسيكون من حقهم بناء الكنائس فى كل المدن حيث سيكون لهم مطلق الحرية فى ممارسة طقوس دينهم علنا» .

ومرة أخرى، يكتب كليبر الكلام نفسه، ويقدم العروض نفسها، ولكنها لقائد الإسكندرية هذه المرة .

وقد يكون هذا المشروع ، حسب علمنا – والله أعلم – الوحيد الذى نراه فى حيز التنفيذ ، فى حالة استعمار مصر نهائيا ، ولا نرى فيه أى تنويه لأى من مبادىء الثورة أو تحضير الشعب المصرى وتعليمه .

★★★

وعلاوة على مشروع «عصر الليمونة» ، فهناك مشروع آخر لكليبر وقد نجح بالفعل . ففى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٧٩٩، صدر «للقائد العام كليبر» ، أمر من أربعة بنود: أمر كليبر فى بنده الأول، «بتشكيل لجنة وظيفتها جمع كل المعلومات التى تساعد على معرفة الحالة الراهنة لمصر؛ معلومات عن تقارير الحكومة، والقوانين، والعادات المدنية ، والدينية والخاصة، عن التعليم العام والتجارة» .. إلخ إلخ إلخ .. وفى الثانى والعشرين من نوفمبر عام ١٧٩٩ ، يزيد على مشروع اللجنة أن «الفرنسيين ،...، الذين زاروا مصر العليا ، بالنسبة للعلـوم والفنـون ،...، عليهم أن ينضموا إلى اللجنة لأن الهدف واحد، وهو جمع المعلومات لنشر التعليم والمشاركة فى بناء نصب أدبى جدير بالاسم الفرنسى».. يلى هذا، الإجراءات الإدارية لتنفيذ المشروع، دون أن نفهم بالضبط ماذا يعنى كليبر «بنشر التعليم» وأين؟!.. ويبدو أن الفكرة قد تبلورت مع الأيام، ففى الخامس والعشرين من نوفمبر ، يحدد أخيرا «الهدف الذى يجب الوصول إليه وهو إعفاء الأجيال القادمة من البحث – تحت أطلال القرون وفى بحر من الافتراضات – عما كانت عليه مصر فى المرحلة التى مر فيها الفرنسيون من عهد الملكية إلى عهد

الحكومة الجمهورية» .. وضحت هنا رؤية كليبر وهدفه ، وفهمنا إذن أن الفرنسيين هم المستفيدون من عملية «التعليم» السابق ذكرها . وأثناء مفاوضاته مع الإنجليز ، يطلب كليبر من المفاوض الإنجليزى فى السابع من ديسمبر ، إذنا خاصا للفنانين ورجال الأدب ، «فأوربا كلها لابد أن تنتفع بأبحاث غاية فى الأهمية ، قاموا بها فى هذه البلاد» . وعندما يرسل تقريرا إلى حكومة «الإدارة» فى التاسع من يناير عام ١٨٠٠ ، يتوقف طويلا عند «وصف مصر القديمة» . ويتحدث عن «الحيوانات والنباتات وكل المنتجات الطبيعية لهذا البلد ، التى درست ووصفت: نتائج هذا العمل ستثرى المجموعات الوطنية ،... هذا المشروع الأدبى ستستقبله حكومات أوربا كلها وسيكون له أحسن استقبال فى بلد ، تشجع فيه الحرية كل الفنون ،.... هذه الأبحاث عن الحالة الراهنة والحديثة لمصر تمثل أمرا مهما للفلسفة والسياسة» ..

يبدو كل هذا الكلام طبيعيا من رجل القرن الثامن عشر ، تلميذ فلسفة التنوير ، المتعطش لكل جديد ، ولمعرفة كل شيء، المهتم جدا بعرض النتائج مع المجموعات المعروضة بالفعل، فى المتاحف للجمهور الفرنسى لتعليمه . ولا يفوت رجل الثورة أيضا أن يعيد ما يعتبر من مستلزمات لغة العصر عن «الحرية» وإيجابياتها ، بينما كان حب العلم فى الحقيقة، ومعرفة كل جديد ، بل حتى وإنشاء المتاحف، من موروثات العهد الملكى ؛ بما فى ذلك الهدف «السياسى» الذى يكتب عنه كليبر . أيا كان ، فقراءة التقرير طويلة ، ولا يمكننا تقديمه بالكامل ؛ ولكن، علينا أن ننتقى الجمل التى تعتبر نواة لما سيصبح كتاب «وصف مصر».

فكليبر يبلغ الحكومة عن سفر أحد أعضاء اللجنة «الذى انتخبه كل زملائه بالإجماع ليتولى الإشراف على طبع كتاباتهم ،...، وقد رأيت أن أحتجز بجانبى ، وبأوامر واضحة ، أعضاء اللجنة الذين تكون أبحاثهم خاصة بالجيش ، وبمصلحته المباشرة» .. الكلام واضح ، ولا يحتاج لتعليق : هذه الأبحاث لها هدف مباشر فى مصلحة الجيش المستعمر .

وفى الأول من فبراير عام ١٨٠٠ ، يهنىء كليبر رئيس لجنة الفنون ، ويسمح له بمراسلة الجمعية الملكية بلندن «فالتداول المتبادل بين التنويريين مهم للعلوم ، ولا يجوز أن توقفه الحروب السياسية» ، مما يثبت أهمية البحوث العلمية بالنسبة للرجل ، بصرف النظر عن أية قيمة نفعية ، لأنه فعلا – وعمره كما سبق أن رأينا يؤهله لذلك – من تلاميذ مدرسة التنوير ، وقيمها العلمية المجردة حتى إن استفاد منها أيضا سياسيا وعسكريا .

ولكننا نلاحظ أنه يبحث أيضا عن المجد لوطنه ، فتلك الدراسات التى يفخر بها – وبحق – إن نشرت ، فهى فى واقع الأمر ، المكسب الوحيد الذى غنمته فرنسا من الحملة على مصر .

ولكن خطابا خاصا إلى أحد الوكلاء الفرنسيين ، فى الثانى والعشرين من مايو ، يجعلنا نظن أن الأمر فى حقيقته ، لم يكن منزها من الأغراض ؛ فكليبر يقول : «لقد تقدمنا كثيرا فى هذا الكتاب الشهير، الذى يخص طبيعة الضرائب فى مصر؛ ولا يبقى لنا إلا معرفة الكثير من الحقوق الصغيرة، غير المكتوبة ، والتى يبدو أن التقاليد قد رسختها ؛ ثم

معرفة النسبة المطلوبة من كل قرية ، وأسماء تلك القرى كلها ؛ كل هذا طويل جدا ، لأن علينا أن نعمل مع الأقباط» : هل كان يقصد بهذا ما أصبح بعد ذلك كتاب «وصف مصر» ؟ أم أن تلك الأبحاث كانت تخص ترشيد الضرائب كي تجمع بشكل أفضل فقط ؟، ولكنه يقول : «الكتاب الشهير» ؛ هل يضرب بذلك عصفورين بحجر واحد ؟ ممكن ..

أيا كان ، فإن كليبر قد مات ، وتولى مينو تنفيذ المشروع الذى ذهب مع علمائه إلى فرنسا ، حيث عرف الإمبراطور نابليون بعد ذلك كيف يمكن أن يستفيد منه لدعايته الشخصية ، وظهر الكتاب مهدى إليه لمزيد من التمجيد الشخصى ، ويحمل شكراً «للفرنسيين الذين قاموا بكتابته» كما تقول صفحته الأولى ، وكما أسلفنا فى الجزء الأول .

★★★

وبعد، فقد انتهينا الآن من قراءة الأجزاء الأربعة للمكاتبات الرسمية والخطابات الخاصة التى جمعها «هنرى لورانس» عن عصر كليبر، منذ أن كان قائدا للإسكندرية، حتى طعنه سليمان الحلبى فى مقتل. وقد تعرفنا على الأوامر والمشروعات التى كانت تخرج من مكتب القائد العام لمصر. ولم نجد فى تلك المشروعات – كما سبق أن قرأنا فى كل ماكان يمارسه كليبر من سلطات – أى تنويه عن أى مشروع حضارى يفيد المصريين أو يعلمهم جديدا فى أى ميدان، حرفيا كان أم ذهنيا : كان كليبر يقود جيشا استعماريا، يمارس عنفه الطبيعى نظرا لطبيعته كمستعمر، ذلك

العنـف الذى ينتظر من أى جيش استعمارى فى أى بلد وفى أى وقت، لاغير .

إن الذين قتلهم كليبر بحكم إعدام فردى – والحق يقال – أقل مما فعل بونابرت بكثير ، ولكن ضحايا ثورة القاهرة الكبرى ، وضحايا السلب من بعدها ، أكثر بكثير منهم أثناء حكم بونابرت. أما ضحايا الأقاليم ، فالعدد لم يتغير طبعا . والاختلاف بين شخصيتى القائدين وفلسفتيهما ، جعل الصورة تتغير كلية من حكم إلى حكم ، خاصة فى ظل الظروف التى جدت ، والتى كان على كليبر أن يعمل لها ألف حساب .

وكان هدف كليبر الأول ، أن يجمع المال بأية طريقة ليشبع جيشا كان فى حالة من التذمر المستمر ، خاصة أن قائده السابق هرب وتركه يتصرف فى ظروف قاسية ، كان جيشه هو أول من دفع ثمنها . ومعاملة كليبر للمصريين لا تدل على أى نوع من الاحترام أو التقدير لأى مركز أو هيبة ، حتى لأكبر كبرائهم ، لأنه لا يبحث عن أى مجد ذاتى؛ فهو لا يتملق الشخصيات العامة – كما كان بونابرت يفعل. كان – بصفته جنديا محنكا ، دون أية أطماع سياسية – لا ينظر إلى البلد المستعمر إلا بالطريقة الوحيدة التى يمكن أن يفيده بها هذا البلد .. إنها «الليمونة» ، عليه عصرها إلى آخر قطرة ، وحتى بعد ذلك . ولا ننسى أنه هو نفسه قالها فى العديد من الخطابات .. إنه لا يرى أى

مستقبل لوجود فرنسا فى هذا البلد الذى يرفض فكرة استعماره لأسباب لا مجال لذكرها هنا . ومن البديهى أنه أجبر على تقبل الفكرة ، بعد انهيار اتفاقية العريش وثورة القاهرة ، فأخذ يبحث عن بديل للشعب المصرى، كأن مصر بلد بلا شعب ، لأنه يدرك تماما مدى رفض المصريين للفرنسيين ، فهو يراهم كبرميل بارود يمكن أن ينفجر فى أية لحظة - وقد كان .

★★★

تولى مينو السلطة بعد وفاة كليبر ، وخرج بالجيش مهزوما عام ١٨٠١ .. وبدأت أسطورة نابليون وأسطورة الحملة بسياسة عبادة الفرد فى عصر الإمبراطور ، وبعد هزيمة نابليون بدأت أسطورة أخرى، بأقلام الفنانين والأجيال الجديدة من الحالمين بمجد فرنسا الحربى تحت إمرة إمبراطورهم المنفى . ومرت العقود، وجاء بعض الفرنسيين فى عهد محمد على، مثل «السان سيمونيين» العابدين لنابليون ومشروعه الاستعمارى؛ وقد لعب محمد على بذكاء شديد على مشاعرهم تلك ، مؤكدا لهم أنه سلف نابليون الأمين .. وصدقوه .

ولن نتعرض لكتابات «السان سيمونيين» عن مصر ، لأنها تاهت مثل الجدول الصغير فى الصحراء ؛ ولم يتركوا أثرا يذكر ، لا فى فرنسا ولا

فى مصر . وقد استطاعوا بعد ذلك ممارسة أحلامهم الاستعمارية بنجاح كبير فى الجزائر الفرنسية ، بعد أن عرف محمد على كيف يستفيد من تقنياتهم الهندسية ، دون أن يترك العنان لأحلامهم الخاصة، ودون أن يمنحهم فرصة السيطرة على غير المشروعات البناءة لصالح مصر فقط .

ولكن فرنسيا آخر عاش فى مصر، وكانت شهادته على ما تركه فرنسيو الحملة من آثار، غاية فى الأهمية بالنسبة لنا : إنه كلوت بك ، الطبيب الشهير .

الفصل الثانى

ما بعد الحملة

«يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلمين:إنما ذكرى نابليون التى لا تزال حية ..... لقد قاسى [المصريون] الكثير من وحشية جند بونابرت . وقسوتهم وكبريائهم ؛ أمر طبيعى . فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا» .

(جوستاف فلوبير)

«إدوارد لين» : «عادات وتقاليد المصريين المعاصرين»

لا نستطيع أن نتحدث عما كتبه كلوت بك ، دون المرور سريعا على كتاب مشهور، كان له تأثيره الفعال على كلوت بك نفسه كما سنرى، وهو كتاب الإنجليزى «إدوارد لين» (١٣) .. وعلى الرغم من أن «لين» لم يتعرض لآثار الحملة بالذات فإنه لا يهمنا إلا بالقدر الذى يتحدث فيه ، وبطريقة عابرة ، عن هذه الآثار ، إن وجدت. فقد كان هدفه الأول ، كما يقول عنوانه صراحة ، هو دراسة المصريين أنفسهم . شهادته ، إذن ، غاية فى الأهمية ، لأنه لم يمر مرور الكرام على مصر ، كما فعل «شاتوبريان» مثلا ، وغيره من المسافرين الفرنسيين الآخرين .

لقد عاش «لين» (١٨٠١ - ١٨٧٦) عدة سنوات فى مصر . منذ عام ١٨٢٥ حتى عام ١٨٢٨ ، ثم عاد إليها مرة أخرى فى عام ١٨٣٣ وبقى فيها حتى عام ١٨٣٥ . وقد جعلته معرفته الممتازة للغة العربية وحياته وسط المصريين ، وكأنه واحد منهم ، أحسن من يتحدث عما يدور فعلا فى البلاد ، من عادات وأفكار ؛ وبالتالى، فعلينا أن نبحث فى كتابه الأمين عما يقوله المصريون ، أو يفعلونه ، فى عصره ، ويوضح ذلك ، الأثر الذى قيل مرارا إن الجيش الفرنسى وبونابرت تركاه فى مصر، وعلى المصريين .

«إدوارد لين» يصف كل شىء ، بما فى ذلك الأفراح والمآتم ، وحتى طريقة طهو الطعام ، الفتة مثلا . ولكن حديثه عن الحملة لا يأتى إلا عرضا ، فهو يقول مثلا : «هناك العديد من المساجد فى مصر ، حيث لا

يسمح لإفرنكى أو أى مسيحى آخر أو يهودى أن يدخلها فى السنوات الماضية ، وذلك منذ الحملة الفرنسية» . كما يؤكد أن «التعليم كان فى القاهرة ، قبل دخول الجيش الفرنسى ، فى حالة أكثر ازدهارا عما هو عليه فى السنوات الأخيرة . فقد تأثر التعليم جدا بسبب الحملة ، ليس بسبب اضطهاد مباشر ، ولكن نتيجة لحالة الذعر التى سببها هذا الحدث والاضطرابات التى تلتها» . هذه هى إذن الذكرى التى تركتها الحملة بين جمهور سكان القاهرة .

نقرأ كذلك ، كذكر للحملة ليس إلا : «هذه التوابيت ،...، أخذها الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر ، وهى الآن فى المتحف البريطانى» .. وانتهى ذكر الحملة فى هذا الكتاب .

نلاحظ أن «إدوارد لين» يذكر أن «أكثر العلماء المعاصرين علما فى القاهرة ، الشيخ حسن العطار ، هو الآن شيخ الأزهر» ، دون أن يذكر علاقته بالفرنسيين . كذلك حديثه عن «السيد عمر (مكرم) نقيب الأشراف ، الذى كان أهم من ساعدوا محمد على فى الوصول إلى مركز باشا مصر» .. لا نجد كلمة واحدة عن دوره أثناء الحملة، وكأن هذا الدور قد سقط أيضاً من ذاكرة المصريين مع سقوط ذكرى أحداث الحملة. وبعد هذين الاسمين، لا يذكر الجبرتى إلا بصفته «مؤرخا لكل الأحداث التى مرت بها مصر» دون ذكر لدوره أثناء الحملة ، وتأريخه لها ؛ فما هذا الجزء إلا حدث وسط باقى الأحداث فى كتابه الشهير . يحكى «لين»، كذلك، عن الأساطير الشعبية التى تغنى فى المواسم والمناسبات،

فيذكر «سيرة أبي زيد الهلالى» و«حياة الظاهر بيبرس» دون غيرهما، على عكس ما يقوله الفرنسيون من أن المصريين يتغنون بجند الحملة حتى يومنا هذا . و«إدوارد لين» يكتب كثيرا عن «الفرنجة» فى مصر، والمفهوم طبعا أنهم الأوربيون ، وكان عددهم قد زاد بطريقة ملحوظة فى ذلك العصر ، دون أن يرجع «لين» مرة واحدة إلى سابقيهم من الجند الفرنسيين .

وقد تكون أفضل خاتمة لمن يبحث عـن آثار الفرنسيين فى مصر، فى هذا الكتاب الإنجليزى ، القصتان التاليتان : أولاهما ، يحكى فيها المؤلف ، أن أحد معارفه «من المصريين سأل مواطنا له ذهب إلى باريس ، عن أكثر شيء لفت نظره هناك ، فأجابه : إنها حفلات الرقص، حيث يسمح الزوج لزوجته بمراقصة غيره أمام عينيه» . ويعتبر ذلك خير دليل على الفجوة الحضارية التي تمنع وجود التفاهم بين الجانبين، المصرى والفرنسي كليهما . ويؤكد، بالتالى، استحالة محاكاة أحدهما للآخر . وهو ما تؤكده القصة الثانية .

يقول «لين» : «مع كل تقديرى للتجديدات الحديثة (فى عصر محمد على) إلا أننى وصلت إلى بعض الملاحظات الصغيرة فى هذا الشأن ، كانت نتيجتها أننى وجدت أن أنوار العلم الأوربى مقصورة تماما على موظفى الحكومة الذين أجبروا على التعلم على أيدى معلمين إفرنج، وأن العادات الأوربية لم يتبنها - بالكاد - إلا قلة قليلة جدا من «الأتراك» . وقد أخبرنى بعض المصريين الذين درسوا لبضع سنوات فى فرنسا

بأنهم لا يستطيعون نقل أى من المفاهيم التى اكتسبوها، حتى إلى عقول أقرب المقربين إليهم من الأصدقاء» . فما بالك بتوصيل مفاهيم جند محتلين لم يمكثوا إلا ثلاث سنوات، قضوا معظمها محاولين كبح لهيب الثورات؟

يصل القارئ إذن إلى نتيجة واضحة لاشك فيها: إن «إدوارد لين» ، فى معاشرته اليومية للمصريين، لم يقابل ما يذكره بالحملة إلا بطريقة عفوية، لابد أن تمر دون أى انتباه على القارئ العادى لأنها، فى واقعها، لا تعنى شيئا للمعاصرين فى ثلاثينات القرن التاسع عشر.



«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر»

ولكن، قد يقول الفرنسى «كلوت بك» ما يفيدنا أكثر، قد يكون الإنجليزى متحيزا، مهملا لما يمكنه أن يمجد فرنسا الغريمة، عدوة القرون السابقة، أو رجلها الكبير الذى كان يسمى «الغول» فى إنجلترا. «فكلوت بك»، مثل «إدوارد لين»، عاش هو أيضا وسط المصريين فى العصر نفسه، وقالها كلوت بك صراحة، إنه شعر بالغيرة من كتاب «إدوارد لين» (١٤)، وبذا فقد قرر هو أيضا أن ينشر كتابا يصف فيه مصر. وقارئ الكتاب يتأكد من ذلك عندما يقابل أوصاف الأفراح والمآتم، وغير ذلك من التقاليد المصرية، كما فعل «لين» بالضبط. ولكن، ثمة هدف آخر لهذا الكتاب: إنها الحرب الإعلامية المستعرة فى فرنسا

آنذاك، لأن الحكومة هناك كانت تساند محمد على، وكان بعضهم يرفض تلك السياسة، بسبب قضية الشرق وحرب الاستقلال في اليونان. فكتب «كلوت بك»، كى يرد على هؤلاء الصحفيين، ما يفيد أن سيده حاكم مستنير، يعمل لخير بلاده. أراد أن يعضد موقف «محمد على» بعد أن اتهمه بعض الفرنسيين بالدكتاتورية الظالمة، بصفته من حكام الشرق المسلم الغارق فى ظلمات الجهل والتعنت. وظهر كتاب كلوت بك بالفرنسية سنة ١٨٤٠، ونحن نستعين بترجمته إلى العربية، التى نشرت تحت عنوان «لمحة عامة إلى مصر» فى ثلاثة أجزاء صغيرة الحجم.

يصل مديح «محمد على» - فى هذا الكتاب - إلى درجة التملق السافر: نرى «كلوت بك» لشدة إعجابه بسيده، يقول مثلا الحقيقة التى نعجب لوجودها بقلم فرنسي، وهى أن ابراهيم باشا نجح حيث فشل بونابرت، واستطاع أن يفتح عكا. ولكن الرجل مع ذلك لا يقل شوفينية عن باقى مواطنيه، عندما يتحدث عن الحملة. إنه يسرد قصتها كتاريخ، ليس إلا، ويتكلم دون أية مواربة عن هدف فرنسا الاستعمارى، ورغبتها فى تحويل البحر الأبيض إلى «بحيرة فرنسية»، إنه يتحدث صراحة عن الأمل فى أن تحل مصر محل المستعمرات المفقودة فى أمريكا، ناهيك عن قطع طريق الهند على الإنجليز. و«كلوت بك» من أكثر المعجبين ببونابرت، ويرى أن كل ما فعله صحيحا حتى إنه لا يذكر ثورة القاهرة الأولى، أو ثورات الأقاليم، ولا يتحدث بسوء طبعا عما اعتبره جند بونابرت وضباطه «هروب القائد العام إلى فرنسا» وإن كان قد ذكر ثورة القاهرة على كليبر - غريم بونابرت! - بالتفصيل. من البديهى أن

معلوماته تفتقر إلى الدقة، إذ يقول مثلا إن كليبر قد ذهب إلى الشام وراء الأتراك عندما قامت ثورة القاهرة، مما يجعلنا نشكك في كلامه كله، خاصة أن مرجعه الوحيد، وباعترافه، هو مذكرات نابليون نفسه. فتتضح الصورة، ونفهم من أين جاءت معلوماته تلك، بعد وقوع الأحداث بأربعين عاما.

كذلك نراه يقع فى الفخ الذى تقع فيه الشوفينية العادية للرحالة الفرنسيين، فيكفيه مثلا، أن يقابل مصريا واحدا معجبا بنابليون، حتى نراه يؤكد أن ذلك دليل على شعور المصريين كلهم. ونجد فى سرد «كلوت بك» لأحداث الحملة، كثيرا مما سيصبح جزءا من الأسطورة الرسمية لها، مثل دحر المماليك على يد بونابرت وحب المصريين له. ولكن القارئ الذى تعرف على حقائق الأمور من الكتابات التى سبق أن قرأناها خاصة مكاتبات كليبر للحكومة المركزية فى فرنسا، يدرك ما وراء تلك الشعارات من زيف وفراغ ولا يفوت القارئ ملاحظة أن هذا السرد الإعلامى للحملة المكتوب فى مصر وعن مصر لم يحمل أى تنويه، ولو بكلمة واحدة، عن أى مشروع تنويرى للحملة: لقد أكد «كلوت بك» مرارا وبصراحة أنها حملة استعمارية فقط، وكان ضرب الإنجليز، هدفها السياسى الآخر. لكننا قد نجد فى الجزءين الآخرين من الكتاب، ما يكذب تلك القراءة للجزء الأول منه، قد نجد ما يؤكد حتى النتائج الحضارية للوجود الفرنسى فى مصر. ولكن «كلوت بك» لا ينسى - مثله فى ذلك مثل باقى من قرأنا لهم - أن يؤكد أن الجيش الفرنسى «انتقم للملك لويس التاسع الذى أسر فى معركة فارسكور التى

دحر الصليبيون فيها. ونلحظ أن كلوت بك، إذا ذكر المعهد الفرنسى فى مصر، فهو لا يتحدث إلا عن «هذا الحجر الذى يشبه فى تركيبه وشكله - كما هو مذكور فى مذكرات المعهد الفرنسى بمصر - بعض أنواع الأحجار الجصية الشائعة فى البناء...»، ولا تذكر كلمة واحدة عن أى دور تعليمى أو تنويرى لهذا المعهد. وبمناسبة وصفة المتواضع جدا لمصر، يتحدث مثلا عن السراب، فيقول: «ولم يغب عن الذاكرة ما سببته تلك الظاهرة من الخيبة واليأس لعساكرنا أثناء سيرهم بالصحراء بين الإسكندرية والقاهرة، إذ أصابهم من العطش ما كاد يودى بحياتهم أجمعين» فالحملة ليست غائبة عن ذاكرته أيا كان الموضوع الذى يتحدث فيه ومع ذلك، فهو لا يذكر كتاب «وصف مصر» بكلمة واحدة. ومن هنا تتجلى الصورة، صورة استعمار دون أية مشروعات أخرى، إذ يكون لغياب الشئ دلالة، أكثر منها بالحديث عنه فالحديث كثير عن الحملة، ولكن، فى أى موقع، ولماذا؟

من هنا كانت أهمية النص الذى سنسرده على القارئ كاملا، وقد كتبه «كلوت بك» وهو يتحدث عن النساء فى مصر، تحت عنوان «حكاية نابليون بونابرته»، يقول «كلوت بك»:

«أورد نابليون بونابرت حكاية مؤامرة دبرت فى أحد الحمامات العامة يلذ لى أبرازها فى هذا المقام لما احتوته من الدليل على ان اقامة ذلك الرجل العظيم بمصر قد ادهشت العقول وحركت الخواطر كلها حتى خواطر النساء، وكانت لجميع أهل المشرق عنوانا على تبدل الاحوال بحال لم يسبق لها من قبل مثال. قال:

تزوج الجنرال منو بامرأة من رشيد وعاملها معاملة السيدات الفرنسيات اذ كان يمد اليها يده كلما هم بالدخول معها إلي غرفة الطعام ويتحرى لها اوفق المجالس ويقدم اليها خير الاطعمة واشهاها. وكان اذا سقط منديل الطعام الموضوع على فخذيها بادر بأخذه واعادته إلى مكانه. فلما ورت تلك المرأة هذه الامور على صاحباتها فى أحد حمامات رشيد لاحت لهاته النسوة بارقة الامل فى تغير احوالهن وعاداتهن، وحررن عرضا قدمنه إلى السلطان الكبير - بونابرته - ليحمل أزواجهن على معاملتهن بمثل ما يعامل «منو زوجته الرشيدية به»...» .

لا أعتقد أن قارئا جادا فى نقده، سيجد فى هذه القصة أكثر من نكته، حكاها نابليون الذى عرف عنه دوما احتقاره المطلق لجنس النساء. ولكن الأمر يكاد يكون مؤثرا بالنسبة للجوء «كلوت بك» إلى مثل تلك القصة الطريفة ليس أكثر؛ فهو لم يجد - على ما قرأنا له - إلا تلك القصة التافهة، ليثبت عمليا أن الفرنسيين قد تركوا أثرا فى مصر. «فكلوت بك» عاش فى مصر بعد ذلك بثلاثين عاما، وهو يحاول أن يصف مصر التى عاصرها، فيورد تلك القصة القديمة، ليؤكد بها شيئا، من البديهى أنه لم ير له أى أثر بعينيه . ولكن، إذا كان نابليون نفسه هو الحاكى، الا يدل ذلك على صحة المعلومة، وأهميتها، حتى إن كان «كلوت بك» لم ير شيئا من نتائجها على المجتمع؟ فهو لا يقول إنه رأى معاملة إفرنجية للأزواج المصريين كانت تلك القصة سببا فيها: إن القصة تكفيه، مثل الشعارات الفارغة، وهى ثمينة وذات دلالة مادام نابليون هو الذى قصها.

إن موقف «كلوت بك» يكاد يكون مؤثرا بالفعل، لأنه لم يجد إلا تلك القصة لتكون الدليل الوحيد على ما أثر به الفرنسيون على المصريين، ولن نعجب، بعد ذلك، إذا رأيناه مجبرا على الاعتراف أن أمورا شتى لم تتغير منذ عصرالمماليك، بل منذ أيام الرومان؛ أما بالنسبة للنساء، وبالذات قضية تعدد الزوجات، فهو يرى أن انتشار الفكر الغربي وحده، كفيل بحل تلك المشكلة، ولم يقل إن الحملة ساعدت بصورة ما في انتشار تلك الأفكار .

وكما سبق أن رأينا، فإنه، على الرغم من ذلك لا يفوت فرصة لتمجيد الحملة. فإذا تحدث عن «أبو قير» مثلا كشاطئ لا يفوته أن يذكر أنه مكان «يثير في نفس كل فرنسي لواعج الحزن كما يحرك فيها بواعث الفخار والمجد». نجد أيضا هذا التمجيد فيما يقوله نابليون - مرة أخرى - عن كبحة جماح البدو، بينما تؤكد لنا مكاتبات كليبر عكس ذلك. «فكلوت بك» يشكو من أفعالهم، وكأن الفرنسيين وحدهم هم الذين استطاعوا التخلص من أشرارهم.

ومثله مثل غيره من مواطنيه، يؤكد «كلوت بك» حب المصريين للفرنسيين بالذات، لطبائعهم الحسنة، «إذا أضيفت إلى ما تركوه بأرض مصر من ذكرى وجودهم بها»، دون أن يحدد ماذا! ويزيد على هذا الكلام المبهم مانقرؤه بعد ذلك أن «الحملة الفرنسية في مصر هي مقدمة حركة الحضارة التي بدت آثارها الآن في الشرق» وهو يؤكد كذلك عن نابليون «عندما رأيت الآثار الجليلة التي خلفها من ورائه، لم أستطع الجزم إن كان أثره في آسيا أقل من أثره في بلاد الغرب»: من المؤسف

أنه لم يشركنا فى رؤيته لتلك الآثار التى لم يتحدث عنها أكثر من ذلك، ولكنه إذا قص بطولة لا تنكر لإبراهيم باشا، قال إن الحادثة «فيها ما يذكر بشهامة الفرنسيين وبسالتهم»! علينا بالتالى أن نشكر أمانته، عندما يصف المصريين وهم يستمعون إلى لحن «المارسييز»، فهى «لاتهز واحدا من أوتار أفئدتهم، ولا تنشرح لها صدورهم، ولا تميل إلى التقاطها أسماعهم».

بقى أن نشكر كلوت بك أنه ذكرنا أن محمد على «طلب من الإفرنج الذين كانوا فى خدمة مصر ،....، مراعاة عادات الشرقيين فى كل شئ »، هذا من جهة، ومن جهة أخرى قوله: «إن الشرقيين، كلما اختلطوا بنا (الافرنج)، لا يأخذون فى الغالب، من أخلاقنا سوى ما كان منها سيئ العاقبة بعيدا عن الصواب...»، ولم يفكر لحظة واحدة، أنه ما دامت تلك هى حال الشرقيين، فمن المؤكد أن ذلك قد حدث أيضا أيام الحملة، فكيف تكون إذن فاتحة الحضارة التى يتحدث عنها؟!



ننتهى هنا من قراءتنا كتاب «كلوت بك» الذى خيب أملنا، إذ كان لابد أن نجد عند هذا الفرنسى الذى عاشر المصريين بعد رحيل الفرنسيين ما يؤكد تأثيرهم بصورة ما. الواقع أننا لم نتأكد إلا من أمر واحد، وهو أن صديقات زوجة «مينو» الرشيدية، كن يحسدنها على معاملة زوجها لها، وما أتفه الحادثة. وتأكدنا بالتالى أن فرنسيا من سكان مصر، مولعا ببونابرت، اعترف سنة ١٨٤٠ أن الهدف الاستعمارى كان وحده سبب الحملة على مصر. لم يكن لها أى تأثير

على الرغم من ادعاء «كلوت بك» عكس ذلك، فهو يؤكد قوة هذا التأثير دون أن يقدم أى برهان على قوله، مثله فى ذلك مثل غيره من المتحدثين عن أسطورة الحملة، وجاء كتاب «نرفال»، بعد ذلك، ليؤكد صحة ما توصلنا إليه.



«جيرار دى نرفال» : «رحلة إلى الشرق»

فى عام ١٨٥١، نشر كتاب آخر من أشهر كتب الرحالة الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، وهو كتاب «رحلة إلى الشرق» (١٥) . وترجع شهرة هذا الكتاب إلى سببين أولهما أنه تحفه أدبية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، مكانة المؤلف، وهو الشاعر الكبير «جيرار دى نرفال» (١٨٠٨-١٨٥٥).

سافر «نرفال» إلى الشرق فى اليوم الأول من عام ١٨٤٣، وعاد إلى فرنسا فى أوائل شهر ديسمبر من العام نفسه بعد أن زار كلا من مالطه، مصر، سوريا، قبرص واسطنبول، ونشر كتابا عن رحلته فى عام ١٨٥١. وقارئ مؤلفه الرائع يتأكد أنه قرأ كتاب «إدوارد لين» بإمعان ولكنه قرأ أيضا «شاتوبريان» حتى أن بعض الصفحات تبدو كأنها رد على «شاتوبريان» بصورة واضحة للدارس الناقد لكتابى «المسار من باريس إلى أورشليم» و«رحلة إلى الشرق». وهو يفعل ذلك دون أى تداخل فج، فالكتاب مكتوب بقلم شاعر، تمر إيحاءاته ناعمة دون أن تخدش رؤية القارئ غير المتخصص. والرجل يهمنا أمره ليس فقط لأنه عاش بضعة أشهر فى مصر، على عكس باقى الرحالة فى تلك الأزمنة،

ولكن لأنه كان أيضا من أشد المعجبين بنابليون، وكتب قبل رحلته إلى الشرق ما يثبت حبا مطلقا للإمبراطور البطل .

وأول ما يلفت النظر لقارئ الجزء الخاص بمصر فى تلك «الرحلة إلى الشرق»، هو إصرار «نرفال» - مثله فى ذلك مثل «لين» - على عدم الحكم على الأمور من منطلق أوربى فحسب - لقد قال الراوى، عند وصوله إلى القاهرة، إنه يريد أن يخلع رداء الغرب، حتى يتحرر من الأفكار المسبقة فهو يقدم العادات المصرية والإسلامية لقارئه الفرنسى حسب المنطق المحلى، ولا يرفض شيئا، لأنه يتقبل فكرة اختلاف المبادئ، إنها صفة قلما نجدها عند باقى الرحالة، وحتى يومنا هذا. كما يلفت النظر أيضا أن هذا المتيم بحب نابليون، لايتحدث عن الحملة، ولكنه يتحدث عما تركته الحملة، وشاهده هو بعينيه.

فأول لقاء له مع «تركى» مثلا، كان مفاجأة له، إذ اتضح أن هذا «التركى» من أصل فرنسى، يعرفنا به الراوى قائلا: «إنه من ذلك الجيل العسكرى الذى وهب حياته لخدمة نابليون، وكثيرون من ذلك الجيل فضلوا عرض خدماتهم على ملوك الشرق على أن يصبحوا من رعايا («البوربون» لقد أصبح هذا الجندى) تركيا. وكيف ألومه؟». هذا هو تعليق «نرفال» الوحيد على مثل هذه الخيانة للوطن والدين. وتكون المقابلة الثانية، وهى لقاؤه «بالمسيو جان (إنه) من البقايا المجيدة لجيشنا فى مصر كان أحد الفرنسيين الثلاثة والثلاثين الذين دخلوا الخدمة العسكرية كمماليك بعد انسحاب الحملة. (وبعد أن عاش هذا السيد) جان سنوات مجد وترف، فكر أن يبيع النبيذ علانية، وكان ذلك شيئا

جديدا على مصر»: ما أبعدنا عن مماليك «شاتوبريان» الخمسة الذين كانوا يستولون على حكم البلاد!

يبدو أن القدر الماكر، لم يجعل الرحالة الفرنسي يقابل إلا حطام الحملة البائسة: نراه يقابل بعد ذلك «أحد مماليك الجيش الفرنسي الذين تبعوا جنودنا (عند عودتهم إلى فرنسا) ولكن منصور المسكين، ألقى في الماء مع باقي زملائه في مرسيليا، لأنه كان يناصر حزب الإمبراطور، عند عودة آل بوربون»، عاد منصور إلى مصر، وكان يعيش هو وزوجته في حالة من الفقر المدقع فاستأجرهما الراوى خادمين عنده.

تلك هي آثار الحملة على المستوى الإنساني، ولا ندرى كيف كان يمكن لهؤلاء أن يؤثروا على المصريين.. اللهم إلا إذا اعتبرنا «المسيو جان»، أول من أدخل بيع الخمور «علانية» في مصر، رائدا محترما في ميدانه.

أما على مستوى الآثار الملموسة، فقد وجد الرحالة، وبفخر شديد، في داخل الهرم الأكبر «نقشا فرنسيا قد حفر على حجر كبير، يؤكد مرور جندنا على هذا النصب، قرأته باحترام شديد وكأنه بطاقة لزيارة الجيش الفرنسي»، ولكنه يكتشف بعد ذلك باندهاش، حفرا آخر، لبطاقة زيارة أخرى. «للبعثة العلمية التي أرسلها ملك بروسيا وكان رئيسها ليسيوس» وتنتهي الفقرة فجأة عند هذه الكلمات، دون أى تعليق من الراوى الذى عادة ما يعلق على كل شئ. والتحليل النقدى الأدبى لهذا النص يثبت نوعا من المواجهة بين البعثتين، العسكرية والعلمية. وصمت الراوى ، بعد الحديث عن البعثة العلمية البروسية، يؤكد نوعا من الحرج،

لايستشعره إلا قارئ الكتاب كاملا ويتأكد هذا الإحساس، عندما يمر رحالتنا، أمام جامع السلطان حسن، فنراه يلاحظ - دون أى تعليق مرة أخرى: «أن آثار المدفعية الفرنسية (على الجدران) لاتزال موجودة منذ ثورة القاهرة الشهيرة».

ويشهد الراوى عودة الحجاج بموكبهم المهيب، وينبهر به، وبالروحانية السامية التى تنبعث من الاحتفال، حتى أنه يكاد يسخر من بونابرت، مما يعجب له القارئ فعلا، فهو يقول: «كان وكأن أمة بأكملها تسير لتذوب فى شعب لا حصر له ،...، ولا مجال هنا للتفكير فى الأوبرا، أو فى القافلة الشهيرة التى جاء بونابرت ليستقبلها عند البوابة نفسها بوابة النصر»: دهشة القارئ لها طبعا سبب منطقى، لأنه لا مجال هنا لذكر بونابرت فإن كانت الأوبرا هى المسرح الذى يتحرك عليه مئات الأشخاص، من ممثلين ومنشدين وراقصين، فلا داعى بتاتا لذكر بونابرت: كأن المؤلف يقول لبونابرت إنه لم ير شيئا يضاهى ماراه هو نفسه وفهمه، بينما بونابرت لم ير حقيقة هذا الشعب وعظمته .

وتنتهى رحلة مؤلفنا. وقبل سفره، يدعى إلى حفل ختان، ليجد نفسه جالسا بجوار شيخ يغنى له، أنشودة مديح لبونابرت. وعلى الرغم من أن المؤلف لا يتكلم العربية ولا يفهمها، إلا أنه يكتب لنا ترجمة تلك الأنشودة! «وبعد ذلك - والكلمة للراوى - حاولت أن أستخلص من الشيخ بعض ومضات من ذكرياته، فأخذت أكرر عليه (.....) الأسماء المجيدة لكليبر ومينو ولكنه لم يكن يتذكر إلا الكولونيل برتليمى»، ويفسر لنا أحد هوامش الكتاب، أن الأنشودة التى ظنها «نرفال» مديحا

لبونابرت، كانت فى الواقع مديحا «لبرتليمى الذى كان فى خدمة المماليك قبل حضور الفرنسيين، والذى كان يلقبه المصريون بفرط الرمان». ثم يجهش الراوى بالبكاء عند «سماع الشيخ يعيد الغناء القديم الذى كان ينشده المصريون على شرف من أسموه السلطان كبير»: من حقه أن يبكى بالفعل، فهو لم يجد أثرا مجيدا آخر لمرور الرجل العظيم على مصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمصر فى كتاب «رحلة إلى الشرق». كان كاتبه، على حبه الشديد للإمبراطور، غاية فى الأمانة، فهو لم يكتب إلا ما شاهده، أو عاشه بالفعل أو اقتبسه من كتاب «لين» الشهير آنذاك. أيا كانت المراجع التى ساعدته على تدوين مذكرات رحلته، إلا أنه لا يمكن اتهامه بالتجنى على الإمبراطور، ولا يمكن اتهامه كذلك بإغفال أى شئ كان يمكن أن يفخم من شأن بونابرت وحملته على مصر. «فنرفال» لا يقل حبا لوطنه عن باقى الرحالة، ولكن أمانته حلت محل الشوفينية الفجة التى اتصفت بها كتب الآخرين الذين مروا مرور الكرام على وادى النيل. فرح «نرفال» لوجود كتابة فرنسية داخل الهرم، فما بالك بفرحته لو أنه وجد أثرا آخر غير آثار طلقات المدافع على جامع السلطان حسن؟ لم ير شيئا يثبت أن الجيش قد ترك أى أثر ثقافى أو حضارى ، وإلا كان تحدث عنه كما تحدث عن الفرنسيين اللذين أصبح أحدهما «تركيا»، أو مسلما ويعيش مثل المسلمين، والثانى صاحب حانة فى أزقة القاهرة.. من هنا كانت أهمية «بكاء الراوى» بالنسبة لدارس هذا المؤلف، لأن هذا «البكاء» يقع فى الصفحات الأخيرة من قصة رحلته إلى

مصر، فالموقف يلخص مشاعر المعجب بنابليون، ويرمز إليها، وهو الذى جاء إلى مصر، ولم يجد بونابرت إلا فى أنشودة شيخ هرم، أنشودة تتحدث فى الواقع عن «فرط الرمان»!

★ ★ ★

«جوستاف فلوبير»

وختاما، نلجأ إلى جملة واحدة قد تكون الدليل الوحيد على الأثر الذى تركه الجيش الفرنسى؛ جملة بقلم أحد أعظم وأشهر الروائيين الفرنسيين.

جاء «جوستاف فلوبير»، الروائى الشهير إلى مصر، حيث كان يرسل منها خطابات نشرت أخيرا، نقرأ منها رسالة مكتوبة بين السادس والعشرين من نوفمبر ١٨٤٩و الخامس من فبراير ١٨٥٠: «يهرب المصريون بأقصى سرعة أمام الأوربيين المسلحين: إنها ذكرى نابليون التى لاتزال حية ،...، لقد قاسى (المصريون) الكثير من وحشية جند بونابرت وقسوتهم وكبريائهم؛ أمر طبيعى، فهم جند مرحلة «الإرهاب» فى فرنسا»، (١٦): هذا هو كلام أحد أكبر المؤلفين الفرنسيين، الذى ترك لنا فى خطاباته انطباعات رحلته إلى وادى النيل، وهى جد شيقة: تصويره لما رآه عفوى صادق صريح لأن خطاباته لم تكن للنشر. وكلامه هنا لا يحتمل أى تعليق، عن «الذكرى» التى تركها الجيش، والتى تذكره بالفظائع التى تمت أثناء عصر «الإرهاب» فى فرنسا، فنراه يتفهم موقف المصريين من الجيش الفرنسى.

ولو أننا لا نظن أن الرعب من الجند الفرنسيين استمر بعد مرور خمسين عاما على رحيلهم، إلا أن الجملة غريبة، خاصة إذا تذكرنا أن كاتبها فرنسي؟ ومن الممكن أن تكون جنسية أخرى هي المسئولة عن هذا الانطباع السيئ ولكن تلك هي فكرته عن بونابرت، والانطباع الذي تركه «جند الإرهاب» . وكما يقول الفرنسيون، فهذا في ذاته أمر يجعلنا نتفكر...



حان الوقت لنتعرف على ما قاله أيضا المصريون المعاصرون للحملة، غير الجبرتي. لقد كتب «الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوي» عن الفرنسيين صفحة بليغة في قصرها، ودوره معهم معروف.

فهو يكتب قائلا.. «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية ينال لهم نصارى قاتوليقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهرا، وينكرون البعث والدار الآخرة وبعثة الأنبياء والمرسلين، ويقولون إن الله واحد بطريق التعليل. ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يدبرون الأحكام بعقولهم ويسمونها شرائع. ويزعمون أن الرسل محمدا وعيسى وموسى كانوا جماعه عقلاء وأن الشرائع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم. ولذا جعلوا في مصر وقراها الكبار دواوين يدبرون ما يناسب أهل البلاد بحسب عقولهم. وكان في ذلك رحمة بأهل مصر. فإنهم جعلوا من جملة ديوانهم جماعة من المشايخ وصاروا يراجعون بعض أشياء لا

تليق بالشرع. والسبب الذى أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال» (١٧). يدل تحليل هذه الأسطر أولا على أن الشيخ العلامة لديه معرفة واضحة وصحيحة لفكر «الفرنساوية» الدينى، دون أية إشارة إلى منجزات الثورة الفرنسية، والحرية والمساواة إلخ، هذا من جهة؛ وكلماته تؤكد، من جهة أخرى، المسافة الشاسعة التى تفرق بينه وبينهم إنه ينظر إليهم عن بعد ويتدارسهم كأغراب لا يلتقى، ولايفكر أن يلتقى معهم فى أية نقطة، فهو موضوعى فى حكمه على دواوينهم ولكن مفرداته الأخيرة بخصوص العجز عن «مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال»، تعنى أن الانصياع للأوامر لم يكن عن اقتناع؛ عندنا الدليل أن الفلاحين كانوا يقاومون المدافع الفرنسية بالعصى فمن الطبيعى إذن إذا ما رحل أهل السطوة، أن ينتهى تأثيرهم المجبر المباشر.

وهناك مصرى آخر، نرى أن شهادته غاية فى الأهمية، خاصة أنه كان معاصرا لمن قرأنا لهم من كتاب سجلوا شهاداتهم عن مصر بعد رحيل الحملة بربع قرن. وهم كما أسلفنا «إدوارد لين»، «كلوت بك» و«جيرار دى نرفال». فإذا قارنا ما قالوه، بما نستنتجه من كتابه، لعجبنا لتطابق الرؤى، بين الأجانب المقيمين فى مصر، والشاب المصرى المثقف: إنه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى وما قاله أو بالأصح ما لم يقله، عندما زار فرنسا ودون ملاحظاته فى كتابه الشهير.

«الطهطاوى» : «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» (١٨)

قيل مرارا وأعلن جهارا، أنه لولا الشيخ حسن العطار، ما سافر الشيخ رفاعة مع البعثة المرسلة إلى باريس عندما أقنع القنصل الفرنسى النشط «دروفتى» محمد على، بتحويل كل البعثات العلمية إلى فرنسا وعلاقة حسن العطار بالفرنسيين معروفة (١٩)، وكان بونابرت قد أوكل إليه مهمة تعليم بعض الفرنسيين اللغة العربية. ومن المعروف - والأصح أن الفرنسيين يقولون - إنه أعجب بعلمهم واستنار بأفكارهم. وعندما أصبح شيخاً للأزهر، كان الطهطاوى تلميذه المصطفى. فياترى ما الذى قاله العطار عن الفرنسيين؟ أو ما الذى علمه لهذا الشيخ الشاب وهو يعده للرحيل، موصيا إياه تدوين مشاهداته، كما كان يفعل دائما الرحالة العرب، وحتى يستفيد باقى مواطنيه بما يراه مندوبهم فى بلاد الفرنجة؟ وما الذكرى التى تركتها الحملة، بمحاسنها إن وجدت، وأورثها العطار تلميذه وهو أشهر المعجبين بالفرنسيين وحضارتهم؟ وما الذى وصل إليه من هذا العلم، ولابد أنه قدمه لتلميذه النابغة؟

لو أن الفرنسيين تركوا أثرا علميا أو حضاريا على أحد، أثرا له امتداد واقعى حتى إن كان سطحيا، فلا يمكن أن يرى إلا عند هذا الشيخ الشاب، تلميذ أكثر المشايخ اختلاطا بالفرنسيين وإعجابا بهم. ومن الطبيعى أن يدون هذا التلميذ النجيب، وهو يتحدث عن فرنسا، ما سبق أن سمعه أو عرفه عن الفرنسيين، من أستاذه الذى انبهر بهم. فلابد أن ما يراه يذكره بشئ قيل له عنهم وعن عاداتهم؛ أعتقد أن هذا أضعف الإيمان.

ولنترك الكلمة للطهطاوى... إن وجدت،لأن العجب كل العجب هو غياب ذكر الحملة فى كتابه. ولو أنه غياب كلى، لشككنا فى الأمر، ولكنه مثل «كلوت بك» و «إدوارد لين» يتحدث بما يدل على أنه يعرف وقوعها، ليس أكثر ، وكأنها شئ لا يستحق الذكر، وهذا مايلفت نظر القارئ منذ الصفحات الأولى لكتابه. فمنذ الصفحة الرابعة بالتحديد نقابل قولا يعجب له من سمع مرارا أن الحملة «أيقظت» مصر فالطهطاوى يقول: «وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا الكتاب مقبولا، (لدى الخاص والعام) وأن يوقظ به من نوم الغفلة سائر أمم الإسلام إنه سميع مجيب، قاصده لا يخيب» وإذا تتبعنا صفحات الكتاب بترتيب تقديمها، عجبنا أنه مثلا يقدم «جومار» الذى يشرف على المصريين، دون أن يذكر أنه كان يوما فى مصر أثناء الحملة، مع أنه إذا تحدث عن الإسكندرية، وتاريخها، قال باقتضاب شديد: «وقد تغلب عليها الفرنسيس، ثم أخرجهم الإنكليز منها، ورجعت إلى يد الاسلام»: ولا كلمة واحدة أكثر من ذلك. كلام غريب، لأن الحال كانت حال مصر كلها وليست الإسكندرية وحدها! (٢٠).

ورفاعة يذكر بونابرت بطريقة تلفت النظر، لأنه مصرى مثقف من أول جيل جاء بعد الحملة، إذ ولد عام ١٨٠١، جيل يفترض أنه تأثر بنتائجها ويعرف تاريخ بونابرت معها.

فالطهطاوى، الذى يحكى تاريخ كل منطقة يمر عليها، يقول «جزيرة قرس (كورسيكا) وقد فتحها المسلمون، ولم يمكثوا فيها زمنا طويلا، وهى وطن «نابليون» ،... الشهير باسم «بونابرته» الذى تغلب على مصر

فى غزوة الفرنساوية، ثم تولى سلطنة فرنسا»، ليس أكثر: مرة أخرى، تتأكد فكرة أنه لولا شهرة نابليون الإمبراطور، لما ذكر تاريخ بونابرت الجنرال المنتصر.. حتى بالنسبة للمصريين. ولذا فلن يذكر نابليون بعد ذلك إلا لشرح اسم «قنطرة استرليتز، سميت بذلك باسم محل غلب فيه نابليون ملك النيمسا والموسقو».

وحديث الشيخ رفاعة عن المصريين المقيمين بميناء مرسيليا يؤكد كون الحملة صفحة من الماضى، طواها الزمن وانتهى عهدها فطريقة قصه لما قابله، وحديثه عن «مينو» دون أى تعليق على حكمه لمصر، ينمان عن عدم مبالاه لأحداث الماضى، وبُعد ذهنى يفوق الخمسة والعشرين عاما المنصرمة منذ رحيل «مينو» إنه يذكره لتنصيره لابنه. نلاحظ أنه لا يوجد أى تعليق ينم عن اهتمام خاص بهذا الجنرال الذى حكم مصر فى أواخر أيام الحملة، وكأنه لم يترك للطهطاوى ذكرى إلا بسبب زواجه من مسلمة، ثم عودته إلى المسيحية.

حدث عابر لماض طويت صفحته، فالأهم الآن هو رؤية كل ما هو جديد وغريب - وما أكثره - فى هذا العالم الذى لم يسمع عنه شيئا من قبل. فحديث رفاعة عن الفرنسيين وطبائعهم وقوانينهم... إلخ، عفويا بحق، وإن أكد شيئا، فهو جهله التام بما كان سيقابله عندهم من جديد، سبق للمصريين أن تعرفوا عليه عندما كان الجيش الفرنسى يحتل القاهرة: كل شئ غريب ومحل مدح أو نقد. وإذا ما قابل كلمة «حرية» تلك الهدية الجديدة التى احضرها بونابرت إلى مصر، حسب قول بعض

المؤرخين، نراه يشرحها لقرائه على أنها شئ جد جديد بالنسبة له ولهم، ولكن على مستوى اللغة فقط: «وما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عندنا العدل والإنصاف....». وعندما يصف نظام جباية الضرائب، لا يعقد ، ولو بكلمة واحدة، مقارنة بين ما كان يحدث عندما كان هؤلاء الفرنسيون أنفسهم يفرضونها على المصريين مع أنه و في الصفحة نفسها يقوم بمقارنة نظام توارث المهن بين ما يحدث في فرنسا، وما كان يحدث فى مصر، وهو كثيرا ما يفعل ذلك.

ماذا نستنتج من قراءتنا تلك؟

حصاد هزيل لبحثنا عن آثار الحملة فى كتاب «تخليص الإبريز..» لو أننا أضفناه إلى ما قاله «لين» و«كلوت بك»، لوجدنا أن حصيلة ما تركه الفرنسيون من ذكرى يكاد يكون منعدما، خاصة إذا تذكرنا دموع «جيرار دى نرفال» فى نهاية بحثه عن ذكرى «الرجال العظماء» في مصر. ولنذكر أنه حتى من أنشد أمجاد جند بونابرت من المؤرخين (*)، اعترف أن النتائج الفعلية الرائعة للحملة تمثلت فى اكتشاف حجر رشيد وكتاب «وصف مصر»، ناهيك عن «الأثر الثقافى» الذى لم يبدأ بالفعل إلا فى عهد إسماعيل باشا. ستون عاما بعد نهاية الحملة.

ولكن، كيف يُشرح هذا التجاهل التام لآثار الحملة عند الجيل التابع لها؟ .

فلنعد إلى الجبرتى، علنا نجد لديه إجابة عن تساؤلنا، وهو الذى عاش سنوات الحملة وما تلاها من أحداث.

* ارجع إلى الجزء الأول.

الجبرتى: «تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار» (٢١)

نظرا لوجود كتابه وضخامته، فلن نتوقف عن التفاصيل بل نستخلص سريعا ما كان من حال مصر والمصريين بعد رحيل جيش الفرنسيين، وهو جزء لم يهتم به معظم من تعرض لصفحات الجبرتى عن الحملة، والانطباع العام بعد تحليل النص هو ما يهمنا هنا، كى لا نغرق فى صفحات عديدة تحكى الأحداث الصاخبة التى ملأت الفراغ المؤقت للسلطة فى مصر.

إذا ما انتهى القارئ مما كتبه الجبرتى فى ألفى صفحة، فإنه يرى بعد الصفحات الثلاثمائة والخمسين التى يحكى فيها الجبرتى أحداث الحملة، كيف أن الحال فى مصر قد عادت إلى سابق عهدها، وكان أيامها حدث عابر عارض يمكن إسقاطه دون أن يشعر القارئ أن حلقة فقدت فى تسلسل أحداث تاريخ مصر. عاد العنف بين الفئات المتصارعة مرة أخرى، وعاد القتل والتناحر، وعادت الصفحات تقطر دما وشغبا وضوضاء . غير أن الصراع الدموى على السلطة لم يعد حكرا على المماليك وحدهم، فعلى الساحة الآن عنصر كان قد اختفى منذ سنوات، ولولا الحملة ما عاد بهذه الصورة الضارية : عادت السلطة العثمانية العسكرية لتؤكد سيطرتها على مصر، وكانت تركيا قد فقدت تلك السيطرة، فأعادت فتح مصر واستباحتها بحق السيف. لقد كان غياب السلطة العثمانية وتهميش دورها، من أهم العوامل التى أشعلت الرغبة فى غزو مصر، فكانت اطماع فرنسا، والحملة التى اجبرت تركيا

على العودة لتؤكد سيادتها على مصر. عاد العثمانيون كرد فعل مباشر للحملة وهم أكثر شراسة مما سبق، كما نقرأ عند الجبرتي . وكانت لذلك نتائج وخيمة، عاد العثمانيون بسطوة ما كانوا ليحلموا بها قبل الحملة، وانفراد المماليك بالحكم المطلق . وإن كانت الحملة قد أحدثت شيئا ملموسا وفعليا، فهو عودة مصر إلى حظيرة العثمانية فى الوقت الذى اوشكت مصر ـ وكان ذلك معروفا للعالم أجمع ـ على الاستقلال عنها، وهو الأمر الذى شجع بونابرت على الهجوم عليها، كما قالتها صراحة وزارة الشئون الخارجية في فرنسا، لتبرير قيام الحملة. وبعد قراءة الجبرتي، يرى الباحث أن عودة السيطرة التركية على مصر ـ على المستوى المحلى – النتيجة المباشرة والوحيدة لمرور جيش الشرق العاصف على مصر. فكان، بعد رحيله، التنافس الضارى مرة أخرى، بعد حقبة عارضة عابرة من ثلاث سنوات وكأن شيئا لم يحدث. كان هذا التنافس على من يتبوأ مركز حاكم القاهرة، وقد انتصر فى هذا السباق الدموى ضابط داهية من الجيش العثمانى، لعب وكأنه من المماليك ، ولكنه عرف كيف يستخدم الصوت المصـرى، ليكسـب تأييد الباب العالى : فى عام ١٧٨٦ جاء الجيش العثمانى لينصر المصريين على المماليك؛ وقف المصريون مرة أخرى فى عام ١٨٠٥ ، مع هذا القائد العثمانى ضد المماليك . حكم محمد على مصر وكأنه من المماليك ، إلى أن تخلص نهائيا من منافستهم له، وبدأ فى إنشاء دولة مركزية على نمط جديد ، نقل مصر فعلا من عهد الى عهد ولم تكن مصر بحاجة الى

الحملة ليأتي محمد على إليها؛ فبصفة مركزه ونظرا لطموحه ، كان من الممكن جدا أن يأتي يوما، اليها وهو ايضا «باشا» ممثل للسلطان.

ولكن الباشا العثماني كان قد فقد كل هيبة، خاصة بعد فشل الحملة العثمانية في ردع المماليك عام ١٧٨٦ . وكان المصريون قد أخذوا زمام الأمور بأيديهم ليدافعوا عن حقوقهم أمام تسلط ابراهيم بك ومراد بك؛ وفي عام ١٧٩٥ أي ثلاث سنوات فقط قبل وصول بونابرت. كانت الحركة الشعبية التي قادها الشرقاوي، ومعه السيد عمر مكرم لوضع شروط للحاكمين اللذين تعهدا باحترامها. وبعد تلك الزوبعة التي استمرت شهرا ، عادت الأمور مرة أخرى إلى سابق عهدها.

ولكن، هل كان المصريون سيصبرون على بلواهم بعد أن أملوا مرة شروطهم على البكوات ؟ وأملوها مرة أخرى بعد رحيل الجيش الفرنسي، وفرضوا محمد على عدو المماليك ، حاكما على مصر.. كأن شيئا لم يحدث ؟

١٧٩٥ .. والحملة في ١٧٩٨.. لم يعط بونابرت المصريين المهلة الكافية، وأصبح خطره أهم من همومهم الداخلية . وبعد الثورات التي استنزفت دماء المصريين وهممهم أثناء الحملة ، وبعد أن عادت الفوضى الى شوارع المحروسة، سعدوا بتسليم أمرهم ليد محمد على القوية ، وعادوا الى العثمانيين من خلاله، كما سبق أن سعد الفرنسيون من قبلهم، بتسليم أمورهم لبطش بونابرت ، حتى تهدأ الأمور وتعود الحياة إلى النظام والهدوء اللذين لا يستتب الأمان دونهما .

ونزل الإنجليز رشيد عام ١٨٠٧ .

نعم فتح بونابرت صفحة جديدة فى تاريخ مصر . لقد لفت نظر الإنجليز لأهمية موقعها وخطرها على سيادتهم للبحار . هذا على مستوى المدى الطويل للتاريخ الذى لا يتحرك إلا بالقرون .

أما على المستوى الداخلى، فأين هذا التأثير على المصريين الذى طالما قرأنا عنه ؟ عاش المصريون خلال سنوات ثلاث أحداثا جساما ، فما كان رد الفعل المصرى ؟

وبم يمكن أن يشبه تأثير تلك الزوبعة على الوعى المصرى المعاصر ؟



فى الخامس عشر من ربيع ثان سنة ١٤١٣، الموافق الاثنين الثانى عشر من اكتوبر تشرين أول عام ١٩٩٢، بابه ١٧٠٩ ، زلزلت الأرض زلزالها، وقال الإنسان ما لها، تهدمت البيوت ، وسقطت المدارس وهربت الأبلوات، وتشرد الفقراء ، واستشاطت التليفزيونات، وكثرت النكات، وتبرع الأحياء ، ودفن الأموات، وانهارت الاعصاب، لأن الأرض لم تهدأ إلا بعد شهر .. عادت الحياة بعده الى ما كانت عليه من قبل، ولم يعد أحد يذكر ما حدث إلا كالكابوس الذى ضرب كالصاعقة وتبخر كأى ماض كريه، لا يحسن ذكره . ترى ما الذى كان الجبرتى سيقوله عن هذا الحدث الجلل لو أنه عاصره ؟ أتراه يزيد عما قاله عن السنوات الثلاث التى احتل فيها الفرنسيون مصر، ثم ذهبوا بلا رجعة وكأنه زلزال ضرب وانتهى ؟

ثم يظهر محمد على فى الأفق ، كالموج الكاسح ، يغرق بجبروته كل ما يصادفه من عوائق ، فرسخت اقدامه لسنوات عديدة ، تمتد حتى لما بعد وفاة الجبرتى ورسخت كذلك اقدام نسله من بعده، ولأكثر من قرن من الزمن : إنه تاريخ مصر الذي لا يمكن اسقاطه .

وعلى الرغم من أن الجبرتى قد عاشرهم عن قرب، أثناء اشتراكه معهم فى الديوان الذى عمل فى عهد «مينو» إلا أن قارىء الجبرتى ليشهد على أنه لم يذكر الفرنسيين - بعد رحيلهم - إلا عرضاً ، وكأن مرورهم السريع لم يكن تلك المقابلة الفاصلة التى فتحت للمصريين أبواب عالم آخر باهر، عالم الحضارة الغربية لقد طوى الجبرتى الصفحة، وكأنها انعراج خاطئ فى مسيرة التاريخ الذى يسرده علينا، والحروب بين المماليك بعضهم بعضا، وبينهم و«الباشا» العثمانى، تستأنف ما انقطع من تلك المسيرة مؤقتا بسبب وجود العدو المشترك . ومرة أخرى، يعود الجميع إلى السباق الدامى للحصول على السلطة .. تماما كما كان يحدث قبل وصول الفرنسيين، إلا أن السباق فى هذه المرة، كان به الفرس الرابع، محمد على .

★★★

هذا ما توصلنا إليه بعد قراءة ما كتبه المصريون أيضاً، وأكد لنا حقيقة مغايرة تماما لما يردده كثير من المؤرخين عن تأثير الحملة على تاريخ مصر والمصريين.

نتيجة كنا قد توصلنا إليها بعد قراءة ما قاله شهود عيان من الفرنسيين أنفسهم .

لقد تم اختيار شهود من الحملة، وآخرين عاشوا فى مصر بعدها بحوالى نصف القرن، أو أقل، إما لأن شهادتهم لم تؤخذ قبل كتابة هذه الدراسة(٢٢)، أو لأهميتهم، أو لأمانتهم التى لم يشكك أحد فيها .

وبعد القراءة الدقيقة لكل ما كتب هؤلاء من كتب أو مكاتبات، كانت النتيجة هى نفسها، لاتتغير: لا يستطيع الباحث أن يستشعر - بعد دراسته - أى أثر يبدو أن الحملة قد تركته فعليا، خاصة فيما كتبه من عاشوا فى مصر بعد رحيلها بأعوام ثلاثين أو أكثر؛ والمعروف أن ثلاثة عقود أو خمسة فى تاريخ أية دولة، لاوزن لها بمقاييس الزمن، وكأنهم كتبوا فى اليوم الثانى من رحيل الجيش الفرنسى؛ بينما لاتزال آثار الفتحين العربى والعثمانى قائمة حتى يومنا هذا، على الرغم من مرور قرون على تاريخها .

لم يقابل دارس تلك النصوص الموثقة عن الحملة الفرنسية، ما يثبت وجود تأثيرات فعلية على المصريين، أيا كان مركزهم، اللهم إلا الذكريات التى تتوارثها الأجيال عادة، وهذه أيضا لا نجد لها إلا نصيبا ضئيلا فى بعض الكتب: ذكريات سلبية لا نستغربها بعد كل ما عرفنا من حقيقة معاملة الجيش المستعمر للأهالى، وهم سكان بلد مفتوح، لا يطلب منه إلا الامتثال للأوامر والخنوع للبطش المنظم، تلبية لمتطلبات الجيش الغازى: إنها الحقيقة التى بدأت تظهر وبدأ أيضاً الاعتراف بها، عند استقرائنا لتاريخ الحملة، بعد مرور مايقرب من قرنين من الزمن، وكان أهم فاضح لها فى فرنسا، رسالة «هنرى لورانس» عن الحملة الفرنسية، التى تمت ترجمتها أخيرا إلى العربية، كما أسلفنا، وقد يكون احسن

دليل على عدم ترك أى أثر للحملة، كما رأينا عند إدوارد لين وكلوت بك ونرفال وفلوبير، ما أكده بعد ذلك المؤرخون الذين اسلفنا دفاعهم الحماسى عن الفكرة الرائعة التى تركها جيش التحرير الفرنسى: إن اقصى ما توصلوا اليه كان تمجيد كتاب «وصف مصر» وهو لم يترجم إلا جزئيا اخيرا، هذا من جهة ، ثم ربط التأثير الثقافى الفرنسى للحملة، من جهة اخرى، بالبعثات التى بدأت تدرس الانسانيات بإيعاز من اسماعيل باشا بعد طمس دوره : فبعد سبعينات القرن التاسع عشر نذكر أن الحملة تركت مصر عام ١٨٠١، كان التيار «المتفرنج» ، فكان «المطربشون» أمام «المعممين»، حسب تعبير طه حسين فى رائعته «الأيام» وكان الانبهار بباريس، وكتاب الاستنارة الغربية فى بداية القرن العشرين .



وبعد .. فإننا لن نعجب لتعليقات المؤرخين الجدد.، الذين درسوا تاريخ بلدهم، بعد التخلص من غشايات الأساطير الكاذبة التى فرضت عليهم شعارات إنشائية لا أساس لها فى الحقيقة، فرضتها لعقود عديدة، هى عقود المرحلة الاستعمارية.

وبدأ المؤرخون الفرنسيون يعترفون بالواقع الجديد عليهم .

الفصل الثالث

«المؤرخون الجدد»

« لايبدو - وذلك في كثير من النقاط - أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذي طالما حُدثنا عنه . لم تدم بصمته ....، لم تكن سياسته إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جدا» .

«الثورة الفرنسية»

«المؤرخون الجدد»

مما لاشك فيه أن الأستاذ «فرانسو فوريه» هو أشهر اسم في مجموعة «المؤرخين الجدد» فقد كانت كتبه عن الثورة ـ كما أسلفنا ـ بمثابة قنبلة نسفت معبدا كان اليساريون والجمهوريون يتعبدون فيه. وفي كتابه الشهير عن «الثورة الفرنسية» الذي كتبه مشاركة مع «ديني ريشيه» ونشر سنة ١٩٦٥ ، صور جند بونابرت في الحملة على ايطاليا بتفاصيل يعجب لها من قرأ أدبيات الثورة السابقة ، حيث كان «جند الجمهورية» يقدمون على أنهم محررو شعوب البلدان التي فتحوها والذين نشروا بينهم «مبادىء الحرية والمساواة والأخوة» وكان التاريخ الرسمي يجعل منهم قديسي العلمنة ، سفراء الحكمة الثورية ، وشهداء أجيال المستقبل من أجل حياة الرخاء والأخوة الجديدة من أجل ذلك سميت البلاد المستعمرة «بالمحررة» وبالجمهوريات الأخوات! ولكن هذا الكتاب يعدد المجازر التي رد بها الفرنسيون على ثورة الايطاليين على الاحتلال الفرنسي الواقعي ، وحرقهم للمدن واعدامهم للرهائن . ومن بين ما يفضحه المؤرخان ـ فوريه وريشيه – نقرأ ما كتبه الجنرال بونابرت المنتصر، عن تلك التصرفات التعسفية لحكومة «الإدارة» قائلا : «أنا واثق أن هذا الدرس سيكون القدوة لشعوب ايطاليا» : كلام يمكن أن يطبق حرفيا على ما سيحدث في مصر بعد ذلك . ويعلق كاتبانا على هذا التصرف بما سبق أن ذكرناه في الجزء الأول من دراستنا هذه ، ونكرره هنا لأهميته: «وبسذاجة الضمير المستريح ، كان الفرنسيون يعزون هذا الشعب الى غوغاء رافضة لقيمة الحرية، غوغاء يلهبها تعصب

وتطرف قساوسة مثل الذين لعبوا دورا في فانديه . وقد شارك بعض المؤرخين في تصديق هذه الأوهام ، واعتبروا أن هذه الثورات ثورة مضادة ، بينما هي في الواقع دفاع بدائي لشعب يحمي نفسه من قطاع طرق أجانب استباحوا البلد» (٢٣). جنود الثورة أصبحوا في نظر هذين المؤرخين اذن قطاع طرق أجانب استباحوا البلد ، وهي هنا ايطاليا ، ولو أن المؤرخين اهتما بالحملة على مصر كما اهتما بالحملة على ايطاليا لأعادا الكلام نفســه بعد أن نزعا عن جيش التحرير الثوري ، ثوب القدسية الذي أخفى جرائمه لقرنين من الزمن : إن ما قرأناه بقلم شهود الحملة العيان ، يجعلنا لا نستغرب تقييم «ريشيه» و«فوريه» «لجنود الحرية» هؤلاء .

ولكن المؤرخين ، عندما تعرضا للحملة ، اعتبراها من اختصاص بونابرت. وأغلب الظن أنهما رفضا الخوض في موضوع لم يتخصصا فيه ، فرفضا الحديث عن تفاصيله كما فعلا مع تاريخ الثورة الذي قتلوه بحثا، مما يدل على أمانة علمية نادرة وسط أقرانهم .

وعندما نشر «فرانسو فوريه» وحده جزءى كتابه عن «الثورة» سنة ١٩٨٨ ألقى بمسئولية الحملة مرة أخرى على بونابرت لأن «مصر كانت جزءا من عالمه الخيالي » شارحا موقفه بقوله: «سأترك الحملة على مصر خارج هذا السرد ، لأن الحملة لها قصتها الخاصة ، المستقلة عن الأحداث الفرنسية ، إنها على عكس ذلك ، ضرورية لفهم مسألة الشرق في القرن التاسع عشر (علاوة على أن) المسألة كانت محسومة منذ البداية»، عندما أغرق نلسون الاسطول الفرنسي (٢٤) : كلمات معدودة

فى نصف صفحة قصيرة ، وسط التفاصيل الدقيقة التى تحكى ثورة ١٧٨٩، وماتلاها من سيطرة نابليون على فرنسا ، يوما بعد يوم ، حتى النهاية فى عام ١٨١٤. يرفض فرنسوا فوريه إذن التحدث عن الحملة ، لأنه يعتبرها جسما كالنتوء الغريب ، لها ظروفها المحلية التى تبعده عن اختصاصه المباشر: إنه لم يتخصص الا فى دراسة غاية فى الدقة للثورة الكبرى ، وفى سياساتها الداخلية والخارجية.

«فوريه» و«ريشيه» : «الثورة الفرنسية »

ولكن كتاب الثورة الفرنسية القديم ، كان قد تعرض بصورة أدق للحملة ، بصفتها من حروب الثورة وحكومة «الإدارة». والمؤرخان لايتحدثان فيه إلا عن بونابرت ، مما يشرح أيضا رفض «فوريه» ، فيما بعد ، الخوض فى موضوعها مادام يعتبرها جزءا من سيرة بونابرت ، أكثر منها جزءا من تاريخ الثورة لذا فإن المؤرخان لن يشيرا ، فى كتابهما إلا الى المرحلة التى كان الجنرال الشاب يحكم فيها مصر وكأنهما لايهتمان بالحملة إلا بسبب اسم قائدها .

إنهما يردان فى مؤلّفهما على أسلافهما من المؤرخين ويقولان ذلك صراحة ، ولذا ، فلا غنى عن قراءة أهم ما قالاه لينفذا أقاويل أشهر مؤرخى «حملة بونابرت على مصر» والذى سبق أن قرأنا لهم فى الجزء الأول من هذه الدراسة «عصر الأساطير» .



يذكرنا هذا الكتاب بأن أحد أسباب قيام الحملة أن التقارير التى قدمت للحكومة كانت تؤكد أن «الشعب المصرى سيستقبلنا بفرح بالغ»

علاوة على كل مزايا الاستيلاء على أرض مصر الخصبة وضرب مصالح انجلترا ، ويجزم كاتبانا أن بونابرت كان فى حاجة الى نصر باهر فى الشرق ، يزيد من فرص استيلائه على السلطة فى فرنسا ، كما أن تمويل الحملة جاء من نهب كنز مدينة «برن» السويسرية. أما عن الحملة نفسها «فهذه الغزوة التى قامت فى وقت سلام تام «مع تركيا» لأرض يمتلكها السلطان، قد اثارت صعاب جسيمة»، و «كان تفوق العدد والتسلح ، سبب نجاح غزو مصر ، ولكنه لم يجهز على المماليك ، وفى هذه الاثناء وقع الجيش الفرنسى فى الفخ» ، بعد «معركة النيل» كما يسمى الانجليز معركة أبو قير البحرية «معركة النيل كانت انتصارا للذكاء على روح المغامرة» ثم نقرأ كل النتائج السلبية للحملة ، وما فقدته فرنسا بسبب انعقاد التحالف الثانى ضد فرنسا ، ردا على هذه الغزوة .

وكان الكلام بالنسبة لحكم بونابرت صريحا قاسيا ، وجاء «قانون المنتصر» بمعنى «حكم القوى» عنوانا يلخص رؤيتهما وتحمله صفحات سبع تعرض ماراه المؤرخان أهم الأحداث . ويرد فيها الكتاب على ما كان يقال عن الحملة حتى أصبح واقعا ومسلمات لا تناقش؛ فنقرأ التالي: «تمجيد سياسة بونابرت فى مصر كان من المسلمات لزمن طويل ، فى التاريخ الفرنسى الرسمى على الأقل ، وقد قيل إن هذه السياسة عمل تحريرى ، وانفتاح لمصر على الحضارة الحديثة والتقدم. ولو أننا نظرنا اليها عن قرب ، فلاشك فى أننا سنجد بها بعض الجوانب المجددة، ولكنها عبارة عن اجابات تقليدية لمشاكل أزلية، فقد عرفت بلاد

النيل، خلال تاريخها الطويل ، أقليات غازية أخرى، غريبة بجنسها وحضارتها ودينها ، كانت تقابلهم كلهم الصعوبات نفسها ، رئاسة ادارة محلية كان لابد من الابقاء عليها ، التسامح لتهدئة الخطر المحدق بالديانة ، نهب الضرائب، كبت الثورات ومحاولة كسب ود الأعيان». فماذا كانت النتيجة بالنسبة لبونابرت الذى فعل مثل ما فعل سابقوه في غزو مصر؟. كانت الثورة في كل مكان .. ويصل المؤرخان لتقييم صريح للموقف: «لايبدو – وذلك فى كثير من النقاط – أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة الذى طالما حُدثنا عنه ، لم تدم بصمته من ناحية ، ومن ناحية أخرى، لم تكن (سياسته) إلا اجابات عملية لمشكلة قديمة جدا وعلي الرغم من ذلك فقد كانت مغامرته فريدة في ميدانين ، لقد وفرت لمثقفى وتقنو كرات القرن التاسع عشر حقلا ممتازا للتجارب العلمية»: الكلام واضح ولا يحتمل التأويل ، فالحملة اذن لم تفد أحدا غير فرنسيي القرن التاسع عشر، ولم يذكر حجر رشيد أو كتاب «وصف مصر» وكذلك لم تدم بصمة بونابرت ان كان قد ترك بصمة.

وعند تحليل أعمال المعهد الفرنسى ، أو بالاصح فرعه فى القاهرة نجد هذه الصفحات التى تقيم الحملة بموضوعية جديدة على من كان يؤرخ لها تؤكد الرؤية نفسها ، أى أنه لم يفد أحدا غير الفرنسيين .

ونقرأ التالى : «المادة الثانية تحدد الهدف المطلوب منه :

١ ـ تقدم التنوير ونشره فى مصر .

٢ ـ بحث ودراسة ونشر العوامل الطبيعية والصناعية والتاريخية فى مصر .

٣ ـ ابداء الرأى فى مختلف المسائل التى تطرحها عليه الحكومة».

ويقول الكتاب بعد سرد هذه الأهداف الثلاثة للمعهد فى مصر: «إن كان الهدف الأول لم يتحقق، وكان الثانى أكثرها خصوبة من المنظور التاريخى، فإن بونابرت كان يصب اهتمامه الخاص على الهدف الثالث»: الكلام واضح، فالاهتمام الفعلى كان طبعا لخدمة مشكلات الجيش فى حياته اليومية وإيجاد حلول محلية لها. لم يستفد المصريون شيئا من الأبحاث العلمية للمعهد اذن، وهذا الكلام منطقى لأن المعهد لم ينشأ أساسا من أجلهم بل من أجل رفاهية الجيش ، الأمر الذى يشرح غموض الشعارات التى طالما قرأناها عن الأثر الرائع الذى تركه المعهد ، والذى أخرج مصر من الظلمات إلى شمس التنوير .

عندما بحث مؤرخانا عن حقيقة الأمر ، لم يجدا شيئا واحدا يبرر أيا مما كان يقال : ونلاحظ نبذة غريبة وجديدة على الأدبيات التاريخية الفرنسية ، وهى الإشارة الى المؤرخين غير الفرنسيين وقد كانوا دائما موضع هجوم لأنهم يقولون الحقائق التى لا يرضى عنها «التأريخ الفرنسى الرسمى» قيل هذا بلباقة شديدة وحياء لغوى مستحب فى ذلك العصر ، باستعمال كلمتى «على الأقل». فإن «المؤرخين الجدد» الذين سيكتبون بعد ذلك سيواصلون المسيرة بالاعتراف جهارا بجدية الدراسات غير الفرنسية خاصة الأنجلو ساكسونية منها ، لأنها لم تكن تتعامل مع التاريخ الفرنسى من منطلق شوفينى ، يشوه ويدلس حتى تبدو الصورة ملائمة للهوى .

وتنتهى الصفحات السبع (والكتاب به أكثر من خمسمائة صفحة) وينتهى الجزء الخاص بالحملة برحيل بونابرت وكأن المؤلفان لم يبغيا الا نقد ماقيل عن بونابرت «وسياسته المصرية»، تنتهى تلك الصفحات بسرد لنشاط بونابرت العلمى، وتكون آخر الكلمات : «كان هذا العمل عابرا ولم يكن له أى تأثير على مستقبل مصر، لكنه أثر بعمق على جيل المهندسين السان سيمونيين» .

وقصة هؤلاء مع محمد على ثم فى الجزائر معروفة ، ولا علاقة لها بالحملة كما يقولها الكتاب صراحة قد تكون الحملة رحما شكل تجاربهم لكن تأثيرهم لم يغير شيئا من وجه مصر ، لأن محمد على لم يسمح لهم بمزاولة نظرياتهم الاستعمارية الاستيطانية .

أيا كان ، فقد توصل مؤلفا كتاب «الثورة الفرنسية» الشهير الى النتيجة نفسها التى سبق أن توصلنا اليها ، وهى أن الحملة كانت زوبعة عابرة ولم تترك أثرا فى تاريخ مصر. لقد حطم هذا الكتاب، بكلمات وجيزة، أسطورة الحملة ، كما حطم بإسهاب أسطورة الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩ .

ولكن كيف كان الأمر مع المؤرخين الآخرين ؟

***

لن نتوقف عند ما قاله «هنرى لورانس» فى رسالته،لتوافرها فى الاسواق مترجمة للعربية، خاصة أن الكتاب يقول الكثير، فيكون الرجوع إليه بمثابه إعادة نشره، علاوه على اننا لا نريد ان نخل بتوازن ما نعرض له عند الكتاب الآخرين . ولذا، فإننا، حالياً على الأقل، ننحى كل

ما قاله جانباً، حتى نرى ما يكتبه الآخرون على ضوء الكلام التقليدى الذى اعتاده القارئ الفرنسى لما يقرب من قرنين من الزمن.

«روجيه دوفريس» : «نابليون»

فى سنه ١٩٨٧ظهر عدد من سلسله كتب «ماذا أعرف؟» العلمية الشهيرة، فى مائة وخمس وعشرين صفحة من القطع الصغير، تحت عنوان «نابليون» (٢٥) .

وكان من الطبيعى ألا يستطيع مثل هذا الكتيب - الذى يغطى كل أحداث حياة نابليون الحافلة - التحدث عن الحملة على مصر فى أكثر من صفحات أربع . وعلى الرغم من ذلك فإنه ذو دلالة مهمة، فهو نموذج آخر لرؤية «المؤرخين الجدد» . وتكمن أهميته فى صغر حجمه، وانتشاره الواسع، بسبب جدية علوم هذه السلسلة التى تساعد المتخصص، وسهولة قراءتها التى تنير العامة .

وقد ظهر هذا الكتيب فى السنه نفسها التى كتب فيها «جان تولار» عن «أسطورة المنقذ» الكاذبة، فنابليون هذه المرة أيضا، لم يعد ذلك الإله الذى لا يخطئ، ولا ينجز إلا المعجزات التى لا يقدر عليها إلا عبقرى فذ مثله، ولكنه هنا الإنسان الذى اقترف من الاخطاء ما يمحى كل إيحاء بذلك الانبهار الذى اتسمت به الكتابات السابقة عند الحديث عنه .

فالمؤلف يقول صراحة ما أخفاه كثيرون، مثل تمسك نابليون باسمه الإيطالى «نابليونى بيونابرتى» (٢٦) حتى سنه ١٧٩٥، وهى السنه التى أراد فيها السفر الى تركيا مع بعثه الخبراء العسكريين المرسلين إلى اسطنبول . كما ان مؤرخنا «دوفريس» يعترف ان بونابرت استقبل فى

شمال إيطاليا كمحرر، إلا ان «الثورات اندلعت ،...، بسبب الضرائب الطاحنة التى فرضها (الفرنسيون) والتى كشفت (لبونابرت) عن قوة الشعور الوطنى الإيطالى . وبسبب تلك الاحداث، عمل نابليون كل ما فى وسعه لكبح جماح هذه الفتن، وتنازل عن فكرة خلق دويلات إيطالية مستقلة، فهو لن يسمح بعد ذلك إلا بإنشاء دول موالية لفرنسا» : مما يؤكد زيف فكرة جيوش بونابرت المحررة للشعوب .

كما نرى فى هذا الكتيب، نفاق بونابرت السياسى فى أحسن دلائله، عندما أمرته حكومة الإدارة بإنهاء البابوية، وإطفاء شعلة التعصب الدينى هذه : إنها السياسة التنويرية كما كان يفهمها رجال القرن الثامن عشر . نفذ بونابرت «الاوامر ولكنه أكد للكاردينال وزير شئون الدولة (البابوية) فى الوقت نفسه، أنه يحترم شخص البابا والديانة الكاثوليكية». يعرف القارئ أن بونابرت سيؤكد، كذلك، فى بيانه الأول للمصريين، عداءه للبابا ورفضه تلك الديانة . ولم تترجم هذه الفقرة إلى الفرنسية عند نشر هذا البيان فى فرنسا . ولكن «شاتوبريان» لن ينسى له تلك السقطة، مثل كثير من اليمينيين الملكيين المتدينين .

الغريب فى كتاب «دوفريس»، انه لم يذكر مصر أثناء حديثه عن تصرفات بونابرت فى إيطاليا مثله فى ذلك مثل الغالبية العظمى من المؤرخين، فهو يقول : «فوجئ بونابرت بردود الأفعال العدائية للإيطاليين، وكان منهم الرعاع الذين يثيرهم الرهبان، وكان منهم ايضا اناس يؤمنون بمبادئ الثورة الفرنسية بصدق. لم يفهم بونابرت أنه أمام أولى المظاهرات الوطنية الإيطالية الرافضة للأجانب .لم يفهم انه من الممكن

التصدى لتجاوزات الاحتلال الفرنسى، مع كون الرافض لها يعقوبياً صادقاً . ولنقل بإيجاز، إنه اقترف الخطأ الذى سيتكرر فيما بعد فى أسبانيا، والمانيا، وروسيا، وهو إنكاره قدر الشعور الوطنى التحررى للشعوب المستعمرة». تجاهل مؤرخنا هنا ذكر ما حدث أيضا فى مصر، وطمسه تلك الحقيقة يذكرنا بكتابات مؤرخى العصر الاستعمارى، كأن لمصر وضعاً خاصاً، لا ينطبق عليه ما حدث فى البلاد الأخرى من ردود أفعال مشروعة على احتلال قاس ، يجعلها تثور لسلبها أبسط حقوق العيش الكريم.

ويعد إيطاليا، ينتقل دوفريس إلى مصر مع بونابرت، فى صفحات أربع ، نعود اليها لاحقاً، فنقرأ أولا ما قاله ، مؤرخنا ، بعد ذلك ، عن حكم نابليون، عندما استولى على السلطة فور عودته من الشرق.

ولن نتمادى فى ذكر ما كتبه، خاصة أن مؤرخين آخرين كانوا قد قالوا الكلام نفسه، وسبق أن استرشدنا بتأكيدهم لما يبدو أنه أصبح الصورة الجديدة للاستعمار الفرنسى فى ذلك العصر ، على أيدى جيش كان يصور سابقا على أنه منح أوربا الحرية ومبادئ الثورة. فبلجيكا وهولندا فى حالة ثورة بسبب تجاوزات الجند فى البلاد المحتلة «المحررة»، والضرائب الباهظة المفروضة عليها. ويقول مؤرخنا: «إن الفلاحين (فى هذه البلاد)، حين طلبوا للتجنيد، ثاروا بمساندة الكهنوت»، فقد كان دور رجال الدين المحليين ضد المستعمر الفرنسى، من أهم عناصر الثورة ضد المحتل، وهو ما يشبه إلى حد كبير، دور رجال الدين فى مصر؛ ولكننا لا نجد أيه إشارة إلى هذا التشابه هنا أيضا.

ثم يكون وصف الحكم غير الديمقراطى لفرنسا، بما فيه من إلغاء لمبادئها، وتجريدها من كل مكاسب الثورة السياسية ، كما سبق أن عرفنا. ومرة أخرى، لا نجد أية مقارنة بين هذا الحكم وما كان يماثله فى مصر.

والجديد أن مؤرخنا يشير، وبالتالى يشرح سبب ثورة عبيد المستعمرات: «لقد تسببت إعادة قوانين الرق ـ بقانون السابع عشر من مايو ١٨٠٢ ـ فى الثورة، وإضاعة جزيرة سان – دومينج»، هذه الهزيمة التى قلما تحدث عنها المؤرخون، لأن قائدها لم يكن الجنرال بونابرت، ولكن زوج أخته الجنرال «لوكلير». ويشير «دوفريس» إلى أن تتويج نابليون ملكا على إيطاليا فى مارس من عام ١٨٠٥ «لم تسبقه أية استشارة شعبية تدعم هذا التغيير. لقد أدار نابليون ظهره للنظرية الثورية للعقد» الاجتماعى بين الحاكم والمحكوم ونعرف من تفاصيل الدراسات الأخرى، أن «استشارة» فرنسا فيما سبق من قرارات وتغييرات، لم تكن إلا صورية. فما الجديد إذن؟. وسيحدث الشئ نفسه فى سويسرا ثم ألمانيا، مع اختلاف اللقب الجديد فى كل من هذه البلدان. لذا، جاء الاعتراف صريحا، «فدوفريس» يستعمل كلمة «مستعمرات الإمبراطورية» عندما يتحدث عن بلاد أوربا «الصديقة» لفرنسا .

ويذكرنا وصفه لما يقترفه الجند الفرنسيون فى هذه البلاد، بما كان يحدث فى مصر عندما أطلقت أيديهم، كما حدث فى أوربا: «على الجندى أن يعيش على خير البلد، فكثيرا ما يتحول إلى لص ناهب للمأكولات. فالأجور لم تكن تدفع بانتظام، وغالبا ما تكون من الضرائب المفروضة على المهزومين».

ويؤكد مؤرخنا على جانب آخر من تاريخ نابليون، وهو بذلك يعتبر من القلة الذين توقفوا عند نقطة تتويجه إمبراطورا ونتائج هذا الحدث؛ إذ «شعر نابليون منذ تلك اللحظة أنه من عائلة الملوك، وبالتالى، فإن عليه أن يتنازل عن كونه «الثورة المسلحة» فى أوربا. وحتى يثبت شرعيته أمام أوربا الملكية، أخذ يعقد الزيجات مع العائلات الملكية الحاكمة آنذاك». ويذكر «دوفريس» - والأمثلة كثيرة - كيف تم اختطاف أحد الناشرين فى مدينة «نورنبرج» الألمانية وإعدامه لأنه كان يوزع منشورات ضد نابليون، وكيف حاول نابليون أن يحرض النزعة القومية فى المجر لتثور على الحكم النمساوى، ولكن محاولاته باءت بالفشل؛ ومرة أخرى لم يذكر أن هذا بالضبط ما حاوله بونابرت فى مصر لسلخها عن الإمبراطورية العثمانية، بدعوى إحياء المجد السحيق لمصر.

كما أن مؤرخنا يلاحظ أن نابليون قد أعاد «التعذيب الوحشى» إلى القانون الجنائى الفرنسى، ونحن نعرف أن الملكية كانت قد ألغت التعذيب قبل قيام الثورة بسنوات. ولن يعجب القارئ العربى «للوحشية الإمبراطورية»، إذا تذكر ما حدث لسليمان الحلبى: حوكم حسب «العدالة الفرنسية»، ولكن طبق عليه «القانون المحلى» ليتم تعذيبه.

ويقول مؤرخنا باقتضاب: «تأكد الطغيان فى ظاهرة «التحكم» فى العقول». ليفضح مرة أخرى «تجنيد الفنانين لخدمة النظام (و) سيطرة الأسطورة الإمبراطورية على الجمهور، فأصبح هناك عبادة إمبراطورية، كان لها مثلا تقويم لطقوس دينية خاصة بها»، وذلك بمساندة رجال الدين فى فرنسا كما سبق أن قرأنا.

ثم يكون الاعتراف بالدور البريطانى فى إخراج الفرنسيين من أسبانيا: «فى عام ١٨١٠، توجه «ماسينا» على رأس مائة ألف جندى، مأمورا بتنظيف شبه الجزيرة الأيبيرية من الوجود الإنجليزى. دخل البرتغال، ولكنه طرد منها عام ١٨١١، .... ، وفى أوائل ١٨١٢، دخل ولينجتون (الإنجليزى) أسبانيا، وفى الثانى والعشرين من يوليو ،....، سحق مارمون و كلوزيل، وطرد جوزيف (أخو نابليون المتوج على عرش أسبانيا) من مدريد». فكانت مساعدة الإنجليز للأسبان مثل مساندتهم للعثمانيين والمصريين لطرد الفرنسيين، وهذا أيضا لم يذكر.

أما عن الحملة على روسيا، فهى أيضا تذكرنا بما حدث فى مصر، خاصة أن «دوفريس» يشير بوضوح إلى ماتاه فى الكتب الكبيرة التى تحدثت عن الموضوع. فالمعروف أن بونابرت جاء إلى مصر ليحدث المصريين عن مبادئ لا علاقة لها بواقع مصريى ذلك العصر، وبمنطق لا يناسب ما كانوا يعيشونه آنذاك . وكان بونابرت ينتظر أن تثور شعوب الشرق على حكامها، مثلما حدث فى فرنسا، فيكون هو محررها وقائدها. ولسان حال الموقف يعبر عنه «دوفريس» بقوله عن الحملة على

روسيا: «ذهب إليها نابليون وكله أفكار خاطئة. كان ينتظر أن يثور أقنان الأرض لأنه يجلب لهم مبادئ ١٧٨٩، مع أنهم لم يكونوا قد سمعوا عنها مطلقا. ومع ذلك، فهو لم يحررهم حتى لا يفسد المصالحة المقبلة التى كان ينتظرها، مع القيصر»: الازدواجية نفسها قابلناها فى مصر، فقد كانت البيانات تتحدث عن الحرية والمساواة، وفى الوقت نفسه تسير الأفعال فى خط مناقض تماما، فرفض المماليك مطلوب من المصريين، ولكن معاملة الفرنسيين للمصريين كانت نفس معاملة المماليك لهم .... إن لم تكن أسوأ.

كتيب «دوفريس» صغير حقا، خاصة إذا ما قارناه بالمجلدات التى نشرت ولا يقرؤها غير المثقفين المتخصصين. أما هذا الكتيب فهو للطلبة وعامة الجمهور المهتم بقضايا التاريخ، دون أن يغوص فى تفاصيل مرهقة، قد يغرق فيها القارئ فلا يواصل قراءتها؛ كتيب للعامة يثبت أن أسطورة نابليون محرر أوربا ونصير القوميات قد انتهت.

فماذا عن أسطورة الحملة، ومؤرخنا يفضح بموضوعية قاسية، الحقيقة المؤلمة وراء أسطورة نابليون؟

★★★

يقول «دوفريس» إن الحملة على مصر ليست إلا نتيجة لاستحالة غزو إنجلترا، كما كان الأمر مطروحا. وكان رأى بونابرت، عندما رأى ضعف البحرية الفرنسية، أن تُضرب إنجلترا فى أرض حليفتها «هانوفر»، أو ضربها فى مصر. ولكن ضرب «هانوفر»، الأرض الألمانية، يمكن أن يشعل حربا جديدة مع كل الدويلات الألمانية الأخرى؛ أما احتلال مصر

فسيعوض خسائر فرنسا فى مستعمراتها المفقودة، حتى إن كانت مصر ملكا لتركيا، وهى دولة صديقة لفرنسا، وليس لها أية معاهدات أمنية مع انجلترا. ومصر على طريق الهند، وفى الهند ثورة ضد الإنجليز، يمكن مساعدتها إذا كانت مصر تحت السيطرة الفرنسية. فكان قرار غزو مصر دون إعلان حرب.

وكان أول أخطاء نابليون، الذى سيكرر المأساة فى روسيا فيما بعد: إنه الجهل بمناخ البلد الغريب؛ وهكذا «ستتنزل القوات مرتدية ملابس الميدان الشتوية فى شهر يوليو» إلى صحراء مصر الحارقة.

أمرت حكومة «الإدارة» بونابرت بإرسال خمسة عشر ألف جندى من السويس إلى الهند لمساعدة الثوار الهنود «ولكن كان عليه أن يضمن سيطرته على مصر أولا. وعندما وصل إلى السويس فى ديسمبر ١٧٩٨، لم يجد السفن الكافية لهذه المرحلة، وكان تيبو - ساهيب (قائد ثورة الهند) قد هزم وقتل».

«كانت الحملة على مصر، على المستوى الحربى، فاشلة فشلا تاما: الجيش الفرنسى محصور فى غزوته، وإنجلترا سيدة البحر المتوسط، وقوتها فى الهند موطدة. وكانت للحملة نتائج مؤسفة، ففى ديسمبر ١٧٩٨ أعلنت تركيا الحرب على فرنسا. وبعد ذلك بقليل، سمحت للقيصر بدخول أسطوله الحربى إلى البحر المتوسط. وفى ديسمبر، عقد تحالف بين إنجلترا ونابولى وروسيا ،.....، وعندما سمحت النمسا للجيوش الروسية بالمرور فى أراضيها، أعلنت فرنسا الحرب عليها، فى مارس

«كما سبق أن حدث في إيطاليا، حاول بونابرت في مصر أن يستميل أعيان البلد - على الأقل - ليضمهم إلى صفه، مما أجبره على التنظيم والإدارة والتقنين، ولكنه لم يعدل عن سياسة استغلاله للبلد، فباءت سياسة الضم هذه بالفشل».

«في الثاني من يوليو ١٧٩٨، تقدم إلى الأهالي على أنه محررهم، مؤكدا نيته في احترام القرآن، فقد كان شديد الحرص على تفادى المشاكل الدينية. وبعد ذلك بثلاثة أيام، أطلق نداء صريحا بالثورة على المماليك، ولكن أحدا لم يتحرك، فكانت المفاجأة الكبرى له. وبعد ذلك مباشرة، بدأ في فرض ضرائب باهظة من الذهب والفضة على تجار الإسكندرية. عندما فهم استحالة إدارة البلد بطريقة مباشرة، نصَّب في كل مدينة «ديوانا» من الأعيان، وظيفته السهر على الإدارة، والتموين والشرطة، تحت مراقبة مندوبين فرنسيين. أما فيما يخص العدالة والضرائب، فقد حافظ على الأسلوب المحلي».

«وقد أنشأ في الثاني والعشرين من أغسطس ١٧٩٨ ما يمكن أن يعتبر فرعا لمعهد باريس، حتى يسهل على العلماء الذين اصطحبوه أعمالهم. إنه «معهد مصر» (أي المعهد الفرنسي) الذي طلب منه أن «ينشر التنوير في مصر ويساعد على التقدم»، ودراسة كل موارد البلد وتاريخه. وإن كان الجزء الأول من المهمة قد فشل تماما، فإن الجزء الثاني قد وفر الوثائق التي سمحت بميلاد علم المصريات». ثم نقرأ عن كل المشروعات التي أراد نابليون تحقيقها، ويعترف مؤرخنا: «كان

الهدف الأكيد هو حماية الجند من الأوبئة، ولذا فقد اتخذت عدة قرارات لتحسين صحة أهل البلد، لم يكن لتلك السياسة أى تأثير مباشر، غير أنها أدهشت أطباء البلد. ولكنها كانت أصل الانطلاقة الاقتصادية المقبلة للبلد...»!: صوت نشاز، فجأة، وسط كل هذه الموضوعية العلمية، خاصة أن مؤرخنا يقول الكثير فى أسلوبه الواضح على اقتضابه، مثل سخريته من مفاجأة بونابرت بعد ندائه بالثورة على المماليك. فالجملة الأخيرة لا يبررها - من الناحية المنطقية - أى كلام سابق عن المشروعات التى تستهدف كلها حرية حركة الجند فى الوادى، ولا يرى القارئ أى صلة بين هذا الكلام عن «دهشة أطباء البلد»، وما سيحدث بعد ذلك - على المستوى الاقتصادى- فى عهد محمد على. مرة أخرى، ومع اعتراف «دوفريس» بما كان المؤرخون السابقون لا يميلون إلى ذكره، نجد لازمة كل ما يمس وجود الفرنسيين فى مصر، وهى إرجاع الفضل فى انطلاقة محمد على إلى الوجود العسكرى الفرنسى. تناقض غريب، خاصة إذا ما استمر الدارس فى قراءته ليعرف ما يقوله المؤرخ نفسه بعد ذلك: «كان أهل البلد لا يطيقون رق الاحتلال. وساءت الحال عندما أعلن السلطان الحرب المقدسة على الفرنسيين. ومنذ سبتمبر ١٧٩٨، اندلعت الثورات، وتلتها ردود الأفعال الثأرية الدموية»: كلمات مقتضبة مرة أخرى، ولكنها تدمغ الاحتلال بوصمه الوحشية.

ويلخص «دوفريس» بعد ذلك ، سريعا، معارك بونابرت، مؤكدا أن: «بونابرت لم يستطع فتح عكا، التى كان يدافع عنها المهاجر الفرنسى «فلبيو»، زميل دراسته فى الماضى، فعاد إلى مصر». وهنا، تظهر حقيقة

الأمر ويتجلى: إن «دوفريس» من ذلك النوع الجديد من المؤرخين الذى يعترف بالحقائق المؤلمة، ولكنه لايزال متمسكا، ولو فى دخيلة نفسه، ببعض خيوط الأسطورة، لزوم شوفينيته؛ فالذى هزم بونابرت فى عكا لا يمكن أن يكون إلا فرنسيا، وصحوة مصر فى القرن التاسع عشر لابد أن تكون وليدة الوجود الفرنسى، حتى وإن كان عاريا من أى دليل يؤكد به مثل هذه الادعاءات. وعلى الرغم من وضوح كلامه السابق كله، إلا أننا نجد هنا تلك البؤرة المظلمة من الإنشاء الأجوف والمسلمات الغامضة، التى تؤكّد ، دونما دليل تستند عليه.

ولكن إذا ما قورن باقى كلام الرجل بما سبق أن عرفناه فى الكتابات الأخرى، فإنه ، بالقطع ، يعتبر قفزة هائلة نحو الاعتراف بالواقع، ورد الاعتبار للمصريين الذين لايستقبلون الغزاة بالأحضان، كما سبق أن قرأنا. وكأن هذا الكتاب يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فبه - على المستوى العلمى - من الأمانة ما يجعله يدحض ما كان يقال عن الانتصارات المعجزة لبونابرت، معبود المصريين المبهورين به؛ وإن كان لايزال أسير أسطورة جعلت من الحملة حربا خاصة، لا علاقة لها بحروب الثورة الأخرى، ولا يمكن أن يهزم قائدها على أيد غير أوربية.

بضع سنوات، وتزداد الشجاعة.... وينقشع ما تبقى من سحب كانت تحجب نور الحقيقة الكاملة.

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية»

فى عام ١٩٨٩، نشر «هنرى لورانس» رسالته للدكتوراه عن «الحملة على مصر» وقال فيها كل ما يمكن أن يقوله دارس شاب

حديث، تخلص، مثل علماء جيله، من غشايات الأساطير الخاصة بفرنسا، الدولة الاستعمارية العظمى: لقد تحدث فى كتابه هذا، كما أسلفنا، عما قيل عن الحملة كله، ففضح كل مساوئها. ولكن مؤرخا آخر أراد أن يزيد على ما نشر، ففى عام ١٩٩١- أى بعد كتاب «لورانس» بعامين فقط - كان كتاب بعنوان «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية : ١٧٩٨ - ١٨٠١» (٢٧).

يتحدث «جان - جويل بريجون» مؤلف هذا الكتاب، عن رسالة «لورانس» بتعال شديد، ومن البديهى أنه حاول التفوق عليه. ولكن كتابه، على ضخامته، لا يقدم رؤية متسقة نستشف منها موقعه الحقيقى من الأحداث التى يرويها، حتى أن خاتمة الكتاب جاءت مفاجأة تامة للقارئ؟ والمعلومات التى يقدمها مؤرخنا مفككة، لا تضيف، فى الواقع، جديدا إلى جوهر الموضوع. ولكن كتابه يهمنا لما يورده من معلومات تثبت أن ثمة حقائق لم يعد من المستطاع السكوت عنها.

يبدأ «بريجون» مقدمته بنقد ساخر «لكل المؤرخين العرب» الذين أرخوا للحملة وانبهروا ببونابرت وحملته... ثم نراه لا يذكر إلا ثلاثة كتب! فإذا جاء، فى إطار الحديث، ذكر كتاب يعارض كلامه هذا، فهو لا يتحدث عنه إلا فى أحد هوامشه ويتهم مؤلفه بالسلفية الدينية المتعنتة. ومن البديهى أنه لم يقرأ من كتب «المؤرخين العرب» إلا هذه الكتب الأربعة وإذا ما تعرض بعد ذلك لمؤرخ فرنسى حديث، عاب عليه «تجاهله المتعالى لوجهة نظر أهل البلد». أما عن «كريستوفر هيرولد»، فهو «يعبر عن وجهة نظر أنجلو - ساكسونية نموذجية (أى أنها معادية تماما

للفرنسيين). فيحلو له، فى كل صفحة تقريبا، سرد وصف لحظات الضعف، والتخبط، وحتى عيوب الرجل الكبير»، أى بونابرت .

نجد إذن، ومنذ الصفحات الأولى، إدعاء صارخا بالموضوعية التى لا يساندها فعل، فهو يعيب على الأمريكى نقده بونابرت، ولا يقدم من المؤرخين العرب إلا قلة لا تدل إلا على تحيز تيار بعينه للفرنسيين فاعتبرهم «كل المؤرخين العرب»، دون ذكر للتيارات الأخرى. وإذا قابل نموذجا لأحد هذه التيارات، همّشه ودمغه بوصمة التعنت السلفى، ثم يدخل فى صلب الموضوع. لن نناقش ما قاله كله، فيكفينا رصد بعض المعلومات الجديدة التى أوردها فى كتابه الضخم، والتى تخص قضيتنا، كما سنترجم من تعليقاته ما ينم عن نظرة حديثة للحملة ورجالاتها.

فهو يعترف مثلا بالمحاولات الدائمة للإرساليات الكاثوليكية الفاشلة، فى ربط الأقباط المصريين بهم كما سنقرأ ـ عندما يتحدث عن يعقوب ـ قوله إن يعقوب هذا «أحد الأقباط النادرين الذين حاربوا بجانب الفرنسيين». وعندما يتعرض للحملة، يلاحظ أن «أكثر الحجج شيوعا بين غزاة ١٧٩٨، هى الإعلان عن شن حرب تحريرية لانتزاع المصريين من طغيان البكوات. هذا الشرح، حتى وإن كان مسببا إلى حد ما، وإن كان يعبر عن إيمان صادق بالفكرة، إلا أنه تبرير ذاتى لضميرهم الحى، وواجب مفروض إعلانه من قبل كل غازٍ عشية قيامه بمشروع استعمارى!». الاعتراف بالهدف الاستعمارى المطلق واضح إذن وصريح، فكيف نتفهم أن يكون ضميرهم حى مع ذلك؟ ولكن هذه التأكيدات

ستتعدد بعد ذلك، فيبدو أن «بريجون» يناهض هذا الهدف الاستعمارى الأوحد. إنه يتحدث مثلا عن «حكومة الإدارة» وأزمتها الاقتصادية الطاحنة، بصراحة فجة، قائلا: «فهى لاتعيش إلا بالحيل والقروض ونهب «الجمهوريات» الأخوات أيضا، وهى الأراضى «المحررة». وفى نهاية ١٧٩٧، تتجه أنظار هذه الحكومة إلى الولايات السويسرية وممتلكات البابا: فهناك كنوز ترقد فى مدينة «برن» السويسرية، وفى روما، تنتظر من يأخذها»: السخرية الواضحة التى يتحدث بها «بريجون» عن معاملة الحكومة الفرنسية للدول «الأخوات» المحررة فى الجزء الأول من هذا النص، وكلامه الأخير عن فكرة استغلال البلاد وغزوها لا لشىء غير سلب كنوزها، ينم عن انتماء المؤرخ إلى الفكر الحديث، الذى يرفض مبدأ الاستعمار.

وعلى أية حال، فإن هذه الكنوز هى التى ستمول الحملة على مصر.

وسرد مؤرخنا لأحداث الحملة، يؤكد تلك النظرة السافرة لما كان يعتبر - كما أسلفنا - أساطير أمجاد التاريخ الفرنسى، فهو يقول مثلا عن «المعركة المسماة بموقعة الأهرامات (إنها) أحد الأيام العظيمة فى الملحمة النابليونية، كان للمؤرخين الفضل فى التعامل مع الحدث الذى عظم بعد ذلك بهذه الصورة».

فمؤرخنا يرى إذن أن الموقعة فى حقيقتها لاتتناسب ما قيل عنها بعد ذلك ، كما أنه يقول عن «معركة النيل كما يسميها البريطانيون (معركة أبو قير البحرية) انها نموذج الكارثة التى حولتها الذاكرة الفرنسية الى حادثة حزينة ولكنها مجيدة».



،معركة أبو قير، (وهى طبعا معركة أبوقير الثانية)

اما عن مشاعر المصريين، فهو يتهم الفرنسيين بعدم ادراك حقيقتها: «كان الفرنسيون يظنون أنهم وصلوا الى سلام مستتب. وقد وجد بونابرت نفسه محاطا مرتين على الأقل، بجمهور يلقى عليه السباب، ولكن مترجميه طمئنوه مؤكدين أن هذه الجمهرة تتغنى بأفضاله!» وعلامات التعجب تكشف عن رأى «بريجون» الساخر فى المسألة. وتكون ثورة القاهرة الأولى، ويكتب بونابرت إلى «رينييه»: «عاد الهدوء التام إلى القاهرة ،...، وفى كل ليلة ، تقطع حوالى ثلاثين رأسا، و(نقتل) كثيرا من القواد، أعتقد أن ذلك سيكون درسا كافيا»، فيعلق «بريجون» قائلا: «أثبتت ثورة القاهرة أن قلة من المصريين هى التى كانت راضية بالوجود الفرنسى، اما الآخرون كلهم فكانوا مستعدين للتضحية بحياتهم للتخلص منه». ويحكى كيف أن الجنرال «لانوس» استعاد مدينة دمنهور، التى كان «المهدى» قد استولى عليها : «فحولها (لانوس) الى رماد، وقتل كل سكانها، وبعد أن انتهى من هذا «الأورادور»...» لابد من وقفة هنا، فالأمر جد خطير فاستعمال مؤرخنا هذا الاسم الأخير «أورادور» له دلالة خطيرة، إذ أن «بريجون» بهذا الوصف، يشبه فرنسيى الحملة، بالجيش النازى، الذى احتل فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية، و«أورادور» هو اسم قرية حرق كل أهلها فى العاشر من يونيو ١٩٤٤، وأصبح اسمها رمزا للوحشية الألمانية والبربرية النازية، فالتشبيه جد خطير وجديد على الفرنسيين المهتمين بتأريخ الحملة.

لكن هذا التشبيه الذى يدمغ فرنسيى الحملة بمثل تلك الوصمة ليس الوحيد فى كتاب «بريجون». فهو يقارن مرارا بعد ذلك، ما حدث على أيدى الجند المستعمرين، بما فعلوه من قبل فى مقاطعة «فانديه» فى فرنسا، عندما حولوا البلد الى «أرض محروقة» بعد الإجهاز على كل السكان من نساء وأطفال وشيوخ.

وإذا ما بحث مؤرخنا عمن تعاون مع الفرنسيين من المصريين، نراه يعترف أنه لم يجد إلا قلة ضئيلة، «لاتتعدى أصابع اليد الواحدة». لذا فقد اضطر الفرنسيون الى استخدام «وحوش» مثل برطلمى اليونانى، فكانت النتيجة أن «الفرنسيين فقدوا مصداقيتهم لدى الشعوب المستعمرة. ولكن الاحتلال العسكرى لبلد مهزوم، مجبر على مثل هذا المنطق البشع، وذلك ما يحدث فى كل العصور».

ثم نصل الى ما يقدمه «بريجون» باستفاضة، وهى «يوميات فرانسوا» الذى لقب «بجمل مصر» لاشتراكه فى جميع معارك الحملة، كبيرة وصغيرة، فقد تطوع فى صفوف الثورة منذ عام ١٧٩٢، وهو لايزال فى السابعة عشرة من عمره، فأصبح جزءا منها ومن حروبها، وارتبط مصيره بعد ذلك بحروب بونابرت فى ايطاليا قبل أن يسافر إلى مصر، وكان قد تمت ترقيته إلى رتبة ضابط ؛ إنه أحسن نموذج للجندى الثورى المحترف فى عصره. وتشكل يومياته أحسن صورة لما كان يحدث فعلا فى مصر، على أيدى جند الحملة الفرنسية. وقد استعمل هذه «اليوميات» آخرون، ولكن «بريجون» اختار أن يفرد لها أكبر نصيب، حتى يصور ما أسماه فى عنوانه «الحياة اليومية» للجيش المستعمر.

وبدون اسهاب فى التفاصيل التى ينشرها «بريجون» فى كتابه، يكفينا بعض الاشارات الى ما وصفه الضابط ذاته، مثل اشتراكه «فى عمليات تمشيط تكررت كثيرا وكانت لاتترك وراءها إلا الرماد وسفك الدماء. ولم يشعر فرانسوا الا بتأنيب ضمير خفيف. إنه يفضل - على حد قوله - ألا «يشرح الفظاعة بالتفصيل». كان «فرانسوا» هذا مع فريق الكشافين المكلف بأكثر العمليات وحشية، وكانت لهم سمعة جعلت زملاءهم يلقبونهم بالجزارين» . وتستمر الملحمة الدموية للدوريات التى يشترك فيها هذا الضابط وهى «تمشيط القرى وسلب مؤنها وحرقها وقتل فلاحيها.

ويرد الأهالى بالعنف نفسه لأن دائرة البشائع مفرغة وتنتهى دائما حيث بدأت.

ويستمر «بريجون» فى سرد «يوميات فرانسوا» فنقرأ التالى:

«مقتل كليبر(الرابع عشر من يونيو ١٨٠٠) يجعل «فرانسوا» يفقد صوابه من شدة الغضب، فهو يجرى مع زملائه الى مكان الجريمة، ويقتل بالسيف أو يطعن بالسونكى كل من يعترض طريقه» (٢٨). وعندما ننتهى من قصص «فرانسوا» الدموية تلك، نعود الى كتابة «بريجون» نفسه ورأيه فى الأحداث التاريخية التى تلت جلاء القوات الفرنسية عن مصر عام ١٨٠١ وما قيل عنها.

يرد «بريجون» أولا على من قال ان المصريين كانوا يتمنون عودة الجيش الفرنسى بعد رحيله قائلا: «مع شديد احترامى للمسيو دى ليسبس، فالندم الذى تركته فرنسا لم يكن جماعيا، فالكثير من

المصريين والقوى المؤثرة فى البلد لم يكونوا راغبين فى عودة الفرنسيين وعلى رأسهم محمد على. وكان الفرنسيون من جهة أخرى غير قادرين بالمرة على العودة إلى مصر وترسيخ أقدامهم فيها». أما من تبقى من الجند الفرنسيين في مصر، فهم: «أفراد منعزلون لم يكونوا غير أنقاض الحملة، وغالبا ما كانوا مرتدين (عن دينهم) ذابوا بسرعة فائقة وسط الأهالى».

يقول مؤرخنا أيضا إن محمد على «جمع حوله مدربين أوربيين، أغلبهم من الفرنسيين، ولكنه لم يكن سعيدا بهم، حتى جاءت سنة ١٨١٥. ففى هذه السنة وصل ضابط فرنسي شاب هو الكولونيل سيف»، هذا اعتراف بأن مثل من سيصبح «سليمان باشا» لم يكن القاعدة فيمن خدم محمد على من الفرنسيين، وهذا الاعتراف يثبت عدم جدية القول بأن الفرنسيين هم سبب تحول مصر إلى دولة عصرية فى عهد محمد على.

نقرأ أيضا عن التفاصيل التى حولت الحملة الى اسطورة على أيدى فنانين لم تطأ أقدامهم أرض مصر، وهم الذين كلفوا بعد جلاء القوات الفرنسية بتمجيد «اللحظات العظيمة للحملة، وهذا الفن خاص بالبلاط الامبراطورى، وهو غاية فى المهارة وكله حركة متأججة ؛ يهدف أساسا إلى تعظيم نابليون بونابرت، ثم قواده من بعده». نقرأ كذلك كيف أن الأسطورة تبلورت فى عام ١٨٢٨ – أى بعد الحملة بثلاثة عقود ـ عندما نشرت الملحمة الشعرية «نابليون فى مصر» لمؤلفيها «برتليمى» و«ميرى»، ونقرأ عن نجاح هذه القصيدة التى أعيد نشرها عدة مرات.

بعد كل هذا الكلام الواضح الصريح، الذى ينم عن نقد لاذع لكل ما يمس الحملة، وأفعال جنودها، وتحويلها الى اسطورة، تكون مفاجأة الخاتمة. فبعد أربعمائة صفحة تكشف حقائق دامية وراء تلك الأسطورة التى فندها مؤرخنا تأتى الخاتمة: يتحدث «بريجون» عن الآثار الرائعة التى تركها الجيش، فعلى الرغم من كل ما سبق إلا أنه يؤكد أن عثمان جلال «موليير مصر» الذى ولد عام ١٨٢٨ وباعتراف «بريجون» نفسه، كتب مثلا مسرحيته بسبب مسرح كان «بعض الهواة» قد أسسوه أثناء الحملة، وكذلك أنشأ الخديو سعيد «المعهد المصرى» فى عام ١٨٥٩، أيضا بسبب ما رآه المصريون فى المعهد الفرنسى قبل ذلك بستين عاما! كما أن الصحافة المصرية فى عصر اسماعيل باشا، لم تكن الا نتيجة الوجود المؤقت للمطبعة الفرنسية فى مصر.

ثم ينهى «بريجون» كلامه بالفقرة التالية: «إن التوازنات الجيو - سياسية تتغير بسرعة فى منطقة البحر المتوسط، وإذا تضامنت كل من مصر وفرنسا، فيمكنهما عمل الكثير فى هذا المجال، وستسهم علاقاتهما الطيبة فى استقرار هذه المنطقة من العالم، فإن المشاركة فى الأفكار والمصالح لمدينة بالكثير لجند بونابرت، فبغير إغارتهم على مصر، لما استطاعت مصر أن تجد دروب التاريخ بهذه السرعة، وبغير هذه الحملة الفريدة فى نوعها، لفقدت فرنسا اسهاما ثقافيا رائعا. ولذا، علينا أن نستمر فى تكريم ذكرى بونابرت، وديسى، ومونج وديجنات» كلام سبق أن قرأناه عند مؤرخى الحملة القدامى.

وهكذا تأتى الخاتمة لتتوج التناقض الغريب لرؤية مؤرخنا، لقد حطم أسطورة الحملة الحضارية، ولكنه يأبى أن يعلن وفاتها على يديه، مؤكدا صحة المثل الفرنسى القائل بأن «الأساطير لاتموت بسهولة» وإن دلّ هذا التناقض على شىء، فإنما يدل على حالة البلبة التى يصل اليها من يرى الحقائق، مثل «بريجون» ولا يقبل أن يعترف بنتيجتها الحتمية فيكون التشويش هو كل ما يكسبه قارىء كتابه.

مرة أخرى، يقحم الحاضر متطلباته السياسية المفرضة على موضوعية مؤرخ الماضى السحيق، فكان لابد من طمس كل ما حدث فى مصر من تغييرات جذرية فى القرن التاسع عشر، حتى تبدو حملة بونابرت هى الحافز لتطوير بلد متخلف، مع أن هذا التغيير شمل فى الواقع العالم بأسره، ولم تحتج اليابان مثلا أن تتعلم من الاستعمار البونابرتى.

كما أن مؤرخنا تناسى تماما أن تنفيذ المشروع الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر قد جاء بما لاتشتهيه فرنسا، مع أنه نفذ على أيدى تلاميذ بونابرت وحسب منهجه. وكل هذا على الرغم من الاعتراف بكل ما اقترفه الجيش من «فظاعة» على حد قول الضابط «فرانسوا»، وكان هو نفسه أول من اقترفها. ولكن الجيل الجديد من المؤرخين الجدد لم يعد فى مقدروه اخفاء الحقائق أو نفيها، حتى إن كان رافضا - على المستوى الشخصى - النتيجة المنطقية، الحتمية، لما يسرده هو نفسه من أحداث تناقض رأيه الخاص. فمقارنة مجزرة الجنرال «لانوس» فى

دمنهور بأبشع الجرائم النازية، تعد فى ذاتها ثورة مدوية على كل مايقال عن الحضارة التى جلبها الفرنسيون الى مصر.

«باتريس بريه» : «بونابرت فى مصر»

ظهر فى عام ١٩٩٥ عدد من مجلة «لستوار» العلمية، وهى مجلة لايكتب فيها إلا المتخصصون، وكان هذا العدد عددا خاصا عن مصر، يمكن أن يترجم عنوانه «بأسرار مصر الغامضة» (٢٩). فلا تزال مصر، حتى يومنا هذا، بلد الغموض - والأسرار فى الوعى الغربى، وتعالج الدراسات التى نشرت فى هذا العدد القضايا المصرية، منذ الفراعنة حتى تاريخ جمال عبدالناصر، و«الصحوة الاسلامية» الحديثة. ويلاحظ أن موضوع الحرب والسلام مع إسرائيل، يكتبه استاذ اسرائيلى، لانقرأ معه وجهة نظر عربية.

أيا كان الأمر، فإن ما يهمنا فى هذا العدد - الذى يعتبر ما نشر به آخر ما توصل اليه المؤرخون فى فرنسا حتى كتابة هذه السطور (والله أعلم) - سلسلة دراسات «لباتريس بريه» عنوان إحداها «بونابرت فى مصر»، وينبىء تقديم المقال فى ذاته بما سنقابله من رؤية جديدة. فالكاتب يطرح اسئلة تخص أمورا كانت كما رأينا من المسلمات.

فهو يقول:«فى مايو من عام ١٧٩٨، ذهب بونابرت، قائد جيش الشرق العام، لغزو مصر، حتى يبعد (عن فرنسا) تهديد الانجليز ومعه علماء ومهندسون وفنانون، هل كانت تلك المغامرة حملة عسكرية استعمارية عادية؟ أم كانت غزوة ثقافية باهرة، أرست قواعد تحديث البلد، على الرغم من فشلها؟».

وسرعان ما تجيء الاجابة منذ الكلمات الأولى للمقال ذاته، فنقرأ التالى: «...» نزلنا على بلد لم يكن يفكر فينا، ننهب القرى، ونفقر الأهالى، ونغتصب النساء». هذا هو التقرير المرير الذى كتبه عالم نبات، ذهب إلى مصر مع بونابرت من أجل مهمة رائعة لدراسة النباتات. وكثير من العلماء والمهندسين والفنانين تبعوا، مثله، الجنرال الشعبى جدا، قائد جيش الشرق، لاكتشاف أرض مجهولة وحضارة غامضة، ليقوموا بمسح شامل لوطن الفنون والعلوم الأسطورى». نلاحظ فى الفقرة الأولى من المقال تلك المفارقة البشعة بين الهدف ونتيجته. فمرة أخرى نقرأ الرأى الصريح القاسى لشاهد عيان، لا مصلحة له فى طمس الحقيقة المؤلمة لهدف نبيل فى ذاته، جاء هذا الشاهد على أنه عضو بعثة علمية، حسب منهج فلسفة التنوير المتعطش لدراسة كل جديد، ويحب صادق للعلم المجرد، يؤمن أنه مفتاح تقدم البشرية واسعادها. فكان أول مايراه بعد شهر واحد من الوصول الى الاسكندرية النهب والخراب والاغتصاب.

ويناقش كاتب المقال رأى المصريين بعد ذلك: من اللافت للنظر انه لايستشهد إلا بآراء «محمود حسين» وفيلم المخرج يوسف شاهين عن الحملة، والمعروف أن «محمود حسين» كاتبان اختارا هذا الاسم المستعار لنشر كتبهما، وهما، مثل يوسف شاهين، يعبران عن آرائهما بالفرنسية. «باتريس بريه» لايعرف إذن ما كتبه بالعربية أمثال عبدالرحمن الرافعى وجلال كشك، وغيرهما كثيرون لايوافقون الفرنسيين على رأيهم فى الحملة.

يقدم باحثنا بعد ذلك آراء تعتبر غاية فى الجرأة مقارنة بما سبق أن عرفناه من كتابات المؤرخين القدامى، ونظرا لأن المقال - بطبيعة الحال - محدود فى حجمه، فهو يؤرخ لفكرة الاستيلاء على مصر، بذكر أهم التفاصيل بسرعة فائقة. ولايفوت القارىء أن «بريه» لايشير أبدا الى الأهداف التحضيرية التي غلفت بها حكومة الادارة غزوتها الاستعمارية.

وبدون أية مواربة يقول مؤرخنا ببساطة شديدة انه بعد استيلاء الجيش الفرنسى على الاسكندرية كانت أول مقابلة للفرنسيين «بمدفعية مراد بك واسطوله الصغير قد أزاحت بعنف شديد الأسطول الفرنسى المحدود»، في شبراخيت على النيل فى الثالث عشر من يوليو ١٧٩٨. وبهذه الأمانة العلمية، يستمر باحثنا فى عرضه قائلا: «ولكن استسلام القاهرة لم يعن استسلام باقى البلد». ويذكر «بريه» فى عرضه السريع، أهم الأحداث ولايخفى شيئا من مقاومة الأهالى، كان يبدو أن الأمن قد استتب، «ولكنه كان فى الحقيقة مزعزعا، فلم تمض اشهر ثلاثة على الاحتلال، حتى أثبت هذا بتمرد القاهرة، الذى جاء غير متوقعا بالمرة». وقد تكون هذه الجملة من أجدد ما قيل، إذ لم يلحظ أحد قبله أن ثورة القاهرة الأولى جاءت كرد فعل مباشر للاحتلال، مما يوحيه تعبير كاتبنا بقوله:«لم تمض اشهر ثلاثة»، اذن كانت الثورة زمنيا - فى نظر مؤرخنا - سريعة جدا، اذ لم تمض اشهر ثلاثة على نزول الجيش بر مصر، ونذكر مرة أخرى أن التاريخ لايحصى بالأيام ولا حتى بالشهور او السنين.



«معركة ووفاة القائد دوبليسي» (هزيمة أخرى للفرنسيين)

وعلى الرغم من انتشار الجيش حتى أسوان، وانتصار «ديسى» على مراد بك فى معركتين، إلا أن ذلك لايمنع مؤرخنا من الاعتراف بأن الخطر كان محدقا فى كل مكان، وأن معنويات الجند كانت فى الحضيض: «كان متطوعو ١٧٩٢، ومجندو ١٧٩٣ قد أصبحوا جندا محترفين، اشداء، إلا أن مثلهم الجمهورى الأعلى أصبح موضع شك. فالجندى الفرنسى، الذى يواجه ثورات الفلاحين الذين جاء ليحررهم ، لا يستطيع تفهم علاقة هذه الغزوة بعدو إنجليزى غائب عن الساحة ، لن يكون تأمين السلام إلا أمرا مؤقتا أثناء سنوات الحملة الثلاث ، بسبب تحركات المماليك والحكومة العثمانية، أو بسبب سوء تفاهم، تسببه القوانين الإدارية التى تصطدم بالحضارة المصـرية» : من إيجابيات هذا المقطع الجديدة ، الاعتراف بادئ ذى بدء ، بأن الغزوة لم تدم غير سنوات ثلاث ، أى مدة غاية فى القصر إذا ما نظر إليها من المنظور الزمنى الذى يتحكم فى أية رؤية تاريخية ؛ علاوة على الاعتراف بالدور الخطير الذى لعبه المماليك على الرغم من كل ما قيل عن هروبهم ، الذى كان – من منظور التكتيك المملوكى – خط دفاع بل وهجوم أيضا . كذلك ، الاعتراف «بالاصطدام بالحضارة المصرية» ، التى كان من حقها ألا تتفهم تشريعات تتنافى مع نظامها الخاص ويشرح لنا «باتريس بريه» كيف أن الإجراءات الخاصة بالنظافة والوقاية من الأمراض، كانت مثلا: «اغتصابا لخصوصيتهم وحرمة ديارهم»، كما أن «أمن المستعمر كان يجبر السكان على النفقة الباهظة لإضاءة الأزقة ليلاً» .

«كذلك، فإن الإدارة، قد أكثرت من الضرائب والوسائل البيروقراطية، فى بحثها الدءوب عن السيطرة الكاملة، وجشعها في جمع المال»: يتقبل كاتبنا الوجه الآخر للحملة ، وهو الوجه الذى رآه المصريون ؛ فإذا ما قابلنا وجهة النظر المصرية ، نجد أن الجيش لم يكن فى أفضل صوره .

وكذلك يعرض مؤرخنا أيضا رؤية المصريين «لقيم التنوير والثورة ؛ فهى بالنسبة لهم عودة إلى مادية الجاهلية ، .... ، الفرنسيون الملحدون لا يصلون حتى لمرتبة الكفرة المسيحيين . وأيا كان، فهم أيضا يتصرفون كأناس غير متحضرين، .... ، تقول أغنية مصرية شعبية عنهم : الجند السكارى يطوفون المدينة بحثا عن النساء» . وبعد شرح وجهة النظر المصرية، يلخص «بريه» الرأى السائد «لدى النخب المثقفة والمهذبة فى مصر آنذاك، إذ كانت فرنسا فى نظرهم ، بلد التجار المحتقرين ، فأصبحت مع بونابرت، بلد سطوة تحترم ولكنها تبغض ، لأنها تذكرهم أيضا بالحروب الصليبية الكريهة ، وكانت لا تزال حية في الذاكرة العامة للشرق» .

«ولكن الفرنسيين يحاولون بصدق فهم المجتمع المصرى ،....، وفى نظر المصريين ، يبدو كرم الفرنسيين ضعفا ، وحزمهم قسوة ، وميلهم إلى الانتقال من هذه الحال إلى الحال الأخرى ، دليل تقلب وعدم ثبات» .

يهمنا بعد ذلك معرفة ما يقوله «بريه» عن البعثة العلمية التى صاحبت جيش الشرق وهو يلحظ هدفها «النفعى» فيقول : «منذ الشهادات الأولى للمهندسين الجغرافيين جومار وفورييه ، يؤكد المؤرخون أن ثمة ثورة تقنية – واجتماعية – كانت فى الطريق عندما أجبرت فرنسا على ترك غزوة بونابرت. والسؤال لا يزال قائما ، على الرغم من أن أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع : فهل كان قصر مدة الاحتلال الفرنسى هو السبب الوحيد فى فشل تحديث مصر .. ؟» النتيجة التى يصل إليها مؤرخنا صريحة قاطعة ، والمفردات لا شك فى معناها : «فشل تحديث مصر ..» . وإذا ما دخل بعد ذلك فى التفاصيل ، تأكدت الفكرة أكثر وأكثر ، وقيل ما لم يذكر – على حد علمنا – إلا مرة واحدة من قبل ، وهو الحدث الذى يلخص حدود تعليم الفرنسيين للمصريين : «مهارة الصناع المصريين أدهشت المستعمر ، وسرعان ما أخذ العمال المصريون يقلدون المنتجات الفرنسية ، ولكن الأوساط المالية الفرنسية توصلت إلى قرار لا يسمح لغير العمالة الأوربية بالعمل فى مصنع النسيج المنشأ فى خريف ١٨٠٠» .

«كانت الإنجازات الفعلية مقصورة على احتياجات الاستعمار الفرنسى» ، ثم نقرأ الحقيقة الواقعية المنطقية الوحيدة لتفسير عدم اهتمام المشايخ بما يدور من أبحاث علمية : «من ناحية أخرى ، لم تكن مصر مستعدة (فى ذلك العصر) لاستقبال علوم أوربا وفنونها بسرعة» ، إنها حقيقة يراد بها باطل ، لأنه يتحدث بعد ذلك عن إطلاق المنطاد الذى «لم يلق إلا الاستهانة واللامبالاة من قبل القاهريين» ناسيا ، أو متناسيا

أن التجربة قد باءت بالفشل ، مما أثار سخرية الجميع ، وأولهم الجبرتى . ونقول الجبرتى لأن «بريه» نفسه يسترشد به . ولكن يبدو ، إما أنه يغالط فى المعانى ، أو أنه لم يقرأ الجبرتى بالفعل . ومرة أخرى نسمع عن معجزتى الحملة وهما كتاب «وصف مصر» ، واكتشاف «حجر رشيد» اللذين أسسا علما جادا للمصريات.

ويعترف مؤرخنا ، بعد سرد المشروعات التى كانت مزمعة إقامتها ، أن المشروع الوحيد الذى نفذ هو «بناء التحصينات» كما أنه يعترف أن «المقاومات التى قابلتها الحملة كانت تنبىء بالحركات القومية التى سيصطدم بها نابليون بعد ذلك ، خاصة فى أسبانيا وألمانيا..» ، وهذا اعتراف طال انتظارنا لقراءته بقلم مؤرخ فرنسى .. أو أى مؤرخ آخر .

ويعترف «باتريس بريه» أيضا ، بفضل محمد على فى إنجاح مشروع تحديث مصر، دون كلمة واحدة تعزو نجاح مشروعاته إلى أى تقليد لما كان يدعيه الفرنسيون من مشروعات تحضيرية لمصر . ثم ينهى «بريه» مقاله بقوله : «إن حملة بونابرت كانت المصادفة التاريخية التى سمحت بهذه النهضة المصرية..» . ومرة أخرى ، يجد القارىء الناقد الموضوعى نفسه فى حالة من البلبلة للتفكك المنطقى للكلام ؛ فكيف يصل إلى هذه النتيجة وكلامه كله يؤكد عكسها تماما ؟ كان يمكن أن يكون لهذه النهاية عذر لو أن مؤرخنا تحدث عن تأثير مشروعات بونابرت على محمد على ، ونقله أو تحقيقه لما بقى من نيات فرنسية على

الورق ، ولكنه نفى الفكرة بسرده السريع لما فعله محمد على ونجح فيه ، دون ذكر لبونابرت ؛ ولم يعلق «بريه» على هذا الأمر مؤكدا أن محمد على نجح حيث فشل بونابرت وجيشه وعلماؤه بسبب قصر مدة احتلالهم لمصر. كذلك، قال إن: «ثمة ثورة تقنية - واجتماعية - كانت فى الطريق» لولا جلاء القوات الفرنسية عن مصر ؛ ثم اعترف بعد ذلك مباشرة بأن: «أحدث الدراسات تميل إلى تحجيم مدى حقيقة هذا التحول السريع ..» ؛ فلم إذن ذكر قول «جومار» و «فورييه» ، وهما طبعا متحيزان لفكرة الحملة التحضرية على مصر وهما المشتركان فيها ؟ الغريب أن «بريه» يؤكد بعد ذلك حدود التأثير الفرنسى على العامة ، بسرده قصة رفض توظيف العمالة المصرية فى مصنع النسيج ، وهى قصة ذات مغزى كبير ودلالة سيئة على أبطالها .

يبدو أن «بريه» بعد أن توصل إلى الحقيقة العلمية واعترف بها، أجبر على التراجع : إن الاعتراف بالحق فضيلة، ولكن هناك حقائق يصعب البوح بها ، خاصة إذا ما كانت تجرح المشاعر القومية، ويكون البوح بها أصعب إن كانت تمس أسطورة منيرة، تدغدغ مشاعر الفخر القومى .

وإلا ، فكيف يفسر هذا التناقض فى نهاية المقال ؟ وما كانت الحال مع هنرى لورانس ؟

★★★

«هنرى لورانس» : «الحملة على مصر»

سبق أن أشرنا إلى أن رسالة «هنرى لورانس» (١٩٨٩) قد قالت كل ما يمكن أن يقال عن الحملة بروح علمية دقيقة ، استرشدت بما قاله كل من الفرنسيين والمصريين والأنجلو – ساكسونيين الكاتبين بالإنجليزية من بريطانيين وأمريكان . لذا ، فإن «لورانس» إذا ما تعرض للأحداث ، كان غاية فى الأمانة ، فاضحاً كل مساوىء الفرنسيين واحتلالهم الباغى. ولكنه ، عندما يصل إلى الخاتمة ، ليستخلص ما توصل إليه هو شخصيا من نتائج فكرية ، فإنه يؤكد المشروع الحضارى لبونابرت والحملة ! ولم يقدم دليلا واحدا على أن هذا المشروع الحضارى كانت له دلالة جدية واحدة ، اللهم إلا النيات المعلنة شفاهة ، الموروثة عن مثاليات ثورة ١٧٨٩ ، وفلسفة التنوير من قبلها وشعاراتها الجوفاء. ولكنه – فى ذلك – لم يستطع إقناعنا بشىء غير أن تلك النيات كانت تبريرا ذاتيا ، أو حلما يأسف مؤرخنا أنه لم يتم من أجل مجد الأمة الفرنسية وسيطرتها على المنطقة .

النتيجة نفسها نستخلصها من كتابه من «المملكة المستحيلة» (١٩٩٠) ، الذى يؤرخ فيه لمحاولات فرنسا ، ونابليون الثالث بالذات ، للسيطرة على المنطقة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

ونجد فى هذا الكتاب الأخير المفارقة نفسها : الأمانة العلمية من جهة ... والخاتمة التى لا تجد فى الكتاب ما يبررها من جهة أخرى ؛ لذا ، كان استغرابنا للعنوان الذى أضيف على غلاف كتاب «الحملة على مصر» ، وهو عبارة عن جملتين : «بونابرت والإسلام» ، ثم «صدام

الحضارات» . فأين كانت الحضارات إن كان الجيش الغازى لم يقدم إلا العنف والاغتصاب والاستنزاف ، كما يصوره المؤرخ نفسه ؟. نعم ، لقد احترم بونابرت الإسلام وقال فيه مديحا لا شك فى صدقه، عندما كان يقيم للفرنسيين موضوعيا ما يراه فى الديانتين المسيحية والإسلامية . ولكن ، أيعنى ذلك أنه لم يكن يستعمل الإسلام أثناء وجوده فى مصر لأسباب سياسية مكيافيلية ، تماما كما فعل مع الدين الكاثوليكى عند عودته إلى فرنسا ؟ وهل تعارض هذا الاحترام الظاهر لدين الأغلبية الفرنسية مع إلقائه القبض على البابا فيما بعد ، عندما تطلبت سياسته التعسفية ذلك ؟ وهل كان بونابرت أثناء وجوده فى مصر يتعامل مع الإسلام، أم مع المسلمين، وهو يأمرهم بصلف الحاكم العسكرى المستعمر أن يستعملوا القرآن والأحاديث النبوية لصالحه ؟ ومنذ متى يقيِّم التاريخ بالنيات فقط ؟ ألا يقول الفرنسيون إن «الجحيم قائم على أرض من النيات الحسنة» ؟

مع الأسف أن «لورانس» ، مثله فى ذلك مثل باقى المؤرخين الفرنسيين ، يطمس كلية دور المقاومة المصرية عندما أخذ يسرد أسباب فشل الحملة فى خاتمة كتابه ؛ فهو يغفل ذكر ما كان يعانيه الجند الفرنسيون من جراء المقاومة التى استمات المصريون فيها رافضين الوجود الفرنسى وبطشه . وذلك على الرغم من أنه قرأ كل ما كتبه شهود الحملة ، وعلى الرغم – أيضا – من أنه قد أكد على انهيار الروح المعنوية لهـؤلاء الجند أنفسهم فى وقت كانت انتصارات الجيش الفرنسى مستمرة على امتداد معاركه مع العثمانيين ، إلى أن هزمه كل

من جيش بريطانيا ، وجهل «مينو» فى الأشهر الأخيرة من الحملة ؛ فإلى أى شىء إذن يعزو «لورانس» تلك الحالة من الانهيار والإحباط والاكتئاب التى أصابت الجند ، وهم أسياد البلد المفتوح ؟ ألم تلك الحالة ناجمة عن ذلك التوتر المستمر الذى عاشوا تحت ضغطه نتيجة للمقاومة المصرية ، كما قرأنا فى مذكرات الكابتن «مواريى» ؟ ألم يسلم قائد الحملة في القاهرة بسرعة للإنجليز خوفا من قيام ثورة ثالثة ، كما يعترف الجميع ؟ .

ومرة أخرى نرى «لورانس» يتجاهل كلية - كما تجاهل غيره من المؤرخين الفرنسيين - فشل التجربة الجزائرية : لقد طبق «السان - سيمونيون» (تلاميذ نابليون الأول) ثم نابليون الثالث ، تعاليم بونابرت فى الجزائر ، وكنا ننتظر أن يستشهد كل من أرخ للحملة - أو حتى بعضهم - بما نجحت فيه فرنسا عندما احتلت الجزائر لأكثر من مائة عام ، كى يدللوا به على ما فقدته مصر بفشل الحملة عليها . ولكننا نجدهم يتحدثون بحزن شديد عما كان يمكن أن يحدث لولا فشل الحملة المزرى، طامسين بحياء شديد التجربة الفرنسية فى الجزائر ، ونتائجها السلبية على أهل البلد . ولنذكر ما كتبه المفكر الفرنسى الكبير « ألكسى دى توكفيل» فى تقريره عن استعمار الجزائز فى عام ١٨٤٧ : «لقد انطفأ التنوير من حولنا، ... ، لقد جعلنا المجتمع المسلم أكثر بؤسا، وأكثر فوضى ، وأكثر جهلا وأكثر وحشية مما كان عليه قبل أن يعرفنا» (٣٠) .

ولكننا نشهد لـ «لورانس» أنه اعترف «أن حملة مصر هى المحصلة المنطقية لسياسة التوسع الثورى ، ... ، وبما أن النضال يجب أن يستمر ضد بريطانيا العظمى ، ومع وجود الاقتناع باستحالة الإنزال فى بسبب التـفوق البحرى البريطـــانى، فإن حكومة «الإدارة» لا يمكنها أن تتصور خيارا آخر غير فرض حصار قارى أو الاضطلاع بعمل ضد الهند» ؛ فكان مشروع غزو مصر مشروعا لا يخرج عن نطاق الـسياسة التوســعية للثـورة الفرنسية . غزو آخر إذن مثله مثل ما حدث فى أوربا من حيث التخفى وراء شعار «تحرير الشعوب» والحقيقة استعمارها لاستنزاف مواردها، حسب مبدأ «عصر الليمونة» الشهير .

ولكن كلام «لورانس» فى النتيجة النهائية التى يستخلصها من دراسته الوافية ، وتعليقاته الذاتية ، تسبب نوعا من البلبلة للقارىء المنطقى . فهو يقول مثلا : «كان هدف بونابرت من مجزرة يافا الاستيلاء بالإرهاب على باقى فلسطين ، وعلى عكا بالذات ، قبل كل شىء. وعلينا أن نضيف هنا أن استشراق بونابرت كان له مظاهر محيرة. فإذا كان بونابرت يقدم نفسه بإخلاص على أنه البطل الذى لا هدف له غير إرساء الحضارة ، فإننا نراه يؤكد ، فى الوقت ذاته أن الشرق لم يكن بالنسبة له إلا فرصة سائغة للتخلص من حضارة (أوربية) تضايقه . أكد بونابرت ذلك فى اعترافاته لمدام دى ريموزا . وقد عاد الفرنسيون فى مصر - تلقائياً - إلى سلوكيات عصر الإرهاب وحرب الفانديه ؛ فقد استخدموا منذ بداية الحملة سياسة قمع فيها من العنف ما لم يعتادوه فى الأراضى المحتلة فى أوربا. فمنذ بداية العصر الاستعمارى ، وحق

الشعوب لا يطبق بسهولة على الشرقيين ، وهو الحق نفسه الذى اعترف به فى أوربا للأوربيين : ألم يكن هؤلاء الشرقيون معتادين على عنف الطغيان ، وهل كانوا يعرفون شيئا آخر غير الإكراه ؟».

الكلام واضح وجد خطير لكنه يتسبب قطعا فى بلبلة القارىء الذى لا يفهم سببا يجعل «لورانس» يرى «أن استشراق بونابرت له مظاهر محيرة» : لقد سبق لـ «لورانس» نفسه أن كتب قبل ذلك بصفحات عديدة أن بونابرت يقول فى الحادى والثلاثين من يوليو ، أى قبل قيام ثورة القاهرة الأولى فى خطاب مرسل إلى «مينـو» : «إن الأتراك لا يحكمون إلا بأعنف صـرامة ؛ لذا ترانى أصدر كل يوم أمراً بقطع خمسة أو ستة رءوس فى شـوارع القاهرة . لقد اضطررنا إلى مهادنتهم حتى الآن، لمحو سمعة الإرهاب التى سبقتنا؛ أما اليوم ، فعلى العكس من ذلك، لابد لنا من استخدام اللغة التى تلائم هذه الشعوب حتى تطيعنا ؛ والطاعة بالنسبة إليهم ، هى الخوف» .

لو أننا اعتبرنا بونابرت «بطلا لا يهدف إلا إلى إرساء الحضارة» كما يقدم نفسه، أى لو أننا صدقنا زعم بونابرت هذا ، لشعرنا فعلا بالحيرة، مثل «لورانس» . والغريب أن «لورانس» ، على الرغم من روحه النقدية المتيقظة ، قد صدق فعلا ادعاء بونابرت هذا ، وهو الذى اعترف مرارا بكل الفظائع التى اقترفها الجند فى مصر. ولكن، لو أننا وضعنا فى الميزان أفعال بونابرت، بل وأقواله التى يعترف «لورانس» نفسـه

بهـا ، لفهمنا أن استشراق بونابرت غير محير، لأنه واضح وصريح : إنه استشراق المستعمر العنصرى بكل صلفه وقسوته . هنا ، تنتهى الحيرة ، لأن المنطق أصبح سليما، لا يشوبه أى تناقض أو مفارقة بين القول والتطبيق . ولكن ، يبدو أن «لورانس» يفضل المفارقة المحيرة على الاعتراف بالحقيقة ، وهى أن رسالة بونابرت التحضيرية لم تكن إلا ذرا للرماد فى العيون ، غلالة خادعة ، وظيفتها إقناع المثقفين بحسن نية لا يدل عليه شىء .

فـ «لورانس » إذن مثل «باتريس بريه»، يتفوق على الجيل القديم باعترافه بالوقائع ، خاصة الاعتراف بأن للمصريين رأيا يحترم، لأنهما – لورانس وبريه – من الجيل الذى يعرف أن مضمون كلمة «الحضارة» لا يعنى فقط «الحضارة الغربية» : يعترف هذا الجيل الجديد أن هناك «حضارات» مختلفة فى العالم ، من حقها أن تطالب بالاعتراف بها واحترامها. ولكن مؤرخينا ، على الرغم من أمانتهما العلمية، لا يستطيعان الاعتراف بأن الحملة كانت فاشلة بل وسيئة أيضا، مثلها مثل أى حرب استعمارية استنزافية ؛ فلا يزال ذلك الأسى واضحا فى خاتمة كلامهما ، لفشل فرنسا يوما ما فى السيطرة على مصر، درة الشرق الأدنى ؛ فهما مازالا يتمسكان بفكرة أن الحملة ، وإن كانت فاشلة، إلا أنها كانت حاملة لشعلة الحضارة الفرنسية فى مصر القرن التاسع عشر ، وذلك على الرغم من كل ما يتعارض مع هذه الفكرة فى دراستيهما .

قد تكون حادثة مصنع النسيج الذى فكروا فى إنشائه فى مصر خير مثال للروح التى سادت أعضاء الحملة ، خاصة العلماء منهم ، و«لورانس» بالذات هو الذى فضحها : حدث ذلك فى عصر «مينو» الذى عرف بأنه أكثر الفرنسيين تحمسا لفكرة الاستعمار الاستيطانى لمصر بعد بونابرت ؛ وكان إيمانه هذا أحسن ميزاته فى نظر بونابرت، فـولآه – لذلك – الحكم على مصر، على الرغم من اعتراض باقى جنرالات الحملة . ويقول «لورانس»: «ويعلى مينو من شأن هذه المساواة بين الفرنسيين والمصريين، حتى فى المجال الاقتصادى. ففى أوائل شهر يوليو ١٨٠٠، يدفع نقص أقمشة الثياب مسئولى الجيش إلى اقتراح إنشاء مصنع فى مصر. يرى مينو فى ذلك، على الفور فرصة لتحويله إلى مركز لتعليم وتدريب المصريين على الطرق الحديثة . لكن المديرين، الذين يخشون منافستهم للصناعة الفرنسية فى المستقبل، يرفضون ذلك. ويؤكد «كونتيه» على الملأ أنه إن تم إنشاء هذا المشروع لن يعلم المصريين شيئا، وأنه لا يقبل الاشتراك فيه إلا بشرط السماح للفرنسيين وحدهم بدخول الورش، أما فى حالة الجلاء عن مصر، فلابد من إخراج المعدات أو تدميرها ويضطر مينو إلى التراجع أمام احتجاج» الجميع.

هكذا، يحطم «لوارنس» نفسه أسطورة العلماء الذين ساهموا فى تعليم المصريين، وفتحوا عالم المعرفة الحديثة للشعب المصرى، وطوروا مصر لنقلها من غياهب الجهل إلى نور العلم الحديث، والقرن التاسع عشر الصناعى.

نعم. خرج الجيش من مصر بعد ذلك ومعه المطبعة! ونشر كتاب «وصف مصر» الذى يقول عنه «باتريس بريه» فى مقاله السابق ذكره: «كانت نتيجة هذا الكتاب - إن لم يكن هدفه - إخفاء الفشل السياسى والحربى والاقتصادى للحملة»...

★★★

«كريستوفر هيرولد» : «بونابرت فى مصر»

بعد أن قرأنا كتابات المؤرخين الفرنسيين الجدد، فإنه يبدو منطقيا أن تكون الخاتمة الموضوعية لأحداث الحملة بقلم غير فرنسى. فالأمريكى «هيرولد» يسمى خاتمة دراسته عن «بونابرت فى مصر»: «أموات بلا جدوى»، عنوان قدم فى نصه المترجم «بأباطيل الموت». وهو يقول: «فى الثالث والعشرين من أكتوبر(١٨٠١)، عين (بونابرت) صهره الجنرال لوكلير قائداً أعلى على سانتو - دومنجو. وفى الثامن من نوفمبر وجه منشورا لسكان سانتو - دومنجو بأسلوب أتقنه فى مصر، فقال لهم: تجمعوا تحت لواء الجنرال (لوكلير)... وكل من يجرؤ على الخروج على دعوة القائد فهو خائن لوطنه وسيلتهمه غضب الجمهورية، كما تلتهم النار حقول قصبكم فى فِصل الجفاف».

«وهكذا طويت صفحة عقيمة من تاريخ الاستعمار، لتفتح صفحة أخرى. وكانت فظائع الحملة الدومنيكية وأهوالها ذيلا محترما لفظائع الحملة المصرية وأهوالها، وفى وسعك أن تطبق الكلمات التى فاه بها نابليون فى سانت - هيلانة، على سبيل الرثاء، على المغامرتين كلتيهما

لتصدق عليهما جميعا: «إن حملة سانتو - دومنجو كانت حماقة كبرى ارتكبتها. ولو نجحت لما كان لها من نفع سوى إثراء أسر نواى ولاروشفوكو فوق ثرائها». وهذه الكلمات تجمل في إيجاز ما أسفر عنه استعمار القرن التاسع عشر من نتائج».

ثم يستطرد «هيرولد» بعد ذلك تحليله للوقائع: «لقد كان مآل مصر إلى التغير، سواء ظهر بونابرت في سمائها أو لم يظهر قط، وآيات الفن وروائعه في الأقصر والكرنك كان مصيرها إلى الكشف، حتى وإن لم يزحف ديزيه إلى الصعيد، وكانت الرموز الهيروغليفية حتما ستفك، حتى وإن لم يكتشف حجر رشيد إلا بعد الحملة بسنوات، وكانت قناة السويس ستحفر، حتى وإن لم يأمر بونابرت بمسح برزخ السويس. صحيح أن كل شر يحمل في ثناياه بعض الخير عرضا، وليس معنى ذلك أن الشر دائما ضروري لجلب الخير».

نرى «هيرولد» إذن يقول الكلام الذي يفرض نفسه منطقيا إذ يؤكد، في عام ١٩٦٤ - وهو تاريخ نشر دراسته - أن النظرة المستحدثة للأمور، بعد انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية، لابد أن تضع الأمور في نصابها الواقعي، ذاكرا أيضا فشل التجربة الفرنسية في الجزائر. وكان قد تساءل من قبل: «ما الذي حققته الحملة على مصر غير خسارة الأرواح، والخراب، والقسوة؟ أما بونابرت فقد فتحت له الطريق إلى السلطة .... » (٣١).

★★★

بعد قراءتنا لما كتبه «المؤرخون الجدد» تتأكد لنا صحة النظرية

القائلة بأنه لولا اسم الجنرال بونابرت - الذى سيصبح نابليون الأول، قاهر أوربا كلها - لما اهتم أحد بهذه الحملة الفاشلة على بلد مجهول، ولطمس تاريخها، كما طمس تاريخ الحملة الفاشلة على «سان - دومينج». وقد كانت انجلترا نفسها لا تفطن، فى ذلك التاريخ، إلى أهمية مصر الجغرافية بالنسبة لمستعمرتها الغالية، الهند البعيدة. ونجد فى قراءتنا النقدية كذلك، ما يجعلنا نستغرب إصرارهم على ربط التطور الذى حدث لمصر فى عهد «محمد على» أو «اسماعيل باشا» بالحملة، فى نهاية كل جزء من كتاباتهم عن بونابرت فى مصر. ومما يعجب له، أن ذلك يأتى بعد اعترافهم الصريح بما ارتكبه بونابرت وجيشه من جور على الشعب المصرى، ودون ذكر لأى دليل يشير إلى تأثير الاحتلال الفرنسى - آنذاك - على الشعب المصرى، أو نظامه. كأن حلقة أسقطت فى التسلسل المنطقى لما يقدمونه من اعترافات بالفظائع التى اقترفها الجيش الفرنسى وما يسوقونه من أدلة على رفض المصريين المحتل. وكأن الاعتراف بأن سنوات الحملة الثلاث القصيرة، لم تترك أثرا يذكر، يفوق قدرات المؤرخين، لما يدل عليه هذا الاعتراف من تحطيم أسطورة وجود الحضارة الفرنسية فى مصر. الغريب أنهم يعترفون بذلك أيضا، خاصة أن أسطورة نابليون بونابرت نفسها قد نسفت من أساسها، بعد أن فضح كل من «دوفريس» و «تولار» خفايا النظام الإمبراطورى، ووسائل الدعاية التى لجأ إليها الحزب البونابرتى، لتحويل الجنرال العبقرى والإمبراطور المنتصر، إلى نصف إله، إن لم يكن إلها كاملا.

لا نجد من يصل إلى النتيجة الحتمية لفضح حقائق الحملة، والاعتراف الصريح بأنها حدث مؤقت زائل، إلا «فوريه» و«ريشيه»، فى كتابهما عن «الثورة الفرنسية» إنهما يذكراننا بقصة شهيرة من الأدب الفرنسى، كانت من أهم أسباب انطلاق النقد العلمى فى تاريخ الفكر الفرنسى، وتأسيس تحكم العقل فى كل الأمور، العقل الذى كان من أهم دعائم فلسفة التنوير. إنها قصة «السنة الذهب»، لكاتبها «فونتنيل» (١٦٥٧ -١٧٥٧).

يحكى فيلسوفنا هذا أن شائعة انتشرت بين بعض علماء ألمانيا فى عام ١٥٩٣: قيل إن طفلا سقطت أسنانه اللبنية فنبتت له سنة جديدة من الذهب. وبدأ العلماء يكتبون قصة تلك السنة المعجزة فى آلاف من الصفحات ويتجادلون فى شأنها لعدة سنوات، إلى أن ذهب صائغ إلى الولد، ليرى تلك السنة الغريبة. فاكتشف المتخصص آنذاك أنها سنة عادية، ألصق عليها بمهارة شديدة، ورقة من رقائق الذهب الرفيعة... وينهى «فونتنيل» قصته الفلسفية قائلا: «إن المجادلات التاريخية أكثر عرضة لمثل هذا الخطأ، إننا نناقش ما قاله المؤرخون (على أنه صحيح)، ولكن ، ألا يمكن أن يكون هؤلاء المؤرخون عاطفيين، أو سذجا، أو جهلاء، أو مقصرين؟ من المفروض أن نجد مؤرخا (يتعامل مع الأحداث) كالمتفرج على كل شئ، غير مبال، ومجتهد فى الوقت نفسه». ويبدو أن «فوريه» و«ريشيه» قد توصلا إلى تلك الحالة المثلى عندما قالا بصراحة وهدوء تامين: «لا يبدو، وذلك فى كثير من النقاط، أن بونابرت كان ذلك الخالق لمصر الحديثة، الذى طالما حدثنا عنه، لم تدم بصمته،.... لم تكن

سياسته إلا إجابات عملية لمشكلة قديمة جدا». ولذا فلا عجب إن كان محمد على قد توصل من بعده إلى النتائج العملية نفسها التى فكر فيها بونابرت، عندما أراد - محمد على - لمصر، دولة مركزية حديثة.

★★★

يبدو أن غير المتخصصين وحدهم هم الذين توصلوا إلى ما يبدو - والله أعلم - أنه النتيجة المنطقية الوحيدة لغزو مصر الفاشل، على يد جيش يدعى التحضير والتنوير وهو لا يبغى، فى الواقع، إلا الاستعمار. وكأن دارس الحملة الفرنسى لا يقوى على الصمود أمام سحر أسطورة، تجعل من أجداده جندا شهداء من أجل نشر الحضارة الرائعة لوطنهم فرنسا، ومن أجل الرسالة الإلهية التى خُولت إليهم : كان هذا بالضبط - كما سنرى فيما بعد - أساس فلسفة التعليم فى فرنسا، وكأن تأثيرها قد امتد حتى دراسى الحملة من الجيل الجديد.

فإذا قرأنا ما كتبه بعض الأساتذة الذين لم يتخصصوا فى دراسة الحملة، فاجأتنا موضوعيتهم فى تقديم نتائجها، كما حدث مع «فرانسوا فوريه»، الذى تخصص فى دراسة ثورة ١٧٨٩. فإذا ما قرأنا تقديم «جان - كلود فاتان» لآخر طبعة من كتاب «فيفان دينون» الشهير، وجدنا فرنسيا قرأ النص كاملا، بكل ما فيه من قسوة تنال من جند الحضارة، وتجريح لأسطورتهم الباهرة، مؤكدا على حقيقة تبدو جلية لمن يقرأ «دينون» دون إغفال لما يقوله عن أهل البلد ومقاومتهم، كما أسلفنا باستفاضة . «ففاتان» - على العكس من «لورانس» - يفهم من مذكرات

«دينون» الدور الخطير الذى لعبته المقاومة الشعبية المصرية، قائلا: «ترك بونابرت الشرق وسيفه منحن، لم يستطع فتح عكا، وترك البحر المتوسط فى أيدى الإنجليز بعد تحطيم الأسطول الفرنسى فى أبو قير ولم تتمكن فرقه العسكرية من المماليك أو المقاومات المحلية». كذلك «لم يكن العذاب حكرا على الغزاة وحدهم. ولكنه كان أيضا من نصيب سكان المدن والقرى» (٣٢). ثم يتحدث بعد ذلك عن دور «دينون» فى خلق أسطورة الحملة، عندما عاد إلى فرنسا، وهو مالا نستغربه، لشدة حب «دينون» لبونابرت وإعجابه بمشروعاته الاستعمارية.

وعندما يدرس «جلبير ديلانو» فترة الحملة على مصر، فى رسالته «الأخلاقيون والسياسيون المسلمون فى مصر القرن التاسع عشر» (٣٣)، نراه يقدم ملخصا للنصوص الثلاثة التى تحدث فيها الجبرتى عن الحملة، ملاحظا التحفظ التام لشيخنا أمام الدعاية الفرنسية، وأفكارها الغريبة، مع الاحترام الموضوعى للإنجازات العلمية للفرنسيين. كما أن «ديلانو» يتفهم رفض الجبرتى لكل ما هو سوقى عند بعض الفئات من «الجماعات الصوفية،.... من صخب وابتذال وهمجية»، مما يعنى أن كلام الجبرتى المحقر للثوار كان طبقيا وليس تحيزا للفرنسيين.

وينقل لنا «ديلانو» أيضا ما قاله الشرقاوى عن الفرنسيين، وما اقترفوه من نهب وسلب، ليس فقط عند المماليك الهاربين، ولكن أيضا بين أهل البلد، كما أنه يفضح قتلهم العلماء واغتصابهم النساء، ودخول

جيادهم الأزهر، ونهب كنوزه العلمية التى لا تقدر بثمن. كما أن كلام الشرقاوى فى «تحفة الناظرين» يوضح – على حد قول «ديلانو» – مسئولية العلماء الدائمة عند انفجار الأزمات المحلية ، ودورهم أثناء «حركات معارضة الأهالى للحكومة» طوال القرن الثامن عشر. مما يثبت «لديلانو» أن تكوين الدواوين فى عصر بونابرت لم يكن اختراعا جديدا.

وهو يعود ليؤكد هذه الفكرة من جديد فى مقال نشره فى كتاب «مصر اليوم....» (٣٤)، وكان، «ديلانو»، قد لفت نظر القارئ ، فى مقدمة دراسته السابقة، إلى الروابط بين مصر وتركيا فى ذلك العصر، «والمتخصصون فى دراسة الإمبراطورية العثمانية يميلون إلى إبراز أهمية تلك الروابط، وذلك عن حق».

وكذلك فإن «أندريه ريمون»، صاحب الدراسة المهمة عن «الصناع والتجار فى قاهرة القرن الثامن عشر»، يؤكد فى مقال له بعنوان «لا يوجد انحطاط عثمانى»، كيف كان لمصر، قبل الحملة «نظام سياسى وإدارى يعتبر حديثا فى عصره، وكان لها كذلك نشاط اقتصادى احتفظ لها بمكانتها كمركز قوة فى البحر المتوسط، وكانت عاصمتها مزينة بروائع هندسية جديرة بماضيها العظيم. كانت لاتزال تزخر بإمكانات مادية وبشرية كبيرة: عندما ستنتهى الأزمة (أى الحملة الفرنسية)، ستكون هذه الإمكانات مسخرة لمشروعات محمد على العظيمة». ويكذِّب «ريمون» ما قاله علماء الحملة فى كتاب «وصف مصر» من أن عدد السكان آنذاك، كان مليونين ونصف المليون «فالرقم الذى يبدو الآن

معقولا حوالى أربعة ملايين،....، مما يشرح كيف استطاع محمد على أن ينطلق بمشروعات كبيرة لغزواته، والتصدى للإمبراطورية العثمانية، منذ عام ١٨٠٥» (٣٥) .

أما فى كتابه عن «القاهرة»، وهو يحكى تاريخ المدينة، يرصد «ريمون» أهمية «الديوانين، العالى والعادى، حيث كان يجتمع كبار المسئولين من ضباط وعلماء وأعيان ، ليقدموا النصح للباشا، ولكنهم كانوا أيضا يتصدون للتصرفات التعسفية أو الاستبدادية» (٣٦): أمر لا نظن أن بونابرت كان ليسمح به فى الديوان الذى علم به المصريين الديمقراطية فقد كان يمنع أعضاءه من الخروج حتى يستجيبوا لطلباته، كما روى لنا الجبرتي تفاصيل انعقاده، وكأن الأعضاء سجناء ورهائن «لطاغية شرقى»، كما يحلو للفرنسيين تسمية مثل هذا السلوك... ! بل كيف يجرءون وهو «مندوب ماهوميه» أى النبى محمد (صلعم)؟

إن كان بونابرت قد جاء ليخرج مصر من ظلمات الجهل وخزعبلات الغيب، فكيف كان يقول لأعضاء الديوان «الديمقراطى» : «أليس حقا أن فى كتبكم،...، ما ينص على أن إنسانا ساميا عليكم سيصل من الغرب، منوطا بإكمال رسالة النبى؟ ،......، أليس حقا،....، أنه مكتوب أن هذا الإنسان، مندوب «ماهوميه»، هو أنا؟» (٣٧).

★★★

وبعد، هل نصدق أن عمالقة من العالم الخارجي، نزلوا على مصر لبناء الأهرامات؟ هل نصدق أن إلها من فرنسا، نزل على مصر، ومكث فيها سنة وشهرين، فأعادها إلى الحياة، بعد أن عاشت قرونا في غفوة لا تختلف عن الموت؟

ولكن، ألا يجدر بنا، قبل أن نستمع إلى هذا «الجنون» أن نستعمل «العقل»، ونتسائل: «من يقول هذا الكلام الغريب؟».

★★★

الخاتمة

الموضوعية العلمية فى الغرب

«.. ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن ، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ..»

(حنا آرندت)

سبق لنا أن رأينا – فى الجزء الأول من هذه الدراسة ، «عصر الأساطير» – كيف دخلت فرنسا ، منذ عام ١٧٨٩ ، عصراً من التهويمات النرجسية التى لم تلبث أن حولتها إلى وقائع أسطورية . تم ذلك منذ انعقد «مجلس طبقات الأمة» لأول مرة ؛ ذلك المجلس الذى طور نفسه إلى «جمعية وطنية» ، تصدر القوانين باسم الشعب . ذهب مرشحون عن القاعدة للمرة الأولى فى تاريخ فرنسا لمحاولة إصلاح أمور دولة لم تعد قوانينها تناسب عصرا انتشرت فيه أفكار فلسفة التنوير التى بهرت أوربا بتطبيقها فى إنجلترا ثم الولايات المتحدة الجديدة فى شمال أمريكا . ومنذ اللحظات الأولى لذلك العصر ، تقمص الفرنسيون دور الريادة العالمية التى قرروها هم ، وتخيلوا أنفسهم معلمين للبشرية، بل ومثلا أعلى لها. كما قرروا أن كل من يرفض هذا التتويج لهم ولأفكارهم، عدو لابد من إبادته. فكانت الحرب الأهلية داخل البلد ، ومجازر المعارضين ، بل وإعدام بعضهم البعض بتهمة الخيانة العظمى، و«الثورة – المضادة» . وعلى الرغم من أن الأزمة الاقتصادية كانت هى الدافع الأول لاجتماع «مجلس الطبقات» إلا أنها لم تجد حلاً ، فكان ذلك سببا آخر للاستيلاء على الأراضى المجاورة ، ثم إعلان الحرب على البلاد المتاخمة لفرنسا ، بحجة تحرير شعوبها من طغيان ملوكهم . وهكذا بدأت الحروب التوسعية ، واستنزاف كنوز «الجمهوريات الأخوات» تتحول إلى سمة من سمات تلك السنوات العنيفة . كما أنها كانت ترضى الغرور القومى بإعلاء اسم «جمهورية فرنسا» على باقى البلاد .

وتضخم الإحساس بالجو الأسطورى السائد آنذاك ، عندما جاءت أخبار معارك الجنرال بونابرت فى إيطاليا ، منتصرا على الجيش النمساوى ، أقوى جيوش ذلك العصر ولما كانت الثورة قد فقدت زهوها آنذاك فإن اسم بونابرت حلّ محلها على مذبح القومية الفرنسية . ولكن إنجلترا - العدو المتبقى - محصنة ببحار واقية ، ومن الصعب النيل منها ، فكانت فكرة الاستيلاء على مصر لضرب مصالحها ؛ ولم تكن تلك الفكرة جديدة ، فقد طرحت منذ عصر الملكية ، لأن فرنسا أرادت أن تعوض بمصر مستعمراتها المفقودة فى أمريكا ، تعوضها بجزء من ممتلكات «الرجل المريض» ، تركيا . وكما كانت الحال فى الحروب التوسعية فى أوربا ، فإن الثورة قد شنت حربا توسعية هنا أيضا باسم نشر مبادىء الثورة، تلك المبادىء التى لم يبق منها إلا شعار منقوص ؛ فقد أسقطت منه كلمة «الأخوة» فى عام ١٧٩٤ ، وأصبح الشعار الرسمى للدولة «الحرية والمساواة» دون «الأخوة» !

ثارت الشعوب «المحررة» فى أوربا على محرريها ، لأن هؤلاء المحررين لم يطبقوا أيا من تلك المبادىء «الأخوية» التى كانوا ينادون بها . وبزغ، فى تلك الأثناء ، نجم بونابرت ، تخدمه انتصاراته طبعا ، وإن كانت الدعايات التى روجها فريقه ، الذى تفوق فى رسم صورته كنصف إله، قد خدمته أكثر، خاصة أن العصر كان مشحوناً بالأساطير؛ فزادت بذلك الأساطير أسطورة أخرى . وتحول الفرنسيون، من عبدة لعبقرية الثورة ورجالاتها، إلى عبدة لإله أوحد، هو «المنقذ» بونابرت، الذى لم يهزم، حتى فى مصر : أنقذ بونابرت فرنسا بالفعل من حالة الفوضى

والانهيار التى كانت قد وصلت إليها ، بعد عشر سنوات من الأزمات المتلاحقة، والأيام «الثورية التاريخية» الدامية . تركزت، بعد ذلك، كل السلطات فى يد «القنصل الأول بونابرت» ، الذى أصبح الحاكم بأمره، القاتل لكل الحريات . ولكنه كان قد أصبح أيضا «الإمبراطور نابليون» الذى احتل دول أوروبا كلها : دفعت فرنسا ثمن انتصاراته بكل فخر، مضحية بكل الحريات التى كانت قد اكتسبتها، إلى أن بدأت تدرك أن قبيلة بونابرت تدير أوربا لحسابها الخاص ، وقد أصبح كل عضو فيها ملكا على بلد يستنزف كنوزه لمصالحه الشخصية . ومن أجل تدعيم أركان عرشه قام «الجنرال الجمهورى» ، الإمبراطور المستحدث ، بعقد علاقات مصاهرة ونسب مع أعرق العائلات الملكية فى أوربا، وأصبح هدفه الأول توطيد عرش ابنه، وهو الذى نبت من ثورة، كان هدفها تحطيم العروش . وتضخم غرور الرجل طبعا ، حتى فقد عقله الجبار قدرته على التقييم الواقعى للأمور فوقع فيما اعترف به هو نفسه كخطيئة كبرى ، الحملة على أسبانيا .

كان الجيش الفرنسى قد دخل مدريد بحجة تصفية الخلافات بين أعضاء العائلة المالكة ، فثار الشعب على المحتل الأجنبى ثورة عارمة . وما كان من الجيش الفرنسى إلا أن رد بوحشية على تلك الثورة، وحشية خلدها الفنان الأسبانى «جويا» فى لوحتيه الشهيرتين «الثانى» و «الثالث من مايو» ، وكانت الإعدامات فى الثانى والثالث من مايو ١٨٠٨ قد وصلت إلى ذروتها ، فهرب ملك أسبانيا وترك عاصمته مدريد للجيش الفرنسى الغــازى ، وتــوج «جوزيف» أخو نابليون ملكا على أسبانيا

فى شهر يونيو ، ولكنه هرب بعد شهر واحد أمام انتصارات المقاومة ضده : لقد أنزل الإنجليز قواتهم لمساندة الأسبان فكان ما كان . واضطر نابليون إلى الذهاب بنفسه لإنقاذ الموقف ، بعد أن أمن ظهره ؛ استطاع أن يسترد مدريد فى شهر ديسمبر ، وإعادة العرش لأخيه . وتستمر المقاومة والحرب مع الإنجليز على أرض أسبانيا ، إلى أن أجبر الإنجليز فرنسا على الانسحاب والجلاء بعد ذلك بسنوات خمس ، أى فى ١٨١٢ . ولو قرأنا تفاصيل «الحملة على أسبانيا» ، لعجبنا للشبه الكبير بينها ومثيلتها على مصر فما الذى قاله المؤرخون عنها ؟

★★★

يعتبر «جان تولار» - بادىء ذى بدء - أهم المؤرخين الذين تحدثوا عن الحملة على أسبانيا فى كتابه عن «نابليون» .

فهو يرى أن نابليون لم يستول على مدريد إلا لتأكيد سيطرته العائلية على ما اعتبره «ميراث العرش الفرنسى» . كذلك كان لما قيل عن ثراء أسبانيا ومستعمراتها وزنه فى قرار الاستيلاء على البلد . كما أن نابليون كان يعتقد أن هذا البلد «المتخلف الجاهل» سيرحب به وبمبادىء الثورة الفرنسية . وعلى الرغم من تعاطف الطبقة المستنيرة - كما يقال عما حدث فى مصر - إلا أن الكنيسة والشعب قد رفضا الحكم الفرنسى رفضا مطلقا ، ويسوق «تولار» أسماء قواد الثورة دليلا على طبقة الرافضين للحكم الفرنسى والثائرين عليه ، وهى كلها أسماء من عامة الشعب، وقد انضم إليها من النبلاء والأعيان من رفض أن تأتى الإصلاحات من الخارج .

نلاحظ أولا تذمر الجند الفرنسيين من حرب لم تقنع ضرورتها حتى المستفيدين منها فى فرنسا نفسها ؛ كما نلاحظ كذلك قول «تولار» : «كانت حرباً جديدة يكتشفها الفرنسيون ، فاجأتهم بكم الكراهية التى أثاروها عند الأسبان» ... وكأن التاريخ يعيد نفسه ، بعد أن «فاجأت» ثورتا القاهرة الجند الفرنسيين ، وكان تذمر الجيش منذ الأيام الأولى لاحتلاله مصر . ومن أوائل ضحايا تلك الحرب القومية الدينية فى أسبانيا ، فرقة المماليك الذين كان الفرنسيون قد اصطحبوهم عند جلائهم عن مصر . وتدخل الإنجليز بالمساعدة الفعلية ، واستمرت المقاومة بمساندة جيوشهم من جهة ، ومساندة الكنيسة ضد «الفرنسيين الملاحدة» من جهة أخرى ، إلى أن خرج الفرنسيون مهزومين فى ١٨١٢ .

ويعزو «تولار» الهزيمة إلى: «الظروف الطبيعية ، وصعوبات التموين فى بلد فقير لم يكن يستطيع حتى أن يغذى شعبه فى الأيام العادية» ، وأيضا إلى: «حرب العصابات، التى يقودها شعب متطرف ألهبته الدعاية الدينية المعادية للأجانب، ضد الفرق المنعزلة أو القوافل» : كلام يذكرنا بالاتهامات المستمرة التى كانت تعزو مقاومة المصريين إلى تطرفهم الدينى ضد «الكفرة» فقط . كما يذكرنا الحديث عن سوء الأحوال الاقتصادية بما حدث فى مصر بالضبط، من خيبة أمل الفرنسيين ، أمام الموارد المحدودة ، وقسوة الطبيعة الصحراوية فى الصيف . كذلك ، فإن المقاومة الأسبانية الشعبية المتفرقة ضد جيش «اعتاد المعارك النظامية ،... ضد عدو واحد» ، تذكرنا بما تكبده

الفرنسيون من هجمات «العرب» البدو ، وثورات الفلاحين ، وسياسية الكر والفر التى انتهجها المماليك فى مصر العليا .

والأهم من ذلك كله ، أن نابليون الذى لا يهزم ، هزم جيشه فى أسبانيا حتى اضطر أخوه إلى الفرار ، ولذا فقد اعتبرت «الحملة على أسبانيا» «هزيمة نابليون الأولى» . هكذا يسميها كل من تحدث عنها أو عن نابليون ، وهكذا تحدث هو نفسه عنها ؛ والجميع يعزو إليها انهيار جيشه فى روسيا بعد ذلك ، وهزيمته النهائية أمام التحالف الأوربى . وعلى الرغم من أن نابليون نفسه قد أكد ، أثناء نفيه فى «سانت - هيلانة» ، أنه لولا هزيمته أمام عكا ، لكانت الحال غير الحال ، إلا أنه لم يقل يوما «هزيمته فى مصر» ؛ وبالتالى فإن أحداً لم يذكر أن أولى هزائمه كانت فى مصر ، حتى من اعترف بفشل الحملة على مصر فشلا مطلقا.

وعلى الرغم من أن «تولار» نفسه قد سمى المقاومات ضد نابليون - وأعنفها فى نظره المقاومة الروسية - «الحرب القومية ، وهى التى تختلط فيها الوطنية بالتطرف الدينى، وتلقى بشعب كامل ضد المعتدى» ، إلا أن «تولار» ، مع ذلك ، لن يدرج المقاومة المصرية بين مقاومات الشعوب المحتلة مع أنه - أثناء حديثه عن الحملة على أسبانيا مثلا - يستعمل تعبيرات تنطبق تماما على ما حدث للحملة فى مصر . فهو يقول مثلا : «التدخل (فى أسبانيا) وليد مبادرة من نابليون نفسه ، حتى إن كان «تاليران» و «مورا» قد شجعاه بصورة ما . كان هناك هذا الخطأ الأول : كتابات الرحالة وتقارير الدبلوماسيين الذين جعلوه يظن أنه سيكون

المنقذ الذى جاء ليحيى أسبانيا المتهالكة» : فمن ذا الذى يجهل أن «تاليران» هو الذى تقدم، مع بونابرت ، بمشروع غزو مصر، مؤكدا أن المصريين سيستقبلون الجيش الفرنسى «بالأحضان» ، وأن مصر ستستعيد أمجادها السابقة على يد الفرنسيين؟! ومن ذا يجهل تأثير تقارير القنصل الفرنسى فى القاهرة «ماجالون» ، التى أكدت كلها سهولة غزو مصر ، وتلك الصورة المتهالكة التى وجدها بونابرت لمصر فى كتب الرحالة «فولنيه»؟. كلام «تولار» عن أسبانيا ينطبق إذن على مصر أيضا كما أن «تولار» يبرز تأكيد نابليون على أهمية غزو أسبانيا «لإدخال أفكار ١٧٨٩ الجديدة ، على بلد يئن تحت وطأة حكم متخلف» : نفس ما قيل عن مصر ، وحكم المماليك فيها .

وعن حركات التحرر التى تفجرت بعد ذلك فى ألمانيا والنمسا، خاصة فى «التيرول» ، يقول «تولار» أيضا : «كما حدث فى أسبانيا فإن الظروف كانت مهيئة لحرب عصابات فى بلد جبلى متخلف يقع تحت تأثير الرهبان ومعاد للأجانب» .

ولا يختلف هذا عما قيل عن التطرف المسلم ضد «الكفرة» ودور الأزهر فى إلهاب مشاعر المصريين، وإن كان يقال هنا عن «التيرول» البلد المسيحى الكاثوليكى. وكان «تولار» قد لاحظ منذ البداية أثر حرب العصابات على جيش نابليون الذى «لن يجد لها خط دفاع» مناسب .. فى أسبانيا .. لكنه لن يذكر كلمة واحدة عما لاقاه الجيش الفرنسى فى مصر العليا أو السفلى من ثورات الفلاحين .

نجد الكلام نفسه عند «دوفريس» فى كتابه عن «نابليون» : «يصطدم نابليون، للمرة الأولى، بمقاومة قومية وحرب لا تخضع لتكتيكه ،...، امتدت الثورة إلى البرتغال حيث نزل إنجليز ويلسلى («ولينجتون» المستقبل) وأجبروا الفرنسيين على الاستسلام . كانت تلك أولى الهزائم النابليونية » ، مع أن الأنجليز أيضا كانوا وراء هزيمة بونابرت أمام عكا ثم رحيل الفرنسيين فى النهاية عن مصر ، ناهيك عن تدمير الأسطول الفرنسي فـى أبـو قيـر فـى الأول من أغسطـس ١٧٩٨، وكان ذلك - باعتراف الجميع - نذير فشل الحملة مادام الجيش أصبح سجين غزوته .

كذلك نرى «ريمون آرون» يؤكد أنه: «أثناء حروب الإمبراطورية، هاجم الفلاحون الجند الفرنسيين مرتين ، فى أسبانيا وفى روسيا، سواء أكان السبب فى ذلك ضرائب الجيش الغازى التى لا تحتمل فى هذه البلاد وهى على شفا المجاعة، أو أن رد الفعل البدائى للوطنية الكارهة للغازى، قد لعب دوره هناك» (١) ... وهل كان الأمر مختلفا فى مصر؟ ولم لم يذكر؟ ألأن مؤرخنا يتحدث عن حروب نابليـون الإمبراطـور ، وليس عن حروب بونابرت الجنرال ؟!

قد يكون سبب هذا التجاهل، أن أسبانيا كانت بداية النهاية بالنسبة للإمبراطور نابليون، بينما كانت أسطورة الحملة هى بداية البداية للجنرال بونابرت، الذى استولى على الحكم فى فرنسا وهو متوج بانتصار زائف فى بلاد ألف ليلة وليلة ، والمماليك والأهرامات : ولكـن،

ألم يُعترف بزيف أسطورة بونابرت وزيف أسطورة نابليون ؟ وعُرف كذلك زيف أسطورة الحملة ؟

★★★

بسبب غزو أسبانيا «هزيمة نابليون الأولى» كما يقولون ، جاءت الهزائم الأخرى بعد ذلك ، وكان أبشعها طبعا فى روسيا . وجاءت آخر هزيمة عام ١٨١٥، وقد ترك نابليون فرنسا فى حالة من الوهن ، مكنت الأعداء منها، وقد فقدت من الأراضى أكثر مما كانت الثورة قد استولت عليه قبل حكمه.

ولكن الحكم الملكى الذى عاد إلى فرنسا بعد نفى نابليون، خيب كل الآمال، فبدأ الندم على «أيام نابليون المجيدة» وعاد الحنين لعصر كانت فرنسا تحكم فيه كل أوربا ، عادت أسطورة الثورة التى منحت الحريات والمساواة، وأسطورة الرجل الذى أذل أوربا بصفته «إمبراطورا للفرنسيين»، وانتشرت حروبه وانتصاراته من مصر إلى روسيا: كان اسم مصر ذلك البلد المسلم البعيد الغامض وحده يثير الإيحاءات التهويمية، من قصص الفراعنة إلى سحر ألف ليله وليلة، ألا يكفى نابليون مجدا أنه حارب هناك «المماليك» ذلك الاسم الأسطورى الآخر ؟

وعلى الرغم من كل ما نشر عما حدث فى مصر من فظائع، إلا أن الجمهور كان لا يقرأ إلا ما يرضى غروره الوطنى، وحنينه لأيام كان جند فرنسا يفتحون فيها كل البلاد وحتى النائية منها باسم فرنسا وكانت السياسة الداخلية لفرنسا القرن التاسع عشر صاخبة مدوية، بسبب التيارات المتناحرة التى أنتجت أربع ثورات، وخمسة نظم سياسية

مختلفة. فكانت المؤلفات الحزبية والدراسات التاريخية تهدف أساسا إلى خدمة تيار سياسى بعينه ليعضد من فرص فريق ضد فريق آخر إلى أن جاء انتصار الجمهوريين حوالى عام ١٨٨٠، وازدهرت السياسة الاستعمارية للجمهورية الثالثة وهكذا فإن الأفكار السائدة أنذاك قد خدمت أسطورة نابليون «بطل الحضارة»، غازى أوربا وإفريقيا وآسيا، وسياسته الحكيمة فى مصر كأحسن لواء لما أصبح عصر استعمار باسم تصدير «الحضارة» الى الشعوب الجاهلة.

وأصبحت أسطورة الثورة الكبرى، ملهمة الجمهورية الثالثة، بل أمها التى تمدها بالشرعية، أصبحت هى التاريخ الرسمى للدولة كما أصبحت انتصارات نابليون مفخرة الذكرى القومية؛ فكلاهما أحسن دليل على امتياز الحضارة الفرنسية وضرورة فرضها، ولو بالقوة على دول العالم، وما أكثر الدول الضعيفة فى القارات الأخرى. من هنا كان ذكر الفشل الذى حاق بالجيش الفرنسى فى مصر - والله أعلم - ذكرى بذيئة لابد من إيجاد حل لها، فكانت أسطورة نجاح «المشروع الحضارى» وانبهار المصريين به خاصة أن الخديو إسماعيل أراد لمصر أن تكون جزءا من أوربا، ففتح الباب على مصراعيه للنفوذ الثقافى الفرنسى وإرسالياته التعليمية لذا فقد قرر المؤرخون أن ذلك لم يكن إلا ميراث الحملة ونتيجة مرور بونابرت على مصر لمدة عام واحد، حتى إن جاء ذلك بعد قطيعة دامت ستين عاما.

وعندما جاء الاحتلال الإنجليزى، توجه المثقفون العرب إلى فرنسا، بصفتها غريم عدوهم.

كلام مضى عليه أكثر من قرن، ويبدو كأنه من غياهب الدهر، خاصة أن الحرب العالمية الثانية غيرت كل المفاهيم التى كانت سائدة فى أوربا من قبل. فقد أصبحت أوربا قوة ثانوية بعد أن كانت مهيمنة على العالم بجيوشها ومفاهيمها وعليائها. وهزمت الولايات المتحدة اليابان فى آسيا، وتسيدت على العالم الغربى. لقد فقدت أوربا هيبتها كما فقدت مستعمراتها، التى احتلتها باسم «الحضارة» وجاء إلى الدنيا جيل جديد يسخر من ادعاء آبائه وأجداده فرض «حضارة» تتسم بالعنف والدموية على حضارات تعلَّم هذا الجيل احترامها بعد أن بهر بجمال إنجازاتها وسمو قيمها. خاصة أن الحرب كانت قد شنت ضد «بربرية النازية وهمجيتها»، وباسم «حرية الإنسان» الذى اضطهد فى المستعمرات واستنزف، كما فعلت الجيوش الهتلرية فى أوربا المحتلة؛ وكما حطمت حرب فيتنام المرأة التى كان الرجل الأمريكى الأبيض يرى فيها نبل كل تصرفاته وسمو قيمه، أصبحت كل أساطير «الأمه الفرنسية» محض خيالات خدعت الجيل الجديد فى طفولته، عندما كانوا يعلمونه تقديسها فى حياته المدرسية.

إنه جيل عرف، من الواقع اليومى، التعذيب الوحشى لشعوب حاربت من أجل حريتها فى الهند الصينية والجزائر ومع اكتشاف الحقائق البذيئة، كانت أزمة هوية الغرب الأوربى، والبحث عن دور آخر غير دوره السابق، كحام للحضارة فى العالم، عندما كان هو نفسه، وفى الوقت ذاته يحطم الحضارات الأخرى.

ووسط هذا الدمار كله، بقيت واحه منيرة، هى قصة الأشهر القليلة التى اعترف فيها شعب جاهل متخلف بسمو الحضارة الفرنسية إنها قصة الحملة على مصر، حتى عندما يعترف المؤرخ بما لا يمكن إنكاره؛ وكأنهم يقولون - بل قالها «جورج سبيلمان» بالفعل - نحن لا ننكر كل هذا الواقع المرير ولكن بقى الهدف السامى .... الذى لم يتحقق!

وبالتالى، فإذا ما ذكرت هزائم نابليون بونابرت، تناسوا أولى هزائمه وهى حملته على مصر، التى باءت بالفشل فى كل الميادين باعترافهم. لذا فقد تشبثوا بذكرى «المعهد الفرنسى» وإنجازاته، التى لا يذكرونها ... لعدم وجودها، وروعة كتاب «وصف مصر» وكأنه الإنجيل أو القرآن، وحجر رشيد، الذى كان يمكن أن يكتشف دون حملة عسكرية تهدف فى واقعها إلى استنزاف البلد لصالح الفرنسيين؛ وبذلك تأتى الخاتمة فى تناقض تام مع ماسبقها من سرد ووصف للأحداث: يجد القارئ نفسه حيالها مبلبل الفكر، شارد الذهن، محاولا إيجاد منطق سليم يربط بين ما قيل وما استخلص منه، وكأن جند الجيش الفرنسى من أنصاف الآلهة، فكان مرورهم السريع لنيف وثلاث سنوات يعادل فى تأثيره بل يفوق دخول المسيحية إلى مصر أو الفتح العربى، أو الغزو العثمانى؛ وأين الاحتلال البريطانى ؟.

وإذا ما تحدث المؤرخون - الجدد والسابقون عليهم - عن الانتفاضات الوطنية فى البلاد التى استعمرتها فرنسا الثورة وفرنسا الإمبراطورية، طمسوا ذكر آلاف من ضحايا المقاومة الشعبية فى مصر، وكأن هؤلاء لا يدخلون فى حساب شهداء الحرية لأنهم ليسوا من شعوب

أوربا. فقد كان يؤرخ للمقاومة الشعبية ضد الحكم الفرنسى منذ قيام ثورة الأسبان، وأصبح يؤرخ لها الآن منذ أن رفض الإيطاليون والسويسريون حكم فرنسا الجمهورى .... دون ذكر للمصريين. وقد يكون ذلك موقفا منطقيا لو أنهم اعتبروا - مثلنا - أن المرور الفرنسى على مصر كان عابرا، وأن إسقاط ذكره لن يؤثر على فهم تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر، ولكنهم مؤمنون أن هذا الحدث كان الفاتحة بالنسبة لمصر الحديثة. حتى «المؤرخين الجدد» - ماعدا «فرنسوا فوريه» - يصلون كلهم إلى هذه النتيجة الغريبة؛ غريبة، خاصة إذا ما تذكرنا أن الفرنسيين يعتزون جدا بقولهم «نحن فى بلد ديكارت» صاحب مبدأ ترجيح العقل والمنطق فى كل الأمور. كان أمرا طبيعيا حين كان المؤرخ الاستعمارى يتحدث عن جند الحملة مسميا إياهم: «جندنا» وقائلا عنهم: «نحن»، ولكننا نجد ذلك أيضا عند «المؤرخين الجدد» الذين يتحدثون عن «جنود الحملة»، أو «فرنسيى ذلك العصر»، معترفين إذن بالمسافة التى تبعدهم ذهنيا وزمنيا عن أجداد ضاعت علاقتهم بهم بسبب تغير الأحوال وتطور العقليات وهم بالفعل يتحدثون عنهم بعقلية نقدية قاسية فاضحين مساوئهم وتخريبهم للبلاد.

★★★

لا مناص لنا إذن من الرجوع إلى ما قالته الفيلسوفة «حنا آرندت» فى كتابها عن «أزمة الثقافة»؛ إنها تؤكد أن: «... ما يسمى بالموضوعية - ذلك الغرام الغريب بالأمانة الثقافية المطلقة وبأى ثمن، غير المعروف خارج الحضارة الغربية ...» (٢) ... كلام يثير فينا ذكرى دراسة

أمريكية (٣)، تثبت - وياللعجب - أن الأجناس الأخرى غير البيضاء، تعرف هى أيضا مشاعر الحب! اكتشاف عجيب فقد كان الظن السائد أن حضارة الغرب وأوربا بالذات بثقافتها هى الوحيدة التى تعرف هذا الإحساس الجميل: هكذا! مما يجعلنا نتساءل عن حقيقة أسطورة أخرى غير أسطورة حملة بونابرت على مصر وهى أسطورة الموضوعية العلمية فى الغرب.



قبل أن نقرأ ما قاله الدارسون الفرنسيون أنفسهم عن هذه الفكرة، فكرة «موضوعية العلم» وعلم التاريخ بالذات، نود أن ننوه إلى أن كلمة «موضوعية» في اللغتين العربية والفرنسية مشتقة من الجذر نفسه: فمن «يضع شيئا» أمامه، لابد أن ينظر إليه بعين مجردة، بحيث يرى الجميع المعنى نفسه، فلا يمكن مثلا أن توضع مائدة يراها البعض كرسيا والبعض الآخر مائدة. إن الناظرين إلى «الشئ الموضوع» أمامهم لابد أن يتفقوا كلهم على صحة رؤية هذا الشئ نفسه، وكلمة «شئ» هى بالضبط الكلمة الفرنسية المشتقة منها كلمة «موضوعية» العربية. فهل ينظر كل العلماء بالعين نفسها إلى الشئ المدروس ؟.. المفروض أن يكون الأمر كذلك، والمفروض عادة ليس القاعدة مع الأسف الشديد. فمصر جغرافيا مثلا تقع فى افريقيا ولكن البعض ينظر إليها على أنها جزء من أوربا، لأنهم أرادوا لها ثقافة هى الثقافة الأوربية. فالشئ يختلف إذا تدخل الفكر فى النظر إلى أموره، وإذا كانت الأمور تاريخية، فمن الطبيعى أن يختلف فكر المؤرخ عن فكر زميله فى الدراسة. ويجوز

لمؤرخين أن يحكما على الأشياء من منظورين مختلفين، لأن فكر أحدهما منبثق عن زاوية غير الزاوية التى ينبثق عنها فكر زميله. ومادامت الرؤية كالفكر ذاتية بالضرورة فمن الجائز إذن اختلاف الأحكام باختلاف الفكر من شخص إلى آخر ومن مؤرخ إلى آخر.

ولكن القضية تصطدم أيضا بعنصر آخر هو المصلحة وراء الدراسة وكما أسلفنا، وحسب كلام «فونتنيل» فى قصته عن «السنة الذهب»، قد تكون النية سليمة ولكن التعجل أو الجهل يجعلان الدارس مخطئا فى تقييمه للأمور، كما قال «فونتنيل»، فالدراسات التاريخية بالذات معرضة أكثر من غيرها لهذا النوع من الخطأ خاصة لو أننا فطنا إلى أن دراسة التاريخ ما هى، فى الواقع، إلا دراسة سياسة الماضى. وبالنسبة للسياسة بالذات، فقد عبرت «حنا آرندت» عن مكنونها الواقعى الدفين قائلة: «إن ما أقوله أمر مسلم به فالجميع يعرف دون أدنى شك، أن الحقيقة والسياسة. لا تتفقان وحسب معلوماتى، فلا يوجد من اعتبر الأمانة صفة من الصفات السياسية، فالكذب كان يعتبر دائما الأداة الضرورية الشرعية لوظيفة السياسى أو الديماجوجى ناهيك عن وظيفة رجل الدولة»، كلام لن يعترض عليه «ماكيافيل» طبعا (١٤٦٩ - ١٥٢٧) ذلك المفكر الإيطالى الداهية «الذى اتهم الفرنسيين بتحويل كل هزائمهم إلى انتصارات (٤)، واعتبر هذا الداء سمه من سمات الفرنسيين منذ عصره! لذا فقد كان نقد التاريخ الفرنسى جزءا من نقد «الموضوعية العلمية» فى الغرب.

★★★

إن المجال الوحيد الذى يمكن أن نحصر فيه «الموضوعية العلمية» في حالتها المطلقة، هو مجال العلوم الانسانية، دون نزاع، وميدان الدراسات التاريخية على وجه التحديد، فإن كل من يتعرض للواقع، سواء كان هدفه عملاً فنياً أو دراسية أكاديمية ، لابد أن يعتمد على تلك الدراسات ، خاصة أنها لم تعد تهتم فقط بأكابر الشخصيات، أو ما يسمى «بالحدث التاريخى»، بل اتسع نطاقها ليشمل كل ما يخص الإنسان ـ بل والحيوان ، والطبيعة فى كل مظاهرها ـ وأصبح ذلك كله مجال دراسة للمؤرخ. إن ما يسمى بالتأريخ أصبح حاليا دراسة الحضارة لبلد ما، بكل فروعها، سواء كانت تلك الفروع ثقافية أو اقتصادية أو حربية.. إلخ. لذا فقد أصبحت مسئولية المؤرخ عظيمة، إذ أنه لا يقدم أحداثا بعينها، بقدر ما هو مسئول عن تقديم حضارة بأكملها. من هنا جاء سؤال «ما فائدة المؤرخين؟»، سؤال تولت مجلة «لستوار» تلخيص الإجابة عليه، كما نشر أيضا فى مجلة علمية أخرى، وكانت هذه هى الإجابة: «للمؤرخ وظيفة اجتماعية بالنسبة لمعاصريه واجبه أن ينير لهم الماضى حتى يكون فهمهم للحاضر أعمق، هذه مسئولية ليست بالبسيطة، فالمؤرخ، ، حسب تعريف إيريك هوبسباوم، «محطم الأساطير»، فعليه نقل علم سيكون «الإدراك التاريخى لليوم وذاكرة الغد». على المؤرخ إذن ألا يقتنع بأكثر المسلمات شيوعا، بل عليه أن يزعج» (٥) قراءه، لأنه طبعا سيغير كل ما يقتنعون به من مسلمات سابقة . فمسئوليته إذن غاية فى الخطورة لأنها تشكل الوعى القومى للشعوب.

وظيفة تحطيم الأساطير جد شاقة، فالقول الفرنسى «إن للأساطير حياة طويلة» قول حكيم. وقد عرفنا، من دراستنا السابقة، كيف يمكن أن تعمى المسلمات الكاذبة بصر أحسن العقول تفهما. ولكن الأساطير صعبة التحطيم لأنها تدخل عقولنا منذ الصغر، لذا كانت المشكلة التى قال فيها المؤرخ «فيليب جوتار»: «إن التاريخ العلمى ضعيف إذا ما قورن بالتاريخ الأسطورى. فالأساطير لها فعالية قوية لأنها تخاطب الخيال ،.... إنها تقوم بالفعل بالدور البدائى لذكرى الماضى بصورة أفضل من التاريخ النقدى للمتخصصين: إن وظيفة ذكرى الماضى هى الحفاظ على تماسك الجماعة» الإنسانية . وهو يرى أن الانفعال الغاضب لا فائدة منه: «من الأفضل دراسة منهجية منظمة لأساطير كثير من التركيبات التاريخية، بما فيها من تظن نفسها دقيقة. لأن خطر الأسطورة التاريخية ليس فى ذاتها، ولكن فى إنكار طبيعتها الأسطورية ، وفى التبريرات المطروحة بوسائل علمية» (٦).

وكان المجهود جد شاق بالنسبة لجيل وجد نفسه يفند اساطير الماضى، وما أكثرها فى التاريخ الفرنسى وجاءت الدراسات عديدة عندما بدأ تيار إعادة النظر فى تأريخ بلد تغير وضعه بين ليلة وضحاها: «فمنذ ١٩٧٠، بدأت الزوابع فى سماء كانت صافية (لسنوات عديدة). كيف يدرس تاريخ يدخل فى حسبانه المكان المتوسط لفرنسا فى العالم؟» (٧) بعد أن فقدت مكانتها السابقة كقوة عظمى؟ ويرى مؤرخ آخر القضية نفسها من منظور آخر: «إن الجيل المولود فى الستينات لم

يعد يحتاج إلى أسطورة تجمع شمله: أزمة الهوية التى سببتها الحرب العالمية الثانية لم تعد مشكلته» (٨).

كما يرى «فرانسوا فوريه» أن تدريس التاريخ، بعد ١٩٤٥، لم يعد يتناسب مع ما كان يدرس منذ عام ١٨٨٥ «بسبب نهاية هيمنة أوربا على العالم» (٩). ويقول «مارك فررو» إن: «التاريخ التقليدى ،....، كان هشا: إنه يقدم لشباب فرنسيى ١٩٥٨ حرباً عالمية ثانية «متناسيا» الحديث عن المتعاونين (مع الألمان)، وحكومة فيشى وبيتان» (١٠). وهى كلها من سنوات يعتبرها الفرنسيون «سنوات عار»، لأنها تثبت أن النازيين فى فرنسا كانوا على وئام تام مع عامة الجمهور والحكومة. والنتيجة لن نستغربها ، إذا ما حاول دارس آخر معرفة رأى الفرنسيين فى أحداث الحرب العالمية الثانية.

فهو يلاحظ، فى عام ١٩٨٤، أى بعد حوالى خمسين عاما من الأحداث ، أن الفرنسيين يذكرون الماضى من خلال بعض الصور «العاطفية»، التى تجعل من الجنرال «دى جول» المنتصر الحقيقى على الألمان، وإجحاف الدور الأمريكى فى تحرير فرنسا من الحكم النازى واستعماره، معلقا بقوله: «فهم يجعلون من رغباتهم حقائق تاريخية» (١١).

ويعلق مؤرخ آخر على ظاهرة الأساطير الكاذبة كاتبا: «إن الحقيقة، مرة أخرى، كما نستطيع إعادة بنائها، لا تتطابق مع الأسطورة» (١٢). الأسطورة هي مايحلو لشعب أن يرى فيه نفسه، أما الحقائق فهى عادة ما تكون مؤلمة.

وقد عبر الأمريكيون عن تلك المشكلة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء أول قنبلة ذرية على هيروشيما فى اليابان، فرفضوا الاعتراف بواقع الحدث البشع، قائلين: «يكتشف الآن أن التاريخ كان كاذبا . وإن كان ذلك صحيحا، فهذه جريمة. ولكننا، نحن الأمريكان، لا نتخيل لأنفسنا تاريخا دمويا» (١٣).. وما العمل إن كانت تلك هى الحقيقة؟.

ولكن، هل بقى للحقيقة مكان بعد ذلك ، فى تاريخ يتلون حسب رغبات كل شعب فى تجميل صورته لنفسه وأمام الآخرين؟.

وأين بالذات تحسم هذه القضية؟ فمن هنا جاءت قوة الأساطير وصعوبة دحضها. وعادة ما تبدأ هذه الأساطير من الكتب المدرسية نفسها.

فمعرفتنا بالتاريخ تبدأ من المدرسة، ومؤلفو الكتب المدرسية هم طبعا المتخصصون، الذين سرعان ما تنسى أسماؤهم ، ولكن دروسهم تغرس فى ذاكرة الأطفال إلى الأبد.

وندر من استطاع بعد ذلك أن يتخلص من الانطباعات التى تأثر بها وهو طفل يكرر دون أى تفكير أو نقد، كل ما يقال له من خير أو شر، وهو كالرخام البكر، إذا ما حفر عليه شىء، فلن تمحيه بعد ذلك العقود أو حتى القرون.

وقد درس «مارك فيررو» فى كتابه الشهير «كيف يحكى التاريخ للأطفال»، هذه النقوش المضللة.

إنه يبدأ بهذه الحقيقة: «إن الصورة التى نعيش معها، عن أنفسنا وعن الآخرين ، هى الصورة التى لقنت لنا أثناء طفولتنا» (١٤). وفى مقدمته، يذكر «فيررو» المفكر الايطالى «بنيدتو كروتشى» الذى قال: «فى بداية القرن (العشرين) يطرح التاريخ مشاكل الحاضر أكثر مما يطرح مشاكل العصر الذى يفترض أنه يدرسه». ثم ينقد «فيررو» التاريخ الأوربى الذى لايهتم بالبلدان إلا إذا دخلت فى نطاق الاهتمام الأوربى. «فكان الغرب يعتبر أن الشعوب التى لم تمتزج بالحضارة الغربية، لا تاريخ لها»، ولا يدخلها فى سرده إلا عند «اكتشاف» الأوربيين لها ومن السهل طبعا بعد ذلك ، اعتبار كل ما سبق هذا الاكتشاف ملغياً، كما حدث مع دراسى الحملة على مصر، الذين لم يفكروا لحظة واحدة أن مصر، قبل مجىء الفرنسيين ، كان لها تاريخها وحضارتها وثقافتها (١٥): هذا تعليقنا نحن طبعا!.

ويلفت نظرنا ، فى كتابه، ما يقال بالذات ، عن نظرة التاريخ الأوربى، أو بالأصح التاريخ الفرنسى، إلى مصر: «فالشعوب الأخرى لا تشترك فى السرد التاريخى إلا بصفتها عابر سبيل، عندما كانت أوربا تتنزه فى بلادها. فمصر مثلا، نعرفها فقط قبل أن تولد (ولم نفهم ماذا يعنى بالضبط بهذا الوصف) ، ثم وهى تحت الحكم الرومانى، ثم أثناء الحروب الصليبية ، أو بونابرت ، ومحمد على، وناصر ،...، إن تاريخ هذه البلاد لا يعد تاريخا إلا عندما يلتقى بتاريخنا».

★★★

صدق «فيررو» فى مقدمته ، عندما فضح أهمية السيطرة على الخطاب التاريخى . فهو يقول: «السيطرة على الماضى تدعم السيطرة على الحاضر، وهى تأكيد لشرعية السلطات والتساؤلات. فالقوى المسيطرة - كالدول والكنائس والأحزاب السياسية أو المصالح الخاصة - هى التى تمتلك، أو تسيطر بطريقة ما ، على وسائل الإعلام أو أدوات الاستنساخ، من الكتب المدرسية إلى القصص المصورة (للأطفال) ، والأفلام وبرامج التليفزيون ،...، وأى من الأمم أو الجماعات الإنسانية ستقدر على السيطرة غداً على تاريخها؟».. وتأكيداً لهذا التشاؤم ، نذكر فيلما أمريكيا، عرض منذ بضع سنوات فى دور العرض بمصر. وكان جمهور الشباب فى القاعة يصفق لمهارات البطل الأمريكى، الذى يحارب ، فى شوارع القاهرة، الجيش الألمانى ، فى الأربعينات، وقد كست الأعلام النازية كل مبانى القاهرة ! وما خفى كان أعظم (١٦). ومما لاشك فيه أن هؤلاء الشباب قد خرجوا من الحفل مقتنعين تمام الاقتناع، أن النازية كانت مسيطرة على مصر... فقد شاهدوها بأعينهم! ويزداد التشاؤم إذا أخذنا فى الاعتبار أيضا ما يبث فى البيوت من خلال المسلسلات التليفزيونية المغرضة. ناهيك عما يقتحم عقولنا من خلال الانترنت، مؤكدا أن عمالقة من العالم الخارجى وبنى إسرائيل، هم الذين بنوا الأهرامات!! ...



نعم ... ومع شديد احترامنا للفيلسوفة «حنا آرندت» فقد جانبها الصواب فى مقولتها عن «الموضوعية العلمية» التى لم يهم بحبها إلا

الغرب فما قاله «فرانسوا فوريه» كان أصدق عندما أكد أن «كتابة التاريخ لم تكن بريئة فى يوم ما» (١٧)، وقد يكون عرضنا، لما كتب عن الحملة على مصر خير دليل على ذلك.

وفى دراسة أسماها «ميلاد التاريخ»، قدم «فوريه» الدليل القاطع على مقولته تلك. فهو أيضا مثل «فيررو» يدرس الخطاب التاريخى الذى يطرح على التلاميذ فى فرنسا. إنه يعرض علينا كيف أن التعليم ينتهج سياسة كل حكم يطيح بسابقه فتكون مقررات التاريخ هى أول شاهد على تغير سياسة الدولة ، والحقيقة أن دراسة مناهج التاريخ فى العالم كله - حسب قوله - وفى فرنسا بالذات، تشير إلى تغييرات جوهرية فى النظرة إلى ماضى الوطن وتسلسل الأحداث، من منطلق فلسفة خاصة لكل حكم وخير دليل يقدمه «فوريه» على ذلك تطور صورة الثورة الفرنسية، كما تناولها المؤرخون وتلاميذ المدارس الحكومية، على مدى مائتى عام.

كان تدريس مادة التاريخ فى القرن التاسع عشر قد أخذ أهمية لم يعرفها من قبل. إذا كان التعليم فى القرون السابقة يهتم أساسا بكلاسيكيات الأدبيات اليونانية والرومانية ؛ وقد رأينا بالفعل تأثير هذا التدريس على رجالات ثورة ١٧٨٩. بينما أخذ تدريس العهد الحديث أهمية جديدة، عندما بدأ المؤرخون يتبارون فى إثبات وجهات نظرهم، إبان الأحداث التى حولت فرنسا فى نهاية القرن الثامن عشر، من ملكية دامت حوالى ألف عام، إلى حكم جمهورى يؤكد أنه الشعب، ولا يحقق إلا إرادة الشعب. خاصة أن محاولة العودة إلى الماضى، وحكم عائلة

«البوربون» مرة أخرى، قد تسبب فى قيام ثورتين، فأصبحت ثورة ١٧٨٩ بآمالها وأحلامها، آمال وأحلام كل من صدم من حكم «البوربون» الذى اعتبر نفسه إحياء لماض عفى عليه الزمن.

من هنا، كانت أهمية منهج تدريس التاريخ بعد ثورة ١٨٧١. إنها العودة إلى قيم الثورة الكبرى، ثورة ١٧٨٩، عندما اعتبر الحكم الفرنسى الجمهورى نفسه معبرا عن الشعب، ولكنه رأى نفسه أيضا منبرا للديمقراطية العالمية. ويؤكد «فوريه»، مسترسلا فى سرده، أن فرنسا كما يقدمونها هى: «حاملة التقدم من خلال الدولة القومية، وتاريخ فرنسا أحسن مثل على هذا، بدليل تاريخها خلال عهد الملكية المطلقة فى الماضى، والثورة الفرنسية أخيرا». من هنا، كانت ضرورة تعليم الشعب مبادئ معينة، فى المدارس التى تتولاها الحكومة، حسب منهج جمهورى معين، أسماه «فوريه»: «علم تربية المواطن ....، أصبح الهدف من تدريس التاريخ واضحا خاصة أن المدرسة علمانية، إجبارية، مجانية: كان واجب هذه المدرسة وهدفها، خلق مواطن مقتنع بواجباته، وجندى يحب سلاحه». فكانت فتوحات فرنسا الاستعمارية ...

عرفت الأجيال المتلاحقة بعد ذلك صورة فرنسا من خلال الكتب المدرسية التى تركت بصمتها على العقول الفرنسية حتى عهد قريب، لأنهم تعلموا فيها، منذ نعومة أظفارهم، أن: «فرنسا هى أكثر الأوطان عدالة وحرية وإنسانية» (١٨) ... كما عرفت تلك الأجيال أن جند فرنسا لا يحاربون الشعوب المتأخرة إلا لإهدائها الرخاء والحضارة.

وكان بونابرت طبعا – والقول هنا لنا – أول من فكر فى إهداء هذا الكنز إلى الشعوب المتخلفة، عندما غزا مصر كانت السياسة التعليمية للجمهورية الثالثة هى وسيلتها لإرسال الفرنسيين لاستعمار إفريقيا وآسيا ... فكانت أسطورة الحملة التحضيرية على مصر، أولى غزوات تحضير الشعوب الجاهلة. فإذا عرف السبب ...

★★★

إن تدريس مادة التاريخ يعتبر من أهم، إن لم يكن أهم عنصر فى تكوين الشخصية القومية لأى شعب. والمعروف أن ألمانيا النازية، مثلا، عندما أرادت قهر الروح البولندية بعد غزو البلاد مباشرة فى ١٩٣٩، فإنها قد ألغت تعليم اللغة البولندية، ومادتى التاريخ والجغرافيا من المدارس وذلك حتى يفقد التلاميذ هويتهم نهائيا، ويتحولوا إلى أداة طيعة للحكم النازى. تماما كما كانت الحكومة الفرنسية تفعل فى مستعمراتها، حيث كانت تدرس اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها .... فقط؛ حتى أن التلاميذ، عربا أو أفارقة أو آسيويين، كانوا يرددون الجملة الشهيرة «أجدادنا الغال» ... إلى أن فقدوا أى انتماء لأجدادهم الأصلاء.

كذلك تلعب السينما – والتليفزيون – دورا خطيرا فى تشكيل الوعى العام فى القرن العشرين. وأفلام «فرانك كابرا» مثلا فى الولايات المتحدة، معروفة لدورها الخطير فى هذا الصدد، فبسببها آمن الشعب الأمريكى بالصورة الجميلة للرجل «الأمريكى الأبيض الخير الحر» التى يراها فى تلك المرآة الباهرة، وجاءت حرب فيتنام لتتحطم المرآة، ويمر

الجمهور بأزمة طاحنة أمام واقع أليم يفضحه التليفزيون، واقع لا علاقة له بما كان يتخيله هذا الجمهور عن نفسه. كذلك كانت الأزمة عندما أرادوا الاحتفال بمرور خمسين عاما على إلقاء القنبلة الذرية على «هيروشيما» اليابانية ، ومع الاعتراف بما أصبح يذكر على أنه جريمة وصلت بشاعتها إلى حد اللاتبرير. وأمام ثورة الرأى العام، لم تلق الأزمة حلاً غير إلغاء احتفال يفضح «جريمة بشعة ضد الإنسانية»، كان الأمريكيون لا يعترفون بمثلها إلا على أيدى أعدائهم ، من ألمان ويابانيين فى الحرب العالمية الثانية .



وبعد ...

انهارت صورة الأمريكى الطيب، كما انتهت أسطورة الحروب الصليبية: إن الغرب يعترف الآن أنها كانت حروبا استعمارية أكثر مما كانت حروبا دينية، كما أصبح يعترف بالفظائع التى اقترفها الصليبيون فى الأرض المقدسة. واستمر جيل «تحطيم الأساطير» ، فأتى على أسطورة «الثورة الكبرى» ورسالتها السلمية العالمية.

كذلك ، أصبح الحديث عن نابليون يعترف - دون أدنى شك - بأن الأسطورة كانت كاذبة. والدليل، مثلا، اكتشاف أن سجن «الباستيل»، عندما اقتحم فى الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩، لم يكن به سوى خمسة سجناء .. بينما كان عدد السجناء الذين خلفهم نابليون عندما انهار حكمه، فى ١٨١٤، خمسة وعشرين ألفا! أصبح هذا الكلام من المسلمات ، حتى ان إعلانا عن مزاد طرحت فيه خطابات للإمبراطور

الشهير فى باريس، يقول عنها إن بها ما يكشف «جوانب مخفية (عن شخصية نابليون) أو كانت الأسطورة قد أخفتها بعناية فائقة..» (١٩).

★ ★ ★

فإن كانت أسطورة الرجل قد انهارت، ألم يحن بعد أن تفضح أيضا أسطورة الحملة الحضارية على مصر، هزيمة بونابرت الأولى، والتى كانت السبب الأول فى استعمار الإنجليز لمصر فى ١٨٨٢؟

وتنهار أيضا مقولة «حنا آرندت» عن الغرب، المغرم الوحيد بالموضوعية . خاصة أنها اعترفت بأن السياسة لا تعيش إلا بالكذب: ألم يقل المؤرخ «فرانسوا فوريه» إن: «التاريخ أمر سياسى قبل كل شىء»؟ (٢٠). فنصل إلى نتيجة أخيرة: أن التاريخ - عندهم - هو السياسة الكاذبة. والله أعلم.

«وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»
صدق الله العظيم

الهوامش والمراجع الأجنبية

الفصل الأول

شاهد من أهلها

١- Vivant Denon : Voyage dans la Basse et la Haute - Egypte

Présentation de Jean Claude Vatin, Le Caire IFAO, 1989

٢ – «كريستوفر هيرولد»

النص المترجم : ص ١٣٣.

وتعليق «لورانس» فى كتابه يؤكد هذا الوصف: النص المترجم ص ١٤٩.

٣ - Jean - Marie Carré: Voyageurs et écri - vains français en Egypte; Le Caire- IFAO,1965.

الجزء الأول : ص ٢٥٢.

٤ – François Bernoyer : Avec Bonaparte en Egypte et en Syrie

19 lettres inétites (....) retrouvées et présentées par Christian Tortel
Collection Le temps retrouvé , éditions Curanda,1981

«فرانسوا برنوابيه»: «مع بونابرت فى مصر وسوريا».

٥ - «تولار»: «نابليون» ص ٩٧.

٦- Joseph - Marie Moiret

Mémoires sur l'Expédition d' Egypte
Pierre Bellond, 1984.

هذا ما يقوله ناشرها فى مقدمتها للنص.

٧ - عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ ص ٢٥.

٨ - مما يؤكد حقيقة هذا الكلام وواقعيته ، ما كان يقوله الفرنسيون الذين استسلموا للقوات البريطانية. لذا، فإن المؤرخ «ماكيزى» يعزو سرعة استسلام الجيش الفرنسى لعلم القواد بالمعنويات المنهارة للقوات الفرنسية، ورفضها الاستمرار فى المحاربة من أجل قضية فاشلة. وكان «القاسم المشترك لكل هؤلاء الأسرى، خوفهم من أهل البلد، الذين أثيروا من المصادرات وسوء المعاملة، ورعب (الجند الفرنسية) من العادات القاسية للأتراك».

Piers Mackesy: British Victory in Egypt, 1801
The end of Napoleon conquest- Routledge - London and New York - 1995.

«بيرس ماكينزى»: «النصر البريطانى فى مصر، ١٨٠١ – نهاية غزوة نابليون». ص ١٨٥ وص ٢٢٣.

٩ – Kléber en Egypte: 1798- 1800
Kléber et Bonaparte : 1798-1799
Présentation et notes par Henry Laurens.
IFAO - 1988- 2 volumes

«كليبر فى مصر : ١٧٩٨ – ١٨٠٠»
«كليبر وبونابرت (١٧٩٨ – ١٧٩٩)»
الجزءان الأولان ظهرا أولا.

١٠ – إحدى العملات الفضية الفرنسية فى ذلك العصر.

١١ – Kléber en Egypte -1798 -1800
Kléber commandant en chef - 1799- 1800
Volumes III et I–IFAO - 1995–Le Caire

الجزءان الثالث والرابع.

١٢ – فى مقدمة الجزء الثالث من كتاب «كليبر فى مصر» (ص٢) نجد شرحا يصف هذه العملة المسماة هنا «باتاك» «Pataque»، منقولا عن كتاب «وصف مصر» فى جزئه الخاص بالعملات المستعملة فى مصر فى ذلك العصر: كانت تعادل «الثالير» أو «التالر أو «الطالر» كما نقرأ فى «تاريخ النقود الإسلامية» (تأليف العلامة السيد موسى الحسينى المازندرانى الطبعة الثالثة – دار العلوم – بيروت – ١٩٨٨)، وهى «نقد

ألمانى الأصل من الفضة» . ولم نجد ما يقارب أو يشابه كلمة «pataque» . اللهم إلا إذا كانت هذه الكلمة تحريفا فرنسيا لكلمة «بندقى» ، وهى العملة الذهبية التى كثيرا ما كان الجبرتى يستعمل اسمها والله أعلم.

هوامش الفصل الثانى

١٢ - Edward William Lane: Manners and Customs of Modern Egyptians Livres de France. The Hague and London- Cairo, Egypt. 1989

١٤ - Clot Bey : Aperçu général sur l'Egypte F. Masson, 1840, 2 volumes

«كلوت بك» : «لمحة عامة إلى مصر» .

دار الموقف العربى، ١٩٨١، ٣ أجزاء - انظر ملحق ٥.

١٥ - Gérard de Nerval: Oeuvres Complétes: le Voyage en Orient, Gallimard 1984 , 2 volumes.

١٦ - Gustave Flaubert: Lettres d'Orient, Bordeaux - L'horizon chimérique, 1990

«جوستاف فلوبير»: «خطابات من الشرق»، ص ٦٩.

١٧- «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين».

وهو على هامش كتاب «لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول» تأليف العبد الفقير إلى عفو ربه الكريم الباقى محمد عبد المعطى بن عبد المغنى بن على الإسحاقى المنوفى نفعنا الله به آمين

ص ص ٢٤٥-٢٤٧ نشكر السيد المستشار الدكتور وليم سليمان الذى أرشدنا الى تلك الصفحات .

١٨- رفاعة رافع الطهطاوى «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٢ ص ٦٣ انظر ملحق ٦.

١٩- يمكن الرجوع الى أكثر الكتب تفصيلا عن الشيخ حسن العطار، وهو كتاب «بيتر جران»الأمريكى، السابق ذكره .

٢٠- لم تكن ذاكرة المصريين قاصرة حتى يشرح هذا التجاهل للحملة . فالجبرتى تحدث عن ذكرى الصليبيين؛ ونقولا ترك الذى كتب فى الحقبة نفسها، وعلى الرغم من تعاطفة الشديد مع الفرنسيين وانبهاره بقدرتهم القتالية، يقول: «وأهل مصر لم يقبلوا هذا الجنس (الفرنسى) بالكلية لأنه أولا ضد ديانتهم، ثانياً ضد لغتهم، ثالثاً ضد كسمهم، رابعاً وجود عداوة قديمة بين أهل مصر والفرنساوية من عهد السلطان بيبرس والسلطان لويس الفرنساوى حين وصل الى المنصورة، وهنالك عساكره انكسرت، وعساكر الاسلام انتصرت ،...، فجال فى خاطر أهل هذه المدينة ان يقوموا على العسكر الفرنساوية ويقتلوهم فكان الأمـر ...» (ص٢٤).

فذكرى الحروب الصليبية كانت لاتزال حية . ولنقولا ترك كلمة بليغة فى رغبة الفرنسيين كسب ود أهل البلد وسبب فشلهم فى ذلك : «فما أمكنهم إلا المساواة والمواساة، وكانوا «يقدموا» لأهل البلد كل محبة لكى «يجلبوهم» على محبتهم ولكن هذا شئ ضد الطبيعة...» (ص٣٠) : شئ

«طبيعى» فهمه نقولا ترك ولم يفهمه الفرنسيون الذين كانوا هم أيضا يكرهون كل من هاجم وطنهم واستباحه .

مذكرات نقولا ترك - مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة ١٩٥٠.

٢١- دار الجيل - بيروت، ثلاثة. أنظر ملحق٢.

٢٢- فمثلا استبعدنا كلية مذكرات كثيرة، على أهميتها، لأن عبد الرحمن الرافعي كان قد استعملها باستفاضة فى الجزء الأول من كتابه الرائع عن «مصر المجاهدة فى العصر الحديث» - دار الهلال -١٩٨٩.

هوامش الفصل الثالث

«المؤرخون الجدد»

٢٣- «فوريه» و«ريشيه»: «الثورة الفرنسية» . ص٢٨٧.

٢٤- François Furet : La Révolution, 2vol. Hachette- Pluriel, 1988.

«فرانسوا فوريه» : «الثورة». الجزء الأول: ص ٣٥١ .

٢٥ - Roger Dufraisse : Napoléon, "que sais je" Presses unversitaires de France, 1987.

٢٦ - "Napoleone Buanaporte"

«نابليونى بيونابرتى» وليس «نابليون بونابرت» كما أسمى نفسه بعد ذلك، عندما فرنس اسمه الإيطالى عام ١٧٩٥. مما جعل «شاتوبريان» مصرا على تسميته بهذا الاسم الإيطالى، ليؤكد عدم شرعيته لحكم فرنسا، كما أسلفناه .

٢٧- Joél Brégeon : L'Egypte Francaise, au jour le jour 1798-1801 Perrin, 1991

«جان - جويل بريجون» : «مصر الفرنسية فى حياتها اليومية ١٧٩٨ - ١٨٠١» .

٢٨ - Journal du capitaine François dit le Dromadaire Egypte, Tallandier 1823.

«يوميات الكابتن فرانسوا الشهير بجمل مصر»

وقد استعان بهذه اليوميات، من ضمن من استعان بها من كتاب المذكرات المعاصرين للحملة، وذلك منذ عام ١٩٢٩ ، عبدالرحمن الرافعى فى جزءى مؤلفه عن «تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم فى مصر». دار المعارف، ١٩٨١.

٢٩-«لستوار»: L'histoire: Les mystéres de l'Egypte

عدد رقم ١٩٠ - يوليو - أغسطس ١٩٩٥.

"Bonaparte en Egypte", Patrice Bret

المقال ص ص ١٠٠ - ١٠٥.

٣٠ - نقلا عن مقال «مارك ميشيه» فى «لستوار» عدد ١٤٠ - يناير ١٩٩١ - ص ٢٥ كما أسلفنا.

٣١ - «هيرولد» مترجما ص ص ٥٣٠ - ٥٣١.

٣٢ - «دينون» ص ٢١ وص ٢٢.

٣٣ - - Gilbert Delanoue : Moralistes et Politiciens musulmans dans l'Egypte du XIX siécle: 1798 - 1882

جزءان - IFAO, le Caire, 1982

الجزء الأول: ص ٢٢ وص ٧٦.

٣٤ - مقال «القومية المصرية» فى كتاب:

L'Egypte d'aujourd' hui- Permanence et changements 1805 - 1976.
Editions du CNRS, 1977.
«مصر اليوم – الاستمرارية والمتغيرات، ١٨٠٥-١٩٧٦» ص ١٣١.
٣٥- ILn'y a pas de decadence ottomane
فى «ليستوار» ، عدد ١٩٠ – يوليو أغسطس ١٩٩٠.
٣٦ -André Raymond, Le Caire,Fayard 1993
ص ١٩٧
٣٧ – ترجمتنا للنص الفرنسى،
«لورانس» : ص ٢٢٠.
والمترجم : ص ٣٩٦ .

هوامش الخاتمة

١ - Raymond Aron : Dimensions de la Conscience historique.

ابعاد الوعى التاريخى» ، ص ٢٥٠.

٢ - Hannah Arendt: La crise de la culture, folio- esais1972.

«أزمة الثقافة» ، ص ٣٣٥.

٣- مجلة «نيوزويك» الأمريكية ، Newsweek .

١٨ يناير ١٩٩٣ – ص ٤٦ .

٤ – باعتراف «فرانسوا بوت» ، جريدة «لى موند» ١٦ ديسمبر ١٩٩٥ .

٥ – ملخص دون اسم كاتبه – مجلة «لستوار» – عدد ١٨٨ مايو ١٩٩٥ – ص ٨٨ .

٦ – «لستوار» عدد ٩٤ – عام ١٩٨٦ – ص ٩ .

٧ – «چان – بيير ريبو» .

«لستوار» – عدد ٢٠٢ – سبتمبر ١٩٩٦ ص ٥٠ .

٨ – «روبير فرانك» .

«لستوار» عدد ٦٧ – ١٩٨٤ – ص ص ٦٢ – ٦٩ .

٩ - «فوريه» : «ورشة التاريخ» ص ٣٩ .

Marc Ferro : Comment on raconte - ١٠
l'Histoire aux enfants a travers le monde entier-
Payot 1981.

«مارك فيررو» : «كيف يحكى التاريخ للأطفال فى العالم كله» ص ص ١٣٠ - ١٤٠ .

١١ - «روبير فرانك» .

١٢ - «أندريه كاسبى» .

«لستوار» - عدد ١٨١ - أكتوبر ١٩٩٤ - ص ٨ .

١٣ - جريدة «لوموند».

٢٤ مارس ١٩٩٥ .

١٤ - يمهد هذا الكلام للكتاب وهو منشور على الغلاف سبق أن أشرنا فى بداية دراستنا هذه ، إلى الصعوبة التى لقيتها كاتبة هذه السطور ، فى التخلص مما درس لها فى المدرسة الفرنسية ، من أن الحملة على مصر كانت حملة ثقافية أكثر منها حملة حربية ، وأن مصر محمد على ليست إلا نتيجة حتمية لوجود الجند الفرنسيين مع بونابرت . انظر ملحق ١ .

١٥ ـ يعجب الأستاذ «روبير مانتران» ، فى دراسة عن «الجديد فى التنوير» ، كيف أهمل المتخصصون دراسة التواكب الزمنى للتجديد والإصلاحات فى كل من مصر وتركيا ، التى وصلت إلى حد التنافس بينهما ، ولا نعجب طبعا لهذا التجاهل من قبل الدارسين الغربيين ، بعد

ما قرأناه من كتابات المتخصصين ، فهذا التنافس يعنى أن مصر لم تكن بحاجة إلى حملة بونابرت لتدخل الإصلاحات على نظامها ، مثلها فى ذلك مثل تركيا وهو ما لابد للمؤرخين المغرضين تجاهله طبعا ، دراسة «مانتران» منشورة فى كتاب «المرأة المصرية» ، ص ١٨١ .

Robert Mantran: Le Miroir egyptien ; Marseille, Jeanne Laffitte,1984.

١٦- فيلم «غزاة الكنز المفقود» للمخرج «ستيفن سبيلبرج» ، يحكى البحث عما سرقه الفراعنة من كنز دينى يهودى من المعبد فى إسرائيل، كنز موجود فى مصر وتريده أيضا ألمانيا النازية . وبعد استمرار العرض لمدة ثلاثة أسابيع ، فى ديسمبر ١٩٨٢ ، أصدر مدير عام الرقابة على المصنفات الفنية ، قرارا بوقف عرضه !!

١٧ - François Furet : L 'atelier de l' histoire ; Champs Flammarion,1982.

«ورشة التاريخ» : ص ١١٥.

١٨ - دراسة عنوانها «ميلاد التاريخ» منشورة مع مجموعة أخرى من الدراسات فى المرجع نفسه ص ٣٢٠ .

١٩ - جريدة «لوموند» ٩ مايو ١٩٩٧ Le Monde .

٢٠ - «فوريه» : «ورشة التاريخ» : ص ٣٨.

الملاحق

ملحق ١ : «تاريخ مصر الحديث»

للجزء الأول

ما الذى كانت المدارس الفرنسية بمصر ، تدرسه لتلاميذها قبل أن تغلقها حكومة الثورة ، بعد سنة ٥٦ ؟ لقد لقنتنا تلك المدارس – وكنت من تلميذاتها – اللغة الفرنسية وكأننا من الفرنسيين ، وكنا نحصل على الشهادات الفرنسية ، من «كفاءة» و «بكالوريا» مصدقة من السفارة الفرنسية ، بعد أن تجىء إلى مصر بعثة من الأساتذة الفرنسيين ليمتحنونا فى نهاية كل عام دراسى .

والكتاب الذى نقدمه الآن ، كان مقررا على ما يعادل ، الآن ، السنة الثانية الثانوية وكانت سنة مهمة جدا ، إذ كانت الجزء الأول مما يعادل «الثانوية العامة» .

وقد قرر هذا الكتاب – المطبوع سنة ١٩٤٨ – لتدريس حقبة «الثورة والإمبراطورية» والنصف الأول من القرن التاسع عشر ، لمؤلفيه «ماليه» و «إيزاك» .

ويعد هذ الكتاب من أهم ما درس فى المدارس الفرنسية ، ويرد ذكره كثيرا عند كبار المؤرخين لكونه من تأليف «ماليه وإيزاك» اللذين

كونا الوعى القومى لأجيال من التلاميذ الفرنسيين ، ويكفى ذكر اسم مؤلفيه ، ليعرف القارىء من فوره ما يعنيه ذكرهما. والمؤلفان من المدرسة «الجمهورية الملحدة ، » التابعة للحكومة العلمانية ، وهى من مروجى أفكار ثورة ١٧٨٩ ، التى عاشت فى حرب دءوب مع تعاليم المدارس الخاصة ، التابعة للكنيسة .

أيا كان ، فالمؤلفان لا ينتميان إلى هؤلاء المعجبين بنابليون ، ولا يريان فيه المنقذ الذى حافظ على مبادىء ثورة ١٧٨٩ ، أو أنه كان امتدادا لها.

ولذا ، فلا غضاضة عندهما أن يقولا ببساطة شديدة إن الحملة قد انتهت بالفشل .

وفى الجزء الخاص بتاريخ بونابرت تؤكد ثلاث صفحات تخص الحملة على مصر ـ أهمية مصر بالنسبة لبونابرت ، الذى عاش عمره يحلم بالسيطرة عليها . وهى لا تتحدث عن مصر ، إلا بسبب وجود بونابرت فيها ، وأهمية هذا الجنرال فى تاريخ فرنسا . ولذا ، لن يعرف التلميذ الفرنسى ما الذى حدث للجيش الذى تركه قائده وهو فى «موقف بلا منفذ». ولا تتحدث هذه الصفحات الثلاث ، إلا عن المعارك مع الأتراك والانجليز ، ولا تذكر المصريين ولو بكلمة ، وكأنه لا وجود لهم ، وكأن مصر بلد بلا سكان .

وكان هذا الكتاب ، المطبوع سنة ١٩٤٨ ، لونه أخضر ، وعلى غلافه هلال أحمر مكتوب بداخله : «طبعة خاصة بمصر». سبب ذلك أن جزءا خاصا قد أضيف فى نهاية الكتاب ، عن «تاريخ مصر» يتحدث عن

«محمد علي وبدايـات مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩» بقلم «شارل بوتاس ، أستاذ بجامعة باريس» . *

ما يهمنا هنا ، طبعا هو ما يخص الحملة ، وكيف كان تاريخها يلقن التلاميذ المصريين فى تلك المدارس ، التى كان يذهب إليها - أيام الملكية - أولاد علية القوم أو من يتشبه بهم، الذين يتخرجون فيها وهم لا يتحدثون حتى العربية ، وإن فعلوا ، فيكون لما بذله الآباء من مجهود ذاتى بعيدا عن المدرسة . وقد شكلت الفتيات الغالبية الساحقة من تلاميذ تلك المدارس الفرنسية - من مدارس علمانية ومدارس رهبان أو راهبات - وهن الفتيات اللاتى يصبحن بعد ذلك أمهات ، يلقن أولادهن ما تعلمنه فى شبابهن ولم يقرأن غيره من كتب علمية .

والحق إن المصريين قد أثبتوا أنهم تلاميذ نجباء ، لا ينسون الدرس، ويعيدونه بعد ذلك بأحسن ما ينتظره المدرس . والمثل أمامنا واضح إذا ما تعمقنا مثلا فى قصص المنفلوطى، المترجم منها، والآخر فهى كلها مستوحاة من القصص المدرسية فى الفصول الثانوية للمدارس الفرنسية، والتى كان يقصها على الشيخ الأزهرى أصدقاؤه من تلاميذ المدارس الفرنسية القدامى وهذا أحسن دليل على أن تعاليم هذه المدارس لا تنسى ، حتى إذا ما كبر التلميذ وأصبح رجلا ناضجا . فهو لا يقرأ ما ينشر من كتب أجنبية حديثة ، وإنما يعيش يجتر ما تعلمه فى شبابه .

ونعود إلى كتابنا ، الذى يحكى تاريخ مصر منذ عهد محمد على، لكنه ، ويا للعجب ، يبدأ بعام ١٧٩٨ ، وبالحملة على مصر، أى قبل حتى

أن يطأ محمد على بقدمه أرض مصر ؛ وذلك على الرغم من أن تأريخ بداية «مصر الحديثة» يبدأ بمحمد على وكان سبب ذلك معروفا لدينا ونحن تلاميذ ، إذ كان معروفا أن محمد على هو الجد الأكبر للملك فاروق ، الحاكم على مصر آنذاك ؛ فلم يكن من اللياقة – أو الدبلوماسية بلغة الكبار البالغين – أن يقول الفرنسيون علانية وعلى غلاف الكتاب إن دوره كان ثانويا فى تحديث مصر، وإن كان قد قيل ذلك صراحة فى داخله ، وقد تكون آخر فقرة تتحدث عن الحملة ، ملخصا شديد البلاغة لفلسفة الكتاب ؛ إذ تقول الخاتمة إن الفوضى عمت مصر بعد رحيل الفرنسيين «ولكن سكان القاهرة تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى ، فحفزهم ذلك على التحرك ، وأعطاهم قوة المبادرة ، فوجدوا فى شخص محمد على ، القائد الجديد للألبان ، الأداة ، المنشودة ...» (ص ٥٦) .

وهكذا فإن الشعب المصرى ومحمد على كليهما ، مدين للاحتلال الفرنسى ، بما أنجز بعد ذلك ، وتؤكد المدرسة المركسية هذا الكلام فى تحليلها للحدث ، (دون الرجوع إلى «سنوات الأمان» المضحكة) متناسية تماما ، مثلها فى ذلك مثل المؤرخ الفرنسى ، تاريخ مصر السابق على الحملة والذى يدل على أن مصر لم تكن فى حاجة إلى من «يحركها» وخير دليل على ذلك سرعة مقاومة الغازى الفرنسى قبل حتى أن يتحرك المماليك أنفسهم لصد الهجوم المقبل على القاهرة، ناهيك عما كان يحدث من قبل .

ولكن ، كيف وصلنا إلى هذه النتيجة ، التى يؤكدها بثقة شديدة الكتاب المدرسى الفرنسى ؟

***

يقدم الكتاب - بادىء ذى بدء - الموضوع بإيجاز شديد قبل الإفاضة فى التفاصيل (على طريقة كتب التاريخ المدرسية الفرنسية)، ويبدأ أول ما يبدأ بقوله إن: «الحملة الفرنسية ، على قصر مدتها (١٧٩٨ - ١٨٠١) أساس التحول المصرى ، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على». وهكذا ، فقد وضعت اللبنة الأولى ، لما يجب أن يلقن للمصريين ، فلولا الحملة ، ما عرف محمد على ما الذى يستطيع أن يفعله لتحديث مصر ، فتكون حتمية هذه الخاتمة : لولا الاحتلال ، ما تحرك شعب القاهرة لوضع محمد على فى مركز السلطة التى سمحت له، بعد ذلك ـ وبفضل النموذج الفرنسى ـ بتحويل مصر إلى دولة حديثة، وما كان ينبغى ، وهو جد الملك الحاكم ، أن يقال إن فرنسا بنفسها هى التى أتمت هذا التحول ، حتى إن كان يقال ذلك بين السطور تارة ، وبشكل صريح تارة أخرى .

ثم ندخل فى التفاصيل . ويتحدث الجزء الأول عن :

«الحملة الفرنسية» : «هدفها» :

«نزل الجيش الفرنسى على أرض مصر فى أول يولـيو سنة ١٧٩٨ ....» وتركها فى سبتمبر من سنة ١٨٠١ . لم يدم الاحتلال الفرنسى إذن إلا ثلاث سنوات وبعض الأشهر ، ومع ذلك ، فقد كان هذا الاحتلال بداية تحول كامل ، بدل مقاطعة تركية تسودها الفوضى ، إلى دولة قومية حديثة» .

«وسبب هذا التأثير أن الحملة فى هدفها ، لم تكن مجرد عملية حربية. فقد كان «لحكومة الإدارة» كثير من التقارير والشهادات المرئية، التي جعلتها تقرر بناء مركز استعمارى خصب ، يعيد إلى الزراعة والصناعة ازدهارهما ، ويعيد للتجارة الطريق القديم فى السويس ، ويثرى العلاقات مع إيران ، والجزيرة العربية والهند ، حتى يمكن اكتشاف إفريقيا ، فينتشر إشعاع مصر على الشرق بأكمله ، وقد أعيدت مصر إلى قوتها السابقة بعد أن أصبحت مرتبطة بفرنسا» . (نلاحظ طبعا غياب أى إشارة إلى العداء مع إنجلترا وكيفية ضرب طريق الهند ، وفقدان فرنسا كل مستعمراتها الأخرى قبل ذلك . وكأن الهدف الوحيد من الحملة هو تحويل مصر إلى منارة فى الشرق). ونعود إلى ترجمتنا للنص الفرنسى: «من أجل هذا الهدف انضمت إلى الجند ، وتحت قيادة الضابط المهندس «كافاريللى» ، فرقة مكونة من ١٦٧ عالما، ومهندسا، واقتصاديا، وكاتبا ، وفنانا ، بعضهم من المشاهير مثل «مونج» و «برتوليه»، وبعضهم صغار السن جدا مثل «جومار» وهو مهندس فى الحادية والعشرين من عمره ، أو «آميديه جوبير» ، وهو مترجم فى العشرين من عمره ، ومعهم مكتبة مراجع بها ٥٥٠ كتابا ، وأدوات علمية من كل نوع ، ومطبعتان ، إحداهما فرنسية والأخرى عربية ، كان كل هذا الرتل ، من الضباط والمدنيين ، متحمسا وعطاء، تحركه الرغبة فى معرفة موسوعية عالمية ، وإيمان لا يقهر فى قوة «التنوير» تستهويه المغامرة ، وكله وفاء لهذه الحرب الصليبية من أجل الحضارة» .

أول ما يلفت النظر طبعا فى هذا الكلام ، أن الحملة ، فى أول صورة لها ، بل وفي تقديمها الوحيد ، تبدو كأنها بعثة استكشاف لا غـير ، فالجند لا يذكرون إلا بكلمة واحدة ، ولا يذكر حتى عددهم ؛ وللعلم، كانوا حوالى خمسة وثلاثين ألف جندى وبحار مقابل مائة وسبعة وستين عالما . لا يذكر عدد الجند ، بل حتى إننا لا ندرك وجودهم ، فسرعان ما يمكن نسيان كلمة «جند» الوحيدة ، مقابل عشرة أسطر ، تقدم بإفاضة بالغة ، فرقة العلماء ومميزاتهم المحببة إلى النفس ، من شباب وإيمان وعطاء سخى للآخرين ، ولا يفوتنا طبعا ملاحظة استعمال كلمة «حرب صليبية من أجل الحضارة» وهى تدل قبل كل شىء على الإيمان الأعمى، إن لم يكن التعصب من أجل شىء يعادل الايمان الدينى والغريب أن هذا الإيمان الذى ، طالما حاربته فلسفة التنوير، يحل محله هنا إيمان من نوع آخر ، هو الإيمان، «بالحضارة» وها نحن نراها تحل محل الديانة المسيحية فى «حرب صليبية» أخرى، وذلك باعترافهم هم أنفسهم ، وما أدل استعمال المفردات بما فى باطن الأمور من حقيقة مخفاة .

ثم ننتقل إلى الجزء التالى وهو عن :

«سياسة بونابرت» :

«ومنذ البداية ، عبر بونابرت فى بياناته إلى أهالى الإسكندرية والقاهرة ، عن السياسة التى ظل وفيا لها على الرغم من الظروف: تحرير الأهالى من الاستغلال الطاغى للمماليك وأعوانهم ؛ تقديس العادات والديانة الإسلامية ؛ تثبيت النظام والعدل . وقد فرض نظاما

صارما على الجند لاحترام المساجد والطقوس القرآنية والممتلكات والنساء ، وكانت طريقته المستمرة هى الاستعانة بالمشايخ والعلماء . لقد اختار أميرا للحج ، وهو رئيس الحجاج ، وضمن سلامة قوافل مكة، واحتفل بكل مناسبات الإسلام . وسرعان ما خلقت السماحة المتبادلة والروح المرحة بين السكان والمحتلين ، نظام حياة مقبول لدى الجميع.

وقد قسمت مصر السفلى والعليا إلى ١٦ إقليما ، على رأس كل منها جنرال حاكم يعاونه ديوان من سبعة أعيان ، وأمين صندوق من الأهالى مسئول عن جباية الضريبة ، ومعه مفوض فرنسى . وفى القاهرة ، كان الديوان مكونا من تسعة مشايخ يجتمعون كل يوم، ومجلس من ١٨٠ نائبا من كل الأقاليم – ثلاثة رجال قانون، وثلاثة تجار، وشيخ بلد ، وفلاح . وقائد من البدو ، لكل إقليم – كانوا يبدون للقائد الأعلى نصائح الحكماء ويعبرون عن شكاوى الشعب ، أما سكرتير هذه المجالس، فكان الشيخ الكهل «محمد المدهى» (المهدى) ، وكان ذكاؤه وكفاءته مساعدين للتعاون المصرى الفرنسى، كما شجع فيما بعد على صعود محمد على . أما فى القرى الصغيرة ، فكان ضابط فرنسى يراقب شيخ البلد والقضاة، دون يجردهم من سلطاتهم. وبالنسبة للمالية، فقد حوفظ على نظام ضرائب العقارات القديم ، بعد تنظيم جبايتها؛ وحوفظ أيضا على العمالة القبطية ، وعلى رأسها موظفون فرنسيون؛ كما كان هناك بعض الضرائب على التسجيل أو نقل الملكية ، وبعد ذلك بعض الضرائب الطارئة على مجموعة أو أخرى من الأغنياء .

وحتى فى الجيش الذى لم يكن يستطيع الاستزادة بإمدادات تأتى إليه من فرنسا ، فقد أدخلت عناصر من الأهالى : كان هناك شباب المماليك والفرقة القبطية ، والفرقة اليونانية، وفرق من المشاة تركب الجمال، من أهل الصعيد ومن السود . كأنها تجربة مبكرة لنظام الحماية التى طبقتها فرنسا بعد ذلك على بعض المستعمرات الأخرى فى نهاية القرن التاسع عشر . وقد امتد الاحتلال إلى مصر العليا الذى استولى عليها «ديسى» بعد حرب دامت ستة أشهر، ثم نظمها «ديسى» بطريقة جعلته يستحق لقب «السلطان العادل» كما أسماه الأهالى. لقد امتد الاحتلال إلى ما بعد أسوان بقليل ، ووصل إلى البحر الأحمر عند ميناء القصير» .

هذه إذن سياسة بونابرت التى أعلنها وظل وفيا لها على الرغم من الظروف ، كما يقول الكتاب . ما أجملها – وكم نفهم مؤيدى الحملة عندما يدرس لهم هذا الكلام ، وما جاء بعده من نيات طيبة ، وحسن المعاشرة. ولكن المشكلة طبعا هى أن طريق الجحيم محفوف بالنيات الطيبة، ولا ينطبق هذا الكلام فقط على ما أسموه هنا «بسياسة بونابرت». ويعجب دارس تاريخ الحملة لمثل هذه التهويمات – بطبيعة الحال – فهو الذى يعرف التطبيق الفعلى «لسياسة بونابرت»، والتفاصيل التى لازمت ذلك العصر. ويعجب القارىء أيضا لكاتب هذه السطور: هل كان يجهل ما كتب عما حدث بالفعل فى مصر ؟ بل وكيف يشوه التاريخ لدرجة أنه يتحدث عن «الحياة المشتركة» بهذه الألفاظ المغالطة مثل «السماحة المتبادلة والروح المرحة» ، فى علاقات عرفنا أنها كانت دائما

علاقات حرب وكراهية ؟ وكيف تناسى مثلا ثورتى القاهرة ، إن كان يجهل ما حدث فى الأقاليم ؟ ولكننا سنرى كيف يتحدث عنهما بعد ذلك، وكأنهما حدثان عارضان لا أهمية لهما ولا دلالة، بعد أن أكد لنا قبل ذلك أن «الروح المرحة» كانت هى السمة الأساسية فى العلاقة بين الغازى والمهزوم . ثم تجىء «حكاية الديوان» تلك الأسطورة الكاذبة التى صدقها المصريون قبل أن يصدقها الفرنسيون ، وكأن بونابرت ؟إن لا يرى فى أى مجلس نيابى، غير أداة للاستماع إلى أوامره ، ثم تطبيقها ، سواء كان ذلك فى مصر أو فرنسا. ولكن المديح فى الشيخ المهدى ، الذى أسموه «المدهى»، يدل على الفور أن المرجع فى هذا الكلام ، هو ما عبر عنه نابليون نفسه من أحلام يقظة عندما كان فى منفاه ، «سانت هيلانة» فى نهاية حياته: أثبت بكلامه آنذاك أنه ، وبعد مرور خمس عشرة سنة صاخبة، من الحروب والانتصارات والهزائم ، لم يعد يرى إلا ما كان مفروضا أن يحدث، حتى يترك للجمهور الفرنسى صورة محسنة من حكمه الدكتاتورى المدمر المستبد، ويبدو كذلك وجود الضباط الفرنسيين فى نصنا المدرسى كمراقبين على رأس كل نشاط مدنى ، أمرا هينا وطبيعيا بل ومستحبا للجميع .

كذلك فإننا نعجب – وما أكثر العجائب ـ للحياء الشديد الذى يتحدث به المؤلف عن جباية الضرائب خاصة من «بعض الأغنياء» ونرى ، فى هذا النص أيضا ، تأكيداً لأسطورة «ديسى ، السلطان العادل» ، الذى لم نسمع عن عدله قط ، إلا فى النصوص الفرنسية ، والذى لم يتحكم بالفعل يوماً فى مصر العليا ، مما يشرح المفاوضات التى قامت بها بعد

ذلك السلطات الفرنسية مع مراد بك ، الذى لم يهزم ، ولم يطرد يوما من الصعيد .

أما الجزء الخاص «بالإنجازات الاقتصادية» الذى نقرؤه بعد ذلك ، فهو يحكى عن الاحتياجات الفرنسية ، وقد أجبرها الحصار الإنجليزى على البحث بكل الوسائل عن الاكتفاء الذاتى ولن نقف إلا عند جملة واحدة فى أول الأمر : «... وكانت الحراسة الجيدة تضمن أمان الفلاحين مما ساعد على إنجاز عملهم ، هم والصناع» : لن نعلق على هذا الكلام، ويكفينا ما نقرؤه عن العلاقة «الآمنة» بين الفلاحين و «الحراسة الجيدة» ولكن مما لا شك فيه أن الكتاب على صواب عندما يذكر جهل المصريين «بطواحين الهواء التى أدخلها الفرنسيون إلى مصر» ، وقد تكون هذه المعلومة هى المعلومة الصحيحة الوحيدة فى كل ما سرده «أستاذ جامعة باريس» فى مؤلفه هذا .

ومن يعرف تاريخ الحملة بالتفصيل ، يعجب إذ يقرأ : «وكان لابد من إنتاج كل ما يحتاجه الجيش والشعب من أدوات مصنعة ...» : جاءت الجملة غامضة مبتورة ؛ فنحن نتخيل ما كان يحتاجه الجيش بعد الحصار الإنجليزى، ولكن ... الشعب ؟! فلا تفاصيل توضح الجملة، ولا أسماء تشير إلى نوعية هذه «الأدوات المصنعة»، وكان من أهمها ملابس للجند ، وبارود لمدافعهم ، ناهيك عن النبيذ الذى لا يستطيع الفرنسى أن يعيش بدونه . والحقيقة أن الفرنسيين عاشوا – كما تقول الوثائق – بما كان المصريون يصنعونه لأنفسهم ، فاستعانوا بهم وبإنتاجهم، وإن كانوا قد طوروا بعضه ليلائمهم ؛ وانتهى هذا التطوير مع رحيلهم، لأن الشعب

المصرى كانت له احتياجات أخرى . ولكن، كان لابد من الإيحاء بأن المصريين عرفوا بفضل المهارة الفرنسية، ما كانوا يجهلونه قبل مجيئهم، فكانت الجملة التالية : « وخلق كونتيه ، ... ، عشرات الورش فى القاهرة، وملحقات لها فى بولاق والجيزة، وفى جزيرة الروضة ...» ؛ ومن يعرف تفاصيل إنتاج هذه الورش ، يعرف أنها كانت كلها مخصصة للاستهلاك الحربى الفرنسى . وكانت الظروف تحتم عليهم ذلك ، وعرفوا كيف يتصرفون ، ولكن لماذا الادعاء بأن ذلك كان ايضا لسد احتياجات «الشعب» ؟.

ثم يتحدث الكتاب بعد ذلك عن «الإنجاز الثقافى» ويقول بادىء ذى بدء :

«إن أكثر الإنجازات ابتكارا وخصوبة ، كان فى مجال الثقافة وكان العمل كله يدار فى «معهد مصر» ، الذى أنشىء فى الثانى والعشرين من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وقد قسم إلى أفرع للرياضيات ، والفيزياء ، والاقتصاد السياسى ، والفنون والآداب ، وله سكرتير دائم هو جوزيف فورييه : كانت الاجتماعات تعقد فى قصرين فخمين من قصور البكوات الفارين ، وكانت له ندوات قراءة ، ومناقشات تستمر فى الحدائق ، كان بونابرت يشترك فيها ، وكان المثقفون المصريون يستقبلون بسرور، (ثم تأتى هنا ترجمة لما قال الجبرتى فى هذا الصدد)، ولكن عندما عرض على الشيوخ بعض تجارب الفيزياء والكيمياء ، لم يبد هؤلاء أى نوع من الاهتمام ، مما عجب الفرنسيون له» : أما هذا النشاط الثقافى ، فلم نر منه إلا نشاطا فرنسيا بحتا ، عرض بعضا من تجاربه على المصريين، وكان هذا العرض من اختصاص لجنة وظيفتها استقبال المصريين،

والقيام بدور المرشد لهم ، كما يحدث للجمهور عادة فى فرنسا. ولم يشترك المصريون طبعا فى أية مناقشة كما يوحى الكلام بذلك، وكيف كان لهؤلاء أن يشتركوا فى مناقشات لا يفهمون لغتها من جهة، وتتحدث عن علوم لا دراية لهم بها من جهة أخرى ؟ وقصة ما قام به العلماء الفرنسيون من تجارب كيميائية أمام الشيوخ ، قصة غاية فى الطرافة ، لم تحك هنا طبعا ، وهى أن العلماء الفرنسيين جعلوا ـ ذات مرة ـ المواد تتنافر، فأحدثت دويا هائلا ؛ غير أن أحدا من الشيوخ لم يتحرك، أو يهتز، وكأنهم فهموا أن الهدف هو إخافتهم وعندما رأى بونابرت الذى كان حاضرا ، أن الشيوخ لم يعجبوا حتى لما رأوه وسمعوه من دوى، مما يدل على أنهم ليسوا مثل الهنود الحمر ، ثار بونابرت ثورة عظيمة لعـدم مبالاة العلماء الفقهاء ، بما كان مفروضا أن يرعبهم ، أو على الأقل، يبهرهم . وهذه القصة – أو بالأصح ثورة بونابرت – أحسن دليل على أن عرض ما كان لدى الفرنسيين من أدوات، أو استعراض بعض تجاربهم الباهرة، لم يكن هدفها تعليم أو «تنوير» المصريين، بقدر ما كان وسيلة للسيطرة على عقولهم، بأن يثبتوا لهم أنهم جهلاء ؛ وبالتالى، فالسلطة لابد أن تكون مع العلماء الأجانب، ولو أن الهدف كان التعليم، لأقاموا مدرسة لشباب المصريين، كما أقاموا فرقة من الأقباط فى الجيش الفرنسى . ونعود إلى ما يقوله الكتاب المخصص لتلاميذ مصر بالذات :

«وكانت هناك لجنة العلوم والفنون ، التى أخذت فى دراسة متحمسة للبلد فى كل مظاهره من حياة سابقة أو حاضرة . كان أعضاؤها

يذهبون فى مجموعات مكونة من اثنين أو ثلاثة من العلماء ، وأحيانا فرادى ، وعلى الرغم من الحرارة الشديدة والمخاطر العديدة ، إلا أنهم انتشروا فى مصر كلها، يسجلون ويكتبون كل الخصوصيات العلمية والجغرافية والعرقية والأثرية التى يقابلونها . كانت مصر القديمة تبهر كل الرجال من علماء وغيرهم ..

وفى رشيد، فى التاسع عشر من يوليو سنة ١٧٩٩ ، اكتشف المواطن بوشار، حجرا عليه حفر بثلاث لغات، سمحت فيما بعد لشامبليون أن يفك رموز اللغة الهيروغليفية سنة ١٨٢٢ . وكانت هناك مطبعتان إحداهما خاصة والأخرى قومية (هكذا) ، تحت إدارة ج.ج. مارسيل، كانتا تنشران الدراسات والنتائج المصورة ، وجريدة لى كوربيه ديجبت ومجلة لا ديكاد إيجيبسيان » .

لم يقولوا طبعا إن كل هذا الإنتاج كان باللغة الفرنسية، و لا أنهم أخذوا معهم المطبعتين عند رحيلهم، مما جعل كثيرا من المصريين يظن أن مطابع محمد على، بعد ذلك، كانت امتدادا للمطابع الفرنسية.

ولكن الكتاب أخذ يقص علينا حزن الفرنسيين عندما أراد الإنجليز أن يستولوا ، بعد انتصارهم ، على كل إنتاجهم العلمى . فكانت هذه الفقرة التى أظنها قد تسببت فيما بعد ، فى بناء أسطورة كتاب «وصف مصر» :

«وقد كتب جيوفرا سنت – هيلار إلى كوفييه فى السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٧٩٩ قائلا : «آه يا صديقى ! لقد جمعنا وثائق أجمل كتاب يمكن أن تنتجه أمة . وعندما سنبكى على المصير المجهول لكل هؤلاء المحاربين الشجعان ، الذين سقطوا فى مصر بعد كل هذه

المعارك المجيدة ، سيكون عزاؤنا الوحيد في وجود مثل هذا العمل الثمين» . وهذا الكتاب هو كتاب وصف مصر العملاق ، الذى نشر تحت رئاسة جومار . في تسعة أجزاء ، بها تسعمائة لوحة وأربعة آلاف رسم، ظهرت على خمس مراحل ، من عام ١٨٠٨ إلى عام ١٨٢٥ » .

وهكذا ، جاءت هذه الجملة ، لأحد العلماء ، تمجيدا لعمله هو وزملائه إلى أقصى درجة ، حتى أنه يرى أن عملهم هذا يعوض وفاة الآلاف من الضحايا .

وننتقل بعد ذلك إلى الجزء الذى يقيم النتائج :

«النتائج» :

«مثل هذا النشاط الخلاق ، كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى» هكذا ! وكأن أهل مصر في ذلك العصر ، كانوا شاهدين لهذا النشاط الذى يدور بين جدران المعهد ، أو على أوراق الباحثين . والحقيقة ، التى رأيناها في صفحات «دينون» التى عرضت على القارىء تقول إن من شاهد هذا النشاط ، هم الفلاحون الذين يحاربون الفرنسيين أو يقاسون من ظلمهم . ونلاحظ بالمناسبة ، أن الكتاب لم يتحدث حتى الآن، عن ثورتى القاهرة – وقد تكونان من تأثير النشاط الفرنسى على خمول المصريين أيضا !– وكذلك لم يتحدث عن المقاومة المستميتة في أعالى مصر وفى الدلتا ؛ فهو لم يذكر حتى الآن إلا الإنجازات العلمية والمدنية للعلماء ، وكأنهم حضروا وحدهم في رحلة استكشاف علمى ، لا يحرسهم مثلا إلا قلة من الجند ، قلة لم نسمع عنها كلمة واحدة حتى الآن، غير أن أفرادها كانوا يعيشون في وفاق تام و «روح مرحة» مع

الشعب المصرى ، الذى تقبلهم برحابة غريبة . ولكن هذا الصمت ما كان يمكن له أن يدوم ، فالحقائق أقوى من أى تعتيم . وإن كنا نبدى إعجابنا بالدقة فى اختيار الصياغة التى تغلف هذه الحقائق ، حتى يقتنع التلميذ أن الأمور كانت تسير وفق مبدأ «ليس فى الإمكان أبدع مما كان» . وهكذا، سنرى كيف كان أجدادنا مخطئين فى رفضهم - المحدود جداً كما سنلاحظ - الاندماج مع هؤلاء الأغراب . ونعود إلى النص نفسه حتى لا تفوتنا كلمة واحدة منه:

«مثل هذا النشاط الخلاق كان أهلا لأن يقلب الخمول المصرى ..» وتكون المفاجأة : إنه سيتحدث فعلا عن ثورتى القاهرة . إنهما فعلا نتيجة النشاط الفرنسي، وليس بسبب حب المصريين لحريتهم أو لرفضهم لأى استعمار أجنبى . والدارس لصياغة الحديث هنا ، يعجب لطريقة تقديم ما سيأتى من الحديث عن هاتين الثورتين . فالحديث يبدأ وكأن ما سيحدث خيرا، فهو تحريك الخمول بفضل النشاط العلمى للفرنسيين . ثم مرة أخرى ، الحياء الشديد فى اختيار المفردات ، التى تمهد لحدث يدل بشكل قاطع ، على أن كل ما سبق كاذب فى حقيقته . ولنر كيف تقدم الأحداث الرافضة للوجود الفرنسى فى أعنف صورها .

«بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل صدمت العادات والمعتقدات» لاحظ الانتقاء الموفق للكلمات : «بعض الأخطاء الحمقاء فى الشكل ..» فالفرنسيون لا يمكنهم أن يخطئوا فى الجوهر ، وكم كانت قليلة تلك الأخطاء ؛ ولم تكن جسيمة ، بل حمقاء !

«بعض هذه الأخطاء ، مثل تحطيم الأبواب التى كانت تغلق الشوارع ليلا ، أو ارتداء الوشاح ذى الألوان الثلاثة (وشاح الثورة الفرنسية) الذى أجبر عليه الأعيان (ومن المؤكد أن هذا الحدث بالذات محض كذب وافتراء إذ رفض المشايخ بشدة ارتداءه مما أثار ثورة بونابرت، ولكنه أذعن لرفضهم، بعد ذلك) وقطع العلاقات مع السلطان الذى كذب السياسة المسلمة لبونابرت ، وجاءت بعض المصالح التى أضيرت، معاكسة لمحاولات الاندماج، مما ترتب عليه قيام ثورتين دمويتين فى القاهرة ، وإن كانتا محصورتين بصورة ضيقة جدا فى بعض الجماعات، (ونكرر هنا إعجابنا بالصياغة ، وانتقاء المفردات لتفريغ الحدث من مضمونه)؛ ثورتان قامت إحداهما فى اليوم الثانى لإعلان الحرب على تركيا، أى فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، وقامت الأخرى عند تقدم الجيش التركى نحو العاصمة فى إبريل سنة ١٨٠٠ ، وقد أكدتا أن ثمة شعور عدوانى يظل قائما» .

وتبدو المفارقة هنا صارخة ، بعد الذى قرأناه عن الجو المرح الذى يسود العلاقات المصرية الفرنسية من جهة ، وأن الثورتين محصورتان فى حدود ضيقة جدا ، من جهة أخرى . أيا كان ، فقد حدثت «أخطاء حمقاء» مما يفسر التغير فى العلاقات «الودية المرحة» . ولكننا ، وبعد هذا الاعتراف لن نجد سطرا واحدا يبين كيف رد الجيش – الذى لم يذكر عدده حتى الآن – على هاتين الثورتين ؛ كما ساعدت الصياغة الماكرة على ربط الدولة العثمانية بالثورتين ، فبرىء الشعب المصرى

منهما ، وكأنه كان مغلوبا على أمره فيهما ، وقد تأكد ذلك بالفعل فيما يخص الثورة الثانية بالذات .

ونعود إلى النص المذكور: «أيا كان فثمة نوع من الروح الانهزامية زعزعت الجيش بعد رحيل بونابرت ، وذهب الأمر إلى حد التمرد فى حامية العريش فى ديسمبر ١٧٩٩ . استمر كليبر أولا ، دون حماس شديد ؛ ومن بعده مينو ، ولكن بإيمان قوى ، بمشروع «السلطان الكبير» (أى بونابرت كما كان المصريون المعجبون به يسمونه - على حد قول الفرنسيين) ، وقد حطمت اتفاقية التسليم فى ١٨٠١ هذا المشروع، ولكنه ترك آثارا لا تمحـى» : وفى الكتاب خط تحت هذه الكلمات الأخيرة .

«لقد أدمج مصر فى الفكر الفرنسى ؛ وجعل مصر على اتصال بالحضارة الغربية ، لقد جعل مصر تتعرف على هويتها؛ كما أنه لفت نظر رجل ذى ذكـاء لماح ، كان إذاك ضائعا فى صفوف الضباط الأتراك ، وهو محمد على » .



ننتقل بعد ذلك إلى تاريخ محمد على ، ونذكر مرة أخرى أنه كان جد الملك الحاكم آنذاك ، ولابد من احترامه بل وتمجيده .

وما كان ينبغى للكتاب الفرنسى طبعا أن يشذ عن هذه الروح ، لكنه أثبت قبل ذلك ، أنه لولا الجيش الفرنسى- وكأن الحملة بعثة استكشاف علمية بحتة - ولولا بونابرت ، ما جاء محمد على ، ولا عرف ماذا يفعل . ولكن حملات محمد على العسكرية كانت ذات طابع خاص ، يختلف عن

الحملات الفرنسية ، فنحن نقرأ : «ومع الأسف أن هذه الحملات كانت تسير حسب المنهج التركي من عنف ، وقتل وحرائق وسلب ونهب» (ص ٦٥) . ويجدر بنا أن نقول هنا كلمة حق ، لا دفاعا عن الأتراك ، وقد قاسى المصريون الكثير من قسوتهم ، ولكن من أجل الحقيقة التاريخية الموضوعية ، ولولا الملامة ، لظن القارىء أن مؤلف هذا الكتاب المدرسى - المتجنى على «المنهج التركى» فى حملات ذلك العصر- لم يقرأ صفحة واحدة من تاريخ الجيوش الأوربية أنذاك ، بل عن تاريخ الجيوش الفرنسية نفسها .. وفى داخل فرنسا نفسها أيضا ، أثناء الحرب الأهلية ، المسماة بحرب «الفانديه»، وفى المقاطعات الرافضة للحكم المركزى .

ولو أننا استثنينا هذه السطور العنصرية ، وتجاهلنا ما فيها من غمز ولمز ضد كل ما هو شرقى كعادة أغلب الكتاب الغربيين عندما يتحدثون عن الشرق ، ورجعنا إلى قراءة تحاول جهدها أن تكون موضوعية ، لدهشنا لما نراه يبسط أمامنا .

المفاجأة ... المفاجأة الكاملة ، خاصة إذا ما رجعنا إلى ما انتهى إليه الجزء الخاص بالحملة ، وسبق تقديمه ، عن: «سكان القاهرة الذين تذكروا سنوات الأمان التى عاشوها أثناء الحكم الفرنسى»، وأن: «الحملة الفرنسية، ... ، أساس التحول المصرى، بما قدمته من نموذج لخالق مصر الحديثة ، محمد على» ، فالصفحات التى تتحدث عن محمد على وإنجازاته ، تبدو كأنها بقلم شخص آخر غير الذى خط السطور السابقة ، وعرض علينا تلك الأفكار. فما من كلمة تشير إلى الوجود

الفرنسي السابق ، وما تركه لمحمد على ، سواء كميراث أو كنموذج يحتذى به . على العكس تماما . وكأنه ، شأن كل من يتحدث عن آثار الحملة ، عندما ينتقل من الشعارات الإنشائية ، مثل: «أدماج مصر فى الفكر الفرنسى»، أو: «الآثار التى لا تمحى» أو: «النشاط الخلاق الذى يقلب الخمول المصرى» ، عندما ينتقل من هذه الشعارات كى يرينا تلك الآثار رأى العين ، والقلم فى يده والصفحة تنتظر البرهان ... لايجد شيئا ملموسا يتحدث عنه ، بعد تأكيده على أن الحملة قد تركت لمحمد على مثلا يحتذى به . وإذا به يناقص نفسه !

فجأة ، نجد نظرة موضوعية غير مألوفة فى أحكامها ، إذ نقرأ هذا المقطع الذى يبدو غريبا بعد ما قرأناه : «لم يكن (لمحمد على) خطة منظمة ، وكذلك لم يكن ينقل من الخارج : ولذا ، كان عمله ناجحا ، فقد كان ينبع من الواقع ، كما تحكمت فيه الظروف ، ولإنجازاته تشابه كبير مع ما فعله بونابرت ، والسبب هو أن المشاكل نفسها قد قابلته ، ولم يكن لتلك المشاكل إلا نفس الحلول» (ص٦٨) . وبعد هذا الاعتراف الخطير ، نقرأ فى الصفحة التالية : «وعلى الرغم من أنه كان مصلحا جسورا ، إلا أنه لم يمس القانون الأخلاقى أو الدينى ؛ فقد أبقى على القرآن كشرع اجتماعى وقانوني . ولم يجعل من المجتمع والدولة حكما علمانيا. وكان يحترم سلطة علماء الأزهر إلى أبعد حد ..» (ص٦٩). ويدحض هذا الاعتراف كل ما قيل عن تأثير الفكر الفرنسى على المصريين ، وهاهو أول دليل أمامنا ، فتشريعات بونابرت إذن ، ومينو على وجه الخصوص ، التى نسخت عن القانون الفرنسى ، لم تستمر

بعد رحيل جنود الحملة ، بل ولم يحاكها محمد علي ، ولكن الأسطورة لا تموت بسهولة ، كما يقول المثل الفرنسي ، فعلى الرغم من ذلك كله ، نقرأ : «إن محمد علي لم يعد إلى المؤسسة الفرنسية بشأن المجالس النيابية» ؛ أي على الرغم من أن تلك المجالس كانت، كما رأينا ، دائما تحت إمرة ضابط فرنسي ، أيا كان حجمها ، فالمؤلف يصر على أنها كانت مجالس نيابية تمثل الشعب المصري ، وكان على محمد على أن يقلدها ! مع أن بقية الجملة تؤكد أن محمد على لم يختلف عن الفرنسيين ، أو عمن سبقهم من حكام المماليك، عندما كان – على حد قول المؤلف – «يجتمع عند الضرورة، وعند عرض المسائل المهمة ، بديوان المتخصصين أو الأعيان» (ص٧٠). وكما قرأنا في كتب فرنسية كثيرة ، أن تشريعات مينو ، خاصة في مجال القضاء ، قد غيرت وجه مصر ، إلا أن كاتبنا يعترف أن محمد علي: «احتفظ بالمحاكم التقليدية، وبرئيسها «القاضي» (أي قاضي القضاة) ، كما احتفظ الحرفيون بمشايخهم ..» .

ولكننا نلاحظ بعد ذلك – والأمر هين – أن هناك تركيزا كبيرا على أسماء كل من استأجرهم محمد علي من الفرنسيين، لخلق دولة حديثة، مثل المهندس «لينان دي بلفون» أو «موجل» .

ونحن نعرف طبعا ما قام به كلوت بك و«الكولونيل سيف» من خدمات ، وهما في خدمة محمد علي ؛ كما يؤكد الكتاب أن محمد علي أرسل مائة وأربعة عشر طالبا إلى فرنسا . ونحن نعرف أنه أرسل ، أول ما أرسل طلبته ، إلى إيطاليا ، إذ لم تكن فرنسا هي المتحكمة الوحيدة في تصدير العلم إلى مصر . أيا كان فبعد أن شرحت سياسة محمد

على وإنجـازاته ، وما قامت به الحكومة الفرنسية من مساندة له ، تجيء خاتمة هذا الجزء من الكتاب ، على ما كنا نتـوقعه طبعا. وكل هذا الجزء الـذى نترجمه تحته خط فى الكتاب حتى يدرك التلميذ أهمية الكلام، إذ يؤكد : «أن إرادته القـوية أعادت، دون أدنى شك ، خلق مصر ؛ لقد فعل ما هو أفضل من إعـادة تشكيل الأجساد ، لقد أيقظ روحا» (ص٨٨) . «لقد ترك محمد على أسرة حاكمة ، وبرنامجا وتقاليد. لقد كان شرفا لفرنسا أنها فهمت ذلك ، ونصحته وساعدته» (ص٨٩) .

ونحن لسنا بصدد مناقشة هذا الكلام الأخير فى بحثنا هذا ، إنما جملة الكلام أن ما نقرؤه هنا منطقى بل منتظر فى مصر ١٩٤٨ ، عندما كان المجتمع الراقى لا يتحدث العربية ، وكانت الفرنسية هى لغة علية القوم ، وكان الاحتلال إنجليزيا ، وبالتالى ، كان الصديق الأجنبى هو فرنسا .

وعلى عادة كتب التاريخ هذه ، ففى نهاية كل فصل ، ببليوغرافيا لأهم الكتب التى عالجت الموضوع المطروح . ولن نعجب إذا وجدنا مذكرات «فيفان دينون» التى ترجمنا منها صفحات كثيرة ، نجدها لأهميتها ، تتبوء المركز الأول فى أسماء أهم المذكرات التى كتبها أفراد عاصروا الحملة، بل واشتركوا فيها . وندرك ، بداهة، بعد ما قرأناه عن «الروح المرحة» التى كانت تسود العلاقة بين المحتلين والشعب المصرى أن مؤلفنا فى قراءته لتلك المذكرات الشهيرة ، أسقط من حسابه كلية الصفحات التى تشرح لنا باستفاضة ، نوعية العلاقة الحقيقية التى كانت تربط بين الحاكم والمحكوم .

ومن بعد أن يدلنا هذا الكتاب على أهم الكتب التى تناولت الموضوع، فإنه ينشر بعض المقتطفات من كتب قد يهتم بها من أراد الاستزاده.

فبعد دراسته «لمحمد على وبداية مصر الحديثة ١٧٩٨ - ١٨٤٩»، نجده يقدم لنا - مثلا - صفحة من كتاب «جيرار دى نرفال» الشهير، «رحلة إلي الشرق» تصف «عودة الحجاج إلى القاهرة»؛ ثم صفحتين عن «السان - سيمونيين»، سنعود إليهما؛ ثم نصف صفحة عن رأى أحد المسافرين الفرنسيين الذين قابلوا «محمد على وهو فى الثالثة والسبعين» من عمره؛ ثم «رأى أحد الإنجليز فى محمد على»، وهو تقرير من القنصل الإنجليزى فى ذلك العهد.

أما الصفحتان السابق ذكرهما فهما عن «السان - سيمونيين وبناء قناطر الدلتا» وهما مأخوذتان عن كتاب ظهر فى باريس سنة ١٩٣٠ بعنوان «السان - سيمونيون ١٨٢٧ - ١٨٣٧» لمؤلفه «هـ .ر.دالمانيى»؛ ويتحدث جزؤه الثانى عشر عن رحلتهم إلى مصر وأعمالهم فيها.

ونجد فيما تم اختياره ليقدم للتلاميذ، بعض الأسطر أظنها غاية فى الأهمية بالنسبة لنا فهى تقص علينا كيف اجتمع المهندسون الفرنسيون «السان سيمونيون» فى ليلة الخامس عشر من أغسطس ١٨٢٤، ليحتفلوا بعيد ميلاد نابليون.

والمعروف أنهم من أشد المعجبين به، بل كانوا يقدسونه، ونلاحظ طبعا أنهم يقدسون «نابليون» أى الإمبراطور، وليس «بونابرت الجنرال الجمهورى» الذى كان يحارب باسم مبادئ الثورة الفرنسية.

اجتمعوا إذن في ذكرى ميلاده، ودعوا بعض المسئولين من الحكام وكان من بينهم «سليمان باشا» أي «الكولونيل الفرنسي سيف» سابقا، الذي كان من ضباط الجيش الإمبراطوري أثناء حكم نابليون، وقد سرحه الحكم الملكي في فرنسا بعد ذلك طبعا، فبحث عن عمل له في مصر.

ولنعد إلى النص الذي يقول: إن الفرقة جاءت لتحتفل بعيد ميلاد نابليون «في القناطر حيث المكان الذي اختاره الرجل العظيم (يقصد نابليون) كمركز لمقادير مصر المستقبلية ...» (ص٩١). وفي الصفحة التالية أخذ يسرد ما قيل أثناء الاحتفال، وعدد زجاجات النبيذ التي شربت وأصنافها ويعلق الكاتب قائلا: «ان واحدا فقط من بين الأتراك قد سكر أما الباقون، فقد نالوا نصيبهم، وأثبتوا أنه يمكن التفاهم معهم». ثم نتعرف على أسماء من شربت بأسمائهم الأنخاب، وكان من بينهم السيدة مريم العذراء (عليها السلام)، فعيدها هي أيضا في الخامس عشر من أغسطس «وفي وسط العشاء، قدم سليمان نخب نابليون وقدم في النهاية أيضا نخب محمد على. مغزى كلمتي النخبين أن محمد على كان المنفذ لوصية نابليون لأن نابليون كان قد ترك بصمته على مصر بيده القوية، بينما استولى محمد على عليها ليحمي مصالحها التي كان نابليون قد أعدها ....»، وينتقل الوصف بعد ذلك إلى الاحتفال بوضع حجر الاساس في مدرسة المهندسخانة ونرى مرة أخرى: «سليمان يطبع على اللياط حرف نون كبير، وبعد وضع

الحجر، ينقش على سطحه نون - ميم عين، أى نابليون - محمد على...» (ص٩٢) وهكذا نرى كيف كانت أسطورة محمد على المنفذ لتوجيهات بونابرت تنسج على يد سليمان باشا و «السان - سيمونيين»، الذين لم يعاصروا الحملة، وكان من أهم أهدافهم تمجيد اسم نابليون، الإمبراطور الاستعمارى، فيكون لوجودهم شرعية مستمدة من تاريخ مصر، وقد مر أكثر من ربع قرن على وجود بونابرت بمصر.

وهكذا ينتهى الجزء المخصص لمحمد على ونحن نرى الآراء تتضارب وتتناقض، وكأن الحياء وحده هو الذى يمنع مؤلفه من الإفصاح عما يراه من فضل للحملة على محمد على، بعد أن أكد فضائلها على «الخمول المصرى» والسبب طبعا كما سبق أن قلنا الدبلوماسية التى كانت تمنع الفرنسيين من الإقلال من شأن محمد على ومن فضله هو على مصر.

ولكن تاريخ مصر الحديثة بدأ بسنة وصولهم إلى مصر ١٧٩٨ ... وكم من تلميذ نجيب يعيد هذا الدرس ويكرره إلى اليوم، حتى بعد أن اعترف المؤرخون الفرنسيون المحدثون أنفسهم بخطأ هذه النظرة التى تلقب «برؤية الحقبة الاستعمارية» .

ملحق٢ : الجبرتى

للجزء الأول

ترجمة «كاردان» لحوليات الجبرتى التى نشرت سنة ١٨٢٨، هى التى عرفها - إن قرأها - أغلب من كتب عن بونابرت والحملة، قبل الترجمة الجديدة المنشورة فى ١٩٧٩. وكانت الترجمة القديمة غير دقيقة فى ترجمتها - وهذا أضعف ما يقال! - للأسباب السياسية التى جعلت «كاردان» يقدمها لجمهوره الفرنسى آنذاك، كما سبق أن ذكرنا.

والصفحات التالية للجبرتى لخصت باقتضاب شديد، وقد ألغى كل وصف يعبر عن جمال المبانى المهدمة، فهى صفحات لا تشرف الوجود الفرنسى فى مصر بالطبع، لما أزالوه من روائع تدل على عظمة التراث المعمارى لقاهرة الماضى.

وبديهى، من الكلام الذى سنقرؤه، أن الفرنسيين لم يكن لهم إلا هدف واحد، هو حماية القوات المحتلة المستعمرة، وتأمين حياتهم من غضب الأهالى، من هذا المنطلق، كان ما بنوه لأغراضهم الدفاعية. وقد أهمل، كل من قرأ الجبرتى، هذه الصفحات على أهميتها لما تفضح من تخريب للقاهرة أثناء الوجود الفرنسى، كما أهمل ما قيل فى أول الكتاب عن سرقتهم لكل الكتب القيمة الموجودة بالقاهرة. لذا رأينا أهمية عرضها على القارئ، مادمنا نحاول معرفة ما خفى أو أخفى عن الحملة الفرنسية على مصر.

يقول الجبرتي :

«وانقضت هذه السنة بحوادثها وما حصل فيها، فمنها توالى الهدم والخراب وتغيير المعالم وتنويع المظالم، وعم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي؛ فهدموا تلك الاخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة وجامع الجنبلاطية العظيم بباب النصر وما كان به من القباب العظام المعقودة من الحجر المنحوت المربعة الاركان الشبيهة بالأهرام والمنارة العظيمة ذات الهلالين. واتصل هدم خارج باب النصر بخارج باب الفتوح وباب القوس إلى باب الحديد حتى بقي ذلك كله خرابا متصلا واحدا، وبقي سور المدينة الأصلى ظاهراً مكشوفا فعمروه ورموا ما تشعث منه وأوصلوا بعضه ببعض بالبناء، ورفعوا بنيانه في العلو وعملوا عند كل باب كرانك وبدنات عظاما وأبوابا داخلة وخارجة وأخشابا مغروسة بالأرض مشبكة بكيفية مخصوصة وركزوا عند كل باب عدة من العسكر مقيمين وملازمين ليلا ونهارا ثم سدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق وأنشأوا عدة قلاع فوق التلال البرقية ورتبوا فيها العساكر وألات الحرب والذخيرة وصهاريج الماء وذلك من حد باب النصر الى باب الوزير وناحية الصوة طولا فمهدوا أعالى التلال وأصلحوا طرقها وجعلوا لها مزالق وانحدارات لسهولة الصعود والهبوط بقياسات وتحريرات هندسية على زوايا قائمة ومنفرجة وبنوا تلك القلاع بمقادير بين أبعادها وهدموا أبنية رأس الصوة حيث الحطابة وباب الوزير تحت القلعة الكبيرة وما بذلك

من المدارس القديمة المشيدة والقبات المرتفعة وهدموا أعالى المدرسة النظامية ومنارتها وكانت فى غاية من الحسن وجعلوها قلعة ونبشوا مابها من القبور فوجدوا الموتى فى توابيت من الخشب فظنوا داخلها دراهم فكسروا بعضها فوجدوا بها عظام الموتى فأنزلوا تلك التوابيت وألقوها إلى خارج، فاجتمع أهل تلك الجهة وحملوها وعملوا لها مشهدا بجمع من الناس ودفنوها داخل التكية المجاورة لباب المدرج وجعلوا تلك المدرسة قلعة أيضا بعد أن هدموا منارتها أيضا وكذلك هدموا مدرسة القانبية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسى وجامع خوند بركة الناصرية خارج باب البرقية، وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها وسدوا الباب وعملوا الجامع الناصرى الملاصق له قلعة بعد أن هدموا منارته وقبابه وسدوا أبواب الميدان من ناحية الرميلة وناحية عرب اليسار وأوصلوا سهور باب القرافة بجامع الزمر وجعلوا ذلك الجامع قلعة وكذلك عدة قلاع متصلة بالمجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة الكبيرة وسدوا عيونها وبواكيها وجعلوها سوراً بذاتها ولم يبقوا منها الا قوصرة واحدة من ناحية الطبى جهة مصر القديمة جعلوها بابا ومسلكا وعليها الكرنك والغفر والعسكر الملازمين الاقامة بها ولقبض المكس من الخارج والداخل وسدوا الجهة المسلوكة من ناحية قنطرة السد بحاجز خشب مقفص وعليه باب بقفل مقفص أيضا وعليه خرسنجية ملازمون القيام عليه وذلك حيث سواقى المجراة التى كانت تنقل الماء إلى القلعة وحفروا خلف ذلك خندقا.

وأما ما أنشأوه وعمروه من الابراج والقلاع والحصون بناحية ثغر الاسكندرية ورشيد ودمياط وبلاد الصعيد فشيء كثير جدا وذلك كله في زمن قليل.

ومنها تخريب دور الازبكية وردم رصيفاتها بالاتربة وتبديل اوضاعها وهدم خطة قنطرة الموسكي وما جاورها من اول القنطرة المقابلة للحمام إلى البوابة المعروفة بالعتبة الزرقاء حيث جامع أزبك وما كان في ضمن ذلك من الدور والحوانيت والوكائل وكوم الشيخ سلامة فيسلك المار من على القنطرة فى رحبة متسعة تنتهى الى رحبة الجامع الازبكى وهدموا بيت الصابونجي ووصلوه بجسر عريض ممتد ممهد حتى ينتهى الى قنطرة الدكة وفى متوسط ذلك الجسر ينعطف جسر آخر إلى جهة اليسار عند بيت الالفى حيث سكن سارى عسكر ممتد ذلك الجسر إلى قنطرة المغربي ومنها يمتد إلى بولاق على خط مستقيم إلى ساحل البحر حيث موردة التبن والشون وزرعوا بحافتيه السيسبان والأشجار وكذلك برصيفات الأزبكية وهدموا المسجد المجاور لقنطرة الدكة مع ما جاوره من الابنية والغيطان وعملوا هناك بوابة وكرنكا وعسكراً ملازمين الاقامة والوقوف ليلاً ونهاراً وذلك عند مسكن بليار قائمقام وهى دار جرجس الجوهرى وما جاوره وكان فى عزمهم ايصال ما انتهوا إلى هدمه بقنطرة الموسكى إلى سور باب البرقية ويهدمون من حد حمام الموسكى حتى يتصل المهدوم بناحية الاشرفية ثم إلى خان الخليلى إلى اسطبل الطارمة المعروفة الآن بالشنوانى إلى ناحية كفر الطماعين إلى البرقية ويجعلون ذلك طريقاً واحدا متسعا وبحافتيه الحوانيت والخانات وبها أعمدة وأشجار وتكاعيب وتعاريش وبساتين من أولها إلى آخرها

من حد باب البرقية إلى بولاق فلما انتهوا فى الهدم إلى قنطرة الموسكى تركوا الهدم ونادوا بالمهلة ثلاثة أشهر وشرعوا فى أبنية حوائط بحافتى القنطرة ومعاطف ومزالق إلى حارة الافرنج وحارة النباقة وذلك بالحجر النحت المتقن الوضع وكذلك عمروا قناطر الخليج المتهدمة داخل مصر وخارجها على ذلك الشكل مثل قنطرة السد والقنطرة التى بين أراضى الناصرية وطريق مصر القديمة وقنطرة الليمون وقنطرة قد بدار وقنطرة الأوز وغير ذلك ثم فاجأهم حادث الطاعون ووصول القادمين فتركوا ذلك واشتغلوا بأمور التحصين وسيأتى تتمة ذلك ومنها توالى خراب بركة الفيل وخصوصا بيوت الامراء التى كانت بها وأخذوا اخشابها لعمارة القلاع ووقود النيران والبيع وكذلك ما كان بها من الرصاص والحديد والرخام وكانت هذه البركة من جملة محاسن مصر وفيها يقول ابو سعيد الاندلسى وقد ذكر القاهرة وأعجبنى فى ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل ويسرج أصحاب المناظر على قدر هممهم وقدرتهم فيكون بذلك لها منظر عجيب..

وتخرب ايضا جامع الرويعى وجعلوه خمارة وبعض جامع عثمان كتخدا القزد على الذى بالقرب من رصيف الخشاب وجامع خير بك حديد الذى بدرب الحمام بقرب بركة الفيل وجامع البنهاوى والطرطوشى والعدوى وهدموا جامع عبدالرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح حتى لم يبق له الا بعض الجدران وجعلوا جامع أزبك سوقا لبيع أقلام المكوس.

ومنها أنهم غيروا معالم المقياس وبدلوا اوضاعه وهدموا قبته العالية والقصر البديع الشاهق والقاعة التى بها عامود المقياس وبنوها على شكل آخر لا بأس به لكنه لم يتم وهى على ذلك باقية الى الآن ورفعوا قاعدة العامود العليا ذراعا وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الاربع قراريط الذراع.

ومنها انهم هدموا مساطب الحوانيت التى بالشوارع ورفعوا احجارها مظهرين ان القصد بذلك توسيع الازقة لمرور العربات الكبيرة التى ينقلون عليها المتاع واحتياجات البناء من الاحجار والجبس والجير وغيره والمعنى الخفى الشافى خوفا من التترس بها عند حدوث الفتن كما تقدم وكانوا وصلوا فى هدم المساطب الى باب زويلة ومن الجهة الاخرى إلى عطفة مرجوش فهدموا مساطب خط قناطر السباع والصليبة ودرب الجماميز وباب سعادة وباب الخلق الى آخر باب الشعرية ولو طال الحال لهدموا مساطب العقادين والغورية والصاغة والنحاسين الى آخر باب النصر وباب الفتوح. فحصل لأرباب الحوانيت غاية الضيق لذلك وصاروا يجلسون فى داخل فجوات الحوانيت مثل الفيران فى الشقوق وبعض الزوايا والجوامع والرباع التى درجها خارج عن سمت حائط البناء لما هدموا درجه وبسطته بقى باب مدخله معلقا فكانوا يتوصدون اليه بدرج من الخشب مصنوع يضعونه وقت الحاجة ويرفعونه بعدها وذلك عمل كثير...» ..

عبدالرحمن الجبرتى

الجزء الثانى

ص ص ٤٣٢ ـ ٤٣٦

ملحق ٣ : «المارسييز»

عندما أعلنت الدولة أن «الوطن فى خطر» فتح باب التطوع وجاء المتطوعون من كل أنحاء فرنسا ، وفى الثلاثين من يوليو سنة ١٧٩٢ وصلت الى باريس كتيبة من خمسمائة من أهل ميناء «مرسيليا» ينشدون ما أصبح ، بعد أقل من ثلاثة أشهر ، نشيد كل من ينتمى الى الثورة ، وهو الذى أصبح فيما بعد ، وحتى يومنا هذا النشيد الوطنى للجمهورية الفرنسية .

ونعتذر لركاكة الترجمة التالية ، والسبب أننا حاولنا ، جاهدين الحفاظ على المعانى الأصلية للكلمات التى وجد فيها شعب ذلك العصر ، أحسن تعبير عن مشاعره .

«نشيد أهل مرسيليا»

«هيا بنى الوطن ، لقد جاء يوم المجد
فقد رفع لواء الطغيان الدامى ضدنا .
أتسمعون زئير الجند الشرسين فى الحقول ،
قادمين لذبح أبنائنا ، ورفيقاتنا ، حتى فى أحضاننا ؟

★★★

الى السلاح يامواطنين نظموا كتائبكم
فلنسر ، فلنسر ، ولندع الدم النجس يروى أخاديدنا !
يا حبنا المقدس للوطن ، قد واسند أذرعتنا المنتقمة !
يا أيتها الحرية ، الحرية الحبيبة، حاربى مع المدافعين عنك !

تحت راياتنا ، النصر يلبى نغماتك الحازمة !
فليرى أعداؤك المحتضرون انتصارك ومجدنا

★★★

سندخل في الدرب عندما يتركه شيوخنا
سنجد فيه رمادهم وآثار فضائلهم !
لا نبغي الحياة بعدهم بل نشاركهم توابيتهم
وسيكون لنا الكبرياء السامى ، أن ننتقم لهم أو أن نسير على خطاهم»

ملحق ٤ : «بلزاك «طبيب الأرياف»
الجزء الأول

قد تكون أوقع صورة لما كانت عليه عقلية جند الحملة ، ما كتبه «بلزاك» فى قصته الشهيرة «طبيب الأرياف» على لسان أحد الجنود ، وهذه الصفحات من أشهر ما كتب فى الأدب الفرنسى ، لواقعيتها ، ولما ترسمه لنا من تقاليد عصرها ، إذ كان الفلاحون يجتمعون أنذاك فى ليالى الشتاء الطويلة ، ويقص كل منهم قصة على الآخرين ، سواء كانت تجربة شخصية أو قصة خيالية ، وفى «طبيب الأرياف» يطلب المجتمعون من جندى سابق فى جيش نابليون ، أن يقص عليهم قصة الامبراطور . وكان الجندى قد عاد الى قريته بعد تسريحه من الجيش فى عهد الملكية التى عادت الى فرنسا بعد هزيمة نابليون ، عاد وذكرياته تحول عهد

نابليون بل ونابليون نفسه الى اسطورة ، يسردها مرارا على جمهور من أقرانه الفلاحين ، مما جعل الجيل الجديد الذى يسمع هذا الكلام الباهر يتشبع بتلك الرؤية الاسطورية لعصر لم يعرف عنه إلا انتصارات وحبا جنونيا كان الجند السابقون يكنونه لمن أسموه «بالعريف الصغير» . وإن كان ثمة شىء يدلنا على عقلية هذا الجيش الذى سافر مع بونابرت الى مصر ، وعاش فيها لينشر مبادىء الثورة والتنوير ، فهى تلك الصفحات التى نترجمها كاملة ليتعرف القارىء على نوعية الجند الذين عاشوا فى مصر لسنوات ثلاث . ولن نأخذ منها ـ نظرا لطولها ـ الا مايصور لنا كيف كانوا يرون نابليون والحملة على مصر .

يقول الجندى بعد أن طلب منه سُمّاره من الفلاحين أن يقص عليهم «قصة الامبراطور» :

«لقد ولد نابليون ـ كما تعرفون يا أصدقائى ـ فى كورسيكا وهى جزيرة فرنسية تدفئها شمس ايطاليا ، حيث يغلى فيها كل شىء وكأنها فى لهب مستمر ، وحيث يقتلون بعضهم البعض ابنا عن أب ، دون أى مناسبة ، فتلك هى حالهم ، ولكى تدركوا غرابة الأمر ، فان أم نابليون التى كانت أجمل نساء عصرها ، كانت فى الوقت نفسه حاذقة أيضا فقد فكرت فى أن تنذره للرب حتى ينجو من كل مخاطر طفولته وحياته ، ذلك لأنها رأت فى المنام أن العالم قد اشتعل فى يوم ميلاده .. كانت نبوءة» .

«وبعد فإنها قد طلبت من الرب أن يحميه ، على أن يعيد نابليون الدين المقدس الذى كان قد وصل فى ذلك الوقت الى الحضيض .. وقد كان» .

«والآن تنبهوا جيدا لما أقوله وخبرونى بالله عليكم إن كان ذلك طبيعيا ؛ من المؤكد ، بل مما لاشك فيه أن الرجل الذى توصل الى عقد مثل هذا الميثاق السرى ، سيكون قادرا هو وحده ، على العبور سالما من خلال صفوف الآخرين ومن البنادق التى كانت تبيدنا كالذباب ، وكل هذا ينحنى احتراما له ، وعندى أنا شخصيا برهان على ذلك رأيته فى معركة إيلوه» .

«إنى مازلت أراه يصعد مرتفعا آخذا منظاره ، وينظر الى المعركة قائلا : «كل شىء على مايرام» ، فاذا بأحد هؤلاء المتملقين ذوى القبعات المريشة ، الذين يضايقونه بصفة دائمة حتى وهو يأكل ، كما قيل لى ، قد ظن من نفسه ذكيا فأخذ مكان الامبراطور عندما رحل . لقد نسف وانتهى الريش» .

«أنتم تعرفون طبعا أن نابليون قد احتفظ بسره لنفسه ، لهذا السبب تساقط كل من كانوا يرافقونه حتى أصدقاؤه المقربون ، كانوا يتساقطون كالذباب «ديروك» «بيسيار» و«لان» رجال أقوياء كأعواد الفولاذ التى كان نابليون يطوعها لخدمته» .

«المهم الدليل على أنه ابن الرب ، إنه وجد ليكون أبا للجنود وأنه لم يُر قط ملازما أو نقيبا . هكذا . أصبح القائد العام مباشرة كان يبدو كأنه لايتعدى الرابعة والعشرين من عمره ، ومع ذلك كان كالقائد العجوز

منذ أن استولى على مدينة «تولون» حيث برهن فيها للآخرين أنهم لايعرفون شيئا عن استخدام المدافع» .

«وفجأة وجدنا هذا النحيف قائدا لجيش ايطاليا ذلك الجيش الذى كان يعانى من نقص فى الخبز ، والذخيرة ، والأحذية والملابس وهو جيش مسكين عار كالديدان» .

« ... وتحقق السلام هل يستطيع بشر أن يفعل ذلك ؟ ، بالطبع لا لقد كان الرب يساعده إن هذا لأمر أكيد» .

«كان نابليون يتضاعـف كما تتضاعف الخبزات الخمس فى الانجيل ، يقود المعركة نهارا ، يعد لها ليلا حتى أن الحراس كانوا يرونه دائما يذهب ويجىء ، لاينام ولا يأكل ، ونتيجة لهذا فقد اتخذوه أبا لهم ، بعدما تعرفوا على معجزاته ، وإلى الأمام» .

«إلا أن الآخرين فى باريس ، عندما رأوا ذلك قالوا هذا شيخ يبدو كأنه يأخذ تعليماته من السماء ، وله قدرة خارقة على الاستيلاء على فرنسا ، يجب أن نطلقه على آسيا وأمريكا لعله يكتفى بذلك» .

«لقد كتب له ذلك مثلما كتب على السيد المسيح ... حدث أنه تلقى أمرا بالتوقف فى مصر وذلك هو التشابه بينه وبين ابن الرب ، وليس ذلك بكل شىء ، فقد جمع صفوة رجاله الذين جعلهم كالشياطين وقال لهم : أصدقائى الآن لقد أعطونا مصر لنمضغها ولكننا سنبتلعها فى فترة وجيزة مثلما فعلنا فى ايطاليا وسيصبح الجنود البسطاء أمراء وسيمتلكون أراضى ، فإلى الأمام . قال الجنود : الى الأمام يا أولاد» .

«وها نحن فى تولون فى الطريق الى مصر حينذاك كانت كل سفن

الانجليز الحربية فى البحر ، ولكن عندما أبحرنا ، قال لنا نابليون : إنهم لن يرونا ويستحسن أن تعلموا منذ هذه اللحظة ، أن قائدكم يمتلك نجمة حظ فى السماء تقودنا وتحمينا» .

«وقد حدث ماقيل بالفعل . وأثناء عبورنا البحر ، استولينا على مالطة مثلما يستولى على برتقالة يروى بها ظمأه للانتصار فقد كان رجلا لايستطيع أن يحيا دون أن يفعل شيئا. حسنا ها نحن فى مصر وهناك الأمر مختلف» .

«وللعلم فإن المصريين بشر اعتادوا منذ أن أصبح العالم عالما ، أن يكون ملوكهم عمالقة ، وجيوشهم فى كثرة النمل ، لأنها بلد الجان والتماسيح حيث بنوا اهرامات كبيرة ، مثل جبالنا ، وقد أوحى اليهم خيالهم بأن يضعوا فيها ملوكهم ، ليحتفظوا بهم طازجين ، فهذا الأمر «كان يروق لهم» .

«وعند نزولنا قال لنا العريف الصغير «نابليون» : يا أولادى إن البلاد التى ستغزونها لديها عدة آلهة يجب أن تحترموها لأن الفرنسى لابد أن يكون صديقا للجميع ، وأن يهزم الناس دون أن يكدرهم ، ضعوا فى عقولكم ألا تلمسوا شيئا لأننا سنحصل على كل شىء فى النهاية هيا تقدموا فالأمر على مايرام» .

«حسنا . أما هؤلاء القوم ، فقد تنبأوا بحضور نابليون تحت اسم «كبير بونابرديس» وهى كلمة تعنى فى لهجتهم السلطان الذى يطلق النار ، أصبحوا يخافون منه وكأنه الشيطان . عندئذ لجأ سلطان تركيا وآسيا وافريقيا الى السحر ، فأرسل لنا جنيا اسمه «مودى» يُظن أنه

هبط من السماء على حصان أبيض، كان مثــل سيــده لا يتأثــر بالقنابل (...)، لقد كانت سلطات العرب والمماليك هى التى تريد إقناع جندها أن «مودى» يستطيع ان يدفع عنهم الموت أثناء القتال بحجة انه ملاك مبعوث ليحارب نابليون ويسترد خاتم سليمــان، أحـد ممتلكـاتهم التى سرقها القائد على حد قولهم» .

«وعلى الرغم من ذلك، فقد جعلناهم يجزون على أسنانهم . بالله عليكم، خبرونى، من أين علموا بعهد نابليون السرى؟ هل كان ذلك أمرا طبيعياً؟ لقد كان من المؤكد في ذهنهم ان نابليون يقود الشياطين وينتقل كالعصفور فى لمح البصر من مكان إلى آخر، وقد كان فى واقع الأمر موجودا فى كل مكان . وأخيراً، جاء ليخطف منهم ملكة كانت كالبدر فى جماله، قدم لها كل الكنوز وماساً كبيراً فى حجم بيض الحمام . بينما رفض المملوك الذى كانت زوجته، مع ان له غيرها، رفض هذه الصفقة رفضاً باتاً . وفى هذه الحالة، لم تكن الأمور لتستتب إلا بعد معارك كثيرة» .

«وهذا بالفعل ما حدث . فقد أصبح الضرب للجميع . عندئذ، اصطففنا فى الإسكندرية والجيزة وأمام الأهرامات . واضطررنا الى السير تحت أشعة الشمس وعلى الرمال، حيث كان هناك بعض اشخاص مستعدين لرؤية تخيلات، فقد كانوا يرون مياهاً لا نستطيع الشرب منها، وظلالاً تجعلنا نتصبب عرقاً . ولكننا التهمنا المماليك كعادتنا دائماً، وكان الكل يرضخ لإرادة نابليون الذى غزا أعالى مصر وأسفلها، وكذلك بلاد العرب حتى وصل فى النهاية إلى عواصم الممالك

التى لم يعد لها وجود، حيث توجد آلاف التماثيل، وخمسمائة عفريت، ثم كان هناك شئ غريب . وعدد لا حصر له من الأبراص . بلد رائع حيث يستطيع كل إنسان أخذ بعض القراريط من أرضها اذا أسعده ذلك . بينما كان نابليون مهتماً بالشئون الداخلية حيث كان يريد إنجاز أشياء رائعة، أحرق له الإنجليز أسطوله فى معركة أبو قير، لأنهم لم يكونوا يعرفون ماذا يخترعون لإعاقتنا . لكن نابليون، الذى كان يحظى باحترام الشرق والغرب، والذى كان البابا يدعوه بابنه، وابن عم «ماهوميه» يدعوه بوالده العزيز، كان نابليون يريد ان ينتقم من إنجلترا ويأخذ منهم الهند بدلاً من أسطوله . كان على وشك ان يقودنا الى آسيا عن طريق البحر الأحمر فى بلاد لا يوجد بها إلا الماس والذهب، وذلك حتى يدفع مرتبات الجنود، وحيث توجد قصور يستريح فيها . عندئذ، كان مودى يدبر أمره مع الطاعون، فبعث به الينا ليوقف إنتصاراتنا» .

«انتباه ! عندئذ صار الجميع فى هذا الغرض الذى لا يرجع منه أحد مترجلاً . لم يستطع الجندى ان يأخذ عكا حيث دخلنا ثلاث مرات بعناد حربى شجاع . ولكن الطاعون كان الأقوى، ولم يكن هناك وقت لنقول : «يا صديقى العزيز !» . كان المرض قد اشتد على الكل . وكان نابليون وحده نديا كالوردة، ورآه كل الجيش وهو يتجرع الطاعون دون ان يؤثر ذلك عليه» .

«وبعد ! أتظنون يا أصدقائى ان ذلك كان طبيعيا؟ عندما عرف المماليك ان كلنا فى عربات الإسعاف، أرادوا ان يقطعوا علينا الطريق، ولكن هذه الحماقة لا تجدى مع نابليون» .

«حينئذ، طلب نابليون من شياطينه الذين كانوا يتمتعون بجلد أسمك من غيرهم : هيا نظفوا لى الطريق (...) حينئذ، تقرر ان نعود الى القاهرة مره أخرى حيث قيادتنا العليا» (...) .

«وعلم نابليون بمشكلة فرنسا بعد معركته الشهيرة فى أبوقير، التى انتصر فيها على جيش الأتراك الكبير القوى بجنوده البالغ عددهم خمسة وعشرين ألفا . وقد أغرق فى البحر خلالها، وبفرقة واحده، أكثر من نصفهم، دون أن يفقد أكثر من ثلاثمائة من رجاله. وكانت هذه آخر صاعقة له فى مصر(...) » .

«بلزاك» : «طبيب الأرياف» ص ص ١٦٨ - ١٧٤

★★★

أول ما يلفت النظر، فى هذا النص، هو تأليه نابليون . إذ يشبهه الحاكي مراراً بالسيد المسيح، ومن المعروف أن السيد المسيح، فى فرنسا وباقى الدول المسيحية، إله وليس رسولاً ، كما هو فى الدين الإسلامى . فنابليون، الذى يربطه بالله «عهد سرى» يحميه من كل مكروه، هو نفسه إله يتعامل مع الجان، ويعد جنوده بالمستحيل ويحققه. ونلاحظ أيضا ما يقوله ذلك الجندى عن المصريين والشياطين، وما يفهمه ومالا يفهمه من حقيقة المعركة الدائرة بين الفرنسيين والأتراك والمماليك . ولا نرى في كلامه ماينم عن معرفته هو نفسه ، بمبادىء الثورة ، ناهيك عن التنوير الذى يفتقر اليه عقله بشدة ، فهو جاهل الى أقصى حدود الجهل ، ويؤمن بالشياطين ولايرى الا حقيقة واحدة ، هى أن نابليون وعدهم بالاستيلاء على كل شىء فى مصر ، وهذه هى فى الواقع،

الحقيقة الوحيدة وراء وجود الجيش الفرنسى فى مصر ، مثله فى ذلك مثل أى جيش استعمارى فى أى عصر من العصور ، ولايسعنا بعد قراءة هذه الصفحات الا التساؤل عن كيفية خلق اسطورة الجيش الذى حرر أوربا ، وعلمها - كما سبق أن علم مصر - الحرية والأخوة والمساواة ، وهذا مثل من جنده ؟!

ملحق ٥ : كلوت بك

النص الكامل لسرد كلوت بك أحداث «الحملة الفرنساوية» خير مثال على تأثر الأجيال الجديدة بكتاب «الميموريال»، حيث لا نجد فيما يقصه مؤلفنا إلا ما قاله نابليون نفسه فى أحاديثه المدونة بهذا الكتاب ولا يغيب عن ملاحظتنا أنه لا يتحدث مطلقا عن ثورة القاهرة الأولى، التى قامت أثناء وجود بونابرت، فتثبت ضيق المصريين بهذا الوجود، ورفضهم له.

يقول كلوت بك تحت عنوان «الحملة الفرنساوية» :

«الغرض من هذه الحملة - النزول فى ثغر الاسكندرية - واقعة الاهرام هزيمة - ابى قير - نتائجها - كليبر - الانتصار فى هليوبوليس (عين شمس) - منو - الجلاء - نتائج القمح (القمع) الفرنسى.

١٢- لما وصل بونابرتة إلى مصر ووطأت قدماه ثراها فى أول يوليو سنة ١٧٩٨ كان يتصرف فى شئونها ويقبض على زمام الحكم فيها اثنان من البكوات المصرلية أى المماليك.

أما العلة التى لأجلها الفت حكومة الدركتوار الحملة التى عهدت رأستها الى ذلك القائد الخطير من ٣٦٠٠٠ مقاتل وأنفذتها الى ضفاف النيل لاحتلاله فهى ان المماليك كانوا يتصدون للتجار الفرنسيين بالإحراج والمغارم حتى علت اصواتهم بالشكوى والاستصراخ غير انه كان هناك سبب اشرف مغزى من قصد انزال العقوبات بهؤلاء المعتدين وتصريف السطوات فيهم ردعا لهم عن الافحاش فى المظالم والمغارم وهو ان القوة الإلهية كانت تدفع بالفرنسيين الى التدفق على البلاد الافريقية من غير أن يستطيعوا لها صدا فلم يسعهم الا أن يطاوعوا هذه

القوة القاهرة فلقد جال بخاطر الملك لويس الرابع عشر ان ينفذ اقتراحا رفعه اليه الوزير «لبنتز» للاستيلاء على مصر وطرحت هذه المسألة على بساط البحث والمناقشة فى وزارة (الدوق دى شوازول) فلما عاد بونابرتة من ايطاليا حبذ فكرة «لبنتز» وصفق لها استحسانا معتقدا انها من الاغراض السامية الجديرة بالعمل على تحقيقها وبلغ من تحمسه لتلك الفكرة انه قال ذات يوم فى حديث له: «ان الشهرة لا تكتسب الا فى الشرق» ، ولقد ايقن بصواب هذا الرأى يوم قال له كليبر فى أبى قير: «أيها القائد: انك لكبير كهذه الدنيا» وأدرك أنه لم يخطئ حينما أقبل على بلاد الاهرام يلتمس منها المجد والفخر أى الطلسم الذى يربط بالنوع البشرى كله حظوظ الفطاحل والعبقريين.

على أن نابوليون شرح فى جمل قصيرة الغرض السياسى الذى كان يرمى اليه بتنظيم حملته على مصر فقد قال:

«ان الغرض الاول من حملة الفرنسيين على مصر هو رضخ شوكة الانكليز فى الشرق اذ لا طريق غير وادى النيل للجيش الذى يناط به أداء هذه المهمة الخطيرة بتغيير مجرى الاحوال فى الهند وكان لابد فى اصابة هذا الغرض من حلول مصر محل (سان دومنج) و (الانتيل) والتوفيق بين حرية العناصر السوداء ومصالح صناعاتنا وكان بدهيا أن يفضى الاستيلاء على مصر الى ضياع جميع المستعمرات الانكليزية فى أمريكا والهند وأنه متى أصبح الفرنسيون أصحاب الكلمة العليا فى مرافئ ايطاليا وجزيرة (كورفو) وجزيرة (مالطة) والاسكندرية صار

البحر الابيض المتوسط لا محالة بحيرة فرنسية هذا الحلم اللذيذ لم يتحقق ويا للأسف قط !

وإذا كنت لا أقصد فى هذا المقام الى ايراد تاريخ الفتح الفرنسى لمصر فإنى اقتصر على القول بأن الاسكندرية وقعت فى قبضة الفرنسيين عقب يومين من نزولهم الى البر ولم يقم بونابرتة فى هذا الثغر الا الوقت الكافى لترتيب الحكومة وتنسيق أنظمتها ثم سار من فوره زاحفا على القاهرة وكان مراد بك قد عاهد نفسه على أن يشطر الجيش الفرنسى بصارمه البتار كما نشر البطيخة بالسكين فلما كان الثالث عشر من يوليو حمل بفرسانه على المصريين فلم تلبث شدة حملاته ان تلاشت عند اصطدامها بأركان مربعاتنا المنيعة فلما رأى المماليك ما حل بهم من الفشل والعجز اخذوا يفسرون خططنا الحربية التى لم تكن قبلا معروفة عندهم بقولهم إن مشاتنا كانوا لتلاحمهم وتراكنهم بعضهم الى بعض كالبنيان المشيد يحيط به سياج من الحراب ثم احتفظوا بقواهم كلها رجاء المدافعة شبرا شبرا من مدينة القاهرة فربضوا بين النيل والاهرام يتربصون بنا السوء وزعموا فى لغو كلامهم وحديث خرافتهم أنهم سيشهدون فى هذا المكان انكسار شوكتنا وأفول نجمنا ولكن خاب فألهم وطاش سهمهم لأن واقعة الاهرام جاءت حاسمة بانتصارنا وخذلانهم فإن جيشهم الذى حشدوه بامبابة مؤلفا من ستين ألف مقاتل اشفى على الهلاك والتلف اذا انجلت عن موت عشرة آلاف من المماليك قتلا في ميدان المعركة أو غرقا فى النيل فمعركة ٢١ يوليو أفضت الينا بزمام مدينة القاهرة وبالتالى الخطر المصرى كله من أقصاه إلى أقصاه.

ولكن لم تنقض أيام عشرة على هذا الفوز المبين حتى مر على سواحل أبى قير رسم الدونمة الفرنسية وذهبت ضياعا بتلاشيها النتائج الباهرة التى كان من المنتظر أن يفضى نجاحنا اليها قال نابوليون فى مذكراته (المجلد الثانى): «لقد كان لخذلاننا بواقعة أبى قير تأثير كبير فى شئون مصر بل فى شئون العالم كله فإنه لو قدرت النجاة للدوننمة الفرنسية ولم يدركها ما أصابها لما لقيت الحملة على الشام عقبة ما فى طريقها و لتوافرت الوسائل لنقل مدافع الحصار الى ما وراء الصحراء ولما فشلت الجيوش الفرنسية عند أسوار عكا . أما وقد دمرت تلك الدوننمة ومحى رسمها فقد أقدم الديوان (أى الحكومة العثمانية) على محاربة فرنسا فخسر جيشنا بذلك سندا قويا وتحولت الحال فى مصر إلى نقيضها وانقبض رجاء نابليون فى التوسل بنتائج الحملة على مصر الى تأييد شوكة فرنسا وسلطانها فى الغرب.

ولم يكن فى استطاعة جيشنا بمصر التفكير فى الاحتفاظ بفتوحاته وقد انقطعت المواصلات مع فرنسا على المثال المتقدم وانصرف خاطرها الى ما وقع بها من النكبات والمحن فى ايطاليا والمانيا فلم يسع كليبر الذى كانت قيادة الجيش قد آلت اليه إلا ان يتخذ الوسائل للجلاء عن وادى النيل وان يراعى بذل ما فى الوسع للاحتفاظ بما أصابه من الشرف والمجد على أثر ظفر بونابارته بالاتراك فى أبى قير ذلك الظفر المبين الذى انمحى به عار انكسارنا البحرى فيها وعودته الى فرنسا فقد عقد كليبر مع الاتراك فى العريش اتفاقية تعهد فيها بالجلاء عن القطر المصرى فى ظرف ثلاثة أشهر وأخذ الباب العالى على نفسه أن يقدم

الى الجيش الفرنسى ما يكفى من السفن لنقله بأسلحته وامتعته الى فرنسا ولكن حدث فى نفس الوقت الذى هم الفرنسيون فيه بمغادرة القاهرة أن بعث الاميرال (كيث) الى الجنرال (كليبر) بلاغا ذكر فيه ان انكلترا لا تقبل من الجيش الفرنسى التسليم الا أذا القى السلاح من يده وترك ماله من السفن والذخائر والامتعة فكان جواب كليبر على هذا البلاغ ان نشره على جنوده وذيله بالجملة الآتية موجها فيها الخطاب اليهم: «أيها الجند إن مثل هذه الوقاحة لا جواب عليها الا بالانتصار فتهيأوا للقتال».

وكان على الجيش الفرنسى لكى يبقى محتلا الديار المصرية ان ينازل جيشا مؤلفا من سبعين الف عثمانى وان يدحره ويشتت شمله وهو ما قام به التسعة الالاف من الفرنسيين فى واقعة عين شمس الخالدة الذكرى ولكن بينما كان الجنرال كليبر يطارد فى الشام فلول الجيش العثمانى كان سكان مدينة القاهرة قد ثابوا إلى الثورة وأخذوا يفتكون بالفرنجة من أهلها ويحصرون فى أحد القصور مائه وثمانين فرنسيا نيطت بهم المحافظة على العاصمة المصرية.

ولقد قاوموا يومين متتابعين الحملات الموجهة اليهم من جموع الأهلين الذين كان يؤيدهم نحو الالف من الجند وأشرف أولئك من عندهم لولا أن فصيلة من جيشنا الظافر جاءت فى أنسب الاوقات لنجدتهم وتخليصهم من حرج موقفهم على شن وجود جيوشنا وحضور الجنرال كليبر لم يكونا كافيين لإخماد تلك الفتنة لأن الثائرين لم يفيئوا

الى السكينة ويلتمسوا من القاهرة رحمة بهم الا بعد أن احرقت أحياء برمتها من المدينة وأصبحت خرابا يبابا بعد أن كانت عامرة زاهرة.

ولما اضطر كليبر للاسباب المتقدمة أن يحتفظ بالديار المصرية صرف همته الى توثيق أركان شوكته وإقامة معالم نفوذه وسلطته ومهد له السبيل الى هذه الغاية فوزه على الاتراك فى عين شمس وتخلصه منهم فضلا عن ائتمانه جانب الانكليز الذين روعهم انتصار الفرنسيين فى واقعة (مارانجو) فانصرفوا عن الاهتمام بمصر الى الاشتغال بشئون أوروبا. وتحالف كليبر على الإثر مع مراد بك فآلت اليه بمقتضى هذا التحالف السلطة فى اقاليم الوجه القبلى.. ولكن كليبر لم يلبث بعد استتباب الامر له ثانيا ان اعتدت عليه يد اثيمة إذ سقط قتيلا من يد مجرم نفث فيه العلماء روح التعصب والاعتداء.

لقد كان كليبر القائد الفرنسى الوحيد الذى فى استطاعته الاحتفاظ بمصر لانه كان يؤثر فى نفس الجنود بفضائله النادرة وسمعته الحسنة فيبث فيهم الشجاعة والثقة ولم يوجد بين من عهدت اليهم ازمة الامور فى مصر من هو اهل لإضاعة فتوحاتنا فيها كالقائد الذى خلفه بعد قتله وهو الجنرال (منو).

ولم يكن هذا القائد ممتازا من الوجهة العسكرية بشىء من الاستحقاق والفضل كما لم يكن له من الوجهة الادارية نصيب ما من الدراية والكفاءة. فإنه اغضب كبار الضباط الذين كانوا أوسع منه دراية واجدر منه بالحلول فى مركزه ودأب على السير فى خطة مناقضة للخطة التى رسمها سلفه، دع انه من جهة اخرى لم يرض الاهالى

الوطنيين اذ كان يبهظ كواهلهم بمستحدثاته المستهجنة الغريبة. وكانت اجراءاته العسكرية تستدعي لطيشها وتجردها من الصواب السخرية والهزء حتى ان سواد الجيش كثيراً ما استهجنها واغفل القيام بها، فكان بديهيا ان تضيع مصر من فرنسا على يد مثل هذا القائد.

ولقد أدرك الانكليز حقيقة هذه الحال وايقنوا منها فاحتلوا من فورهم ساحل البحر بجهة أبى قير فى قوة عظيمة وسيروا ستة آلاف من الهنود (السيباى) الى القصير فأخذوها وعززوا قوتهم بجيش آخر من الاتراك فألزموا بهذه الوسائل العسكرية القائد، (منو) الغبى الغافل بتسليم الاسكندرية اليهم ثم بالتأهب لمبارحة الديار المصرية على عجل.

فإنه ما وافت نهاية سبتمبر سنة ١٨٠١ حتى كانت بقايا جيش الحملة الفرنسية تستعد للرحيل من مصر عائدة الى الديار الفرنسية.

وانه لمن الاعمال النافعة اللذيذة تقييد حوادث الفتح الفرنسى لمصر وتدوين النتائج التى افضى اليها ولكن أرانى فى هذا المقام مضطرا الى الاقتصار منها على الحوادث والنتائج ذات الصيغة العامة فأول ان انتصارات الفرنسيين أدت إلى ثل عرش المماليك وتقويض أركان دولتهم وأقامت الدليل الساطع على ضعف هؤلاء المستبدين الغاشمين وهيأت للمصريين الوسائل لتكوين وحدتهم المالية وتوسيع نطاق افقهم فلاح لهم شبح أوروبا من خلال الأعمال والمشروعات البونابرتية وسكنت فورة تعصبهم للدين على غير المؤمنين به. وكان القائد الفرنسى قد خلب

بفعاله الباهرة عقولهم السريعة التأثر بالمؤثرات (١) فإن ما أبداه من الحكمة في تسامحه والمهارة في احترامه ديانة الامة المغلوبة وعاداتها بثا في نفسها الاستعداد لتوثيق الصلة فيما بعد بينها وأوروبا والانصراف نحو المدنية الغربية لتلتمس منها امدادها بالنظم الحديثة لتدبير شئونها.

ولقد كان في الوسع اجراء هذا الاصلاح لو بقي احتلال الفرنسيين لمصر وظلت سلطتهم قائمة فيها، فإن بونابرتة كان قد وضع بالفعل اساسه وانشأ يرفع اركانه بقصدة ايقال القومية العربية المصرية من

---

(١) سيشغل نابليون او السلطان الكبير كما يسميه الشرقيون مركزا ساميا فيما يدون من الحوادث العامة ببلاد المشرق فكثيرا ما سمعت المصريين يذكرونه بعبارات الحماس والاعجاب وحدث انني سافرت سنة ١٨٢٤ الى السويس في مهمة فنزلت في بيت كان نابليون قد نزل به للاستراحة. ولم يكن قد طرأ عليه اقل تغيير حتى الفراش الذى قام فيه فلم أشأ ان يؤتى الى بربر غيره.. وكان صاحب البيت وقت نزولي به صاحبه على عهد ذلك القائد العظيم وكان يخيل لمن يحدث هذا الشيخ الجليل ان نضره الشباب تعاوده كلما اخذ يروى ما رآه أو سمعه عن السلطان الفرنسي، ومن قوله: لم يكن ابو نبرت عدوا للمسلمين إذ كان في استطاعته لو اراد ان يقلب جميع المساجد بسن الابرة ولكنه لم يفعل ذلك فليبق اسمه كبيرا بين أسماء عظماء الرجال، ثم كان يختم كلامه بقوله: ولقد اكدوا لنا انه في ساعة موته هناك على صخرة البحر الكبير التي تمكن اثنى عشر ملكا من ملوك النصارى من ارساله اليها وتكبله بالاغلال فيها بعد ان أسقوه شرابا منوما رأى المقاتلون الذين اجتمعوا حوله روحه وقد وقعت على حد السيف فليسترخ في امان وسلام، وقد نقل ابراهيم باشا الى اللغة التركية تاريخا مختصرا لنابليون ونشر هذا التاريخ بعنوان «تاريخ نابليون الشهير امبراطور فرنسا» ضمن مجموعة عنوانها «دفينة اسرار حكام اوروبا» أى كنز أسرار ملوك أوروبا.

سباتها وبذل فى هذا السبيل ما تيسر له من الجهود التى كانت باكورة ثمارها استحداث الدواوين فى المدائن الكبرى وامهات القرى وهى عبارة عن المجالس البلدية التى ألفت من كبار الشيوخ والاعيان لترجع الحكومة اليها فى معضلات المسائل ومختلف الشئون الخطيرة فكان لايبرم امرا حقيرا او خطيرا الا بعد اطلاعها عليه وابدائها رأيها فيه.

وكان كل مجلس منها يبعث الى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير منهم وهذا الديوان هو الذى كان يمثل القطر المصرى تمثيلا عاما واظهر الفرنسيون نحو هذا الاصلاح وغيره التعضيد والتأييد وعطفوا على مصالح مصر المادية فظهروا ارجاءها من العربان الذين كانوا يعيثون فيها الفساد وتعهدوا بالعناية ترعها الثمينة واحاطوها من جهتى البحرين الابيض المتوسط والاحمر وناحية الصحراء بسياج من الاستحكامات والحصون».

«كلوت بك»: لمحة عامة إلى مصر الجزء الأول ص. ص ٤٨ ـ ٥٥

ملحق ٦: الطهطاوى

«ثم انه يوجد فى مدينة مرسيليا كثير من نصارى مصر والشام الذين خرجوا مع الفرنساوية حين خروجهم من مصر، وهم جميعا يلبسون لبس الفرنسيس، وندر وجود احد من الاسلام الذين خرجوا مع الفرنسيس، فإن منهم من مات، ومنهم من تنصر، والعياذ بالله، خصوصا المماليك، الجورجية والجركسية، والنساء اللواتى اخذهن الفرنسيس صغار السن، وقد وُجدت امرأة عجوز باقية على دينها.

ومن تنصر انسان يقال له عبدالعال، ويقال انه كان ولاه الفرنسيس بمصر (أغاة انكشارية) في ايامهم ، فلما سافروا تبعهم، وبقى على اسلامه نحو خمس عشرة سنة، ثم بعد ذلك تنصر، والعياذ بالله، بسبب الزواج بنصرانية، ثم مات بعد قليل ويقال انه سمع عند موته يقول: اجرني يارسول الله! ولعله ختم له بخير، وعاد الى الاسلام، فقال بلسان الحال:

الحمد لله، الحنيفة ملتي والله ربي، وابن آمنة نبيي .

ولقد رأيت له ولدين وبنتا، اتوا في مصر وهم على دين النصرانية احدهما معلم الآن في مدرسة ابي زعبل.

ومثله ما حكاه لي بعضهم ان سر عسكر المسمى «منو» المتولي في مصر بعد قتل الجنرال «كليبر» (بفتح الكاف وكسر اللام وكسر الباء)، كان اسلم في مصر نفاقا، كما هو الظاهر وتسمى عبدالله وتزوج ببنت شريف من اشراف رشيد فلما خرج الفرنسيس من مصر، واراد الرجوع اخذها معه، فلما وصل رجع إلى النصرانية، وأبدل العمامة (بالبرنيطة) ومكث مع زوجته ، وهي على دينها مدة أيام بينما ولدت، وأراد زوجها أن يعمد ولده على عادة النصارى لينصره أبت الزوجة ذلك وقالت: لا أنصر ولدي أصلا ولا أعرضه للدين الباطل! فقال لها الزوج ان كل الأديان حق، وان مالها واحد وهو عمل الطيب. فلم ترض بذلك أبدا فقال لها ان القرآن ناطق بذلك وانت مسلمة فعليك ان تصدقي بكتاب نبيك. ثم أرسل بإحضار أعلم الافرنج باللغة العربية والبارون دساسي، فإنه هو الذي يعرف يقرأ القرآن وقال لها سليه عن ذلك

فسألته، فأجابها بقوله: انه يوجد فى القرآن قوله تعالى «ان الذين آمنوا، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر، وعمل صالحا فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» فحجها بذلك! فأذنت بمعمودية ولدها، ثم بعد ذلك انتهى الأمر على ما قيل إنها تنصرت، وماتت كافرة.

كل دين ان فاتك الاسلام فمحال ، لأنه أوهام.

ومما رأيته من جملة المصريين في مرسيليا : انسان لابس ايضا كالافرنج، واسمه محمد منطلق اللسان في غير اللغة العربية، فلا يعرف من اللسان العربى الا اليسير، فسألته عن بلده ببر مصر، فأجاب بأنه من مدينة اسيوط من اشرافها، وأن اباه يسمى السيد عبدالرحيم، وهو من أكابر هذه البلدة، وأمه تسمى مسعودة أو قريبا من ذلك الاسم ، وأنه اختطفه الفرنساوية فى حال صغره، ويقول انه باق على اسلامه يعرف من الأمور الدينية الله واحد ومحمد رسوله والله كريم.

ومن العجائب انني بعد كلامه توسمت فيه الخير، وكان على وجهه سمة اشراف اسيوط (ص ٤٢ ، ٤٤) حقيقة ، فإن صح كلامه كان من اولاد سيدى حريز بن سيدى ابى القاسم الطهطاوى وأشراف طهطا من أولاد سيدى يحيى بن القطب الربانى سيدى ابى القاسم، وله ولد ثالث يسمى سيدى على البصير، ذريته أهل جزيرة شندويل، وشهرة ابى القاسم الطهطاوى لا تخفى على من يعرفه، وان لم يذكره سيدى عبدالوهاب الشعرانى فى الطبقات وكثير من الاشراف بالبلاد العثمانية ينتهى نسبهم الى سيدى حريز المتقدم.

ومما رأيته في مرسيليا الملعبة المسماة «السبكتا كل» وأمرها غريب ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لابد من رؤيتها بالعين، ونذكرها في الكلام على «باريس» ومكثنا في هذه البلدة خمسين يوما وتوجهنا إلى باريس.

«الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى»
«تخليص الإبريز في تلخيص باريز»
ص ص ١٢٠ ـ ١٢٢

المراجع العربية والمترجمة

- الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى :
تخليص الإبريز فى تلخيص باريز
القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣

- الإمام الشيخ عبد الله الشرقاوى :
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين
القاهرة، دار الكتب

- الشيخ عبد الرحمن الجبرتى :
تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
بيروت – دار الجيل – ١٩٧٨

- عبد الرحمن الرافعى :
تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر
جزءان – القاهرة، دار المعارف، ١٩٨١

- عبد الرحمن الرافعى :
مصر المجاهدة فى العصر الحديث
الجزء الأول : كفاح الشعب من عهد الحملة الفرنسية إلى ولاية محمد على .
القاهرة – دار الهلال – ١٩٨٩

– ج . كريستوفر هيرولد :
بونابرت فى مصر
ترجمة فؤاد أندراوس
القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر .
– أ. ب. كلوت بك :
لمحة إلى مصر
٣ أجزاء
القاهرة ، دار الموقف العربى، ١٩٨٢.
– د. ليلى عنان :
الحملة الفرنسية ، بين الأسطورة والحقيقة
القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٩٤.
– محمد عبد المعطى بن عبد الغنى بن على الاسحاقى المنوفى:
لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول
القاهرة ، دار الكتب
– السيد موسى الحسينى المازندرانى
تاريخ النقود الإسلامية
الطبعة الثالثة
بيروت ، دار العلوم ، ١٩٨٨
– نقولا ترك :
مذكرات نقولا ترك
القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، ١٩٥٠.

- هنرى لورانس :
الحملة الفرنسية فى مصر - بونابرت والإسلام
ترجمة بشير السباعى
القاهرة ، سينا للنشر .

الفهرس

رقم الايداع : ١٠٧٣٧ / ١٩٩٨
I. S. B . N
977 - 07 -0609- 4

روايات الهلال تقدم

البشمورى

بقلم

سلوى بكر

رئيس مجلس الادارة
مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير
مصطفى نبيل

تصدر ١٥ أكتوبر ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

التغلغل اليهودى فى الادب الامريكى المعاصر

بقلم

د . رمسيس عوض

يصدر ٥ نوفمبر ١٩٩٨

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

قرأنا في الجزء الأول من هذه الدراسة ، كيف كانت ثورة ١٧٨٩ «عصر الأساطير» . وكيف أصبح الجنرال بونابرت أسطورة بفضل عبقريته الإعلامية . وكيف أن حملته علي مصر ، «البلد الأسطوري البعيد» ، أصبحت أيضا أسطورة ، خاصة أن قائدها الشاب - الذي أصبح الإمبراطور نابليون - قد أذل أوربا كلها فيما بعد، وقرأنا كيف أن الأدباء والفنانين أخذوا يمجدون كل ما يخص نابليون ، الإمبراطور ، بإطلاق مسلمات لم يشكك فيها المؤرخون المبهورون بعبقرية أشهر عسكري في تاريخ فرنسا ، حتي يومنا هذا .

ونقرأ في الجزء الذي بين أيدينا الحقائق البشعة لجيش الاحتلال في مصر ، بقلم شهود الحملة العيان، تلك الحقائق التي طمسها كل من رأي في نابليون بونابرت عبقريا معصوماً من الخطأ ، كما سبق أن تجاهلها المؤرخون الاستعماريون بسبب عنصرية واضحة في كتاباتهم ، أدت إلي إطلاق اسم «الحملة الحضارية» علي حملة ، اعترفوا ـ في الوقت نفسه - أنها كانت استعمارية !

وأهم ما يقدمه هذا الجزء للقاريء ، خطابات كليبر ، حاكم مصر ، بعد رحيل بونابرت ، التي يقول فيها صراحة ما ينكره كل من مجد الجيش الفرنسي ، قبل أن ينتهي عصر الإمبراطوريات الاستعمارية . لذا فإن هذا الكتاب يناقش بعد ذلك ، مفهوم الموضوعية العلمية في الغرب ، وما يدعيه الغرب من صدق واحترام للحقيقة ، يفنده موقفهم من الحملة علي مصر ، إذ يصرون ، حتي الآن ، علي اعتبارها حملة تنويرية ، مع اعترافهم بهدفها الاستعماري ، وبالفظائع التي اقترفها جند الحملة في السنوات الثلاث التي قضوها في مصر . فقد أثبت المؤرخون الفرنسيون الجدد زيف أهم أساطير تاريخهم ، وهي ثورة ١٧٨٩ ، وشخصية نابليون بونابرت . ومع ذلك ، فإن إصرارهم علي تمجيد الحملة ، إن دل علي شيء ، فإنما يدل علي تناقض صارخ في منطق ، كان المتوقع أن يكون سويا . كما يدل علي أن القاريء العربي يجب أن يتوخي الحذر بل الريبة أيضا ، إذا تناول قراءة تاريخنا بأقلام قوم ، لا يرون فينا إلا جنسا أدني ، لابد من استعماره بحجة تنويره وتحضيره . ولا تستند الدارسة في رأيها هذا إلا علي «أقوال شهود من أهلها» .